أبو القاسم سعد الله

الحركة الوطنية الجزائرية

1830 - 1900

الجزء الأول

*





الحركة الوطنية الجزائرية

1

الطبعة الأولى

1992

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

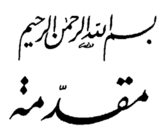
الحركة الوطنية الجزائرية

تأليف
أبو القاسم سعد الله

الجزء الأول

*

دار الغرب الإسلامي



مقدّمة

لهذا الجزء من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية قصة ، فقد صدر الثاني منذ 1969 والثالث منذ 1975 ، ولم يصدر هذا الأول . وإذا كان المنطق يقتضي البدء بالجزء الأول فإن هناك عوامل جعلت سلسلة الحركة الوطنية تخرج على هذا النحو من عدم الانتظام .

من هذه العوامل ان الجزء الثاني (1900 ـ 1930) كان موضوع أطروحتنا للدكتوراه ، ولم نفكر حين أعددناه أن يكون وسطاً بين أول وثـان ، وانما جعلنـاه موضوعاً مستقلاً بذاته . وعندما ترجمت الاطروحة إلى العربية وأخذت في تدريس مادة الحركة الوطنية بالجامعة ، رأيت أن أواصل البحث في نفس الموضوع بإصدار جزء يبدأ من حيث انتهت الاطروحة ، فكان الجزء الثالث (1930 ـ 1945)[1] ، وأن أصدر جزءاً آخر يغطي الفترة التي كانت مدخلاً فقط في الاطروحة (الفصـل الأول منها ـ 1830 ـ 1900) . وبهذه الطريقة ولد الجزء الأول.

وقد ظل تحضير وكتابة الجزء الأول يشغلان فكري منذ أمد طويل ، لسببين : الأول الحاح من اقتنى الثاني والثالث على استكمال الأول ، لأن المنهج والمنطق يقتضيان ذلك . والثاني هو أن البحث قـد هداني إلى أن جـذور الحركـة الوطنيـة الجـزائريـة ترجـع إلى المصادمـات الأولى مع الاحتـلال حين تخلت (ولا نقـول انهـزمت ، لأنها في الحقيقـة لـم تحارب) حكـومـة الـداي حسين عن مسؤوليتهـا الاسلامية والوطنية وتركت الشعب وحده وجهاً لوجه أمام الغزاة الفرنسيين .

ورغـم إيماني بأحقية السببين المذكورين ، فإني قد شغلت عن كتابـة الجزء الأول من الحركة الوطنية بأعمال أخرى ، أهمها تاريخ الجزائر الثقافي الذي صدر منه

---

(1) أنظر مقدمة الجزء الثالث للوقوف على دوافع كتابته .

حتى الآن جزآن . وقد بقيت أتحين الفرصة للشروع في تحرير هذا الجزء من الحركة الوطنية إلى أن وجدتها في صيف سنة 1986 ، فاستطعت بعون اللّه تحرير ثلاثة فصول ونصف منه ، ثم تجمد العمل فيه إلى صيف السنة الموالية (1987) حين استطعت استكمال تحرير الفصول الباقية ، فكانت جملة فصوله سبعة ، تمتد عبر المرحلة التاريخية (من 1830 إلى 1900) ، واستطعت خلال العام المذكور (1987 ـ 1988) أن أنقح وأرقن أربعة فصول ، أما الفصول الثلاثة الباقية منه فقد سافرت بها إلى الخارج لأنقحها خلال صيف 1988 ومن أجل ذلك حملت معها جميع البطاقات المتعلقة بها وبالكتاب كله.

ولكن اللّه قدر أن تضيع مني هذه الفصول الثلاثة التي تغطي المرحلة من (1860 إلى 1900) ، وأن تضيع معها البطاقات جميعاً ، بالاضافة إلى الفصول التي حررتها من تاريخ الجزائر الثقافي (الجزء الثالث) وجميع بطاقات الثالث والرابع من الكتاب الأخير ـ الثقافي[2].

وبذلك أصاب الشلل الجزء الأول من الحركة الوطنية بضياع حوالي نصفه من جهة وضياع جميع بطاقاته من جهة أخرى . وقد بقيت في حيرة من أمري . هل انتظر العثور على المحفظة الضائعة وما فيها من فصول وبطاقات ؟ هل أيأس من المحفظة وأشرع في البحث من جديد لتحرير الفصول الضائعة ؟ ومتى أنتهي من ذلك ، والبحث فيه يحتاج إلى وقت وجهد وتفرغ خاص ؟ وفي أثناء هذه الحيرة ساورني الخوف من ضياع الفصول الأربعة الباقية منه . ومن يضمن حفظها في انتظار العثور على المفقود ؟ وهل العمر ممتد إلى ما لا نهاية ؟ وعندما استولت علي هذه الأفكار فاتحت بها بعض الأصدقاء وحتى بعض الناشرين ، فكان رأيهم انقاذ الفصول الأربعة بنشرها على الناس ، في صورة (قسم أول) . وعندما تنجز الفضول الباقية أو يعثر عليها تضاف إلى الكتاب في صورةِ (قسم ثان) له . وبعد تقليب الأمر على وجهه اقتنعت بوجهة النظر هذه ، وقدمت القسم الأول من الجزء الأول إلى المطبعة . فان أطال اللّه في العمر وجمعت مادة جديدة لقسمه الثاني أو عثرنا على الفصول الضائعة منه أكملنا الشوط ، وان كان غير ذلك، فاننا نكون بهذه الخطوة قد أنقذنا

(2) أنظر تفاصيل ذلك في مقالة (نكبة ثقافية) ، في جريدة الشعب ، عدد 15 سبتمبر 1988 .

على الأقل ما تبقى منه وقدمنا مادة تارخية للقراء نرجو أن تكون مفيدة لهم.

ولا بد لي من القول هنا بأن القارىء قد يلاحظ اختلافاً في طريقة ولهجة معالجة القضايا التاريخية بين الأجزاء الثلاثة من كتاب الحركة الوطنية. والواقع أن لكل جزء منه ظروفاً خاصة لاعداده، سيما وقد كان تحضير كل جزء في ظرف متباعد عن الآخر . وقد شرحت ذلك في مقدمتي الجزئين المطبوعين ، أما هذا الجزء فهو يتناول مرحلة تاريخية مختلفة كثيراً عما بعدها . فإذا كان الجزآن الثاني والثالث يتناولان الحركة الوطنية في صراعها « السياسي » مع المحتلين الفرنسيين فإن الجزء الأول (بقسميه) يعالج الحركة الوطنية في صراعها « العسكري » مع هؤلاء المحتلين . والأمر يختلف اختلافاً جوهرياً . فنحن في الحالة الأولى أمام تنظيمات سياسية وقيادات وصحافة وتأثيرات عالمية الخ . أما في الحالة الثانية فنحن أمام حكم عسكري رهيب إلى سنة 1870 أو حكم مدني متطرف وحاقد جاء في غفلة من أي تدخل خارجي ، وكان مطلق اليدين دون أن تعترض عليه تنظيمات سياسية ولا قيادات ولا صحافة الخ . فكان عهد الاستعمار في شكله العسكري والمدني خلال القرن التاسع عشر صفحة سوداء ملطخة بدماء أطفال ونساء الجزائريين في العوفية وغار الظهرة ونارة والزعاطشة وايشريضان ، دون ذكر الآلاف الذين أكلتهم السجون والمنافي في كورسيكا وسان مرغريت وغويان والمارتنيك الخ . ودون ذكر المحرومين من أراضيهم ومساجدهم وكرامتهم .

ومن الأسف أن تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر ما يزال غير مدروس . فالمؤرخون الفرنسيون أمثال (جوليان ، وايفير ، وآجرون ، . . .) اهتموا « ببطولات » جيشهم ورواد ادارتهم في الجزائر وكذلك تطور الجالية الأوروبية فيها و « انجازات » العهد الاستعماري في ميدان الطرق والزراعة والصناعات ونحو ذلك مما كان يهدف إلى خدمة الدولة الفرنسية واسعاد الجالية الأوروبية . وأما المؤرخون الجزائريون فقد ركزوا حتى الآن على القرن العشرين ، وخصوصاً منذ ظهور التنظيمات السياسية ، وأعطوا اهتماماً كبيراً لمجزرة الثامن من مايو 1945 ، رغم أن مثيلاتها كثيرات في القرن الماضي أيضاً . وهناك من الباحثين من درس جزئيات من هذه المرحلة مثل مقاومة الأمير عبد القادر (التي درست أحسن من غيرها) وعهد أحمد باي ، وثورة بوبلغة ، وثورة 1871 . ولكن دراسة العهد ككل وتتبع مسيرة

الصراع بين الجزائريين والفرنسيين خلاله ، ما تزال في نظرنا مفقودة.

وهذا الجزء من الحركة الوطنية لا يحقق هذا الهدف كله ، ولكنه يقدم أرضية يمكن للباحثين اللاحقين أن يستفيدوا منها وأن ينطلقوا من حيث توقفت . فرغم محاولاتي ، فانني لم أستطع أن ألبي كل ما عزمت عليه في انجاز هذا المشروع . وقد فصلت المجال الثقافي عن هذا الجزء مُنَبِّهاً إلى أني سأعالجه في المشروع الآخر وهو تاريخ الجزائر الثقافي ـ الجزء الثالث ـ (الذي كنت أخطط لاصداره هو وهذا الجزء من الحركة الوطنية في وقت واحد) كما انني سرت فيه كسابقيه ، على منهج واحد وهو الاهتمام بتفاعلات الحركة الوطنية وردود الفعل السياسي والعسكري أكثر من اهتمامي بالجانب الفرنسي . وأود أن أكرر هنا ما كنت قلته في مقدمة الجزء الثاني وهو ان لهجتي قد يراها البعض حادة أحياناً وان عبارتي قد تكون قاسية ، فليقارن القضاة والمحكمون لهجتي وعبارتي بلهجة وعبارة وأفعال الطرف الآخر عندئذ ، وسيلاحظون انني رغم ذلك ، كنت أقاوم نفسي أشد المقاومة حتى لا تجمح بي فأحكم على المحتلين الفرنسيين نفس الحكم الذي أصدوره هم ضد « الاندجين » الجزائريين.

وكمنهج عام ، فانني لم أقتصر على ردود الفعل ، بل ان الاجراءات الادارية الفرنسية في الجزائر ، وحتى التغييرات السياسية في فرنسا نفسها ذكرتها في الكتاب لأننا لا نستطيع فهم ردود الفعل الاّ من خلالها . كما ان التعريف ببعض القادة الفرنسيين داخل في خطة الكتاب . وهناك خط آخر واضح في الكتاب وهو أولاً : تواصل المقاومة وترابطها وهذا يبين انه ليس صحيحاً ان الثورات والانتفاضات كانت منعزلة عن بعضها، رغم صعوبة المواصلات وقلة وسائل الإعلام ورغم البطش الاستعماري . ثانياً : انه من الممكن القول بأنه لولا تعاون بعض المرتزقة الجزائريين مع الجيش الاستعماري والادارة لما نجح الفرنسيون وحدهم في الاحتلال ثالثاً : رغم فرض العزلة على الجزائريين عندئذ ، فقد تبين ان هناك علاقات متواصلة مع المشرق العربي والاسلامي سواء مع حركاته أو مع زعمائه أو مع مذاهبه وأفكاره. ولذلك حاولنا أن نذيل معظم الفصول باظهار العلاقات المذكورة.

وهناك قضية لا بد من التنبيه عليها منذ البداية ، وهي تداخل معلومات التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي أحياناً . فالمؤسسات الدينية والعلماء والطرق الصوفية

وظهور النخبة والمنشآت التعليمية والثقافية كل هذه ستعالج في التاريخ الثقافي . ولكن هناك جوانب منها ، مثل ادعاء العمل الحضاري الفرنسي ، والتشريعات الخاصة بالاعتداء على الأوقاف والمؤسسات الدينية ، ودور الطرق الصوفية العسكري والسياسي ، الخ . قد استحقت منا ادراجها هنا على قدر الحاجة ، مؤجلين التفصيل فيها إلى التاريخ الثقافي ، ان شاء اللّه.

وان كتاباً في هذا الحجم الموضوعي والزمني ، كتب بعد بحث ودراسة وتدريس سنوات طويلة ، لا يمكن ايراد جميع مصادره ومراجعه . يضاف إلى ذلك ان ضياع جميع بطاقات الكتاب قد حرمنا من توثيق عدد من المصادر والمراجع بعد الانتهاء منه ، اذ أن عدداً من البطاقات الضائعة كانت تحمل أسماء مؤلفين وعناوين كتب وأرقام وثائق الخ . وعلى كل حال فقد ارتأينا وضع بعض المصادر والمراجع في آخر كل فصل ، مع ملاحظة أننا حاولنا عدم تكرار المصدر والمرجع الا اذا كان يحتوي على بحث أو مقال ينفرد به الفصل على غيره . كما اننا حاولنا جمع الوثائق والمذكرات والمراسلات والدوريات والصحف والأعمال العامة في أول الكتاب تحت عنوان ملاحظات على المصادر.

والواقع انني غير متفائل بالعثور على الفصول الضائعة من هذا الكتاب ، فإن كانت الأخرى فسنسرع بإلحاق تلك الفصول بأخواتها ، وان تأبد الضياع وانقطع الرجاء فسنبذل الجهد لاعادة الكرة ، وان كانت شاقة مريرة ، لكي نوفي تاريخ الحركة الوطنية حقه ، مؤملين أن يمتد العمر لاكمال الجزء الثالث والشروع في الجزء الرابع الخاص بالثورة المجيدة.

وكثيراً ما سألني السائلون عن سبب عدم كتابة تاريخ الثورة، فكُنْتُ أسارع بالاجابة : ومتى كتبنا تاريخنا الآخر حتى لم يَبْقَ الا تاريخ الثورة ؟ ان تاريخ الجزائر كله ما يزال غير مكتوب . وهذا ما جعلنا نتخبط في التعرف على هويتنا وانتمائنا ، وهذا الذي جعل الغير يجد أرضاً بلا تاريخ مكتوب فأخذ هو يكتب لملء الفراغ ، كما يهوى . وأول المتصدرين لكتابة تاريخ الجزائر في جميع عصوره هم الفرنسيون ، بحكم استعمارهم لبلادنا ومعرفتهم لتفاصيلنا وطمعهم في الابقاء على التأثير علينا والمحافظة علينا في فلكهم . وكل ما نبديه نحو هذه المدرسة الممتدة الجذور والفروع (أعني المدرسة التاريخية الفرنسية التي ابتدأت بكتابات العسكريين

والمستشرقين والكنسيين ثم امتدت عبر كتابات الجامعيين والاكاديميين في جامعة الجزائر ، ثم انتقلت بعد الاستقلال إلى فرنسا نفسها لتبقى على تأثيرها في شبابنا الذين يذهبون إلى هناك لتلقي العلم والتتلمذ) هو المقاومة الشفوية والرفض العاطفي دون تقديم البديل لما تنتج .

وأملنا هو أن تخرج من الجامعة الجزائرية فئة من الباحثين المتمرسين والمسلحين بوسائل العلم والبحث والمقتنعين بضرورة حمل الرسالة ، رسالة كتابة تاريخ الجزائر منذ القديم من وجهة النظر الوطنية ، ولا نعني هنا « الوطنية » الضيقة أو الشوفينية ، ولكننا نعني الكشف عن الذات الجزائرية وتحديد أبعادها وابراز مساهمتها في الحضارة الانسانية عامة والحضارة العربية ـ الاسلامية خاصة . فمتى يتحقق هذا الأمل ؟

الجزائر في 7 ديسمبر ، 1989 .

أبو القاسم سعد الله

ملاحظات عامة حول المصادر

ذكرنا مجموعة من المصادر والمراجع في آخر كل فصل . ولكن هناك نوع من المصادر تعتمد عليه الدراسة في عمومها ولا يمكن تكراره في كل فصل ، ونعني بذلك الوثائق الأرشيفية ، والمجاميع ، والمراسلات ، والدوريات ونحو ذلك .

ولذلك رأينا أن نذكر هنا عناوين هذه المصادر العامة مرة واحدة في الكتاب ، وعلى القارىء أن يلتمسها في مكانها بالهامش في كل فصل ، اذا رغب . وقد صنفناها كما يلي :

1 ـ **الأرشيف** (ايكس) ، خصوصاً الأرقام التالية : 1 H 1 ، 1 H 11 ، 1 H 12 ، 1 H 23 ، 1 I 23 ، 10 H 27 ، 10 H 54 ، 10 H 76 ، 10H 89 ، F 580574 ، F 80/571 ، F 80613 ، F 801732.

2 ـ **المراسلات** ، وخصوصاً :

1 . دمريمون ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، 1927 .

2 . دو روفيقو ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 4 أجزاء ، 1914 ـ 1924 .

3 ـ ديرلون ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 1926 .

4 . فاليه ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، 5 أجزاء ، 1949 ـ 1954 .

5 . فوارول ـ مراسلات ، نشرها غ. ايسكير ، 1924 .

6 . كلوزيل ـ مراسلات ، نشرها ج. ايفير ، جزآن ، 1949 ـ 1950 .

3 ـ **المجاميع** ، وخصوصاً :

1 . **الاكتشاف العلمي للجزائر** ، عمل موسوعي شامل صدر خلال سنوات 1840 ، 1841 ، 1842 ، ثم من1844 إلى 1867 . ويضم 39 مجلداً . وهو يشمل العلوم التاريخية والجغرافية ، والطرق التي سلكها العرب في الجزء الجنوبي من الجزائر وفي ايالة تونس. وأبحاث في الجغرافية والتجارة في الجزائر الجنوبية ،

وأبحاث عن أصول القبائل الرئيسية المهاجرة بافريقية الشمالية وخصوصاً الجزائر ، ودراسات حول بلاد القبائل ، ومذكرات تاريخية وجغرافية حول الجزائر ، وتاريخ افريقية لمحمد الرعيني القيرواني ، وغيرها .

2 . **أوضاع (طابلو) المؤسسات الفرنسية في الجزائر** ، ابتداء من سنة 1838 إلى حوالي 1869 ، في شكل تقارير ومسح سنوي لتطور النشاط الاداري والاقتصادي والعسكري الفرنسي في الجزائر.

4 ـ **الدوريات والجرائد** ، وخصوصاً :

المجلة الافريقية (م إ) - 1856 ، والمونيتور ألجيريان ، (1832) ، والمونيتور يونيفيرسال ، ودورية (روكاي) ـ قسنطينة ، 1855 ، ودورية (نشرة) جمعية وهران (1878) ، والمبشر (1847) ، والأخبار (1839) ، والتايمس (البريطانية) ، وهناك دوريات أخرى عديدة بالعربية والفرنسية والانكليزية .



معاول الغزو

1830 ـ 1837

1. مقدمات :

لا نعرف أن أحداً قارن بين غزو التتار لبغداد وغزو الفرنسيين للجزائر . ويبدو أن المؤرخين السابقين لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه المقارنة ما داموا يعرفون مسبقاً أن التتار شعب متوحش وأن الفرنسيين شعب متحضر ، وهم متأكدون مسبقاً أيضاً أن الشعب المتوحش لا يقوم الاّ بالتخريب وأن الشعب المتحضر لا يقوم الاّ بالبناء . فاذا أضيف إلى ذلك أن التتار قوم قد مضت عليهم القرون ولم يعودوا موجودين بذلك الوصف الاّ في أحداث التاريخ وأن الفرنسيين قوم ما يزالون يعيشون بين الناس يدافعون عن أنفسهم بكل الوسائل بما في ذلك التهديد والتمويه ـ إذا أضيف ذلك إذن عرفنا لماذا لم يعقد المؤرخون تلك المقارنة حتى الآن بين التتار في بغداد والفرنسيين في الجزائر . ونحن أيضاً لن يكون هدفنا عقد هذه المقارنة ، ولكن إذا وجد القراء أوجه شبه بين ما حدث هنا وهناك فنرجو ألا تقشعر جلودهم أو تصفر وجوههم لأن في مسيرة التاريخ كثيراً من التناقض ، بل ان البعض يجعل التاريخ كله عبارة عن عملية ديناميكية للمتناقضات .

لقد قالوا انها حملة عسكرية تأديبية انتقامية ، تؤدي دورها ثم تعود من حيث أتت . سحابة ثم تنقشع ! ولكن « الحملة » استغرقت قرناً وربعاً وكانت تبدو لأصحابها بلا نهاية . والسحابة تحولت إلى ظلمات بعضها فوق بعض وكلما حاولت الشمس أن تخترقها ازدادت عتواً وسوادا . يا للّه ! هل هناك حد للحقد والتعصب والجشع وحب التسلط ؟ ومع ذلك فلم يبق التتار الاّ بضعة أيام ، أما الفرنسيون فقد بقوا أكثر من قرن !

ان طلبة التاريخ الجزائري يحفظون الدرس عن ظهر قلب ، فبعد حصار غير

مجد دام ثلاث سنوات جمع الفرنسيون جيشاً ضخماً (64.000 رجل عند غرينيفيل ، و 37.000 رجل ، حسب جليان) وأسطولاً جراراً (675 سفينة)[1] وأعطوا قيادتهم العليا لوزير الحرب بورمون ، وقيادة الأسطول للأميرال دوبيري . وتقدموا نحو شبه جزيرة سيدي فرج الواقعة غربي مدينة الجزائر ، بعد أن أكدت دراساتهم وخرائط جواسيسهم أن تلك البقعة هي نقطة الضعف في الدفاع الجزائري . وإذا كان الكذب رذيلة في جميع الشرائع وعند الأفراد فهو عند بعض الدول فضيلة . لقد تكلم القادة الفرنسيون عندئذ بأفواه عديدة . قالوا لشعبهم انهم سينتقمون لشرفه المهان فأيد وتحمس ، وقالوا للبابا أنهم سيرفعون الصليب ويخفضون الهلال في الجزائر فبارك ودعا ربه بالنصر ، وقالوا لأوروبا الإقتصادية أنهم سيقضون على القرصنة ويفرضون حرية التجارة فاطمأن قلبها وسال لعابها[2] . وقالوا للجزائريين انهم سيحررونهم من « النير التركي » فصدق بعض المغترين وشلت حركة بعض الغافلين ، ولكن عندما صحا المغترون وأفاق الغافلون كان الذئب قد تمكن من الحمل ، واللص قد سطا على الدار . ولات ساعة مندم !

وفي غضون أيام تحولت الحملة إلى احتلال . وتحول تأديب الداي حسين باشا ، إلى تأديب شعب وأرض ، وأطلقوا منذئذ على هذه العمليات اسماً جديداً هو التهدئة (Pacification) ، وتحول الانتقام من « الترك المستبدين الغرباء » إلى انتقام من صاحب الدار نفسه لأنه عربي ولأنه مسلم ولأنه رفع سلاح المقاومة في وجه الاحتلال ، وأخيراً تحول المحررون إلى غزاة نقلوا حربهم من مدينة الجزائر إلى مختلف أنحاء القطر شرقاً وغرباً وجنوباً . وقد شمل هذا الغزو الإنسان والأرض والثقافة والدين . والمراحل التي مرّ بها هذا الغزو هي فترة القرن والربع التي أشرنا اليها . وهذا ما أسميناه (بمعاول الغزو) . وأمام هذا الغزو المتعدد الرؤوس

---

(1) من الرجال 31.000 خيالة (فنطازية) ، إضافة إلى 2.300 من المدفعيين ، وكذلك 40 مترجماً . أما السفن فمنها 103 سفن حربية من البحرية الملكية ، والباقيات (وهي 572) سفن تجارية من كل نوع وحجم . وكانت الحملة تضم على الأقل 4.546 حصاناً وبغلا.

(2) بارك البابا الحملة على الجزائر ، وباركتها كذلك بعض البلاطات الاوروبية ، ومنها بلاط روسيا ، إذ أن القيصر نيقولا الأول تبرع بأحد رعاياه المختصين في الشؤون الإسلامية ، وهو الضابط الكونت فيلوزولوف Filosolof ليكون ضمن الحملة على الجزائر .

والإتجاهات كانت هناك (جبهات المقاومة) التي امتدت أيضاً عبر نفس الفترة (القرن والربع) ، والتي تشكلت بأشكال مختلفة حسب الجهد والامكانات . وسنحاول في هذا الفصل تتبع المرحلة الأولى من هذا الغزو والمقاومة معاً.

روى جول كامبون الذي حكم الجزائر بين 1891 ـ 1897 أن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت قد عبر له عن امتنان امريكا لقضاء فرنسا على القرصنة في الجزائر سنة 1830 ، لأن الفرنسيين هم الذين خلصوا أمريكا مما لا يليق بها وهو دفع اتاوات إلى قراصنة الجزائر لحماية تجارتها . ونسب كامبون إلى روزفلت أنه قال له « إنكم بالقضاء على هؤلاء القراصنة قد خدمتم كل الأمم المتحضرة » . والجدير بالملاحظة أن كامبون أضاف بأن احتلال فرنسا للجزائر كان في جملته انسانياً عميقاً . رغم اعترافه بالشقاء الذي يرافق الحروب عادة[3] .

ترى أي حضارة وأي انسانية فيما سنعرضه عليك ؟ يقول أحد الكتاب متحدثاً عن صورة الإنسان العربي في نظر الفرنسيين خلال القرن الماضي : كان الإنسان العربي يثير التقزز عندهم « ان اسم العربي يجرح الآذان » فالعرب في نظرهم « غير مؤدبين، غلاظ ، ظلمة ، عنيفون ، غير أوفياء ، وبدون مشاعر[4] » .

وهناك فكرة أخرى مسبقة كانت تطغى على الفرنسيين ، وهي أن العرب الجزائريين كانوا لا يخضعون الا للقوة وأنهم كانوا طيلة تاريخهم تحت رحمة الغزاة ، وأنهم لم يستطيعوا في يوم من الأيام إعلان استقلالهم أو التمكن من طرد غازيهم ، وانما الغازي الجديد هو الذي يطرد الغازي القديم ، وهكذا دواليك . ألم يكتب صاحب هذا المذهب الغريب وفيلسوف الفرنسيين في تزوير تاريخ الجزائريين ، وهو ايميل فيلكس غوتييه ، قائلاً ان « الأهالي لم ينجحوا أبداً في طرد المنتصرين عليهم » . ألم يقل أيضاً أن الاحتلال الأجنبي يلعب دوراً في كل التاريخ حيث يتحول المحتل الأجنبي (الفرنسي طبعاً ؟) بسرعة إلى قائد وطني الاّ في المغرب العربي

---

(3) بعد أن حكم كامبون الجزائر عينته حكومته سفيراً لها في واشنطن ، ومن ثمة هذا الحديث عن روزفلت . أنظر كتابه (حكومة الجزائر العامة) 1891 ـ 1897 ، باريس ، الجزائر ، 1918 ، المقدمة . اما ثيودور روزفلت فقد حكم الولايات المتحدة بين 1901 ـ 1908 .

(4) نقلاً عن (مذكرات شوفالييه دارفيو ، 1735) من المجلة الافريقية ، 1905 ، ص 149 ، والمقالة عنوانها (العرب في الكوميديا والرواية في القرن التاسع عشر) .

(وهو يعني الجزائر بالدرجة الأولى) لأن ذلك لم يقع مطلقاً ، لأن هذا المغرب لم يكن في يوم من الأيام ذا سيادة وإنما اقليماً في امبراطورية ؟(5).

ان خلفية هذا التفكير هي التي جعلت الفرنسيين لا يكتفون بالحملة العسكرية التأديبية الإنتقامية ولا حتى بالإحتلال الدائم الثقيل ، بل تجاوزوا ذلك إلى الحاق الجزائر بفرنسا واعتبارها اقليماً في امبراطورية (كما يقول فيلسوفهم المدعي) وأزاحوا الإنسان العربي من طريقهم في كل مكان ، لأن اسمه ومنظره يثيران التقزز ويصكان الآذان ويؤذيان العيون . ولكن هل حقاً كان العربي هو الذي يثير فيهم ذلك ؟ ان الأحداث تدل على ان الفرنسيين كانوا يكرهون الشعوب الإسلامية عموماً ، باسم التعصب الديني ، وباسم الشوفينية ، وبإسم التعالي الحضاري الزائف . فهم قد بدأوا حملتهم الظاهرة ضد « الترك » ، ثم انفجر حقدهم على « العرب » أيضاً وعلى جميع الشعوب الإسلامية ، كما تثبت أحداث الاستعمار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين والتي مازلنا نشهد آثارها إلى اليوم .

بدأ الفرنسيون اذن بمطاردة الإنسان التركي في الجزائر . وسنعرف ان بعض الجزائريين وقعوا في الفخ وتعاطفوا مع الفرنسيين في ذلك ، وأن بعض الجزائريين نادوا بوحدة الكفاح وتفطنوا للعبة ، وأن بعضهم أيضاً قد أظهر اللامبالاة في البداية واعتقد أن الأمر لا يعنيه أصلا . سنعرف كل ذلك في حينه ، أما الآن فدعنا نروي كيف تصرف الفرنسيون مع الفريق الأول ـ الأتراك ـ.

2. طرد الأتراك :

بعد تقدم الغزاة من سيدي فرج نحو مدينة الجزائر جرت مفاوضات بين الجزائريين أنفسهم ثم بين الجزائريين والفرنسيين . ويهمنا الآن نتيجة المفاوضات الثانية . فقد أرسل حسين باشا ممثليه إلى دي بورمون يستطلع شروطه وغرضه . وكان الوفد الجزائري مؤلفاً من عناصر حضرية وعناصر رسمية اذ نجد من ضمنه : كاتب الباشا ، مصطفى القادري ، وزعيم الحضر عندئذ احمد بوضربة ، والحاج حسن (أحد أبناء حمدان بن عثمان خوجة) . والاتفاق الذي توصل اليه الطرفان

---

(5) غوتييه ، المجلة الافريقية ، 1927 ، ص 66 ـ 67 .

معروف وموقع رسمياً من قبلهما ، وهو الاتفاق الذي ضرب به الفرنسيون عرض الحائط قبل أن يجف حبره . وهي الظاهرة التي سكت عنها كل من جول كامبون وثيودور روزفلت.

وعلى أية حال فالاتفاق ينص ، في أحد بنوده ، على أن يغادر حسين باشا القطر الجزائري إلى جهة أخرى يختارها بنفسه . وتردد الباشا ، فاختار مالطة ولكن يبدو أن العلاقات مع الانكليز جعلته يغيرها إلى ليفورنيا ، ولا ندري لماذا عاد فاختار نابولي بديلاً عنها ، ولكن المؤكد أن الباشا لم يختر مسقط رأسه (أزمير) ولا بلداً اسلامياً آخر، لماذا ؟ هل كان يخشى غضب السلطان عليه ؟ هل كان يشعر بالأمن على حياته في أوروبا أكثر من الشعور بالأمن في بلد اسلامي ؟ هل كان يأمل في استعادة حكمه ؟ ربما . وماذا نتوقع من حاكم باع أرضاً وشعباً وسيادة فأصبح لاجئاً ؟ ومن غريب الأقدار أن هذا الباشا قد مات حتف ظلفه في الاسكندرية ولم يجد سوى بلد اسلامي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة[6] .

---

(6) تذكر الوثائق أن حسين باشا ولد سنة 1764 في مكان يدعى ندرلة ، (وتذكر أخرى أنه ولد سنة 1773 في ازمير) ، ونشأ في اسطانبول . وخدم هناك في المدفعية وترقى فيها بسرعة ، وعندما تعرض لعقوبة قاسية فر إلى الجزائر وانضم إلى أوجاقها ، وتولى فيها عدة وظائف قبل أن يصبح وزيراً وصديقاً للباشا الذي سبقه (وهو علي باشا) ، وهو الذي أوصى بخلافته سنة 1818 . وبعد أن بقي في الحكم اثنى عشر سنة وفي المنفى حوالي ثماني سنوات توفي في الإسكندرية سنة 1838 .
أنظر ستيفان ديستري (تاريخ الجزائر) ط . مدينة تور ، 1851 ، ص 208 . وأيضاً (مذكرات شانغارنييه) .

ومما يذكر أن الباشا اصطحب معه مائة وعشرة أشخاص من المقربين اليه . وأوصى دي بورمون خيراً بهؤلاء : محمود بن عثمان حوجة (وهو ابو زوجته) ، وابن أخيه حمدان بن عثمان ، ومصطفى القادري ، كاتب الباشا الخاص ، ومترجمه حامد بن شلب ، والحاج محمد أمين السكة ، الخ .
أنظر : (احتلال الجزائر من أوراق بورمون) .

ومما يذكر أيضاً ان الباشا قد حملته باخرة فرنسية باسم (جان دارك) في اليوم العاشر من يوليو 1830 . وتذكر المصادر الفرنسية أن السكان قابلوه ببرودة ، وأن أحداً لم يأت لوداعه يوم رحيله ، وأن عينيه فاضت بالدموع عند المغادرة . وبعد أن أقام الباشا فترة قصيرة في نابولي ، انتقل إلى ليفورنيا للإقامة بأهله في منزل تملكه عائلة بكري وبوشناق اليهودية . أنظر عن رحلة الباشا إلى فرنسا سنة 1831 ، كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 ، بيروت 1990 . ومن سخريات القدر أن دي بورمون لم يبق بعده سوى شهر إذ عزل من منصبه ، وغادر الجزائر منفياً أيضاً على باخرة نمساوية بالأجر ولم يودعه أحد من قومه أيضاً .

إنّ المؤرخين غير متفقين في الحكم على شخصية حسين باشا ، فمنهم من يحمله مسؤولية ما حلّ بالجزائر من حملة واحتلال ونكبات ، لأنه أحمق (غضبه غير الدبلوماسي على القنصل الفرنسي) ، ومعاند ، ومهمل (سيما عدم اتخاذ الحيطة عسكرياً واسناد القيادة لغير الاكفاء الخ) . ومنهم من يبرئه من ذلك بناء على أنه بذل قصارى جهده إلى آخر لحظة وانما وجد نفسه مخذولاً من الجيران ومن السلطان ، ومعزولاً من السكان (خصوصاً الحضر الذين سنتحدث عنهم) الذين كانوا ناقمين على تتريك الحكم في الجزائر ونشر الظلم والاستبداد.

ومهما كان الأمر فاننا لا نعتقد أن حسين باشا كان يحس احساساً وطنياً بإنتمائه إلى الجزائر ، كما لا نعتقد أنه كان يحس أحساس الحاكم البطل الذي يقدر دوره في التاريخ ، ولا الحاكم المسلم الذي يفهم بعمق معنى الجهاد . وفي اعتقادنا انه كان « مجرد حاكم » مثل كل الحكام الذين نشاهدهم هذه الأيام في الوطن العربي والاسلامي ، اذ لا يثبتون أمام أية عاصفة سواء كانت داخلية أو خارجية ، ما داموا يعيشون فارغين من القيم الدينية والوطنية والبطولية .

وبعد اخراج حسين باشا جاء دور الترك الأخرين . فكان ترحيلهم يوم 11 يوليو بطريقة تثير الشفقة والحزن . كان عدد الانكشارية في مدينة الجزائر عندئذ حوالي 5.092 من بينهم 891 مدفعياً ، وبين هذا العدد متزوجون وعزاب . ويبدو أن بعض المتزوجين سمح لهم في البداية بالبقاء ، أما بقية الانكشارية فقد حملتهم جماعياً سفن فرنسية إلى آسيا الصغرى (أناضوليا) لأن معظمهم ، كما تقول المبررات ، كانوا قد ولدوا هناك . ويذكر أحد الكتاب الفرنسيين أنهم هم الذين طلبوا ترحيلهم إلى أناضوليا كما يذكر أن بورمون قد قرر لهم أجرة شهرين ليعيشوا منها دون أن يطلبوا هم ذلك منه[7] . وهذا في الظاهر ليس كرماً كبيراً منه ما دامت النقود ستخرج من ميزانية

---

(7) أنظر بول غافاريل ، (الجزائر) ، ص 91 .

وكان الترحيل الأول قد شمل ألفين من الإنكشارية العزاب . وبعد حوالي شهر (أي 16 أوت 1830) سرى قرار الطرد حتى على الأتراك المتزوجين ، فكانت السفن تعج بالنساء والأطفال والجنود ، ولا تسمع الاّ العويل والبكاء لتمزيق العائلات وتشتيت الأقارب . وكان القرار الأخير قد اتخذ من بورمون بعد أن علم عن طريق الوشاة (ومنهم بعض الحضريين واليهود) أن الأتراك الباقين قد فرحوا بهزيمة بورمون في البليدة وأخذوا يروجون الإشاعات عن قرب جلاء الفرنسيين عن =

الجزائر التي استولى عليها . كما تذكر المصادر الفرنسية أن هؤلاء الجنود لم يظهروا أية مقاومة بعد 5 يوليو حتى عندما طلب منهم بورمون وضع أسلحتهم.

3. نوعية الجيش الفرنسي ونهب الخزينة :

وهذا الجيش الذي غزت به فرنسا الجزائر ، من أي الناس هو؟ ان معرفتنا لعناصره وأهدافها ومستواها الثقافي هي التي تفسر لنا تصرفاتها وعلاقاتها بالجزائريين فقد ادعى بعضهم ان الجزائر أصبحت مسرحاً يستعرض عليه الجنود الفرنسيون ، بدون هوادة ، المجد العسكري وحضارة فرنسا[8] . فمن هو هذا الجيش الذي جاء لنشر المجد والحضارة ؟ ان شهادات المعاصرين ، ومنهم اسماعيل اوربان وويلسون ايسترهازي ، تذهب الى أن جنود الحملة الفرنسية كانوا من الفلاحين ، وأنهم كانوا تماماً جهلة . وقد أثبتوا أن عدد المتعلمين في الجزائر كان يفوق عدد المتعلمين في فرنسا عندئذ ، وهي التي بلغت فيها الأمية نسبة 45٪[9].

ويذهب آخرون الى أن هؤلاء الجنود كانوا متحمسين للغزو وقطع البحر لمحاربة الترك وتخليص المسيحيين منهم . وقد استخدمت مختلف الوسائل لاشعال نيران التعصب الديني في هؤلاء الشباب الجهلة ، حتى أنهم كانوا « يهرعون الى الانضمام للحرب ، تماماً كما فعل أجدادهم من قبل أثناء الحروب الصليبية » . ومن أكثر المناطق الفرنسية حماساً واندفاعاً للحرب وممارسة الغزو سكان المناطق الجنوبية الفرنسية التي كانت تحس بالخوف الدائم من الجزائريين ، فكان هؤلاء السكان

الجزائر . وتصور بعض المصادر الفرنسية عملية الترحيل بطريقة إنسانية فتقول أن بورمون قرر خمس فرنكات لكل جندي مدة شهرين ، وأن المفتي بأزمير قد اعترف بالجميل للسلطات الفرنسية على كرمها .

أنظر مثلاً غوستاف غوثرو G. Gautherot (احتلال الجزائر 1830) بناء على أوراق الماريشال بورمون ، باريس 1929 ، ص 182 . أما قطّع الروابط العائلية وعملية الطرد خلال بضع ساعات فقط ، والاستيلاء على أملاك المطرودين ، والتفريق بين الزوج وزوجه ، والزوجة وأهلها ، والآباء والأبناء ، الخ كل ذلك لا تكاد تتعرض له هذه المصادر .

(8) أنظر مقدمة كتاب (الجزائر المصورة Pittoresque) ، تولوز ، 1845 .

(9) ايمريت (الحالة العقلية) في R.H.M.C، 1957 ، ص 207 .

يستقبلون المشاركين في الحملة بتعصب وحماس كما لو كانت الحملة هي مسيرة الخلاص الديني . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان منهم من يأمل في الحصول على تعويضات مادية سواء مما فقده في الماضي أو مما يأتي به المستقبل[10] .

وبالإضافة إلى الجنود النظاميين الذين كانوا على النحو الذي وصفناه اندفع الى الحملة أناس من نوع آخر ، أناس مغامرون بشتى أنواع المغامرة . فهم كانوا بدون مهمة محددة في الجيش ، ولكنهم شاركوا في صنع الحملة وفي آثارها على الجزائريين ، اذ هناك من شطح خياله فاعتقد أن فرنسا قد استيقظت من جديد لتلعب دورها الديني والعسكري ، حتى أن شاتوبريان قال أن فرنسا كلها قد استيقظت على صوت أبواق الحرب فاندفع للتطوع أناس من مختلف القطاعات ، أشباه الجنود ، وقدماء المحاربين في جيش نابليون الأول ، والمتسكعون ورواد مقهى شارتر ودي فان الخ[11] .

أما المدنيون الذين شاركوا في الحملة تحت عناوين مختلفة فستتحدث عنهم بعد قليل ، ويكفي هنا أن نقول ان منهم الأدباء ، والمؤرخين ، والطباعين ، والكتاب ، والصحافيين ، والمحامين ، والرسامين ، والمترجمين . وكان منهم من دفع للجيش أموالاً لكي يسمح له بالمشاركة على أن يدفع له راتب شهري بعد ذلك . وكل منهم كان يعرض خدماته على النحو الذي يقدر عليه . ورغم مشاركتهم وحماسهم فقد اعتبروا من الخياليين وغير المنضبطين[12] . وعندما نزل الجنود الفرنسيون أرض الجزائر وأخذوا يحاربون الجزائريين كان هؤلاء المدنيون يرافقونهم ويختلطون بهم ويقومون بالأمور التي ارتضوها لأنفسهم والتي سنتحدث عنها ، كالرسم ، والكتابة ، والترجمة ، وغيرها . ولكن أكبر هدف أثار طمع الطامعين ونهب الناهبين هو خزينة الدولة الجزائرية .

تذكر المصادر المعاصرة ان خزينة الجزائر كانت تحتوي على ما لا يقل عن خمسين مليون دولار سنة 1830 . وأن الداي علي باشا الذي كان قد نقل مقر الحكم من قصر الجنينة الى أعالي القصبة ، استعمل لنقل محفوظات الخزينة خمسين بغلاً

---

(10) بول غافريل ، ص 61 .

(11) أنظر غبريال ايسكير (بداية الصحافة الجزائرية) في المجلة الافريقية ، 1929 ، ص 255 .

(12) بليفير (جلادة المسيحية) ، ص 281 .

كل ليلة لمدة خمسة عشر يوماً[13] . ويفتخر الفرنسيون بأنهم لم يقوموا بحملة رابحة في أي مكان مثل حملة الجزائر اذ أن الحملات الأخرى كانت تكلفهم ، ولو نجحوا فيها ، أموالاً طائلة وخسائر مالية معتبرة ، بينما حملة الجزائر قد فاضت على تعويض التكاليف.

ان المعروف من دوافع الحملة ان الفرنسيين كانوا يطمعون في خزينة الجزائر التي سمعوا بثرائها ، والتخلص من ديونهم للجزائر التي أصبحت تلح في تسديدها . كما أن الفكرة الرائجة لدى الفرنسيين قبيل الحملة هي أن الجزائر بلد ثري ببضائع القرصنة وتحف الشرق وذهب أفريقية وعبيدها . فكان كثير من المشاركين في الحملة يحلمون بملء الجيوب والبطون والاستثراء من هذه الأرض التي تثير في خيالهم الخوف والسحر معاً.

لقد كثر الحديث والخلاف بين الفرنسيين أنفسهم عما نهبوه من خزينة الجزائر والطريقة التي عالج بها قائدهم بورمون هذا الموضوع ، وقد أشارت أصابع الاتهام حتى اليه هو ، بل حتى الى ملكه شارل العاشر ، ثم الى الملك لويس فيليب . أما ضباطه وجنوده فقد اتهم كل منهم الآخر ، وتدخلت الصحافة والتقارير السرية والعلنية لتلقي الضوء على قضية انتهاب الخزينة . ولكن يبدو أن الجميع متفقون على أن النهب قد وقع ، وأن ما بقي من الخزينة قد استولت عليه قيادة الحملة وضمته الى أموال الدولة الفرنسية لتستعمله في أغراض عدوانية أخرى ضد الجزائريين . (ولو كنت من أصحاب السلطات والصلاحيات لطالبت الفرنسيين اليوم وغداً بمحتويات خزينة بلادي ، سواء أخذوها بحق الغزو أو بحق النهب ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع !) وسنعرف أن النهب لم يكن مقصوراً على الخزينة بل تعداها الى مختلف الميادين في البلاد بعد الاستيلاء عليها.

ومهما كان الأمر فإن المصادر الفرنسية تذكر أن الخزناجي (وزير المالية) في حكومة الداي حسين باشا قد انتظر بورمون عند باب الخزينة ليسلمه مفاتيحها بنفسه[14] . وعندئذ وقع الاستيلاء عليها وعدها ونهبها ، فإذا هي على النحو التالي :

---

(13) نفس المصدر .

(14) أنظر مذكرات شانقا رنييه ـ تعليق ـ . والملاحظ أن اتفاق الجزائر بين الداي وبورمون لم ينص على مصير الخزينة .

قدر الفرنسيون رسمياً قيمة الخزينة : 55.684.527 ف. موزعة على النحو التالي :

ذهب وفضة وجواهر : 48.684.527 ف .

صوف وبضائع أخرى : 3.000.000 ف .

قيمة مدافع أرسلت الى فرنسا : 4.000.000 ف .

أما الحسابات التي أجراها الخاصة (غير الرسمية) للخزينة فقد أثبتت أن قيمتها : 400.000.000 ف[15].

وقد تبادل المسؤولون الفرنسيون عندئذ التهم ، كما أشرنا ، حتى أن بعض مؤرخيهم ادعى أنهم نسوا ما جاؤوا من أجله ، وأخذوا في المناقشات ، وظهرت بينهم الغيرة ، واتهام بعضهم البعض بالسرقة والاستحواذ على الأشياء الثمينة ، ومكثوا في فيلاتهم العربية التي استولوا عليها غصباً ، يكتبون الرسائل لذويهم[16] ويعدّون انتصاراتهم ومنهوباتهم . وسنرى أن نفس الظاهرة حدثت عند الاستيلاء على قسنطينة وغيرها من المدن.

وبينما كان بورمون يحصي أموال الخزانة ويضع في جيبه منها ما حلا له[17] (حسب بعض المصادر) ، كان ضباطه وجنوده منطلقين ، في شره ، يعيثون الفساد في المدينة . فقد دخلوا قصر الباشا في القصبة وانتزعوا البلاد وقشروا الجدران في الغرف بحثاً عن المال المخبأ[18] والكنوز التي قرأوا عنها أو سمعوا بها من كتب ألف ليلة وليلة . وتمتلىء الكتب التي أرخت للحملة بهذه الأوصاف ، ليس فقط بالنسبة لقصر الباشا ، ولكن لمختلف القصور والفيلات والدور التي استولوا عليها ، سواء في مدينة الجزائر أو البليدة أو المدية أو غيرها . وماذا نتوقع من جنود همج ممتلئين حباً

---

(15) غرينفيل تامبل (جولة في البحر الأبيض) ، لندن ، 1835 ، ج1 ، ص 37 . عن تفاصيل ما حدث للخزينة أنظر عمار حمداني (الحقيقة حول الحملة الفرنسية) . 1985 ؟

(16) بول أزان (الإحتلال والتهدئة) ، ص 18 ـ 20 .

(17) مما يذكر أن الديوانة (الجمارك) الفرنسية في مرسيليا فتحت الصندوق الذي كان يضم جثمان ابن بورمون الذي قتل في وهران ، لترى ما اذا كان فيه ذهب أو أشياء ثمينة مهربة من الجزائر . أنظر يوجين بيري (رحلات جزائرية) 1830 ـ 1848 ، بدون تاريخ ، ص 100 ـ 101 .

(18) أنظر تامبل (جولة . .) ، ص 23 .

في المال وحقداً على الدين وأهله ؟ ومع ذلك يقول لنا جول كامبون وثيودور روزفلت وأضرابهما إن الفرنسيين جاؤوا الى الجزائر لنشر الحضارة والمبادىء الإنسانية العميقة !

ولنستمع الى مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر والغيور على شرفه أكثر من اللازم ، وهو بول أزان ، يصف لنا حالة هذا الجيش خلال شهر يوليو سنة 1830 . فقد قال ان الجنود ارتكبوا أعمالاً تخريبية حول مدينةِ الجزائر ، فخربوا الفيلات (الاحواش) وقطعوا أشجار الحدائق ، وخلعوا أعمدة المنازل لإيقاد النار ، وثقبوا أنابيب المياه لملء أوانيهم منها ، وهدموا سواقي المياه لكي يسقوا حيواناتهم ، وتسببوا في تفجير مخزن للبارود ، مما أدى إلى عدة جرحى ، ولم يحافظوا حتى على صحتهم ونظافتهم . وقد كثر المرض فيهم حتى أن المتصرف (دينييه) أعلن يوم 24 يوليو أن المستشفيات قد دخلها ألفان وخمسمائة مريض وأنها لم تعد كافية لاستقبال المرضى ، وبتعبير آخر فقد اشتغل الجنود بالتخريب ولم يكن في حسبانهم أي مشروع للبناء[19] . وواضح من هذا ومن غيره أن عمل الحملة الأول كان نشر الرعب والخراب وليس نشر الحضارة والانسانية .

4. معاملة سكان المدينة :

ان أعيان المدينة الذين رضوا بالتفاوض مع الفرنسيين وألحوا على حسين باشا بعقد اتفاق مع قائد الحملة ، والذين اغتروا منهم ، على الخصوص ، بالكلام المعسول الذي جاء في البيان الذي وزعه الفرنسيون عشية الحملة بهدف التأثير المعنوي على السكان وعزل حسين باشا عن الشعب ، هؤلاء الأعيان قد واجهوا أول صدمة لهم وهم يشاهدون دعاة التحرير وقد أصبحوا هواة تخريب . صحيح أن بعضهم لم يصدق عينيه بعد ، وأن آخرين ما يزالون واقعين تحت أثر الصدمة ، ولكن ما كانوا يشاهدونه ويسمعون عنه ويعانونه كان حقيقة لا خيالاً ، وهي أنه لا حرية ولا أمن ولا كرامة مع هؤلاء الغزاة الشرهين .

---

(19) بول أزان (الإحتلال . . .) ، ص 20 .

يصف (بول غافريل) حالة المدينة وأهلها على هذا النحو فيقول : كانت الدكاكين مغلقة الأبواب ، وكان أصحابها يجلسون أمامها في انتظار ساعة الفرج . أما الجنود الانكشارية فقد تراجعوا لبيوتهم ، ومنهم من ركب البحر ورحل ، وليس هناك جنود في الشوارع . وكانت نظرات السكان مليئة باللامبالاة . وأما اليهود فقد أظهروا اغتباطاً بالاحتلال ، واستغلوا ما تركه الباشا وراءه . فلا توجد مدينة احتلت بهذا الشكل كما احتلت الجزائر[20] . ويقول كاتب آخر عن نشاط اليهود في هذه الأثناء : انهم كانوا يقومون بدفن الموتى بطريقة غريبة ، اذ كانوا يغطون الجثة بغطاء خفيف ويحملها أربعة أشخاص منادين « بالك ! بالك ! » وكانوا أحياناً يدخلون في نقاش حاد وهم على ذلك المنوال . وعندما يصلون بالجثة الى المقبرة كانوا يضعونها في حفرة ويرمون عليها قليلاً من التراب ، ثم يجرون لنقل جثة أخرى ، وهكذا[21] .

ولا شك أن هذا وصف لظاهر الأشياء ، أما ما وراء الظاهر ، فان الناس كانوا على أنواع[22] . فمنهم الخائف الممتعض من رؤية هؤلاء « الخنازير » وهم ينهبون ويعربدون ويتلفون ويمتهنون ويغتصبون . اذ المعروف أن بورمون قد كافأ جنوده بإباحة المدينة لهم والسكوت عن أفعالهم فيها ، بينما كان يحصي نقود الخزينة وينتظر أوامر حكومته فيما سيفعل بعد الحملة . وهناك نوع آخر من الناس شعر أن الخطر محدق لا محالة فخرج من المدينة نحو أقاربه أو نحو ما لديه من الأحواش الريفية .

ولعل هناك نوعاً آخر من الناس فضلوا الاعتكاف في بيوتهم أو في المساجد داعين الله الخلاص والنجاة مما حل بالبلاد من لعنات . حتى أولئك الذين صدقوا ما جاء في بيان الفرنسيين وما جاء في بنود اتفاق الباشا ـ بورمون ، كانوا غير واثقين من

---

(20) بول غافريل ، ص 89 .

(21) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 19 .

(22) اختلفت التقديرات حول عدد سكان القطر الجزائري وسكان العاصمة بالذات ، فسكان القطر قدرهم البعض بعشرة ملايين (حمدان خوجة) ، وقدرتهم احصاءات الفرنسيين الأولية بثلاثة ملايين أو دون ذلك بقليل . أما سكان العاصمة فقد تراوحت التقديرات بين مائة ألف واربعين الفا . وستعرف أن حوالي ربع هؤلاء قد هاجر منها بعد قليل . ويبالغ دي رينو (حوليات الجزائر) 9/1 ، ط 2 ، إذ يذكر الاحصاء التالي : 250 ألف سكان القطر الحزائري كله ، منهم سكان العاصمة حوالي 50 ألف نسمة . ولا شك ان هذه مبالغة في التقليل من عدد السكان وليس في التكثير منهم .

المستقبل وكانت تطلعاتهم في التحرير وتولي وظائف ومسؤوليات الاتراك معلقة على أمل واه . ومن يدري ، فان حديث الناس عندئذ لم يكن عما كان يفعل الفرنسيون في المدينة من نهب وغصب وفساد ، ولكن عن إنسحاب الحاج احمد ، باي قسنطينة ، إلى مقر حكمه وما عساه يخطط لاستعادة الحكم الإسلامي ، وعما سيفعله مصطفى بومزراق ، باي التيطري ، بعد سقوط العاصمة ورحيل حسين باشا ، وعن فلول الجيش الإحتياطي التي انتشرت في متيجة أو عادت مع جيوش البايات الثلاثة (وهران ، التيطري ، قسنطينة) ، وعن تنظيم المقاومة الشعبية اذا ما تحرك الفرنسيون خارج المدينة المحتلة . ان الناس لم يكونوا ، كما تنعتهم الوثائق الفرنسية ، متفرجين على المأساة التي حلت بهم ، ولكنهم كانوا ، أو على الأقل معظمهم ، كانوا يعملون ويفكرون في رفع هذا الكابوس وتغيير المنكر.

5. تنظيمات بورمون :

يزعم الفرنسيون أنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الجزائر ، الا ما قرأه بعضهم في تقارير الجواسيس ورحلات الرحالة الاوروبيين . فلم يكونوا يعرفون لغة أهلها ولا عاداتهم ولا آدابهم ولا نظام الحكم عندهم ولا ميولهم السياسية . حقاً انهم يعرفون بالسماع عن الترك والقرصنة والارقاء المسيحيين والتعصب الديني ونشاط بعض القناصل وتجارة بعض الشركات ، وحتى بعض « الامتيازات » الفرنسية على ساحل الجزائر الشرقي . وهذا الجهل بالسكان والبلاد هو الذي أوقعهم ، حسب هذا الزعم ، فيما لا تحمد عقباه وجعلهم يعانون من التخبط الإداري والفوضى في تثبيت وجودهم والتعسف في أحكامهم . كما جعلهم عرضة للشك والتهجم والرفض من قبل السكان . ومن مظاهر ذلك الجهل ، بناء على هذه الرواية ، هو الترحيل الجماعي « للاتراك » الذين حكموا البلاد ثلاثة قرون ، والذين جربوا الحياة والإدارة في الجزائر ، وكانوا يعرفون عنها الوثائق والسجلات والرسوم ، ومن مظاهره أيضاً الإعتماد على الطامعين والمغامرين ، والركون إلى فئة اليهود التي كانت تبدي الغبطة والتودد نحو المحتلين والتي كانت على صلة منذ القديم باللغات والتجارة والعادات الاوروبية .

ومهما كان الأمر فإن من أوائل ما فعله بورمون هو «تحرير» الأرقاء الفرنسيين المسجونين في الجزائر . وكان الفرنسيون يعتقدون بوجود عدد كبير منهم ، ولكنهم

وجدوا فقط (122) مائة واثنين وعشرين شخصا . وقد « نسوا » أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا مصفّدين في مجاذيف السفن الفرنسية حتى فنيت أعمارهم ويئس ذووهم منهم .

كما أنشأ بورمون نواة للإدارة الفرنسية في الجزائر ، حين كلف لجنة مالية (حكومية) برئاسة المتصرف دينييه وجعل أعضاءها من الفرنسيين والعرب واليهود ، وأبعد منها العناصر التركية . وقد كانت مهمة هذه اللجنة تسيير شؤون المدينة وتوفير الحاجات للجيش والسكان والمحافظة على الأمن والمرافق . وبعبارة أخرى فان اللجنة هي نواة الحكومة الفرنسية العامة بالجزائر التي ستلد بعد توصيات اللجنة الافريقية سنة 1834 ، ومن أعضاء اللجنة المالية البارزين (دوبينيوس) الذي كان مكلفاً بالشرطة ، وهو وظيف جعله على احتكاك أكثر من غيره بالسكان . وكان دوبينيوس من المغامرين الذين قاموا بكل الأدوار المشبوهة تقريباً قبل حلوله بالجزائر. وقد عانى منه أعيان البلاد، سيما وان عبارة «الشرطة» كانت عندئذ تشمل أيضاً العدالة (!؟) ومصالح الضرائب. . . الخ. وهكذا كانت لهذا المغامر صلاحيات الشرطي والقاضي والجابي معاً . ويبدو أنه كان يميل إلى اليهود على الخصوص ، وهو الذي أعطى نفوذا كبيراً لزعيمهم عندئذ ، وهو بكري ؛ وكان الفرنسيون عندئذ يبحثون عمن يتلفظ بكلمات من لغتهم بقطع النظر عما اذا كان كفئاً أو غير كفء مخلصاً أو غير مخلص[23] . وقد أكد (بول غافريل) بأن الشرطة في الجزائر كانت ، على عهد دوبينيوس ، مضرب المثل في الغش والاهمال ، فكثرت السرقات والإحتيالات ، وكان المتضررون بالدرجة الأولى من ذلك هم السكان المسلمين[24] .

أما اللجنة الثانية التي برزت في عهد بورمون فهي اللجنة البلدية . وليس هناك جديد حول وظيفة هذه اللجنة أيضاً . فان وظيفة اللجنة المالية كانت تقوم بها الحكومة المركزية (حكومة الداي) ، أما وظيفة اللجنة البلدية فقد كانت تقوم بها

---

(23) أنظر بول آزان (الاحتلال . .) ، ص 21 .

(24) أنظر كتابه (الجزائر) ، ص 102 .

مما يذكر أن دوبينيوس كتب سلسلة من المقالات وصف فيها (عهده) وتجربته في الجزائر ، أنظر مجلة باريس (R. de Paris) ، أعداد 22 ، 23 ، 24 ، (1831) .

مشيخة المدينة ، وهي عبارة عن مؤسسة البلدية اليوم . ولعل الجديد في هذه اللجنة هو تركيبها ، فقد سمى فيها بورمون أعضاء من أعيان الحضر ومن كبار اليهود وجعل رئاستها لأحد الفرنسيين . وبينما كانت مشيخة المدينة في السابق لا تشمل اليهود ، أصبحت اللجنة الجديدة خليطاً من الفئات الاجتماعية ويلعب فيها اليهود دوراً بارزاً عدداً ونفوذاً . ويزعم البعض ان هذا التصرف من الفرنسيين جعل الجزائريين يبتعدون عنهم ويشكون في نواياهم . ونحن في الواقع نجد صدى ذلك في عرائض الشكوى التي كتبها أعيان مدينة الجزائر عندئذ[25] . ومهما كان الأمر فان أعضاء اللجنة البلدية قد تبدلوا من حين لآخر ، ومن الأسماء التي دخلتها نجد : احمد بوضربة ، وحمدان خوجة ، وابراهيم بن مصطفى باشا[26] . . . وكان كل منهم مكلفاً بمصلحة معينة داخل هذه اللجنة . ولعل بعض الجزائريين الذين قبلوا العمل في هذه اللجنة اعتقدوا أن الفرنسيين قد أخذوا في تنفيذ وعدهم بتحريرهم من الترك وذلك بتوليتهم هذه الوظائف .

وهناك لجنة ثالثة أنشأها أيضاً بورمون ، وهي لجنة دينية ـ مالية تقوم بالسهر على الأوقاف ومواردها ، وقد سموها اللجنة الخيرية للغوث ، وكانت مؤلفة من تسعة أشخاص ، وكانت أيضاً لجنة مختلطة فيها خمسة من الجزائريين ، منهم ، حسب بعض المصادر ، حمدان بن عثمان خوجة[27] ، ومما يلاحظ أن بعض أعضاء هذه اللجنة كانوا أيضاً أعضاء في اللجنة البلدية ، كما نلاحظ أن كلتا اللجنتين (البلدية والخيرية) كانت تحت سلطة اللجنة الأولى ـ الحكومية أو المالية[28] . وسنرى أن لجنة الأوقاف ، كلجنة البلدية ، لم تكن سوى صورة للتمويه وكسب الوقت واسترضاء بعض العناصر الضعيفة التي حسبت أن الغيرة على الوطن تكمن في عضوية احدى اللجان ، وأن الحرية تأتي من التحالف مع الجلادين . وسنرى ان هذا التحالف غير

---

(25) أنظر مثلاً العريضة التي قدمها على لسانهم وبتوقيعاتهم احمد بوضربة ، سنة 1831 ، ارشيف ايكس 1H1 .

(26) أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث) ، ط . 3 ، 1982 ، الفصل الثالث .

(27) أما الأعضاء الأربعة الآخرون فهم : عبد الرحمن اسطانبولي ، ومصطفى السائجي ، واحمد بن شيطاب (كذا) ، ومحمد بن عبد اللطيف .

(28) أنظر (أوراق بورمون) باريس ، 1929 ، نشرها غوستاف غوتيرو (Ghautherot) .

المقدس سرعان ما انفسخ وأن أولئك الأعضاء المغرورين سيساقون إلى المنافي والسجون أو سيجبرون على اختيارات أخرى.

6. بداية الخروج من العاصمة :

كاد الشؤم يرافق هذه الحملة كما رافق الحملات السابقة ضد الجزائر. فالمعروف أسطورياً أن العواصف الهوجاء هي التي أدت إلى الهزائم النكراء التي مني بها جيش الامبراطور شارل الخامس (شارلكان)، وجيش لويس الرابع عشر الذي قاده دوكيني، الخ. حتى أن بعض المؤرخين جعل العاصفة والجوائح الطبيعية تقف وراء كل فشل عسكري أوروبي أمام الجزائر[29]. وكان بعض الخرافيين الاوروبيين يعتقدون أن « الجزائر المحمية » كانت تنصرها ضدهم قوات خارقة لا قبل لهم بها. والغريب أن هذه الصورة لم تكن تغيب عن أهل هذه الحملة أيضاً، خصوصاً وقد عرفنا أن فيهم الجهلة والخرافيين والمندفعين بالحماس الديني الصليبي. فقد ذكر بول غافريل تعليقاً لطيفاً على ذلك حين قال انه في صبيحة اليوم السادس عشر يونيو (جوان)، أي بعد يومين من الانزال على شاطىء سيدي فرج هبت عاصفة كبيرة هددت الاسطول الفرنسي حتى صرخ القوم بأنها عاصفة شارل الخامس! وكاد الاسطول يتمزق كما تمزق أسطوله، ولو دامت الريح فترة أخرى لتفرق هذا الاسطول وحلت الهزيمة، ولكن الريح غيرت اتجاهها وهدأ البحر[30]، فكان ما كان.

ولكن عاصفة من نوع آخر حلت بعد شهر من ذلك اليوم. وكانت العاصفة هذه المرة سياسية وفي فرنسا نفسها. وأي عاصفة أهوج من الانقلاب الذي حدث ضد الملك شارل العاشر الذي كان يحلم بأن الحملة على الجزائر ستجلب اليه رضى الله برضى البابا عليه ورضى الشعب الفرنسي بتحقيق انتصار عسكري ضد القراصنة. فالريح التي هدأت على الشاطىء الجزائري اذن انما انتقلت بكل عنفها إلى الشاطىء الفرنسي، ولم تمزق أسطولاً فقط وانما مزقت ملكاً وحكومة ونظاماً سياسياً. وهكذا كانت الحملة على الجزائر دائماً نذير شؤم على الفرنسيين حتى ولو

---

(29) أنظر تعليقنا ومقدمتنا لكتاب جون وولف (الجزائر وأوروبا) الذي ترجمناه، وصدر سنة 1986 .

(30) غافريل، ص 71

ظنوا انهم نجحوا هذه المرة ! ولكن مؤرخيهم وكتابهم ينسون أو لا يريدون أن يذكروا هذه المقارنة التي تبعث الشعور بالغثيان وتحول حلاوة النصر إلى مرارة الهزيمة .

ولم تكن حملة الجزائر نذير شؤم على شارل العاشر وحكومته ونظامه فقط ، بل كانت أيضاً كذلك على قائدها الجبان[31] ، بورمون ؛ فرغم الانتصار الظاهر الذي حققه بورمون على حسين باشا ، فانه لم يحقق أي انتصار عسكري على الجزائريين ، كما سنرى . ثم ان فرحته بالنصر قد شابتها مرارة العلقم عندما فقد ابنه (اميدي) في وهران ، ثم عندما جاءه قرار العزل من الحكومة الجديدة التي خلفت حكومة شارل العاشر . وأخيراً ذاق بورمون مرارة الإهانة والإحتقار عندما رفض خلفه في القيادة، كلوزيل، أن يسمح له حتى بركوب سفينة فرنسية تحمله إلى منفاه، بإسبانيا . فلم يسعه الا تأجير سفينة نمساوية دفع لها أجرها من حسابه الخاص (من خزانة الجزائر المنهوبة ؟) ثم حمل بورمون قلب ابنه القتيل في علبة بين يديه ، وسافر غير مأسوف عليه من أحد ، حتى من قومه . ترى لماذا لم يعقد الفرنسيون مقارنة « إنسانية » بين رحيل حسين باشا ورحيل الكونت دي بورمون ؟[32] .

وعلى كل حال فلنترك بورمون الآن في نشوة النصر ، يحاول الخروج من القفص الذي فرضه عليه الجزائريون ، فماذا انجز ؟ وأين اتجه ؟ وكيف وجد الإستقبال من الجزائريين ؟

لقد أحس الفرنسيون في مدينة الجزائر بالإختناق الإقتصادي والعزلة السياسية . ذلك أن الجزائريين ضربوا عليهم حصاراً وقاطعوا العاصمة ، فأخذ الخوف والجوع والتذمر يفتك بالجيش الذي كان محاصراً (بالكسر) فأصبح هو المحاصر (بالفتح) . كما ساور التذمر سكان العاصمة من هذا الضيف الثقيل الذي حل بينهم ، فخرج منها القادرون على الخروج وهم الذين كانوا يملكون أحواشاً في سهل

---

(31) ليس هذا الوصف من مخترعاتنا ، بل ان مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر ، بول آزان ، هو الذي ذكر في كتابه (الإحتلال . .) ص 21 أن دي بورمون كان قد فر من الجيش سنة 1815

(32) تذكر المصادر أيضاً أن مما بالغ في إهانة بورمون ان بلدية طولون كانت قد خصصت فندقاً وجعلته تحت تصرفه أثناء سفره إلى الجزائر ، وعندما عزل من وظيفه ووصل إسبانيا منفياً ، لحقته مذكرة من نفس البلدية تخبره بأن عليه أن يدفع مبلغ ألف وخمسمائة فرنك اجرة الفندق الذي استعمله ! أنظر يوجين بيري Perret (رحلات جزائرية) 1830 ـ 1848 ، بدون تاريخ، باريس ، ص 100 ـ 101 .

متيجة وما حولها . وبقي الآخرون يتململون ويعانون من المقاطعة الإقتصادية ومن التوقعات المزعجة . وفي أثناء ذلك كثرت الإعتداءات على الدور والحرمات ، وارتفعت الأسعار ، وكثرت المضاربات ، وكانت شرطة دوبينيوس تزيد في الغش والإرهاب والفوضى . وعلى كل فإننا سنعود بعد قليل لدراسة أحوال العاصمة على عهدي بورمون وخلفه كلوزيل وانطلاقة المقاومة السياسية.

وأمام هذا الوضع حاول بورمون أن يفك الحصار ويجرب حظه العسكري فخرج على رأس حملة نحو مدينة البليدة الرابضة عند قدمي الأطلس الشامخ . وكان عليه أن يعبر أثناء ذلك أوطاناً (اعراشا) مسكونة بأقوام غيورين على ممتلكاتهم الزراعية وحريمهم ويأنفون من الغريب مهما كان ، فما بالك اذا كان هذا الغريب رومياً (نصرانياً) رافعاً علامة الصليب وراية الإحتلال . وكان على رأس كل وطن من تلك الأوطان شيخ يسيّر أموره ويرعى مصالحه ويحمي ضعفاءه ويوفر حاجاته ، وكان أولئك الشيوخ يدينون بالولاء لسلطة الجزائر المركزية عن طريق شخصية « آغا العرب » أو وزير الحربية في حكومة الداي التي لم يعد لها وجود الآن[33] . ولذلك أحسّ أولئك الشيوخ من جهة بالاستقلال والمسؤولية ومن جهة أخرى بالفراغ السياسي الذي لا يعرفون عواقبه بعد.

كان خروج بورمون نحو البليدة يوم 23 يوليو . وقد تمكن من الوصول اليها ، واعتقد أن الامور سهلة ولكنه فوجىء بهجوم منسق شارك فيه آلاف الجزائريين من سكان البليدة وأوطان متيجة ، وأجبروه على الدفاع عن نفسه ثم الفرار أمامهم مخلفاً وراءه على الأقل خمسة عشر قتيلاً و 43 جريحاً ، بالإضافة إلى خسائر معنوية فادحة[34] . ولعل هذا هو أول هجوم شعبي يواجهه الفرنسيون بعد إحتلال العاصمة . وقد عاد بورمون لاهثاً إلى العاصمة يمسح عرق الصيف ، وعرق الهزيمة والخوف . ولم يفكر أثناء بقية أيامه (حوالي شهر آخر) في الجزائر في معاودة التسرب إلى سهل متيجة وأوطانه واكتفى بارسال قطعتين من الأسطول احداهما نحو عنابة والأخرى نحو وهران .

---

(33) عن هذه الأوطان (الأعراش) أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر . . .) ، الفصل الخامس

(34) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 22

لقد كانت تحركات قنصل فرنسا بتونس قوية ومنسقة مع أجهزة الحملة . وكان الجواسيس والمفاوضون قد تسربوا نحو قسنطينة وعنابة ، محاولين خلق الشقاق وإيجاد الثغرات وعزل سلطات الاقليم الشرقي عن السكان . والمعروف انه كان للفرنسيين مصالح تجارية وحتى عسكرية جهة عنابة (القالة واستورا الخ .) وكانت لهم معرفة بالمنطقة وعادات السكان وحتى ببعض التجار والعملاء . ولكن منذ الحصار الفرنسي (1827) ضربت تلك المصالح وتقلص النفوذ الفرنسي هناك . ومع ذلك فإن صلة الفرنسيين القديمة بالمنطقة لم تكن خافية على بورمون وضباطه ومستشاريه . ومن ثمة لا نستغرب أن يحاول الفرنسيون ، بعد احتلال العاصمة مباشرة ، احتلال عنابة . وبالاضافة إلى ذلك فعنابة كانت تمثل نقطة استراتيجية هامة على البحر الأبيض ، فهي الميناء الرئيسي لاقليم قسنطينة الذي ما يزال حاكمه (الحاج أحمد) رافضاً للاحتلال ورافعاً راية المقاومة . وهي أيضاً قاب قوسين من تونس التي يبدو أن تحركات الفرنسيين فيها كانت قوية . ثم ان عنابة هي بوابة الجزائر على شرقي البحر الأبيض وخصوصاً مضيق صقلية - تونس الذي قد تحاول السلطات العثمانية الدخول منه بأسطولها نحو الجزائر وضرب قواعد الحملة الفرنسية هناك أو على الأقل مساعدة الثائرين ضدها ، كما سنرى.

من أجل ذلك كله حاول بورمون الاستيلاء على عنابة بتاريخ الثاني من أغسطس 1830 ، أي أقل من شهر بعد احتلال الجزائر . وكان (دامريمون) هو الذي قاد هذه الحملة ضد عنابة من البحر . ويبدو أن هذا الضابط (دامريمون) كان مكتوب له سوء الطالع شخصياً في الجزائر أيضاً ، لأنه بعد هذه الحملة الفاشلة سيقود حملة أخرى ضد قسنطينة سنة 1837 تكون فيها نهايته الدموية . وعلى كل حال فإن سكان عنابة ونواحيها قاوموا حملة دامريمون بكل شجاعة ووحدة وأجبروها على الانسحاب من مدينتهم يوم الثامن عشر من الشهر المذكور.

أما الحملة الثانية التي وجهها بورمون فقد كانت في اتجاه مدينة وهران والمرسي الكبير . وقد جعل على رأسها ابنه ، أميدي الذي سبقت اليه الاشارة . لقد كانت مدينة وهران حديثة عهد بالحكم الاسلامي العثماني اذ بقيت تحت الحامية العسكرية الاسبانية حوالي قرنين ونصف . ولم يسترجعها منهم الجزائريون نهائياً الا سنة 1791 . وقد أصبحت منذ هذا التاريخ هي قاعدة حكم البايات لاقليم الغرب

الجزائري كله ، بعد أن كانت قاعدة الحكم هي مدينة معسكر (أم العساكر) . فكان الفرنسيون يعرفون الكثير عن مدينة وهران والمرسي الكبير من تقارير قناصلهم ومن السجلات الاسبانية وخرائطها . كما كانوا يعرفون بالخصوص المطامع الاسبانية هناك ، وحتى مطامع سلاطين المغرب الذين لم يكونوا دائماً على علاقات طيبة مع باشوات الجزائر . فاحتلال مدينة وهران والمرسي الكبير يقطع الطريق أمام تلك المطامع من جهة ويعطي لفرنسا فرصة التعرف والتحكم أيضاً في تحركات مضيق جبل طارق . وبالإضافة إلى ذلك فإن الفرنسيين كانوا يعرفون بدون شك ضعف أداة الحكم العثماني في وهران . فالباي حسن بن موسى كان عجوزاً مريضاً في حدود الثمانين سنة ، ولم يكن قادراً على نجدة صديقه حسين باشا الا بخليفته فقط وبعدد غير كبير من الجنود . وكان الباي حسن على علاقات سيئة مع سكان إقليمه ، ولا سيما زعماء الطرق الصوفية منهم ، حيث حدثت ثورات عديدة في إقليمه بقيادة الدرقاوة والتجانية . فكان يعيش في خوف دائم من ثورات جديدة ، وآخر ذلك الخوف كان من الطريقة القادرية ممثلة في شيخها محيي الدين بن مصطفى ، والد الأمير عبد القادر الذي سيكون له شأن عظيم في تاريخ المقاومة الوطنية .

واذن فإن هذه الخلفية السياسية والاستراتيجية لم تكن خافية على بورمون ومستشاريه في الجزائر فقد جرت مفاوضات بين الفرنسيين والباي حسن وعرفوا من خلالها أنه عاجز عن الحركة وأنه محاصر من قبل السكان وأنه في عزلة تامة ، وقد حصل بينه وبين الفرنسيين اتفاق يضمنون له فيه سلامة شخصه واختيار منفاه وحمله إلى ذلك المنفى على إحدى سفنهم مع ضمانات مادية مناسبة . ولكن بعد تسليم مفاتيح المدينة إلى الفرنسيين[35] . ومهما كان الأمر فان فرقة فرنسية جاءت يوم 13 من اغسطس واحتلت المرسي الكبير وحصون مدينة وهران ، ولكن مقاومة السكان جعلت الحملة تعود منهزمة ، رغم أن الفرنسيين يقولون إنهم هم الذين تخلوا عنها ،

---

(35) يقولون عنه إنه كان عازفاً عن السلطة ، لكبر سنه ، وكان كثير الثروات ، ولم يطلب سوى العيش في أمان . وقد عبر للفرنسيين عن استعداده للتنازل عن كل وظائفه والذهاب إلى آسيا لقضاء بقية أيامه . وقد ركب البحر إلى الجزائر حيث بقي إلى ما بعد مغادرة كلوزيل لها (أي بعد فبراير 1831) . وبعد ذلك توجه إلى الاسكندرية ومنها إلى مكة المكرمة حيث توفي . ولو كان الباي حسن والداي حسين وأضرابهما من الجزائريين الغيورين على أرضهم ووطنهم لما تخلوا بسهولة للعدو عن مناصبهم القيادية والتي ترمز للسيادة . أنظر ديرينو ، ج 1 ، ص 158 وما بعدها ، ط 2 .

ومن سوء طالع هذه الحملة أيضاً أن قائدها ، اميدي بورمون ، ابن القائد الوزير ، قد فقد رأسه في وهران . وهكذا تلقى أبوه بورمون وهو في الجزائر ، بشرى النصر في وهران ممزوجة بنعي ابنه العزيز . فطغى عنده أثر النعي على تأثير البشرى . وظهر عليه الاكتئاب وساءت أحواله النفسية حتى تأثرت بذلك تصرفاته القيادية .

هذه هي حصيلة أعمال بورمون في الجزائر ، احتلال مدينة الجزائر وظهور أمام حصون مدينة وهران (بما فيها المرسي الكبير) وحملتان فاشلتان على البليدة وعنابة . ورغم ذلك فإن عهده قد شهد أول مواجهة بين الفرنسيين والجزائريين ، على المستويين العسكري والمدني ، فإلى جانب المقاومة العسكرية التي عبرت عنها معارك سيدي فرج واسطاويلي والبليدة وعنابة ، هناك المواقف المدنية التي عبر بها سكان مدينتي الجزائر ووهران . ان الشعب الجزائري قد أخذ يحس ربما لأول مرة ، من شرق البلاد إلى غربها أن العدو قد تمكن من احتلال جزء من البلاد هذه المرة ، وأن الحملة الفرنسية لم تكن مثل الحملات السابقة التي تضرب وتعود أدراجها وأن عليه أن يتجاوب وينظم نفسه للمقاومة ، وأن يبحث عن قيادة جديدة بعد أن سقطت القيادة العثمانية المركزية ، كما سقطت القيادة الاقليمية في الغرب . انها لمرحلة صعبة بالنسبة لشعب ظل قروناً لا يشارك في الحكم ولا يمارس الحقوق السياسية ولا يعرف عن العالم الخارجي الا القليل الغامض ، فاذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام أكبر دولة في العالم جيشاً وسلاحاً وعدة وعلماً وتقنية .

لم يتمتع بورمون اذن بانتصاره في الحملة لأن الجزائريين نغصوا عليه اقامته وهزموا جيشه في البليدة وعنابة ، وقتلوا ابنه في وهران ، ولأن حكومته قررت عزله يوم 7 اغسطس . ولكنه لم يعلم بهذا العزل الا يوم 20 منه . وبعد وصول خلفه غادر الجزائر يوم 3 سبتمبر 1830 غير مأسوف عليه لا من الجزائريين الذين أهانهم واعتدى عليهم ولا من قومه الذين حقق لهم بعض الانتصار، فقد غير الفرنسيون، وهو ما يزال في الجزائر ، حتى العلم والنشيد والولاء . وقد ذكرنا أن خلفه كلوزيل ، رفض منحه حتى سفينة فرنسية تحمله إلى اسبانيا. فلم يجد بدأ من استئجار سفينة نمساوية وحمل قلب ابنه في علبة بين يديه والرحيل بمأساته ، تاركاً لخلفائه مأساة أخرى دائمة في الجزائر، اذ أن لكل واحد منهم تقريباً قصة تشبه قصة زميله مع الجزائر .

7. عهد كلوزيل الأول :

ان خليفة بورمون في قيادة الحملة (وما يزال اسمها كذلك) هو الكونت كلوزيل المولود سنة 1772 . فيكون عمره عندما تولى وظيفته في الجزائر حوالي 58 سنة[36] . امتاز عهده بالغطرسة والارتجال والمغامرة والعنف ضد الجزائريين في المدن والأرياف . وعرف عن كلوزيل التبجح والطموح الخيالي ، وحب التسلط والاستعمار . ولعله أراد بذلك أن يكفر عن ذنوبه العسكرية بعد أن حكم عليه (سنة 1816) بالإعدام ولم يسعه إلا الفرار إلى أمريكا . وكأنه بمحاولاته الارتجالية وشطحاته العسكرية أراد أن يبرهن لقومه أن فيه بقية وطنية ، ولكن جيشه نفسه كان يعرف ماضيه فكان لا يحترمه[36م] ولا يحظى بثقته . فكيف باحترام وثقة الجزائريين ؟ ان كلوزيل تولى الجزائر مرتين : الأولى هي هذه والتي بقي أثناءها بضعة شهور فقط (من اغسطس 1830 إلى فبراير 1831) . وقد عزل من جراء تصرفاته العشوائية كما سنرى . والثانية سنة 1835 ولكنه لم يمكث الا سنة ونصفاً ثم عزل من جديد لفشله الذريع في حملة قسنطينة الأولى وهزائمه الأخرى سواء في الميدان العسكري أو في المدني على أيدي الجزائريين.

ودعنا الآن نتتبع تصرفاته العسكرية في مرحلته الأولى أما تصرفاته المدنية فستظهر في حديثنا عن المقاومة المدنية وعن موقفه من المؤسسات الدينية وغيرها . في الإعلان الأول الذي وجهه كلوزيل إلى « سكان مملكة الجزائر » قال لهم كلاماً فيه الوعد والوعيد وفيه السم والعسل ، فهو يطالبهم بمواقف كان الأولى به أن يبرهن هو عليها قبل الحديث عنها ، وكان حقه أن يخجل من نفسه قبل أن يقول لهم أنه « سيحمي دينهم وتقاليدهم وعاداتهم » ومن هو حتى يفعل ذلك ؟ وهل طلب منه

---

(36) Bertrand Clauzel ولد يوم 12 ديسمبر 1772 في ميريوا Mire poix بفرنسا . تولى عدة وظائف في الجيش والسفارة الفرنسية في إسبانيا ، وقيادة الجيش في سان دومينيك ، وأرسل إلى هولندا وإيطاليا ، حكم عليه بالموت عسكرياً سنة 1816 ثم عفي عنه بعد اربع سنوات . (وقد فرّ بعد الحكم عليه إلى امريكا وعاد منها بعد العفو عليه سنة 1820) ، ثم أصبح نائباً في البرلمان ، وتولى القيادة بدل بورمون يوم 7 اوت (اغسطس) 1830 . أصبح ماريشال فرنسا سنة 1831 ، ثم عين مرة اخرى في الجزائر سنة 1835 ، وعزل منها بعد فشله في حملة قسنطينة ، 12 فبراير 1837 . ومات سنة 1843 . أنظر مراسلات كلوزيل ، 1/1 ـ 2 .

(36 م) أنظر بول آزان ، (الإحتلال . . .) ص 29 .

الجزائريون القيام لهم بهذا الدور ؟ وزاد فحذرهم من الاستماع إلى المشوشين الذين يقولون لهم ان فرنسا ستتخلى عنهم وتتركهم لمن كانوا يضطهدونهم قديماً (يعني الأتراك طبعاً) ، وأعلن لهم أنه قد حكم بمعاقبة أولئك المشوشين « عقاباً يعطيهم درساً قاسياً » .[37]. ان من أمثال هؤلاء المشوشين الذين يقصدهم كلوزيل بخطابه : المفتي ابن العنابي ، وحمدان خوجة ، كما سنرى.

وهكذا ظل كلوزيل طيلة الشهور الأولى التي قضاها في الجزائر يهدد ويتوعد ، ويصدر الأوامر والنواهي بدون حساب ، ويتصرف في الجزائر كما لو كانت مزرعة في أمريكا وكما لو كان أهلها من الهنود الحمر . وسنرى ذلك في مجالات أخرى غير عسكرية . أما الجانب العسكري فقد وجد كلوزيل أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي ، منهم 1.800 مريض . أما الباقون فقد عادوا من حيث أتوا بعد أن تبخرت أحلامهم في شمس الجزائر المحرقة ، عادوا وفي أيديهم المسروقات التي قدروا عليها ، غير أنهم لا يسمونها كذلك ، بل يسمونها ، على ألسنة مؤرخيهم ، تحفاً وذكريات وهدايا . عادوا بعد أن أرعبوا السكان وأحرقوا الديار وعاثوا فساداً بدعوى نشر الحضارة في الأرض الافريقية . وقد حاول كلوزيل ترميم جيشه الافريقي[38] ، وبعث الحياة فيه ، خصوصاً بعد هزائمه في عنابة والبليدة . فكان كلوزيل يوزع الأرض المغتصبة على الفرق العسكرية (أربع هكتارات لكل فرقة) لكي تقوم بزراعة الخضر وتربية المواشي بعد أن ضاقوا ذرعاً بوجودهم وذاقوا الجوع والحرمان من جراء مقاطعة الجزائريين لهم.

ومن جهة أخرى أنشأ كلوزيل فرقة مشاة من بعض الجزائريين المرتزقة سماها فرقة (الزواف) ، وذلك في أول اكتوبر 1830 . وكان يطمح إلى تكوين فرقة أخرى من الفرسان ولكن الهروب من الفرقة الأولى جعله يتوقف عن طموحه . وسنرى أنه حاول انشاء فرقة محلية (مليشيا) عند دخوله مدينة المدية . وكان الهدف من وراء

---

(37) نفس المصدر ، وفيه نص البيان وصورة كلوزيل .

(38) هكذا كانوا يسمونه ، وبقيت التسمية كذلك مدة طويلة ، وشاعت كلمة « الافريقي » في عدة استعمالات أخرى ، فكان هناك : قناصة افريقية ، واللجنة الافريقية ، والمطبعة الافريقية وهلم جرا . فكأن الجزائر كلها أصبحت رمزاً لافريقية أو كأن الفرنسيين كانوا يخططون لإحتلال افريقيا كلها من الجزائر .

هذه الفرقة هو التخفيف عن فرنسا من المصاريف العسكرية ، واستعمال تلك الفرق في الاستيلاء على مدن جزائرية أخرى . وفي نفس المهمة أصدر كلوزيل أمره بمنع الجزائريين من حمل السلاح وحكم بعقوبة الموت حتى على من يحاول نقله ، ونفس العقوبة انسحبت على من اعتدى على فرنسي ، مدنياً كان أو عسكرياً ، وكانت الأوامر تشمل أيضاً منع استيراد السلاح من الخارج حتى لا يتسلح به الجزائريون ، ويستعينوا به على المقاومة . وخوفاً من ذلك جعل بنادق الصيد تخضع لاجراءات معقدة(39) .

كان كلوزيل يعرف جيداً أن سلفه (بورمون) قد فشل في وهران وعنابة والبليدة ، وكان يعرف مدى الحصار المضروب على قواته الباقية في مدينة الجزائر ، وشدة التذمر والتوجس الذي كان عليه سكان هذه المدينة نتيجة غلاء المعيشة وسوء المعاملة ، ولذلك عزم على فعل شيء يثبت للجزائريين قوة الفرنسيين ويعيد بعض معنويات الجيش المنهارة . فأما الجزائريون فقد عرفنا كيف وعدهم ومناهم وحذرهم وتوعدهم ، وأما الجيش فقد وجهه نحو البليدة والمدية في حملة ذاق فيها كلوزيل أول كؤوس العلقم التي تجرعها هو ومن جاء بعده في الجزائر على يد المقاومين (المجاهدين) . وقد جعل ذريعته تأديب الذين اجبروا بورمون على الجلاء عن البليدة وتأديب باي التيطري (المدية) ، مصطفى بومزراق ، الذي خلع الولاء الذي كان قد أعلنه لبورمون ، وأعلن استقلاله ، كما تلقب بلقب الباشا الذي كان خاصاً بالدايات(40) .

---

(39) نفس المصدر ، ص 31 .

(40) تولى بو مزراق ولاية اقليم التيطري من 1819 إلى 1830 ، بلقب (الباي) . وكان شجاعاً وحازماً حسب روايات المعاصرين . حصر بنفسه على رأس جيش ولايته معركة اسطاويلي . وبعد هزيمة سيدي خالف (خلف) عينه الباشا قائداً للجيش كله ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أي نصر . وبعد دخول العدو مدينة الجزائر أعلن بومزراق الإلتزام بالاتفاق المبرم بين الباشا وبورمون . وقد أبقاه هذا في مكانه (بايا على التيطري) ، ولكنه سرعان ما أعلن الحرب على العدو بعد معركة البليدة . وادعى بومزراق لقب الباشا لنفسه بعد رحيل الداي حسين وراسل الباي احمد بقسنطينة ودعاه لطاعته . ولكن هذا رفض الاعتراف به وادعى الباشوية لنفسه . وقد حارب بومزراق جيش كلوزيل ايضاً فعزله هذا وعين بدله مصطفى بن الحاج عمر ، وأخذ بومزراق أسيراً إلى الجزائر . ولم يسع بومزراق الا الرضى بالنفي فاختار الاسكندرية حيث مات في تاريخ غير معروف .

أنظر ديبرينو (حوليات الجزائر)، جـ52/1، ط. 2، وهنا وهناك. أنظر أيضاً (مذكرات أحمد =

خرجت حملة كلوزيل من الجزائر في شهر نوفمبر 1830 ، وكانت قيادتها في يد ضابط يـدعى (بواييـه) ، وأبى كلوزيل إلا أن يـرافق الحملة بنفسه . ويقـول المثل : إن الطيور على أشكالها تقع . ذلك أن كلوزيل اختار مترجمه شاباً طائشاً ومغامراً فاتكاً وصعلوكاً مجهول النسب والهوية ، وهو اللقيط يوسف (جوزيف)، الذي ادعى للفرنسيين عندئذ (وما أكثر مدعيهم!) أنه ابن زنى لنابليون الأول ، وأنه هرب من تونس إلى الجزائر بعد أن سمع باستيلاء الفرنسيين عليها . والغريب في الأمر أن هذه الشخصية المغامرة هي التي حملت لواء الشرف الفرنسي في الجزائر عدة عقود وترقت في الجيش الأفريقي حتى وصلت إلى رتبة جنرال[41] ! تحرك الجيش اذن يوم 17 من الشهر المذكـور ودخل البليـدة في 18 منه . وهنـا عبر كلوزيـل عن روح التعصب الديني وروح الانتقام من الجزائريين الذين هزموا بورمون ، فاحتل مسجد البليدة وجعله مستشفى عسكرياً ، وأطلق العنان لجيشه يطارد السكان حيثما كـانوا وتعقبهم حتى دخل غابات الجبال المجاورة . وكان السكـان قد أظهـروا التراجـع قصداً ، كما فعلوا مع سلفه قبل أن ينقضوا على المعتدين . وقد اعتبر كلوزيل ذلك ، فيما يبدو ، نوعاً من الرياضة لجيشه الذي ظل محاصراً ومحروماً من التحـرك عدة شهور (يوليو ـ نوفمبر) . فأطلقه وراء ضحاياه كما تطلق كلاب الصيد وراء صيدها . ومن ثمة لا نستغرب أيضاً أن نجد بول آزان ، مؤرخ هذا الجيش المسعور والفخور به ، يقول ان كلوزيل قد أمر الجيش أيضاً أن يجمع أثناء ذلك الحبوب واللحوم[42] . وممن سيجمع ذلك ؟ طبعاً من منازل المقاومين الذين رفضوا الاحتلال ولجأوا إلى الجبال . وهل هناك اسم آخر للسرقة والغصب غير ذلك ؟ ولكن الفرنسيين يسمون ذلـك غنيمة . ويفتخـرون بها أمـام العالم المتحضـر . على أن أولئك المقـاومين سيلقنون كلوزيل وبواييه واللقيط يوسف وبقية الجيش درساً لن ينسوه ، حتى لقد كاد القائد غير المحنك أن يفقد صوابه ، وكان ذلك الدرس القاسي سبباً في اقدام حكومة

= باي) نشر مارسيل ايمريت ، (م . إ) ، 1949 ، ص 79 هامش 7 .

(41) تنـاول عدد من الكتـاب حياة (الجنـرال) يوسف ، واختلفت الآراء حـوله ، ولكن دعـاة (المهمة الحضارية) الفرنسية اعتمدوا عليه في الجزائر كثيراً ، وسيرد اسمه في هذا الكتاب حسب الادوار التي لعبها في حملة قسنطينة وزمالة الأمير وثورة اولاد سيدي الشيخ الخ .

(42) بول آزان (الإحتلال . . .) ، ص 35 .

باريس على عزله ، كما سنعرف.

فلنترك اذن كلوزيل في غروره وزهوه إلى حين . فهو ما يزال لا يعرف طبيعة الأرض الجزائرية ولا سلوك الانسان الجزائري . وإنما كان يظن أن كل البلاد غير الفرنسية (والأوروبية) عبارة عن أراضٍ شاسعة كأمريكا يقطنها أناس كالهنود الحمر الذين تكفي فلول من الجيش لمطاردتهم وردهم على أعقابهم . وها هو كلوزيل يعلن لجيشه عند مغادرته البليدة في اتجاه المدية «انكم ستقطعون أول سلسلة من جبال الأطلس ، رافعين العلم المثلث من داخل أفريقية ، جاعلين بذلك طريقاً للحضارة وللتجارة وللصناعة . . . ان أنظار العالم المتحضر كلها تتابعكم . . . » وهل بعد هذا غرور وزهو؟ لقد كان كلوزيل يتخيل في نفسه أنه القيصر أو شيبيو الأفريقي . ولم يكن يدري من أعماق الغيب أن العلم المثلث الذي يشير اليه أصبح في أفريقية ، وفي كل البلاد التي رفرف عليها ، رمزاً للاضطهاد والعسف والطغيان ، وأنه في النهاية خرج منها ممزق الأشلاء دامي الألوان مداساً عليه بالأرجل الغليظة . ولكن المغرور يفعل ما يشاء ، ما دام لا يعرف الحياء ! ويحدثنا مؤرخو الفرنسيين أن كلوزيل اختار نقطة عالية في الجبال ووقف عليها في اتجاه فرنسا وحياها وأطلق لها 25 طلقة احتراماً واكباراً . وقد أصبح هذا تقليداً يتبعه ضباط فرنسا بالجزائر ، ومن بينهم راندون الذي وقف موقفاً مشابهاً على قمة جرجرة بعد تغلبه على رمز المقاومة الوطنية هناك .

وفي مضيق موزاية وقعت معركة حامية بين المقاومين وجيش العدو . ويقول الفرنسيون إن المقاومين كانوا جزءاً من جيش الباي بومزراق . وفي هذه المعركة سقط للفرنسيين 27 قتيلاً ، بينهم ثلاثة ضباط ، وجرح لهم 80 جندياً . وقد وصف كلوزيل المقاومين الجزائريين بأنهم « متعصبون وبرابرة »[43] أما جيشه فقد اعتبره منتصراً وحاملاً لمشعل الحضارة إلى الساحل الأفريقي ! ومهما كان الأمر فإن بومزراق خرج من المدية قبل وصول كلوزيل اليها . ويزعم الفرنسيون أن مرسولاً جاءهم وهم في الطريق ليخبرهم أن السكان هم الذين طردوه[44].

---

(43) نفس المصدر ، ص 36 .

(44) شخصية الباي ، مصطفى بومزراق ، كثر حولها الكلام ، ولم تدرس دراسة تاريخية حتى الآن . وبناء على المعلومات الأولى فان دوره كان مضطرباً تبعاً لإضطراب الأحوال في سهل متيجة والتيطري =

دخل كلوزيل مدينة المدية يوم 22 نوفمبر ، ونصب عليها باباً جديداً ، ثبت أنه إمّعة من الإمعات التي حاول الفرنسيون أن يختفوا وراءها في حكم الجزائر واضطهاد السكان. وهو مصطفى بن الحاج عمر[45]. ولم يكن ابن الحاج عمر هذا، كما ستعرف عند حديثنا عن المقاومة المدنية ، من أهل المدية وانما من أهل مدينة الجزائر الحضريين ، الذين اغتر بعضهم بمعسول الوعود الفرنسية قبل أن تصبح كالحنظل . وقد أقام كلوزيل حوالي خمسة أيام في المدية ، حاول خلالها تنظيم إدارة محلية تابعة للفرنسيين ، فجند بعض الجنود المرتزقة المحليين (ميليشيا) لمساعدة الباي الجديد ، وترك له أيضاً 1.200 جندي كحامية للدفاع عن المدينة ، لكن بدون ذخيرة . ولكن دلائل التدهور كانت واضحة نتيجة الارتجال الذي تميزت به تصرفات كلوزيل . فقد كانت الحملة سيئة التنظيم ، وكانت في حاجة إلى الذخيرة والتموين قبل رجوعه هو إلى الجزائر . ويبدو أن الاستيلاء على الحبوب واللحم الذي أمر به من قبل لم يكن كافياً ، أو أن صياديه كانوا عاجزين عن الصيد.

يبدو أن هدف كلوزيل من حملة المدية كان تسجيل اسمه في قائمة الذين

= القريب من مقر السلطة الفرنسية (خلافاً لباي الشرق والغرب) فهو مرة يقبل التعاون مع الفرنسيين ومرة يحاربهم ، إلى أن قبل بالأمان الذي اعطوه اياه، وغادر الجزائر نحو الشرق حيث مات. وقد بقي ولده احمد الذي سيرد ذكره في الكتاب مع كل من الحاج احمد والأمير عبد القادر . للمزيد أنظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر) ، ط 3 .

(45) كان مصطفى بن الحاج عمر من التجار في مدينة الجزائر ، وصاحب ثروة كبيرة ، وله خدم . ولم يكن من أصحاب القيادة والحكم ، ولكن اعضاء بلدية الجزائر من الحضر هم الذين نصحوا به كلوزيل ، فعينه بايا على التيطري مكان مصطفى بومزراق ، وقد رافق ابن عمر حملة كلوزيل إلى المدية ، وهناك نصبه وترك له حامية صغيرة بدون ذخيرة . وكان احمد بومزراق ، ابن الباي السابق ، هو الذي حارب ابن الحاج عمر ولم يترك له الوقت للاستقرار حتى انه دخل دار الباي دون أن يجرؤ ابن عمر على التعرض له . وقد بقي شبه محاصر في المدية إلى أن جاء الجنرال (بيرتزين) الذي حكم بعد كلوزيل (1831) فقرر التخلي عن المدية تماماً وحمل معه ابن عمر إلى مدينة الجزائر . ثم ذهب ابن عمر إلى فرنسا حيث اعطى وسام الشرف ، وكان موضع فضول المتطفلين . وكان في بداية كهولته (48 سنة) . قال عنه توماس كامبل (رسائل من الجنوب ، جـ 1/227) بأنه كان سنة 1834 حوالي 47 سنة ، وانه كان قد سافر إلى فرنسا وإيطاليا وأنه كان يلبس الشاش ، وله منزل بمدينة الجزائر وآخر بالريف . وله حوالي 84 خادماً ، وقال عنه انه كان يطعم بالإضافة إلى ذلك حوالي 500 شخص من فقراء المسلمين . ونقل كامبل وصف ابن عمر لمعاناة الجزائريين تحت العثمانيين ، وأشاد له بالداي حسين واعتبره سجيناً في قصره الذي لم يغادره مدة حكمه .

صعدوا جبال الأطلس وقطعوا مضيق الشفة وموزاية والتشبه بزعماء الرومان . ولو كان هدفه غير ذلك أو كان قائداً محنكاً لاحتاط للأمر وقدّر خطواته قبل الابتعاد عن خطوطه . لقد ثبت أنه كان مخطئاً كل الخطأ في تقديره . فبالإضافة إلى نقص التموين والذخيرة . وضعف الحامية والادارة التي نصبها في المدية (وهي الادارة التي ستسقط قبل عودته هو إلى الجزائر) كانت الأوضاع في البليدة لا تبشر بخير بالنسبة اليه . فالسكان كانوا يعرفون هدف كلوزيل فتراجعوا ، كما ذكرنا ، إلى الجبال ، وعندما غاب جيش العدو في اتجاه المدية ، وعرفوا ضعف الحامية التي تركها بقيادة (روليير) ، هاجموها من كل حدب وصوب وكادوا يفتكون بها جميعاً .

كان عدد المهاجمين الجزائريين ، حسب المصادر الفرنسية ، بين سبعة وثمانية آلاف شخص . وكان قائدهم عندئذ هو ابن زعموم[46] الذي سيرد اسمه بكثرة في هذه المرحلة من المقاومة الوطنية (1830 ـ 1837) . لقد كانت معركة من أبرز المعارك بين الوطنيين وجيش العدو ممثلاً في الحامية التي تركها كلوزيل في البليدة بقيادة روليير . وكان القتال قد بدأ على الساعة السادسة صباحاً ، وضاقت السبل بهذا الضابط في غياب نجدة كلوزيل الذي كان في المدية . فالتجأ إلى مسجد المدينة الذي كان قد جعله مستشفى ، واحتله كما احتل المقبرة المجاورة . واشتد القتال بين الطرفين في الشوارع وبالسلاح الأبيض . وعنما انهارت معنويات جيش العدو وفقد جنوده شجاعتهم ، استعمل روليير المدفعية اذ ضرب المهاجمين من الخلف ، فتراجعوا ثم هاجمتهم بقية الحامية الملتجئة إلى المسجد والمقبرة من الأمام . ويخبرنا مؤرخ الجيش الفرنسي في الجزائر ، أن المهاجمين الوطنيين قد وقع الاضطراب في صفوفهم نتيجة ضرب المدفعية لهم من الخلف وضرب رجال الحامية لهم من الأمام ، حتى لقد استشهد منهم حوالي ثمانمائة شهيد . وفر الباقون حوالي الساعة الحادية عشر بعد أن دام القتال خمس ساعات ، وذلك يوم 25 نوفمبر . أما من جانب العدو فقد قتل تسعة عشر ، منهم ضابطان ، وجرح خمسة وخمسون[47] .

---

(46) وجدناه تارة يكتب ابن زعمون وتارة زعموم ، اخترنا الأخير لوجوده في ختمه الرسمي . وحياة ابن زعموم السياسية ايضاً مضطربة ، إذ نجد له ادواراً مختلفة ، ولكنه خلال هذه الفترة ما يزال على رأس المقاومة في سهل متيجة . وكان زعيماً لقبيلة فليسة العتيدة . وسنذكر بعض أدواره فيما بعد .

أنظر عنه أيضاً كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر) .

(47) أنظر بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 38 .

وهكذا كانت المقاومة عنيفة وقوية ولولا المدفعية لأبيدت الحامية عن آخرها . ومما زاد في عمق مأساة كلوزيل أن الخمسين مدفعياً الذين أرسلهم للبحث عن الذخيرة قد فتك بهم المقاومون بالقرب من بوفاريك . وقد عثر عليهم كلوزيل أثناء رجوعه من حملته الفاشلة على البليدة والمدية حيث وجدهم أشلاء مبعثرة هنا وهناك . ولذلك رجع كلوزيل منكسر الرأس من هذه الهزائم المتلاحقة ، فبدل أن يرفرف على رأسه العلم المثلث حام عليه غراب البين يتتبع جثث قتلاه في معركتي البليدة وموزاية وبوفاريك . فأي فخر له بعد ذلك ؟

لقد لجأ إلى الانتقام طبعاً . انتقم من سكان البليدة الباقين بعد انسحاب المقاومين إلى الجبال . وترك العجزة والأطفال والنساء هناك بلا حماية ولا تموين . وانتقم في الجزائر ممن كان يسميهم الحزب الاسلامي ، وعلى رأسه المفتي ابن العنابي ، الذي حكم بنفيه بصفة لا انسانية . ودخل في دوامة بوليسية مع الحضريين أمثال احمد بوضربة وحمدان خوجة . وحاول اعادة تنظيم اللجنة الحكومية التي أنشأها بورمون . ومن سخريات القدر أنه جعل القنصل السابق دوفال ، صاحب قصة المروحة (الذي حكم عليه قومه بأنه تعلم الغش والرشوة وفساد الذمة في المشرق الذي ولد فيه !) جعله مسؤولاً على العدالة في الجزائر . وجعل رئيس اللجنة المذكورة هو المتصرف البارون فولان Volland بدل دينييه ، والمكلف بالشؤون الداخلية هو كادي دو فو Vaux ، الذي كان في نفس الوقت رئيس اللجنة البلدية ، والمكلف بالمسائل المالية هو المفتش العام فوجرو.

ومنذ وصوله إلى الجزائر إلى مغادرته لها كان كلوزيل يمطرها بالقرارات المتناقضة والمرتجلة والتي كان يعلن فيها عن تنظيم المدينة واصلاح الأحوال . فاتهم اللجنة البلدية بترك المدينة في حالة وسخة للغاية ، والمعروف أن هذه اللجنة كانت مؤلفة من الحضر واليهود برئاسة فرنسي (وهو دي فو) ، فأعاد كلوزيل تركيب العضوية فيها وضرب هذا بذاك وخلق الحساسيات بين الأعضاء ، وسمى عليها ممثلاً للملك ومساعداً له . واهتم بنظافة المدينة والشرطة حيث جعل كل من يدخل المدينة غريباً عنها يسلم جواز سفره إلى مفتش السفن الذي يسلمه بدوره إلى محافظ الشرطة ، وعلى المعني بالأمر أن يذهب بنفسه في اليوم التالي لاستلام جواز سفره وورقة الاقامة بعد التأكد من هويته . وجعل محكمة اسلامية يرأسها قاض جزائري.

ومحكمة يهودية برئاسة أحد الربيين . أما في المسائل التجارية والمدنية فالمحكمة كانت برئاسة دوفال نفسه ، كما جعل محكمة جنائية يرأسها محافظ الشرطة (وهو دوبينوس الشهير بتعفنه).

وفي ميدان الزراعة والتجارة وضع كلوزيل أسس الفكر الاستعماري ، رغم أن مؤرخي العهد يقولون لنا إن فرنسا لم تكن قد قررت بعد ماذا ستفعل بالجزائر . فقد اغتصب مزرعة ضخمة (ألف هكتار) تقع عند وادي الحراش وتسمى (حوش الداي) وجعلها تحت تصرف جمعية مغفلة الاسم يشارك الجنود في رأس مالها ، وسماها (المزرعة النموذجية الأفريقية). وجعل على هذه المزرعة حراسة مشددة من المشاة والفرسان لأن المقاومين الجزائريين كانوا يغيرون على ضواحي مدينة الجزائر . وسنعرف أن هؤلاء المقاومين أجبروا أولئك المتسللين على الانجحار داخل أبواب المدينة في المرحلة الأولى . كما شجع كلوزيل التجارة بين فرنسا والجزائر ، وجعل الاستيراد حكراً على فرنسا حتى أنه فرض ضريبة على الاستيراد من غيرها وصلت إلى 20٪ . وكانت أطماع كلوزيل المالية تشبه أطماع سلفه ، هذا نهب خزينة الجزائر ، وذاك نهب أموال الأوقاف الاسلامية . وسنرى عند حديثنا عن موقف الفرنسيين من الشؤون الدينية كيف أصدر كلوزيل قراراً يجعل أملاك الأوقاف واحصاءها وادارتها وحساباتها ترجع إلى ادارته الجديدة . وهي قضية ستشغل الرأي العام الجزائري طيلة الوجود الفرنسي .

ولكن الفشل العسكري الذي مني به كلوزيل حيثما حل ، جعله يفكر في مغامرة جديدة ، يربح بها مالاً ويخسر بها شجاعة ، وهي « بيع » (هكذا أطلق عليها المعاصرون) اقليمي وهران وقسنطينة إلى تونس والمغرب إذا أمكن ، أو إلى تونس فقط ، في مقابل مليون فرنك عن كل إقليم . ومن حق المؤرخ أن يتساءل : كيف يبيع إنسان شيئاً لا يملكه ؟ إن البائع والمشتري في هذه الحالة كلاهما لِصٌّ من الدرجة الأولى ! ذلك إن إقليم وهران كان ما يزال في يد الباي حسن ، رغم عجزه وتخلي الفرنسيين عنه ، بعد احتلالهم للمرسي الكبير وبعض حصون المدينة . وما دام الرجل قد أبدى ، على ما يقول الفرنسيون ، الإستعداد للبقاء والإعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع اتاوة ، فلماذا يبحث كلوزيل عن جهة أخرى يبيع لها اقليماً في حوزة غيره ؟ ومن فوض له القيام بهذه السمسرة ؟ أما إقليم قسنطينة فقد كان تحت

حكم الحاج أحمد الذي رفض من الوهلة الأولى التعامل مع الفرنسيين وعدم الإعتراف بسيادتهم على اقليمه ، وحتى مرسي عنابة الذي كان الفرنسيون قد دخلوه بعض الوقت فقد أجبرتهم المقاومة العنيفة على مغادرته خائبين.

ومع ذلك فقد قرر كلوزيل بيع الإقليمين والحصول على المال من الدولتين الإسلاميتين أو من إحداهما ، تقول الروايات الفرنسية أن كلوزيل أحس بتفكير أهالي إقليم وهران في مبايعة سلطان المغرب أمام الفراغ السياسي الذي تركه سقوط الحكم العثماني المركزي في الجزائر ، ذلك أن هؤلاء السكان كانوا في حاجة إلى حماية إسلامية أمام التهديد الخارجي . فأرسل كلوزيل مبعوثاً إلى السلطان في هذا الشأن (بيع وهران) ولكنه لم يتجاوز طنجة ولم يبلغ الرسالة . ومن جهة أخرى نصحه (ديليسبس) القنصل الفرنسي بتونس بعرض الصفقة على باي هذه البلاد ، وأوحى إليه بأنه (أي باي تونس) مستعد لذلك أمام الغيرة التي كانت بينه وبين الحاج أحمد . ومهما كان الأمر فقد قبل الطرفان (كلوزيل وباي تونس) بالصفقة ، وتمت المفاوضات والإتفاق . وبيع إقليم قسنطينة إلى باي تونس بمليون فرنك سنوياً يوم 18 ديسمبر 1830 ، على أن يتولاه صهره مصطفى . كما بيع اقليم وهران[48] إلى نفس الباي بمليون فرنك آخر سنوياً على أن يولي عليه ابن أخيه ، أحمد ، وذلك يوم 6 فبراير 1831[49] .

وبعد عرض الصفقة على الحكومة الفرنسية رفضتها . فقد عارضها وزير الحربية (الذي تتبعه إدارة كلوزيل) ، ولم يكتف الوزير بمعاقبة ديليسبس على نصائحه غير الحكيمة ، بل طلب المبعوث إلى سلطان المغرب للإستفسار ، وأخيراً

---

(48) عند التفكير في صفقة وهران ، أرسل كلوزيل الضابط دامريمون ، الذي هزم في عنابة ، لاحتلال المرسي الكبير ووهران يوم 8 يناير 1831 . وقد اتهم سكان الاقليم الباي حسن ببيع بلادهم إلى الكفار .

(49) هناك عدد من الكتابات عن هذا الاتفاق الغريب . منها (المرآة) لحمدان خوجة ، 268 ـ 275 . ومقالة عبد الجليل التميمي في (المجلة التاريخية المغربية) عدد يناير ، 1980 ، ص 17 ـ 24 .
وفعلاً جاء إلى وهران خير الدين آغا من تونس على رأس فرقة من 200 جندي ليمهد لحضور الأمير أحمد ، ولكن الاستقبال أفهمه أنه غير مرغوب فيه ، فعاد في أوت من حيث أتى ولم يحضر الأمير أحمد طبعا .

جاء دور كلوزيل نفسه إذ وضع الوزير حداً لمهمته في الجزائر يوم 20 فبراير 1831 . فقد اتهم بالذاتية والإستقلالية وعدم الدبلوماسية وهذا طبعاً كلام المدافعين عنه أمثال بول آزان . أما نحن فقد قلنا أنه كان عشوائياً في تصرفاته ، شرها في جمع المال من حلاله وحرامه ، فاشلاً في حملاته العسكرية وفي تنظيماته المدنية. وإذا كانت هذه هي صفات كلوزيل في الشهور الأولى للإحتلال وفرنسا ـ كما يقولون ـ مترددة في البقاء وعدمه في الجزائر ، فكيف ستكون صفاته يوم يعود (1835) إلى الجزائر وقد « قررت » بلاده الإحتفاظ بالجزائر « فرنسية » وانفتحت أمامه أبواب الإستعمار على مصراعيه ؟

8. خلفاء كلوزيل إلى 1837:

قبل أن يعود كلوزيل إلى الجزائر ويعلن افلاسه النهائي في الحرب وفي القضاء على المقاومة ، تداول على الحكم في الجزائر جنرالات آخرون لا يختلفون عنه إلا في الإسم . فكلهم جاءوا غزاة مضطهدين ، يدعون دعاوى أكبر من أفواههم ، وهي أنهم حاملون لرسالة حضارية في أرض متوحشة ومتعصبة ، وأن القوة هي الحل الوحيد لترويض المتوحشين وتليين المتعصبين . حتى الجنرال (بيرتزين) الذي وصفه بعض المؤرخين بالطيبة أو بالضعف نحو الجزائريين، كان لا يختلف عن زملائه كثيراً . فقد حل بالجزائر يوم مغادرة كلوزيل لها يوم 20 فبراير 1831 ، ولم يبق فيها إلا بضعة شهور .

قام بيرتزين بنجدة باي المدية ، ابن عمر ، الذي تركه كلوزيل محاصراً فيها هو والحامية الفرنسية التي يقودها (ماريون) . وكان المحاصرون له بقيادة أحمد ابن الباي السابق بومزراق . وقد طلب ابن عمر من الجنرال الفرنسي مرافقته إلى الجزائر لعجزه عن إدارة المدية . وهكذا أجبرت المقاومة الفرنسية على التخلي عن المدية . بل إن المقاومين ظلوا يتابعون مقاتلة جنود بيرتزين أثناء مرورهم بمضائق موزاية والشفة ، وفي الطريق من البليدة إلى الجزائر حيث كان المقاومون هناك قد هاجموا (المزرعة النموذجية) بالقرب من الحراش بقيادة ابن زعموم .

ومن جهة أخرى فشل بيرتزين في محاولة انزال جديدة في عنابة بقيادة (بيقو)

و (هودير) ، فبعد دخولهما المدينة على رأس قطعة من الأسطول قتل الاثنان وتفرقت قواتهما وجلت عن المدينة من جديد بقتلاها (سبعة حسب بول آزان) وجرحاها . وكانت مدينة عنابة هذه المرة قد هاجمها الباي إبراهيم الكريتلي الذي كان ينافس الحاج أحمد على حكم قسنطينة (وسنتحدث عنه بعد حين) .

أما المحاولة العسكرية الثالثة التي قام بها بيرتزين فهي دعم إحتلال وهران والمرسي الكبير (الذي وقع في أيدي القوات الفرنسية في السادس من فبراير 1831 كما عرفنا) . فقد أرسل الجنرال (بواييه) هناك وعينه « حاكماً » لوهران . فقام هذا بوضع تنظيمات تشبه تلك التي طبقت في الجزائر . ولكنه كان يتلقى الهجومات المتتالية من المقاومين ، وهي الهجومات التي كان على رأسها ، كما سنعرف ، الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر . ورغم تمسك بواييه بالبقاء في وهران فإنه كان في وضع لا يحسد عليه ، وكانت قواته تعاني من نقص التموين والأمن .

أما من الجانب الإداري فإن بيرتزين لم يحدث ما يجعل العلاقات تتحسن ، حقاً إن حمدان خوجة يفضل حكمه على حكم كلوزيل ، بالنسبة للسكان ، ولكن ذلك لا يجعله حاكماً ناجحاً من الوجهة الجزائرية . أما الفرنسيون فقد حكموا ضده وقالوا انه كان ضعيف الشخصية قليل التجربة . ومهما كان الأمر ، فقد أعاد تنظيم لجنة الحكومة السابقة التي أصبحت في عهده تسمى (اللجنة الإدارية للايالة الجزائرية)[50] . ورأس عليها المتصرفْ العسكري (بوندوران) Bondurand ، وشجع الإستعمار في ضواحي مدينة الجزائر ، سيما سطاويلي والحراش وسيدي خالف . وطلب من وزيره (وزير الحربية) عدم السماح للفرنسيين الذين لا مال لهم بالسفر إلى الجزائر لأنهم يصبحون عالة عليه . ولكن هؤلاء استمروا في التدفق حتى وصل عددهم في مارس 1831 إلى 529 مدنياً ، كانوا يضاربون في الأرض . كما لاحظ أن الجنرال (مانديري) الذي كان مكلفاً بالأمن تحت اسم (آغا العرب) لا يعرف اللغة العربية ولا الدين الإسلامي ولا عادات السكان . فاستبدله بالحاج محيي الدين

---

(50) مما يذكر أن القوة العسكرية الفرنسية في الجزائر لم تعد تسمى قوات الحملة ، أو (الجيش الافريقي) كما في عهد كلوزيل ، ولكن أصبح اسمها (فيلق الاحتلال Devision d'occupation) ، وهذا اللقب هو الأولى في الحقيقة بذلك الجيش الذي ادعى قادته انهم ينشرون بواسطته الحضارة ، فهو فيلق احتلال بكل معنى الكلمة ، وسيبقى كذلك حتى بعد أن تغير اسمه مرات إلى 1962 .

جاء دور كلوزيل نفسه إذ وضع الوزير حداً لمهمته في الجزائر يوم 20 فبراير 1831 . فقد اتهم بالذاتية والإستقلالية وعدم الدبلوماسية وهذا طبعاً كلام المدافعين عنه أمثال بول آزان . أما نحن فقد قلنا أنه كان عشوائياً في تصرفاته ، شرها في جمع المال من حلاله وحرامه ، فاشلاً في حملاته العسكرية وفي تنظيماته المدنية . وإذا كانت هذه هي صفات كلوزيل في الشهور الأولى للإحتلال وفرنسا ـ كما يقولون ـ مترددة في البقاء وعدمه في الجزائر ، فكيف ستكون صفاته يوم يعود (1835) إلى الجزائر وقد « قررت » بلاده الإحتفاظ بالجزائر « فرنسية » وانفتحت أمامه أبواب الإستعمار على مصراعيه ؟

8. خلفاء كلوزيل إلى 1837:

قبل أن يعود كلوزيل إلى الجزائر ويعلن افلاسه النهائي في الحرب وفي القضاء على المقاومة ، تداول على الحكم في الجزائر جنرالات آخرون لا يختلفون عنه إلا في الإسم . فكلهم جاءوا غزاة مضطهدين ، يدعون دعاوى أكبر من أفواههم ، وهي أنهم حاملون لرسالة حضارية في أرض متوحشة ومتعصبة ، وأن القوة هي الحل الوحيد لترويض المتوحشين وتليين المتعصبين . حتى الجنرال (بيرتزين) الذي وصفه بعض المؤرخين بالطيبة أو بالضعف نحو الجزائريين، كان لا يختلف عن زملائه كثيراً . فقد حل بالجزائر يوم مغادرة كلوزيل لها يوم 20 فبراير 1831 ، ولم يبق فيها إلا بضعة شهور .

قام بيرتزين بنجدة باي المدية ، ابن عمر ، الذي تركه كلوزيل محاصراً فيها هو والحامية الفرنسية التي يقودها (ماريون) . وكان المحاصرون له بقيادة أحمد ابن الباي السابق بومزراق . وقد طلب ابن عمر من الجنرال الفرنسي مرافقته إلى الجزائر لعجزه عن إدارة المدية . وهكذا أجبرت المقاومة الفرنسية على التخلي عن المدية . بل إن المقاومين ظلوا يتابعون مقاتلة جنود بيرتزين أثناء مرورهم بمضائق موزاية والشفة ، وفي الطريق من البليدة إلى الجزائر حيث كان المقاومون هناك قد هاجموا (المزرعة النموذجية) بالقرب من الحراش بقيادة ابن زعموم .

ومن جهة أخرى فشل بيرتزين في محاولة انزال جديدة في عنابة بقيادة (بيقو)

و (هودير) ، فبعد دخولهما المدينة على رأس قطعة من الأسطول قتل الاثنان وتفرقت قواتهما وجلت عن المدينة من جديد بقتلاها (سبعة حسب بول آزان) وجرحاها . وكانت مدينة عنابة هذه المرة قد هاجمها الباي إبراهيم الكريتلي الذي كان ينافس الحاج أحمد على حكم قسنطينة (وسنتحدث عنه بعد حين) .

أما المحاولة العسكرية الثالثة التي قام بها بيرتزين فهي دعم إحتلال وهران والمرسي الكبير (الذي وقع في أيدي القوات الفرنسية في السادس من فبراير 1831 كما عرفنا) . فقد أرسل الجنرال (بواييه) هناك وعينه « حاكماً » لوهران . فقام هذا بوضع تنظيمات تشبه تلك التي طبقت في الجزائر . ولكنه كان يتلقى الهجومات المتتالية من المقاومين ، وهي الهجومات التي كان على رأسها ، كما سنعرف ، الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر . ورغم تمسك بواييه بالبقاء في وهران فإنه كان في وضع لا يحسد عليه ، وكانت قواته تعاني من نقص التموين والأمن .

أما من الجانب الإداري فإن بيرتزين لم يحدث ما يجعل العلاقات تتحسن ، حقاً إن حمدان خوجة يفضل حكمه على حكم كلوزيل ، بالنسبة للسكان ، ولكن ذلك لا يجعله حاكماً ناجحاً من الوجهة الجزائرية . أما الفرنسيون فقد حكموا ضده وقالوا انه كان ضعيف الشخصية قليل التجربة . ومهما كان الأمر ، فقد أعاد تنظيم لجنة الحكومة السابقة التي أصبحت في عهده تسمى (اللجنة الإدارية للايالة الجزائرية)[50] . ورأس عليها المتصرف العسكري (بوندوران) Bondurand ، وشجع الإستعمار في ضواحي مدينة الجزائر ، سيما سطاويلي والحراش وسيدي خالف . وطلب من وزيره (وزير الحربية) عدم السماح للفرنسيين الذين لا مال لهم بالسفر إلى الجزائر لأنهم يصبحون عالة عليه . ولكن هؤلاء استمروا في التدفق حتى وصل عددهم في مارس 1831 إلى 529 مدنياً ، كانوا يضاربون في الأرض . كما لاحظ أن الجنرال (مانديري) الذي كان مكلفاً بالأمن تحت اسم (آغا العرب) لا يعرف اللغة العربية ولا الدين الإسلامي ولا عادات السكان . فاستبدله بالحاج محيي الدين

---

(50) مما يذكر أن القوة العسكرية الفرنسية في الجزائر لم تعد تسمى قوات الحملة ، أو (الجيش الافريقي) كما في عهد كلوزيل ، ولكن أصبح اسمها (فيلق الاحتلال Devision d'occupation) ، وهذا اللقب هو الأولى في الحقيقة بذلك الجيش الذي ادعى قادته انهم ينشرون بواسطته الحضارة ، فهو فيلق احتلال بكل معنى الكلمة ، وسيبقى كذلك حتى بعد أن تغير اسمه مرات إلى 1962 .

ابن الصغير بن مبارك ، وهو من عائلة سيدي مبارك الشهيرة بتصوفها وتدينها في القليعة ، وهكذا أصبح الحاج محيي الدين هو (آغا العرب) الذي كان دوره المحافظة على الأمن في أوطان متيجة والتوسط بين أهلها وبين الفرنسيين في قضاء الحاجات . وكان ذلك بناء على إتفاق بين بيرتزين والحاج محيي الدين . ويقتضي أن لا يخرج الفرنسيون من مدينة الجزائر . وطالما كان بيرتزين موجوداً فإن الحاج محيي الدين كان على علاقة حسنة مع الأوطان المذكورة ومع الفرنسيين . ولكن الأمور تغيرت عندما جاء الدوق دي رفيقو خلفاً لبيرتزين .

وقد رأينا أنه خلال العشرة أشهر التي بقيها بيرتزين في الجزائر ، انتعشت المقاومة في الريف ، خصوصاً في متيجة على يد ابن زعموم ، وسهل وهران ، على يد محيي الدين بن مصطفى ، وضواحي المدية على يد أحمد بومزراق ، كما تململ سكان مدن : الجزائر والمدية وعنابة والبليدة ، وانسحب سكان وهران منها . وبالطبع كثر أيضاً الطامعون في السلطة من الجزائريين الذين أخذ بعضهم يؤلف ما يمكن أن نسميه حزباً موالياً لفرنسا ، أي أولئك الذين أخذوا يعتمدون على السلطة الفرنسية في النفوذ والثروة والبقاء . وقد ظهرت عناصر ذلك في مدينة الجزائر وعنابة والمدية والبليدة ، ولكن بدرجة ضعيفة . ذلك أن التيار الوطني أخذ يتقوى بزعامة القيادات الجديدة : محيي الدين بن مصطفى في الغرب وابن زعموم وأحمد بومزراق في الوسط ، والحاج أحمد وإبراهيم الكريتلي في الشرق. كما أن الحزب الموالي للعثمانيين كان ما يزال قوياً خصوصاً في مدن الجزائر والمدية . وكان على رأسه حمدان خوجة وإبراهيم بن مصطفى باشا . ويفسر الفرنسيون الفشل العسكري الذي حل بقوات بيرتزين وانتعاش حركة المقاومة ضد الوجود الفرنسي بضعف شخصيته وعجزه عن حماية الوجود الفرنسي[51] .

والرجل الذي خلف بيرتزين هو الدوق دي روفيقو . وقد حل بالجزائر في آخر

---

(51) مما يلاحظ أن الذين أشرفوا على نشر (مراسلات) القادة الفرنسيين خلال القرن الماضي عمدوا إلى نشر أوراق دي بورمون ومراسلات كلوزيل وروفيقو ، وفاليه ، الخ . وأهملوا نشر مراسلات بيرتزين .
وبعد استقلال الجزائر عاد أنصار الجزائر من الفرنسيين إلى البحث في الأرشيف وأخبرونا أنهم وجدوا بيرتزين هو الذي فهم الجزائريين وسياسة فرنسا نحوهم أكثر من غيره (أنظر ما كتبه عنه آجرون مثلاً) ، وسبحان مقلب الأحوال !

ديسمبر 1831 . ولم يطل هو الاقامة أيضاً . فقد كان يشبه كلوزيل في تصرفاته غير السديدة وفي كرهه لأهل الجزائر وفي سلوكه البوليسي[52] وغلظته وخلفه للوعد. ولذلك أثار الجزائريين ضده أكثر فأكثر ، حتى أولئك الذين كانوا قد ظنوا الخير في الفرنسيين نقموا عليه وعلى السلطة التي كان يمثلها . واشتدت المقاومة في عهده ، وكان عنف معاملته يؤدي إلى عنف المقاومة ضده.

تولى روفيقو السلطة بلقب (القائد العام لفيلق إحتلال افريقية) . وانفصلت في عهده السلطة العسكرية والسلطة المدنية بأمر ملكي . وكانت سلطاته هو تتمثل « في الحفاظ والدفاع وأمن الممتلكات الفرنسية بأفريقية » . ويتبعه حاكم فيلق وهران ـ بوابيه . كما تقع تحت أوامره الاجراءات السياسية والأمن العام في الأماكن الواقعة تحت حكمه . أما منصب المتصرف المدني الذي تقلده أثناء هذا العهد كل من البارون بيشون (الذي لم يتفاهم مع روفيقو على التصرفات السياسية في الجزائر) وجنتيه دي بوسي ، فقد كان يشمل السهر على الخدمات المدنية والمالية والعدالة . واذا كان روفيقو يتبع ادارياً وزير الحربية فان المتصرف المدني كان يتبع رئيس الوزراء مباشرة والوزارات الأخرى المعنية ـ كالداخلية والعدل . وبناء على هذا التنظيم الجديد انشىء (مجلس إداري) يتألف من أعضاء يمثلون المصالح الأساسية (المتصرف المدني والمتصرف العسكري ، والمفتش العام للمالية ، وقائد الوحدات البحرية ، ومدير الجمارك الخ) . تحت رئاسة القائد العام روفيقو . ورغم هذا التنظيم في العلاقات فان الإدارة الفرنسية كانت تعاني من سوء التفاهم بين المسيرين . فبالإضافة إلى العلاقات السيئة بين روفيقو وبيشون التي أدت إلى عزل الثاني وتعويضه بغيره ، هناك النزاع والحساسية بين روفيقو وبوابيه حاكم وهران . وبعد استفحال الخلاف بينهما تدخل وزير الحربية وعزل بوابيه وعوضه بديميشال الشهير باسم المعاهدة التي تحمل اسمه . ثم هناك الخلاف الحاد الذي نشب بين روفيقو وقائد الفرقة التي احتلت عنابة من جديد وهو الجنرال (مونك دوزير) . فقد رفض هذا مرتين السماح لمبعوث روفيقو بالنزول في عنابة.

---

(52) كان هو نفسه وزيراً للشرطة قبل توليه الجزائر ، حتى انه فتح أذنيه لسماع الوشايات والتقارير الكاذبة و (لكل امرىء من دهره ما تعودا) كما يقول المتنبي !

واذا كانت هذه هي العلاقات بين أصحاب السلطة الفرنسية ، فكيف تكون بين هذه والجزائريين ! اننا سنتكلم بعد حين عن الإجراءات التي جرحت الجزائريين في الصميم والتي أدت إلى الشك بل الثورة حتى من قبل أولئك الجزائريين وضعوا بعض الثقة في السلطة الفرنسية . ان سياسة روفيقو كانت سياسة بوليسية جائرة . وهذا نموذج من ذلك . في أول عهده وجد أن جنوده ينامون على أسرة حديدية بدون مضربات ، ففرض على سكان مدينة الجزائر غرامة من الصوف قدرها أربعة آلاف وخمسمائة قنطار لتجهيز الأسرة . وبالاضافة إلى الاستيلاء على المؤسسات الدينية التي سنعرض اليها قام بمنح (دار الداي) الريفية إلى السلطات العسكرية لتجعلها مستشفى . وعندما علم أن قبيلة العوفية القاطنة وراء وادي الحراش قد اعتدت على مبعوثي فرحات بن سعيد (من نواحي بسكرة) إلى روفيقو ، قام هذا ليلة الخامس من أبريل 1832 بذبح القبيلة عن آخرها أثناء نومها ، وقبض على شيخها ، الشيخ الربيعة ، وحاكمه محاكمة صورية وأعدمه ، رغم أن التهمة لم تثبت عليه ولا على قبيلته[53]. ولكن هذه الجريمة قد أشعلت المنطقة كلها بنار الانتقام وحفزت روح المقاومة ، كما سنرى ، حتى ان سكان متيجة قاموا في نهاية شهر مايو من نفس العام بذبح 25 رجلاً من اللفيف الأجنبي ، وقد عجز روفيقو حتى عن متابعة الثوار هناك.

ولكن الشك القاتل في ولاء الحاج محيي الدين ـ آغا العرب ، جعل روفيقو يستدرجه لمدينة الجزائر ، فأحسّ الحاج محيي الدين بما يبيت له روفيقو ، فلم يسعه بعد أن راسله وتبرأ مما نسبه اليه ، الا الفرار جهة مليانة والإنضمام إلى الثورة ضد الفرنسيين . وكيف يأمنه الحاج محيي الدين وقد قام روفيقو بإعدام شيخيين بارزين وبريئين من شيوخ أوطان متيجة بعد أن أعطاهما الأمان على يد آغا العرب نفسه . فقد

(53) يذكر جورج ايفير أن مذبحة العوفية جرت في ليلة 6 ـ 7 ابريل (1832) ، وان القبيلة كانت بريئة وأن شيخها قد سجن ثم اعدم.

ـ أنظر (م.إ.) سنة 1913 ، ص 123 هامش 3 . ويذكر ديرينو نفس العبارات تقريباً ويضيف ان الحكم ببراءة القبيلة كان يعني ادانة الذين ارتكبوا الجريمة ، ولذلك صدر الحكم بتهمة القبيلة . ولاحظ رينو أن تنفيذ الجريمة لم يفرق بين الكبير والصغير ولا بين الرجل والمرأة . وقد ثبت للمحكمة أن الذين قاموا بتجريد وفد فرحات بن سعيد أناس آخرون غير قبيلة العوفية . ومع ذلك قطعت رأس الشيخ الربيعة وحملت هدية إلى الدوق دي روفيقو. أنظر (حوليات الجزائر) جـ1/246 .

جلبهما روفيقو إلى مدينة الجزائر ، رغم الضمانات ، وقطع رأسيهما(54) . ولا ندري ان كان روفيقو يفكر عندئذ انه يعلّم الجزائريين الحضارة أو أن التعصب والحقد قد أعمياه فلم يعد يرى الاّ ارتكاب الجرائم ضد المسالمين . ومن ذلك انه أرسل إلى القليعة كتيبة من الجند في غفلة من السكان وخطف رجلين من أقارب الحاج محيي الدين وأحضرهما رهينتين إلى الجزائر وأودعهما السجن حيث بقيا تسعة أشهر ظلماً وعدواناً . ولم يكتف روفيقو بذلك بل فرض غرامات ثقيلة على المدنيين من سكان البليدة والقليعة بدعوى تأييد الثوار في المتيجة ، وعندما عجزت المدينة عن دفع الغرامة دخلها الجند ، وانتزع روفيقو بضائع المتاجر ونحوها من ايدي السكان وأعطاها للجنود . فأي سجل هذا الذي تركه روفيقو وراءه في الجزائر ؟ وأي شرف للحضارة في ذلك؟

اختلف روفيقو وبيشون حول طريقة الإستعمار في الجزائر . فقد كان بيشون يرى ضرورة إعادة الكولون الذين حلوا بالجزائر بدون رأس مال من حيث أتوا ، أما روفيقو فكان يرى بقاءهم في الجزائر وتوزيع أراضي الجزائريين عليهم . وقد انتصر رأيه . كما قرر روفيقو اشراك الكولون في الدفاع عن مصالحهم واعانة الجيش في ذلك ، فأصدر قراراً يجعل كل الفرنسيين بين 20 و 60 سنة يشكلون ما أسماه بالحرس الوطني . فتألفت منهم أربع فرق من المشاة وفرقة من الفرسان لإرهاب الجزائريين . وبالإضافة إلى ذلك فقد تم في عهد روفيقو توسيع وتنظيف شوارع مدينة الجزائر ، وتوسيع ساحة الحكومة (كل ذلك على حساب مؤسسات دينية وخيرية سنذكرها) ، وتهديم جامع السيدة الشهير ، وتحويل جامع كتشاوة إلى كنيسة

---

(54) يقول رينو 257/1 ان الرجلين هما العربي بن موسى قائد بني خليل ومسعود بن عبد الوادي قائد السبت ، وأن روفيقو استجلبهما إلى مدينة الجزائر فلم يأتيا لشعورهما بالخطر فطلب من أهل البليدة ارسال وفد ومعه أشخاص آخرون فيهم الرجلان المذكوران ، ولكنهما رفضا الذهاب الا بعد « عهد أمان » مكتوب ، فأعطاهما روفيقو ذلك على يد صديقهما محمد المخفي قائد الخشنة . وفي الجزائر قبض عليهما روفيقو وأودعهما السجن ، رغم احتجاج المخفي الذي مدّ يديه للقيد معهما لأنهما وثقا في عهد الأمان عن طريقه هو . ورغم مطالبة سكان البليدة ومتيجة بإطلاق سراح الرجلين فإن روفيقو وجد قضاة حاكموا الرجلين وقضوا عليهما بالإعدام الذي نفذ فيهما خلال فبراير 1833 . ويقول رينو أن مقتل الرجلين ظل ذكرى أليمة وعلامة على الخيانة وخلف الوعد من السلطة الفرنسية على يد روفيقو .

كاثوليكية ، وتحويل بنايات أخرى إلى مستشفيات عسكريـة[55] . ومما أنشىء في عهد روفيقو جريدة باسم (المرشد الجزائري Le Moniteur Algérien) لنشر قرارات سلطة روفيقو على السكان بالعربية والفرنسية .

ولم يضف روفيقو أي مجد عسكري الا اذا اعتبرنا احتلال المدن الآمنة وذبح القبائل النائمة مجداً عسكرياً ! ذلك أن (بوابيه) بقي محاصراً في وهران ولم تكن له حتى الشجاعة العسكرية لمحاربة الشيخ محيي الدين ورجاله عندما دعاه هذا للنزال خارج جدران المدينة . فقد ظل بوابيه خلف الأسـوار ينتظر التمـوين من الجزائـر ويتحكم في من بقي بالمدينة من عجزة واسبان ويهود . وقد أخذ يفرق بين السكان لعله يجد ثغرة يدخل منها ، فبعد أن كان الفرنسيون يدَّعون سنة 1830 أنهم جاؤوا لتحرير الجزائريين من النير التركي ، وجدناهم سنة 1832 يدعـون للأتـراك أنهـم سيحررونهم من نير الجزائريين ! فقد مدّ بـوابيه يـده إلى « الاتراك » في تلمسـان ومستغانم ليتعاون معهم ضـد الجزائـريين (ونفس الطريقـة سلكها اللقيط يـوسف اليهودي ودارماندي في عنابة) وقد أحس بوابيه بعنف المقاومة الجزائرية ، خصوصاً بعد أن وجدت تأييداً من سلطان المغرب ـ ، فاستنجـد (بوابيـه) بحكومتـه التي أرسلت إليه نجدة خلال شهر مايو 1832 .

وكان لبوابيه متصرف مدني أيضاً ولكنه لم يتفاهم معه ، تماماً مثل سيده في الجزائر ، ويكفي أن تعلم أن هذا المتصرف تغير ثلاث مرات في نصف سنة . وأمام فقدان الأمن فان بوابيه لم يحلم بتوزيع الأرض على الكولون في جهتـه ، فهو لـم يخرج خارج جدران المدينة ، كما عرفنا ، أما التجارة فلا حديث عنها ، حتى ان يهـود وهـران عجـزوا عن العيش فيهـا وأخـذوا في الهجـرة إلى الشـرق ـ نهـايـة 1832[56] . وكل ما استطاع بوييـه أن يفعله عندئـذ هو الاحتفـاظ بمدينـة وهران والمرسي الكبير ، وربطهما بطريق ، ودعم جنده حتى وصل إلى أكثر من 300 . 4 رجل ، بالإضافة إلى حوالي 500 فرس لفرقة (قناصة افريقية) الجديدة . وقد أصلح الثكنات القديمة ، وحول مسجد خنق النطاح إلى ثكنة دفاعية .

أما عنابة التي احتل قصبتها إبراهيم الكريتلي وحاصرها الحاج أحمد، فقد كان لها

---

(55) عن الموقف من المؤسسات الدينية ، أنظر ما سيأتي .

(56) بول آزان (الاحتلال . . .) ، ص 65 .

وضع آخر. ذلك أن روفيقو علم أن الباي إبراهيم (يدعي الكريتلي لأنه كان من جزيرة كريت أصلاً) كان ينافس الحاج احمد ، ولكنه يكره الفرنسيين أيضاً ، غير أنه مستعد للتفاوض معهم لتحقيق هدفه . هكذا يقول مؤرخو هذه الفترة . وليس هناك ما يدل على فتح هذه المفاوضات ، لأن روفيقو تنصل حتى من المفاوضات التي أكد حمدان خوجة أنه كلفه بها مع الحاج احمد نفسه ، في نفس الوقت تقريباً . وقد وقع سكان عنابة بين عدة نيران وتوزع ولاءهم طبعاً ، فيهم الحضر والكراغلة وعرب الريف . فقد أرسل روفيقو ، المغامر اللقيط يوسف (الذي أخذ نجمه يصعد منذ عيّنه الدوق نفسه « خليفة » آغا العرب في متيجة) في مهمة لعنابة واتصل يوسف بالباي ابراهيم ، فوجده مستعداً للتفاهم فأرسل روفيقو دارماندي ، ضابط المدفعية ، إلى عنابة[57] رفقة اللقيط يوسف . وبالتعاون مع من سموهم بالأتراك[58] تمكنوا من احتلال القصبة ورفع العلم الفرنسي عليها . وتقول الروايات الفرنسية إن جيش الحاج احمد ، الذي كان يحاصر عنابة منذ ستة أشهر ، قد أحرق المدينة في الليلة الموالية ، ورفع الحصار وحمل السكان معه وذهب.

وحتى لا تخرج قصبة عنابة من أيديهم مرة أخرى حصن الفرنسيون مواقعهم فيها. فقد أرسل روفيقو نجدة عسكرية من 600 جندي و 17 مدفعاً و 20 رجلاً من سلاح الهندسة وسمى دارماندي قائداً للقصبة . ونفس الموقف وقفته الحكومة الفرنسية . فقد أرسلت بدورها من طولون نجدة عسكرية إلى حاميتها في عنابة خلال شهر مايو بقيادة الجنرال مونك دوزيز الذي قلنا إنه كان على خلاف مع روفيقو . ونتيجة هذا المدد أخذ الفرنسيون في تحصين مواقعهم . ومن بين ذلك تحويل مسجد عنابة إلى مستشفى عسكري . ورغم سمعة اللقيط يوسف عند القادة الفرنسيين ، فإن روفيقو كان يشك فيه ، خصوصاً وقد ظهر أنه يفهم السياسة الأهلية أكثر من غيره . وكان اللقيط يوسف محبوباً ، بالعكس ، لدى دوزير ، لأسباب نجهلها . وأثناء ذلك أرسل روفيقو وفداً فيه عديل الباي ابراهيم ومعه أحد اليهود إلى عنابة لكي يقوم بتنفيذ

---

(57) كان دارماندي d'Armandy قد شغل قبل ذلك منصب قنصل فرنسا في الحجاز ، وكان يعرف العربية وحياة الشرق .

(58) يقصدون بهم أنصار الباي ابراهيم الكريتلي . وقد كانت القصبة للأتراك (للجيش والسلطة) وكانت المدينة للسكان . . . الأهالي ، وكان عدد الأتراك المشار اليهم حوالي مائتي شخص فقط (200) .

« السياسة الأهلية » التي يريدها روفيقو ، ولكي يتجسس على اللقيط يوسف (وربما على دوزير أيضاً) ولكن دوزير فهم أن ذلك موجه ضده هو ، فرفض السماح لمبعوث روفيقو بالنزول مرتين ، كما سبقت الاشارة. وأمام الوضع العسكري المتردي ومقاومة أهل الريف الذين كانوا يغيرون على قصبة المدينة ويعترضون خروج الفرق الفرنسية إلى خارج الأسوار ، لم يسجل أي عمل في اعطاء الأرض للكولون في عناية . وكان دوزير يكتب إلى الوزير بأن يهتم بالثكنات والمستشفيات ، لأن الكولون سيموتون اذا جاؤوا ، وضرب له مثلاً بعائلة فرنسية حاولت حظها وفشلت.

وهكذا نرى أن الشهور التي بقيها روفيقو في الجزائر كانت لا تختلف عن الشهور التي بقيها كلوزيل . ولولا تدخل الحكومة الفرنسية (التي يقال عنها إنها كانت ما تزال مترددة في الاحتلال !) لنجدة بواييه في وهران ونجدة دارماندي في عنابة عسكرياً لما ثبتت للفرنسيين قدم في هذين البلدين نظراً لعنف المقاومة التي أبداها المواطنون على يد قوات الشيخ محي الدين في الغرب وقوات الحاج أحمد في الشرق . أما الوضع في سهل متيجة فقد كان سيئاً للغاية على الفرنسيين ، وعندما عجز روفيقو عن مواجهة المقاومة الشعبية هناك (بقيادة ابن زعموم والحاج سيدي السعدي والحاج محيي الدين آغا العرب) لجأ إلى الأساليب البوليسية والارهاب ، بالقتل الجماعي (قبيلة العوفية) واختطاف الرهائن (أقارب آغا العرب في القليعة) وخيانة العهد (مقتل قائدي بني خليل والسبت ، رغم اعطائهما الأمان) . وفرض الغرامات الباهظة والجماعية على سكان المدن (الجزائر والبليدة والقليعة) . وأما المدية فإن روفيقو لم يجرؤ حتى على الاقتراب من مضائق الشفة وموزاية بعد أن جلت الحامية الفرنسية عن المدية ومعها الباي العميل، في عهد بيرتزين. وهكذا بقيت المدية في حالة فوضى من حيث الولاء (للأتراك ، للحاج أحمد ، للفرنسيين ، لسلطان المغرب ، للشيخ محيي الدين . . .) ومن حيث التموين والصحة والتجارة . وعلى كل حال فإن قوات المقاومة الشعبية كانت تسيطر على الناحية ، وكان يظهر على رأسها أحياناً أحمد بومزراق ابن الباي السابق مصطفى بومزراق.

وأمام هذا العجز الفاضح وأمام الخلافات الجادة التي نشبت في إدارة روفيقو (عسكرياً ومدنياً ، كما عرفنا) ، وأمام المرض الذي أصبح يعاني منه روفيقو ، عزلته حكومته واستبدلته بالجنرال فوارول . ويقال إن روفيقو كان يعاني من سرطان اللسان ،

فلم يزد عن شهرين بعد رجوعه حتى مات (جوان 1833) . ويقال أيضاً إنه كان يعاني من مرض عصبي ونفسي أصابه نتيجة اقدامه على مذبحة العوفية حتى أنه أصبح يتخيل أرواح الأبرياء أشباحاً تطارده كلما حل الظلام[59].

***

ورغم أن فوارول لم يكن في منصبه سوى قائد بالنيابة لجيش الاحتلال فإنه ظل أطول مدة (سبعة عشر شهراً) بقيها قائد فرنسي في الجزائر حتى الآن . وقد عرفنا أن التسمية التي كانت تطلق على قوة الغزو الفرنسي للجزائر هي « جيش احتلال افريقيا » وكان فوارول (Voirol) غير مستقل في تصرفاته خلافاً لزميليه كلوزيل وروفيقو . فهو لا يتحرك الا بتعليمة من وزير الحربية . وكان قواد ناحيتي وهران (ديميشال) وعنابة (دوزير) مستقلين عنه ويتراسلان مباشرة مع الوزارة دون المرور به ، بل إن قائد بجاية (دوفيفييه) كان يتجاوز فوارول رغم أنه ما يزال برتبة عقيد . وقد بقي فوارول محدود النشاط العسكري محصوراً في العاصمة وضواحيها ولم يقم بغزوات أو حملات ذات بال مكتفياً بغارات خداعية ضد الثوار في حجوط والخشنة وغيرهما من أوطان سهل متيجة . وكان الفرنسيون الذين جاؤوا إلى الجزائر حالمين بالسمن والعسل لا يستطيعون مغادرة أسوار العاصمة ، فاذا غامر أحدهم فإنه لا يتحرك الا مرفوقاً بأدلاء مسلحين.

وحتى في النواحي البعيدة عن العاصمة لم يجرؤ جيش الاحتلال على خوض أية معركة ضد المقاومة سواء في نواحي وهران أو عنابة أو بجاية . ففي وهران كان ديميشال يناوش الأمير في مستغانم وأرزيو ، وكان يطمح إلى عقد معاهدة معه تحقق له (أي لديميشال) مجداً شخصياً ، وهي المعاهدة التي وقعت في 26 فبراير 1834 والتي اعتبرت انتصاراً دبلوماسياً كبيراً للأمير[60] ، ولذلك عجل الوزير الفرنسي

---

(59) غادر روفيقو الجزائر يوم 6 مارس ، وتوفي في باريس أواخر شهر جوان 1833 ، كما عرفنا . أنظر رينو ، 291/1 .

(60) تذهب المصادر الفرنسية إلى أن الوسيط في المفاوضات بين الأمير وديميشال كانا يهوديين من وهران، ويقولون إن الأمير قد زاد لهما في حصة مبيعات الحبوب ولذلك عملا لصالحه . ذلك أن (معاهدة ديميشال) قد حصرت الفرنسيين في وهران ومستغانم وأرزيو وجعلت الأمير هو صاحب السيادة على بقية الإقليم الغربي (اقليم وهران) . وقد كان فوارول غائباً عن مفاوضات المعاهدة وانما فوجىء بها .

بتبديل جنراله (ديميشال) حتى لا يظهر بمظهر ضعف آخر أمام المقاومة الوطنية . وكان (دوزير) محاصراً في عنابة من قبل قوات ابن عيسى قائد جيش قسنطينة فاستنجد أولاً بقائده فوارول ثم استغاث مباشرة بوزارة الحربية فلم يحصل على طائل . وساءت أموره هناك حتى لم يجد بداً من الرجوع إلى فرنسا خائباً مدجوراً . وكانت الأحوال في بجاية على أسوأ ما تكون بالنسبة لجنود (دوفيفييه) . فقد أرسل هذا يستنجد أيضاً ضد هجومات المقاومين ، وزاد الطين بلة وقوع حادثة لباخرة بريطانية هناك فسره المتوجسون من الفرنسيين على أنه محاولة تدخل انكليزي ، ولذلك أسرع فوارول بارسال ضابطين من ضباطه المختارين ، هما لا مورسيير وتريزيل ، لعلّهما ينقذان الموقف ، ولكن سكان بجاية أخلوا مدينتهم وتفرقوا في الجبال المجاورة ، ولم يبق مع الفرنسيين الا رجل اسمه بوسته ، وبعض العجزة واليهود . أما قيادة جيش الاحتلال فقد وقع بينها خلاف أدى إلى كتابة تقارير يتهم فيها كل واحد زميله .

ولكن عهد فوارول لم يشهد فقط معاهدة ديميشال والتطورات المذكورة في عنابة وبجاية ، وإنما شهد أيضاً مجيء (اللجنة الأفريقية) التي حققت في الصراع بين المقاومة والاحتلال منذ 1830 . وهي اللجنة التي تكونت سنة 1833 وظلت تعمل في فرنسا وفي الجزائر وتقوم باتصالات وقراءات ومشاورات مع مختلف الأطراف لتقرر ما اذا كان من صالح فرنسا المحافظة على الجزائر مهما كان الثمن أو الجلاء عنها . وقد تجول أعضاؤها الذين تقاسموا العمل فيما بينهم ، حسب الاختصاصات، في مختلف النقاط التي كان الفرنسيون قد تمركزوا فيها وهي العاصمة ووهران وأرزيو وعنابة وبجاية . أما مستغانم فلم يستطيعوا دخولها لعدم سيطرة جيش الاحتلال فيها على الوضع . وفي الثاني من يوليو 1834 صدر مرسوم المحافظة على الجزائر بناء على توصية اللجنة الأفريقية[61] . ومما شمله المرسوم تعيين « حاكم عام » على الجزائر مسؤولاً عن شؤونها العسكرية والمدنية . وهي الصيغة التي بقي

---

(61) درسنا تكوين وأعمال وتوصيات اللجنة الافريقية في كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال) ، ط. 3 ، الفصل السادس والسابع . وكان الفضل في تكوين اللجنة المذكورة يعود للنشاط السياسي والاعلامي الذي قام به المقاومون الجزائريون ضد الاحتلال ، وعلى رأسهم حمدان خوجة . أنظر كتابه (المرآة) .

عليها الحكم الفرنسي في الجزائر إلى سنة 1870 (باستثناء سنتي 1858 ـ 1860) . وكان أول حاكم عام هو الجنرال الكونت ديرلون D'Erlon .

أثناء قيام اللجنة الافريقية بنشاطها ظهر تياران قويان : تيار يطالب بالجلاء وتيار يطالب بالبقاء في الجزائر . كان التيار الأول يقوده حمدان خوجة في الجزائر وباريس . فهو الذي أكثر من الكتابة الاعلامية عندئذ مستنداً على ثقة الشعب سيما أهل الحضر والكراغلة ، ومدعوما من الدولة العثمانية ومن الانكليز والمعارضة الفرنسية . وقد أعانه صديقه حسونة دغيز الطرابلسي على ترجمة كتابه (المرآة) إلى الفرنسية ، وهو الكتاب الذي طبع ونشر سنة 1833 ، كما ضاعف حمدان خوجة نشاطه بكتابة العرائض والرسائل إلى مختلف الجهات الفرنسية المعنية وعلى رأسها الملك لويس فيليب. وقد عبر خوجة عن آرائه أيضاً أمام اللجنة الافريقية التي طلبت رأيه . أما الشخصية الفرنسية التي كانت متحمسة للجلاء عن الجزائر والتي كانت عضوة في اللجنة المذكورة فهو ايكسافيه دي صاد (de Sade) نائب (عين Aisne) . فقد تصدى دي صاد لاظهار سلبيات البقاء في الجزائر من ناحية الاقتصاد والاستراتيجية والأخلاق . وكان على فرنسا أن تكتفي ، اذا كان لا بد من البقاء في الجزائر ، بإقامة حامية فقط في مدينة الجزائر تشبه الحامية العسكرية التي أقامها الاسبان .

وأما التيار المطالب بالمحافظة على الجزائر فقد تزعمه كلوزيل قائد جيش الاحتلال السابق والذي كان عندئذ نائباً في البرلمان ، ولم يكن عضوا في اللجنة الافريقية . فقد كان مقتنعاً بأن الجزائر تتوفر على جميع عناصر النجاح للاستعمار وإقامة المستوطنات وخصوبة الأرض ، مدعياً أمام زملائه البرلمانيين بأن الجزائر « تملك كل عناصر الازدهار » . ولم يرد كلوزيل فقط على زميله دي صاد ولكنه كتب مقالة مطولة في الرد على حمدان خوجة أيضاً في أفكاره الواردة في كتابه (المرآة) والتي تعرض فيها إلى سيئات عهد كلوزيل في الجزائر ونفى فيها صلاحية الجزائر للاستعمار[62] .

---

(62) أنظر ترجمة (المرآة) التي قام بها محمد العربي الزبيري ، طبعت عدة مرات ، الأولى 1975 . وأيضاً ترجمة محمد بن عبد الكريم لها ، و (حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته) لمحمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1972 ، ورد كلوزيل على خوجة ، باريس 1834 ، ورد خوجة على كلوزيل ، باريس 1834 . أنظر أيضاً عبد الجليل التميمي (بحوث ووثائق مغربية) ، تونس 1972 .

كان الحاكم العام الجديد ، ديرلون ، قد بلغ من الكبر عتيا ، اذ كان في السنة السبعين من عمره عندما أصدر وزير الحربية تعيينه على الجزائر في نهاية يوليو 1834 . ولم يكن ديرلون نفسه يتوقع هذا المنصب ، خصوصاً وان ماضيه في معركة واترلو لم يكن مجيدا . فهو اذن من ضباط نابليون المهزومين . وكان من العجز بحيث لا يستطيع ارتداء ثيابه بنفسه أو حتى شد أزراره . ورجل من هذا الطراز لا يمكن أن تكون له مبادرات شخصية فكان ديرلون ينتظر التعليمات من وزيره . ومن سوء حظه أن منصب وزير الحربية قد تغير في فرنسا على عهده القصير (سنة واحدة) ست مرات . وعندما وصل ديرلون الى الجزائر كان الجيش الفرنسي ما يزال محاصراً في بعض المدن الساحلية ، خصوصاً وهران وعنابة . وإذا كانت وهران ومراكزها الساحلية (مستغانم وأرزيو) تتحكم فيها معاهدة ديميشال فان عنابة كانت تحت ضغط قوات قسنطينة والمقاومة الشعبية ، كما كانت هذه المقاومة لا تترك الفرصة لجيش العدو بالاستقرار في بجاية . وقد حاول احتلال البليدة ولكنه فشل في محاولته فاكتفى باقامة معسكر في الدويرة وآخر في حوش شاوش قرب بوفاريك ليكونا مركزين امامين لرد هجومات أهل حجوط وقوات الحاج سيدي السعدي ـ ابن زعموم ـ ومقاومي أوطان متيجة على العموم .

ولكن هجومات أهل متيجة والحرائق التي أشعلوها في مزارع الفرنسيين القريبة من العاصمة لم تكن الا فصلاً صغيراً أمام الهزيمة الساحقة التي لحقت بجيش الإحتلال في معركة المقطع في 28 جوان 1835 . ذلك أن الجنرال تريزيل (أو الأعور كما يسميه الجزائريون لأنه كان بعين واحدة) الذي خلف ديميشال في قيادة اقليم وهران ، كان كثير التبجح بنفسه ، وكان يشبه زميله كلوزيل في الدعوى والفشل . فقد فشل في بجاية وها هو يفشل في وهران أمام قوات الأمير عبد القادر التي جاء لضربها ، مدعياً أن معاهدة ديميشال كانت مجحفة في حق فرنسا وأخذ يتحين كل فرصة للإخلال بها ، فجعل من قضية الدواير والزمالة ذريعة للاطاحة بها ، ثم سولت له نفسه الحرب ضد الأمير فاذا تريزيل يقع فريسة ما جنت يداه . ولم تكن المقطع هزيمة له وحده بل كانت هزيمة أشنع للحاكم العام نفسه ، ولذلك أسرعت وزارة الحربية بتعيين حاكم عام جديد خلفاً للعجوز ديرلون ، فاذا هو كلوزيل صاحب السيرة غير الحميدة في المرة السابقة ، والذي كان عهده الثاني ، كعهده الأول ،

سلسلة من الهزائم أيضاً[63] .

***

وقبل أن نفرغ من الحديث عن عهدي فوارول وديرلون نقول كلمة عن نشأة المؤسسة المعروفة بالمكاتب العربية . لقد كانت الإدارة المحلية في العهد العثماني يتولاها موظفون بدرجات متفاوتة مثل الآغا والقائد والشيخ . وكان الواسطة العليا بين الحكومة وأولئك الموظفين هو (آغا العرب) الذي كان في مقام وزير الداخلية والحربية تقريباً . وعند الإحتلال اعتمد الفرنسيون على وساطة اليهود بينهم وبين القادة الجزائريين . وكان في ذلك ما فيه من الاخطاء والمظالم وسوء التفاهم . ثم عينوا شخصية حضرية في وظيفة (آغا العرب) ، وهو حمدان بن عبد الرحمن ، أمين السكة المعروف بحمدان بوركايب الذي كان صديقاً لاحمد بوضربة وهو الذي اقترحه على بورمون . ومن مؤهلات بوركايب عندئذ معرفته لقليل من الفرنسية وزيارته لمرسيليا وايطاليا قبيل الاحتلال وثروة أبيه . أما مؤهلاته الوظيفية والوطنية فقد كان منها صفر اليدين . ذلك انه كان حضرياً لا يعرف طبائع الريف ، ومدنياً لا يقدر على فرض الطاعة ، وكان بالإضافة الى ذلك مُتَهَوّراً ، رغم ما قيل عنه من انه كان وسيم الطلعة متوسط القامة صحيح البنية مليء الوطاب . وبعد أن تولى كلوزيل في المرة الأولى ، عزله متهماً اياه بأنه لم يقم بمهمته أثناء حملة البليدة . فذهب بوركايب الى فرنسا وتزوج هناك ولم يقم بدور سياسي لصالح بلاده من المنفى مثل زميله حمدان خوجة أو حتى صديقه بوضربة[64] .

---

(63) قبل وصول كلوزيل ثانية إلى الجزائر ، تولى الجنرال دارلانج حكم الجزائر بالنيابة .

(64) وجدنا في أوراقنا معلومات عن حمدان بوركايب دون أن نسجل المرجع الذي أخذناها منه . وهذا ملخصها : هو حمدان بن عبد الرحمن ، أمين السكة ، من أقدم العائلات بالجزائر ، إذ تعود عائلته إلى القرن السادس عشر ، جاء جده الحاج سعيد من بغداد . وكان والد حمدان من أكبر الصناع في الجزائر بحيث كان يملك عدة مصانع في باب الواد . وكان فارساً ماهراً يكثر من الركوب على الركائب فسمي بذلك (بوركايب) ، وكانت له دار في شارع القصبة رقم 5 تسمى (دار الركايب) . وكان ابنه حمدان يتمتع بالصفات التي ذكرناها سابقاً ، وكان كثير الاطلاع على أحوال أوروبا بعد زياراته المتكررة لها . وقد اشتهر حمدان بالفروسية منذ صغره وبالجسارة حتى أنه أنقذ وهو في الثانية عشرة من عمره شخصاً كانت رأسه في حبل المشنقة غير مبال بالخطر الذي يتهدده . وأثناء إحدى زياراته لمرسيليا قبل الاحتلال شاهد استعراضاً للجيش الفرنسي فأثر عليه وأدهشه . بعد تطور الأحداث بين الجزائر وفرنسا ، خصوصاً بعد 1829 أي بعد ضرب سفينة (لا بروتينير) طلب =

وخلال فبراير 1831 عين كلوزيل الضابط (ماندير ي) في وظيفة آغا العرب ليكون الواسطة بين ادارته والجزائريين . ولكن مانديري لم ينجح أيضاً ، لأن المقاومة الشعبية في متيجة لم تترك أية فرصة للعقيد مانديري بالخروج من اسوار المدينة . فلما جاء بيرتزين مال الى اسناد المنصب (24 يوليو 1831) الى شخصية عربية فأشير عليه برجل دين ذائع الصيت وهو الحاج محيي الدين بن مبارك القليعي . فأصبح هذا هو (آغا العرب) . وجعل اتفاقاً بينه وبين بيرتزين بحيث يكون الشيخ محيي الدين هو « حاكم » متيجة ولا يخرج الفرنسيون من المدينة ولا يتدخلون في شؤون الأوطان المجاورة . ولكن تصرفات روفيقو البوليسية جعلت الحاج محيي

= حمدان بوركايب من صديقه حمدان خوجة وبوضربة ، طلب منهما الذهاب إلى حسين باشا لإقناعه بإعطاء فرنسا تنازلات ، ولكن حسين أصر على أن لديه قوة ضخمة لمواجهة فرنسا وأن الجزائر أعظم من مرسيليا ، وأن بوركايب مخدوع . وتفادياً للتصادم مع الانكشارية قرر الثلاثة إتخاذ الحيطة حفظاً لحياتهم لأن الإنكشارية أصبحت غاضبة عليهم وعازمة على التخلص منهم : فاستقر حمدان بوركايب في دار يَحَيِّ زقارة الواقع بأعالي ناحية بولوغين (سانت أوجين سابقاً) ، واستقر أحمد بوضربة في الخروبة قرب الحراش ، بينما استقر حمدان خوجة في الدار الزرقاء (بداية الحامة قرب قاعة حرشة اليوم) . ولا يخرج الثلاثة إلا عند الضرورة ولا يلتقون إلا في نقطة يعينونها ، ولكنهم كانوا يغيرونها من وقت لآخر . وعندما وقعت هزيمة سطاويلي ودعا حسين باشا أعيان المدينة للإجتماع كان من بينهم الثلاثة المذكورون . والمعروف أن الأعيان فوضوا الداي بفعل ما يراه على أساس أنهم رعاياه . ولم يجرؤوا على قول الحقيقة أمامه . ويفهم من هذا أن الثلاثة المذكورين كانوا من بين « المنافقين » الذين لم يقولوا الحقيقة للداي خوفاً على حياتهم . ولكن حزب الاستسلام قرر الاجتماع في باب البحر وإرسال وفد إلى كل من الداي والقائد الفرنسي داعياً للتفاوض وفي ذلك الوفد كان الثلاثة بوركايب وخوجة وبوضربة . وهكذا كان حمدان بوركايب من المهيئين لإتفاق الجزائر الشهير ، أو من المخدوعين بالمظهر الحضاري لفرنسا وكلماتها المعسولة المعلنة للحرية والتحرير . ويؤسفنا أننا لا نذكر من المرجع الذي أخذنا منه هذه المعلومات سوى رقم الصفحات وهو من 315 ـ 318 . ويبدو أن الكاتب قد استقى معلوماته من وثائق خاصة بعائلة بوركايب ، وفيها كما لاحظنا تبريرات التقرب من الفرنسيين ، ولعل بوركايب لو عاش بيننا اليوم لنفى عن نفسه كل تلك المبررات ، كما يفعل الذين تعاونوا مثله مع العدو بالأمس القريب . أما دي رينو فقد اتهم بوركايب بعد القيام بما كلف به ، وشكك في سلوكه وشجاعته ، وقال ان كلوزيل أجبره سنة 1831 على التخلي عن مهمته ونفاه إلى فرنسا فأعطي هناك وسام الشرف وأصبح موضع اهتمام الصحافة والنساء . وقد تزوج بوركايب من امرأة غسالة . وعاد إلى الجزائر في عهد بيرتزين ، ولكن روفيقو نفاه من جديد إلى فرنسا حيث توفي سنة 1834 في سن مبكرة . أنظر دي رينو (حوليات الجزائر) 1/100 وهنا وهناك ، كذلك جورج ايفير (مذكرات خوجة) في (م.ا.) ، 1913 ، ص 96 هامش 116

الدين يستقيل ، خصوصاً وقد أصبح مهدداً في حياته ، وانضم الى مقاومة الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة على مليانة . وخلال 1833 انشيء (مكتب الشؤون العربية) في عهد أفيزار Avizard ، وكانت مهمة هذا المكتب هي المراسلات والعلاقات مع العرب خارج المدن ، عن طريق ترجمة الوثائق المتعلقة بهم أو الواردة منهم . وقد قام بهذا الدور أول مرة الضابط لامورسيير الذي كان ما يزال في العقد الثالث من عمره والذي كان يحسن العربية . وقد أصبح المكتب العربي عبارة عن إدارة للإعلام والدعاية . ولم تطل مدة لامورسيير فيه اذ تولاه سنة 1834 ضابط آخر خبير بلغة وعادات الجزائريين ، هو بيليسييه دي رينو مؤلف كتاب (حوليات الجزائر). وكان ذلك لفترة قصيرة لأن الحاكم العام ديرلون حاول ، كما ذكرنا ، اجراء تنظيمات بلدية ، ومنها اعادة العمل بوظيفة (آغا العرب) . وقد أسند هذه الوظيفة الى (ماري مونج) في نفس السنة المذكورة، وكان مونج قائداً سابقاً لفرقة (الفرسان الصبائحية). وعندما تولى الحاكم العام دامريمون (فبراير 1837) أنشأ ادارة مركزية للشؤون العربية وعين على رأسها الضابط دي رينو السابق ، وقد استمر في هذه المهمة حوالي سنتين ، ثم استقال منها سنة 1839 بعد خلاف مع الحاكم العام فاليه ، الذي سنعود الى الحديث عنه . وفاليه هذا هو الذي ربط الشؤون العربية بقيادة الاركان العامة للجيش ، واعطى الاولوية للغزو العسكري على إدارة الجزائريين . غير ان بوجو سيعود سنة 1841 الى الإهتمام بإدارة الشؤون العربية وسيعطي قيادتها ليوجين دوماس E. DUMAS وسيجعل منها إدارة لقهر الجزائريين وتوجيه قياداتهم ، بواسطة « المكاتب العربية » التي زرعت في كل مكان ، والتي كان على رأس كل منها ضابط برتبة عقيد ومعه خلية من الأعوان والمترجمين والجواسيس والجنود .

* * *

عاد كلوزيل اذن الى الجزائر سنة 1835 خلفا لديرلون ، وأصدر بياناً مزجه بالوعد والوعيد كعادته . ففي 19 اغسطس خاطب الجزائريين فيه بما يلي : انه سيحقق الوعود التي وعد بها سنة 1830 لمالكي الدور التي هدمت للصالح العام ، وانه سيرفع الحجز قريباً عن الممتلكات المصّادرة ، وانه خلال سنة واحدة سيحرر المالكين ، من السكان العسكريين (الذين كانوا الى ذلك الحين عبئاً عليهم) ووعد بتعويض المالكين عن ذلك حين تسمح الوسائل المالية (؟) . كما خاطبهم مهدداً ناصحاً قائلاً انهم لم يقدروا كرم الفرنسيين الذين رفعوهم الى مستواهم (؟) وانهم ما

يزالون يحنّون الى العهود السابقة رغم وضعهم المتواضع خلالها ، وقـال انه على اطلاع كامل عما يحيكونه من مؤامرات وما يتراسلون به من مراسلات يظنون انهـا سرية ، وما هي بالسرية عليه[65] ! ومن أبرز ما قال في افتتـاح عهده الجـديد في الجزائر وهو يخاطب الجزائريين : ان دينكم هو الذي ينص على وجوب الطاعة عند الضرورة ، وان القادر على الحماية قادر أيضاً على العقاب . وهكذا تحول كلوزيل الى مفتي إسلام .

أما الجانب الاوروبي في الجزائر فقد وعده كلوزيل بفتح أبواب الاستعمار ، وذلك بتشجيع الهجرة الاوروبية الى الجزائر ليجعل منها أرضاً تضاهي أمريكا (التي فر اليها من حكم الإعدام الذي صدر ضده ، كما عرفنا) . وقال انه جاء لفتح أبواب التجارة والأعمال الإستعمارية واستغلال الأرض[66] . وقد فعـل كلوزيل كلمـا في وسعه ليجعل الجزائر مستعمرة تعج برؤوس الأموال الأوروبية وتوزع فيها الأراضي على كل قادم من اوروبا وتوفر أيضاً مختلف المغريات للإقامة والاستيطان .

وقد تميز عهد كلوزيل الثاني بالصراع مع قوات المعارضة السياسية في المدن الجزائرية ـ سيما مدينة الجزائر ، وبالمغامرات العسكرية التي انتهت جميعها تقريباً بالفشل . أما الجانب المدني فسنعرض اليه عند حديثنا عن التيارات السياسية خلال العهد المدروس . وأما الحملات العسكرية فنذكر منها حملته على معسكر (عاصمة الأمير) التي انتهت بالفشل ، اذ دخلها جيش كلوزيل فوجدها خاوية على عروشها ، فادعى أنها غير ذات أهمية وخرج منها مذموماً مدحوراً . وكان ذلك خلال شهر نوفمبر 1835 . وأما حملة تلمسان (يناير ـ فبراير 1836) فقد كانت أنجح من سابقتهـا وذلك لتعاون الفريق الذي اسميناه الحزب التركي بزعامة مصطفى بن اسماعيل مع العدو . والغريب في الأمر ان الفرنسيين الذين كانوا قد رفعـوا شعار القضـاء على الأتراك وحزبهم في الجزائر ، أصبحوا يبحثون بالمجهر لعلهم يجدون تركيا أو متتركا ليقدموا اليه يد المساعدة ضد العرب الذين ادعى الفرنسيون أنهم جاؤوا لتحريرهم ! وقد زها كلوزيل بنفسه عندئذ فأعلن أن نفوذ الأمير قد انتهى في تلمسان وغيرها ، وأن الحرب نفسها قد انتهت . ثم فرض على أهل تلمسان عقوبة صـارمة بـأن جعلهم

---

(65) سنعرف كيف كان كلوزيل يطلع على مراسلات الشيفرة التي كان يستعملها قادة المقاومة .

(66) أنظر (مراسلات كلوزيل) 1/28 ـ 30 .

يدفعون ضريبة حرب وغرامات أخرى قاسية ، مما جعل السكان يزدادون نفوراً وابتعاداً عن كل ما هو فرنسي. وبعد أن عين كلوزيل ابراهيم بوشناق بايا على تلمسان، (وهو غير الباي إبراهيم الكريتلي الذي ظهر في عنابة...) وترك معه حامية فرنسية تدعمها قوات مصطفى بن اسماعيل، غادر تلمسان متبجحاً بانتصاره الصوري.

وقد شجعه ذلك على تنفيذ طموحه في احتلال قسنطينة أيضاً وافتكاكها من يد الحاج احمد ، كما افتك تلمسان من يد الأمير عبد القادر . وكانت حملة قسنطينة تحتاج الى دعم خارجي (تأييد الحكومة الفرنسية) . أما الدعم الداخلي فقد شرع فيه بتسمية اللقيط يوسف بايا على اقليم قسنطينة ، وعزل (كذا) الحاج احمد من وظيفته (وليست هذه هي أول مرة يتصرف كلوزيل فيما لا يملك ، ومنها بيع الاقليم سابقاً الى باي تونس) . وجعل مقر (الباي) يوسف هو عنابة في انتظار احتلال قسنطينة[67] . وعندما تغيرت الحكومة الفرنسية التي كانت تشك في قدرة كلوزيل على انجاح الحملة ، كان من حسن حظه أو سوء طالعه (لأن الحملة انتهت بالفشل كما نعرف) ان الذي تولى رئاسة الوزارة هو (تيير) البرجوازي الصغير الذي كان ، مثل كلوزيل ، مفعماً بروح العظمة الفارغة التي قرأ عنها في كتب التاريخ (وكان تيير بالمناسبة من أبرز المؤرخين الفرنسيين) ! ولكنه لم يستطع تحقيقها في الميدان . ومهما كان الأمر فقد أيد تيير مشروع كلوزيل في غزو قسنطينة ووقف ضد الإحتلال المحدود للجزائر ، وأظهر بعض المبادىء الدبلوماسية المحفوظة ليقنع زملاءه المترددين في البرلمان قائلاً لهم : ان السلام لا يتحقق الاّ بعد الحرب ، وأن المفاوضات لا تكون الاّ اذا توفرت القوة ! (وكذا تقول دوائر الحرب والسلم اليوم ، ولكن قومنا لا يعتبرون) ! وأخيراً جاء تأييد الملك لويس فيليب نفسه ، لحملة قسنطينة ، وكبرهان على مباركته أرسل الملك ابنه ، الدوق دونمور ، الى عنابة للمشاركة في الحملة وليرفع الروح المعنوية عند كلوزيل وجيشه الخائف .

وكانت نتيجة حملة قسنطينة سنة 1836 معروفة . فقد ارتعدت فرائس هذا الجيش أمام حصون عاصمة الشرق الجزائري . وأبدى المدافعون عنها شجاعة فائقة وصمودا مثالياً ، في وجه جيش جرار وصل ثلاثين ألفا ، تحميه أسلحة متطورة

---

(67) عن الفظائع التي ارتكبها اللقيط يوسف ضد الجزائريين قبل حملة قسنطينة الأولى ، أنظر آزان (الاحتلال . . .) ، ص 165 ـ 175 .

ومدفعية فتاكة . ولم يصل هذا الجيش إلى ضواحي المدينة الا بصعوبة كبيرة اذ اعترضت طريقه مقاومة أهل الريف بين عنابة وقسنطينة ولقنته درساً قاسياً . وكذلك الحال عند تقهقره . وعاد كلوزيل إلى الجزائر يجر أذيال الخيبة والعار بعد أن خسر ماء وجهه وخسر معه العديد من جنوده قتلى (11 ضابطاً قتلوا) وجرحى . ولم يسع حكومة (تيير) التي كانت تنتظر النتائج الايجابية لتفاوض من مركز القوة وتفرض السلام عن طريق الحرب ، الا أن تضع حداً نهائياً لمغامرات كلوزيل في الجزائر بعد أن افتضحت كل أوراقه في المرتين . وقد عينت الجنرال دامريمون خلفاً له ، وسيحاول هذا الجنرال بدوره غزو قسنطينة مرة أخرى فإذا به يلقى حتفه عند أسوارها قبل أن يذوق حلاوة ما دبرت يداه . ولم يكن هذا العار مقصورا على كلوزيل وجيشه بل تعداه إلى الحكومة التي دبرت معه ذلك الغزو ، فأخذت تعد العدة للقيام بغزو جديد يمسح العار ، ويرد الاعتبار ، وتبذل المال والدبلوماسية والجنود والسلاح لإنجاح الحملة الجديدة على قسنطينة.

وقد كان شارل دينيس دامريمون من وائل ضباط الاحتلال الذين حاولوا احتلال عنابة في عهد بورمون (1830) فلم يفلح . ولم يكن تعيينه خلفا لكلوزيل عن جدارة وانما يرجع إلى تدخلات زوجته ، ذلك أن مؤرخي الفرنسيين يقولون عنه بأنه كان متعباً قبل الأوان وأنه كان شخصية بدون محتوى . ولعل أخطاء سلفه واستعداده لتلقي التعليمات ممن هو أعلى منه هو الذي رشحه أيضاً في فيفري 1837 لكي يكون ممثلاً للسيادة الفرنسية في الجزائر . فقد كلفته الحكومة ومجلس النواب أن يعمل على أن يكون الاحتلال محدوداً ومتدرجاً وسلمياً ، وهو تكليف في الحقيقة فوق طاقة دامريمون وضباطه المتعطشين للغزو والتسلط أمثال بوجو وفاليه وبريقو . وكان هذا الثالوث هو العنصر الفعال في جيش دامريمون . فقد تعين بوجو على اقليم وهران خلفا لبروسار في نفس الوقت الذي تم فيه تعيين دامريمون حاكماً عاماً. وكان فاليه معتبراً في ذلك الحين عبقرية جيش الاحتلال في المدفعية . أما بريقو فقد كان متولياً قيادة الأركان ومحل ثقة الحاكم العام الجديد.

وأثناء مناقشة الحكومة لميزانية الجزائر . وخصوصاً ميزانية حملة جديدة ضد قسنطينة ، انطلقت المفاوضات في كل اتجاه . مفاوضات بين الأمير وبوجو التي انتهت بمعاهدة التافنة ، وهي المعاهدة التي قام فيها اليهودي ابن دوران بدور

الوسيط ، وكان يكذب على الطرفين وينال من كل طرف امتيازات له ولقومه . وهي أيضاً المعاهدة التي اتهم فيها بوجو باستلام أموال قبل توقيعها واخفاء بنود خاصة فيها على حكومته ؛ ومفاوضات أخرى بين الحاج أحمد ومبعوثي دامريمون بواسطة اليهودي موسى بوشناق المتهم أيضاً بأنه كان يأخذ من الطرفين وأنه كان في الواقع عميلاً لدامريمون . كما أن السلطات البحرية الفرنسية منعت قطعة بحرية عثمانية من افراغ معونة عسكرية للحاج أحمد ، وفاوضت تونس على الحياد بل وهددتها . وكان هدف المفاوضين الفرنسيين مع الجزائريين الحصول على الاعتراف بالسيادة الفرنسية بدفع اتاوة سنوية لفرنسا. ولكن ذلك قد رفضه الطرف الجزائري سواء الأمير عبد القادر أو الحاج أحمد.

كانت قوات الحملة هذه المرة تبلغ 20.400 جندي ، ومعززة بمدفعية كافية، ومؤونة احتياطية معتبرة . وقد توزعت المهام على النحو التالي : تولى الحاكم العام دامريمون قيادة الحملة بنفسه أمام رفض بوجو خوفاً من العواقب ، وكذلك أمام خوف الملك الفرنسي على حياة ابنه وولي العهد الدوق دورليان الذي فضل أن يشارك في الحملة كضابط لا كقائد لها ، ليكون فقط رمزاً على تأييد العائلة المالكة للاحتلال وتنفيذ الحملة على قسنطينة . ولم يكتف الملك بذلك بل انه أرسل ابنه الآخر الدوق دي نمور ليقود فرقة في جيش الحملة ، تشجيعاً للجنود ورمزاً للمباركة كما ذكرنا . أما مهمة قيادة الأركان فقد تولاها ، كما أوضحنا ، الجنرال بريقو ، وأما قيادة المدفعية فقد تولاها الجنرال فاليه . وقد تجمع جيش العدو في مجاز عمار قرب قالمة[68] ، ثم تقدم نحو قسنطينة التي وصلها خلال خمسة أيام ونصب مدافعه حولها .

كان دفاع المدينة مسنوداً إلى القائد ابن عيسى الذي طالما حارب الفرنسيين في عنابة والذي أظهر حنكة ومقدرة فائقة أثناء الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة ، أما الحاج أحمد فقد كان يراقب سير المعركة من على ربوة خارج المدينة . ويقال أنه كان متهيئاً للهروب اذا نجحت الحملة ، وأنه لم يقم بأي دور في الدفاع عن المدينة ، معنوياً كان أو عسكرياً ، كما يقال أنه اصطحب معه عائلته وما هو عزيز عليه من مال ومتاع قبل بدء القتال . وقد صمدت المدينة من جديد رغم تقدم العدو إلى كدية

---

(68) حوالي 13 كم جنوب ـ غرب قالمة .

عاتي وشدة قصف المدفعية التي كانت تحاول التأثير على المعنويات وايجاد ثغرة في سور المدينة . وقبل أن تفتح هذه الثغرة ضربت المدافع الجزائرية بكورها قائد الحملة دامريمون وقائد أركانه بريقو فأردتهما قتيلين في الحين . ولكن فاليه تولى القيادة وواصل ضرب المدينة إلى أن فتح ثغرة في السور، ومنها تسرب الجنود الذين وجدوا أمَامَهم مقاومة عنيدة. وقد سقطت منازل كثيرة نتيجة قصف المدفعية . ووقع الهلع بين السكان بعد أن اختفت قيادتهم . وأباح فاليه المدينة للجنود فنهبوا وحطموا وأقاموا سوقاً للمبادلات في الأشياء المسروقة والمنهوبة[69] . واذا كانٍ دامريمون لم يجد من يقيم له تمثال مجد لشجاعته فانه على الأقل قد وجد في الموسيقار (برليوز) فناناً يذرف عليه الدموع في اللحن الذي سماه (قداس الأموات) على أعتاب كنيسة الانفليد !

9. طمس معالم المدن والتدخل في القيم الوطنية :

منذ غزا الفرنسيون الجزائر أخذوا يطمسون معالمها العربية الاسلامية الشرقية ويُحلّونَ المعالم الفرنسية بدلها . وقد شمل ذلك كل المدن بدون استثناء ولكن بدرجات متفاوتة . وقد شرعوا في ذلك منذ الوهلة الأولى مما يدل على عزمهم على البقاء والاحتلال الدائم خلافاً لمن يزعم أنهم كانوا مترددين في البقاء وعدمه . وشمل الطمس تغيير الشوارع وأسمائها ، وتهديم المنازل والأسواق القديمة وإحداث الساحات مكانها ، وتحويل الدور والفيلات والقصور إلى مؤسسات عمومية للجيش والمستشفيات ونحو ذلك ، وقد بيعت دكاكين وأضرحة وغيرها إلى الأوروبيين ليتاجروا فيها ، كما جرى تحويل المساجد إلى كنائس ومخازن ومستشفيات ، وتهديم بعضها نهائياً دون استبدالها بأخرى . ونفس الموقف كان مع المدارس والكتاتيب والزوايا . وقد ساعد نفي المواطنين وهجرتهم على ذلك . حدث ذلك للأحياء العربية قبل انشاء الأحياء الأوروبية في المدن الجزائرية .

ومن أبرز المدن التي تأثرت بذلك منذ الوهلة الأولى هي العاصمة طبعاً . وقد امتاز الطمس الذي عرفته بالعنف والعنجهية والتعصب لأنها كانت ، في نظر

---

(69) جوليان (تاريخ . . .) ، ص 142 .

الفرنسيين ، رمزاً للقرصنة والقوة والدين الإسلامي والجهاد ، ولأنها كانت مقراً للسلطة التي طالما دوخت الأساطيل الأوروبية وأرعبت تجارها وقناصلها . فكان الانتقام من معالم الجزائر العربية الاسلامية هو انتقام الصليب من الهلال عند البعض ، وانتقام الفقراء من الأغنياء عند البعض ، وانتقام الجبناء من الأقوياء عند البعض ، بل ان المرء يحس ان في حملة الفرنسيين على الجزائر انتقاماً أيضاً من الهزائم الفرنسية (والأوروبية) ضد الاسلام والشرق ، بما فيها الحملة الفرنسية على مصر، والاّ كيف نفسر ذلك الاستهتار الذي أبداه قادة الحملة وجنودها بالقيم الإسلامية والمؤسسات الدينية والأخلاق العامة والآثار التاريخية وأملاك الناس ؟

من أوائل ما اتخذه الفرنسيون من اجراءات هو نقل المدفع (بابا مرزوق) من الجزائر إلى فرنسا . وقد يظهر لك هذا أمراً بسيطاً ، ولكننا نعتقد أن المدفع كان يرمز إلى أشياء كثيرة . أنه قبل كل شيء رمز الذكورة والقوة . ونقله ، بالاضافة إلى أنه لصوصية عسكرية وثقافية ، كان يعني خلو الجزائر من رمزها الأقوى والأكثر فحولة . والمدفع بابا مرزوق صنع في القرن السادس عشر (1542) ونصب على المرسي احتفالاً بانتهاء الأشغال فيه ، وكان منتصباً كالنسر الجبار على باب الجهاد ، المطل على البحر . وكان الفرنسيون يسمونه (القنصلير) ويرتعدون منه اذا ذكر لهم لأن الجزائريين في الماضي كانوا قد وضعوا في فوهته قنصل فرنسا (لوفاشي) سنة 1683 وقصفوه به إلى البحر ثم كرروا ذلك مع خليفة لوفاشي ، وهو (بيول) سنة 1688 ، أثناء قصف (دوكيني) قائد أسطول لويس الرابع عشر مدينة الجزائر . هكذا تذهب الروايات الفرنسية . ولذلك سارعوا إلى ازالة (بابا مرزوق) من مكانه وحملوه إلى (بريست) على المحيط الأطلسي ونصبوه هناك في احدى الساحات (27 يوليو ، 1833) كجزء من غنائم الحملة على الجزائر[70] . وقديماً قام زعيمهم ، نابليون الأول ، بالسطو على مسلات مصر وتحف وآثار غيرها . ولم يكن يدري انه (وكذلك خلفاؤه) كان بذلك يبرهن على ضعف حضارته !

وكان الضباط الفرنسيون قد استولوا أيضاً على قصور الباشوات وفيلات أعيان المدينة وجعلوها مساكن لهم باسم الفتح والغلبة ، رغم أن ما كان يريد أولئك الأعيان

---

(70) أنظر ألبير ديفوكس ، (المجلة الافريقية) ـ 1873 ـ ص 1 ـ 3 .

عاتي وشدة قصف المدفعية التي كانت تحاول التأثير على المعنويات وايجاد ثغرة في سور المدينة . وقبل أن تفتح هذه الثغرة ضربت المدافع الجزائرية بكورها قائد الحملة داميريمون وقائد أركانه بريقو فأردتهما قتيلين في الحين . ولكن فاليه تولى القيادة وواصل ضرب المدينة إلى أن فتح ثغرة في السور، ومنها تسرب الجنود الذين وجدوا أمَامَهم مقاومة عنيدة. وقد سقطت منازل كثيرة نتيجة قصف المدفعية . ووقع الهلع بين السكان بعد أن اختفت قيادتهم . وأباح فاليه المدينة للجنود فنهبوا وحطموا وأقاموا سوقاً للمبادلات في الأشياء المسروقة والمنهوبة[69] . واذا كان داميريمون لم يجد من يقيم له تمثال مجد لشجاعته فانه على الأقل قد وجد في الموسيقار (برليوز) فناناً يذرف عليه الدموع في اللحن الذي سماه (قداس الأموات) على أعتاب كنيسة الانفليد !

9. طمس معالم المدن والتدخل في القيم الوطنية :

منذ غزا الفرنسيون الجزائر أخذوا يطمسون معالمها العربية الاسلامية الشرقية ويُحلّونَ المعالم الفرنسية بدلها . وقد شمل ذلك كل المدن بدون استثناء ولكن بدرجات متفاوتة . وقد شرعوا في ذلك منذ الوهلة الأولى مما يدل على عزمهم على البقاء والاحتلال الدائم خلافاً لمن يزعم أنهم كانوا مترددين في البقاء وعدمه . وشمل الطمس تغيير الشوارع وأسمائها ، وتهديم المنازل والأسواق القديمة وإحداث الساحات مكانها ، وتحويل الدور والفيلات والقصور إلى مؤسسات عمومية للجيش والمستشفيات ونحو ذلك ، وقد بيعت دكاكين وأضرحة وغيرها إلى الأوروبيين ليتاجروا فيها ، كما جرى تحويل المساجد إلى كنائس ومخازن ومستشفيات ، وتهديم بعضها نهائياً دون استبدالها بأخرى . ونفس الموقف كان مع المدارس والكتاتيب والزوايا . وقد ساعد نفي المواطنين وهجرتهم على ذلك . حدث ذلك للأحياء العربية قبل انشاء الأحياء الأوروبية في المدن الجزائرية.

ومن أبرز المدن التي تأثرت بذلك منذ الوهلة الأولى هي العاصمة طبعاً . وقد امتاز الطمس الذي عرفته بالعنف والعنجهية والتعصب لأنها كانت ، في نظر

---

(69) جوليان (تاريخ . . .) ، ص 142 .

الفرنسيين ، رمزاً للقرصنة والقوة والدين الإسلامي والجهاد ، ولأنها كانت مقراً للسلطة التي طالما دوخت الأساطيل الأوروبية وأرعبت تجارها وقناصلها . فكان الانتقام من معالم الجزائر العربية الاسلامية هو انتقام الصليب من الهلال عند البعض ، وانتقام الفقراء من الأغنياء عند البعض ، وانتقام الجبناء من الأقوياء عند البعض ، بل ان المرء يحس ان في حملة الفرنسيين على الجزائر انتقاماً أيضاً من الهزائم الفرنسية (والأوروبية) ضد الاسلام والشرق ، بما فيها الحملة الفرنسية على مصر، والاّ كيف نفسر ذلك الاستهتار الذي أبداه قادة الحملة وجنودها بالقيم الإسلامية والمؤسسات الدينية والأخلاق العامة والآثار التاريخية وأملاك الناس ؟

من أوائل ما اتخذه الفرنسيون من اجراءات هو نقل المدفع (بابا مرزوق) من الجزائر إلى فرنسا . وقد يظهر لك هذا أمراً بسيطاً ، ولكننا نعتقد أن المدفع كان يرمز إلى أشياء كثيرة . أنه قبل كل شيء رمز الذكورة والقوة . ونقله ، بالاضافة إلى أنه لصوصية عسكرية وثقافية ، كان يعني خلو الجزائر من رمزها الأقوى والأكثر فحولة . والمدفع بابا مرزوق صنع في القرن السادس عشر (1542) ونصب على المرسي احتفالاً بانتهاء الأشغال فيه ، وكان منتصباً كالنسر الجبار على باب الجهاد ، المطل على البحر . وكان الفرنسيون يسمونه (القنصلير) ويرتعدون منه اذا ذكر لهم لأن الجزائريين في الماضي كانوا قد وضعوا في فوهته قنصل فرنسا (لوفاشي) سنة 1683 وقصفوه به إلى البحر ثم كرروا ذلك مع خليفة لوفاشي ، وهو (بيول) سنة 1688 ، أثناء قصف (دوكيني) قائد أسطول لويس الرابع عشر مدينة الجزائر . هكذا تذهب الروايات الفرنسية . ولذلك سارعوا إلى ازالة (بابا مرزوق) من مكانه وحملوه إلى (بريست) على المحيط الأطلسي ونصبوه هناك في احدى الساحات (27 يوليو ، 1833) كجزء من غنائم الحملة على الجزائر[70] . وقديماً قام زعيمهم ، نابليون الأول ، بالسطو على مسلات مصر وتحف وآثار غيرها . ولم يكن يدري انه (وكذلك خلفاؤه) كان بذلك يبرهن على ضعف حضارته !

وكان الضباط الفرنسيون قد استولوا أيضاً على قصور الباشوات وفيلات أعيان المدينة وجعلوها مساكن لهم باسم الفتح والغلبة ، رغم أن ما كان يريد أولئك الأعيان

---

(70) أنظر ألبير ديفوكس ، (المجلة الافريقية) ـ 1873 ـ ص 1 ـ 3 .

تفاديه من المواجهة هو ذاك حين ضغطوا على الباشا لقبول الصلح . وقد فعل أولئك الضباط بتلك المنازل ما فعلوا بالمدفع بابا مرزوق ، فسلبوها من تحفها الذهبية والفضية والعاجية ، ومن سيوفها وأسلحتها الأخرى ، وأرسلوا بها إلى بلدياتهم وذويهم عنواناً على المجد والانتصار . وكان من المفهوم أن يستولوا على ثكنات الجيش الانكشاري ما داموا قد تغلبوا عليه وحملوه في السفن إلى أزمير . ولكن استيلاءهم على المساجد وجعلها مستشفيات عسكرية ومخازن للجيش لا يبرره الا الاستهتار بالدين الاسلامي الذي وافقوا على احترامه وحماية أهله ، ولا يقره إلاّ التعصب الديني الأعمى الذي يهدف إلى جرح المسلمين في مقدساتهم . وستعرف كم هي المساجد التي أصبحت مؤسسات عسكرية سواء في مدينة الجزائر أو في وهران أو عنابة الخ .

وأمام عجز الجنود الفرنسيين عن مواجهة المقاومة وحرارة الشمس « الافريقية » (وقع الغزو في أوج الصيف كما هو معلوم) ، فإن قادة الغزو فكروا في تعويض ذلك الجيش الذي تعاونت على هزيمته حرارة المقاومة وحرارة الشمس . ذلك أن كثيراً من الجنود كانوا يظنون أن الحملة نوع من السياحة على الضفة الأخرى من البحر الأبيض . فإذا بهم يواجهون السيوف في صدورهم والبنادق في ظهورهم ونيران الشمس على رؤوسهم . فسقط البعض منهم مريضاً أو متمارضاً ، وعاد البعض إلى بلادهم باسم الخوف والحنين ونهاية أدوارهم في المسرحية . وهكذا تقلص عدد الجند ابتداء من عهد بورمون . وتقول روايات الفرنسيين أن بورمون هو الذي فكر في انشاء قوة عسكرية محلية ابتداء من نهاية أوت 1830 ، ولكنه ترك تنفيذ الفكرة لخلفه كلوزيل . فقد ادعى بورمون أن التقارير أثبتت له صلاحية سكان الجبال الجزائرية للخدمة العسكرية الجيدة ، وأنه تأكد لديه أن حكام الجزائر وتونس كانوا يؤلفون منهم قوة ناجحة باسم (الزواوة) وهو الاسم الذي أصبح عند الفرنسيين (الزواف) وقد استغرق تأليف هذه الفرقة وفرنستها وقتاً طويلاً اذ كان بعض الشبان يدخلونها ثم يفرون منها ، وكان رؤساؤها طبعاً ضباطاً فرنسيين . وقد جعلوا لهذه الفرقة لباساً متميزاً معظمه في اللون الأحمر باستثناء قوادهم الذين تميزوا بلباس (جاكيته) زرقاء .

ومن أغرب ما أنشأه الفرنسيون فرقة احتياطية تسمى (ليجون دي باري) ـ فرقة باريس ـ وكانت تتألف من حثالات الناس الذين لم يجدوا عملاً في باريس . وكان

أعضاؤها عنواناً على الجهل وعدم الانضباط والغطرسة حتى لقد سماهم قومهم في الجيش النظامي : (بَدْوُ بـاريس) . وكانت هـذه الفرقـة التي كانت تضم حـوالي ألفين ، نكبة ثقيلة على الأخلاق ومثالاً للمعاملات المشينة في الجزائر . وهناك أيضاً فرقة (اللفيف الأجنبي) التي تألفت سنة 1833 ، من نفايات كل الأمم ، وكانت لا تشتـرك في شيء الا القتل والنهب والاعتـداء . والعنوان على شجـاعتها هـو عدد الرؤوس التي كانت تقطعها والغنائم التي تبتزها . وقد عانى الجزائريون طيلة الوجود الاستعماري من هذه الفرقة المشؤومة . أما النوع الرابع من هؤلاء الجنود فهو الذي أطلقوا عليه اسم (شاسور دافريك) ـ قناصة افريقية ، وهو جيش من الفرسان أنشىء للمطاردة والملاحقة والغارات على الآمنين . وقد سبق لنا القـول بأن المستـوطنين الجدد قد ألفوا منهم أيضاً حرساً وطنياً اشترك فيه أصحاب الأعمار من 20 إلى 60 سنة ، وفيهم المشاة والفرسان . وكانوا يدافعون بالدرجـة الأولى على مغتصباتهم وبالدرجة الثانية على مغتصبات بلادهم في الجزائر ، ضد قوات المقاومة الوطنية . وكان عدد هذا الحرس عند انشائه سنة 1832 ، حوالي 500 من المشاة وحوالي 30 فارساً . أما الجيش النظامي فقد كان لا يقل سنة 1832 عن ثلاثين ألفاً ، نصفه في مدينة الجزائر وحدها[71] . ولكن هذا العدد سيـأخذ في التضخم بعـد أن دعمت الحكومة الفرنسية قوات بوابيه في وهران وقوات مونك دوزير في عنابة . كما ازداد عدده بصورة أكبر أثناء حملة قسنطينة الثانية ، وهكذا .

ان التأثير على معالم الجزائر قد بدأ عن طريق هذا الجيش المخضرم ، ذلك ان المدنيين الفرنسيين لم يؤثروا في الجزائر الا بعد سنوات رغم أن وجودهم قد أخذ يزداد تدريجياً . ففي سنة 1832 (عهد روفيقو) كـان عدد الفـرنسيين والأوروبيين المدنيين 4.141 شخصاً . يضاف إلى ذلك حـوالي 680 شخصاً من المـوظفين المدنيين وزوجات الجنود والسواح ، وكذلك اضافة حوالي 520 شخصاً من الجنود المسرحين . وهكذا يكون عدد المسيحيين في مدينة الجـزائر سنـة 1832 حوالي 5.341 نسمة . وكان هناك أيضاً 6.500 يهودي ، في حين أن العرب الجزائريين فيها أصبحوا سنة 1832 لا يتجاوزون العشرة آلاف (بعد أن كان عددهم مائة ألف

(71) إحصاءات الجيش الفرنسي وأنواعه موجودة في مصادر كثيرة ، منها بول آزان (الاحتلال . . .) أنظر أيضاً تامبل (جولة . . .) ص 24 ـ 38 .

عند البعض وسبعين ألفاً عند آخرين ، وأربعين ألفاً عند فريق آخر[71م] . وهكذا تلاحظ أن مدينة الجزائر كانت ما تزال ، وستبقى مدة ، عبارة عن ثكنة عسكرية تحت رحمة جيش الغزو والاحتلال . وقد كانت مهمة الجيش ليس فقط الدفاع عن المدينة ولكن أيضاً تغيير معالمها والشروع في عمليات الاستعمار حولها (استغلال الأرض وإقامة المستوطنات ، وتربية الماشية الخ .).

خلال وقت قصير هدم الفرنسيون مئات المنازل في الجزائر لإقامة ساحة الحكومة وغيرها . وكانت طريقة البناء تجعل سقوط البعض يؤدي بالضرورة إلى سقوط غيره معه بالتتابع ، لأن البنايات كانت متلاصقة ببعضها والشوارع ضيقة . أما اذا هطلت الأمطار أثناء عملية الهدم فإن ركام البنايات يزداد ضخامة . ومن المشاريع التي لجأ فيها الجيش الفرنسي من أجلها إلى هدم المنازل والمساجد والأضرحة هي ساحة الحكومة ، والمسرح ، والكنيسة والفندق ، الخ . وكان الطريق من البحر إلى المدينة يمر بالجامع الكبير ، فوقع مده بطريقة تصدم مشاعر المسلمين اذ وقعت تعرية الأسس التي كان يقوم عليها والتي زعموا أنها من الآثار الرومانية . فكانوا يعتقدون أن هيكل الجزائر القديمة ، (ايكوسيوم) موجود هناك ، وأن المدينة الجديدة قائمة على تلك الأسس ، وكانوا يريدون أن يظهروا أنه مهما تغيرت العصور فان أوضاعاً مشابهة يمكن أن تنتج دائماً تغييرات متشابهة[72] .

ومن آثار التغيير أيضاً تبديل أسماء الشوارع والأبواب والمؤسسات الخ . بإعطائها أسماء رومانية وأوروبية ، ودينية مسيحية وتاريخية . وهذه بعض الأسماء التي أصبحت متداولة خلال سنتي 1832 ـ 1833 : شارع يوبا ، شارع شارل الخامس ، شارع دوكين ، شارع دوريا ، شارع كليبر . . . وكذلك تسمية باب المرسى (باب الجهاد) باسم باب فرنسا ، أو أسماء فرنسية مثل : شارع أورليان ، وترواكولار (الألوان الثلاثة) ، ولا شارت ، الخ . وكذلك أسماء أوروبية مثل سيدني سميث . . .

(71م) تامبل (جولة . . .) ، ص 22 . وكان تامبل قد زار العاصمة في سنة 1832 .

(72) أنظر جوزيف بلاكيسلي (Blakesley) (أربعة شهور في الجزائر) ، ص 14 . أنظر أيضاً د . ج . مونتانيو Montagne (وجه مدينة الجزائر = فيزيولوجية . . . مدينة الجزائر) ، 1833 ، ص 17 ـ 21 .

ويروي شاهد عيان خلال سنتي 1832 ـ 1833 أن وجه مدينة الجزائر قد أخذ يتحول من الطابع الشرقي إلى الطابع الغربي . فقد روى السيد تامبل الذي كان بالجزائر سنة 1832 أن الفرنسيين أقاموا حفلة بمناسبة استرجاع الملكية في بلادهم (المعروفة باسم رستوراسيون Restauration) خلال شهر يوليو . ولاحظ أن بعض الموظفين الجزائريين قد دعوا إليها ، وأن الألبسة المحلية والأوروبية قد امتزجت خلال الحفلة . كما لاحظ أن القبعات كانت تختلط بالعمائم ، وأن (السيقار) قد حل محل الغليون (الشيشة) القديم ، وبدأت البزارات الشرقية تترك مكانها للدكاكين الأوروبية ، والمخازن الفرنسية التجارية . كما أصبحت المدينة على عهده تتوفر على احدى عشرة مقهى بالبيليار ، وأربعة فنادق كبيرة ، وثلاثة مطاعم ، ومكتبتين للمطالعة ، وسيرك ، وكوزموراما ، وكابريولات ، وحافلات صغيرة (أو منيبوس)[73] أما مونتانيو فقد ذكر ، سنة 1833 ، أن الفرنسيين قد أخذوا يدخلون عاداتهم وتقاليدهم إلى الجزائر ، فأصبحت تحتوي على الكاباريهات ، والمقاهي ، وكابينات القراءة ، والأماسي الموسيقية ، ومحافل الماسونية ، كما لاحظ وجود السيدات الجميلات الرشيقات (في نظره طبعاً) ، والمراقص والألعاب والمرطبات ، بالإضافة إلى وجود المنتوجات الغذائية للسهرات والمآدب والكحوليات والمشروبات الخ[74] .

وفي مقابل ذلك أخذ الفرنسيون يقلدون الجزائريين أيضاً . وقد رأينا صوراً لكبار الجيش ، خصوصاً أولئك الذين تولوا مسؤوليات تهم العرب مباشرة مثل آغا العرب، أو وظائف في المكاتب العربية. . . . مثل فيرج، وماري، ويوسف، الخ . الذين ظهروا في لباسهم العربي الجزائري حتى أنك اذا لم تقرأ أسماءهم لا تعرف هل هي صور لجزائريين أو فرنسيين ، فالعمامة (ومعها أحياناً الخيوط السوداء من الوبر أو الشعر) والبرنس والسيف والسروال ، والجاكيته ، وكلها بالألوان الزاهية والمتميزة ،

---

(73) تامبل ، ص 21 ـ 23 .

(74) مونتانيو ، نقلاً عن (المجلة الإفريقية) ، 1927 ، ص 110 .

يذكر (رينال) أن كلوزيل قد أقام سنة 1830 (أثناء عهده الأول) أول حفلة رقص على الطريقة الأوروبية في الجزائر ، وقد حضرتها نساء إنكليزيات واسبانية وإيطالية وبعض اليهوديات بالإضافة إلى الفرنسيات (ولكن من أي مستوى !) .

يضاف إلى ذلك اطالة اللحى والشوارب ، وتعاطى الشيشة وحلق شعر الرأس تماما الخ . وقد لاحظ أحدهم سنة 1833 بأن الفرنسيين كانوا كالقردة يقلدون غيرهم تقليداً أعمى ، وأنهم شعروا بحرية مطلقة في الجزائر فلم يراعوا حتى العادات المرعية في بلادهم للاحترام والاعتبار ، فهم يدخنون أمام الملأ ، ويستقبلون الناس وهم مستلقون ، ويمشون في الشوارع والسيقار في أفواههم ، واشتروا غليونات أطول من اللازم حتى أصبحت معرقلة ، ومنهم من أطال لحيته إلى ما لا نهاية حتى تغير شكله تماماً[75]. وكانوا بدون شك يعربدون ويصخبون ويعلمون الجزائريين أن الحرية المطلقة تنتج الفوضى المطلقة.

تلك اذن بعض مظاهر الحضارة التي جاء الفرنسيون ليعلموها الجزائريين في مختلف المدن الجزائرية ، وفي الفرق العسكرية . . وذلك هو أول درس في قاعة التعليم . فنحن ما نزال في فاتح العهد الطويل من هذا التحضر الذي دام أكثر من قرن . أما الجزائريون فكانوا يرون ذلك طمسا لحضارتهم وشخصيتهم ، ومساساً بكرامتهم وشرفهم ، وتنجيساً لمقدساتهم وحرماتهم . ولذلك رفعوا عقيرتهم بالمقاومة والاحتجاج والرفض ، كما سنرى.

10. انتهاك حرمة الأملاك :

كانت مدينة الجزائر تضم ، عند غزو الفرنسيين ، أملاكاً متنوعة وكثيرة ، كان بعضها للدولة ، وبعضها للأوقاف ، وبعضها للأفراد ، الخ . ومنذ الغزو لم ينتظر الفرنسيون نتائج حملتهم لتقرير مصير هذه الأملاك بل أخذوا يتصرفون فيها كما لو كانت ملكاً لهم وطبقاً لقوانينهم . ورغم النص الصريح في اتفاق حسين باشا - بورمون على احترام الأملاك الخاصة ، فإن الفرنسيين قد ضربوا بوعودهم عرض الحائط واستهتروا بالاتفاق حتى أن كلوزيل أجاب حمدان خوجة ، عندما احتج له به ، بأن الاتفاق لم يكن سوى « لعبة حرب ».

وحسب المصادر الفرنسية فإن تلك الأماكن كانت سنة 1830 مصنفة على النحو التالي :

---

(75) نفس المصدر ، ص 111 .

أ ـ أملاك البايليك (الدولة) وعددها خمسة آلاف ملكية ، قيمتها تقدر بأربعين ألف فرنك عندئذ . وقد تحولت جميعها إلى الدولة الفرنسية باعتبارها هي التي حلت محل الدولة الجزائرية . ويشمل ذلك بدون شك الثكنات العسكرية والمباني الرسمية وقصور الحكام والوزراء وكبار الموظفين ، ونحو ذلك.

2 ـ أملاك بيت المال ، وكانت تشمل ما يؤول إلى بيت المال من الأملاك المحتجزة ومن لا ورثة له ، الخ . ولا نعرف قيمة هذه الأملاك لأن هذه المصادر لم تذكرها.

3 ـ الأملاك الخاصة ، وتشمل العقار وغيره . وهي الأملاك التي يملكها الأفراد سواء كانوا حاضرين أو غائبين ولا نعرف أيضاً قيمتها في احصاء سنة 1830 المشار اليه.

4 ـ أملاك الأوقاف ، وتشمل سبعة أنواع ، وهي أضخم وأخطر الأملاك !

وأنواعها هي :

- أوقاف مكة والمدينة (أكثرها وأغناها) .
- أوقاف المساجد (من أعظمها وقف الجامع الكبير) .
- أوقاف الزوايا والقباب (الأضرحة)
- أوقاف الأندلس .
- أوقاف الأشراف .
- أوقاف الانكشارية .
- أوقاف الطرق العامة.
- أوقاف عيون الماء[76] .

ولا نعرف أيضاً قيمة هذه الأوقاف في الإحصاء المذكور ، غير أنهم يذكرون أن لها دخلاً عظيماً.

وبمجرد الاستيلاء على المدينة وإباحتها للجند من قبل بورمون ، كما عرفنا ، لم يتحرج الجيش الغالب من سكنى الثكنات التي سارع الفرنسون بإفراغها وترحيل من فيها إلى آسيا الصغرى بدعوى أنهم من مواليدها (كما لو كان الفرنسيون عندئذ قد

(76) حسب إحصاء جرى عام 1833 وجدوا 148 عين ماء ، 120 مسجداً وضريحاً ؛ أنظر ج . موريل Morell ، (الجزائر) ، ص 92 .

ولدوا بالجزائر !) ، كما سكنوا واحتلوا القلاع والأبراج والأبواب الرئيسية للمدينة ، ومن ذلك قلعة باب عزون ، وبرج بوليلة (أو قلعة مولاي حسن ـ الامبراطور) ، وباب الجهاد ، الخ . وسكن الضباط في فيلات « الأتراك » السابقين ، وكذلك أحواش ودور أعيان الجزائريين الذين خرجوا من المدينة مؤقتاً حتى تنجلي الغمة . وفي نفس الوقت ضم الغزاة أملاك بيت المال إلى أملاك دولتهم (الدومين) وأصبحت اللجنة التي أنشأها بورمون باسم اللجنة المالية أو الحكومية هي التي تشرف على ذلك . وصادر الفرنسين أملاك الخواص من الأتراك والكراغلة . أما الأوقاف فقد بقيت في يد وكلائها المسلمين إلى مجيء كلوزيل (1830) ، كما سنرى.

وابتداء من سبتمبر 1830 غير كلوزيل الموقف أيضاً من الأوقاف . ومهما كانت الصيغ التي عرفتها مرحلة 1830 ـ 1842 ، فان النتيجة واحدة ، وهي مصادرة الأوقاف وضمها إلى الدومين ، وجعل ريعها لصالح الادارة الاستعمارية ، دون تعويض أصحابها ودون صيانتها ، بل ان الكثير منها قد هدم وأذيب دخله في الميزانية العامة للدولة . ولكن ذلك لم يتحقق فجأة ، بل مرّ بمراحل وقرارات كانت تهدف إلى وضع أيديهم على هذا المصدر المالي الاسلامي الذي كان الغذاء الوحيد (دون تدخل ميزانية الدولة في العهد العثماني) للتعليم والترقية الاجتماعية[77].

وأول قرار أصدره كلوزيل بشأن الأملاك كان في 8 سبتمبر 1830 . ومما جاء فيه (قارنه باتفاق حسين باشا ـ بورمون) :

إن كل الدور والدكاكين والمخازن والحدائق والأراضي والمحلات والمؤسسات ، مهما كانت ، التي كان يشغلها الداي (الباشا) والبايات ، والأتراك الذين خرجوا من ايالة الجزائر (والواقع انهم لم يخرجوا من تلقاء أنفسهم وانما رحلوا ترحيلا) أو التي يشغلها الآن اناس باسمهم ، بالاضافة إلى المؤسسات التابعة لمكة والمدينة (الأوقاف ، وهي بالطبع لا تخص الأتراك بل كان الجميع يساهمون فيها) ـ كل ذلك يدخل في أملاك الدولة (الدومين) ويجب أن تستثمر لحسابها.

---

(77) سنخصص فصلاً للأوقاف الإسلامية في العهد الفرنسي نفصل فيه القول عن عناصرها ، وأهدافها والموقف منها ، في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث . أما الآن فاننا نتناولها كمصدر مالي وأملاك أثارت الإساءة إليها مشاعر المسلمين ضد الفرنسيين وبعبارة أخرى مدى تأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية وتحريكها للضمير الوطني .

ومن أغرب ما نص عليه ذلك القرار الجائر ضربه أجل ثلاثة أيام فقط للاستظهار بإثبات الملكية وإلا فإن سلطات الغزو تصادرها بدون انتظار . وإذا كنت لا تصدق ما في ذلك القرار من جور واعتساف وخلف العهود ، فاقرأ هذا : كل الأفراد الذين تخضع لهم تلك الأملاك عليهم أن يتقدموا (بما في ذلك حسين باشا الذي أصبح منفياً والوزراء والانكشارية الذين وصلوا إلى أناضوليا ، والبايات الخ . !) في ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار بإثبات البيانات التي تحتوي على : طبيعة ووضع وكمية الأملاك التي في حوزتهم ، وكمية الدخل منها ، أو الأجر الذي ينجر عنها ، وأخيراً مدة آخر الدفع . واتباعا لأسلوب البوليس الذي مهر فيه كلوزيل وروفيقو على الخصوص ، وعد القرار الرسمي بأن كل شخص يكشف لكلوزيل وزمرته عن وجود ملك لم يعلنه صاحبه، يكافأ بنصف الغرامة التي سيفرضها كلوزيل على المالك المتخفي . أما أين تصب هذه الغرامات الجائرة ففي صندوق الجيش طبعاً . . . وهو الصندوق الذي جعله كلوزيل لاسترضاء زمرته وجعل الجيش يساهم بذلك ، كما عرفنا ، في مشروع استعماري (استثمار الأرض التي استولى عليها وجعلها مزرعة نموذجية) عن طريق رأس مال لشركة مساهمة مغفلة الأسهم[78].

وماذا ننتظر بعد هذا من ردود الفعل ؟ ان كثيراً من أصحاب تلك الأملاك غائبون ، كما عرفنا ، ولم يعطهم القرار سوى ثلاثة أيام لإثبات حقهم . فأي معنى لاحتجاجهم اذا وقع ؟ وأين هم حتى يحتجون ؟ ذلك جانب كان كلوزيل وزمرته يعرفون انهم مطمئنون منه . أما الاحتجاج الذي أزعجهم وأخافهم من العواقب فهو احتجاج الجزائريين على مصادرة أملاك الأوقاف ، التي لها قدسيتها والتي اشتركوا في تنظيمها وتغذيتها مثل كل المسلمين ، كما احتجوا على الطريقة التي عليهم أن يثبتوا بها الملكية الخاصة ، وعدم النص على التعويض الخ . واذا كان الخواص قد تولوا الاحتجاج ضد القرار بأنفسهم فإن الاحتجاج ضد ضم الأوقاف جاء من المفتين والعلماء والوكلاء الذين أوضحوا أن الأوقاف لا تمس ، وأن لها أغراضاً دينية وتعليمية واجتماعية أخرى . ولما كان كلوزيل منشغلاً بحملاته الفاشلة التي ذكرناها سابقاً ضد المدية والبليدة ، فإنه طأطأ رأسه للعاصفة ثلاثة أشهر ، ثم عاد الى موضوع مصادرة

(78) أنظر القرار في دراسة أوميرا Aumerat في (المجلة الافريقية) ، 1898 ، ص 168 ـ 173 .

الأملاك لأنه وجده أسهل عليه من قيادة مرتزقته في سهل متيجة أو في مضائق الشفة وموزاية . فأصدر قراراً آخر في 7 ديسمبر 1830 طلب فيه من المفتين والقضاة والوكلاء أن يقدموا حساباتهم عن الأوقاف وسجلاتهم وأوراقهم الى مدير الدومين ، وهدد المخالفين بالعقاب الشديد ، وقد وعدهم بأن ادارة الدومين ستدفع لهم من حساب الأوقاف ما يحتاجون اليه شهرياً[79] .

والواقع أن هناك هدفين من مصادرة الأملاك على ذلك النحو ، الأول سياسي والثاني اقتصادي ، وهما متصلان الى حد بعيد . فأما الأول فهو خوف الفرنسيين من أن بقاء المسلمين على أملاكهم وخصوصاً أملاك الأوقاف التي هي مقدسة عند الجميع ، سيجعل من وكلائها وعلمائها ومفتيها زعماء دينيين سياسيين معارضين للوجود الفرنسي ، وهي قوة لم يحسب لها الفرنسيون حساباً عند توقيع الاتفاق مع داي الجزائر . والثاني ان بقاء تلك الأملاك في أيدي المسلمين سيبقيهم أغنياء ومستغنين عن السلطة الجديدة ولن يحصل الأفَّاقون الفرنسيون الذين رافقوا الجيش والتحقوا به على طريقة لشراء الأملاك والاستقرار في الجزائر . وتذكر المصادر الفرنسية ذلك بكل وضوح ، بينما تأميم الأملاك يسهل عملية نقل الملكية ويفقد المسلمين مصدر ثروتهم الاقتصادية (والعلمية) وقوتهم السياسية ، ويحقق هدف الاستعمار.

فقد شعر الغزاة من أول وهلة أنه لو تركت الأملاك الاسلامية والفردية في يد المسلمين فانه لا يمكن للمهاجرين الأوروبيين (الفرنسيين) شراء الأملاك والاستقرار في البلاد . ومن جهة أخرى شعروا بأنه بواسطة الأوروبيين فقط يمكن انشاء ادارة للحسابات وتوفير مصاريف الصيانة ، واعطاء الوصولات ، ومن ثمة ايجاد العقارات للأوروبيين . وقد حاول الأوروبيون فعلاً شراء الأملاك من المسلمين الجزائريين ، ولكنهم وجدوا صعوبة في ذلك . فقد تدخل اليهود كوسطاء بينهم وبين المسلمين[80] . فارتفعت الأثمان ، وقلت الضمانات ، خصوصاً بالنسبة لشراء أملاك الغائبين ، كما أن حصص البيع معقدة إذ هناك من يبيع فقط الربع أو الخمس من

---

(79) نفس المصدر . وكذلك (طابلو وضع الممتلكات الفرنسية . . .) ، سنة 1838 ، ص 257 .

(80) من أسباب بيع المسلمين أملاكهم عدم الوثوق بالمستقبل ، اذ سنرى أن كثيراً منهم هاجروا تحت وطأة الظروف السياسية والمعاشية .

الحصة[81] ، الخ . أما حين وضع الدومين يده على الأملاك فقد سهل على الأوروبيين الحصول على الأملاك وأعطاهم الضمانات . وكان المشتري الأوروبي (ابتداء من عهد كلوزيل) معفى من كل شيء سوى أن عليه أن يدفع الفائدة للدولة .

وأول ما بدىء في بيعه للأوروبيين المنازل الخاصة ، والمقابر الواقعة عند باب الوادي . ورغم ورود عبارة التعويض في القرارات الرسمية ، فإن ذلك لم يقع[82] . واذا كان الأفراد قد احتجوا ودافعوا عن أنفسهم ، بدونٌ جدوى في أغلب الأحيان ، للحصول على تعويضات عن أملاكهم المصادرة، فإن الأوقاف كانت من أكثر المؤسسات ضياعاً ، إذ يقر حتى كتاب الفرنسيين أن مؤسسات الوقف ظلت بدون تعويض . ويدعون أن ذلك راجع الى تقادم العهود وضياع الوثائق واختفاء الورثة . وهكذا اختفت الأوقاف بسرعة ، ولا سيما أوقاف الانكشارية والطرق العامة والعيون الخ ، وذابت في ميزانية الدولة[83] . وعلى كل حال فإن قضية التعويض عن الأملاك الفردية كانت السبب في رفع الشكاوي المستمرة من أعيان الجزائر ، وعندما عجزوا وطغت أيدي الظلم ، هاجر الكثير من أصحابها ، وافتقر الباقون حتى أصبحوا من المتسولين . أما أملاك الوقف المشار اليها فقد وقع اغتصابها قهراً وعدواناً . وكان ذلك سبباً في ضمور حركة التعليم واختفاء المعلمين وغلق المدارس.

ان قرارات الاستيلاء على الأملاك بكل أنواعها قد استمرت في الظهور بين 1830 ـ 1837 ، وازدادت تضييقاً وجوراً أيضاً في قرارات 1839 ، 1842 ، 1848 ، كما سنرى . وكان الهدف ، كما ذكرنا ، تفقير الجزائريين وإجبارهم على الهجرة وترويضهم سياسياً عن طريق الاقتصاد ، والحصول على الأملاك للأوروبيين (منحة وبيعاً) الواردين على الجزائر بقصد الاستيطان والاستعمار . ولم تكن تلك القرارات مقتصرة على الأملاك في مدينة الجزائر بل شملت كل المدن التي وقعت

---

(81) من مشاكل البيع والشراء عندئذ أن الأوروبي قد يشتري ما لا يصح له بيعه (وقف) ، أو يظن أنه اشترى فإذا هو مستأجر فقط .

(82) يزعم الفرنسيون أن الوكلاء الجزائريين كانوا متهاونين في الحسابات وفي صيانة الأوقاف وأن الأمور تحسنت بعد ضمها للدومين (!)

(83) أنظر أوميرا ، المرجع السابق ، ص 176 ، وكذلك(طابلو. . .)، سنة 1838، ج 2، ص 259 .

بالتدرج فريسة للاحتلال الفرنسي ، مثل وهـران وتلمسان وعنـابة وبجـاية والمـدية والبليدة ثم قسنطينة ، وغيرها . كما شملت القطاع الريفي أيضـاً بعد القبض على مقاليد الأمور في المدن.

وكان بعض الفرنسيين أنفسهم يندّدون بتلك الإجراءات ، خصوصاً الاستيلاء على الأملاك الفردية بدون تعويض ، والأملاك الدينية (الأوقاف) وتعطيلها عن أداء وظيفتها . ومنهم (دي صاد) ، عضو اللجنة الافريقية وعضو البرلمـان الفرنسي ، الذي استنكر سنة 1834 ، التخريب الكامل لـ 900 منزل بدون إخطار أصحابهـا مسبقاً وبدون أي تعويض ، مما أجبر ، كما قال ، عشرة آلاف مواطن جزائري على الهجرة من العاصمة ومنهم 300 عائلة من الأعيان[84] . بالإضافة الى تـرحيل من أسماهم الفرنسيون « بالأتراك » الذين بلغ عددهم أكثر من خمسة آلاف شخص . وقد استمرت الهجرة من المدن الجزائرية بعد سنة 1834 طبعاً . والمعروف أن اليكسيس دي طوكفيل ، الكاتب والبرلماني الفرنسي ، كان على رأس الذين استنكروا تعطيل الأوقاف عن مهمتها ، رغم إيمانه بضرورة الاستعمار.

وقد كانت المدن الجزائرية ، وعلى رأسها العاصمة ، مضرب المثل في النظافة والأمن وكثرة الحدائق والبساتين ، وبهاء الدور ووفرة المياه ، حتى تغنى بها الأدباء والشعراء العرب ، وسجل ذلك الرحالة الأوروبيون قبل الاحتلال الفرنسي . فإذا بها تصبح بعد الاحتلال بسنوات قليلة مضرب المثل في الأوساخ وذبول الحدائق وانتشار الأمراض المعدية الواردة مع الجنود ، والفساد الأخلاقي ، والغش والمضـاربات ، والفوضى وانعدام الأمن ، خصوصاً أيام تولي (دو بينـوس) شؤون الشرطـة وتولي القنصل السابق (دوفال) شؤون العدل . ذلك أن بورمون قد أباح المدينـة لآلاف الجنود والمرافقين لهم من حثالات فرنسا . فعاثوا في المدينة فساداً واعتداءً وتخريباً وحماقة واهانة . وهذا أمر مسجل في كتبهم ، وبينا الأمـر كذلـك مع الجنـود كان الضباط ، كما قال مؤرخهم (بول آزان) قد استولوا على الفيلات والقصور وجلسوا يتفرجون ويكتبون الرسائل لذويهم وخليلاتهم . وها هو النائب دي صاد ، الذي سبق ذكره ، يقول لزملائه في البرلمان سنة 1834 ، ان الجزائر كـانت مليئة بـالحدائق

---

(84) أنظر (المونيتور يونيفرسال) ، عدد 20 ابريل 1834 .

والمحلات الجميلة . . . ولكنها الآن (أي بعد أربع سنوات) أصبحت جميعاً خرائب ، وحتى أنابيب المياه التي تسقي المدينة قد خربت[85] . وهل بعد ذلك نستغرب أن يذكر لنا بول آزان ، في باب المدح والثناء ، سجلات كل من تولى أمور الجزائر في هذا العهد (1830 ـ 1837) منوها بما بذله من أجل الحياة الصحية والنظافة ، بعد أن يقدم لذلك بعبارات تثير الاشمئزاز عما وصلت اليه حالة المدينة قبل توليه من الاهمال والتعفن ، ولكن بول آزان وأمثاله لا ينسبون ذلك الى الاحتلال ونتائجه ، لأن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . .

11. الاستهتار بالمؤسسات الدينية .. والتنصير :

ان ردود الفعل التي عرفها العهد المدروس تعود الى الصدمات التي تلقاها المواطنون في مشاعرهم الدينية وهتك مقدساتهم . وليست المسألة جهاداً قائماً على التعصب الأعمى كما قدمه لنا الكتاب الفرنسيون ، ولكنه جهاد للدفاع عن النفس والدين والقيم . وستظهر الصفحات الآتية من هو المتعصب الحقيقي ومن هو الذي جاء يعلن الحرب المقدسة (بالمعنى الصليبي) : الجزائريون أو الفرنسيون ؟

ذلك أن الفرنسيين فهموا أن سقوط الجزائر يعني سقوط قلعة إسلامية وعودة المسيحية الى ديارها . ففي يوم الأحد الموالي لدخولهم مدينة الجزائر ـ أي يوم 11 يوليو 1830 ـ أقاموا احتفالاً دينياً ضخماً في الساحة الرئيسية للقصبة ، حضره الجنرالات والضباط والجنود يتقدمهم بورمون طبعاً . وها هو أحد الفرنسيين المعاصرين يروي لنا مشاعره في ذلك ، فيقول إن الإحتفال الضخم جرى في القصبة التي بناها أبناء محمد (صلى الله عليه وسلم) لمواجهة أبناء عيسى (عليه السلام) . وقد رتلوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي كل الجدران[86] . وليس هذا الاحتفال خاصاً بمناسبة نجاح الغزو الفرنسي ، بل انه تكرر في مختلف المناسبات ، كما سنرى.

وكانوا يعتبرون الجنود الذين ماتوا في الجزائر شهداء المسيحية . وهذا أحد

---

(85) نفس المصدر .

(86) ستيفان ديستري (تاريخ الجزائر) ، تور ، 1851 ، ط 4 ، ص 211 .

كتاب فرنسا المتحمسين للاستعمار الديني وهو (بوجولا) يكاد يتفجر فرحاً بانتصار الصليب على الهلال في الأرض الافريقية (الجزائر) ويعلن أن الفرنسيين قد علقوا الصليب منذ البداية على ثلاث مآذن في مدينة الجزائر . وفي نظره أن قتلى الحملة من الفرنسيين هم « شهداء الحضارة والوطن والمسيحية » . واعتبر أن دماءهم قد وطدت دعائم الكنيسة المسيحية في الجزائر . وقد دعا اله القديس لويس بتعويضهم على أرواحهم التي أزهقت من أجل المسيحية[87].

وقد حفر الفرنسيون منذ الوهلة الأولى عن الآثار المسيحية ، مستفيدين من الخرافة تارة ومن كتب الرحالة تارة أخرى . فقد كانت الروايات تزعم أن الجامع الكبير (الأعظم) كان مبنياً على هيكل ديني مسيحي قديم ، فعمل الفرنسيون ، كما سبق ، على تعرية أساس الجامع المذكور لعلهم « يكتشفون » آثار ذلك الهيكل ، كما عمدوا الى تغطية الجامع عن الأنظار بعد أن كان يرى من بعيد من المرسي فأصبح وقد غطته الحيطان العالية وكادت تختفي منارته . وزعم منجموهم وكتاب أخبارهم أن الجامع الجديد (الحنفي) قد بناه عبد مسيحي ، وأن الأمر كان قد صدر له لبناء مسجد فبنى هو كنيسة ، ونسبوا اليه أنه قال : عندما يحتل المسيحيون هذه المدينة سيكون لهم هذا الجامع كنيسة . وقد أخذ الفرنسيون يترددون على هذا الجامع بكثرة ، استجابة لنداء ذلك العبد ، رغم ما كان يثيره ترددهم عليه من غضب لدى المسلمين ، انتظاراً لتحويله الى كنيسة[88] . وحين اختار الفرنسيون أحد مساجد الجزائر لجعله كاتيدرالية كاثوليكية اختاروا أوسعها وأحسنها موقعاً وارتفاعاً

---

(87) بوجولا (Poujoulat) ـ دراسات افريقية ـ ج1 ، ص 45 .

(88) نفس المصدر ، ص 29 . يذكر بوجولا أنه كان على فرنسا أن تحول الجامع المذكور إلى كنيسة كاثوليكية . ويشير في مكان آخر ، ص 30 ، إلى أنه كان لمدينة الجزائر في عهد الرحالة (دابر) 700 مسجد معظمها تقع في مواجهة البحر . وقد أخذ هذا العدد يتناقص منذ الإحتلال الفرنسي . وتذكر المصادر أن روفيقو ، قائد جيش الإحتلال ، أنشأ لجنة برئاسة بيربزوجر لاختيار مسجد يحوله إلى كنيسة فاختارت له الجامع الجديد للأمور التي ذكرناها بشأنه ، ولكن روفيقو أصر على أن يكون أجمل وأثمن جامع عند المسلمين هو الكنيسة المسيحية قائلاً « السنا نحن المنتصرين وهم المنهزمين » وعندما علم أن آلاف المسلمين قد تظاهروا احتجاجاً واعتصم الكثير منهم بجامع كتشاوة جاء لهم بالجيش وأخرجهم قهراً واحتل الجامع عسكرياً ، بينما أخذ سلاح الهندسة في تحويله إلى كنيسة . أنظر جوليان (تاريخ الجزائر) ، ص 91 .

وأحدثها بناءً وهو جامع كتشاوة الذي بناه حسن باشا سنة 1794 . وسنرى أنهم أسسوا أيضاً (أسقفية الجزائر) سنة 1838 « تتويجاً للفكر المسيحي في قلب الاسلام » حسب قول بوجولا ، الذي اعتبر ذلك هو « حدث العصر » لأنه اتصلت به السلسلة الذهبية التي صنعها « سيبريان واغوسطين » ، والتي انقطعت نتيجة أربعة عشر قرناً من الوحشية[89] !

ومن أبرز الأحداث التي هزت المجتمع الجزائري سنة 1834 قصة تنصير عائشة بنت محمد . فقد دلت على أهداف الغزو المسيحية وتواطؤ رجال الدين ورجال السياسة والعسكرية في ذلك . وتسببت في استقالة القاضي والمفتي ، وقادت إلى مظاهرات شعبية ومحاكمات واحتجاجات من قلب العاصمة . واستعملت السلطات الفرنسية الجديدة كل وسائل التستر والتعمية والتمويه لترك الأمور تتطور على النحو الذي وقعت عليه ، وأخيراً تحدّت تلك السلطات الرأي العام وأبقت المرأة على نصرانيتها وحملتها ، أو بالأحرى هربتها ، إلى فرنسا لتعيش على مسيحيتها .

ويطول بنا الحديث لو عرضنا لتفاصيل هذه القصة ، وحسبنا أن نلخصها فيما يلي : كانت المرأة عائشة بنت محمد متزوجة زواجاً شرعياً ، فطلقها زوجها طلاقاً شرعياً أيضاً ، وكان المفروض أن تبقى في العدة عند أهلها ، ولكنها بقيت عند صديق لها يهودي ، وخافت ، كما قيل ، من عقاب أهلها ، لأنها كانت على علاقة غير شرعية أيضاً مع أحد الأوروبيين ، وقيل أيضاً مع بيليسييه دي رينو مؤلف كتاب (حوليات الجزائر). وقد شكا أهلها إلى القاضي المدعو عبد العزيز والمفتي المدعو مصطفى بن الكبابطي ، وطالبوا بإرجاعها إليهم لقضاء العدة . وقد جاء بها القاضي إلى المحكمة بموافقة الحاكم العام ، فوارول ، وأثناء ذلك دخل المحكمة بيليسييه دي رينو المذكور ، الذي كان متولياً رئاسة المكتب العربي . فلم يسع القاضي عبد العزيز إلا الخروج من المحكمة احتجاجاً على انتهاك حرمة المحكمة ، وقد خرج معه المفتي الكبابطي أيضاً ، ثم قدما استقالتهما للحاكم العام . وأثناء ذلك أخذ بيليسييه دي رينو المرأة المذكورة إلى أحد القساوسة الكاثوليك في الكنيسة وقام

---

(89) نفس المصدر ، ص 31 . وقد نصح بوجولا أيضاً بالبحث عن الآثار المسيحية في الجزائر عن طريق مصلحة الهندسة العسكرية . وقد قام المهندس (كوفي) (Cauvet) فعلاً بذلك .

هذا بتعميدها . ثم هربوها إلى فرنسا تحدياً لكل المشاعر ورغم احتجاج أهلها وجمهور المواطنين[90] .

وكثيرة هي المؤسسات الدينية والتعليمية التي مسّحها (من المسيحية) الفرنسيون أو هدموها أو أعطوها إلى الجيش أو بيعت كأملاك للأوروبيين يتصرفون فيها . وليس غرضنا ذكر ذلك هنا بالتفصيل اذ مكانه كتابنا الثقافي .

ونحب أن نصنف مصير المؤسسات على هذا النحو : مساجد بقيت كما كانت ، ومساجد حولت إلى كنائس فبقيت أيضاً في هكيلها كما كانت ولكن مع ادخال تعديلات عليها ، ومساجد هدمت في حينها أو أعطيت لمصالح عسكرية ومدنية في أول الأمر ثم هدمت في تواريخ لاحقة ، ثم مساجد هدمت من أول وهلة .

فأما المساجد التي بقيت فلا تتجاوز الخمسة (احصاء سنة 1899) ، بعد أن كان عددها وقت الاحتلال 176 (يذكر (دابر) الهولندي في القرن السابع عشر أن عددها كان 700) وهي : الجامع الكبير ، والجامع الجديد ، وجامع سيدي رمضان ، وجامع سفير (صفر) وجامع عبدي باشا (؟) .

والمساجد التي تحولت إلى كنائس هي : جامع القصبة (أصبح كنيسة الصليب المقدس) وقد تغير شكله كثيراً . جامع بتشنين (أصبح كنيسة سيدة النصر) أيضاً تغير شكله الأصلي كثيراً ، وجامع كتشاوة (أصبح كاتدرائية الجزائر) وقد وقعت له تغييرات داخلية جذرية أيضاً لتحويله من الإسلام إلى المسيحية ولكن مظهره الخارجي بقي كما كان[91] . وهناك مسجد القائد علي الذي أعطي إلى جمعية (أخوات القديس جوزيف) .

---

(90) عن هذه القصة أنظر بالتفصيل (مراسلات ديرلون) ـ الحاكم العام ـ ص 122 ـ 128 . ومما يذكر أن فوارول قام بتعيين قاض جديد ، وهو أحمد بن جعدون ، خلفاً للقاضي عبد العزيز الذي هاجر إلى المغرب احتجاجاً . وقد انهالت الإهانات على القاضي الجديد من الأهالي ، أما المفتي الكبابطي فقد أعيد إلى وظيفته بعد أن استرد استقالته . أنظر دراستنا عن المفتي الكبابطي في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ج 2 . ط. 2 بيروت 1990 .

(91) هناك مراجع كثيرة تحدثت عن مصير المؤسسات الدينية من بينها (ديفوكس ، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر) ، وكلاين (أوراق الجزائر) ، واوميرا في مقالاته في (المجلة الافريقية) 1897 ـ 1898 الخ . وجورج مارسي (الآثار الإسلامية) ، الخ . أما الإحصاء المذكور (سنة 1899) فقد ذكره ا. دوتيه Doutté في (المجلة الافريقية) ، ص 346 ، اذ قال أنه كان بالجزائر سنة 1830 ، =

وهناك مساجد هدمت من أول وهلة أو أعطيت لمصالح عسكرية ثم هدمت ، ومنها جامع السيدة الذي كان من أجمل مساجد العاصمة والذي جوّده حسن باشا (1794) برخام أبيض عالي الجودة جلبه من ايطاليا . فقد هدم منذ 1830 بدافع الحقد والتعصب لأن الْهَدْمَ وقع قبل التفكير في إنشاء ساحة الحكومة، وكان بعيداً عنها، وكان هدمه قد استمر أياماً، ثم بقيت صومعته قائمة مدَّة سنتين حتى أعجزت المخربين لها وظن الناس في ذلك الظنون ، ويوجد وصف مروع في بعض الكتب لعمليات الهدم ومشاعر الشامتين (الفرنسيين) والغاضبين (المسلمين) معاً . فقد كان جامع السيدة من المساجد القديمة التي وصفها هايدو في القرن السادس عشر ، وجعله الثالث في الأهمية (بعد الجامع الكبير والجديد؟)، وكان مصلى الباشوات لأنه يقع بالقرب من قصر الجنينة (مقر الحكم) ، وعند هدمه سقطت معه منازل مجاورة كثيرة ، تسهيلاً لطريق الوصول إلى القصر المذكور الذي حول بدوره إلى مخزن عسكري . وكان الفرنسيون يخشون من ثورة عامة للسكان فأرادوا انشاء ساحة حرة (أسموها ساحة الحكومة) في قلب المدينة لتكون نقطة تجمع القوات في حالة انتفاضة شعبية .

ويقول أوميرا الذي ترك لنا وصفاً صارخاً لعملية هدم الجامع المذكور أن منارته لم تسقط الا سنة 1832 ، قطعة واحدة . ثم وقع تفتيتها حجرة حجرة بالمطارق والفؤوس وعندما طالت العملية وكثر اللغط جيء بحبال ضخمة وربطت في أعلى المنارة ، وأرادوا جذبها إلى أن تسقط ، ولكن الحبال تقطعت وتحدتهم المنارة التي ظلت شامخة . وعند ذلك اقترح أحدهم اغراقها ، أي جعلها تسقط عمودياً وهي واقفة ، فضربت من الجزء الأسفل ، ثم وضعت المواد الملتهبة ، مثل الخشب والزفت الخ . في الأماكن التي تأثرت بالضرب ، ثم أوقدت النار في تلك المواد ، فسقطت الصومعة قطعة واحدة ولكن نحو الشرق !

لقد كان المسلمون واقفين يشاهدون هذا المنظر المثير . ولاحظ الكاتب المذكور ، انه بالرغم مما كان يعتقد من أن المسلمين متعصبون ، فإنهم لم يقوموا

= 176 مؤسسة دينية منها 13 مسجداً كبيراً (أي بمئذنة وخطبة) ، ولم يبق منها سنة 1862 سوى 21 مؤسسة دينية ، منها 9 فقط مساجد كبيرة ، أما في سنة 1899 (تاريخ كتابة عمله) فلم يبق من هذه التسعة سوى خمسة مساجد .

عندئذ بأية حركة ، بل كانوا يرددون : مكتوب ! مكتوب! ، واستنتج من ذلك انهم قَدَرِيّون . وقد لاحظنا أن كلوزيل قد استغل هذه القدرية في بيانه الأول للجزائريين سبتمبر 1830 ، كما اشتمل عليها بيان الفرنسيين الذي وزعوه عشية الاحتلال . ولعل الكاتب نسي أن يقول انه تبين من ذلك أن قومه هم المتعصبون حقاً بلجوئهم إلى ذلك الفعل وأمثاله . فهو نفسه الذي ذكر ، بعد ذلك ، ان هناك أربعة مساجد أخرى واجهت نفس مصير جامع السيدة ، بين 1830 ـ 1832 فقط ، وهي : جامع الباديستان وجامع الرابطة ، وجامع الصباغين ، وجامع القبائل(92).

وتطول القائمة لو ذكرنا المساجد التي سلمت إلى مصالح عسكرية ومدنية ثم هدمت . فهناك جامع سيدي الرحبي الذي كان من الجوامع الكبيرة التي ذكرها هايدو ، فقد أعطي سنة 1833 إلى الصيدلية المركزية ثم هدم . وجامع السيدة مريم الذي أعطي إلى المتصرف العسكري ثم هدم . وكذلك مسجد الشماعين الذي أعطي للمتصرف العسكري ثم هدم ، ومسجد علي خوجة الذي أعطي للمصالح العسكرية سنة 1830 ثم هدم ، ومسجد سيدي عمار التنسي الذي أصبح سنة 1830 ثكنة عسكرية ثم حولوه إلى الإدارة المدفعية ثم هدم . ومسجد صباط الحوت الذي أصبح سنة 1830 مخزناً للحبوب ثم ثكنة عسكرية ثم هدم ، ومسجد العين الحمراء الذي أصبح ثكنة عسكرية من 1837 ، وجامع عبدي باشا الذي أصبح ثكنة عسكرية منذ 1830 ، وقد بقي كذلك إلى وقت الكاتب ، أي سنة 1898 ، وجامع القشاش ، وهو أحد المساجد السبعة التي ذكرها هايدو ، بقي سنوات وهو مستشفى مدني ثم سلم إلى السلطات العسكرية فجعلت منه مخزناً مركزياً للمستشفيات العسكرية ثم هدم(93) ، الخ . ولنكتف بذكر هذه النماذج . وما على المهتم الا الرجوع إلى الدراسات التي ذكرناها في الهامش السابق ، أو كتابنا الثقافي الذي ننوي ذكر التفاصيل فيه .

والهدم الذي أصاب المساجد أصاب أيضاً وبالتبعية المدارس الملحقة بها .

---

(92) أنظر أوميرا (المجلة الافريقية) ، 1898 ، 178 ـ 180 (عن كيفية هدم جامع السيدة وسقوط منارته) .

(93) نفس المصدر ، ص 181 ـ 184 .

وبعض هذه المدارس كانت مشهورة بالعلم وفي مقام الثانويات اليوم ، مثل مدرسة القشاش التي تحدث عنها المؤرخ بوراس الناصر ، والتي كان مصيرها مصير الجامع التابعة له . ولنذكر فقط نماذج من هذه المدارس التي هدمت أو بيعت أو أعطيت إلى مصالح أخرى . فمدرسة الجامع الكبير (الذي لم يهدم) حولها الفرنسيون إلى حمام فرنسي اذ منحتها السلطات إلى أحد المستفيدين الأوروبيين ترغيباً له في البقاء والاستيطان بعد أن ضمت أملاك الأوقاف إلى الدومين ، كما سبقت الاشارة . كما هدموا مدرسة الأندلس ومدرسة جامع السيدة مريم (وهو ليس جامع السيدة المذكور أعلاه) . وذهبت المدارس الآتية مع المساجد التابعة لها : مدرسة جامع صباط الحوت ، مدرسة جامع السلطان ، مدرسة جامع خير الدين ، ومدرسة جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي (وهي غير مدرسة وجامع اليوم) .

وكثير من الزوايا واجهت نفس المصير . والزوايا ، كما هو معروف ، كانت ، سيما في المدن ، مأوى للعجزة والغرباء ، وبعضها كان للتعليم أيضاً وللعبادة . ومن الزوايا المتأثرة بالهدم أو البيع أو الحيازة من قبل المصالح الأخرى ، نذكر : زاوية القشاش إذ كان مصيرها مصير الجامع والمدرسة التي تحمل نفس الإسم ، وزاوية سيدي الجودي التي بيعت لأحد الأوروبيين ، وكذلك زاوية يوب ، وزاوية الشرفة . وقد اعتبر الكاتب ذلك دليلاً على عدم تعصب المسلمين اذ يبيع المسلمون القائمون على تلك الزوايا هذه المؤسسات إلى الأوروبيين لهدمها والبناء على أنقاضها الخ . ولكن من أدرانا أن ذلك البيع تم بطريق التحايل والغش أو أن أصحابها هاجروا ، كما سبقت الاشارة . وهناك زاوية الشبارلية التي أعطيت إلى الدرك سنة 1830 ، وزاوية شختون التي تحولت إلى ثكنة ثم مستشفى عسكري ، وزاوية الصباغين والمقايسية التي هدمت مع الجامع ، الخ . وقد جرى للقباب والأضرحة التي كان معظمها جهة باب الوادي وباب عزون مثل ما حدث للمؤسسات الأخرى (مساجد ـ مدارس ـ زوايا) ، فلا حاجة إلى تفاصيل ذلك هنا[94] .

وقد بقي علينا أن نذكر من هذه الأمور التي تمس مشاعر المسلمين في الصميم بعض الحوادث المتعلقة بالمقابر وعظام الموتى . فالغازي الفرنسي لم يرع في ذلك

---

(94) عن ذلك أنظر نفس المصدر ، ص 191 ـ 200 ، وكذلك (المؤسسات الدينية . . .) لديفوكس .

حرمة ولا قواعد الـدين ولا مشاعـر الناس . فهـذا الدوق دو روفيقـو ، قائـد جيش الاحتلال سنة 1832 ، قد أمر بتخريب المقبرة الاسلامية بدعوى مد الطريق بين قلعة بوليلة (الامبراطور) وباب عزون . ومما يذكر أن المهندس المكلف بذلك مدّ الخط المطلوب وصادف أن كان وسط ضريح مباشرة. وعندما جرى الحفر قطعت عظام الميت إلى نصفين ، نصفهـا بقي تحت التراب والنصف الآخـر أصبح معـروضـاً للعيان . ويقول أحـد الكتاب أن المنـظر كان يهـز المشاعـر ، حتى مشاعـر بعض الفرنسيين المشاهدين . ومع ذلك فإن سلطات روفيقو الجائرة لم تحدد حتى المكان الذي تدفن فيه بقايا الموتى[95].

ومن أفظع ما حدث أيام الاحتلال الأولى تلك الفضيحة التي هزت الرأي العام الجزائري والفرنسي ، ونعني بها تهريب عظام المـوتى المسلمين من الجزائـر إلى مرسيليا لاستخدامها في فحم العظام وتبييض السكر . ومن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع حمدان خوجة الذي ندد بها في كتاباته ضد الادارة الفرنسية ، كما أثبتتها تقارير بعض الأطباء ، مثل الدكتور (سيقـو) ، وتناولهـا بعض الكتاب الفـرنسيين المعاصرين أمثال مارسيل ايمريت . يضاف إلى ذلك أن بعض الأوروبيين واليهـود كانوا يجمعون الأحجار الكريمة والعظام من المقابر الاسلامية ، بعد أن تمر عليها المجارف الفرنسية اذ تصبح العظام عارية ، كما لاحـظنا . وقـد عمت اللصوصيـة والسرقات جميع المجالات والمستويات ، كما أشرنا أيضاً ، حتى أن أحد الضباط (النقيب مارنقو) ثبت عنه أنه سرق المرمر من إحدى المقابر[96].

ولم يكن ذلك الاستهتار بالمؤسسات الدينية مقصوراً على العاصمة ، ولكنها هي الأولى التي واجهت شره الغزاة الفرنسيين . فقد عرفنا كيف سـارع بواييـه في وهران إلى تحويل جامع خنق النطاح إلى مستشفى عسكري ، سنة 1831 ، وسارع دارماندي ودوزير إلى تحويل جامع سيدي أبي مروان في عنابة إلى أغراض عسكرية أيضـاً ، وهو الجـامع الـذي واجه الهـدم والهتك رغم قـدمه ومكـانته في تـاريـخ

---

(95) أنظر القسيس ج . بلاكيسلي (أربعة شهور . . .) ، ص 79 . سبق أن ذكرنا أن اليهود هم الذين كانوا يقومون بدفن الموتى بطريقة عشوائية مثيرة . والغالب أنها كانت جثثاً لموتى غير مسلمين .

(96) أنظر مارسيل ايمريت (المجلة التاريخية المغربية) ، عدد 1 ، ص 9 ـ 11 ، تعريب عبد الجليل التميمي .

المدينة[97] . وقد وقع في بجاية ابتداء من سنة 1833 ، سنة احتلالها ، ما وقع في مدينة الجزائر من الاستهتار بالمقدسات الدينية . فبالإضافة إلى تخريب المدينة (الذي قلما شهدته مدينة أخرى جزائرية حتى لقد جلا عنها سكانها ولم يبق فيها سوى حوالي ثلاثمائة نفر من العجزة) ، هناك هدم المساجد والزوايا ، وتحويل بعضها إلى أغراض عسكرية . ومن المساجد والزوايا التي تحولت إلى هذه الأغراض (قبل أن تهدم): الجامع الكبير، وزاوية سيدي التواتي، وزاوية للا فاطمة التي تحولت إلى مبيت للحرس ، وزاوية سيدي أحمد النجار التي أصبحت ثكنة ، أما الزوايا والمساجد التي خربت تماماً فنذكر منها : جامع سيدي الموهوب ،وزاوية سيدي البصرومي ، وزاوية سيدي عبد الهادي ، وزاوية سيدي الخضر ، وزاوية سيدي المليح[98] ، الخ . ولا يخفى ما قلناه سابقاً من أن جميع المؤسسات الدينية (الأوقاف) قد ضمت بطريق التعسف إلى أملاك الدولة ، سواء تلك التي بقيت أو التي بيعت أو هدمت والتي تحول وقفها إلى أملاك الدولة . ويستوي في ذلك أيضاً ما كان بالمدن وما كان بالأرياف.

وهناك مدينتان كانتا تتمتعان بوفرة المؤسسات الدينية : الأولى تلمسان التي احتلها الفرنسيون سنة 1836 ، والثانية قسنطينة التي احتلوها سنة 1837 ، وهو تاريخ نهاية المرحلة التي ندرسها . أما تلمسان فقد كانت شبه مخربة عند احتلالها[99] اذ طالما واجهت مختلف الضغوط والحروب بين قوات الأمير عبد القادر وقوات الفرنسيين من جهة ، ثم قوات الأمير وقوات الحزب العثماني المستحصن بالمشور من جهة أخرى . وتذهب المصادر إلى أن المؤسسات الدينية الكثيرة في تلمسان لم تعان نفس المصير الذي عانته مختلف المدن الأخرى ، رغم أن تلك الأملاك قد ضمت كغيرها إلى أملاك الدولة ، وكذلك أوقافها . وتذهب هذه المصادر إلى أن الفرنسيين

(97) ذكر الكاتب بابيه Papier في (المجلة الافريقية) ، 1890 ، ص 312 أنه لم يبق في عنابة من مساجدها الـ 37 التي كانت موجودة عشية الإحتلال (بناء على تقرير قدمه علماء المدينة إلى صالح باي أواخر القرن 18) سوى جامع صالح باي المسمى أيضاً بالجامع الجديد .

(98) عن خراب بجاية وما حل بمؤسساتها ، أنظر (المجلة الإفريقية) سنة 1858 ، ص 458 ، 462 وسنة 1859 ، ص 299 ـ 302 .

(99) أنظر القسيس بلاكيسلي ، ص 178 .

أرادوا بذلك استجلاب مودة السكان حتى ينحازوا اليهم ضد الأمير عبد القادر . ولا نعرف الآن عدد المؤسسات بتلمسان عند احتلالها ، ولكن بعضهم قدر الجوامع عندئذ فيها بثمانية عشر جامعاً .

أما مع قسنطينة فالأمر يختلف . فقد كان بها ساعة الاحتلال سبعون بيتاً للصلاة (مسجداً) ، ولكن الفرنسيين تصرفوا في ذلك تصرف المالك المستهتر بملكه . فهذا جامع رحبة الصوف حولوه إلى مخزن للشعير ثم أسقطوا منارته ، وكذلك استولت السلطات العسكرية على جامع القصبة الذي كان من المباني المشهورة في العهد الحفصي وفي العهد العثماني وهو الجامع الذي ذكره أحمد بن القنفذ (ق 9 هـ) وعبد الكريم الفكون (ق 11 هـ) ، ثم هدم بعد ذلك[100] . كما هدمت مساجد وزوايا أخرى منها جامع سيدي فرج ، وجامع سيدي الفرجاني ، وجامع سيدي مسلم ، وجامع جبانة الوزناجي ، وجامع سيدي وراد . أما الجوامع التي تحولت إلى ثكنات فهي : جامع سيدي بوناب ، وزاوية العلوي ، وجامع سيدي البيازري ، وجامع سيدي راشد ، الخ . وهناك جامع سوق الغزل الذي كان من أجمل جوامع المدينة[101] ، والذي حوله الاحتلال والتعصب الديني إلى كاتدرالية كاثوليكية . ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن جميع أوقاف هذه المؤسسات قد ضمت ، وكذلك ما كان منها في الريف ، إلى أملاك الدولة.

وقد عبر الشاعر الكبير محمد بن الشاهد ، الذي كان قد تولى الفتوى قبل الاحتلال وأصبح بعد سنة 1830 طاعناً في السن فاقداً للبصر ، وفقيراً معدماً ، قال على لسان مواطنيه يرثي مدينة الجزائر بعد أن وقعت فريسة ذلك الغزو ويخاطبها بقوله :

لبستِ سوادَ الحزنِ بعد مَسَرّة ... وعمّت بواديك الفتونُ بلا حصر
رفضتِ بياضَ الحق يوماً فأصبحت ... نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور
ولُثِّم درسُ العلمِ والجهلُ عَسْعَسٌ ... ونادى بتعطيل العلوم على النشر
وناح على الأسواق طيرُ خرابِها ... فأصبح فأس الهدم يُنْبِىءُ بالغدر

(100) أنظر شيربونو (التقويم Recueil) ، 1853 ، ص 122 .

(101) أنظر أرشيف ايكس (فرنسا) رقم 23 H 1 حسب تقرير رسمي مكتوب بتاريخ 20 ديسمبر 1849 . أنظر كذلك (طابلو) ، سنة 1840 ، ص 353 ، 358 .

أصبتِ بسهمٍ من عيونٍ سهامُها تُرادُ عَنِ المعيان بالشفع والوتر
نقضت عهوداً بالوداد تقررت ووإليت أقواماً توالت على ضر
فجاسوا بروجاً للحروب تشيدت وداسوا دياراً بالنواهي وبالأمر
ونالوا من الأموال يسراً ميسراً وفازوا بها والقلب يُصْلَى على الجمر
أموت وما تدري البواكي بقصتي وكيف يطيب العيش والانس في الكفر[102]

12. الغزو العلمي والفكري :

غزا الفرنسيون الجزائر بالسلاح والعلم ، فحققوا الاحتلال والاستعمار والاستيطان بالسلاح والجيوش ، وحققوا نشر لغتهم ودينهم وعاداتهم وصحافتهم ومطبعتهم ومسرحهم الخ ، بالعلم والاختراع . واذا كان الاستعمار شراً كله فإن بعض الشر أهون من بعض ، كما قال الشاعر العربي . ذلك أن في وجود بعض المخترعات التي كانت مفقودة في الجزائر قبل الاحتلال فوائد هامة ، على المدى البعيد ، ومن ذلك المطبعة والصحافة والعلوم المتطورة . وسنحاول هنا ذكر بعض النماذج من هذا الغزو العلمي والفكري بقدر ما عرفته الفترة التي ندرسها ، وهي 1830 ـ 1837 .

لقد شهدت معظم المؤلفات المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال هذه الفترة أن الوثائق والمخطوطات كانت من أول ضحايا الاحتلال والغزو . ونحن وإن كنا سندرس هذا الموضوع في كتابنا الثقافي ، فإننا نكتفي بالقول هنا بأن الفوضى التي سادت عملية دخول جيش العدو إلى القصبة وغيرها قد أدت إلى اتلاف العديد من الوثائق والسجلات أمام القائد بورمون نفسه . فكان الجندي البسيط يشعل غليونه بالوثائق المبعثرة ذات الأهمية القصوى . وقد قال أحد الكتاب الفرنسيين (بربروجر) إنه كان لكلِ جندي قرآنه ، وهو يعني أن الجنود كانوا يعتبرون كل ورقة مكتوبة بالعربية قرآناً ، فكان منهم من يقوم بحرقها واتلافها ، ومنهم من يأخذها ويرسلها « ذكريات » وهدايا إلى أهله . وقد شهد كتاب ذلك العصر أن جيش العدو اعتبر نفسه قادماً للانتقام والتخريب والنهب فقام بذلك خير قيام ، فقطع الأشجار وخرب الحدائق

(102) وهي طويلة ، وكانت منشورة في (المجلة الآسيوية) عدد 8 ، سنة 1839 ، ص 506 ، نشرها السيد فانسان ، ثم قمنا بنشرها مع ترجمة لحياة الشاعر في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، 1983 .

وهدم قنوات المياه وأتلف الوثائق والكتب[103].

ومن ركام هذا العيث والعبث بالنتاج الفكري الوطني وبسجلات الدولة ، حاول بعض الفرنسيين فيما بعد أن يؤسسوا نواة لمكتبة عامة في الجزائر يجد فيها ضباط الجيش والمستشرقون والمترجمون أدوات العمل اللازمة لمهمتهم في الجزائر . وكان بربروجر من أوائل من شعر بأهمية جمع الكتب والوثائق الوطنية التي تذهب ضحية الغزوات العسكرية المدمرة . فكان يتتبع جيش بلاده إلى أهم المدن، وبينما الجيش يستولي ويخرب ويبعثر ، كان هو يجمع ما وقعت عليه يداه مما تركه أصحابه الفارون من بنادق العدو أو العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم . إن جمع الوثائق والكتب بهذه الصفة وإن امتدحه البعض على أنه انقاذ لتراث ثمين ، فإنه في الحقيقة لصوصية واعتداء على حق الغير من مالكين وورثة الخ . ولكنه كان غزواً فكرياً على كل حال ! ذلك أن كلوزيل وفاليه وبوجو كانوا يغزون المدن بينما كان بربروجر وديسلان وبريسنييه وأمثالهم كانوا يغزون المكتبات الخاصة ومكتبات الزوايا والمساجد ، بدعوى الانقاذ ، وينشئون بها المكتبة العامة في الجزائر . على أنه تجدر الملاحظة إلى أن كثيراً من هذه الوثائق والكتب قد ذهبت هدايا إلى خارج الجزائر منذ ذلك الحين المبكر . فهذا أحدهم يروي أن المكتبات الفرنسية تضم مخطوطات من قسنطينة بعث بها جنود الحملة هدايا إلى مساقط رؤوسهم[104].

ومن الغريب أن قرار انشاء المكتبة العامة جاء من كلوزيل أثناء عهده الثاني . فقد أمر بانشائها سنة 1835 . وكان موقعها في دار جزائرية جميلة استولت عليها إدارة الدومين . ولكن القرار لا يكفي لجعل المكتبة تؤدي دورها ، فقد ظلت خلال ثلاث سنوات من انشائها فارغة بدون كتب وبدون قراء ، ثم رخص لبربروجر ليقوم بالمهمة التي ذكرناها . ولعل السر في وجود المكتبة فارغة كل ذلك الوقت هو بقاء الفرنسيين محاصرين في مدينة الجزائر ووهران وعنابة إلى 1836 ، ولم يشرعوا في فك هذا الحصار الا هذه السنة والتي تليها حيث غزا كلوزيل معسكر وتلمسان وغزا دامريمون وفاليه قسنطينة ، وكل هذه المدن كانت تضم كتباً ووثائق هامة .

---

(103) أنظر السيدة روجرز (شتاء في الجزائر) ، لندن ، 1865 ، ص 37..

(104) أنظر لالوي في (المجلة الافريقية) ، 1925 ، ص 107 ، نقلاً عن اسكير ، محافظ مكتبة الجزائر عندئذ .

ومن مبتكرات الحملة والغزو الفرنسي للجزائر ميلاد المطبعة وظهور الصحافة . ويظهر أن بورمون فكر في كل شيء يلزم الحملة الا المطبعة . اذ يقال إن ذلك لم يخطر له على بال الا عندما ذُكِّرَ به وهو على ضفة البحر الأبيض الفرنسية ، فأبدى تأسفه وعبر عن أهمية المطبعة في مثل هذه الظروف ، خصوصاً وهو يريد أن يساهم في اسكات المعارضين للحملة في بلاده والمعارضين لصديقه رئيس الوزراء ـ بولينياك ـ الذي جاء به وزيراً للحربية ووضعه على رأس الحملة ضد الجزائر . وفي مدينة مرسيليا اشترى (ميرل) كاتب بورمون لوازم مطبعة واتفق مع طباعين يرافقونه ، كما اتفق في طولون مع صاحب مكتبة هناك على انشاء جريدة تهتم بشؤون الحملة وتغطي أخبارها . وصدر اعلان يخبر عن قرب ميلاد هذه الجريدة ، وأن اسمها سيكون (الاسطافيت دالجي) وأنها جريدة « تاريخية وسياسية وعسكرية » لا تطبع في مرسيليا أو طولون ولكن في أفريقية . وقد صدرت فعلاً بعد أربعة أيام من نزول جيش العدو على تراب سيدي فرج . وقد سميت المطبعة التي خرجت منها باسم « الأفريقية » واحتفل بها الجنود على أنها « مطبعة فرنسية في بلاد البدو » بينما وزعت نماذج من الجريدة على الحاضرين[105] . وبقطع النظر عن هذه العواطف المعادية للحضارية نفسها ، نقول إن إنشاء المطبعة « الأفريقية » وظهور الصحافة في الجزائر كان حدثاً رمزياً بارزاً في تاريخ الجزائر الحديث ، رغم أن الصحافة قد استعملها العدو للتخدير لا للتثقيف ، ولذلك ظلت محتكرة له إلى فاتح القرن الحالي .

ومن الجرائد التي ظلت تؤدي رسالة التخدير ، خلال العهد الذي ندرسه جريدة (المونيتور الجيريان) التي طالب بها ، في الواقع ، الجزائريون أنفسهم[106] . فقد ظهرت سنة 1832 ، وكانت تصدر بالفرنسية في صفحتين ثم أضيفت اليها صفحة بالعربية . وكانت فقط للاعلانات والأخبار الادارية ، وقد لاحظ عليها كل من رآها عندئذ أنها ليست جريدة للثقافة ونشر الأفكار والحضارة ، كما

---

(105) عن ذلك أنظر ستيفان ديستري d'Estry (تاريخ الجزائر) ، مدينة تور ، 1851 ، ط 4 ، ص 189 . وكذلك غبريال ايسكير (بداية الصحافة الجزائرية) في المجلة الافريقية ، 1929 ، ص 261 ـ 278 .

(106) أنظر عريضة أعيان الجزائر بتاريخ 1831 إلى بيرتوزين . وقد طالبت العريضة بأن تكون الجريدة بالعربية .

ادعى الفرنسيون وأنصارهم[107]. ومن الذين طالبوا أيضا بانشاء جريدة ، أحمد بوضربة ، أثناء تدخله أمام اللجنة الأفريقية سنة 1833 ـ 1834 ، اذ رأى أن الجريدة السابقة لا تؤدي دورها الحضاري . ولعله بناء على ذلك وغيره أسس الفرنسيون جريدة (المبشر) سنة 1847 التي طال عهدها وصدرت بالعربية والفرنسية ، ومرت بمراحل من التطور ليس هنا محل التعرض اليها[108] .

وتحت الحاح الجزائريين أيضاً تأسست بعض المدارس ذات الطابع الفرنسي . وليس معنى هذا أن الجزائر كانت خالية من المدارس ، بالعكس ، فقد عرفنا أنه كان في مدينة الجزائر وحدها عدد كبير من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا التي كانت متعاونة على نشر التعليم من مال الأوقاف[109] . ولكن استيلاء الفرنسيين على هذا المال جعل المدارس تختفي والعلماء يهاجرون والتعليم يكاد ينتهي . والواقع أن الفرنسيين كانوا خلال المرحلة التي نحن بصددها منشغلين بالغزو والتجهيل لا بالثقافة والتعليم . فخلال السبع السنوات الأولى من الإحتلال لم يدخل المدرسة العربية الفرنسية الوحيدة (تأسست سنة 1836 فقط) أكثر من 90 تلميذاً . وقد لاحظ الكاتب الذي جاء بهذا الإحصاء أن الأطفال كانوا يأتون ويتغيبون ثم يعودون . ولكن لاحظ (سنة 1837) أن المعارضة الأولى للتعليم بالفرنسية أخذت تخف وتحل محلها روح التسامح[110] ! ان الجزائريين الأولين قد قاطعوا المدرسة الفرنسية الوحيدة في الجزائر خوفاً على أبنائهم من الغزو الفكري والديني . ثم ان كثيراً منهم كانوا ما يزالون ينتظرون الفرج ، أي خروج العدو من بلادهم ، ولذلك ظلوا في حالة ترقب[111] .

---

(107) أنظر مثلاً رأي توماس كامبل (رسائل من الجنوب) في كتابنا (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) ط 3 ، ص 1986 . والمؤسس لها هو المتصرف المدني ، البارون بيشون ، أثناء حكم الدوق دو روفيقو .

(108) أنظر عنها فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ج1/51 .

(109) أنظر كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول ، ط 2 ، 1985 .

(110) أنظر (طابلو) سنة 1838 ، ج 252/2 .

(111) عن موقف الجزائريين الأولين من التعليم بالفرنسية ، أنظر دراستنا « قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا 1843 » في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ج 2 ، ط. بيروت ، 1990 .

وهناك تقرير آخر كتبه برينييه أستاذ كرسي اللغة العربية الذي أسسه الفرنسيون في الجزائر ، جاء فيه أن كوليج الجزائر سنة 1837 كان مقصوراً على التلاميذ الفرنسيين فقط ، وليس بينهم تلميذ مسلم . وكان عددهم في تلك السنة لا يتجاوز الثمانين تلميذاً ، تتراوح أعمارهم بين السابعة والتاسعة عشر . وهذه المدرسة (أو الكوليج) الذي يتحدث عنه لم تنشأ إلا سنة 1836 (أكتوبر) ، اذ دخلها حينئذ 32 تلميذاً فرنسياً أو أوروبياً ثم انخفض ذلك العدد إلى 19 فقط لأن الدراسة فيه كانت باللاتينية بدل الفرنسية والعربية الفصحى . وقد لاحظ صاحب التقرير أن هناك مدارس حضرية تعلم العربية ويذهب إليها معلم فرنسي لتعليم الفرنسية فيها . ولكن التقرير لا يعطي إحصاء لهذه المدارس ولا لعدد تلاميذها[112] .

وما دمنا نتحدث عن الغزو العلمي والفكري والديني للجزائر فلنذكر أيضاً ناحية أخرى اهتم بها الفرنسيون في نهاية العهد المدروس وهي إنشاء لجنة علمية (أواخر سنة 1837) . وقد ضمت هذه اللجنة مختصين في شؤون المستعمرات ومستشرقين وعلماء ، ثم وقع إرسالهم إلى الجزائر ليبحثوا ، كل في مجال تخصصه ، عما فيها من إمكانات تفيد البلاد الغازية ، على أن تقدم نتائج أبحاثها إلى المعنيين وإلى الرأي العام على التوالي ، في عمل يشبه ما قامت به اللجنة العلمية الفرنسية في مصر أثناء الحملة هناك . ولعل المجلدات التي صدرت عن هذه اللجنة[113] ، رغم ما فيها من حيف وابتسار أحياناً وغرور ، تعتبر من أفضل ما خلفته الإدارة الإستعمارية إذ رغم مرور الزمن الطويل على هذا العمل ، فإنه ما يزال مفيداً ولم يتقدمه عمل آخر بعد . وكم نتمنى أن يقوم الجزائريون اليوم بعمل علمي تفوق أهميته أهمية العمل الفرنسي . ويتصل بذلك أيضاً ما قام به الباحث الأثري العسكري ، كوفي Cauvet ، من دراسة لأشكال القباب الدينية أو الأضرحة ، وخطوط هندستها المختلفة ومن دراسة لاختيار أماكنها ومناسبتها للجو والبيئة[114] . وكان كوفي هذا من أوائل من سمح له بالتنقيب الأثري . ولعل هدف الفرنسيين ، كما لاحظ (بوجولا) وغيره ،

---

(112) أنظر هذا التقرير في أرشيف ايكس F 80 1732 . وتاريخه : باريس 25 اكتوبر 1837 .

(113) صدر منها 19 مجلداً (من 1838 إلى 1866) . عن انشاء اللجنة أنظر (طابلو) 1838 ، ج 1 ، ص 113 .

(114) عن عمله أنظر (المجلة الافريقية) ، 1923 ، 274 ـ 329 ، و 448 ـ 522 .

كان البحث عن الآثار المسيحية في البنايات الإسلامية قبل أن يكون هدفهم البحث عن الآثار عامة . وقد بدأ كوفي نشاطه المذكور منذ 1831 .

وبالإضافة إلى الجنود وحثالات الأحياء الباريسية الذين رافقوا جيش العدو ، هناك عدد من الفنانين ، خصوصاً بعض الرسامين الذين اندمجوا في الحملة وأصبحوا جزءاً من تحركات الجيش ، فكانوا يرسمون « معاركه » ويصورون ضباطه ، وأسطوله ومناوراته ، كما رسموا في أشكال رومانتيكية مثيرة بعض مناظر الجزائر التي طالما حدثتهم عنها الأساطير الشرقية . ومن هؤلاء الفنانين يوجين عيسى باي Isa Bey وقودان ، واشسموت ، ولانقلوا ، وتانور ، وجيلبير . . .[115] وسيلتحق بهم الفنانان البارزان دي لاكروا وهوراس فيرني ، وصحفيون[116] ، كما سبقت الإشارة .

ترى هل وجد الفرنسيون الجزائريين بدواً ، كما كان يشاع عنهم أو وجدوهم نصف متحضرين أو وجدوهم في نفس المستوى الذي عليه الأوروبيون ؟ سؤال طالما جالت في جوابه الأقلام الإستعمارية وهي تكاد تتفق على أن الجزائر بلاد البدو ، وأن بركة حثالات الأحياء الباريسية ونفايات المدن الفرنسية الجنوبية ، هي التي حملت إليها جمال الحضارة ورونق الثقافة ورأس الحكمة ! ولا نجد الّا القليل ممن حدثونا عن أن مدارس الجزائريين كانت تفوق مدارس الفرنسيين ، وأن الأمية كانت أكثر رواجاً في فرنسا منها في الجزائر ، وأن نظافة المدن الجزائرية ومنازلها كانت تطغى على نظافة المدن الفرنسية ومنازلها ، وأن جنود الحملة كانوا من الجهل والفاقة والتعصب الأعمى بحيث لا تكاد تجد من يماثلهم في الجزائر . ولكن أحد الفرنسيين ، وهو بول رينال P. Raynal ، فاجأنا بالرأي التالي (الذي لا نستغربه منه نحن ما دمنا قد درسنا حياة أهل الجزائر عشية الحملة ، ولكن ليفاجىء به المتسترين من الفرنسيين والجهلة من الجزائريين بتاريخ بلادهم) اذ يقول رينال : انك لا تستغرب أن تجد في مدينة الجزائر وتحت العمامة والبرنس أناساً يتحدثون الفرنسية ،

---

(115) أنظر ديستري (تاريخ الجزائر) ، ص 190 .

(116) منهم الصحفي والمؤرخ أوغسطين جال الذي كتب سنة 1831 حديثاً مع حسين باشا أثناء زيارته لباريس (مجلة باريس) ، عدد 22 ، 23 ، 24 ، (1831) ، والذي أصبح مؤرخ البحرية الفرنسية الخ . . أنظر أيضاً ايسكير (المجلة الافريقية) ، 1929 ، ص 255 . وكذلك كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 ، ط 1 ، بيروت ، 1990 .

مثل أهل باريس تقريباً ، ومن يعرف الأوبرا الإيطالية ، ومن يشيد بمدينة فراسكاتي (Frascati) . . . فلكم تتسرب الحضارة ! وكم هو صعب غلق جميع المنافذ لبلد ما ! وقد استغرب رينال أن يلقى في الجزائر من أخبره أنه ذهب مع صديق له إلى فرنسا وإنكلترا وتجولا فيهما[117] .

ولكن الذي درس حياة أحمد بوضربة وحمدان خوجة وابن العنابي وأحمد بن سحنون وبوراس الناصر وغيرهم ، يعرف أن الجزائريين كانوا يعرفون الكثير عن « حضارة » أوروبا ، ولكنهم كانوا معتزين بحضارتهم ، رغم أن بعضهم قد دعا (مثل ابن العنابي) إلى الإستعارة من الحضارة الغربية ما تفتقر إليه حضارتهم حتى لا تقع الجزائر ومعها العالم العربي والإسلامي ، فريسة للإستعمار ، ولكن صيحته كانت في واد ، فوق ما وقع !

* * *

---

(117) أنظر بول رينال (حملة الجزائر) ، باريس ، 1930 ، ص 108 ، 114 .

و(فراسكاتي) مدينة بالقرب من رومة بايطاليا . وكان (رينال) معاصراً بل شاهد عيان للحملة الفرنسية ضد الجزائر ، وكان مشاركاً فيها . وقد نشر كتابه أوغسطين بيرنار سنة 1930 بمناسبة الذكرى المئوية للإحتلال .

مراجع الفصل الأول

ابن عبد الكريم ، محمد ـ حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته ، بيروت ، 1972 .

أحمد باي ـ مذكرات ، نشر هام . ايمريت ، (م. إ.) ، 1949 .

أزان ، بول ـ الاحتلال والتهدئة ، باريس ؟، 1931 .

أوميرا ـ سلسلة مقالات عن وضع أملاك الأوقاف (م.إ.) ، 1897 ـ 1899 .

ايسكير ، غبريال ـ بداية الصحافة الجزائرية (م.إ.) ، 1929 .

ايمريت ، مارسيل ـ (الحالة العقلية والمعنوية بالجزائر) ، في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر ، يوليو ـ سبتمبر ، 1954 .

ايمريت ، مارسيل ـ (عن استعمال عظام الموتى الجزائريين) ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 1، 1974 .

بابييه ـ (عن مساجد عنابة) ، في (م.ا.) ، عدد 33 ، 34 ، 1889 ، 1890 .

بلاكسلي ، جوزيف ـ أربعة أشهر في الجزائر ، لندن (18؟) .

بليفير ـ جلادة المسيحية ، لندن ، 1884 .

بوجولا ، جان ، دراسات افريقية ، باريس ، 1845 (؟) .

بيري ، يوجين ـ رحلات جزائرية 1830 ـ 1884 ، باريس ؟، بدون تاريخ .

تامبل ، غرينفيل ـ جولة في البحر الأبيض ، لندن ، 1835 .

التميمي ، عبد الجليل ـ بحوث ووثائق مغربية ، تونس ، 1972.

التميمي ، عبد الجليل ـ عن اتفاق كلوزيل ـ باي تونس ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد يناير 1980 .

جال ، اوغسطين ـ عن حياة الداي حسين وزيارته إلى فرنسا سنة 1831 ، مجلة باريس عدد 30 ـ 31 .

جوليان ، ش. أ. ـ تاريخ الجزائر المعاصر ، 1827 ـ 1871 ، باريس ، 1964 .
حمداني ، عمار ـ الحقيقة حول الحملة الفرنسية على الجزائر ، باريس 1985 (؟).
خوجة ، حمدان ـ الرد على كلوزيل ، باريس ، 1834 .
خوجة ، حمدان ـ مذكرات ، نشرها ج. ايفير في (م.إ.) 1913 .
خوجة ، حمدان ـ المرآة ، ط. باريس 1833 (وترجمتها العربية) .
ديستري ، ستيفان ـ تاريخ الجزائر ، ط. 4، مدينة تور ، 1851 .
ديفوكس ، البير ـ عن المدفع (بابا مرزوق) ، (م.إ.) ، 1873 .
ديفوكس ، البير ـ المؤسسات الدينية لمدينة الجزائر ، الجزائر 1870 .
روجرز (السيدة) ـ شتاء في الجزائر ، لندن 1865 .
رينال ، بول ـ حملة الجزائر ، باريس ، 1930 (المؤلف معاصر للحملة ، والكتاب نشر بعد موته) .
دي رينو ، بيليسييه ـ الحوليات الجزائرية ، ط. 1854 ، 3 أجزاء .
سعد الله ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 3 ، بيروت ، 1990 وجـ 2 ، بيروت ، ط 2 ، 1990 .
سعد الله ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، ط. 3 ، 1982 .
سعد الله ـ تاريخ الجزائر الثقافي ، جزآن ، ط. 2 ، 1985 .
سعد الله ـ تجارب في الأدب والرحلة ، الجزائر ، 1983 .
رينيه ، شانقا ـ (مذكرات) ، بيرجي ـ لوفرو ، 1930 .
شيربونو ـ Recueil (المجموع) ، 1853 ، عن مساجد قسنطينة .
دي طرازي ، فيليب ـ تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، 1967 (مصور) .
غفريل ، بول ـ الجزائر ، تاريخ : احتلال واستعمار ، 1883 .
غوثرو ، غوستاف ـ احتلال الجزائر من أوراق المارشال بورمون ، باريس 1929 .
فانسان ، بول ـ عن شعر ابن الشاهد في بكاء مدينة الجزائر بعد الاحتلال ، (المجلة الآسيوية) ، عدد 8 ، 1839 .
كامبل ، توماس ـ رسائل من الجنوب ، لندن ، 1937 ، جزآن ، وأيضاً في سعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ط. 3 ، 1986 .
كامبون ، جول ـ حكومة الجزائر العامة ، الجزائر ، 1918 .

كلاين ، هـ . ـ اوراق مدينة الجزائر ، الجزائر ، 1913 .
كلوزول ـ الجزائر المصورة (Pittoresque) ، تولوز ، 1845 .
كلوزيل ـ الرد على حمدان خوجة ، باريس ، 1834 .
كوفي ـ عن الحفريات الأثرية ، (م.أ.) ، 1923 .
لالـوي ـ عن حريق مكتبة الاسكندرية ومكتبات قسنطينة ، (م.إ.) ، 1925 .
مارتينو ـ العرب في الكوميديا والرواية في القرن 19 (م.ا.) 1905 ، ص 149 .
مارسيه ، جورج ووليام ـ الآثار الاسلامية في تلمسان ، باريس، 1903 .
موريل ، ج ـ الجزائر ، لندن ، 1854 (؟).
مونتانيو ، د.ج. ـ وجه مدينة الجزائر (فيزيولوجية . . .) ، مرسيليا ، 1834 .
وولف ، جون ـ الجزائر وأوروبا ، ترجمة سعد الله ، الجزائر ، 1986 .



جبهات المقاومة

1837-1830

1 . مقدمات :

إن التحدي الذي أبداه الغزاة الفرنسيون للجزائريين قد تولدت عنه ردود فعل مختلفة ، مدنية وعسكرية . فالعنف ، والتعصب الديني ، والتبجح الفارغ بالحضارة والانسانية ، والاستهتار بالدين الاسلامي والقيم الأخلاقية ، وخيانة المواثيق ، والاعتداء على الأملاك الشخصية والدينية ، كل ذلك أدى الى اشكال مختلفة من المقاومة ، كل بحسب طاقته ، وكان ذلك مدعاة للبحث عن وسائل الوحدة وجمع الصفوف والعمل المشترك ضد العدو المشترك ومخاطبة المشاعر العليا التي تحرك الجميع كالدين والوطن، وذلك هو ما يعرف بالضمير الوطني .

وإن القومية بمفهومها الحديث لم يكن قد بلغ عمرها في بعض أجزاء العالم خمسين سنة عندما احتلت الجزائر ، وفي بعض الأجزاء الأخرى لم تظهر بعد . وليس هناك شعب قد ولد ناضجاً بالإحساس القومي وانما القومية قد ولدتها ظروف عرفها كل شعب على حدة . ومن بين تلك الظروف مواجهة الخصم المشترك والاعتداء على ما يراه الشعب المضطهد مقدسات ؛ ولا تظهر القومية فجأة بل تنمو بقدر نمو الشعب وعياً وثقافة وتوحداً سياسياً . ويذكر المؤرخون أن القومية الألمانية مثلاً قد ولدتها ، مع بطء شديد ، اعتداءات لويس الرابع عشر وخلفائه ، وأن القومية الروسية قد ولدتها ، مع بطء شديد أيضاً ، اعتداءات نابليون الأول ، وأن القومية العربية قد ولدتها عمليات التتريك ثم عمليات الغزو الاستعماري الأوروبي ، وهكذا . وقد كانت الجزائر ، في نظرنا من أوائل شعوب ما يسمى اليوم بالعالم الثالث ، تعرضاً للغزو الاستعماري الشرس ، على خلاف الغزو الأوروبي (الهولندي ـ الفرنسي ـ الإنكليزي ـ البرتغالي) للهند مثلاً ، فقد مس الغزو في الجزائر كل القيم والمؤسسات وعوامل الوحدة ، بينما لم يمس في الهند في العهود

المبكرة الا النواحي التجارية تقريباً. فلا غرابة أن تتولد الحركة الوطنية في الجزائر مبكرة تبعاً لشراسة الاستعمار ، وأن تكون هي مقدمة للدعوة إلى القومية العربية والجامعة الاسلامية ، ولكن هذا موضوع آخر.

وقبل أن نركز على موضوعنا الرئيسي ، وهو تولد الضمير الوطني الجزائري في السنوات الأولى للاحتلال نود أن نذكر بأمر كثيراً ما يغفله المؤرخون وهو أن عهد احتلال الجزائر هو عهد الحركة الرومانتيكية الأوروبية التي انطلقت معها العواطف الانسانية بلا حدود ، وتدفقت معها كذلك المشاعر القومية حباً في (الأنا) الأعلى للأمة وتواجداً مع المثل العليا للحضارة في شكلها الانساني الطبيعي الخيالي . إن كثيراً من ضباط الحملة الفرنسية ومن الذين رافقوها أو الذين التحقوا بها بعد ذلك كانوا مدفوعين بهذا التيار القومي ـ الرومانتيكي ، بقطع النظر عن مخططات رجال السياسة والدبلوماسية والاقتصاد في بلادهم.

قلنا إن ردود الفعل الجزائرية على الحملة الفرنسية والاحتلال الذي أعقبها قد اتخذت أشكالاً عديدة . وقد كان من الطبيعي أن تظهر أول ردود الفعل في المدن ، وخاصة مدينة الجزائر ، التي عرفت أول اتصال مع العدو ، واختلطت به واطلعت على اجراءاته التعسفية وتضررت مباشرة باستهتاره وجوره ، وقد كان لسان حال كثير من أهل المدن التي وقعت فريسة للاحتلال قول الحكيم المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بدّ

وقد قسمنا هذه المقاومة (ردود الفعل) إلى قسمين رئيسيين: المقاومة المدنية أو السياسية والمقاومة الريفية أو العسكرية .

2. المقاومة المدنية أو السياسية :

تكاد القيادات السياسية بين الجزائريين أن تكون منعدمة في العهد العثماني . وإذا كان هناك نوع من القيادة للرأي العام فإنها كانت منحصرة في المجال الديني : العلماء والمرابطون ، وفي المجال الاقتصادي : الأغنياء أو كبار التجار وملاك الأرض . وكان هذا الوضع هو الموجود ساعة احتلال الجزائر . وكان يعبر عن القيادة السابقة ، في مجالها الديني والاقتصادي ، بالأعيان . وقد رأينا أن هذا التكتل أخذ في الظهور والتحرك منذ جوان 1830 ، وأصحابه هم الذين ضغطوا على حسين باشا

بقبول الصلح ، وفاوضوا على الاتفاق الذي حصل بين حسين باشا وبورمون . ثم أخذوا في اعداد العدة للاستفادة من الوضع الجديد : خروج الانكشارية وحاميتها سلطة الدايات ، ووجود الفرنسيين الذين أعلنوا بكل وضوح أنهم سيتركون البلاد لهم بعد القضاء على الخصم المشترك.

ولكن هؤلاء (الأعيان) لم يكونوا على درجة واحدة من التفاهم والطموح والمصالح ، بل لم يكونوا ينظرون إلى الغريب الجديد بعين واحدة . فقد كان فيهم البعيد النظر رغم ضعف الامكانات ، وفيهم الضعيف الخائر الذي يكفي لاستمالته وعد كاذب . وكان على هؤلاء الأعيان أن يدخلوا في دوامة البحث عن الذات ، والتعرف على مواقع الاقدام ، ودراسة نوايا العدو الفرنسي ، والتحسس لمصالح العامة واهتماماتها . وقد ظهر في بعض الأحيان أن اللقمة كانت أكبر بكثير من أفواههم ، وأن اللعبة السياسية كانت أعقد بكثير أيضاً مما ملكت أيديهم ومن ذكائهم . ومع ذلك فنحن سنتعامل مع هؤلاء الأعيان كما لو كانوا قوة سياسية ذات نفوذ ولو كان محدوداً . وسنتتبع اهتماماتهم وتياراتهم خلال هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية.

ومن البديهي أن يتولد على الوضع الجديد ثلاثة تيارات سياسية ، سنسميها ، تجاوزاً ، أحزاباً : (1) الحزب الوطني ، ونعني به ذلك الذي كان يضم عناصر تنظر داخلياً ، ويعمل للصالح العام والتحرير الوطني واستعمال كل السبل لجمع الشمل . (2) والحزب الثاني هو ما يمكن أن نسميه بالحزب العثماني ، وهو الذي كان أصحابه يهدفون إلى البقاء على ولائهم للخلافة العثمانية وتحرير الجزائر من ربقة الفرنسيين ، وعودة الحكم العثماني إلى الجزائر اذا أمكن أو على الأقل تكوين سلطة في الجزائر موالية للسلطان . (3) وأما الحزب الثالث فهو الذي ارتبطت مصالح أصحابه بالمصالح الفرنسية ، ووجد نفسه مستفيداً من الوضع الجديد ، ونعني به الحزب الفرنسي ، إذا صحّ التعبير . وكانت قيادات هذه الأحزاب ليست على الشكل الذي نفهمه اليوم من القيادات السياسية : زعامة وتنظيماً وبرنامجاً ، الخ . ذلك أن الزعامات كانت غير ثابتة ، والتنظيمات كانت شبه معدومة ، وليس هناك برنامج محدد ، بل حتى الأهداف كانت غامضة إلى حد كبير ، وأحياناً قصيرة المدى ، منطلقة من رؤية آنية.

ومع ذلك فنحن سنغامر فنضع، في المدن، أحمد بوضربة في صف الحزب الوطني ، ونضع ابن العنابي وحمدان خوجة في صف الحزب العثماني ، ومصطفى ابن الحاج عمر في صف الحزب الفرنسي . أما في الأرياف فسنضع الأمير عبد القادر على رأس الحزب الوطني ، وأحمد باي على رأس الحزب العثماني ، ومصطفى ابن اسماعيل على رأس الحزب الفرنسي . وهناك بالطبع زعامات أخرى ستظهر في المدن والأرياف ، سنحاول تحديد اتجاهاتها وتصنيفها كلما كان ذلك ممكناً غير أنه يجب التنبيه من البداية إلى أن الزعامات المذكورة لم تكن كلها ذات مواقف محددة وثابتة من البداية إلى النهاية ، اذ كثيراً ما وقع التحول في الميول من هذا الجانب إلى ذاك والعكس . كما أن هذه الأحزاب (أو التيارات) قد وقع بين زعاماتها مشاحنات وكيد وغيرة أدت إلى إضعافها وإتاحة الفرصة للعدو لضربها جميعاً .

***

بدأ الفرنسيون منذ عهد بورمون بتقريب أنصار الاتجاه الوطني الذين كانوا يسمونهم (الحضر) ، وأبعدوا عنهم كل من كانوا يسمونهم بالكراغلة أو أنصار الاتجاه العثماني . ومن خلال هذا التقريب والابعاد تولد اتجاه جديد وهو الذي أسميناه أنصار الوجود الفرنسي ، اذ أن الفرنسيين كانوا يجرون « عملية فرز » فمن والاهم ، مهما كانت الظروف من أنصار الاتجاه الوطني أو من أنصار الاتجاه العثماني ، قربوه منهم واستفادوا منه ، فاذا ظهر منه ما يدل على طموح أو استقلالية أو غيرة على قوم أو وطن لفظوه وعاقبوه وسلطوا عليه الارهاب النفسي والبدني ، فإن ثارت نفسه فتمرد أو هاجر تخلصوا منه وإن عاد اليهم تائباً مقبلاً لتراب النعال رموا اليه بكسرة وعدّوه من حزبهم.

قلنا إنهم أظهروا التعامل في البداية مع حزب الحضر ، وكان أحمد بوضربة من أبرز عناصر هذا الحزب في الفترة التي ندرسها (1830 ـ 1837) . فهو الذي فاوض الداي وبورمون ، وفرض وجهة الحضر على الأول ونال وعوداً من الثاني لصالح الحضر . وقد كافأه بورمون فجعله على رأس اللجنة البلدية التي أنشأها لادارة شؤون العاصمة . وعين معه بعض الحضر الآخرين.واليهود . وكان بوضربة قد استغل هذا الوضع وأخذ يعين أقاربه وصنفه من الحضر في الوظائف الجديدة ، ومن ذلك تعيين أحد أقاربه (عمه ؟) مصطفى بوضربة وكيلاً لأوقاف مكة والمدينة، واقتراح تعيين

صديقه، حمدان بوركايب، في وظيفة آغا العرب وفي نفس الوقت وجه بوضربة نشاطه ضد عناصر الحزب العثماني وبقايا الأتراك فكان يتهمهم بالتآمر ويشيع عنهم العداء له وللفرنسيين وينصح هؤلاء بطردهم من الجزائر . ومن أجل ذلك اكتسب عداوة اليهود والعناصر العثمانية وكثرت حوله الشكاوي فعزله كلوزيل وشك في نواياه ، وبقي كذلك إلى عهد بيرتزين ، اذ نجده يقوم بنشاط مكثف لصالح أهل الحضر ومصالح العاصمة والعرب عموماً . ونحن نجد عدة عرائض موقعة من أعيان العاصمة تفوضه بالتفاوض لصالحهم مع الفرنسيين سنة 1831 . وقد نُفاه روفيقو سنة 1832 فعاش في مرسيليا ولكنه لم يتوقف عن قضية بلاده . وتكررت أنشطته فنجده أمام اللجنة الأفريقية 1833 ـ 1834 ، وعند الأمير عبد القادر 1834 ـ 35 ، وعضو بلدية الجزائر من جديد سنة 1836 الخ .

لقد لعب بوضربة دوراً حساساً جعل الجزائريين ينقسمون حوله : فهو عند البعض من الموالين للفرنسيين وهو عند البعض الآخر من ضحايا الفرنسيين، كما جعل الفرنسيين أنفسهم ينقسمون حوله ، فهناك من يعتبره صديقاً لهم ومنهم من يعتبره عدواً لدوداً . ولكل طرف مبرراته . ونحن وإن كنا سندرس هذه الشخصية على حدة[1] ، فإننا نقول إن أحمد بوضربة لم يستطع أن يحقق أهدافه الشخصية والوطنية من الوجود الفرنسي ، وخابت آماله في الفرنسيين عموماً فساند الأمير عبد القادر ، وأنشأ علاقات تجارية مع المغرب . ولم يستطع أن يتحرر تماماً من التبعية الفرنسية لأن زوجته منهم وابنه الوحيد (اسماعيل بوضربة) كان يدرس عندهم (ليسيه لويس لو قران في باريس) ، وتجارته في بلادهم . كما أنه عجز عن ايجاد تنسيق مع الأوجه الأخرى للمعارضة ، أمثال حمدان خوجة، وابراهيم بن مصطفى باشا . وأخيراً واجه بوضربة حرباً شعواء من اليهود الجزائريين والفرنسيين والمغاربة لممارساته التجارية ومحاولاته السياسية للتنقيص من شأنهم ، خصوصاً في الجزائر.

ان العرائض التي صدرت عن أعيان الجزائر بين 1830 ـ 1831 كانت مفعمة

---

(1) جمعنا مادة غزيرة عن أحمد بوضربة من عدة مصادر ، وكنا ننوي إفراده بدراسة مطولة في شبه ترجمة ذاتية ، ولكن البطاقات التي سجلنا عليها تلك المعلومات ضاعت ضمن المحفظة التي ضاعت منا خلال صيف 1988 .

بالثقة في بوضربة وفي كفاءته ، ومنها تلك العريضة التي صدرت عن « اذن السادات الأجلة الكرام ، وكافة علماء الجزائر وقدوة أهل الإسلام ، وكبرائها ومشائخها وأشرافها وأعيانها ، وخاصتها وعامتها » بتاريخ 16 شوال ، 1246هـ ، والموقعة من قبل مفتيين وعلماء وضباط وتجار وخوجات وموظفين سامين . . وكلهم يعبرون عن ثقتهم فيه للتحدث بإسمهم مع الفرنسيين[2] . وهناك عرائض أخرى لاحقة في نفس المعنى . وبالإضافة إلى ذلك لجأ أعيان الجزائر (ومنهم بوضرية) إلى كتابة العرائض إلى المسؤولين الفرنسيين في الجزائر يطلبون منهم رفع الضيم ، ويحتجون على بعض التصرفات التعسفية . ومن ذلك العريضة التي أرسلوها إلى الجنرال بيرتزين يطالبونه فيها (1831) باحترام الاتفاق المبرم بين حسين باشا وبورمون ورد الأوقاف إلى المسلمين ، ويحتجون على استيلاء الفرنسيين على أملاك المسلمين دون أملاك اليهود ، وعلى بقاء المنازل محتلة من قبل الجنود.والضباط دون دفع الكراء للمستحقين . كما طالبوا ، حسب بعض الوثائق ، بتهجير بقايا الأتراك إلى بلادهم ومنع حسين باشا من العودة إلى الجزائر[3] ، واحتجوا أيضاً على « بيع » إقليمي وهران وقسنطينة إلى باي تونس[4] . وقد استمرت عملية التفويض هذه وكتابة العرائض والاحتجاجات ضد سوء المعاملة إلى 1836 . ذلك أننا نجد حمدان خوجة أيضاً يتلقى وهو في فرنسا ، عرائض ورسائل من أولئك الأعيان في نفس الغرض[5] .

ويبدو أن برنامج أعيان الحضر لم يَكد يخرج عن هذه الأمور (التي نص عليها في الحقيقة إتفاق الجزائر) :

1 ـ احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه ، وإنشاء لجنة من المسلمين لإدارة شؤونه .

---

(2) نسخة منها عندنا ، مصورة من أرشيف ايكس 1H1 .

(3) جاء حسين باشا إلى باريس في اكتوبر 1831 . وتقول المصادر أنه جاء يطالب ببعض حاجاته الشخصية ، ولكن الأعيان الجزائريين فهموا من ذلك أنه جاء يتفاوض مع الفرنسيين لكي يرجع إلى سلطته في الجزائر . أنظر ترجمتنا لزيارة الداي لباريس في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ 3 . ط. بيروت 1990 .

(4) هذه العريضة نشرها عبد الجليل التميمي ، في (المجلة التاريخية المغربية) عدد يناير 1980 ، أنظر ص 17 ـ 24 .

(5) سنتناول حمدان خوجة بالحديث فيما بعد .

2 ـ إعادة الأملاك الخاصة التي استولى عليها الجيش الأجنبي ودفع الكراء وتعويض أصحابها .

3 ـ تسيير شؤون المدينة من قبل الحضر وتقديمهم على غيرهم باعتبارهم القوة الكاثرة والأصلية والغنية .

4 ـ تخفيض نشاط اليهود في الجزائر وطرد الأتراك الباقين منها .

5 ـ فتح مجالات العمل والتعلم والصحافة أمام الجزائريين (فتح المدارس بالعربية وإنشاء جريدة ، الخ) .

ويظهر لك من هذا أن البرنامج ما يزال غير متطور ولا طموح . فهو يقبل بالوجود الفرنسي كحقيقة واقعة ولكن يريد أن يستفيد منه لصالح فئة . كما أن صلة هذه الفئة بالمواطنين خارج العاصمة غير مؤكدة ، اللهم إلّا ما وجدناه في إحدى العرائض المذكورة من أن أهل وهران قد أرسلوا سراً إلى أعيان الجزائر يضمون إليهم أصواتهم في الإحتجاج على « بيع » وهران إلى باي تونس . واللهم أيضاً إلّا ما لاحظناه ضد اتهامات الفرنسيين لبوضربة والحضر عموماً من أنهم كانوا «يثيرون» سكان متيجة ضد الفرنسيين ، وأنهم كانوا يطلقون الإشاعات هناك عن رحيل الفرنسيين الوشيك عن الجزائر ، والاتصال بآغا العرب ، محيي الدين بن مبارك ، مما ساعد ، في نظر الفرنسيين ، على تنشيط الثورة ضدهم بين أهل الريف .

ان الصراع بين أهل الحضر ، وعلى رأسهم بوضربة في هذه المرحلة ، وبين الفرنسيين ، قد ساعد على إذكائه أيضاً عدة عوامل . من ذلك تبدل ضباط الجيش الفرنسي في مدة وجيزة (ثمانية في ظرف سبع سنوات) واختلاف أمزجة ومعاملة كل واحد منهم ، وجهل الجزائريين بحقيقة الفرنسيين ، واختلاف المصالح بين أهل القطر كله ما دام الاستعمار لم ينجح بعد في بسط نفوذه إلّا على أجزاء قليلة من الساحل ، وتباعد الشقة بين عواصم الأقاليم ، وقلة الوعي السياسي العام ، وانعدام تدخل قوة إسلامية أو غيرها مما قد يساعد على تحديد المواقف وبلورة الاتجاهات . فتدخل الدولة العثمانية لم ينجح ، وتدخل باي تونس كان مضراً أكثر منه نافعاً ، وتدخل سلطان المغرب سرعان ما تبخر أمام الضغط الفرنسي ، ولم تبد إنكلترا أو غيرها من الدول الأوروبية اهتماماً حقيقياً بمساعدة حزب المعارضة أو تأييد ثورة مسلحة في الجزائر.

هذا بالنسبة للحزب الوطني أو التيار الذي يمثله الحضر ، أما بالنسبة للحزب العثماني أو التيار الذي يمثله بقايا الأتراك والعثمانيين في الجزائر وبعض الكراغلة ، فالأمر يختلف نوعاً ما . لقد كان من الطبيعي أن يتألف حزب من العناصر المعادية للسلطة العثمانية في الجزائر والتي كان الحرمان السياسي يغذيها والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والدينية في الربع الأول من القرن التاسع عشر تزيد من حدتها . وكان من الطبيعي كذلك أن يتجمع من بقايا الأتراك ومن أنصارهم من الحضر ، خصوصاً الكراغلة ، حزب من الأنصار ، يتأذى من سقوط النظام القديم ويفقد مصالحه الذاتية والسياسية بسقوطه ، ويعمل كل ما في وسعه على إعادته إذا تمكن ، أو مساندة القوى التي تمثله إذا عجز عن استرداده كما كان .

وزاد الفرنسيون هذه الأوضاع وضوحاً حين ساندوا أحياناً من لهم طموح وطني معتدل ، وشعور معاد للأتراك . . . أمثال بوضربة . ولكنهم عندما رأوا الخطر في هذا الاتجاه ساندوا منافسيه وحرضوهم على العداء والكيد له . وقد ظهر ذلك في زعزعة (لجنة الحضر) التي ظهرت حول بلدية الجزائر ، ثم ظهر في زرع الشك عندما وضع كلوزيل أحد الحضريين العاصميين ، وهو مصطفى ابن الحاج عمر ، مكان الباي مصطفى بومزراق في المدية ، وكذلك عندما ساءت العلاقات بين حضر تلمسان . فانقسموا بين مؤيد للأمير عبد القادر (الوطنيون) وزعيمهم حمادي الصقال ، ومؤيد للعثمانيين (الكراغلة) . وكلما حلّ الفرنسيون في مدينة فيها العنصر العثماني جعلوا من سكانه الحضر خصوماً للعثمانيين وأنصاراً للفرنسيين .

فقد تبين لنا من سيرة محمد بن العنّابي ، أنه حاول تزعم الحزب العثماني ولكن كلوزيل تفطن له فنفاه بسرعة[6] ، (سبتمبر 1830) . وقد لفق له تهمة في ذلك تثبت أنه كان على اتصال بزعماء القبائل الريفية ليؤلف منهم جيشاً يطرد به الفرنسيين . وقد أكد ذلك ابن العنابي نفسه بعد نفيه . وليس غريباً أن يقوم ابن العنابي بذلك ، فهو ممن عاش هو وآباؤه في الجزائر منذ حوالي قرنين ، وتولوا فيها الوظائف العليا (الإفتاء والقضاء الخ .) وقد تولى هو الفتوى على مذهب الإمام أبي

---

(6) درسنا حياة ابن العنابي في كتابنا (المفتي الجزائري ابن العنابي ، رائد التجديد الإسلامي) ، الجزائر ، 1978 . وقد اطلعنا على آراء جديدة حوله ضمناها الطبعة الثانية بيروت ، 1990 .

حنيفة ، مذهب العثمانيين ، وقام برحلات وبعثات دبلوماسية إلى المغرب الأقصى واسطانبول ، وحج وزار عدة بلدان اسلامية وعربية ، وتولى التدريس بالأزهر عدة سنوات ، وألف الكتب والرسائل ومنح الإجازات ، ولقي علماء المشرق وتعرف على حكامه ، ومنهم السلطان محمود الثاني ومحمد علي والي مصر ، وباي تونس وسلطان المغرب . ويكفي أن كتابه (السعي المحمود) عبارة عن دعوة للنهوض الإسلامي وضرورة تقليد الغرب في العلوم والتكنولوجيا وفي الأسلحة الجديدة رغم أنه ألفه قبل الإحتلال الفرنسي لبلاده (ألفه سنة 1826)".

ويبدو أن ابن العنابي خرج من الجزائر قبل الاحتلال بسنوات بنية الحج فإذا به يبقى بعيداً عنها تسع سنوات ، استغلها في التدريس بالأزهر والتأليف . . ويبدو أن سبب البقاء خلاف والده مع قريب لحسين باشا كان قد سافر معهم إلى الحج ، ولعل سبب المكث في المشرق إعجاب ابن العنابي بنهضة محمد علي وجمود حسين باشا . ومما يفسر ذلك أن حسين باشا قد استدعاه استدعاء خاصاً وأرسل إليه باخرة حملته من الإسكندرية إلى الجزائر ، قبيل الاحتلال (سنة 1245هـ) ، وقدمه على العلماء الذين كانوا حوله واسترضاه . وعندما حلت الكارثة بالجزائر (هل كان الباشا يعرف ذلك قبل وقوعها ؟) وهزم جيش الآغا ابراهيم أمام اسطاويلي وغيرها ، نادى الباشا على محل ثقته ابن العنابي وطلب منه أن ينادي في الناس بالجهاد ويجمع كلمة الجيش المتفرق . وقام ابن العنابي بذلك ، ولكن الأمور كانت قد خرجت من يديه ، بعد استسلام الداي حسين ، فبقي في داره يخطط وينتظر إلى أن جاءه النفي المشار إليه[7] .

وكان التخطيط هنا من أجل استرجاع الحكم الإسلامي ـ العثماني سواء في شخص حسين باشا ، الذي نفى أيضاً (يوليو 1830) أو في أي شخص آخر موال للسلطان والخلافة . ولم تطل مدة ابن العنابي لنعرف الرجل الذي كان سيقف وراءه : بومزراق باي التيطري أو الحاج أحمد باي قسنطينة ، اللذين ادعيا معاً خلافة

---

(7) جاء في مخطوطة (تاريخ عبد الحميد بك) أن ابن العنابي لازم بيته ، بعد أن حارب الفرنسيين أياماً ، وكان يتصل بالعرب (أهل الريف) ويتصلون به سراً ، إلى أن أحسّ به الفرنسيون فهاجموا بيته فلم يجدوا دليلاً ضده لأنه رمى بالأوراق التي تدينه في بيت الراحة . . . والظاهر ان هذه المعلومات استقاها المؤلف (عبد الحميد بك) من ابن العنابي نفسه لأنه تتلمذ عليه في الاسكندرية .

حسين باشا بعد فراغ مكانه ، كما لا ندري من هم أصدقاؤه وخصومه من عناصر الحضر ، اللهم إلاّ ما وجدناه من تعاطف حمدان خوجة معه وسعيه له بتأجيل سفره عدة أيام حتى يصفي ديونه . ولا نشك في أن بوضربة وابن العنابي كانا على طرفي نقيض في بداية الاحتلال ، ولعله لو طال الأمد قليلاً لانجلت المواقف على التفاهم المشترك بينهما كما وقع بين بوضربة وحمدان خوجة .

ولكن نفي ابن العنابي لم يترك الحزب العثماني بدون زعامة . فقد ظهرت عناصر جديدة تعبر عن نفس الإتجاه ولكن ليس بنفس القوة . ذلك أن ابن العنابي كان في ظرف حرج وله عاطفة عثمانية حارة ، أما الذين جاؤوا من بعده فقد وجدوا الساحة وقد ملأها الفرنسيون ، وتدعمت قوات شرطتهم وقضاتهم ، وتدعم أيضاً جيشهم ومواقعهم ، وتقيدت حركات العلماء والمثقفين الجزائريين وعدت أنفاسهم عداً دقيقاً . ولذلك فإنه عندما ظهر إبراهيم بن مصطفى باشا (ابن الداي مصطفى الذي تولى حكم الجزائر ومات مقتولاً سنة 1805) . لم يكن في نفس المستوى والوعي الذي كان عليه ابن العنابي ، كما انه لم يكن يتمتع بتجربته السياسية . ولذلك غرق في دوامة المصالح الذاتية من جهة ومصالح اتجاهه من جهة أخرى . وقد استفاد الفرنسيون من ذلك ، فهو ابن عائلة كبيرة ، وهو يعرف أمور مدينة الجزائر وعائلاتها وعادات البلاد ، وهو من أغنياء البلاد ، ولكن الفرنسيين أخذوا كل أملاكه ، وغرموه عشرين ألف فرنك . وعاملوه بقسوة وإذاية ، اذ عندما عجز عن دفع الغرامة دخل عليه شرطيان عنوة وهو بين نسائه ، ووضعوه في السجن ، رغم أنه كما يقول هذا المصدر صديق للفرنسيين[8] فأدخلوه في لجنة البلدية (ماي 1835) حيث كان مساعداً لرئيسها الفرنسي (بعد أن عزلوا بوضربة) ، ووجدناه سنة 1834 يتقرب منهم برسالة بعثها إلى القائد الفرنسي (فوارول) في شأن المرأة الجزائرية المتنصرة ، وينصحهم بنصائح تشبه نصائح بوضربة ، ولكن في اتجاه آخر اذ ينصح بأن لا يتولى السلطة أهل الحضر (أي العرب) وأن تظل السلطة في يد الفرنسيين ، واحتج على الإشاعة التي راجت عندئذ وهي أن بوضربة سيتولى وظيفة سامية إلى جانب الحاكم الفرنسي[9] . ولذلك عبر فوارول عن ثقته فيه قائلاً إنه وجده من أكثر الرجال الذين

---

(8) أنظر كتاب (الى الأمة ، عن الجزائر) بدون مؤلف ، باريس 1832 ، ص 10 .

(9) أنظر نص هذه الرسالة في (مراسلات فوارول) ، ص 789 ، حين درسنا حياة وكتاب ابنه (**مصطفى** بن =

يعتمد عليهم في الجزائر .

ولكن حياة إبراهيم هذا مضطربة أيضاً اضطراب حياة بوضربة وغيره من زعماء هذه الفترة، وليس هناك ترجمة وافية لحياته ولا استمراراً في خط مواقفه، فنحن نجده قد استقال من وظيفة مساعد رئيس البلدية بعد عزل زملائه منها ، وبعد رفض استقالته عزل بقرار[10] . ونحن نجده أيضاً منفياً مع زملائه الحضر إلى عنابة في سجن قصبتها . وذلك بعد أن اتهمه كلوزيل بأنه كان يخفي مفتاح الشفرة التي كانت مستعملة في المراسلات بينه (ابراهيم) وبين حمدان خوجة وغيره من زعماء المعارضة . وقد هدده كلوزيل، في مراسلة مع نائبه (رابتيل) في الجزائر، باتخاذ عقوبة صارمة ضده إذا ما أصرّ على كتمانه . وفعلاً نفذ كلوزيل تهديده . فقد أصدر قرار النفي أولاً في يونيو 1836 ، إلى عنابة ، ثم أقام لهم (إبراهيم وعشرة آخرين) محكمة صورية في سبتمبر من هذه السنة[11] ، ثم أصدر قراراً بنفي معظمهم إلى خارج الجزائر (تونس ، الإسكندرية ، وجبل طارق) ، فإذا بإبراهيم وزميل آخر له من المعفى عنهم . ولكن المصادر المعاصرة تخبرنا أن ابراهيم هذا قد مات في سجنه بعنابة ، وعلى كل حال فنحن لا نجد له نشاطاً سياسياً بعد هذا التاريخ (1836) ، كما نجد المرارة في تأليف (حكاية العشاق) الذي كتبه ابنه سنة 1849 اذ يبكي فيه مجد عائلته وعهد العثمانيين في الجزائر .

والملاحظ أن المحكوم عليهم بالنفي كانوا خليطاً من الإتجاهين أو الحزبين ، أما المعفى عنهما فكلاهما من الحزب العثماني . وهكذا ، فإنه بعد أن كان بوضربة وحزبه هو الذي يطلب من السلطات الفرنسية طرد بقايا الأتراك ، كما فعل مع بورمون بعد حملته الفاشلة على البليدة ، اذ اتهمتهم تلك السلطات بتسليح العرب

= ابراهيم) المسمى (حكاية العشاق) ، ط 2 ، 1983 ، ذكرنا تفاصيل عن حياة والده الذي نحن بصدده ، فليرجع إليه من شاء الإضافة . ومن ضمن ذلك رسالة بعث بها إبراهيم من باريس إلى أحد أقاربه بالجزائر (1833) يخبره فيها انه يسعى مع حمدان خوجة وغيره ، لإعادة الحكم الإسلامي إلى الجزائر وانه متفائل بذلك .

(10) عزله الجنرال رابتيل ، نائب كلوزيل في الجزائر ، أنظر (مراسلات كلوزيل) 686/1 ، وكذلك ص 723 .

(11) التهمة التي وجهت إليهم هي الإتصال بالأمير عبد القادر أثناء حملة كلوزيل على تلمسان ، وهي الحملة التي نتج عنها استيلاء الفرنسيين عليها وأخذها من خليفة الأمير .

واثارتهم ضد الفرنسيين[12] ، انعكست الآية تقريباً فأصبح هو المنفي وخصومه هم المرضي عنهم . وسنعرض بعد قليل لمصير زعماء الحزبين بعد أن نكمل الحديث عن الحزب الثالث ، الذي أسميناه الحزب الفرنسي .

اذا كانت عناصر الحزبين السابقين (الوطني والعثماني) تعود أصولهما إلى ما قبل الإحتلال ، فإن عناصر الحزب الفرنسي لم تظهر إلا مع هذا الإحتلال . وكانت تضم مختلف الأفراد والعائلات التي ارتبطت مصالحها بالوجود الفرنسي . وهي بذلك تشمل بعض رجال الدين والعلماء والأعيان والساسة والموظفين الإداريين ونحوهم ، وكان هذا الحزب قد ضم أيضاً أفراداً من ذوي الإتجاه الوطني السابق ومن ذوي الإتجاه العثماني أيضاً ، بمعنى أن الذين دخلوا فيه كانوا من أصول عربية ومن أصول تركية ، ولم يتبلور اتجاه هذا الحزب بسرعة كما تبلور اتجاه الحزبين الآخرين ، بل ان دوره وآثاره لم تظهر إلا بعد أن أخذ العهد يتقادم بالإحتلال ، وهاجر من هاجر وبقي من بقي من الأعيان والعلماء ، وعزل من عزل منهم وثبت من ثبت . فأصبح الذين انجلت الأحداث عن وجودهم على المسرح هم الذين يمثلون هذا الإتجاه .

ولكن يجب التحذير من الحكم بأن جميع هؤلاء كانوا من الحزب الفرنسي قلباً وقالباً . ذلك أن كثيراً منهم لعبوا أدواراً مختلفة ، فبدأو أنصاراً للعدو ثم تحولوا عنه ، ومنهم من كان عدواً له ثم وجد نفسه من أنصاره ، ثم أن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا واثقين تماماً من ولاء هؤلاء ، فكانوا يَحْذَرُونَهم أشد الحذر ، ويعلمون ، خصوصاً في الفترة التي ندرسها والتي تليها ، أن أولئك الناس لم يكونوا موالين لهم إلا في الظاهر لأن الأحداث أجبرتهم على ذلك ، إذ أن التجربة أثبتت أنهم قد انفضوا من حولهم وناصبوهم العداء عندما حانت الفرصة . وسيتضح لك أن الحزب الفرنسي كانت له زعامات في مختلف المدن وعلى مختلف الفترات[13]

---

(12) قام بورمون فعلاً بنفي عدد آخر من العثمانيين (من غير الانكشارية طبعاً) ، بلغ عددهم (500) من النساء والأطفال والرجال . وكان النفي بطريقة فظة بحيث اضطر أحدهم ، وهو المسمى قائد يوسف ، إلى دفع دراهم إلى المترجمين لكي يسمحوا له بساعتين اضافيتين عن موعد السفر وهو 30 يوليو ، 1830 . أنظر (احتلال الجزائر من خلال أوراق بورمون) ، باريس 1929 ، ص 187 .

(13) من أبرز الأسماء التي ظهرت خلال هذه الفترة 1830 ـ 1837 : مصطفى بن الحاج عمر الذي تولى للفرنسيين وظيفة باي المدية ، . . وحفيظ (حفيز) خوجة الذي تولى لهم وظيفة وكيل الأوقاف مكان =

وقــد اختلف مـوقف القــادة الفـرنسيين الأولين من ممثلي هــذه الأحـزاب والتيارات . فبعضهم كان يضرب هذا بذاك كما في عهد بورمون وعهد كلوزيل الأول وبيرتزين وفوارول وديرلون ، وبعضهم كان يعاديهم جميعاً ويتخذ منهم موقفاً غليظاً كما في عهد روفيقو وعهد كلوزيل الثاني . فقد عرفنا أن روفيقو قام بنفي واضطهاد عدد من الجميع (الا الذين باعوا أنفسهم)، ومنهم بوضربة (عن الحزب الأول) وابراهيم بن مصطفى باشا (عن الحزب الثاني) وحمدان بوركايب[14] ومصطفى بن الحاج عمر (عن الحزب الثالث) . بينما قام كلوزيـل في عهده الثـاني (1835 - 1837) باضطهـادهم جميعاً والتخلص منهم متهمـاً اياهم بمـوالاة الأمير ومعـاداة فرنسا ، وشن ضدهم حملة بوليسيـة وإعلاميـة من الجزائـر وفرنسـا ، فكان يتتبـع عوراتهم ومراسلاتهم وتحركاتهم ويجعل ملفاً سريعاً عن كل واحد منهم .

فها هو يقول لنائبه في الجزائر (راباتيل) عن الحاج حسن بن حمدان خوجة (من الحزب العثماني) أن قنصل فرنسا في تونس أخبره (أي كلوزيل) بأن الحاج حسن كان يستعد لمغادرة تونس عائداً إلى الجزائر ، وانه كان قبل ذلك قد قام بزيارة قسنطينة ، وأن له علاقات وطيدة مع الحاج أحمد باي قسنطينة ، وأنه كان يكثر من الحديث عن هذا الباي وعن امكانياته واستعداداته[15] . . . ولذلك ظهـر لكلوزيل

= علي بوراده (أوقاف سبـل الخيرات) سنـة 1834 ، ثم مكان مصـطفى بوضـربة (أوقـاف مكة والمدينة) منذ 1836 . أنظر أرشيف ايكس 1H1 .

وقد اتهم علي بوراده بالتآمر والغش المالي ، واتهم بـوضربـة (مصطفى) بـالتهاون والفـوضى الإدارية للأوقاف . ونجد ان الأخير قد هاجر إلى المغرب الاقصى .

(14) كان حمدان بوركايب (ابن أمين السكة) قد تولى منصب آغا العرب للفرنسيين في بداية الإحتلال ، ثم اتهم بالتهاون وترك الثورات تحدث ضدهم فعزلوه . . ونفوه إلى فرنسا حيث تزوج الخ . أنظر ما سبق .

(15) الثابت هو أن علي بن حمدان خوجة (وليس أخاه الحاج حسن) هو الذي رافق والده ، رغم صغر سنه ، إلى قسنطينة للتفاوض مع الحاج أحمد باي ، باسم الدوق روفيقو . وقد كتب علي خوجة مذكراته عن الرحلة وترجمها إلى الفرنسية المستشرق دي ساسي، وطبعت في ميتز سنة 1839 . وهو يعرف أيضاً باسم علي رضا ، وهو الذي تولى فيما بعد حكم ولاية طرابلس الغرب ، وألف كتاباً سماه (مرآة الجزائر) ، موجود فقط بالتركية رغم انه مترجم إليهـا من العربيـة . والمعروف ان الحـاج أحمد ، باي قسنطينة كان متزوجاً من أخت حمدان خوجة وبذلك يكون حديث الحاج حسن (أو علي) هو حديث عن زوج عمتـه .

(وهو الحاكم العام الفعلي للجزائر) ان الحاج حسن شخص مشكوك فيه وانه لا يعود إلى الجزائر من تونس إلا لمصلحة باي قسنطينة ، ومصلحة ما يسميه كلوزيل الحزب العربي (Parti Arabe) وهو تعبير يعني به الحزب المعادي للفرنسيين سواء كان أصحابه من ذوي الإتجاه الوطني أو العثماني . وبناء على هذه المعلومات أمر كلوزيل نائبه في الجزائر أن يراقب باهتمام كبير سلوك وعلاقات الحاج حسن خلال اقامته في الجزائر[16] . وها هو كلوزيل أيضاً يكرر الأمر لنائبه في الجزائر أن يضيق الخناق على إبراهيم بن مصطفى باشا ويحصل منه على مفتاح الشفرة التي يستعملها (الحزب العربي) في مراسلاته ، بعد أن اكتشف كلوزيل رسائل ملغزة بعث بها حمدان خوجة من باريس إلى أصدقائه في الجزائر تتعلق بالوضع العام وخططهم لمواجهة خصومهم . وقد رأينا أن كلوزيل هدد إبراهيم باتخاذ العقوبة الصارمة ضده اذا لم يبح بسر المفتاح[17] .

ثم جاءت الضربة الكبيرة عندما ألقت سلطات كلوزيل القبض على عدد من قادة الحزبين الذين كانوا بالجزائر ولم ينج منهم الا من كان خارجها ، مثل حمدان خوجة . وبعد السجن في عنابة شهوراً ، وبعد المحاكمة التي جرت يوم 24 سبتمبر 1836 ، جاء قرار الطرد[18] على النحو التالي :

1 ـ أحمد بوضربة الذي كان معزولاً من وظيفة مساعد رئيس بلدية الجزائر ، حكم عليه بالنفي هو وزوجه (الفرنسية) إلى ماهون ثم إلى جبل طارق .

2 ـ الحاج حسن بن حمدان خوجة الذي كان عضواً في نفس المجلس البلدي ، حكم عليه بالنفي إلى الاسكندرية مع زوجه وأبنائه .

3 ـ علي بورداه ، الذي كان وكيلاً لأوقاف سبل الخيرات (الحنفية) حكم عليه بالنفي إلى الاسكندرية مع ابنه .

4 ـ الحاج محمد خوجة المعروف بـ(موزوكورته) الذي كان الوكيل الثاني لسبل

---

(16) رسالة من كلوزيل (حاكم الجزائر) إلى نائبه (راباتيل) بتاريخ باريس 24 مايو 1836 . أنظر (مراسلات كلوزيل) 694/1 .

(17) نفس المصدر 723/1 من رسالة بتاريخ باريس 30 مايو 1836 .

(18) وقع محضر الطرد : كلوزيل ، راباتيل ، بريسون ، بلونديل ، الخ . وذلك يوم 26 سبتمبر 1836 . أنظر أرشيف ايكس 1H1 .

الخيرات ، حكم عليه بالنفي إلى تونس مع عائلته .

5 ـ محمد بن أحمد مكوار الذي قيل انه مغربي (مراكشي) كلفه بوضربة بالاتصال بالأمير عبد القادر ومحي الدين بن مبارك ، حكم عليه بالنفي إلى تونس مع ابنه[19] .

ولم يكتف كلوزيل بطرد هذه العناصر من الجزائر حتى تستتب له الأمور ، بل إنه تابع نشاطه البوليسي ضد الباقين منهم، أمثال ابن تركية، ومصطفى بن الحاج عمر بدعوى اتصال هؤلاء بالأمير عبد القادر وبالحاج أحمد والتآمر معهما ضد الفرنسيين[20] . كما لاحق كلوزيل حمدان خوجة (كان في باريس) بالكتابات ضده وتسليط الشرطة الفرنسية عليه ، إلى أن خرج من باريس هارباً مردداً قولته المشهورة : « اللهم ظلم الترك ولا عدل الفرنسيين ! » وسنعرف في المرحلة الثانية أن عدداً ممن ظنوا خيراً بالفرنسيين أو الذين لهم عواطف وطنية أو عثمانية هاجروا من الجزائر في اتجاهات مختلفة ، مثل هجرة مصطفى بوضربة إلى المغرب ، وطرد حمودة الفكون وأخيه من قسنطينة إلى الاسكندرية بتهمة التآمر أيضاً . وكذلك كان شأن زعماء الحزبين في المدن الجزائرية الأخرى.

وإذا كانت المقاومة في المدن قد كُبِتَتْ على هذا النحو من الكبت التعسفي وسلطت عليها ألوان العذاب والخوف والسجن والطرد الجماعي والمحاكمة ، فإن المقاومة في الأرياف قد انطلقت انطلاقة عملاقة ، خصوصاً بعد أن حصحص الحق وظهر الباطل . وتبين للناس جور الفرنسيين وعملهم على تدعيم بقائهم في الجزائر . وقد التحقت عناصر عديدة من أهل الحزبين بالمقاومة الريفية التي عبرت عن الأمل المكظوم وشع منها نور الحرية . فقدور بن رويلة وأحمد بوضربة وعلي بن الحفاف وحمادي الصقال قد انضموا لجبهة المقاومة الريفية . وتطلع العلماء والمثقفون والموظفون والأعيان الباقون في المدن إلى النصر الآتي من السيف والبندقية في

---

(19) رغم أن قرار القبض قد شمل عشرة (بإضافة إبراهيم بّن مصطفى باشا ، واسماعيل بن أمين السكة ، وحسن خوجة ، والحاج أحمد بن محمد الشريف ، وإغفال إسم العاشر) فإن الطرد قد صدر في شأن المذكورين ، ولا ندري الآن مصير الآخرين ، غير أننا نعرف أن ابراهيم وكذلك ابن أمين السكة قد عفت عليهما المحكمة ، وان ابراهيم قد مات بعد ذلك في سجن عنابة .

(20) أنظر ارشيف ايكس 1H1 (تقرير كلوزيل إلى وزير الحربية) ، أول يونيو ، 1836 .

الأرياف بعد أن عجزت العرائض والاحتجاجات والمشاركة في المجالس واللجان عن تحقيق النصر .

3. المقاومة في الأرياف :

لقد كان انطلاق المقاومة من الأرياف أمراً طبيعياً بعد سقوط الحكم المركزي وظهور الفراغ السياسي وعجز المدن عن صنع قيادة جديدة . ومن المفيد للمؤرخ أن يقارن بين الجزائر في أوائل القرن السادس عشر والجزائر في أوائل القرن التاسع عشر . ففي كلتا الحالتين نجد ظروفاً مشابهة أدت إلى ظهور قيادات جديدة بعد اختفاء القيادات القديمة أو عجزها . وكانت القيادات الجديدة هناك قد ظهرت في الأرياف كما ظهرت القيادات الجديدة هنا . وفي ذلك العهد ملأ الفراغ أمثال عبد الرحمن الثعالبي وسالم التومي وأحمد بن يوسف الملياني وآخرين من زعماء الطرق الصوفية وزعماء الأعراش ، وفي هذا العهد أيضاً (القرن 19) ملأ الفراغ أمثال علي السعدي (الحاج سيدي السعدي) ، والحاج محمد ابن زعموم والحاج عبد القادر (الأمير) وآخرين من زعماء الطرق الصوفية وزعماء الأعراش.

وهنا كما هناك ، كان دور الريف قد حل محل دور المدينة ، وتعددت القيادات ، دينية ودنيوية ، وتعاونت واختلفت ، وتحالفت وتحاربت ، إلى أن ملأت السلطة الجديدة الفراغ ، ومركزت الحكم ، ووحدت البلاد على نظام جديد ، وبقوانين والتزامات جديدة . ففي الماضي فعلت ذلك سلطة بني عثمان التي أقامت حكمها المركزي في مدينة الجزائر ثم أخذت تنتشر بالتحالف والقوة والاغراء إلى أن استتب لها الأمر واتجهت اليها الأنظار واعترفت بشرعيتها المدن والأرياف ، وكذلك كان الحال مع العهد الفرنسي ، فقد احتل الفرنسيون مدينة الجزائر واعتبروا أنفسهم ورثة السلطة العثمانية المنهارة ، ولكن الناس لم يعترفوا بهم ولم يمنحوهم الشرعية الا بعد أن فرضها الفرنسيون فرضاً بالحديد والنار ، واستعملوا وسائل فرق تسد ، وهكذا أجبروا الناس جبراً وقهراً ، ريفيين ومدنيين ، على الخضوع لهم والتعامل معهم والالتزام بقوانينهم.

وفي كلتا الحالتين نجد ظاهرة أخرى واحدة أيضاً ، وهي أنه رغم القيادات فإن القيادة الروحية كانت فوق القيادة الدنيوية ، وأن احداهما لا تستطيع مع ذلك ،

الاستغناء عن الأخرى . فلا غرابة أن نجد في عهدنا هـذا قيادة ثنـائية في معـظم الحالات ، أو القيادة الروحية وحدها محاولة أن تتحول شيئاً فشيئاً إلى الجمع في نفسها بين القيادتين . ونموذج الحاج السعدي ـ ابن زعموم (أو الروح والمادة) قد تكرر في المقاومة الجزائرية . ولكن الحاج عبد القادر (الأمير) تقمص القيـادتين معاً ، ولذلك أصبح أميراً للمؤمنين وليس شيخ زاوية (مرابطاً) أو شيخ عرش (قايداً أو آغا . . .) .

وما دام الفرنسيون قد نزلوا مدينة الجزائر فمن المتوقع أن تبدأ مقاومتهم من هناك . غير أننا لاحظنا أن أعيان المدينة ارتضوا الصلح على الحرب ، ونتج عن ذلك اتفاق الجزائر المشهور والذي بقي حبراً على ورق . فلم يسع أعيان المدينة أمـام استهتار الفرنسيين بالاتفاق الا رفع عقيرتهم بالشكوى إلى الظالم نفسه . وهل يرحم الفاجر الفاتك فريسته ؟ إن الشخصيات والحوادث التي سنأتي عليها في ريف مدينة الجزائر قد جرت تلقائية يدفعها حب الأرض وكره الغريب والانتصـار للدين وحفظ العرض والشرف . وسواء كان هناك تنسيق بين أعيان المدينة وقيادات المقاومة (كما ادعى الفرنسيون) أو لم يكن فالذي لاشـك فيه أن دوافـع الطرفين واحـدة (حب الأرض الخ .) وان اختلفت وسائلهم . ومهما كان الأمر فإننا سنتتبع المقاومة الشعبية الريفية حيث ظهرت أولاً بأول تبعـاً لظهـور العدو على المسـرح في كل شبـر من الجزائر.

والظاهر أن المقاومة الريفية حول مدينة الجزائر قد أخذت مرحلتين : الأولى مرحلة المحاصرة والثانية مرحلة المقاتلة عن طريق الكر والفر والاشتباك. ذلك أنه عندما فشلت المقاومة الرسمية التي اشترك فيها آلاف الريفيين كقوات احتياطية[21] ، وسقطت العاصمة في يد العدو ، تراجعت القوات الريفيـة وأخذت مـواقعها حـول العاصمة ، وظلت تنتظر انجلاء الموقف ، ولكنها كانت تعتبر نفسها في حالة حرب وتأهب ، مصممة على أن لا تترك العدو يخرج من المدينة نحو اليابسة . فإذا كان

---

(21) تذكر بعض المصادر أن حسين باشا قد حارب بجيش قوامه ثلاثون ألفاً فقط . وكان بإمكانه تجنيد عدد أكبر ، ولكنه كان مغتزاً بنفسه وبقوته فلم يستدع أكثر من ذلك العدد . ويبدو أن القضية ليست قضية عدد (كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) ولكن القضية ارادة وغيرة وطنية واستعداد، ولوكان الداي حسين وجيشه الإنكشاري من « الوطنيين » لما سلم الجزائر إلى العدو بتلك السهولة !

العدو قد انتصر بالسلاح الحديث فليمت جوعاً داخل أسوار المدينة . وهكذا نَظَّمَتْ المقاومة الريفية التلقائية محاصرة العدو من كل الجهات الا من جهة البحر . فأخذ الجوع ينهشه وارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى درجة مخيفة ، وراح أعيان المدينة يهربون منها إلى مزارعهم بالريف ، ونفد زاد الفرنسيين، ولكن خُضَرَ وألبان ولحوم متيجة لم تدخل المدينة، واشتاقوا قطعة اللحم فلم يجدوها الا في القطط الهائمة من حولهم . وأخذ المرض واليأس يقضان مضاجعهم.

ولكن هذا الوضع لا يمكن أن يدوم طويلاً . فالقيادات الريفية كانت تراجع نفسها وامكاناتها وتوحد صفوفها ، وقيادات العاصمة كانت تبحث عن حل سياسي مع الفرنسيين وعن حل عسكري مع الريفيين. ومن جهة أخرى أراد الفرنسيون أن يجربوا فك الحصار والخروج إلى متيجة والوصول ، اذا أمكن ، إلى البليدة عاصمة هذا السهل الخصيب . بدأ بورمون هذه التجربة وكررها كلوزيل ، الذي وصل حتى إلى المدية ، وكرر ذلك بيرتزين أيضاً ، وفي عهد روفيقو وقعت مذبحة العوفية الفظيعة[22]، وهكذا تحدى العدو المقاومة الريفية، فكيف كانت ردود الفعل؟ وماذا كانت النتيجة ؟ وقبل الاجابة عن ذلك نود أن ننبه إلى أننا لن ندخل في جزئيات الحوادث والمعارك والتواريخ ، ولكننا سنكتفي بذكر الأحداث البارزة ، والاتجاهات المميزة، وبعض الشخصيات التي كانت لها مواقف خاصة أثناء ذلك .

ان الحوادث التي جرت في سهل متيجة الممتد من الحجوط غرباً إلى بودواو شرقاً ومن العاصمة إلى البليدة والأطلس جنوباً ، خلال سنوات 1830 ـ 1837 حوادث تستحق النظر لذاتها ، لعدة اعتبارات : 1) أنها من نوع المقاومة المبكرة التي علمت النواحي الأخرى المنهج الذي عليها أن تتبعه لصد غارات العدو . 2) إنها جمعت بين قيادتين دنيوية وروحية ، كما سنرى . 3) إنها عرفت تجمعات شكلت نواة المؤتمرات الوطنية التي تبلور فيها الضمير الوطني من أجل الدفاع عن الصالح العام . 4) إنها واجهت ، وبوسائل يمكن تسميتها بدائية ، قوة العدو الشرسة التي كانت متمركزة في العاصمة . 5) وأخيراً فإن جبال الأطلس شكلت حصناً منيعاً تجد فيه القوات الريفية غطاءها عندما يشتد عليها ضغط العدو .

---

(22) عن ذلك أنظر ما مضى ، ص 50 .

وكانت المقاومة الريفية حول مدينة الجزائر قد مرت بمراحل نذكر منها :

1) من اجتماع البرج البحري 1830 إلى اجتماع سوق علي 1832 .

2) ومن هذا التاريخ إلى تعيين الحاج السعدي خليفة للأمير ، 1835 .

3) ثم من هذا التاريخ إلى زيارة الأمير لمنطقة القبائل وتعيين أحمد الطيب بن سالم خليفة له هناك ، 1837 ، وهذا التاريخ هو نهاية الفترة التي ندرسها.

لقد عرفنا أن سهل متيجة كان مقسماً إلى أوطان (أعراش) ، وأن على كل وطن شيخاً أو قائداً كان يخضع في العهد العثماني إلى السلطة المركزية عن طريق آغا العرب الذي يقوم بتعيينه وتنصيبه . ومن هؤلاء القادة برز منذ 1830 اسم الحاج محمد بن زعموم . وكان ابن زعموم اذن قائداً على قبيلة فليسة (تسمى أيضاً فليسة أم الليل) وغيرها . وكان طاعناً في السن (حوالي 70 سنة) عندما غزا الفرنسيون الجزائر . وكان له ابنان ، الحسين وحمدان ، لعبا أيضاً دوراً في الأحداث التي نذكرها . وكان يمتاز بالأناة واستشارة غيره فيما يعزم عليه . ويبدو أنه كانت له يد طولى على غيره من قواد الأوطان الأخرى ، ومن ثمة سوء التاهم مع بعضهم أحياناً في حالة السلم أمثال بلقاسم اوقاسي قائد سيباو . كما أننا لا ندري ولاء أو تبعية الحاج ابن زعموم لبايات التيطري ، خصوصاً بعد سقوط العاصمة ومناداة الباي مصطفى بومزراق بالحرب ضد الفرنسيين[23] . وعلى كل حال فقد كان موقف ابن زعموم في أول الأمر واضحاً ، وهو بقاء الفرنسيين في المدينة وترك أهل الريف في أوطانهم دون تدخل في شؤونهم . ويلتزم الطرفان بذلك في معاهدة رسمية قبل فك الحصار ، ولكن الفرنسيين استكثروا هذا واعتمدوا على قواتهم في فك الحصار بدل المعاهدة أو الاتفاق.

علمت قيادات الريف بخروج بورمون نحو البليدة . فاجتمعوا في مؤتمر واحد في البرج البحري يوم 23 يوليو 1830 (وهو نفس اليوم الذي خرج فيه بورمون) ،

---

(23) بومزراق قبل ، كما عرفنا ، بالحكم بإسم الفرنسيين فثبته بورمون على المدية ، ولكنه انتقض عليهم وهدد بالهجوم على العاصمة بالتعاون مع قوات المقاومة الريفية . ثم واصل ابنه احمد الثورة على الفرنسيين بعد ان نفي ابوه إلى الإسكندرية . ومما يذكر ان بومزراق عندما قبل بالحكم تحت الفرنسيين ارسل ابنه احمد إلى بورمون يطلب عهد الأمان . فجاء احمد واستلم عهد الأمان وعندئذ جاء بومزراق إلى العاصمة واستلم خلعة التولية يوم 15 يوليو 1830 . انظر أيضاً ما مضى .

وهو الاجتماع الذي حضره قوّاد ورؤساء الأوطان والقبائل العديدة في المنطقة . وبعد إلقاء الكلمات وإبداء الآراء تقرر إعلان الحرب على العدو وعدم تركه يخترق أرضهم ويهين كرامة وطنهم . وكان الحاج ابن زعموم حاضراً للاجتماع ونتج عن ذلك الإجتماع أيضاً ارتفاع الروح المعنوية وعودة الأمل بالتحرير . حتى وصلت الأخبار بذلك إلى العاصمة المحتلة ، فاهتزت وسادها الذعر لدى الفرنسيين والأمل والترقب لدى الجزائريين[24] . وتنفيذاً لمقررات الإجتماع المذكور هاجمت القوات الريفية جيش بورمون أثناء عودته الفاشلة من البليدة واستمرت في مقاتلتها إلى أن جنّ الليل[25] وحتى مشارف العاصمة . وكان ذلك درساً للفرنسيين الذين لم يعاودوا الخروج من العاصمة إلاّ في عهد كلوزيل.

حاول كلوزيل القيام بشبه حملة على البليدة والمدية ، خلال نوفمبر 1830 ، ولكن عاقبتها كانت وخيمة ، كما عرفنا . فقد كانت القوات الشعبية في حوالي سبعة آلاف محارب من جميع الأوطان (فليسة ، الخشنة ، بني موسى ، بني مسرة ، بني خليل ، الخ .) تحت قيادة الحسين بن زعموم وكانت مدفوعة بروح الجهاد التي بثها فيها الحاج السعدي ، فهاجمت (قرب بوفاريك) الخمسين مدفعياً الذين أرسلهم كلوزيل لجلب الذخيرة من العاصمة وقضت عليهم ، ثم هاجم الثوار حامية البليدة الفرنسية التي تحصنت ، كما ذكرنا ، في المسجد وكادت أن تقضي عليها لولا حيلة

---

(24) أخذ الجزائريون في الريف يشترون السلاح من العاصمة (ربما عن طريق وسطاء من الأعيان أنفسهم) فاشتروا الرصاص والكرطوش والبارود ، ونتيجة لذلك شنق الفرنسيون في العاصمة اثنين ممن اتهموهم بتهريب السلاح ، « ردعاً » للباقين ، وشنّوا حملات تفتيش لكل خارج من العاصمة . أنظر كتاب رينال .

(25) كان بورمون ومن جاء بعده يطلقون اسم «النزهة» على حملة بورمون ضد البليدة، ولكنها كانت «نزهة» دامية ، كما عرفنا ، لم ينج منها القائد العام للحملة الاّ بأعجوبة ، حتى ان مساعده (اسمه تريلان Trelan) قد قتل بضربة كرة في بطنه.وقد عرفنا ان ابنه (اميدي) قد قتل ايضاً في وهران . ولعل ما خفف عليه أعباء الحزن ان صديقه (بولنياك) رئيس الوزراء قد أرسل إليه « عصا المارشالية » عندما كان بورمون راجعاً مهزوماً في (بئر التوتة) . ولكن ذلك كله كان سراباً في سراب لأن نظام الحكم كله قد سقط في فرنسا وأطيح بالملك ورئيس الوزراء وبورمون ، وتكسرت مع ذلك عصا المارشالية على صخرة المقاومة في متيجة ووهران وعنابة ، وهي المحطات الأولى لرحلة جيش شارل العاشر وقائده المهزوم .

استعملها أحد جنود العدو إذ خرج من ثقب حائط وهاجم القوات الشعبية من الخلف فاعتقدت هذه أن جيش كلوزيل الذي كان بالمدية قد وصل وأنها وقعت في كماشة فانسحبت قبل أن تعاود الهجوم(26) . وهكذا كاد يقع بالمسلمين في البليدة ما وقع للمسلمين في جبل أحد ، مع خلاف وهو أنهم كانوا في أحد يجمعون الأسلاب والغنائم بينما كانوا في البليدة في غمرات الحرب.

وتكررت المعارك بين القوات الشعبية والفرنسيين بين العاصمة وجبال الأطلس . وتوحدت جهود القيادات الواقعة في الجهة الشرقية من متيجة على الخصوص ، وقطعوا الطريق على الإمدادات الفرنسية للحامية التي تركوها في المدية مع الباي الجديد مصطفى بن الحاج عمر. وعادت البليدة إلى أحضان المقاومين، وانحشر خليفة كلوزيل (وهو بيرتزين) وجنده من جديد داخل أسوار العاصمة ، إذ ضيقت عليه المقاومة الخناق عندما هاجمت المشروع الزراعي حتى قتلت المزارعين (وهم جنود) وجعلت الباقين منهم يفرون كالأرانب من المزرعة النموذجية (فيرم موديل) التي أنشأها كلوزيل بالقرب من وادي الحراش لتجربة الاستعمار . وانتشر الرعب والأمل من جديد في العاصمة . ودعم ذلك قوات اضافية جاء بها أحمد بن مصطفى بومزراق الذي قام يدافع عن حقه في تركة والده ، الباي السابق للتيطري . وقد نزل بها قرب بوفاريك ، ثم تقدم بها نحو الفحص (ضواحي العاصمة) . وفي منتصف يوليو 1831 عبرت القوات الشعبية بقيادة ابن زعموم (الابن) وادي الحراش وهاجمت المزرعة النموذجية من جديد وأحرقت المحصول الذي طالما حلم كلوزيل بجنيه وأكله فإذا هو هباء تذروه الرياح . وهددت الحاميات الأمامية التي كان الفرنسيون قد نصبوها دفاعاً عن المدينة المحتلة . وقد خرج إليهم بيرتزين بنفسه على رأس قوة من ثلاثة آلاف جندي . فتراجعوا قليلاً ، ولكن في اليوم الموالي هاجمت الفرق المتجمعة في بوفاريك والتي كان يدعمها الحاج السعدي ، هاجمت المزرعة النموذجية من جديد ، إلى أن خرج بيرتزين لمحاربتها مرة أخرى.

وأمام هذا الوضع الذي أصبح لا يطاق لبرتزين ، استجاب للرأي الذي يقول :

---

(26) أنظر عن ذلك ما مضى ، وكذلك روبان (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 89 . وتدعي المصادر الفرنسية (روبان ، وبول آزان ، الخ .) ان المسلمين قد خسروا في معركة البليدة حوالي 400 شهيد ، نتيجة ضرب المدافع التي كان يفتقدها المسلمون .

« ابقوا حيث أنتم ونبقى حيث نحن » ، وإلاّ فالحرب بيننا لن تنقطع ، إلى أن تعودوا من حيث جئتم . قبل الجنرال الفرنسي بذلك المبدأ وجرت مفاوضات بينه وبين أعيان المدينة فنصحوه بأن الشخص الذي يقدر على أن يكون وسيطاً بين أهل الريف المجاور وقوات الاحتلال هو الحاج محيي الدين بن مبارك ، الذي كان يتمتع لدى أهل الريف بسمعة مؤثرة ويثقون فيه لمكانته الدينية اذ هو من صنف المرابطين وشيخ زاوية عريقة في القليعة . وقد قبل الشيخ محيي الدين بهذه الوظيفة التي رأى فيها حفظاً لمصالح قومه وإبعاد العدو عن الداخل ، وكان ذلك في شهر يوليو 1831 ، وتلقب بلقب (آغا العرب) ، الذي كان في العهد العثماني تخضع إليه القيادات الريفية كما عرفنا . وبذلك توقفت الحرب إلى حين.

وطالما بقي بيرتزين الذي يتهمه قومه بالضعف والخور لقبوله بذلك الإتفاق ، كان سهل متيجة في عافية حذرة . فقد كان على الفرنسيين أن لا يغادروا العاصمة ، ولكن أسواقها وتجارتها مع الداخل مضمونة ، والأمن العام محفوظ . ولكن مجيء روفيقو بخططه البوليسية وغطرسته قلب الأوضاع وجعل المقاومة الريفية تعود إلى الدفاع عن المبادىء التي قررتها في اجتماع البرج البحري ، وهو قطع طريق الداخل أمام العدو ومحاصرته في المدينة وتجويعه إلى أن يعود إلى بلاده أو يموت حتف ظلفه . وكان الشيخ محيي الدين (آغا العرب) من أول الضحايا لهذا العهد . فقد كان روفيقو يريده عميلاً يشي بقومه ويسهل مهمة الجيش الغازي لعبور سهل متيجة إلى البليدة والمدية وما وراءهما . ولكن الشيخ أبى إلاّ التمسك بالإتفاق مع بيرتزين ، ودافع عن ذلك على أساس أن فيه مصلحة الطرفين . وعندما لم تجد التوضيحات ، اتهمه روفيقو بالتواطؤ مع القوات الشعبية التي عاودت اعتراض طريق جيش العدو الذي كان يحاول فك الحصار.

يضاف إلى ذلك أن روفيقو ارتكب الجريمة النكراء ، وهي مذبحة العوفية ، في إبريل سنة 1832[27] . فكانت هي الفتيل الذي فجر الوضع من جديد . بأي وجه

---

(27) أنظر عن ذلك ما مضى ص 50، وكذلك روبان (المجلة الافريقية)، 1876، ص 93. ويذكر هذا المصدر أن قبيلة العوفية فرع من عرش (عريب) ، وان أصلها من عين بسام ، وكانت تقطن في طريق الفندق غير بعيد من مفترق طرق العلمة ، (بودواو) .

يقابل الشيخ محيي الدين عرب متيجة وهو يحمل لقب آغا العرب الذي أعطاه إياه الفرنسيون ؟ وبأي وجه يلقاهم ،وهو المرابط الورع ، بعد أن خان روفيقو عهد الأمان الذي أعطاه بواسطته لصديقيه قائدي السبت وبني خليل اللذين قطع روفيقو رأسيهما بعد وصولهما عنده إلى العاصمة ؟ إذن لقد أصبح الشيخ في موقف حرج أمام زعماء القيادات الشعبية التي تعاهدت في اجتماع البرج البحري على الدفاع عن أرضها وشرفها . وهنا تبرز شخصية الحاج السعدي على المسرح . وتبدأ المرحلة الثانية من المقاومة الشعبية في المتيجة . وليس هناك ، مع الأسف ، ترجمة وافية وواضحة عن هذا الرجل الذي لعب دوراً بارزاً في قيادة المقاومة الأولى وأشعل نار الحمية الوطنية بإسم الجهاد . وها هو ما استطعنا جمعه حوله من معلومات.

* * *

الحاج علي السعدي هو حفيد سيدي السعدي دفين مدينة الجزائر سنة 1710 ، وكانت زاويتهم في جهة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي اليوم . وهي الزاوية التي هدمها الفرنسيون ، فيما هدموا من مبان دينية سنة 1870 . وكانت وكالتها متوارثة في عائلة الشيخ السعدي المذكور وكان موردها من الزيارات والأوقاف مثل معظم الزوايا في الجزائر . وبذلك كانت عائلة السعدي من أكثر العائلات الدينية ثراء[28] ، وكانت للحاج السعدي علاقات برجال الدين في الجزائر ، مثل سيدي علي بن موسى ، مرابط المعاتقة ، الذي يكن له احتراماً كبيراً . فكان يزوره ، مع بعض الأتباع كل سنة ، فتوطدت العلاقات بين الرجلين وأصبح الحاج السعدي معروفاً في تلك النواحي أيضاً (نواحي المعاتقة) . وقام الحاج السعدي بأداء فريضة الحج سنة 1827 ، وعرف عن الحصار الفرنسي للجزائر ، وهو في الطريق ، فبقي في الاسكندرية برهة من الوقت واغتنم الفرصة فتجول في المشرق الإسلامي حوالي سنتين ، وعرج على ليفورنيا (إيطاليا) والتقى فيها بالداي حسين باشا قبل أن يعود إلى الجزائر عن طريق البحر[29] .

---

(28) يذكر روبان أن المعلومات التي جمعها عن الحاج السعدي استقاها من حسن بن بريهمات ، أستاذ مدرسة الجزائر العربية الفرنسية ، كما يذكر ان للحاج السعدي اخاً كان ما يزال يعيش سنة 1876 وعمره اذاك 90 سنة .

(29) في رسالة الحاج السعدي الى الدوق روفيقو المؤرخة في فبراير 1832 يذكر ان أجداده كانوا سلاطين =

منذ رجوعه إلى الجزائر تزعم الحاج السعدي حزب المقاومة . فقد وجد أعيان الجزائر قد ركنوا إلى الصلح منتظرين احترام المواثيق وجلاء الفرنسيين بعد أن يسلموا إليهم مفاتيح البلاد من أيدي الترك ! فأخذ الحاج السعدي أولاً يتصل بكل من له استعداد للمقاومة ، وحرضهم على جمع الشمل ، ثم خرج إلى الريف فوجد الإستعدادات أكثر ، والطاعة أقرب ، إذ هو من رجال الدين وهم يثقون في هؤلاء ، خصوصاً وقد كان رجلاً متعلماً ويمتاز بالذكاء الحاد وحب الجهاد ، وكانت له سمعة كبيرة في الورع والتقوى ، وقد زاده الحج صيتاً وسمعة . اشترى الحاج السعدي حصاناً وأخذ يطوف بـه سهل متيجة ويتصل بأصدقائه رجال الزوايا من الحاج محيي الدين بن مبارك القليعي إلى الشيخ علي بن موسى المعاتقي ، وكان يتردد على ضريح الشيخ أحمد بن يوسف الملياني بمليانة ، حيث يجتمع الفقراء والطلبة والعامة بعيداً عن أعين الفرنسيين[30] . ورفض دخول مدينة الجزائر حتى لا يعيش تحت سلطة كافر ، ولذلك حط رحله عند بني خلفون وبالضبط عند عائلة أولاد علي بن موسى .

= المغرب العربي وانهم من نسل السلطان الأكحل ، وانهم منتشرون في نواحي الجزائر والبيبان وبجاية ، وان الناس قد اقترحوا على روفيقو تسمية الحاج السعدي « سلطاناً » عليهم ولكن روفيقو قال لهم انه لا يعرفه . ويظهر من الرسالة ان السعدي راض بذلك اللقب ، حسب تقاليد العائلة ، كما جاء فيها أخبار عن معرفته لملوك فرنسا الذين طردوا منها فتوجهوا إلى امريكا ثم عادوا اليها وتولوا السلطة . واخيراً يخبر السعدي روفيقو بأنه قرأ تاريخ نابليون منذ الحملة على مصر إلى منفاه في جزيرة سانت هيلينا . أنظر هذه الرسالة ، على اهميتها وما فيها من أخطاء تاريخية ، في (مراسلات الدوق دو روفيقو) 107/3 ـ 110 . وهي غير مؤرخة ولكنها وصلت إلى الجهة الفرنسية بتارخ 29 فبراير 1832 . ويفهم منها ان الحاج السعدي كان مطلعاً على احوال العصر ولو بشكل غامض ، وانه كان فخوراً بأصله ، وانه كان يطمح الى السلطة .

(30) يتهمه بيليسييه دي رينو ، المعاصر له ، والذي تولى شؤون (المكاتب العربية) في الجزائر بعد انشائها ، بأنه كان يهدف إلى طرد الفرنسيين وإعادة حسين باشا إلى الحكم .
أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 91 . ولكن ذلك يبدو بعيداً ، لأننا سنرى أن الحاج السعدي كان يجاهد من أجل تطهير البلاد من دنس الفرنسيين (وهو صحيح) ، ولكن من أجل تحرير الوطن إذ وجدناه يعمل لصالح الأمير والوحدة الوطنية ، ولو كان هدفه عودة حسين باشا لإنتهت مقاومته فور إنتهاء الأمل في رجوع الداي بل وموت هذا الداي سنة 1834 بالإسكندرية ، بينما استمر الحاج السعدي يقاوم إلى ان مات سنة 1843 .
أنظر أيضاً (مراسلات فاليه) 173/1 .

لم يكن الحاج السعدي من المحاربين ولكنه كان من المحمسين للحرب ومن دعاة الجهاد الذين تستجيب لهم الجماهير وتطلب الشهادة على أصواتهم . ونحن لا ندري كيف كان يؤثر الحاج السعدي في جمهور المقاومين ، هل كان يستعمل الخطابة ، أو التأثير الروحي بالظهور فقط بينهم وتوجيههم . ولكن الذي لا شك فيه أن الحاج السعدي استعمل ، مثل معظم المرابطين الدعاة للجهاد (عبد الرحمن الثعالبي مثلاً) الرؤى الصوفية للتأثير على جمهوره . فقد نسب إليه أنه قال انه رأى الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) في المنام ووعده بقرب هزيمة الفرنسيين في الجزائر . ولعل هذه الرؤيا كانت فقط من أساطير ذلك الوقت لجلب العامة . ومهما كان الأمر فقد أخذ يتصل بأهل النواحي الشرقية (الرغاية ، بودواو ، سباو ، يسر) بالإضافة إلى بني خلفون والمعاتقة وفليسة . واجتمع شخصياً بزعيم هذه القبيلة ، الحاج محمد بن زعموم المشار إليه ، وتواعدا على الجهاد وتنسيق الجهود ، وذلك في العاشر من يوليو 1831 . وبفضل هذا التنسيق تمكن المجاهدون المنطلقون من سيدي الرزين عن يمين وادي الحراش من الهجوم المذكور على المزرعة النموذجية وطرد وقتل معمريها وإحراق محصولها في نفس الشهر ، وتهديد العاصمة . وكذلك بفضل ذلك التنسيق انطلقت الموجة الثانية من الهجوم من بوفاريك في النصف الثاني من الشهر المذكور . فالحاج السعدي اذن كان عندئذ هو الضمير المحرك خلال هذه الهجومات ، وكان أيضاً وراء الهجومات الناجحة على فرقة بورمون التي تجرأت على التوجه إلى البليدة (يوليو 1830) وحملة كلوزيل (نوفمبر 1830) على المدية والبليدة التي انتهت بالفشل الذريع .

وبعد مذبحة العوفية (ابريل 1832) استئنف القتال ضد العدو ، فكان الحاج السعدي على رأس المجاهدين روحياً والحاج محمد بن زعموم قتالياً (بواسطة ابنه الحسين ، كما ذكرنا ، لكبره هو ومرضه)[31] . وكان الاثنان على صلة وطيدة مع

---

(31) هكذا وصفته المصادر ، غير أن شلوصر في كتابه (قسنطينة أيام احمد باي) ترجمة ابو العيد دودو ، 1980 ، ص 18 ، يذكر أن ابن زعموم كان ما يزال قوي البنية ، يتراوح عمره بين الخمسين والستين سنة . وقد شاهده شلوصر وعرفه عن كثب ، ووصفه بأنه كان بادي الصرامة وأنه كان مرهوب الجانب ، وانه لعب دوراً تاريخياً ، وقال عنه انه رجل متوسط القامة . . . بيضاوي الوجه ، ذو نظرة حادة ، ولحية سوداء يشوبها بياض ، . . . يرتدي سروالاً تركياً رفيعاً وحائكاً وبرنساً ، . . . اما في =

الحاج محيي الدين آغا العرب . وهكذا استطاع الحاج السعدي بالخصوص أن يجلب الحاج محيي الدين إلى صف المجاهدين وأن يجعله يرمي بأوسمة الفرنسيين وقفطانهم ويتقلد سيف الجهاد ضدهم . وأول معركة خاضها المجاهدون هي معركة زاوية محمد التوري (قرب العوفية في مفترق الطرق بين الفندق والعلمة بودواو) ، وهي المعركة التي قتل فيها 57 جندياً مرتزقاً (من اللفيف الأجنبي) ولم ينج من الفرقة كلها سوى ألماني اعتنق الإسلام وسماه الناس أحمد المشهد . وعندما أراد الفرنسيون الانتقام أرسلوا قطعة بحرية نحو يسر ولكنهم عادوا منهزمين بعد أن أمطرهم الأهالي هناك بالرصاص .

ثم كان اجتماع القيادة الجديد في شهر سبتمبر 1832 . وهو الإجتماع التاريخي الذي وقع في (سوق علي) بالقرب من بوفاريك ، والذين أدى إلى جمع الكلمة وتكوين قوة كبيرة من المجاهدين انطلقت ضد العدو وبقيادة ابن زعموم أيضاً . وخرجت القوات الفرنسية لتفريق هذا التجمع الوطني ، ولكن المجاهدين نصبوا لها كميناً في المكان المسمى (المرابط سيدي عيد) حيث فاجأوها وقتلوا منها وأصابها الذعر والخوف والفوضى لولا نجدة أعادت إليها أنفاسها ، وذلك يوم الثاني من اكتوبر 1832 . وفي اليوم التالي عاود المجاهدون الكرة على العدو وأجبروه على التقهقر ، ودخول العاصمة والإنحشار فيها . وكانت هذه الهزائم العسكرية هي السبب في جعل روفيقو يتوقف عن حملات القتال ويلجأ إلى حملات الإرهاب في المدينة حيث وجه انتقامه ضد أعيانها ، كما سبق .

وقد استمرت المناوشات بين المجاهدين وقوات العدو في متيجة خلال 1833 ـ 1834 ، وكان العدو قد تعلم استعمال الهجوم الخاطف بفرق صغيرة . وخلال ذلك كان العدو محاصراً في العاصمة ، ولم يقم بغزوات جديدة إلا على المدن البحرية وبعض المعارك في الداخل من الجهة الغربية (اقليم وهران) كما استطاع العدو بين 1833 ـ 1837 أن يولي بعض القياد الموالين له على بعض

= ميدان المعركة فيرتدي سروالاً احمر وصديرياً احمر أو اخضر ، ووشاحاً احمر بحزام مذهب ، علق به مسدسان فضيان وجعبة صغيرة للذخيرة ، ويلتمع إلى يساره يطقان فضي مقوس ويضع على رأسه عدداً من القلنسوات ، يحيط بها خيط او عمامة حمراء ، وفوقها مظلة قشية واسعة الحافة تحميه من الشمس الخ « وكان ذلك سنة 1832 » .

أعراش متيجة ، ليضمن التجارة معهم وبيع أهل الريف بضاعتهم في أسواق العاصمة . ولحماية ذلك نصب العدو مراكز مراقبة على خطوط أمامية في الإتجاهات الثلاثة لسهل متيجة (الغرب والجنوب والشرق) .

وفي نفس الوقت كانت أخبار الإنتصارات التي حصل عليها الأمير عبد القادر تصل إلى آذان المجاهدين في متيجة وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة : الحاج السعدي والحاج محيي الدين والحاج ابن زعموم ، يضاف إليهم بلقاسم أوقاسي الذي أخذت قواته أيضاً تهاجم العدو بقوة . وكانت معاهدة ديميشال (1834) وحلول الأمير بالمدية وتعيين خليفته (ابن مبارك ، من عائلة الحاج محيي الدين) على مليانة ـ كل ذلك جعل أنظار المجاهدين تتجه نحو الأمير وتعلق عليه آمالاً عريضة . فلا غرابة أن ينضم إلى حزبه كل من الحاج محيي الدين والحاج السعدي (وكلاهما من رجال الدين الذين جعل منهم الأمير عمود سلطته) . أما الحاج ابن زعموم فقد أرسل أحد أبنائه (وقد عرفنا أنه كان مُسِنًا) وهو حمدان بن زعموم إلى الأمير وقابله هذا في مينة ، ولا ندري ما الرسالة التي حملها حمدان من والده إلى الأمير ولا ما الرسالة التي حملها من الأمير إلى والده . ولعل المفاوضة كانت بشأن تنسيق الجهود ضد العدو والإعتراف بالأمير كرمز للجهاد والوحدة الوطنية . ومهما كان الأمر فقد كانت تلك المفاوضة والتحاق الحاج السعدي بالأمير فاتحة لزيارة الأمير الأولى لمنطقة القبائل وتوحيد الجبهة الوطنية ضد العدو . وهي الزيارة التي حدثت سنة 1837 .

وما دام الحديث ما يزال عن الجهاد في سهل متيجة وعن زعمائه، فلنختم ذلك بالقول بأن الأمير قد عين الحاج السعدي خليفة عنه في المنطقة الممتدة من سهل متيجة المذكور إلى ناحية الشرق لتشمل كل النواحي غير الخاضعة للحاج أحمد باي قسنطينة . لقد ذهب الحاج السعدي إلى مدينة معسكر (عاصمة الأمير) وقابله شخصياً وحدثه عن إمكانات الكفاح في النواحي الواقعة شرقي مدينة الجزائر (بلاد زواوة والقبائل الكبرى اليوم) وحرضه على القدوم شخصياً . وكان انتصار الأمير في معاهدة ديميشال 1834 ثم في معركة المقطع على الجنرال الفرنسي (تريزيل) في جوان 1835 ، حادثين عظيمين شجعا المترددين على الإنضمام إليه والتعلق به ، وكذلك معاهدة التافنة 1837 . وعاد الحاج السعدي إلى ناحية خلافته وقام بمهمته خير قيام يحرض على القتال ويجمع الكلمة ويقود الهجومات . وكانت جهوده هي

التي مهدت لزيارة الأمير منطقة القبائل أواخر سنة 1837 . وفي برج حمزة (البويرة اليوم) نزل الأمير وأعاد تنظيم خلافة الشرق وذلك بتعيين أحمد الطيب بن سالم عوضاً عن الحاج السعدي[32] .

لقد شهدت خلافة الحاج السعدي ثم أحمد الطيب بن سالم معارك حامية ضد العدو خلال 1833 ـ 1837 . وتولى قيادتها كل من الحاج ابن زعموم وبلقاسم أوقاسي. وهي المعارك التي اجبرت الفرنسيين على البقاء غربي بودواو. وقد فقد ابن زعموم خلالها ابنه الشجاع الحسين الذي قاد معارك متيجة بإسم والده ، سيما في البليدة وبوفاريك وحول الحراش[33] . ومهما كان الأمر فقد هاجمت قوات ابن زعموم وأوقاسي متيجة من جديد وضربت على أيدي القياد الذين قبلوا المنصب من العدو ، وخربت المزارع التي كان العدو قد بثها هنا وهناك (ماي 1837) . وحاول الفرنسيون وعملاؤهم ضرب القوات المهاجمة من جهة البر (بني عائشة) ومن جهة البحر (يسر) فلقيهم ابن زعموم (لعل القيادة الآن أصبحت لابنه الثاني ، حمدان) في أولاد بوثلجة . وهاجمهم أوقاسي أيضاً قرب بودواو . وكانت زغاريد النساء في الجبال تشجع المجاهدين على القتال ، وقد هزم العدو وفرت فلوله إلى بودواو الذي لم تصله إلا بشق النفس . وعندما أخذ العدو في اقامة حصن دائم في بودواو ليتخذوه مركزاً دفاعياً يرد منه المجاهدين ، هاجمه هؤلاء بشدة ، فكانت قوات ابن زعموم على الضفة اليمنى من وادي بودواو وقوات أوقاسي على ضفة وادي القورصو ، تناوش العدو ولا تترك له فرصة لإقامة الحصن . وقد وقعت معركة دامية يوم 25 مايو 1837 حين هاجم المجاهدون مشروع الحصن ودخلت قوات ابن زعموم قرية بودواو ، بينما قطعت قوات أوقاسي على العدو طريق العودة إلى الجزائر . ولكن وصول النجدة

---

(32) تنتهي معلوماتنا عن الحاج السعدي عند هذا التاريخ . وتذكر بعض المصادر أنه توجه بعد ذلك إلى زاوية أولاد باباس عند المرابط الحاج علال وتزوج احدى بناته ، وتوفي حوالي سنة 1843 . (أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 218) . ترى هل كان ذهاب الحاج السعدي منذ عزله او بعده ؟ وهل ذهب هناك عن كبر ومرض او عن خلاف ورأي ؟ أنظر ايضا (مراسلات فاليه) 173/1 . وفي كتاب دوماس (القبائل الكبرى) معلومات عنه .

(33) تذهب الروايات الفرنسية إلى ان حسين بن زعموم قتل سنة 1835 أثناء خلافات قبلية . أنظر روبان ، المرجع السابق ، ص 207 .

للعدو جعل المجاهدين يفكون الحصار مؤقتاً . وقد لجأ العدو إلى أسلوب السطو والإرهاب المدني بعد عجزه في الميدان العسكري ، اذ توجهت باخرة فرنسية إلى دلس محملة بالجنود ودخلتها وخطفت أعيانها ، وعلى رأسهم حاكمها المولود بن الحاج علال وقاضيها أحمد المفتي ، وأخذتهم رهائن إلى الجزائر .

هذا هو وضع سهل متيجة والناحية الشرقية من العاصمة إلى انعقاد معاهدة التافنة ، والهجوم على قسنطينة . وقد رأينا ان المقاومة الشعبية أثناء هذه الفترة كانت على أشدها . وكان هدفها محاصرة العدو في العاصمة أولاً ، وعندما أخذ في ضغطه عليها واقامة بعض عملائه في قيادات متيجة والمراكز المتقدمة والحصون ، لجأت المقاومة إلى تعطيله ومناوشته ، بل بإذاقته مرارة الهزائم كما في بودواو والجبال المجاورة ، وعند ذلك لجأ العدو إلى الإرهاب المدني بالخطف للرهائن وتخويف السكان المجردين من السلاح النساء والأطفال ، كما وقع في دلس ، وكما وقع للبليدة والمدية والقليعة من قبل . ويبدو أن هذا الوضع قد أثر أيضاً على معنويات بعض القادة أمثال الحاج بن زعموم . فرغم استمراره في قيادة الجهاد إلى سنة 1837 فإن الفرنسيين يدعون انه كان يطلب منهم الصلح وإبرام معاهدة تشبه المعاهدة أو الإتفاق الذي وقع بين بيرتزين والحاج محيي الدين بن مبارك ، سنة 1831 ، بل ان الفرنسيين يتحدثون عن انه كان من أوائل من كتب إلى بورمون يطلب معاهدة معه . ويبدو انه كان يرى نفسه أقوى قائد في المنطقة المثلثة الواقعة بين العاصمة والمدية وقيادة سيباو . ومن ثمة فهو الشخصية القوية في الناحية المذكورة التي على الفرنسيين التفاوض معها بعد سقوط العاصمة وباي التيطري . ونحن نجد هذه الفكرة ما تزال قائمة إلى نهاية العهد الذي ندرسه . فهذا دامريمون يخبر وزيره للحربية ان ابن زعموم كتب إليه رسالة يخبره انه يرغب في لقائه بالجزائر ، وانه (أي دامريمون) قبل العرض وهو في انتظاره ليرى ما الفائدة التي يمكن الحصول عليها منه ، خصوصاً وقد وعده ابن زعموم ، كما قال ، بتسليم الحاج السعدي ممثل الأمير عبد القادر في الناحية[34] .

---

(34) أنظر الرسالة في (مراسلات دامريمون) ، ص 124 ، وهي بتاريخ 16 ابريل 1837 . كما ارسل ابن زعموم رسائل أخرى إلى دامريمون ، منها واحدة بتاريخ 1838 . وأجابه الوزير بأن يستقبله في الجزائر ، ولكننا لا ندري إن كانت الزيارة قد تمت بالفعل . ويظهر من مراسلات الوزير ودامريمون

4. شرشال والمدية :

عرفت شرشال عدم الإستقرار نتيجة تغيير السلطة . فبعد اختفاء السلطة العثمانية ، كان على السكان أن يلتفوا حول قيادة تنظمهم وتحميهم . وقد حدث هذا في مختلف أنحاء القطر ، ولم يكن خاصاً بها . كان سكانها سنة 1830 حوالي ثلاثة آلاف نسمة ، وفيها حوالي 400 منزل وحوالي 200 دكان ، وبين أهلها حرفيون من كل نوع ، وفيها عائلات محترمة بين السكان ، خصوصاً العائلات الدينية . ومنها عائلة البركاني ، والغبريني ، وابن عودة الخ . وقد اجتمع أغيان البلدة واتفقوا على تعيين الشيخ محمد بن عيسى البركاني قائداً عليهم ، وكان البركاني من عائلة عريقة سكنت شرشال وبني مناصر وبني بو صلاح ، ولها صيت في الناحية كلها . وكان البركاني رجل حرب ، ولكنه كان عندئذ منقطعاً للعبادة ، بعيداً عن العالم الخارجي . ولنلاحظ عابراً ان هذا النموذج من القيادات الشعبية سيتكرر في القطر كله .

قبل البركاني هذه المسؤولية الثقيلة وتلقب بلقب القائد . وكان عليه أن يواجه خطر الفرنسيين وعملائهم وأن يحمي المقاومة في الريف ، وأن يربط علاقات مع القيادات الجديدة ، خصوصاً الحاج محيي الدين ، مرابط القليعة الذي تولى وظيفة آغا العرب للفرنسيين ثم تنحى عنها والتحق بالأمير في مليانة . وكان البركاني صديقاً للحاج محيي الدين وعائلة ابن مبارك عموماً وتربطهما علاقات الدين ، والمصاهرة ، وها هي الآن علاقة جديدة تظهر ، وهي علاقة الجهاد ضد العدو المشترك . وبعد حوالي ثلاث سنوات في قيادة شرشال التحق البركاني بالأمير عن طريق صديقه الحاج محيي الدين ، وترك مكانه للشيخ محمد السعيد ابن عودة الذي قبله أهل شرشال قائداً عليهم [35] . وكان البركاني متصلاً بزعماء متيجة ويحرضهم على جمع الشمل

= انهما كانا يشكان في نوايا ابن زعموم ، خصوصاً وهو يجعل الحرب ضرورية عندئذ رغم رغبته في السلام ، ويخبر عن الهدايا التي أرسلها إليه دامريمون ، وعن كونه لم يرسل ابنه للأمير عندما حضر في حمزة إلّا ليرى قوته ، وان الحاج أحمد ارسل إليه هدية وطلب منه معونته بالجنود فقبل الهدية وأجابه بأنه هو أيضاً مشغول بالحرب الخ . يبقى أن نعرف كيف انتهت هذه الشخصية (ابن زعموم) .

(35) يذهب السيد ل . قان Guin الذي وصف حياة شرشال الأولى إلى أن البركاني عزله الناس سنة 1833 ، فاستظهر للفرنسيين بوثيقة « مزورة » على أن أهلها يؤيدونه قائداً عليهم ، فارسل الحاكم =

وتكثير المجاهدين لمحاربة العدو . وقع ذلك عندما اتصل سنة 1833 ـ 1834 في البليدة بالحاج موسى الدرقاوي وطلب منه اثارة عرب الصحراء . وبعد انضمامه للأمير أصبح البركاني عضده الأيمن ، وجاء معه بمحاربين شجعان من شرشال ومن بني مناصر وحجوط وغيرهم . وقد حارب مع الأمير في معارك عديدة ، وتولى له خلافة المدية منذ 1837 ، وحارب معه ضد خصمه الحاج موسى الدرقاوي (بو حمار) . وقد استشهد البركاني مجاهداً في معركة الزمالة المشهورة (سنة 1843) إلى جانب خليفة الأمير محمد بن علال[36] .

ظل أمر شرشال متأرجحاً بين الاستقلال وضغط الفرنسيين وضغط الأمير . وبعد معاهدة ديميشال ، 1834 ، والإنتصار على الدرقاوي ودخول الأمير المدية أصبح وضع شرشال مختلفا . فقد بلغت سمعة الأمير آذان الخاص والعام ، وانضم إليه أهل حجوط وبنو مناصر وغيرهم من أرياف الناحية ، فتكثر بهم جيش الأمير وخاضوا حروباً ضد تقدم الفرنسيين نحو القليعة وشرشال . وجاءت الرسائل من خليفة الأمير في مليانة ، محمد بن علال (وهو ابن أخ الحاج محيي الدين بن مبارك ـ زاوية القليعة) إلى الشيخ محمد السعيد بن عودة ، قائد شرشال ، تطلب منه الدخول في طاعة الأمير صراحة ودفع الضريبة له ، وخصوصاً وأن الأمير جعل شرشالا تابعة لخليفته في مليانة منذ 1835 . وكان الشيخ ابن عودة يعد بذلك ولكنه كان يخشى الفرنسيين . وظل الأمر كذلك إلى أن حل الأمير شخصياً بمليانة سنة 1836 ، فلم يسع ابن عودة الا ارسال وفد للأمير وإعلان الطاعة له . وجاء الخليفة ابن علال إلى شرشال بنفسه وحقق في أمور الإدارة ، وأقر ابن عودة في قيادته . ولكن ابن عودة لم يتوجه إلى المدية عندما حل بها الأمير سنة 1837 . فأمره بالحضور ، فحضر رفقة وفد من أعيان البليدة ، منهم الحاج الغبريني ، وقابل ابن عودة الأمير في المدية ، وأمر خليفته في

= العام (ديرلون) من يحقق في الأمر فجاءه تقرير يخالف ما زعمه البركاني وبقي الفرنسيون على علاقة مع القائد الجديد ، ابن عودة . أنظر (المجلة الافريقية) ، 1873 ، ص 460 ـ 464 . وابن عودة هذا هو الذي سيعزله الأمير ويلحق شرشال بخلافة مليانة .

(36) أنظر (مراسلات ديرلون) ، ص 20 ، و (مذكرات شانقارنييه) ، هامش ص 18 . ويخبر هذا (شانقارنييه) الذي طالما حارب ضد البركاني ، انه كان من أفضل خلفاء الأمير ، وانه حارب الفرنسيين بعد طرده من المدية (1837) حرباً لا هوادة فيها إلى وفاته .

مليانة بابقاء ابن عودة عنده ، وعزله من قيادة شرشال ، لعدم صراحة موقفه ، ولعله لولا صداقة ابن عودة والخليفة ابن علال لكان مصيره غير ذلك . وعلى كل حال فان ابن علال عين على شرشال قائداً جديداً من بني مناصر ، هو احمد بن بلقاسم ، يعززه القاضي عبد القادر بن ملزي ، الذي اكتسب ثقة الأمير[37] .

وهكذا دخلت شرشال ونواحيها في إطار المقاومة الوطنية ، بحضرها وريفها ، وعندما حاول كلوزيل أن يعين عليها سنة 1835 ، بايا جديداً ، هو مصطفى بن الحاج عمر، رفضه السكان فلم يستطع أن يضع رجله بينهم، وعاد من حيث أتى[38]. وسنعرف أنه عندما احتلها الفرنسيون سنة 1840 غادرها سكانها إلى بني مناصر والجبال المجاورة حتى لا يعيشوا تحت رحمة العدو .

اما المدية فقد بقيت في حالة فوضى إلى أن دخلت في طاعة الأمير سنة 1834 . وتعود أسباب الفوضى إلى انعدام السلطة فيها ، أو بالاحرى إلى تبدل هذه السلطة في أوقات قصيرة بين قيادات مختلفة . كما تعود إلى حالة الإقليم التاريخية ، وهي الموقع السياسي الجغرافي القريب من العاصمة . فبينما احتفظ اقليم قسنطينة بقيادته إلى 1837 ، وبينما ملأ الأمير عبد القادر الفراغ السياسي في اقليم الغرب بعد سقوط حكم الباي ، ظل اقليم التيطري وعاصمته المدية في حالة فوضى . وقد سبق أن قلنا ان السكان الحضر الذين قدرهم البعض بحوالي ستة آلاف كانت لهم صنائعهم وحرفهم ومعاشهم من الأرض والتجارة ، وكانت لهم مساجدهم ومدارسهم وهيئاتهم الدينية ، ومبانيهم التي تعبر عن ثروتهم[39] . وكان فيها بعض البرانية وبعض اليهود . ولكنها بعد سقوط حكم الباي بومزراق لم تكن قادرة على حماية نفسها إذ أن قيادتها الدفاعية كادت تكون منعدمة ، خصوصاً وقد طمعت فيها قيادات جديدة خارجة عنها ، وضغطت عليها الأعراش المجاورة.

---

(37) أنظر قان ، المرجع السابق ، ص 468 .

(38) أنظر (مراسلات دامريمون) ، ص 96 . وعن مصطفى بن الحاج عمر أنظر ما مضى . وهو الذي عينوه في البداية بايا على المدية فلم يفلح أيضاً .

(39) أنظر دراستنا (الحياة الإجتماعية والإقتصادية من خلال دفتر محكمة المدية 1823 ـ 1834) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ،) ج 2 ، ط 2 . بيروت ، 1990 .

ومن أبرز القوى الأجنبية سلطة الفرنسيين التي انتصبت في الجزائر . وقد رأينا كيف حاول كلوزيل منذ 1830 القيام بحملة ضد المدية، وكيف فشل في مشروعه، رغم أنه أنهى حكم الباي مصطفى بومزراق وعين بدله بايا موالياً هو مصطفى بن الحاج عمر وترك معه حامية بقيادة فرنسية . وعندما رفض السكان هذه العلاقة مع العدو ورفضوا الباي الجديد وهاجمت الأعراش المجاورة الحامية الفرنسية بقيادة احمد بومزراق ، أصبحت المدية في حالة فوضى متناهية . ولم يسع بيرتزين الاّ سَحْبُ الباي العميل والحامية من المدية (فاتح 1831) وترك المدينة في حالة يرثى لها . ومن ثمة أصبحت بلاداً مفتوحة لمختلف الزعامات . وقد حاول بو مزراق أن ينصب نفسه في مكان والده ، ولكن وجد صعوبة في جعل نفسه مقبولاً لدى السكان والأعراش ، رغم أنه شارك بقوات المدية في المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين في سهل متيجة ، كما رأينا . وحاول الحاج احمد باي قسنطينة أن يمد أيضاً نفوذه نحو المدية فأرسل رسائله ودعاته ، بل أرسل ممثلاً عنه إلى هناك (1833) ، وهو محمد الحاج[40] . ولكن هذا لم يستطع أن يجلب طاعة المدية ونواحيها إلى الحاج احمد .

ذلك أن التيارات الأخرى كانت لا تنفك عن محاولة جذب المدية إليها . فهؤلاء حضر مدينة الجزائر كانوا على صلة كبيرة بحضر المدية[41] ، وكانوا يمنونهم بالنجدة ويستفيدون من التجارة معهم ، ويضمونهم إلى حزبهم ، الحزب الوطني والحزب العثماني ، لأن أهل المدية كان فيهم أيضاً هذان الاتجاهان . وكان الفرنسيون من جهتهم ، رغم هزيمتهم وانسحابهم ، يحاولون دس الفرقة بين الحزبين المذكورين في المدية ويجعلون أنفسهم أصدقاء لهذا دون ذاك . وكانوا (أي الفرنسيين) على صلة ببعض زعماء الأعراش المجاورة للمدية ، كأولاد حسن بن علي ، وأولاد مختار لعلهم يخلقون منهم قوة ثالثة عند الضرورة . يضاف إلى ذلك ظهور شخصيتين غريبتين في المدية وما جاورها ، وهما الحاج المعطى والحاج موسى الدرقاوي .

أما الحاج المعطى فقد ادعى أنه شريف منفي من المغرب الأقصى (1833)،

---

(40) في بعض الوثائق انه (محمد القاضي) . أنظر إسماعيل عربان (اوربان) في طابلو 1843 ـ 1844 ، ص 404 .

(41) نذكر هنا ان احمد بوضربة كان اصلاً من المدية .

وأنه من أهل الوداية ، وهي الفرقة الدينية المعروفة في المغرب، وأنه جاء إلى الجزائر للجهاد ضد الكفار . وكم شهدت الجزائر خلال هذه الفترة من أمثال الشيخ المعطي ! وكم ظهر من الشرفاء ، ومن رجال الساعة المهديين ! وكم أطاعهم اناس ومشوا في ركابهم طمعاً في الدنيا أو طمعاً في الآخرة ! ولكن ذلك جلب أيضاً الفوضى المتناهية لأن أولئك الرجال لم يستطيعوا أن ينظموا دولة أو يخلقوا قيادة سياسية ، وإنما هي فورات عاطفية واستعراضات بطولية فردية ، سرعان ما تبخرت ! ظهر إذن الحاج المعطي في المدية مدعياً الشرف والجهاد في سبيل اللّه ، وبقي هناك حوالي أربعة أشهر ، وجاءته طاعة الحضر والبدو في أول أمره ، وسمى نفسه (المولى) . ولكن عهده انتهى بسرعة كما بدأ بسرعة ، لأن الحضر انفضوا من حوله لما رأوا انه لا يطبق الإسلام ولا يعدل بين الناس ، وأطلقوا عليه الأطفال يطاردونه في الشوارع كما تقول بعض الروايات ، إلى أبواب المدينة . كما انفض من حوله أهل البادية لأنه لم يقدهم إلى الجهاد الذي جاء من أجله . ولذلك لم يترك الحاج المعطي من أثر على المدية إلّا ماتركه الزوبعة[42] .

وإذا كان الحاج المعطي لم يؤثر في حركة الجهاد ضد العدو فإن الحاج موسى المعروف بالدرقاوي كان له تأثير كبير . ويرجع ذلك إلى طول مكثه في الجزائر إذ لم يستشهد إلا أثناء ثورة الزعاطشة (1849) . كما يرجع إلى قدرته على التنظيم والتأثير على أتباعه . ولكن تنظيمه وتأثيره لم يجعلاه يرقى إلى درجة القائد أو الحاكم ، فهو إذن لا يخرج عن أولئك الذين مارسوا الفورات العاطفية والاستعراضات الفردية البطولية في تاريخ المقاومة . وينتمي الشيخ موسى إلى الطريقة المدنية ـ الدرقاوية الشاذلية. ويذهب من درس الطرق الصوفية في الجزائر بإمعان ، وهو لويس رين[43] ، إلى أن اسم الشيخ الكامل هو موسى بن علي بن حسين ، وأنه مصري البلد ، فر من مصر بعد أن شارك في حركة عسكرية هناك ،

---

(42) عنه أنظر ف . فرعون Pharaoun ، (مذكرات قبائل المدية) في (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 51 . أنظر ايضاً عربان (طابلو) المرجع السابق ، ص 404 . وتقول بعض المصادر ان الحاج المعطي في الحقيقة كان مبعوثاً من سلطان المغرب ، رغم انه هو نفى دلك ، وان ضغط فرنسا على السلطان هو الذي جعله يسحب الحاج المعطي .

(43) أنظر لوس رين (مرابطون واخوان) ، الجزائر 1886 ، ص 241 .

وجاء إلى طرابلس الغرب ولجأ إلى زاوية الشيخ محمد جعفر بن حمزة المدني المصراتي مقدم الطريقة الدرقاوية ـ الشاذلية. وبعد أن تمكن الشيخ موسى من تعاليم الطريقة الدرقاوية أرسل في مهمة إلى المغرب حوالي سنة 1827 ، ثم دخل الجزائر بعد حوالي سنتين واعتقله الأتراك في مدينة معسكر ، وبعد إطلاق سراحه توجه إلى الأغواط وأصبح مؤذناً بها في جامع الأحلاف.

ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر لم يعد الشيخ موسى يفكر إلا في الجهاد وتنظيم المقاومة ضدها . ولما كان تأثير الطريقة التيجانية قوياً في الأغواط فإن الشيخ موسى توجه إلى شيخ الدرقاوية في الونشريس ، وهو الشيخ العربي بن عطية ، فوجد منه استقبالاً بارداً ، وذكّره الشيخ ابن عطية بكلمات الشيخ الدرقاوي في عدم طلب الدنيا[44] . ولكن ذلك لم يثبط عزيمة الشيخ موسى في طلب الجهاد . فقد استمر في تجنيد الأنصار ، وكان يلازم ركوب حمار فأصبح يدعى من أجل ذلك الشيخ موسى « بوحمار » . وتحالف ، كما عرفنا ، مع الشيخ محمد بن عيسى البركاني ، والحاج محيي الدين بن مبارك ، والحاج السعدي أثناء مقاومة متيجة ، والتقى بالشيخ البركاني (1833) في البليدة وتواعدا على الجهاد وتنظيم العباد ، خصوصاً في المناطق الجنوبية . ولعل ذلك هو ما شجع الشيخ موسى على دخول المدية سنة 1834 ، وهي المدينة التي قلنا أنه لا سلطة فيها عندئذ ، وقد التقى الشيخ موسى بالأمير في مكان يسمى (العمري) Ouamri ، ودار بينهما حديث يبدو انه لم يفض إلى تفاهم ، رغم ما عرفناه عن الأمير من تقديم رجال الدين على غيرهم . ولعل الأمير وجد الشيخ موسى كثير الطموح إلى الدنيا ، أو أحس منه عدم الانضباط بينما هو حديدي التنظيم ، ولعله وجد فيه علاقات خارجية لا يريدها . والمهم انهما لم يتفاهما وظلا كذلك رغم طول بقائهما في الجزائر بعد ذلك بسنوات واستمرارهما على الجهاد ضد العدو المشترك . حارب الأمير إذن الشيخ موسى ، الذي يبدو انه كان مستقلاً أكثر من اللازم . وأخرجه من المدية ، وشرده ، ولكنه لم يتمكن منه . فهل

---

(44) أنظر مراسلات الأمير مع الشيخ العربي بن عطية . وقد كانت هذه المراسلات تسير على نفس الأفكار التي قيلت للشيخ موسى ايضاً ولكن الذي يحيّر حقاً هو ان تعاليم الشاذلية وتعاليم الدرقاوية لا تمنع انصارها من طلب الدنيا ومن الجهاد والاستشهاد في سبيل الله . ولعل الشيخ ابن عطية قال ذلك للأمير وللشيخ موسى لأسباب أخرى لا نعرفها الآن .

ذلك كان لعجز قوات الأمير ؟ لا نظن ذلك . فقد تمكنت من خصوم عديدين للأمير ، منهم من أعلن له الطاعة، ومنهم من قتله، ومنهم من سجنه، الخ . فكيف يبقى الشيخ موسى طليقاً ، كما بقي الشيخ بومعزه بعده طليقاً ؟ ذلك سر لم نعرفه بعد.

ومنذ ظهوره في المدية ثم طرده منها من قبل قوات الأمير (1834) بقيت مقاومة الشيخ موسى هامشية إلى حد كبير ، ولكنها ظلت حية ، خصوصاً في الجنوب وبلاد القبائل . وتلك مرحلة أخرى في تطور الحركة الوطنية سنعود إليها في حينها[45] .

ومن آثار الشيخ موسى على المدية دخولها تحت طاعة الأمير . فقد عين عليها الأمير أخاه ، مصطفى بن محيي الدين ، خليفة له ، وعين معه محمد البركاني ، قائد شرشال السابق ، نائباً له . وبذلك دخلت المدية في عهد من الاستقرار الإداري والحماية من تسلل الفرنسيين ومن أطماع الطامعين ابتداء من الأعراش المجاورة إلى أحمد بومزراق إلى الحاج أحمد باي قسنطينة ، إلى رجال الساعة من أمثال الشيخ المعطي . ولكن الفرنسيين الذين فشلوا هناك عسكرياً ، كانوا يكيدون ويرسلون الهدايا والجواسيس ويستقبلون وفود الشاكين والموتورين من المدية[46] .

وقد حز في نفس الفرنسيين دخول المدية تحت طاعة الأمير ، ووصول وفوده إلى البليدة ، وصلات أهل حضر العاصمة به ، وانتعاش المقاومة الشعبية حول هذه المدن كلها ، بل حول شرشال والقليعة ودلس ويسر الخ ، فأرادوا تقليص سلطته وضربها بسلطة معارضة لها يرأسها هذه المرة أحد العلماء التابعين لهم . وهكذا عينوا شخصاً اسمه : محمد بن حسين ، بايا على المدية سنة 1835 ، وكأنه لم يكفهم

---

(45) يقول رين ، المرجع السابق ، ان الشيخ موسى لجأ بعد طرده من المدية إلى جبال مسعد في الجنوب وأسس طريقة صوفية ، وكون قيادتين ، واحدة جعل عليها ابن الحاج ، في الجنوب ، والثانية جعل عليها ، قويدر بن محمد ، في الشمال . ثم توجه هو إلى بلاد القبائل عند بني يعلي ، ثم إلى متليلي ، ثم الى الزعاطشة حيث استشهد 1849 . وقد ترك ابنين : ابو بكر ومصطفى ، الأول اصبح مقدم الطريقة المدنية بالاغواط ، والثاني أستاذ اللغة العربية في معهد الآباء البيض بتونس ، سنة 1884 .

(46) يذكر الحاكم العام ديرلون ان أهل المدية أرسلوا إليه شكوى سنة 1834 عن الفوضى التي عليها مدينتهم أمام تنازع السلطات الطامعة فيها ، ولكن ديرلون عاتبهم على تخليهم عن الباي الذي عينه الفرنسيون عليهم سنة 1830 (أي مصطفى بن الحاج عمر) وبدل أن يعدهم بالنجدة أظهر لهم الشماتة . أنظر (مراسلات ديرلون) ، ص 160 .

تعيين مصطفى بن الحاج عمر سابقاً !.

وكان محمد بن حسين في الأصل من نواحي المدية ، وكان من أصول تركية ، أو بعبارة أخرى من الحزب الذي أصبح الفرنسيون يتعاونون معه بعد أن شنوا عليه الحرب أول مرة . وقد جاء جزء من عائلته إلى العاصمة ، وأصبح محسوباً على الحزب الفرنسي . وبعد تعيينه على المدية ليقاوم إدارة الأمير هناك رفضه أهل الحضر إلا بعض الأعيان من حزبه . ومن سوء حظه أن خليفة المدية قبض عليه ، وأرسله إلى خليفة مليانة . كما أخذ معه بعض الرهائن الذين اتهمهم بإخفاء الأسلحة والذخيرة ، وفرض غرامة على المخالفين . ومن مليانة أرسل (الباي) محمد بن حسين إلى الأمير ليرى فيه رايه ، ويقال انه حكم عليه بالموت ، وقد نفذ فيه الحكم بمدينة وجدة ، كما يقال ان الأمير حكم أيضاً بقتل الشيخ ابن عودة زعيم الحزب الفرنسي في عرش أولاد حسن بن علي[47] . وبعد معاهدة التافنة 1837 جاء الأمير إلى المدية من جديد، وعزل أخاه مصطفى وعين البركاني خليفة على المدية . فكانت المدية خلال السبع سنوات الأولى من الاحتلال منطلق المقاومة الشعبية في الجنوب ، سواء تلك التي قادتها الأعراش في الأربع سنوات الأولى (العبيد ، الدوائر ، أولاد حسن بن علي ، أولاد مختار الخ .) ، أو تلك التي أثارها الحاج موسى الدرقاوي (بوحمار) الذي استمر حتى بعد خروجه من المدية في تأليب الأعراش على محاربة العدو ، أو أثناء عهد الأمير الذي عرفت فيه المدية نفسها استقراراً إدارياً ومالياً ، وعادت إليها الحياة التجارية والزراعية والتعليمية ، واطمأنت النفوس . هذا وقد كان عهد الأمير في المدية قد شجع أيضاً الحزب الوطني في العاصمة على رفع رأسه بعد أن وهنت قواه من سياسة كلوزيل وروفيقو التعسفية .

---

(47) سيكافىء الفرنسيون أبناء وأقارب هؤلاء ، فقد عينوا ابن محمد بن حسين (قايدا) على ربيعة ، وعينوا اخ ابن عودة (قايدا) على عرش حسن بن علي . . . وعن هذه الحوادث انظر : فرعون (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 54 ، وكذلك عربان ، طابلو ، المرجع السابق ، ص 404 : وكذلك (مراسلات كلوزيل) 684/1 . وابن عودة هذا غير ابن عودة الذي كان قائداً على شرشال .

5. الإقليم الشرقي (قسنطينة) :

اختلف مصير إقليم قسنطينة عن مصير إقليمي الوسط والغرب في الفترة التي نتناولها . فالقاومة فيه كانت رسمية وشعبية . ولم يتغلغل فيه الفرنسيون إلاّ في نهاية الفترة المدروسة إذ بقيت عاصمته (قسنطينة) صامدة شامخة ، رغم محاولة الفرنسيين تكوين حزب موال لهم فيها . وكانت الشخصية البارزة في هذه الفترة هو الباي الحاج أحمد . كما ظهرت إلى جانبه شخصيات أخرى بعضها موال له ، وبعضها ضده . وسنحاول الآن تتبع مجريات الأمور في هذا الإقليم .

إن إقليم قسنطينة من أكبر وأغنى الأقاليم الجزائرية في العهد العثماني . وكان كثير السكان حتى قدرهم البعض بحوالي مليون ونصف نسمة منهم حوالي ثمانين ألف في قسنطينة وحدها[48] ، ومنه كانت تصدر المنتجات الجزائرية إلى الخارج ، خصوصاً من ميناء عنابة، وكان فيه وجود سابق للفرنسيين تمثل في بعض الامتيازات الإقتصادية التي حولوها إلى نوع من الوجود العسكري أيضاً . وكان على رأس الإقليم سنة الإحتلال الحاج أحمد بن محمد الشريف ، وتحته عدد من الشيوخ والآغوات والقياد ، يحكمون باسمه الأجزاء الأخرى من الإقليم . ورغم حضوره لنزول قوات الغزو بسيدي فرج ومشاركته في معركة اسطاويلي وغيرها ، إلا أنه عاد إلى إقليمه عندما تأكد من سقوط نظام حسين باشا ورأى ضعف وانهيار قيادة الآغا إبراهيم . وللمرء أن يتساءل : لماذا فضل الحاج أحمد الرجوع إلى قسنطينة ولم يحاول إنقلاباً في العاصمة ، خصوصاً وهو جزائري المولد والأم والعاطفة ، وهو أيضاً يعرف مدى سخط الناس عن « تتريك » النظام القائم ؟ هل ان صداقته مع حسين باشا منعته من ذلك ؟ هل ان الحزب الوطني كان يعتبره « تركياً » أيضاً ؟

ان حياة الحاج أحمد أصبحت معروفة إلى حد ما ومبسوطة في عدد من الدراسات[49] ، ولذلك فإننا سنحاول أن نلخص بعضها هنا حتى نربط بينها وبين

---

(48) عن تقديرات سكان اقليم قسنطينة والمدينة أنظر التميمي (اقليم قسنطينة في عهد الحاج أحمد) ، ص 55 ـ 59 .

(49) ظهرت كثير من الدراسات عن الحاج احمد اكاديمية وغيرها ، من ذلك عبد الجليل التميمي (قسنطينة في عهد الحاج أحمد 1830 ـ 1837) ، تونس ، 1978 ، وكتابنا (محاضرات) ، 1982 ، =

الأحداث التي سنسوقها . ان حياته غنية وخصبة وجديرة بالإعتبار . ولد حوالي سنة 1786 لأبيه محمد الشريف بن الباي أحمد القلعي الذي حكم قسنطينة حوالي خمسة عشر عاماً . وأمه رقية ابنة الحاج ابن قانة رأس احدى العائلات الصحراوية الكبيرة، وشيخ من أبرز شيوخها (شيخ العرب) ، وتثقف أحمد بن محمد ثقافة عصره ، فأخذ من العربية الأدب واللسان ، ومن التركية الحكم والسلطان ، وتربى مع لداته أبناء الأسر الجزائرية واندمج في حياة المدينة والريف ، وتمرن على الصيد والفروسية ، ومارس الحكم وهو ابن 18 سنة ، اذ عينه أحد البايات قائداً على قبائل العواسي ، وكان إذا عزل من منصبه يذهب نحو الغرب (مليانة ، العاصمة، البليدة ، الخ .) بعيداً عن المؤامرات حتى يصفو الجو ويأتي من يقربه إليه . وعندما تولى حسين باشا الحكم سنة 1818 قربه إليه واعتبره أحد المخلصين له وعينه نائباً لباي قسنطينة عندئذ ، وهو أحمد المملوك ، ولم تأت سنة 1826 حتى أصبح هو باي الإقليم كله .

قليل هم أرباب السلطة الذين أدوا فريضة الحج في العهد العثماني . فطموحاتهم الدنيوية كثيرة وآجالهم قصيرة ومناوراتهم لا تنتهي ، فكيف يبقى لهم وقت للحج وأداء الشعائر والتثقف عن طريق السياحة ونحوها ؟ ولكن أحمد بن محمد تمكن من أداء الحج ، قبل توليه وظيفة الباي . وبقي أكثر من عام في المشرق يجول ويتعرف ويدرس ويقيم العلاقات . وأثناء ذلك درس الحياة السياسية والفكرية في الحجاز ومصر واسطانبول (لا نعرف أنه زار الأخيرة شخصياً) . وقد اجتمع بمحمد علي والي مصر ، وعرف نهضة مصر على يديه ، واجتمع بأبنائه : ابراهيم وطوسون وعباس[50] . وهذا الرصيد من المعرفة جعله يختلف عن البايات الآخرين أثناء

= ومذكراته : أنظر ترجمتها: محمد العربي الزبيري ، الجزائر 1973 . أنظر كذلك شلوصر (قسنطينة أيام أحمد باي) ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، 1980 ، و (علاج السفينة) لأحمد اللنبيري ، مخطوط ، و (الفريدة المؤنسة) لمحمد صالح العنبري . ط . 1847 .

(50) أنظر دراسة جان لويس جونيفييف المعروف بالدكتوريقيون Guyon (رحلة الجزائر والزيبان) ، الجزائر 1852 ، ص 283 ـ 397 . في هذا المصدر إشارة إلى وجود مقالة عن احمد باي كتبها عنه بعد وفاته الخوجة إسماعيل بن محمد في جريدة الأخبار رقم 1,546 .

والمعروف ان الحاج احمد كان متزوجاً من عدة نساء ، وله ابناء وبنات ، وانه كان يتخذ الزواج طريقة للنفوذ السياسي ، وانه أملى مذكراته على الضابط المترجم روزي Rouzé أثناء اعتقاله بمدينة الجزائر ، وانه دفن في زاوية عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة ، وانه توفي يوم 30 اغسطس سنة =

الإحتلال : الباي حسن بن موسى في الغرب والباي مصطفى بومزراق في الوسط .

ورغم أن الحاج أحمد كان أقرب العناصر التركية في الجزائر إلى الشعب فإنه ظل وفياً للخلافة والسلطان العثماني . فلم يفكر في إعلان الإستقلال وتوحيد البلاد تحت شعار الوطنية، أو على الأقل لم يستقل استقلالاً في درجة محمد علي والي مصر، نحو السلطان. لقد كان الوحيد الذي يملك التجربة والنظام والقوة سنة 1830 . أما من ظهروا بعد هذا التاريخ فقد كان عليهم أن يبدأوا من الصفر أو كانوا لا يملكون إلا الطموح مثل بعض البايات الذين نافسوه . ان الظروف الجديدة جعلت الحاج أحمد يعتمد على العنصر الوطني بدل العنصر التركي ، ولكن ذلك لم يتحول عنده إلى تغيير للنظام كله وإلى مفهوم جديد في العلاقات مع الشعب ومع الخلافة . وكان ما قام به من إجراء نحو « الأتراك » الذين تآمروا عليه أثناء غيابه في الجزائر ، كان اجراء انتقامياً لا سياسياً .

كان من المفهوم أن تتغير درجة الولاء في قسنطينة بعد سقوط النظام المركزي في العاصمة ، وظهور فكرة العداء « للأتراك » . وبداية الشعور الوطني ضدهم من جهة وضد الفرنسيين من جهة أخرى . ومن ثمة فقد ظهرحزبان على الأقل في قسنطينة منذ 1830 : حزب ينادي باستمرار النظام « التركي » العثماني تزعمه المتآمرون على الباي الغائب ، ولا شك أن هؤلاء وعلى رأسهم حمود بن شاكر ، كانوا يعتقدون أن الحاج أحمد ليس منهم وانه « وطني » بالأمومة والعاطفة والتكوين وانهم خافوا منه ليس على مصيرهم فقط ولكن على مصير النظام كاملاً ، أي الولاء لاسطانبول . أما الحزب الثاني فقد تزعمه أعيان قسنطينة وعلى رأسهم الشيخ محمد بن الفكون ، شيخ الإسلام ، الذي كانت كلمته مستجابة ، يضاف إلى هذا أن الحاج ابن قانة خال الحاج أحمد، قد لعب دوراً في إقناع الأعيان المذكورين بجزائرية الحاج أحمد و « عروبته » وكان هو صلة الوصل بينهم وبين الباي قبل أن تفتح له قسنطينة أبوابها من جديد . ان تاريخ عودة الحاج أحمد إلى قسنطينة وتخلصه من الأتراك المتآمرين ضده بالقتل وغيره واعتماده على جيش جديد من الشعب واستيلاءه من

= 1852، وان القائم عليه عندئذ هو الشيخ الحاج بوقندورة . اما أمه فقد توفيت في نقاوس وهي مدفونة هناك .

جديد على مقاليد السلطة، هذا التاريخ معروف عند الدارسين ولا نريد تكراره هنا . ونحن انما نريد أن نشير إلى عناصر الوطنية في ذلك كله ، وبروز المشاعر المعادية للأتراك والفرنسيين معاً ، وظهور روح المقاومة الشعبية . ولذلك نذكر هنا أن من بين الأحزاب الجديدة في قسنطينة ونواحيها هو ما أسميناه من قبل بالحزب الفرنسي أيضاً .

اعتمد الحاج أحمد اذن على العنصر الوطني أكثر من ذي قبل . فقد سقط النظام المركزي بالعاصمة الذي كان يمكن أن يمده بالدعم العسكري ، وبعدت الشقة بينه وبين الباب العالي ، وكثر خصومه المنادون برأسه والساعون إلى منصبه . وها هم الفرنسيون أيضاً يهاجمون عنابة وبجاية ، ويبثون عيونهم ومناشيرهم ، وها هو باي تونس يتآمر عليه مع الفرنسيين . اذن لا مناص للحاج أحمد من الإعتماد على العنصر الوطني : جيشاً وإدارة ومالاً . فأما شيخ الإسلام فقد جلب إليه ولاء الحضر ، وأما زواجه السياسي فقد جلب إليه ولاء القياد ورجال « الصف » : أهل الحرب والفروسية من أمثال أولاد مقران (مجانة) وأولاد ابن قانة (الزيبان) ، وأولاد عز الدين (زواغة) ، وأولاد عاشور (فرجيوة) . كما ان ولاء ابن عيسى وأضرابه جلب إليه أهل زواوة الصغرى والكبرى بجيشهم القوي وصمودهم المثالي ، وقد أعاد الحاج أحمد على ضوء ذلك تنظيم الإدارة والجيش والمالية والنواحي ، ولقب نفسه بلقب الباشا ، وأرسل إلى السلطان يعلن له الولاء ويطلب التأييد المعنوي والمادي ، وراسل أهل إقليم الوسط يطلبهم البيعة له ، ولكننا لا نعرف أنه طمح إلى طلب البيعة له من الإقليم الغربي . ومن أجل هذا التنظيم الجديد وتخلصه من المتآمرين ضده ، اتهم الحاج أحمد بالقسوة والطغيان وحب المال ، كما اتهم حتى بالجبن[51] . ولكن تلك أحكام ما تزال في حاجة إلى تأكيد أو نفي لأنها أحكام صادرة عن أعدائه الفرنسيين وحزبهم من الجزائريين المعاصرين له .

اذا كان الأمير قد اعتمد في إدارته على رجال الدين فإن الحاج أحمد قد اعتمد

(51) يذكر أحد الفرنسيين ان الباي الحاج احمد اعترف لهم بأنه قطع اثني عشر ألف رأس أثناء حكمه (طبعاً من الجزائريين !) ، أنظر (مذكرات شانقارنييه) ، تعليق في هامش منها . ويقول عنه سيروكا في (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 379 انه كان يقتل الأتراك الذين تآمروا ضده خمسة خمسة أو ستة ستة حتى تخلص من جميعهم بطريقة سرية . وكان عددهم حوالي 1.200 .

على رجال السيف . فالأسماء اللامعة في إدارة الأمير هي : البركاني والسعدي وابن التهامي وابن علال الخ . وكلهم من أهل العلم والدين والزوايا . أما الأسماء اللامعة في إدارة الحاج أحمد فهي : ابن عيسى وابن الحملاوي وابن قانة والمقراني الخ . وكلهم من رجال السيف والحرب . تلك إدارة الإقطاع الديني وهـذه إدارة الإقطاع الإقتصادي . تلك إدارة المثقفين وهذه إدارة الحاكمين .

من أبرز الشخصيات التي خدمت الحاج أحمد ، وزيره الأول (الباشحانبه) : علي بن عيسى . وأوليات ابن عيسى مختلف فيها ، كما أنها لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن نهايته كـانت مأسـاة شأن الكثيـرين ممن ركنوا للفـرنسيين بعد محـاربتهم . فبعضهم يذهب إلى انه من عائلة شريفة ومن أغنياء البلاد وذوي النفوذ اذ كـان له أخوان : أحدهما تولى الإفتاء والثاني القضاء . ويذهب بعضهم إلى أن والـده هو عيسى الفرجاني (من قبيلة بني فرجان) ، وانه بدأ حياته فقيراً مدقعاً يبيع الفحم على حمار له في قسنطينة ، ثم ترقى في التجارة فكان يشتري الحياك ويبادلها بالجلود . وأن أحد أبنائه الخمسة هو علي الذي ندرسه والذي اشترك في فرقة الزواوة التي ألفها الحاج أحمد ، والذي كان يملك دكاناً يتاجر فيه مع ذلك . وعندما تعرف عليه الحاج أحمد نال ثقته وكلفه بمهمة في تونس ، ثم عينه (باشحانبه) إثـر عودة البـاي من المشاركة في صد الحملة الفرنسية ضد الجزائر .

وبعد أن خدم علي بن عيسى رئيسه الحاج أحمد بإخلاص وكفاءة ، ودافع بقوة وبطولة عن عنابة وعن قسنطينة ضد الغزو الفرنسي (في الحملتين) ، قبل بـالأمر الواقع أو تظاهر بقبوله ، فعينه الفرنسيون (عينه نيقربيه ، حاكم قسنطينة) سنة 1838 خليفة على المنطقة الواقعة بين اليدوغ وجيجل . ولكنهم لم يكونوا يثقون فيه وكانوا يعتبرونه رجلاً خطيراً ، فلم يصبروا عليه أكثر من ثلاث سنوات ثم لفقوا له تهمة تزوير العملة وأقاموا له مجلس حرب وحكموا عليه بعشرين سنة أشغالاً شاقة ، وحلقوا له رأسه وكبلوا يديه ورجليه بالحديد ، وسيق إلى منفى خارج الجزائر ـ إلى قلعة لامالق أولاً ثم إلى جزيرة سانت مرغـريت (ولو لم يكـونوا خـائفين منه لأبقـوه مكبلاً في الجزائر) . وبعد تدخلات ابنه وتدخلات شخصيات أخرى رأت أن المسألة سياسية لا جنائية ، سمح له الفرنسيون بالتجول في مونبلييه ثم بالعودة إلى مدينة الجـزائر

(ومنعـه من قسنطينـة) حيث بقي هناك رجـلاً مشبوهـاً إلى أن توفي دون تـاريـخ محدد[52] .

وإذا كانت حياة ابن عيسى لا تعنينا كثيراً بعد 1837 ، فإنها قبل ذلك مهمة لنا خصوصاً ونحن نسلط الأضواء على المقاومة في الشرق . فقد قاد ابن عيسى جيش قسنطينة للدفاع عن عنابة عند محاولة احتلالها من العدو . وأبلى ضد الضالعين في ركاب الفرنسيين أمثال إبراهيم باي الكريتلي الذي ادعى حكم عنابة واستنجد ، كما سنرى ، بباي تونس والفرنسيين . كما قاوم ابن عيسى عدو الحاج أحمـد الآخر ، فرحات بن سعيد ، الذي قام يطالب بـاستعادة حق عـائلته في مشيخـة العرب في الزيبان . وأخيراً حارب ابن عيسى الفرنسيين في كل من عنابة وقسنطينة ، حتى لقد شهد له خصومه أنه كان الشعلة في الدفاع عن المدينة الأولى (عنابة) سنة 1832 ضد اللقيط يوسف والضابطين دارماندي ودوزي ، وعن المدينة الثانية (قسنطينة) سنة 1836 و 1837 ضد كلوزيل ودامريمون وفاليه[53] . وقد أظهرت حروب ابن عيسى أنه كان يمثل الحزب الوطني رغم أنه كان يدافع عن الحاج أحمد الذي كان يمثل الحزب الوطني العثماني في الجزائر، ونسب إليه بعض الفرنسيين أنه قال سنة 1832 أن حسين باشا لو عاد إلى الجزائر فسنعتبره رجلاً عادياً ، ولكن إذا حاول فرض حكمه فسنقطع رأسه لأنه تركي[54] .

ومن الشخصيـات الأخـرى التي كـانت تسـانـد الحـاج احمـد ، الآغـا ابن الحملاوي . فقد ولاه منصب الآغا وعينه على الجيش في الهجوم على عنابة سنة 1832 ، وكان محل ثقته . وكان من المدافعين عن قسنطينـة في الحملتين . وقد حاول (نيقربيه) حاكم قسنطينة الفـرنسي أن يكسبه فعينـه في نفس المنصب سنة 1838 ، ولكن الحاكم العام ، المارشال فاليه ، لامه على ذلك وحذره من خطورة

---

(52) أنظر ياكونو (المجلية التاريخية المغربية) ، عدد 1 ، 1974 ، ص 53 ـ 56 . ويذكر ياكونو ان ابنه احمد بن علي بن عيسى قد اكثر من مراسلة وزير الحربية وغيره من السياسيين الفرنسيين لصـالح والده . ومما يذكر ان جول كامبون دافع سنة 1897 عن عدم تعيين أحد ابناء ابن عيسى لأن والده قد حارب الفرنسيين ، أنظر كامبون (حكومة الجزائر) .

(53) أنظر ما قاله فيه شانقارنييه في (مذكرات شانقارنييه) ، الهامش .

(54) أنظر شارول فيرو (المجلة الافريقية) ، 1973 ، ص 184 .

ابن الحملاوي وسوء نواياه المشبوهة نحو الفرنسيين ، وأرسل إليه نسخة من التقرير الذي يثبت إدانته والذي قال انه جمع معلومات فيه من أعوانه في مدينة الجزائر ، ومن تلك المعلومات ان ابن الحملاوي بقي على صلة بالحاج احمد بعد خروجه من قسنطينة إلى الأوراس[55] .

وكما كان للحاج احمد أنصار وأصدقاء، كان له أيضاً خصوم وأعداء. وقد كثر أعداؤه بالخصوص بعد فرض الغزو الفرنسي على مدينة الجزائر . إذ تحرك أصحاب النوايا الخاصة وطمع الطامعون في حكم قسنطينة بمساعدة العدو الفرنسي . ولم يكن يجمع هؤلاء الأعداء جامع سوى السخط على الحاج احمد والإطاحة به ، ولم يقدروا ان المستفيد من تناحرهم هو عدو الجميع .

وهؤلاء الأعداء هم: فرحات بن سعيد، وإبراهيم الكريتلي، ومحمد الصغير ابن نعمون، واحمد الشريف الريغي، وعبد الرحمان سلطان تقرت، وغيرهم[56]، يضاف إلى ذلك عداوة الفرنسيين الذين ناصبوه العداء من أول وهلة وعينوا له اللقيط يوسف بايا منافساً له في عنابة ، كما ان باي تونس كان عدواً له يكيد له مع السلطان ومع رعيته ويتحالف ضده مع الفرنسيين . ومما لا شك فيه أن الأمير عبد القادر كان أيضاً من خصوم الحاج احمد ، ولكنه لم يحاربه في الميدان أو يكيد له مع الفرنسيين ، وإنما بدأ يهتم بقسنطينة بعد توقيع معاهدة التافنة ، وأخذ يسعى بالمراسلة ونحوها إلى الإعتراف به سلطاناً وأميراً للمؤمنين على الجزائر العثمانية كلها .

ومهما كان الأمر فان الدخول في تفاصيل المنازعات بين الحاج احمد وخصومه يخرجنا عن الموضوع ، ولذلك سنكتفي من ذلك بما يمس جانب المقاومة الوطنية إيجاباً أو سلباً . ولو عرف أولئك الخصوم والأصدقاء ما كان يضمره لهم العدو المشترك لما توانوا في الوحدة والتعاون على طرده ، ولاعتبروه شيطاناً رجيما ، وما

---

(55) أنظر (مراسلات فاليه) ، 1/438 .

(56) من هؤلاء أيضاً ابن زكري الذي هرب من قسنطينة إلى الفرنسيين في الجزائر فعينوه قائداً على الخشنة ، ومنهم ابن هني شيخ جبل مغريس ، واحمد بن قندوز ، وشيخ مجانة ، وقايد زمورة ، الخ . وكا ابن نعمون المذكور يجبي الضرائب للباي ثم اعتزل وبقي خارج قسنطينة يكشف عن نقاط ضعف الباي للفرنسيين .

يعدهم الشيطان الآ غرورا .

* * *

وكذلك كان الحال في عنابة مثلاً ، عندما اغتر بعضهم بوعود العدو فاذا هي سراب بقيعة لا يلوون منه على شيء ، فقد حاول الفرنسيون النزول في عنابة منذ الثاني من اغسطس 1830 ، كما اسلفنا ، ولكنهم فشلوا . غير ان ظهورهم هناك واختفاءهم بعد شهر كان له ردود فعل نحب أن نأتي عليها . فقد واجهوا ثورة داخل المدينة وخارجها ، اما داخل المدينة فقد تزعم إبراهيم الكريتلي ونصب نفسه بايا هناك في انتظار افتكاك قسنطينة من الحاج احمد . وكان إبراهيم معتمداً في البداية على نفسه وعلى بعض الأتراك الموجودين في القصبة . فقد أيده أعيان القصبة الذين منهم : الأخَوَان زروق واحمد ابني الشيخ ، والقاضي الحسين ، ورجم بن راضية قائد عنابة السابق . ولعل جميعهم كانوا متفقين على النفور من الحاج احمد . وفي شهر ديسمبر 1,830 وقع كلوزيل على معاهدة مع باي تونس تعطي اقليم قسنطينة إلى أحد أقاربه ، بما فيه عنابة ، ولكن المعاهدة لم تتم لأن الحكومة الفرنسية رفضت المصادقة عليها ، غير أن آثارها كانت قوية ، فقد جعلت عنابة مثلاً لا تأمن باي تونس ، ولا تثق في الفرنسيين . وأثناء ذلك احتل إبراهيم الكريتلي قصبة عنابة يوم 25 سبتمبر 1831 ورفع عليها العلم الإسلامي . وفي نفس الشهر وصل الضابط (هودير) ومعه الضابط (بيقو) في طريقهما إلى تونس في مهمة سرية ، وحاولا دخول القصبة فقابلتهما النيران وعجزا عن الدخول . وقد استنجد أعيان القصبة بالحاج احمد ، فأرسل اليهم نجدة يقودها عمار بن زقوطة ، ودارت معارك أدت الى مقتل الضابطين الفرنسيين ، هودير وبيقو . كما سبق .

عندئذ استعمل روفيقو ، قائد جيش الإحتلال في الجزائر ، أسلوب الخداع ، فأرسل أحد ضباطه ، وهو دارماندي[57] ، إلى عنابة باعتباره قنصلاً لفرنسا لدى الباي إبراهيم الكريتلي وليتمسك بحقه في العودة إلى حكم قسنطينة. ورافق اللقيط يوسف دارماندي ، وظلا يكيدان للباي إبراهيم وأعيان عنابة ويوقعان بين مختلف الأطراف

---

(57) كان دارماندي قنصلاً لفرنسا في الحجاز قبل التحاقه بالجزائر ، كما سبق . وكان يعرف العربية ومطلعاً على حياة المسلمين والشرق . مات عن حوالي ثمانين سنة ، عام 1873 . أنظر عنه (المجلة الافريقية) ، 1873 ، ص 254 .

لعلهم يجدون ثغرة للإحتلال الفرنسي . وبلغ بهما الأمر ان مَكَّنَا إبراهيم من تجنيد 400 جندي « تركي » من ازمير ،من طلب المعونة من باي تونس . وكان دارماندي واللقيط يوسف يشجعان ما اسميناه من قبل بالحزب التركي . وكانا يدفعان إبراهيم الى محاربة الحاج احمد حتى يضطر إلى طلب النجدة من الفرنسيين . وقد حانت تلك الفرصة عندما هزم جيش الحاج احمد « اتراك » إبراهيم الكريتلي ودخل علي بن عيسى إلى عنابة بالإتفاق مع أعيانها ، وهرب منها دارماندي واللقيط يوسف . عندئذ رضخ إبراهيم لشروط الفرنسيين بالدخول تحت حمايتهم ، وكيف لا يقبل ذلك ، وهو ما يزال محاصراً في القصبة مع جنوده « الاتراك » إلى أن وجد منفذاً هرب منه (27 مارس 1832) إلى جبال اليدوغ عند ضريح الشيخ بو معيزة (؟) كما تقول الروايات.

ولكن الفرنسيين الذين كانوا مختفين وراء إبراهيم الكريتلي تسربوا إلى القصبة وحملوا الجنود « الاتراك » المحاصرين هناك على ضرب جيش ابن عيسى معهم . غير أن هذا رفع الحصار على القصبة وأخلى المدينة ليلاً وخرج أهلها معه حتى يجدها الفرنسيون خاوية على عروشها . وقد عاث اللقيط يوسف فساداً في عنابة ، فقتل ثلاثة جنود مسلمين في القصبة بدعوى انهم كانوا يتآمرون للقيام بثورة ، كما كبل ثلاثة بالحديد ووضعهم في السفينة الفرنسية الراسية بالميناء بعدما قتل المتمردين بالرصاص . وبذلك دشن اللقيط يوسف العهد الفرنسي في عنابة (1832) حيث تهاطلت عليها النجدة من الجزائر وطولون (الجنرال مونك دوزير الذي سبق ذكره) ، ولم يعد الفرنسيون في حاجة إلى خدمات الحزب التركي بعد أن مهد لهم طمع إبراهيم الكريتلي الطريق ، فادعوا ان في هذا الحزب بعض « المتعصبين » أي الذين يكرهون الفرنسيين ، وانهم كانوا على صلة بحسين باشا في ليفورنيا الذي وصلت مناشيره إلى مدينة عنابة داعية إلى الجهاد ، وادعى الفرنسيون انهم اكتشفوا على باخرة تونسية أسلحة وباروداً موجهة إلى المجاهدين في عنابة . وهكذا ظهرت لهم « خيانة » الاتراك فصدرت الأوامر بجمعهم وتجريدهم من الأسلحة فوراً وترحيلهم إلى الشرق[58] .

(58) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، ص 170 ـ 184 . وقد وقع مثل ذلك في مدينة الجزائر ايضاً ، إذ أن بورمون انتقم من بقايا الأتراك اثر عودته من حملته الفاشلة ضد المدية وأمر بطردهم من الجزائر =

غير أن تمركز الحامية الفرنسية في عنابة لم يوقف المقاومة . فمن جهة استمرت مناوشات الحملات الرسمية التي كان يبعث بها الحاج احمد من قسنطينة ، رغم انشغاله بالمؤامرات الداخلية ومناورات فرحات بن سعيد ضده . ومن جهة أخرى انطلقت المقاومة الشعبية على يد بلقاسم بن يعقوب وبلعربي وغيرهما . ومن جهة ثالثة كان إبراهيم الكريتلي ما يزال يأمل في التأثير على بعض الأنصار . يضاف إلى ذلك تيارات سكان المدينة الذين كانوا بين حضر واتراك الخ .

لقد خرج إبراهيم من مخبئه في ضريح بومعيزة بعد أن عادت إليه الآمال في الهجوم على القصبة وافتكاكها من يد الفرنسيين . وزاده في تلك الآمال ان المقاومة الشعبية حول المدينة أخذت تتسع ، وان العواطف المعادية للفرنسيين كانت عالية ، فجند إليه المرابط ابن بغريش مآت من مجاهدي الريف واستعد لإستعادة القصبة من الضابط دوزير . وكان الفرنسيون يعلمون باستعداداته فعزلوا عنه الأتراك في المدينة ، وسجنوا ابنه (إسماعيل) في مدينة الجزائر ، وهربوا أسرته إلى الجزائر أيضا . وحدد إبراهيم تاريخ استعادة القصبة يوم 8 مارس 1832 . . ويبدو أن الفرنسيين كانوا على علم بذلك فاستعدوا له ، ووقعت عليه الدائرة . وبعد الهزيمة توجه إبراهيم إلى المديّة . وتذهب بعض المصادر إلى أنه اغتيل هناك على يد رجال الحاج احمد سنة 1834[59] .

ولعل نبذة عن حياة ابراهيم هذا تساعد على فهم دوره عندئذ . فهو بناء على اسمه ، من جزيرة كريت (الكريتلي) ، تولى وظيفة باي قسنطينة بين 1822 ـ 1824 . وبذلك يكون قد عرف إقليم الشرق وكون فيه علاقات رغم قصر مدته. وبعد عزله من حسين باشا بقي سجيناً أو منفياً (على عادتهم في ذلك) في المدية. وبعد الاستيلاء الفرنسي على الجزائر انتعشت آمال ابراهيم في الرجوع إلى حكمه في قسنطينة . والمعروف ان الفرنسيين حاولوا في 1830 الوصول إلى المدية وعنابة معاً

= بدعوى انهم « تحركوا » لإستعادة الحكم الإسلامي في غيابه . وكان الأتراك المتزوجون لم يطردوا أول مرة فحكم بورمون بطردهم أيضاً بعد حملة البليدة . انظر ذلك فيما مضى .

(59) نفس المصدر ، ص 261 . والمعروف ان المدية عندئذ (1834) كانت تتوزعها عدة تيارات أيضاً: الأمير ، والحاج موسى الدرقاوي ، وفرحات بن سعيد ، والحاج احمد . وقد يكون الفرنسيون هم الذين تخلصوا من إبراهيم الكريتلي بعد ان انتهى دوره معهم .

ولكن بدون جدوى . فهل اتصل بهم ابراهيم عندئذ وغضوا أعينهم عن نشاطه في الشرق الجزائري ؟ ومهما كان الأمر فإن إبراهيم أخذ يراسل من يعرفهم في الإقليم الشرقي ، سيما أهل عنابة واعداً إيّاهم بالنزول عندهم وتَوَلّي حكم قسنطينة ، وتوجه بنفسه إلى هناك وخاض معارك ضد الحاج محمد بن قانة ممثل الحاج أحمد في نواحي التلاغمة ، ولكنه انهزم ففر إلى بنزرت ، وعاد منها إلى عنابة رجلاً عادياً عندما سمع بالثورة ضد الفرنسيين ، ودخل القصبة ، وجند الأتراك الباقين واستجلب منهم من الشرق ، وجاءته معونة من تونس ، سلاحاً وذخيرة وجنداً ، ووعده ابنه اسماعيل المقيم عندئذ في المدية بتجنيد أتراك الجزائر معه : من تلمسان ومستغانم والمدية الخ . ولعل ابراهيم كان أيضاً على صلة مع الفرنسيين ، وكان على استعداد للاعتراف بهم إذا اعترفوا به بايا على قسنطينة وأمدوه باللازم ، ولكنه كان يرفض التحالف المباشر معهم . ولا ندري ما مراسلاته ومواقفه مع الباب العالي .

ويظهر أن ابراهيم الكريتلي كان مؤمناً بحقه في الرجوع إلى حكم قسنطينة مهما كانت الأحوال ، وكان مستعداً للتعاون مع أية جهة من أجل ذلك ، ولو كانت فرنسا أو تونس . وها نحن نراه قد وقف نفس الموقف أيضاً مع القوى الشعبية ، فهو تارة يعزل نفسه في القصبة ويحتمي بالأتراك هناك ضد الحضر وضد الفرنسيين معاً ، وتارة نجده يحتمي برجال الدين ، أمثال ابن بغريش ، وينتصر بالفلاحين الذين كان يقودهم بلقاسم بن يعقوب ، كما تحالف مع فرحات بن سعيد للإطاحة بالحاج أحمد[60] . وهكذا نرى ابراهيم قد أعماه الحقد على الحاج أحمد عن رؤية المستقبل ومعرفة العدو الحقيقي ، وجعله قصير النظر شخصي الحركة ، إذ لم يكن له هدف سوى الإطاحة بالحاج أحمد وتولي منصبه ولو كان ذلك سيجعله يخدم أهداف العدو المشترك . أما عن علاقته بالفرنسيين فهي غير واضحة . ويبدو أنه كان في قرارة نفسه ضدهم . ولكن من أجل هدفه كان يقبل التفاوض معهم على مضض ، وقد حاولوا من جهتهم أن يجعلوا منه قنطرة يمرون بها إلى قسنطينة فعاونوه بطريقة غير مباشرة ، ثم احتلوا مكانه (القصبة) ، واستعملوا رجاله ، وعندما ازوّر منهم انقلبوا عليه

(60) عنه أنظر بالإضافة إلى فيرو ، مجلة (روكاي) ، 1916 ، ص 161 ، وسيروكا (المجلة الافريقية) ، 1912 ـ ص 380 .

وجعلوا منه عدواً فأخذوا عائلته رهائن وسجنوا ابنه ، ولعلهم هم الذين اغتالوه سنة 1834 .

أنجبت المقاومة الشعبية حول مدينة عنابة ما أنجبته حول مدينة الجزائر تقريباً . فإذا كان في هذه قد ظهر الحاج السعدي وابن زعموم وبلقاسم اوقاسي فقد ظهر هنا أيضاً بلقاسم بن يعقوب وبلعربي . . وإذا كانت القبائل والأعراش التي واجهت الصدمات الأولى هي أوطان متيجة وفليسة وعمراوة وحجوط ويسر الخ ، فإن القبائل والأعراش التي تحملت الصدمات الأولى حول عنابة هي : أولاد عطية ، وصنهاجة ، والشرفة وزدير الخ . وما تزال هناك ناحية أخرى للمقارنة بين المدينتين في المقاومة الشعبية . لقد ارتكب كلوزيل مذبحة جامع البليدة ، وارتكب روفيقو مذبحة العوفية وأخذ الرهائن من القليعة عن طريق الغارات الغادرة ، وقتل من أعطى له عهد الأمان ، وارتكب دوزير واللقيط يوسف في عنابة ونواحيها نفس الجرائم ، فقتل اللقيط يوسف الأبرياء صبرا ، وأغار هو وسيده دوزير على خيام أولاد عطية وصنهاجة بين منتصف الليل والساعة الثالثة صباحاً ، ولعدة مرات ، واستعملا فيهم السيف والحرق ، وأخذ النساء والأطفال والماشية إلى عنابة . ويبرر أحد الفرنسيين ذلك الجرم بأنه « درس » ضروري[61] .

لقد اتبعت المقاومة الشعبية هنا نفس الطريقة التي اتبعتها هناك تقريباً ، وهي محاصرة العدو داخل أسوار المدينة ومقاطعته اقتصادياً لتجويعه وإجباره على المغادرة ومهاجمته وترويعه . وقد قام بهذا الدور في عنابة بلقاسم بن يعقوب ، شيخ قبيلة دريد ، والذي كان في هذه المهمة (المشيخة) منذ 1825 . ومنذ استولى الفرنسيون على قصبة المدينة من يد إبراهيم الكريتلي وأنصاره من الأتراك (1832) ، أخذ إبن يعقوب يطبق في السياسة المذكورة (وهي أيضاً نفس السياسة التي اتبعها محيي الدين والد الأمير عبد القادر حول وهران ، كما سنرى) . كما أنه كان يضرب كل من تحدثه نفسه بالقرب منهم أو التعامل معهم . ونتيجة هذه المقاطعة المحكمة والمناوشات المستمرة ، جاع الفرنسيون في عنابة حتى أكلوا القطط ، كما

---

(61) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، (1877) ، ص 246 ـ 247 .

فعل زملاؤهم في مدينة الجزائر ، وغلت البضائع وانتشرت الحمى بينهم . فأخذوا يطبقون أساليب اللصوص والمجرمين ، ويسمون ذلك « غزوات » ليلية . وكان اللقيط يوسف وبريقو يخرجان أحياناً لمطاردة ابن يعقوب وجيشه من الفلاحين فلا يظفران به ، وازدادا تأكداً من أنه يتمتع بقوة كبيرة داخل أتباعه وأنه قد يكون على صلة بالحاج أحمد . ولما عجزا عن الظفر به ، لجآ إلى الغارات الليلية على الآمنين.

يقول كتابهم ان دوزير الذي تولى شؤون عنابة منذ مايو 1832 ، عزم على إرهاب العرب بالقوة ، فأمر بريقو بالخروج في منتصف الليل على رأس فرقة من 500 فارس لمعاقبة أولاد عطية المناصرين لابن يعقوب . ثم لحق به هو (دوزير) على رأس ألف راجل . ووصلت قوات بريقو إلى نجع أولاد عطية عند الفجر وأحاطت به ، وعند إطلاق النار استيقظ بنو يعقوب أيضاً . ولم يأت الفرنسيون للحرب ولكن جاؤوا للسلب والنهب ، ولذلك أخذوا الماشية والحبوب وغيرها (التي يحتاجون إليها للغذاء) ، وأخذوا أيضاً النساء والأطفال والعجزة ، لأن الرجال كانوا جميعاً في أهبة السلاح ، كما أنهم لم يعثروا لابن يعقوب على أثر لأن عيونه أخبرته بتقدمهم . وقد طارد رجال أولاد عطية وبني يعقوب لصوص العدو بالرصاص بل واشتبكوا معهم بالسلاح الأبيض[62]. وقد تكررت هذه الغارات الليلية على أولاد عطية سنة 1833 ، وكذلك على أولاد مرداس وغيرهم.

وقد روّع ابن يعقوب الفرنسيين خلال السنوات الأولى لاحتلال عنابة . فهو يحاصرهم بقواته داخل المدينة . وإذا أرادوا الخروج إليه يصليهم نيران بنادقه ، وكان معسكره في سهل سيبوس ، وقد حاول الفرنسيون مفاجأته في معسكره ، ولكنه كان في كل مرة يفلت منهم ، لأن له مخبرين يطلعونه على تحركاتهم ، فلا يقع العدو إلاّ على الماشية والحبوب والنساء والأطفال . والظاهر أن بلقاسم بن يعقوب لم يكن يقود المقاومة الشعبية لحسابه ، وإنما كان يقودها في إطار عملية الجهاد ضد العدو ، ومن ثمة فإن كل من تقدم لمحاربة هذا العدو يسانده ، وها نحن نجده ينضم لقوات علي بن عيسى الذي جاء على رأس الحملة التي بعث بها الحاج أحمد ضد الفرنسيين في عنابة سنة 1834.

---

(62) نفس المصدر ، (1873) ، 256 ـ 258 .

ورغم اننا لا ندري كيف انتهت حياة بلقاسم بن يعقوب[63]، فإن شخصية أخرى قد حلت محله في إرهاب العدو، وهو بلعربي. انضم بلعربي أولاً إلى مجاهدي ابن يعقوب وحارب في صفوفه. ثم كون فرقة من المجاهدين تحت لوائه وأخذ يقوم بمحاربة العدو سواء في الميدان العسكري أو المدني. وتقول عنه أخبار الفرنسيين انه كان يكره المسيحيين (كذا !) ، وانه أثار الرعب في مدينة عنابة حتى لا يطمع الفرنسيون، ولا سيما المزارعون منهم، في الإقامة. وكان بلعربي شجاعاً وجريئاً، غادر عنابة عند نزول الفرنسيين بها، واحتمى بجبل اليدوغ، وهو يعرف ذلك جيداً، وكان رأسه يغلي « بالتعصب الديني » الذي نسميه نحن غيرة وطنية وحباً في الجهاد. وكانت طريقة بلعربي هي الغارة على أسوار المدينة والتراشق مع العدو وجعله محاصراً لا يقدر على الخروج. وعندما بدأ الفرنسيون في إقامة المزارع والإستيطان بها، كان بلعربي يغير عليها ويخربها، ويقتل من فيها ويخطف من يتعامل معهم، وكان أيضاً يهاجم المواقع الفرنسية ليلاً. وكانت صنهاجة مساندة له فخرج إليها اللقيط يوسف أثناء الليل وقتل من رجالها من تمكن منه، ونهب ماشيتها وحبوبها ونساءها وأطفالها. وتذهب المصادر الفرنسية إلى أن بلعربي قد استشهد في معركة بجبل اليدوغ في العاشر من اغسطس سنة 1836، وان مساعده قد قبض عليه وأحيل على مجلس حربي ![64]. ولكن المقاومة الشعبية حول عنابة لم تتوقف رغم دعم الفرنسيين لسلطاتهم هناك استعداداً لغزو قسنطينة.

وقد عانى حضر عنابة كما عانى حضر الجزائر من تسلط الفرنسيين. عانوا أولاً من الفوضى التي عرفتها المدينة نتيجة تقلب السلطات عليها، ومساندة الفرنسيين

---

(63) تثبت مراسلة بين الحاكم العام بالنيابة للجزائر إلى وزير الحربية ان ابن يعقوب كان ما يزال على رأس المقاومة خلال جوان (يونيو) 1836. فقد جاء فيها ان اللقيط يوسف « باي » خرج إليه في عمق الليل على رأس فرقة في الرابع من الشهر المذكور. ولكنها لم تعثر عليه لأن أخبار خروج العدو قد وصلته، فاستولت قوات العدو على الماشية الخ. أنظر (مراسلات كلوزيل) ، 759/1.

والظاهر ان دور ابن يعقوب في نواحي عنابة كأنّ يشبه دور ابن زعموم في نواحي العاصمة كلاهما كان يرغب في اتفاق مبرم مع الفرنسيين قبل السماح لهم بأي تقدم نحو الداخل. وكلاهما كان يعتبر نفسه هو سيد الناحية في غياب السلطة المركزية الإسلامية.

(64) فيرو، المرجع السابق (1887) ، ص 246 ـ 247. عن بلعربي أنظر أيضاً (مراسلات كلوزيل) ، 657/1.

لفريق دون آخر . فهم مرة أصدقاء العرب ضد الأتراك ومرة أصدقاء هؤلاء ضد العرب . وعانوا من محاصرة المدينة من قبل القوات الشعبية ، وكذلك من قبل جيش أحمد باي . فانقطعت عنهم المواد الغذائية أو كادت ، وكسدت تجارتهم ، وشاعت بينهم ، عن طريق اليهود ، المضاربات والرباءات . وانتشرت بينهم الأمراض التي جلب الفرنسيون بعضها ، خصوصاً الحمى . ولم تعد المدينة تحظى بالنظافة ولا بالماء ، وليس هناك أمن على الحريم والديار . وطالما وقع الاقتتال على القصبة بين عدة سلطات أبرزها : الفرنسيون وابراهيم الكريتلي والحاج أحمد . يضاف إلى ذلك الإهانات التي لحقت بالأملاك والمساجد وتعطيل المدارس ، وإذلال رجال الدين . لذلك كثرت في أعيان عنابة الهجرة إلى نواحي عديدة : قسنطينة ، تونس ، أو الخروج من المدينة إلى النواحي المجاورة انتظاراً لانجلاء الموقف . وقد علمنا أن علي بن عيسى قد أجبرهم (أي الحضر) على مغادرة المدينة بعد حملة 1834 .

وقد وجد الفرنسيون بعض ضعفاء النفوس الذين كانوا مستعدين للتعامل معهم بأي ثمن أو بثمن بخس . وعادة ما يكون هؤلاء الأشخاص من المنبوذين قبل الاحتلال ، أو المغامرين الذين لا تربطهم بالبلاد وأهلها سوى مصالح آنية وأغراض دنوية عاجلة . ومن هؤلاء المدعو مصطفى بن كريم الذي لا نعرف أن له أصلاً في عنابة . فقد أصبح هذا الشخص هو معتمد دوزير أثناء 1832 ـ 1836 ، وكان محل ثقته ، لماذا ؟ لا ندري الجواب بالضبط ، ولكن يبدو أن ابن كريم كان متصلاً بالفرنسيين منذ عهد امتيازاتهم بالناحية ، وهم يقولون عنه انه كان يعرف الفرنسية والإيطالية ، وانه كان على دراية بأمور الشركات الفرنسية التي كانت تتعامل هناك ، كما كان على علاقة مع التجار الأوروبيين قبل الاحتلال ، وهم يقرون بأنه ساعدهم كثيراً على معرفة البلاد وأعيانها واتجاهاتها وتحركات أهلها . ويمدحونه بأنه كان عيناً لدوزير على المسلمين في عنابة ، خصوصاً أولئك الذين كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع إلى العهد السابق (العثماني) ، كما يمدحونه بأن أفكاره كانت دقيقة وأحكامه صائبة ، وأنه ممن انضم إلى الفرنسيين منذ 1830 ، أي منذ غارة دامريمون على عنابة في عهد بورمون . وعندما رجع دامريمون مهزوماً مدحوراً إلى مدينة الجزائر حمل معه مصطفى بن كريم خوفاً عليه من عقاب الناس وعقاب الحاج أحمد ، ولكنه عاد مع الفرنسيين سنة 1832 ، أي مع دارماندي واللقيط يوسف .

ويمدحونه أيضاً بأنه كان مقتنعاً أنه بفعله ذلك انما كان يخدم قضية حضارية[65].

وهذه العلاقة بين دوزير ومصطفى بن كريم أدت إلى شبهات جعلت القضاء الفرنسي يتدخل . فقد جرى تحقيق ومحاكمة ، ومع ذلك خرج الإثنان ، كما يقولون ، دوزير ومصطفى ، بريئين . ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى الإستيلاء على أملاك المسلمين من قبل دوزير وتورط مصطفى في ذلك . إذ أن دوزير يقول انه استولى على الأملاك ليوزعها على الفرنسيين القادمين للإستيطان والإستعمار ، بينما كان المسلمون يتهمون مصطفى بأنه رجل مؤامرات ودراهم ، وان له يداً وفائدة فيما يفعل دوزير . وقد جر التحقيق معهما إلى توريط القاضي أيضاً . ولعل للقيط يوسف دخلاً في هذه الحادثة التي أدت في النهاية إلى عزل خصمه دوزير وإبعاده عن عنابة في مارس 1836 .

ذلك أن القيادة الفرنسية في عنابة كانت متباغضة إلى درجة متناهية ولا يوحدها إلا كره العرب والمسلمين وحب الغزو والسطو . ومن سوء حظ هذه القيادة اننا إلى الآن لا نجد فيها رجلاً رشيداً . فقد انتهت غارة داماريمون بالفشل ، كما عرفنا ، وقتل كل من هودير وبيقو أثناء 1831 عند محاولة الغارة على القصبة ، وقتل دارماندي الذي أرسله روفيقو ، 1832 لمحاولة التحالف مع أو القضاء على إبراهيم الكريتلي ، ولم ينج منهم حتى الآن سوى اللقيط يوسف الذي كان روفيقو يشك فيه حتى أنه بعث إلى عنابة سنة 1832 أحد اليهود ليتجسس عليه . وعندما وصل دوزير (من طولون) إلى عنابة وتولى هو القيادة كان أيضاً يبغض اللقيط يوسف أشد البغض[66]. ولعل مصطفى بن كريم كان أيضاً عيناً لدوزير على يوسف. ومهما كان الأمر فإن الخلاف بين دوزير واللقيط يوسف أدى إلى انسحاب الثاني من عنابة بأمر من الأول في يناير

---

(65) نفس المصدر ، 1873 ، ص 349 ـ 351 . أنظر أيضاً (مراسلات كلوزيل) ، 384/1 ، 531 . ومن الغريب ان كلوزيل في مراسلاته مع وزير الحربية دافع عن الأخلاق ، فقال ان مصطفى بن كريم شخص لا اخلاق له وانه جمع مالاً كثيراً في عنابة وليفورنيا ، وان دوزير مخدوع فيه الخ . وفي مراسلة اخرى.دافع كلوزيل عن المصلحة فقال للوزير انه ابقى مصطفى على نفوذه مع اللقيط يوسف ، حتى يحافظ على خدماته لصالح فرنسا .

(66) من الذين كانوا يبغضون اللقيط يوسف أيضاً بيليسييه دي رينو صاحب (الحوليات الجزائرية) ، وقد كتب ضده عبارات جارحة . أنظر أيضاً بول آزان (الاحتلال) .

1835 . غير أن مجيء كلوزيل من جديد على رأس السلطة الفرنسية في الجزائر جعل حظوظ اللقيط يوسف تبدو أكثر لمعاناً . فقد عينه كلوزيل « بايا » على قسنطينة خلفاً للحاج أحمد (كذا) الذي ما يزال في قاعدة حكمه قسنطينة . فرجع اللقيط يوسف إلى عنابة ، مقر حكمه الجديد ، رغم أنف دوزير الذي يبغضه . وإذا كان تعيين اللقيط يوسف بايا على قسنطينة يعتبر تمهيداً للحملة الأولى ضدها ، فإنه من وجهة نظر دوزير يعتبر إهانة شخصية له ، إذ كان عليه أن يجمع حقائبه ويرحل تاركاً مقر قيادته « للباي الجديد » ، وهكذا غادر دوزير عنابة في مارس 1836 غير مأسوف عليه من أحد ، حتى ان المحاكمة التي جرت لمصطفى بن كريم وصديقه القاضي ، اعتبرت في الحقيقة محاكمة له هو وإهانة بالغة في حقه[67] .

***

وهناك مدينة ساحلية أخرى كان احتلالها قد مرّ بوضع شبيه بوضع عنابة ، وهي بجاية ، وكانت محاولة احتلالها قد بدأت سنة 1833 ، غير أن ذلك لم يكن سهلاً . فقد حاولوا إنزال قطعة فرنسية بها ، فإذا بها تصلى بنار حامية من القلاع الثلاث التي تحيط بالمدينة . وبعد تبادل طويل للنيران استطاعوا إسكات نيران القلاع ولكنهم وجدوا أنفسهم في أتون من المقاومة العنيدة التي أبداها السكان تعززهم الفرق المنحدرة من الجبال المجاورة . وقد استبسل الأهالي دفاعاً عن المدينة ودام القتال أربعة أيام ، ودارت المعارك من بيت إلى بيت ، واستعصت المدينة على العدو فاستنجد بالجزائر ، فأنجدتهم وبذلك تمكنوا من إحتلال بجاية التي أصبحت شاغرة من سكانها وأصبحت خراباً ، حتى لقد قال عنها أحد الكتاب بعد إثني عشر عاماً ، انها ما تزال مخربة ، بل إزدادت خراباً[68] .

وقد استمرت المقاومة خارج بجاية ، في وضع شبيه بالمقاومة التي ظهرت في سهل متيجة وسهل السيبوس . فقد تراجع السكان إلى النواحي الآمنة ، وظلوا يحاصرون العدو في المدينة المخربة حتى أن قائد الحامية الفرنسي قرر الإنسحاب أمام الخوف والجوع . وفي صيف 1836 كان قائد الحامية هو سلمون Salamon

---

(67) كان مصطفى بن كريم يشغل وظيفة « قايد » عنابة في عهد دوزيـر . أنظر (مـراسلات ديـرلون) ، 156 .

(68) ج . جاك كنيدي Kennedy (الجزائر وتونس) ج 1 ، ص 262 .

ومعاونه دي موزيس . وأثناء استجواب هذا للشيخ أمزيان ، هجم المجاهدون على الفرنسيين فقتلوا الضابطين المذكورين وغيرهما وكادوا يستعيدون المدينة[69] .

6. احتلال قسنطينة ونهاية المقاومة الرسمية :

منذ 1830 تركزت عيون الغزاة على قسنطينة أيضاً ، ولكنهم عجزوا عن غزوها إلا بعد مرور سبع سنوات . وقد سلكوا لذلك عدة سبل ، منها الدبلوماسية ومنها العسكرية . فأما السبل الدبلوماسية فنذكر منها :

1 ـ التفاوض مع الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، لعله يقبل الإعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع الضريبة لفرنسا مع ابقائه على سلطاته السابقة . حاول ذلك بورمون وكلوزيل وروفيقو الخ . ولكن الباي رفض أي مساومة لا تمر بالباب العالي ولا يرضى عنها السلطان العثماني . وكأنه كان يعرف أن محاولات الفرنسيين معه إنما كانت لكسب الإقليم الشرقي دون حرب ، ثم الإنقضاض عليه في اللحظة المناسبة ، كما فعلوا مع الأمير سنة 1839 .

2 ـ التفاوض مع باي تونس على إعطائه (أو بيعه ، كما جاء في عريضة أهل الجزائر عندئذ) إقليم قسنطينة مع الإعتراف بسيادة فرنسا ودفع ضريبة سنوية لها . وقد صيغت معاهدة من أجل ذلك بين الباي المذكور وكلوزيل في ديسمبر 1830 كما عرفنا ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تصادق عليها .

3 ـ التفاوض مع خصوم الحاج أحمد ووعدهم بالمدد والهدايا . ومن هؤلاء إبراهيم الكريتلي في عنابة ، وفرحات بن سعيد في الصحراء (الزيبان) ، وعبد الرحمن ، سلطان تقرت ، الخ .

4 ـ محاولة عزل الشيوخ الأقل شأناً عن الحاج أحمد ، وجلبهم إلى الجانب الفرنسي أو تحييدهم ، كما فعل الفرنسيون مع شيخ الحنانشة (الحسناوي) ، وشيخ دريد (بلقاسم بن يعقوب) ، وشيخ أولاد مقران (محمد بن القندوز) وغيرهم ، والإستفادة أيضاً من المدنيين الساخطين على الحاج أحمد ، كما فعلوا مع محمد بن نعمون .

---

(69) أنظر (مراسلات دامريمون) ، ص 99 هامش .

5 ـ أخيراً معاهدة التافنة بين الأمير وممثل فرنسا (بوجو) ، وهي المعاهدة التي كانت النوايا الفرنسية تريد منها التفرغ لضرب الحاج واحتلال قسنطينة .

أما الجانب العسكري فقد تدرج فيه الفرنسيون من أجل التدخل في إقليم قسنطينة على النحو التالي :

1 ـ ضرب عنابة ضربات متتالية ابتداء من سنة 1830 والإستيلاء على قصبتها ثم المدينة نفسها ، والتوغل في الريف عن طريق الغارات والإشتباك مع الحملات التي كان يبعث بها الباي الحاج أحمد ضدهم .

2 ـ الإستيلاء على بجاية ، سنة 1833 والتوغل منها نحو الداخل والإتصال بالساخطين على الحاج أحمد لتحييدهم أو كسبهم ضده ، وإرهاب الباقين ، وقطع التعامل بينهم وبين قسنطينة .

3 ـ الإستيلاء على قالمة سنة 1837 .

4 ـ رد أي معونة عسكرية تأتي للحاج أحمد من الخارج ، سواء من السلطان العثماني أو من تونس أو باي طرابلس ، أي عزل الحاج أحمد عن المدد الخارجي والتجسس على مراسلاته مع الخارج .

5 ـ تنظيم الحملة الأولى ضد قسنطينة في نهاية خريف ، 1836 . وبعد فشلها تنظيم الحملة الثانية في خريف 1837 ونجاحها .

وقد أقام الفرنسيون كذلك شبكة اتصالات وجوسسة مع أعداء الحاج أحمد سواء في داخل قسنطينة أو في عنابة أو في تونس أو غيرها من الأماكن التي فيها قناصل فرنسيون مثل الاسكندرية وطرابلس واسطانبول ونابولي ، الخ . فكانوا يحاربون تجارته ويتعرفون على حصونه وقواته وذخيرته ، وعلى خطوط مواصلاته ومدى ولاء السكان وشيوخ القبائل التابعين له ، ويحاولون خلق حزب مضاد له داخل المدينة وخارجها ، عن طريق الرسائل والدعاية والهدايا والإرهاب . وهكذا لم تأت سنة 1837 حتى كانت قوة الحاج أحمد في الحقيقة قد اعتراها الضعف والوهن ، وأضرّت بها الفرقة والطمع وقصر النظر عند البعض ، واشتغال الباي نفسه بإطفاء حرائق بيته قبل الإشتغال بالتحضير ومواجهة العدو . كما أن الرجل قد حكم حوالي اثني عشر سنة . واستنفد كل طاقاته الإدارية والعسكرية ، وكاد يصبح سجين عاصمته لا يخرج منها إلاّ خائفاً يترقب ، فقد عزل نفسه قبل أن تعزله الحملة الفرنسية . كان بعيداً كل

البعد عما نسميه اليوم بالقاعدة الشعبية ، لا يختلط بها ولا يشاورها ولا يعين الرجال منها ، ولا يستثيرها بعاطفة جديدة كالجهاد والوطنية[70] . كان يكرر شعارات قديمة أكل عليها الدهر ، وهو أنه رعية من رعايا السلطان العثماني ، وهي دعوة كانت تنفع في القرن السادس عشر ، ولكنها لم تعد تجدي نفعاً سنة 1837 . لقد ملّ كثير من الناس ظلم الأتراك (العثمانيين) وجمودهم على حالة واحدة ، ونظرتهم الارستقراطية ـ الدكتاتورية ، وابتزازهم للمال دون تقديم بديله من علم وفكر وتقنيات ، رغم أنهم في قرارة قلوبهم يعرفون أنهم يشتركون معهم في الدين ، ولو لم يبق من هذا الدين المشترك إلا القشور .

وهكذا فإن الحاج أحمد في نظرنا قد سقط قبل 1837 ، أسقطه الجزائريون لا الفرنسيون ، وإنما دور الفرنسيين كان دور الغربان وبني آوى عند الجيفة التي شبعت من لحمها الأسود ، أسقطه الجزائريون لأنه لم يقدم لهم « بديلاً » عن النظام القديم . . . فها هي عاصمة الجزائر لم تعد كما كانت في عهد حسين باشا ، وها هي الناحية الغربية والوسطي أصبحت تحكمها معاهدة التافنة وظهر على مسرحها بطل جديد كل الجدة في شخصه وفي أفكاره وفي تنظيماته ، بطل ليس كأبطال الأمس الذين كانوا يغيرون على سفن القرصنة الأوروبية فيصبحون بعدها رياساً ودايات وباشوات ، أنه بطل كأبطال اليوم يرجع إلى الشعب ويحس بنبضاته ، ويتقمص آماله ، ويحتكم إلى القرآن والسنة وآثار السلف ، وينفتح على الحضارة والعلم والعقل ، ويستمد طموحه من الشرف والجهاد والوطنية . ولذلك شهدت سنة 1837 طلوع نجم وأفول نجم ، أحدهما يمثل المستقبل والثاني يمثل الماضي . ولقد صدق (فاليه) عندما حذر حكومته من الخطر الذي يمثله عبد القادر ولا يمثله الحاج أحمد عندما كتب من الجزائر إلى وزيره للحربية يقول له ان الباي ليس له سوى قوة غير دائمة ، وهو ليس باعثاً للقومية العربية ، كالأمير عبد القادر ، « وهي القومية التي ستقلب أوضاعنا ظهراً على عقب ، وتجعلنا نرى مؤسساتنا مهددة بهذه القوة الجديدة

---

(70) رغم بقاء احمد باي سبع سنوات في الحكم بعد الإحتلال فانه لم يؤسس مطبعة ولا جريدة في قسنطينة ، المدينة التي أراد أن يجعل منها عاصمة القطر كله . وكان قد لمس بنفسه الآثار الإيجابية للاعلام المكتوب ، أثناء حجته ، في مصر ، وها هم الفرنسيون قد أنشأوا إلى جانبه وسائل الإعلام المكتوب ، ومع ذلك لم يتحرك .

مستقبلاً ، بل وتجعلنا نعبر البحر من جديد عندما تتطور وتتقدم نحو الحضارة »[71] . وذلك ما تحقق فعلاً سنة 1962 ، فقد نمت فكرة الأمير القومية حتى أصبحت عملاقاً ضخماً ، واعتنقت مبادىء الحضارة ، وأجبرت الفرنسيين فعلاً على عبور البحر من جديد ! ولكن ما الفكرة الجديدة أو البديل الذي قدمه الحاج أحمد للأجيال الجزائرية التي ولدت وتعاقبت بعد سنة 1837 ؟

لقد كان الأولى بالحاج أحمد ، على الأقل بعد سقوطه ، أن ينضم تحت لواء الأمير ، أو يوصي من بقي له من أتباع بالإنضواء تحت لوائه ، إذا كان هو لا يستطيع ذلك ، ولكننا وجدناه قد أخذته العزة بالإثم ، فاستمر على ركوب رأسه في عدم الخضوع لإبن محيي الدين (كما كان يسمي هو الأمير) حتى سنة 1838 . فها هو يخبر وزيره السابق ، علي بن عيسى ، الذي عاونه على الدفاع عن قسنطينة ، يخبره أن الأمير قد وجه الرسائل إلى أعيان قسنطينة يطلب منهم الدخول في طاعته بعد احتلالها من الفرنسيين ، وأن إحدى هذه الرسائل قد وصلته هو (الحاج أحمد) شخصياً . ومما قاله لابن عيسى انه لن يخضع للأمير لأنه لن يستطيع ، في نظره ، أن يصبح « أميراً » بالفعل ولو وصل إلى السماء ، لماذا ؟ لأن عبد القادر في نظر الحاج أحمد ليس من سلالة تلد الأمراء ! وقد وعد صاحبه بأنه إذا نشبت الحرب (وهو يتكلم أثناء سنة الهدنة ـ معاهدة التافنة) فسيختار جانب الفرنسيين على جانب ابن محيي الدين[72] !

أما أخبار الحملتين الفرنسيتين على قسنطينة فهي مفصلة في الكتب المخصصة لذلك ، وهي أخبار لا تهمنا كثيراً هنا ، ولكن يهمنا منها ردود الفعل التي ترتبت على الحملتين ، ولا سيما الحملة الثانية . وقد أطال الفرنسيون في وصف « بطولاتهم » أثناء الحملة الثانية ، كما أطالوا في وصف « بطولاتهم » أثناء الحملة ضد مدينة

---

(71) أنظر (مراسلات فاليه) ، 297/1 من رسالة له إلى وزير الحربية بتاريخ 16 مارس 1838 . وكان فاليه يخاف من مخططات الأمير المستقبلية ويعمل على منع تحقيقها بكل الوسائل ، بما فيها إعلان الحرب ضده سنة 1839 .

(72) نفس المصدر ، 281/3 . والرسالة بدون تاريخ (أي رسالة الحاج احمد إلى ابن عيسى) ولكنها مضمنة في بريد حاكم قسنطينة (قالبوا) إلى فاليه ، المؤرخ في 26 ديسمبر 1838 . وبناء على هذا المصدر ، فان الأمير قد أرسل حوالي مائتي رسالة إلى اقليم قسنطينة .

الجزائر . ويبدو ان حملة الجزائر لم تكلفهم من الشرف والقتلى والجرحى والمال ما كلفتهم حملة قسنطينة سنة 1837 .

رأينا أن الفرنسيين كانوا يخططون لاحتلال قسنطينة منذ احتلال مدينة الجزائر ، ولكنهم استعملوا لذلك في البداية عدة وسائل ، منها الهجوم على المدن الساحلية للإقليم (عنابة ، بجاية الخ .) ، ومنها التعاون مع أعداء الحاج أحمد في الداخل ، كالرؤساء والشيوخ الساخطين أو الموتورين ، وفي الخارج كالتعاون مع باي تونس . ثم أخذوا يتقدمون نحو عاصمة الإقليم باحتلال مدن داخلية مثل قالمة (1837) . وكانت إمكاناتهم العسكرية والمالية لا تسمح لهم بمواجهة المقاومة الوطنية في الوسط وفي الغرب وفي الشرق في وقت واحد . كما ان الحكام الذين تداولوا على الجزائر منذ 1830 لم يكونوا في درجة واحدة من الطموح والمغامرة .

وعندما حل كلوزيل للمرة الثانية حاكماً عاماً على الجزائر (1835 ـ 1836) جاء وفي رأسه مشاريع كثيرة للاستعمار والغزو ، وفي أعصابه كثير من التشنجات والتوترات . كان يريد إسكات خصومه في بلاده بإحراز انتصار عسكري في الجزائر فهاجم الأمير في معسكر وتلمسان ، 1836 ، ولكن هجومه لم يخلف إلا الرعب والدمار والغرامات الثقيلة والغضب الدائم ضد جيشه ودولته . وما دام هو الذي خطط سنة 1830 « لبيع » قسنطينة لباي قسنطينة ، فلماذا لا يكون هو الآن نابليون الثاني الذي ينتصر على قسنطينة ويحمل إلى بلاده أسلاب النصر حتى يتوج بالأكاليل وتنصب له الأقواس ؟ حلم كلوزيل بذلك وهو ما يزال في تلمسان . وأخذ يمهد له فعين اللقيط يوسف « بايا » على قسنطينة وأعلن عزل الحاج أحمد ، وجعل عنابة هي مقر الباي الجديد المؤقت . كان ذلك منذ مارس 1836 . وتولى القيادة العسكرية في عنابة (دوفيرجي) خلفاً لدوزير الذي كان لا يتفاهم مع اللقيط يوسف . وضربت المدافع ودقت الطبول وأقيمت المراسيم لهذا الباي اللقيط في عنابة حتى يكون ذلك إعلاناً لبقايا السكان هناك ولعامة الفلاحين وزعمائهم المنتشرين في سهل سيبوس . وكاتبه أولئك الخصوم الموتورون من الحاج أحمد يعدونه (يوسف) بالعون إذا وعدهم بالدعم . واشرأبت الأعناق تريد أن تتأكد ماذا يحمل العهد الجديد[73] . فإذا

(73) أنظر فيرو ، المرجع السابق ، 1887 ، ص 248 . ويذكر هذا المصدر ان من بين الرؤساء الذين =

بـاللقيط يوسف يقيم انكشـارية جـديدة من مشـاة الأتـراك والفـرنسيين والفـرسـان (الصبايحية) المرتزقة من اللفيف الأجنبي ، يخرج بهم في حملات ليلية ونهارية مدمرة ومنتقمة ، فيعاقب بلا شرع ، وينهب بلا حدود ، ويغـزو بلا أخـلاق . فإذا الناس يعاملون معاملة العبيد بل أكثر ، وإذا بهم يقولون مع حمدان بن عثمان خوجة « اللهم ظلم الأتراك ولا عدل الفرنسيس ! » .

ذلك هو فاتحة عهد كلوزيل في التحضير للحملة الأولى ضد قسنـطينة . ثم أخذه الغرور وأعجبته قوته فجمع فلول جيشه في عنابة ، ثم سار به إلى محاصـرة قسنطينة آملاً في كسر عنقها ، فإذا هي شامخة الرأس ، مستعصية عليه . قال لجيشه المتعب بعد أيام من الحصار : أيها الجنود : إنكم اليوم ستدخلون قسنطينة ، وإنكم ستجدون أبوابها مفتوحة ! فإذا بالمدينة تسفه أحلامه وتكذب ظنونه وتواجهه بالأبواب المغلقة والمدافع المفتوحة ، وتجعله يرتعد من ضربات الرصاص ومن برد نـوفمبر القاسي ، وأمام الإصرار على المقاومة من أهل المدينة ، وأمام العديـد من القتلى والجرحى والمرضى في جيشه ، لم يسع كلوزيل إلا تنكيس الأعلام وإسكات النار وجمع الفلول والإنسحاب المخذول . ولكن الإنسحاب كان أدهى عليه وأمر ، فقد طارده الفرسان المقاومون بالبنادق الكاوية ونزلوا عليه من الخلف واليمين والشمال يعملون فيه قتلاً وأسراً ، حتى أنه لم يصل إلى معسكره في قالمة ثم عنابة إلّا بشق النفس . وكانت هذه الهزيمة النكراء هي قبلة الموت لكلوزيل . فقد صحا من سكره وجاء إلى قومه يدافع عن نفسه ويبرر سلوكه المشين أمامهم . فماذا قال ؟

لقد كثر القيل والقال عن أسباب الهزيمة الفرنسية أمام قسنطينة . فـأما نحن فنرى أن سببها الواضح هو المقاومة العنيدة والشجاعة الفائقة والتماسك القوي الذي أبداه المقاومون ، سواء كانوا داخل المدينة أو في أبراجها وحصونها ، أو في أريافها حيث مرّ جيش العدو . إن إيمان المقاومين الراسخ بأنهم كانوا يحاربـون من أجل قضية عادلة ، قضية الجهاد والوطنية ، هو الذي منحهم النصر على عدوهم . وليست

= كاتبوا اللقيط يوسف عندئذ يستعلمون عن سياسته : فرحات بن سعيد ، وعبد السـلام المقراني ، وشيخ ريغة (احمد بن الشريف) ، وشيخ الحنانشة (الحسناوي) الخ . ولكن هؤلاء جميعاً لم يركنوا إليه .

العبرة هنا بقائد معين . فالحاج أحمد لم يلعب أي دور فعّال في هذا الجهاد ، وسواء كان حاضراً أو غائباً فإن روح المقاومة كانت متأججة . ولا نعرف ان الحاج أحمد عندئذ قاد معركة بنفسه أو أطلق ضربة مدفع ، أو حتى خطب في الناس خطبة تحميس أو تشجيع . ومن ثمة فالمقاومة تبدو تلقائية منطلقة من رصيد أهل قسنطينة ، حضراً وريفيين ، في حب الحرية والجهاد والوطنية .

وأما الفرنسيون فقد تنابروا بالألقاب . قال أعداء كلوزيل انه لم يطلع الحكومة على كل تفاصيل الحملة واستعداداته . وانه لم يحضر لها التحضير الكافي أي أنها كانت مرتجلة ، وان هناك نقصاً في المؤونة وفي المدفعية ، وان اللقيط يوسف يتحمل معه النصيب الأوفى ، إذ استعمل الضرب والقتل الجماعي والغزوات الليلية ضد الجزائريين قبل الحملة فتخلوا عنه ساعة العسر وانفضوا من حوله . وان هناك تفاؤلاً أكثر من اللازم لدى رؤساء الجيش المتعب فغرروا به ووعدوه بأنهار اللبن والعسل وفتح أبواب المدينة . . . وقال كلوزيل مدافعاً عن أخطائه : ان سوء الأحوال الجوية هو السبب في هزيمته ، ولعله كان يستعيد أسطورة شارل الخامس (شارلكان) الذي ادعى أن العواصف هي التي هزمت أسطوله العرمرم أمام الجزائر سنة 1541 .

ومهما كان الأمر فإن الفرنسيين جميعاً لم يذكروا شيئاً عن المقاومة الوطنية . فقد كان الجزائريون ، في نظرهم ، متعصبين ، أعداء للحضارة والتقدم ، لماذا ؟ لأنهم لم يفتحوا أبواب مدينتهم لهم ولم يستقبلوهم بالأحضان . ومن نتائج هذه الحملة الفاشلة ان الجزائريين فرحوا بالنصر ، وعادت الآمال في طرد العدو من قالمة وعنابة وبجاية ، وضاعف الحاج أحمد من اتصالاته بالباب العالي ، وانتعشت حظوظ الحزب العثماني . حتى في مدينة الجزائر ، ولكن الاستعداد للعدو الذي قد يعاود هجومه كان ضعيفاً . وإذا كان النصر يولد النصر فإن الهزيمة أيضاً قد تولد النصر . فالنصر الذي حالف قسنطينة هذه المرة لم يجعلها تعمل على المحافظة عليه بكل القوة ، بينما عمل العدو على تحويل الهزيمة نصراً . فقد غير الفرنسيون القائد المخذول ، كلوزيل ، وعينوا بدله الجنرال دامريمون حاكماً للجزائر في 12 فبراير 1837 . وقررت الحكومة الفرنسية القيام بحملة جديدة تمسح بها العار ، وترسي بها قواعد الاستعمار ، خصوصاً وقد ظهر على مسرح السياسة الفرنسية زعماء يؤمنون

بذلك (أي الاستعمار) أشد الإيمان ، وعلى رأسهم تيير وقيزو[74] .

وفرت إذن الحكومة الفرنسية المال والرجال للحملة الجديدة على قسنطينة ، وغيرت القيادة ، ونظمت الاستراتيجية . وها نحن نراها ، بالنسبة للنقطة الأخيرة ، تدخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر لتنتهي بالتوقيع على معاهدة التافنة ، التي تحرر الجيش الفرنسي من حروبه في الغرب والوسط ، وتطلق يده في الشرق . وحول داميمون أنظاره إلى قسنطينة ، واختار شهر اكتوبر بدل شهر نوفمبر تاريخاً للغزو . وتحركت قواته من عنابة أيضاً في اتجاه قسنطينة في الموعد المحدد . ونصب مدافعه على المنصورة . وأخذ في القصف الذي دام أياماً . ولكن المدينة صمدت من جديد ، وأصابت قائد الحملة دامريمون ، الذي هو الحاكم العام نفسه ، بكرة مدفع فأردته قتيلاً ، وكاد شمل العدو يتشتت . وقد تولى القيادة بدله الجنرال فاليه[75] ، فواصل القصف إلى أن أحدثت المدافع ثغرات في الأسوار تسرب منها جنود العدو والتحموا مع المدافعين سلاحاً بسلاح وجسماً لجسم .

وبعد سكوت المدافع جاء دور المقاومة الشعبية في المنازل والشوارع . فكانت ملحمة دموية تشهد على عمق الإيمان بالحق وإصرار الباطل على الإمعان في الظلم . وقد روى لنا أحدهم شيئاً من ذلك، فقال ان أول ضربة مدفع للعدو أصابت حائط الجامع الكبير فسقط وأصاب العديد من الناس لأن العجزة كانوا محتمين به . وأثناء الضرب كانت الدور تتساقط فتغلق الطرق والممرات بالأنقاض ، وسقط الحاج محمد بن البجاوي ، قائد الدار ، شهيداً أثناء الدفاع عن المدينة ، واختفى الحاج أحمد ووزيره علي بن عيسى ومعهما ما يستطيعان حمله من متاع . وقد شاركت كل الفئات الإجتماعية في الدفاع عن المدينة ، فلم يبق شيخ ولا تاجر ولا جندي الخ . إلّا خاض الحرب ضد العدو ، حتى النسوة كن يشجعن المحاربين من فوق السطوح .

(74) عن أحداث قسنطينة والتحول في السياسة الفرنسية ، أنظر مقدمة (مراسلات كلوزيل) ، الجزء الأول .

(75) شارل سيلفان فاليه Valée ، ولد في برين ـ لوشاتو (فرنسا) في 17 ديسمبر 1773 . ترقي في الجيش وتولى فيه وظائف هامة . واشترك في حرب الراين وبروسيا وإسبانيا . وأحيل على الإيداع سنة 1830 ثم أعيد إلى نشاطه سنة 1834 ، وحصل على المارشالية بعد حملة قسنطينة ، في نوفمبر 1837 . ومات في 15 اغسطس سنة 1846 . أنظر (مراسلات فاليه) ، المقدمة ، الجزء الأول .

وأباح فاليه المدينة لجنوده كما فعل بورمون بمدينة الجزائر ، فكثر النهب والعيث والتخريب والاعتداء . وهرب بعض الناس عن طريق رمي أنفسهم في مهوى وادي الرمال السحيق فاندقت عظامهم وكان أنينهم يصل إلى الآذان فيقطع الأكباد . وأمام ذلك أرسل شيخ المدينة وشيخ الإسلام ، محمد بن الفكون ، إلى فاليه وفداً لتأمين حياة الناس[76].

لقد كشفت الحملة الثانية على قسنطينة اذن عن أمور :

أولها عناد المقاومة واستماتة الناس في الدفاع عن مدينتهم ورمزهم . ولم يبالوا بمدد السلطان ، ولا ببقاء الحاج أحمد أو انسحابه . فقد قاوموا العدو بحضور الباي وفي غيابه .

وثانيها ان مقاومة الحاج أحمد كانت معتمدة على لقبه وعلى بعض الحصون والأسوار والأحكام الإدارية وليس على القلوب والولاء والمبادىء ، ذلك أن خروجه من قسنطينة كان يعني نهايته ، ولو كان يقود مقاومة شعبية تعتمد على المواطنين لقادهم بعد سقوطه في الأرياف ولكون عاصمة جديدة أو حتى عاصمة متنقلة ، كما فعل الأمير ، بعد سقوط معسكر ، ولأصبح رمزاً لحركة جهاد شاملة لا تعرف مدينة ولا تؤمن بباي أو باشا أو سلطان ، ولكن بالدين والوطن والشرف .

وثالثها ان الفرنسيين اعتبروا أنفسهم الآن هم ورثة حكومة حسين باشا التي أطاحوا بها سنة 1830 إذ أصبحت في أيديهم سنة 1837 الجزائر ووهران وقسنطينة ، ما عدا المدية التي كانت ما تزال في يد الأمير . ومن حقهم أن يقولوا إن احتلالهم لقسنطينة قد مكنهم من أراض شاسعة ، ومدينة عريقة وغنية ، ومن ثروات بشرية وزراعية هائلة . ولنستمع إلى فاليه نفسه يقول عن ذلك : « إن سقوط قسنطينة له وقع كبير على العرب ، ذلك أنهم ظلوا إلى آخر لحظة يعتقدون أنها لن تسقط في أيدي الفرنسيين . إن مدينة قسنطينة لها مكانة كبيرة في هذه الناحية ، فهي مركز السوق والإدارة . ورغم أنها الآن (20 أكتوبر 1837) في أيدي المسيحيين ، فإن العرب لا يمكنهم قطع العلاقات معها ، ولا يمكن أن تتجه أنظارهم إلى جهة أخرى

---

(76) أنظر موريلي Morelet (صفحات من التاريخ) في مجلة (روكاي) ، 1936 ، المجلد 63 ، ص 285 ـ 305 ، بناء على معلومات من كتاب الف سنة 1840 بعنوان (حضر قسنطينة) .

غيرها . . . وسكان ناحية قسنطينة كثيرون »[77] الخ .

أما الأمر الرابع الذي انكشفت عنه الحملة على قسنطينة ، فهو استفادة الفرنسيين من الأخطاء التي ارتكبوها في مدينة الجزائر ، ولا ندري الآن هل ذلك راجع إلى طبيعة الأفراد (بورمون ، فاليه) أو يعود إلى الموعظة والدرس والممارسة . فإذا كانوا في الجزائر قد تصرفوا بعشوائية ، فرحلوا الأتراك بالقوة ، وقدموا الحضر ، ثم قربوا اليهود عن الحضر ، ثم ضربوا الحضر بعضهم ببعض ، وكونوا ثلاثة أحزاب متنازعة : حزباً حضرياً عربياً ، وحزباً حضرياً عثمانياً ، وحزباً فرنسياً ـ فإنهم في قسنطينة استعملوا تكتيكاً جديداً نوعاً ما ، وهو الإبقاء في المرحلة الأولى على تقاليد المدينة الإدارية والوظائف ونحوها . ونحن نقول ، في المرحلة الأولى ، لأن الفرنسيين لم يستمروا على ذلك ، إذ سنجدهم يتخذون ذلك فقط ذريعة لكسب الرؤساء والأعيان وتهدئة الأوضاع .

أول إجراء اتخذه فاليه هو تنصيب حمودة الفكون ، وهو ابن شيخ الإسلام محمد بن الفكون الذي تجاوز الثمانين سنة، شيخاً للبلاد، أو كما نقول اليوم رئيس البلدية وقائد المدينة. وها هو فاليه يروي لرئيس وزراء فرنسا في تقرير أرسله إليه لماذا وكيف فضل هذا الإجراء . « إن واجب الشيخ الفكون المسن يحتم عليه أن يظل في داره . وهو مرابط محترم جداً بين الناس ، وإن عائلته تمارس هذه المهمة (الدينية والإدارية) منذ 800 سنة[78] . وان تأثيره قوي وهادىء ، وقد لعب دوراً في تهدئة النفوس ؛ وله ابن ذو ملامح رفيعة . ومن عادة البلاد ان الإبن يخلف أباه ، وقد اعتقدت أنه من مصلحة فرنسا أن أكسب إلينا العرب وهذه العائلة ، ليكونوا واسطة لنا مفيدة في علاقاتنا مع الأهالي . ولذلك سميت الشيخ محمد (حمودة) بن الشيخ الفكون ، في وظيفة (قائد المدينة) . وقد استقبل أعيان المدينة هذه التسمية بفرح كبير . وهم الذين اجتمعوا وطلبوا من شيخ البلاد (يعني الفكون المسن) أن يرضى بتسمية ابنه في هذه الوظيفة ، وألحوا عليه أن لا يخالف مسلك أسلافه في ذلك . وقد

---

(77) أنظر (مراسلات فاليه) ، 12/1 من رسالة له إلى رئيس الوزراء موليه Molé .

(78) أنظر ما كتبناه نحن عن عائلة الفكون في كتابنا (شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 .

استلم القائد الجديد وظيفته بالأمس (أي 24 أكتوبر 1837) وعين المسؤولين الذين سيعملون معه فلاحظت أنهم جميعاً تقريباً من الذين كانوا يعارضون الباي (الحاج أحمد) ، وهذا ضمان من أن حمودة الفكون سيكون مفيداً لخدمة فرنسا »[79] . وقد أضاف فاليه بأنه كان يريد أيضاً الإبقاء على بعض الموظفين السابقين في حكـومة الباي ، ولكنه لاحظ أن عددهم قد تناقص إما بالوفاة أثناء الحصار ، وأما بالهروب .

ولكن ذلك كله كان مجرد تمنيات من فاليه . فنحن سنرى أنه برغم تعيين (قائد الدار) من عائلة الفكون ، وتعيين علي بن عيسى وابن الحملاوي وبوعزيز بن قانة ، الخ . في وظائف سامية ، فإن المكتب العربي (بيروعرب) الذي نصبه الفرنسيون هو الذي أصبح يحكم المدينة ، وان المقاومة الشعبية في الأرياف جعلت وظيفة ابن عيسى والحملاوي لا معنى لهـا ، وان حمودة الفكون نفسه قد اتهم بعدة اتهامات قبل أن تمر عليه سنة في وظيفته وأصبح مطالباً أمام التحقيق للتزوير المالي ونحوه ، وقد ختم ذلك كله بوجو عندما طرد حمودة الفكون هو وأخوه من الجزائر (انظر الفصل الموالي) .

فلندع الفرنسيين الآن في مخططاتهم بعد احتلال قسنطينة يبحثون عمن يخدم مصلحتهم ويضـربون هـذا بذاك ، ويقيمـون المكاتب العـربيـة لإرهـاب السكـان والتجسس على حركة الأسواق والمقاومة . ولنذكر أنهم كانوا مع ذلك مهتمين بتخليد الذكر وتذوق الفن ، وتسخير الريشة والازميل بالإضافة إلى المدفع والبندقية . وكما لحق الفنانون بحملة بورمون ليرسموا ويصوروا أساطير الشرق وعطور ألف ليلة وليلة، أرسلوا هذه المرة، الفنان هوراس فيرنيه بعد حملة قسنطينة ليبدع لوحة تعلق في متحف اللوفر أو قصر فرساي ، وتبرز للعالم كيف استولى جيش الملك لويس فيليب على مدينة الامبراطور الروماني قسطنطين ، وكيف رشقوا الراية المثلثة الألوان على ناصيـة عاصمة ماسينيصا وحصن الحاج أحمد ! وإذا كان الفنانون في المرة الأولى قد جاؤوا تلقائياً بدافع الفضول والرومانتيكية ، فإن الفنان الجديد (هوراس فيرنيه) قد جـاء مبعوثاً رسمياً ، تحمله أموال الدولة من الباب إلى الباب . وها هوالملك نفسه يكتب إلى فاليه بعد حوالي أسبوع من إنتهاء الحملة يعلمه بأنه هو الذي كلف هوراس فيرنيه

---

(79) (مراسلات فاليه) ، 1/22 ـ 23 . من رسالة ـ تقرير ـ بتاريخ 25 اكتوبر 1837 .

برسم « لوحة عظيمة عن الهجوم على قسنطينة لقصر فرساي » ، وأمره أن يوفر له الإمكانات والمعلومات حتى يكون عمله في مستوى الحدث والفن . وقد قام فيرنيه بما عهد إليه وأبدع لوحته ووضعت فعلاً في متحف قصر فرساي[80] .

إن أحلام الطامعين في تركة الحاج أحمد لم تتحقق طبعاً . فقد رأينا إبراهيم الكريتلي طريحاً على فراش الإغتيال في المدية ، وخابت آمال حسين باي تونس ، ولم يعد للسلطان محمود الثاني مسند يستند عليه في الجزائر ، وها هو فرحات بن سعيد تتبخر ظنونه بعد أن رفضت فرنسا تعيينه وأبقت بوعزيز بن قانه شيخاً للعرب في الزيبان ، وضاعت وساوس عبد الرحمان سلطان تقرت الذي حدثته نفسه سنة 1834 بطلب وظيفة باي قسنطينة من فوارول[81] . حتى الأمير عبد القادر الذي علق آمالاً في معاهدة التافنة على انضمام إقليم قسنطينة إليه ، رأى تقديراته وإحتمالاته ليس في محلها لأن فاليه سارع بعد حملة قسنطينة إليه ، وحكم بضرورة ضربه (الأمير) قبل استفحال أمره وطرده الفرنسيين من الجزائر . وكذلك كان الحال . ولكن حديثنا عما بعد 1837 يتعلق بفصل آخر .

7. المقاومة في الإقليم الغربي :

أ . قبل ظهور الأمير عبد القادر :

يبدو أن الحديث عن المقاومة في الإقليم الغربي تعني قبل كل شيء الحديث عن الحاج عبد القادر . وهل هذا صحيح ؟ إننا نعتقد أن المقاومة الشعبية كانت أوسع إنتشاراً وأكثر إستمرارية من حركة (الأمير) . فقد انطلقت منذ 1830 واستمرت إلى ما بعد 1847 . ولكن شخصية الحاج عبد القادر طغت على كل الأحداث عندئذ ، وأصبحت حركته رمزاً لهذه المقاومة ليس في الغرب فقط ولكن في طول الجزائر وعرضها ودون وقت محدود . ولذلك شعرنا بصعوبة تناول الموضوع هنا ولم نشعر

---

(80) (مراسلات فاليه) 44/1 ، أنظر أيضا عبريال ايسكير (ايكوغرافية الجزائر) ، الثاني . وقد عاش الفنان فيرنيه بين 1789 ، 1863 . ورسالة لويس فيليب إلى فاليه في السابع والعشرين من اكتوبر 1837 اي بعد حوالي اسبوع من انتهاء الحملة .

(81) أنظر رسالة (السلطان) عبد الرحمن إلى فوارول في (مراسلات فوارول) ، ص 427 ، ووعده إذا قبلت فرنسا بذلك أن يدفع لها ضريبة ويوفر عشرين ألف جندي ، دون الفرسان ، وأن يقيم بين عنابة وقسنطينة حصوناً ، وأن يدعم التجارة والحضارة ، الخ . الرسالة بتاريخ 1834/2/24 .

بنفس الصعوبة في تناوله بالنسبة للوسط والشرق .

ذلك ان سقوط الحكم المركزي قد ترك فراغاً كبيراً في الإقليم الغربي لم يحس به الإقليم الشرقي . فهذا الحاج أحمد قد عاد إلى مقر حكمه في قسنطينة واستبقى الإدارة والقيادة والشيوخ والتجارة ونحوها كما كانت ، بينما لم يكن الأمر كذلك مع الباي حسن في وهران . فهذا الباي لم يسيطر على الوضع في إقليمه كما سيطر الحاج أحمد في إقليمه ، ولم تكن له علاقات مع الحضر وأهل التصوف وغيرهم من ذوي النفوذ مثل التي كانت للحاج أحمد . بل إن إدارته لم تكن ، فيما يبدو ، بنفس قوة إدارة زميله في الشرق ، ولا شخصيته وأصوله تسمح له بأن يكون مثل الحاج أحمد .

وزاد تدخل الفرنسيين الأمور تعقيداً بالنسبة للباي حسن . وقد عرفنا أن هذا التدخل مر بمرحلتين الأولى في أغسطس 1830 وقد تلاها انسحابٌ بعد مقتل (اميدي) ولد بورمون وهزيمة الحامية الفرنسية في وهران ، رغم أن الفرنسيين يجعلون الإنسحاب ضرورة أملتها الأحداث التي جرت في فرنسا (سقوط نظام شارل العاشر الخ .) والمرحلة الثانية ، يناير 1831 ، وهي المرحلة التي استمرت فيها حامية العدو في احتلال المرسي الكبير وحصون مدينة وهران . وبين المرحلتين حاول الباي حسن أن يدعم سلطته باللجوء إلى الشعب فاستشار أعيان الإقليم ، ولكنهم لم يرضوا به حاكماً عليهم . وبدل أن يعيد تنظيم إقليمه ويجند الناس بإسم الجهاد ضد العدو المشترك ، كما كان يفعل « الأتراك » في الماضي ، فضل الإنسحاب من المسرح السياسي تاركاً الأمور في فوضى متناهية .

ولم يكن التقدم في السن (حوالي 80 سنة)هو السبب الوحيد في انسحاب الباي حسن . فقد كان يحس بأنه حاكم لا تربطه بالمحكومين أية رابطة ما عدا التسلط والإرهاب والفائدة المالية . وقد ظل في الحكم طيلة سنوات فلم يصلح الأوضاع المعاشية للناس ولم يجعل نفسه حاكماً محبوباً أو قريباً من المواطنين ، بل كان سجيناً بين أسوار المدينة يخاف الثورات والإغتيال . وبينما كان الحاج احمد له ارتباطات عائلية وأصول وطنية وممارسات يومية مع الناس في لغتهم ولباسهم وهمومهم ، كان الباي حسن مقطوعاً عن ذلك كله ، جاء اجنبياً وبقى اجنبياً وخرج اجنبياً ، فلم يحزن أحد على رحيله ، حتى الذين كانوا يستفيدون من حكمه . وكان الباي حسن أعرف

الناس بما كان يفكر فيه أعيان الإقليم ، فقد كان ظالماً ، فلماذا يناصرون ظالماً ؟ وكان يعتبر نفسه « تركياً » فلماذا لا يبحثون عن بديل له منهم ؟ يضاف إلى ذلك أنه خيرهم بين الوقوف معه أو تسليم نفسه للفرنسيين ، ولم يخيرهم بين الجهاد والإستسلام . ولو فعل لوجدهم ، كما كانوا في الماضي ، سباقين لدعوة الجهاد والدفاع عن الوطن ضد العدو الفرنسي . ولو كان ذكياً لقال لهم انتخبوا من بينكم من ترونه صالحاً للحكم بدلي ، لأنني عجزت وكبرت سني ووهنت قواي ، وها أنا أتنازل لمن تولونه عليكم . ولكن الباي حسن فضل أن يسلم مفاتيح المدينة إلى العدو بعد أن ضمن له هذا الخروج سالماً من وهران ثم من الجزائر إلى حيث يريد[82] . وكان له في حسين باشا خير مثل ، إذ لم نجده قد فعل ما فعل الحاج احمد أو حتى الباي بومزراق الذي تظاهر بقبول التعيين في منصبه القديم من يد الفرنسيين ثم حاربهم .

خرج الباي حسن إذن من اقليمه وتركه في حالة فوضى يواجه العدو بدون قيادة ولا إدارة ولا جيش[83] . وكان نظام الحكم القائم يجعل الناس متحللين من كل التزام إذا سقط النظام ، فلا ولاء لدستور ولا ضرائب لخزينة ولا طاعة لقائد . وهكذا شعرت المدن بالخطر من التعدي على الحرمات ، والنهب للإسواق والمنازل ، والخوف في الطرقات ، وشعرت القبائل المخزنية بتحللها من الإلتزام نحو السلطة ، ولكنها في نفس الوقت فقدت الحماية والدعم ، كما شعرت القبائل الرَّعِيَّة بحرية الحركة وارتفاع كابوس الضرائب عن كاهلها ، وإرتخاء قبضة الشيوخ عنها . وأحس المرابطون ورجال الطرق الصوفية بالمسؤولية الدينية في القيادة الروحية وجمع الشمل والوقوف ضد العدو تحت لواء الجهاد .

أما أهل المدن فقد فكروا في حل ديني وسياسي يضمن الأمن والاستقرار وذلك

---

(82) كان الاتفاق الذي جرى بين الباي حسن بن موسى والسلطات الإستعمارية شبيهاً بما جرى بينها وبين حسين باشا . بما في ذلك ضمان أمنه الشخصي وأملاكه وحريمه ، وكذلك أمن وحماية أملاك السكان واحترام دينهم ونسائهم . ولكن نص الاتفاق غير معروف لنا الآن .

(83) سبق أن ذكرنا ان ظهور الشيخ المعطي في المديّة سنة 1832 وادعاءه انه من الوداية بالمغرب ، قد فسره الفرنسيون على أنه كان بإيعاز من سلطان فاس . وعن اتصال أهل تلمسان بسلطان فاس ، أنظر رسالتهم غير الموقعة في كتاب (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى) ، لأحمد السلاوي الناصري ، 2/27 ـ 29 .

بالدخول في طاعة حاكم مسلم يمنحونه البيعة التي كانت في أعناقهم للباي حسن[84]. ومن يكون هذا الحاكم المسلم القادر على حمايتهم وتوفير الأمن والإستقرار غير سلطان فاس ؟ لقد فكروا في السلطان العثماني فإذا هو بعيد كل البعد ، عاجز كل العجز عن توفير ما يرغبون فيه ما دام قد عجز عن انقاذ مدينة الجزائر ، وإذا هو مشغول بحروبه في البلقان وفي غيره . وتوجه منهم وفد إلى سلطان فاس فأظهر لهم التردد والتماطل إما خوفاً من التورط في أمر لا يعرف عاقبته وولاء أصحابه . وإما خوفاً من نقمة الفرنسيين . ثم استجاب لهم وقبل بيعتهم وأرسل أحد أقاربه (المولى علي) ليكون خليفة عنه في تلمسان سنة 1831 . ولكن مدة هذا الخليفة لم تطل أكثر من حوالي أربعة أشهر ، ثم عاد بأمر من السلطان نفسه ، تحت نفس الإعتبارات المذكورة . ولكن المولى علي احتاط للأمر فترك محمد ابن نونة خليفة عنه في تلمسان . ثم أرسل السلطان ممثلاً آخر عنه هو ابن الحمري ، الذي ظل هو وابن نونة يتعاونان على إدارة مدينة تلمسان وإعطاء نوع من الهيبة السلطوية في الإقليم ، رغم ان يده لم تطل أكثر من المدينة المذكورة . ولكن الضغط الفرنسي جعل وجود ابن الحمري غير مرغوب فيه فانسحب وترك ابن نونة بدون قوة عسكرية . وانتهى بذلك ما يمكن أن نسميه بتدخل سلطان فاس في الإقليم الغربي .

وهناك تدخل آخر عرفه الإقليم ايضاً ولكنه تدخل كان قصير المدى وقليل التأثير ، وهو تدخل باي تونس . فقد عرفنا ان كلوزيل قرر التصرف في الاقليمين الشرقي والغربي ، وأرسل أحد مفاوضيه إلى سلطان فاس ، ليفاوضه على تخليه له عن اقليم وهران (الذي ما يزال عندئذ ـ ديسمبر 1830 ـ تحت الباي حسن) في مقابل ضريبة سنوية تقدر بمليون فرنك . ولكن الوثائق الفرنسية تقول ان المبعوث لم يصل الاّ إلى طنجة ولم يستطع الوصول إلى فاس . فعرض كلوزيل نفس العرض على باي تونس فقبله، وأرسل الباي من يأخذ في التمهيد لوصول حاكم الإقليم، وهو مصطفى أحد أقارب الباي . ولكن فرقة الباي التونسي التي وصلت إلى وهران تحت

(84) تذكر المصادر أن الباي حسنُ قد طلب حماية محيي الدين قبل استسلامه للفرنسيين ، فتدارست عائلة محيي الدين طلبه ، وكادت تقبله . ولكن الحاج عبد القادر اقترح العكس نظراً لمواقف الباي السابقة منه ومن أبيه ونظراً لتخاذله امام العدو مبكرا . وكان مع الباي ثمانمائة جندي تركي .

حماية الفرنسيين لم تلق حسن الإستقبال ووجدت صعوبة في الإتصال بالناس وتمهيد الحكم ، فتراجعت غير مأسوف عليها لأنها وان جاءت باسم الإسلام الآ أنها لم تأت مجاهدة وإنما في رعاية وحماية العدو . ولعلها لو كانت حرة وساعية في إخراج العدو لجلبت اليها قلوب الناس ولجعلت أهل المدن وغيرهم يدخلون في طاعة باي تونس .

وإذن فإنه لا تدخل تونس ولا تدخل فاس قد جلب الإستقرار والأمن للإقليم الغربي . وكانت الأيام تأتي كل يوم بجديد من الفوضى . فالسلطات العثمانية قد اختفت ، والسلطات الفرنسية لا تجرؤ على الخروج عن أسوار وهران . ولولا كبار المرابطين والقيادات التقليدية لا تسع الخرق على الراقع ، واعتدى الناس على بعضهم البعض . وإذا كانت السلطة تنبع من الحاجة فان الإقليم الغربي كان في أشد الحاجة إلى هذه السلطة سنة 1832 .

ولكن ماذا حدث ما بين 1830 ـ 1832 ؟ كانت المقاومة الشعبية التلقائية قد انطلقت ضد العدو حتى قبل استسلام الباي حسن . وقد عرفنا أن سكان مدينة وهران قد خرجوا جميعاً منها ولم يبق فيها الآ حوالي 400 نفر من العجزة والعميان ، وبقي كذلك اليهود والاوروبيون الذين كانوا فيها من قبل . تفرق الناس على اصدقائهم في المدن الأخرى او هاجروا او احتموا بالمناطق المجاورة للمدينة في إنتظار انجلاء الموقف ، تماماً كما حدث في معظم المدن الجزائرية الأخرى . وكانت غارات المقاومين مكثفة وتلقائية ، وكأنها كانت جزءاً من حياتهم اليومية ، فالجهاد فرض كفاية ، وها هو يصبح فرض عين . وخلال عدة شهور كانت المتطوعة تملأ السهول المجاورة جاءت لتؤدي واجبها المقدس . وظهرت خلال ذلك بطولات فردية نادرة ، ومناورات في الكر والفر مثالية . ولكن ذلك الحصار لم يكن فعالاً في اخراج العدو من المدينة . فالتموين كان يأتيه من البحر ، وقد وصله المدد فعلاً من الجزائر ومن فرنسا ، كما عرفنا . ولكن العدو كان يوطد بقاءه داخل المدينة ويربطها بالمرسي الكبير ويحسن من تحصيناته . وهكذا لم تؤثر فيه المقاومة تأثيراً إيجابياً اللهم الآ في جعله لا يمد نفوذه إلى الداخل[85] . وفي جعل الطامعين في التعاون التجاري معه

(85) على الدارس أن يقارن بين هذا الحصار للفرنسيين والحصار الذي ضربه الجزائريون ضد الأسبان قبل =

يفقدون الأمل في ذلك .

لقد كان قائد ذلك الحصار هو الحاج محيي الدين بن مصطفى ، شيخ الطريقة القادرية في نواحي معسكر . وهـا هو حصار وهران يقوم به أفواج المواطنين ولا يقوده الآغا مصطفى بن إسماعيل ذلك العجوز الذي ابيض رأسه في الغزوات والحروب ، ولا يقوده الموظفون الإداريون في حكومة البـاي حسن ، الذين حنكتهم التجـارب وعرفوا أسرار المدينة ، ولا يقوده أعيان الحضر من أمثال ابن نونة أو حمادي الصقال الذين امتلأت جيوبهم بالمال وبطونهم بالشحم ، ولا يقوده أيضاً أولئك « الأتراك » الطامعون في السلطة والإستبداد أمثال إبراهيم بوشناق ، ومصطفى المقلش ، ومحمد المرصالي ، ومصطفى بن عثمان ، وإنما قاده رجل خرج من زاوية القيطنـة ، يقرأ القرآن ويدعو إلى الجهاد ، حج البيت المعمور ، وزار ضريح الشيـخ عبد القـادر الجيلاني « مولى بغداد » . كان الحاج محيي الدين اذن هو قائد حملات الحصار الشعبية ، وهي الحملات التي لم نكن نعرف من فيها بالضبط ، ولكن بالتأكيد انها كانت تضم الفلاحين وفقراء المدن واخوان الزوايا وفرسان «القـوم»، الذين بعثت بهم القبائل العديدة[86] . ان هؤلاء هم العمود الفقري في المقاومة الشعبية الأولى ، وهم الذين سيجعل منهم المران والإنضباط الحديدي جنوداً أبطالاً يخوض بهم الحاج عبد القادر أكبر معاركه ضد أعدائه .

أما الحضر والأتراك فقد كانوا ينظرون في اتجاه آخر . . كان الأولون قد ميزوا أنفسهم على أنهم الحزب الاسلامي الداعي إلى بيعة سلطان فاس وحماية التجارة وضمان الأمن والاستقرار ، ثم ساندوا الحاج عبد القادر ، كما سنرى ضد الحزب الآخر . وهذا الحزب كان يمثل بقايا الأتراك المولودين خارج الجزائر أو الأتراك الذين ظلوا يعتبرون أنفسهم ليسوا كأبناء الجزائر ، ولـو كانـوا من مواليـدها . وهؤلاء لم يساندوا الحاج أحمد ، ولم يحاولوا نصب حكومة موالية للسلطان العثماني ، وانما جعلوا أنفسهم في خدمة الفرنسيين الذين استفادوا منهم بعض الوقت لضرب الحضر

= حوالي أربعين سنة أمام نفس المدينة . وهناك فرق واضح وهو ان الناس في المـرة الأولى كانت تساعدهم قوة نظامية ومدافع ، ولكنهم في هذه المرة تركوا لجهودهم الخاصة ووسائلهم البدائية في حصار مدينة محصنة بأحدث التحصينات .

(86) في بعض المصادر ان قوات محيي الدين عندئذ كانت حوالي اثني عشر ألف رجل .

وضرب المقاومة بقيادة الأمير ، ثم لفظوهم لفظ النواة ، بل انهم جمعوا منهم أشلاء وأرسلوا بها إلى آسيا الصغرى عندما قضوا منهم الوطر ونالوا المقصود.

وما دمنا نتحدث عن هذا الحزب الذي خدم العدو أكثر مما خدم قضية المقاومة ، فلنذكر أن الفرنسيين ، وهم محاصرون في وهران ، كانوا يسعون إلى إيجاد طابور خامس لهم. ويبحثون عن الطرق التي تحدث الفرقة بين فئات الشعب، وكانت التعليمات في ذلك تأتيهم رسمياً من الجزائر. ومن أول ما لاحظوه هو الخلاف في صفوف الحضر بين العرب والكراغلة ، وفي صفوف القبائل بين المخزنية والرعية ، وفي صفوف المرابطين بين القادرية والتجانية ، وأخيراً في صفوف الأرياف بين قيادات « الأجواد » وقيادات « المرابطين » أو الدنوية والروحية . فأخذوا يستغلون هذه الخلافات ويضخمونها حتى جعلوا منها عداوات أحياناً أصبحوا فيها هم المستفيدين بل هم القضاة فيها . وما دامت أول قيادة للمقاومة الشعبية قد ظهرت على يد مرابط (الحاج محيي الدين) فلماذا لا يكون أول المخالفين له ولابنه من بعده هو الآغا مصطفى بن اسماعيل ، من الأجواد، وإبراهيم بوشناق من الأتراك، والكراغلة من الحضر ، والتجانية من المرابطين ؟

ولعل عدم قبول الحاج محيي الدين صراحة بيعته كأمير بين 1830 ـ 1832 يرجع إلى خوفه من أن قبوله قد يكون سبباً في فشل المقاومة وإظهار الخلاف الذي تخفيه حركة الجهاد العام . فقد اقترح عليه نفس اللقب ثلاث مرات فكان يرفضه في كل مرة معتذراً تارة بتقدم السن وبكونه شيخ علم وتصوف لا رجل ادارة وحكم ، ومشيراً أحياناً ببيعة سلطان فاس وأحياناً ببيعة ابنه هو الحاج عبد القادر . وبحلول نوفمبر 1832 تاريخ البيعة الأولى للحاج عبد القادر ، يكون قد مضى على حركة الجهاد والمقاومة الشعبية في وهران حوالي سنتين ونصف . وكلها كانت بقيادة الحاج محيي الدين ، دون أن يظهر فيها « زعيماً » أو أميراً أو سلطاناً ، وانما كان داعية جهاد تطيعه الاخوان والفلاحون والجنود والفقراء . ولكن تلك المدة من المقاومة كانت مدرسة تكون فيها ابنه الحاج عبد القادر ، وانصهرت فيها وحدة الحركة والهدف ، وارتفعت فيها النفوس من الاهتمام بالنهب والاقتتال الذاتي والاعتداء إلى محاربة العدو المشترك والطموح إلى مثل أعلى وهو تطهير الدين وتحرير الوطن.

ب ـ بعد ظهور الأمير عبد القادر :

ان مقاومة الأمير تمثل عهداً بذاته في تاريخ الجزائر ، وتستحق كتاباً ، بل كتباً خاصة بها . وقد تناولها الكتاب فعلاً ، كل حسب دولته وميوله وعهوده ، واشترك في ذلك كتاب مختلف القوميات والأديان والمذاهب . ولا غرابة في ذلك فالرجل قد فرض نفسه على التاريخ ، وفرضه التاريخ على الناس فأصبح حديثهم ومحل اعجابهم وتقديرهم حتى الذين حاربوا ضده أو لم يفهموه أول مرة . ونحن في هذه المرحلة 1830 ـ 37 ، لا نستطيع أن ندخل في تفاصيل شخصيته ولا مخططاته ومعاركه ، وتنظيماته الإدارية والعسكرية[87] ؛ ولا إنجازاته وانتصاراته . ولكننا سنحاول أن نربط بين مقاومته والمقاومة في القطر كله ، وبين عهده والعهود التالية له ، وأن نذكر أبرز القضايا التي جعلت منه في نظرنا رجلاً فذاً في تاريخ الجزائر ، بل وتاريخ الشعوب المضطهدة ، ولا سيما الشعوب العربية والإسلامية.

تختلط في حياة الحاج عبد القادر الأولى (1808 ـ 1832) الاسطورة والحقيقة أو الخيال والتاريخ ، شأن عظماء الرجال في كل عصر . فالرجل شريف من آل هاشم ومن آل البيت ، أو المحتد العربي والنسب النبوي ، وهو من طريقة صوفية ذاع صيتها في المغارب والمشارق منذ قرون ، طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني ، التي تكاد تستقي منها كل الطرق الصوفية الأخرى . وهو حاج البيت المعمور ، وزائر قبر الشيخ المذكور ، وهو المأمور من صحراء الشام بالعودة إلى وطنه لأن أمراً خطيراً كان ينتظره هناك حسب كرامة الأولياء ، وهو المتعبد في مسجد القيطنة والعاكف في مكتبة الوالد : يذكر اللّه ويتأمل في خلقه ويقرأ كتابه ، ويحفظ أشعار وآثار الأقدمين ، وهو الواقف على ما كان في الشرق من تخلف وتحول ، وما كان في الغرب من تقدم وتسلط. وها هو هذا التقدم والتسلط يقرعان أبواب وطنه فينهض لمجابهتهما إلى جانب والده وشعبه الذي هبّ للدفاع والمقاومة . لقد كان الحاج عبد القادر شاباً كآلاف الشباب الذين لبسوا خوذة الجهاد وتمنطقوا بأحزمة الوطنية وراحوا يغيرون على أسوار وهران المعتدى عليها . ولكن عبد القادر الذي لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين

---

(87) سبق لنا أن ترجمنا كتاب شارل هنري تشرشل : (عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر) إلى العربية ، وقدمنا له بمقدمة بعد دراسة وجهد . أنظر ذلك في العنوان الذي أعطيناه للترجمة وهو (حياة الأمير عبد القادر) ، ط . 2 ، الجزائر 1982 .

ربيعاً سنة 1830 ، قد تميز عن بقية الشبان بالشجاعة الفائقة والفروسية الرائعة والإقدام المثالي[88] . وهكذا أثبت لأبيه ولشعبه ولأنداده انه جدير بالثقة وحقيق بالقيادة وضمين بالنصر ، فبايعوه ، سنة 1832 ، باقتراح من أبيه ، وباركه الأولياء والأشراف والصالحون ، وتجمهر الفقراء والفلاحون والجنود في سهل اغريس يؤمنون على البيعة ويدخلون في حزب الجهاد تحت راية أمير المؤمنين الجديد . وقد دخل الأمير مدينة معسكر وجعلها هي العاصمة لإنطلاق المقاومة وانبعاث الدولة الجديدة . وجلس الأمير يضع خطط المستقبل ، فعين كتّابه ووزراءه وقواده وولاته . ولم يراع فيهم إلّا الكفاءة والإيمان وتحرير البلاد، لذلك جلب أناساً كانوا يعملون في الإدارة العثمانية المنهارة ، وأناساً كانوا من الأجواد والمحاربين ، وأناساً من رجال العلم والتصوف . ولكي يسكت الأصوات التي قد تنتقد ، اعتمد على الشريعة الإسلامية في أحكامه وجعل دستوره هو القرآن ، مستعيناً بسيرة السلف الصالح ، ولكن ذلك لم يمنعه من سن ضرائب جديدة بإسم « المعونة » بعد إستشارة العلماء ، كما انه كان يعرف انه حاكم جديد ، وان بعض أهل المدن ورجال الدين قد بايعوا سلطان فاس فأراد أن يحافظ على ثقتهم وأن يكسبهم إلى صفه فأرسل إلى السلطان المذكور بأنه انما يحكم باسمه.

ولكن ذلك كله كان مجرد « اجراءات » في نظر عبد القادر ، فالمهم ليس الهياكل وإصدار القوانين ، بل الحركة والعمل وتثبيت الحق في الميدان . فالوطن محتل ، والعدو يحاول التقدم والاستيطان ، والفوضى متفشية ، والناس لا يكادون يعترفون بسلطة حتى سلطة الدين والأخلاق . ولا بد من وضع حد لكل ذلك ، بإجراء العدل ، وجبي الضرائب الشرعية ، وحماية التجارة ، وفرض الإحترام للسلطة والجار والمرأة والأخلاق العامة ، ولا بد من محاربة العدو وعدم تركه يفرق بين القبائل ويتوسع على حسابهم ، ولا بد من القضاء على الخونة الذين يتعاملون مع العدو في التجارة أو في الإنضمام إلى صفوفه.

وهكذا ، فلم تمض على عبد القادر سنتان في الحكم (1832 ـ 1834) حتى استولى على ثلاث مدن رئيسية هي تلمسان والمدية ومليانة . وحاول تحرير

---

(88) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) الجزء الأول ، ط . 3 ، 1990 ، مقالة تمثل انطباعنا عن مؤهلات الأمير التي لا يأخذها الباحثون دائماً في الأعتبار .

وهران ومستغانم وأرزيو وشدد عليها الحصار ، ولكن العدو جاء بالمدد وحصن نفسه واستعان بضعفاء النفوس أمثال ابراهيم بوشناق ومصطفى بن إسماعيل وأحمد بن الطاهر ومحمد الغماري . وختم هذا العهد بمعاهدة مع العدو ، تعرف بمعاهدة ديميشال[89] ، وهو الجنرال الفرنسي الذي كان يمثل بلاده ، ويحارب الأمير في الإقليم الغربي . وقد اعترفت المعاهدة بسلطة الأمير على المدن المذكورة ،وبقيادته كقوة وحيدة في المنطقة . بالإضافة إلى حصوله على حق التمثيل الدبلوماسي وحرية التجارة وشراء السلاح وافتداء الأسرى وغير ذلك . واغتنم الأمير فرصة السلام فأعاد تنظيم دولته بالإعتماد أكثر على العنصر الكفء ولا سيما رجال العلم والدين ، واستجلب من الأوروبيين من يدرب جيشه النظامي ، وأقام صناعات حربية ، وراسل الدول الأجنبية مثل بريطانيا واسبانيا عارضاً عليها مقترحات للتعاون ضد فرنسا . وحصن تجارته بالخصوص مع المغرب وطنجة وجبل طارق وسبتة ، وأعاد إلى جناحيه القبائل النافرة أو الواقعة تحت طائلة العدو.

* * *

وبذلك بدأ عهده الثاني (1834 ـ 1837) بانطلاقة جديدة ظهر فيها الأمير بتجارب ابن الستين لا ابن السادسة والعشرين . فها هو يصل بنفسه إلى مليانة والمدية وبرج حمزة وبلاد القبائل الكبرى ، وها هو يعين القضاة والقواد والخلفاء الجدد ، وها هو يضم مدناً جديدة إلى دولته مثل شرشال ، وتتحرك البليدة والعاصمة وقسنطينة لنجاحاته ، وتهرع إليه أفواج المؤيدين من هذه المدن التي طالما انتظرت الفرج ، وعانت من استبداد العدو ، فالتحق به الحاج محيي الدين بن مبارك (آغا العرب) السابق ، ومحمد بن عيسى البركاني قائد شرشال السابق ، والحاج علي السعدي مثور متيجة السابق ، كما توجه إليه قدور بن رويلة وأحمد بوضربة ، وعلي بن الحفاف من أعيان العاصمة . وجاءته الوفود تبايع وتناصر . وطمع في نصرته القائمون على الحاج أحمد أمثال فرحات بن سعيد وأحمد بومزراق الخ. وأشاد به الأدباء

(89) وقعت في فبراير 1834 . والجنرال ديميشال حل محل الجنرال بواييه الذي اتهم بالإستقلالية عن الحاكم العام روفيقو ، والذي قيل انه كان غليظ اليد ، فكان يحكم بالإعدام جماعياً ، ويعلم الجزائريين دروس الإحترام بالقوة للقوة ، حتى قال عنه أحد كتاب الفرنسيين انه تعلم تلك القسوة أثناء حملتهم على مصر، تماماً كما لو قالوا عن القنصل (دوفال) المشهور بأنه تعلم الغش في الشرق!

والشعراء من قسنطينة وغيرها (مثل محمد الشاذلي القسنطيني) ، وتبنى قضيته حمدان خوجة بعد رحيله إلى اسطانبول ، وهكذا.

ان الأمير عندئذ لم يعد قائد المقاومة الوطنية في الغرب والوسط فقط ، ولكنه أصبح عند جماهر الشعب وعند مثقفي المدن علماً على دولة جديدة طالما حلم بها الجزائريون ، دولة منهم وإليهم ، دولة تتخذ من الجهاد والوطنية وسيلة ومن الاستقلال والحرية غاية . يضاف إلى ذلك ان الأمير قد فرض نفسه في العهد الثاني كما فرض نفسه في العهد الأول . فقد هزم خصومه وأعداءه على السواء . هزم الحاج موسى الدرقاوي الذي أبى أن يدخل في النظام الجديد ، وعزم على قيادة حركة جهاد عشوائية لا تحقق نصراً ولا تحمي مجاهداً . وحارب الجنرال الفرنسي الجديد في وهران ، تريزيل ، خليفة ديميشال ، الذي يسميه أهل ذلك الوقت (الجنرال الأعور) لأنه كما قيل ، فقد إحدى عينيه في معركة واترلو . جاء تريزيل مبعوثاً من كلوزيل الحاكم الجديد . وهو كرئيسه ، جاء إلى وهران متبجحاً ومتعجرفاً يؤمن بإعطاء دروس القوة وفرض السلطة ويعتقد أن معاهدة 1834 قد منحت للأمير أكثر من حقه . فهاجم (تريزيل) الأمير في المقطع فإذا به ينهزم هناك شر هزيمة فعاد إلى وهران مجللاً بالخيبة وترك وراءه أشلاء القتلى والجرحى والأسرى . ولكن انتصار المقطع (1834) قد زاد الأمير صيتاً إلى صيته ، وأسكت به عدداً من أصوات الغيورين منه والمنافسين له ، وقد وصل صدى انتصاره إلى جميع المدن الجزائرية بالإضافة إلى فاس وتونس وباريس واسطانبول .

ورأى تريزيل أن يشجع أعداء الأمير بعقد اتفاق مع (مخزن) مصطفى بن اسماعيل ، أو الدوائر والزمالة ، وهو الاتفاق المعروف باسم اتفاق الكرمة[90] Le Figuier ، الذي يجعل هذا المخزن تحت حماية الفرنسيين . ويقال ان ذلك كان رداً من تريزيل على استيلاء الأمير على المدية . ومهما كان الأمر فإن هزيمة المقطع

---

(90) وقع في 16يونيو (جوان) ، 1835 . وهو الاتفاق الذي يجعل مخزن مصطفى بن إسماعيل (الدوائر والزمالة) وكذلك كراغلة تلمسان الذين اعتصموا بقلعة المشور ، حلفاء للفرنسيين ضد الأمير . وهو اتفاق مخالف في روحه ونصه لمعاهدة ديميشل 1834 . و(الكرمة) يسميها احمد بن سحنون . (مسولان = ام سولان)، وهي على بعد اربعة عشر كلم جنوب شرق وهران. وأنشأ فيها الفرنسيون قرية سموها (فالمي) . أنظر أيضاً (م . إ .) 1858 ، 227 هامش .

أدت إلى عزل تريزيل وتعويضه بلامورسيير ، كما ان سياسة ديرلون (الحاكم العام) التي فسرت بالضعف نحو الأمير ، أدت أيضاً إلى عزله وتعويضه بكلوزيل للمرة الثانية ، وهو نفس كلوزيل الذي فشل في سياسته الاستعمارية في عهده الأول (1830 ـ 1831) .

وقد أراد كلوزيل أن يغسل عار هزيمة المقطع ويظهر قوة الإستعمار التي فشل ديرلون في إظهارها ، فذهب إلى وهران واستعرض عضلات جيشه أمام المحاصرين من النساء والأطفال والعجزة وبعض اليهود والأوروبيين ، ثم اتجه إلى ميناء راشقون فاحتله وهو الميناء الذي كان منفذ الأمير التجاري والإتصالي مع العالم الخارجي ، خصوصاً المغرب وسبتة وطنجة وجبل طارق . ثم سار بفلول جيشه ولفيفه الأجنبي ومرتزقته ، بما فيهم مخزن مصطفى بن إسماعيل وأنصار إبراهيم بوشناق إلى عاصمة الأمير ، معسكر . فدخلها يوم السادس من ديسمبر 1835 . ولكن الأمير كان قد أخلاها قبل وصول العدو وأبعد عنها السكان والخزينة وكل ما يفيد العدو ، فإذا بكلوزيل أمام مدينة ميتة ، أمام موسكو جديدة ، فانتقم من الأمير ورجاله بإشعال النيران فيها حتى لقد علت ألسنة اللهيب عنان السماء ثم هدأت النيرات على أكوام من المباني وأنين من الحيوانات وعويل من الكلاب . وأدار كلوزيل وجهه حنقاً نحو تلمسان تطارده أشباح معسكر وفرسان الأمير وتلفحه نسمات الشتاء ، وها هو خليفة تلمسان محمد البوحميدي[91] ، يخرج منها أيضاً مع من تبعه من السكان الحضر حتى لا يقعوا في قبضة العدو . وها هو كلوزيل يدخلها يوم 15 يناير 1835 ، ويعين عليها مصطفى بن المقلش « بايا » تحت حمايته ، وقد كان مصطفى هذا من أبناء الباي المقلش الذي حكم الإقليم الغربي في بداية القرن وعاصر ثورة الطريقة الدرقاوية ضد سلطة والده[92] . وقد أصبح مصطفى بن إسماعيل هو قائد المشور وحاكم الكراغلة . واستبقى كلوزيل إبراهيم بوشناق « باياً » على مستغانم بعد أن

---

(91) كان البوحميدي من أهل الدين والعلم ، وكان قد درس مع الأمير في الزاوية . وبعد تعيينه خليفة له على تلمسان عين الأمير إلى جانبه مجموعة من الأغوات والشيوخ الخ .

(92) عن هذه الثورة أنظر مؤلفات أبي راس الناصر ، الذي خصها بكتاب سماه (درء الشقاوة في حروب درقاوة) ، أنظر كذلك مسلم بن عبد القادر ، (انيس الغريب والمسافر) تحقيق المرحوم رابح بونار ، 1974 . وقد ترجمه أيضاً أ . ديلبيش في المجلة الافريقية (1974) ، ص 38 ـ 58 .

اعتذر عن قبول تعيينه « باياً » على معسكر حتى لا يواجه الأمير ، وتردد الشيخ المزاري بين ولائه للجهاد والأمير وبين ولائه لخاله مصطفى بن إسماعيل المذكور[93].

كان حلم كلوزيل أن ينتصر في معركة الجزائر ليلملم بها سمعته المنهارة وسيرته العسكرية المتسخة (بعد أن كان حكم عليه بالإعدام عسكرياً وفر إلى أمريكا ، كما أوضحنا) ، ولكن الحظ لم يشرفه بذلك . فقد واجه الهزائم أينما حل ، في البليدة والمدية ومعسكر، وحتى تلمسان التي دخلها لم يدخلها منتصراً عسكرياً وإنما دخلها دخول الذئاب الجائعة ، ثم ختم حياته العسكرية بهزيمة قسنطينة كما عرفنا . ولكي يثبت جدارته بين مواطنيه فرض ضريبة حرب على سكان تلمسان الباقين ، تقدر بخمسمائة ألف فرنك ثم خفضها إلى مائة وخمسين ألفاً بعد احتجاج السكان على سوء المعاملة والفقر وعين أحد اليهود لجمع الضريبة من السكان . ان من لم ينصره سيفه في الميدان لا تنصره جرة قلم في مكتب . فقد نفر الباقون من أهل تلمسان من حكم هذا الجائر المتغطرس وتعاونوا على إسترداد حكم الأمير فور رحيل الطاغية الذي طبق في تلمسان أيضاً ما طبقه في العاصمة من الملاحقة البوليسية لكل العناصر المؤيدة للأمير أو المشتبه في ولائها للفرنسيين ، حتى أنه اتهم في تلمسان ثلاثة اخوة (يعرفون بالاخوة الخزناجي : وهم يعقوب وإسماعيل نسيب وأحمد نسيب) بنهب خزينة الجزائر وهروبهم إلى تلمسان مع الأتراك الهاربين من ظلم الفرنسيين في بداية الإحتلال . وكانت عاقبة هذه التهمة أن فرض عليهم غرامة تقدر بـ 28,679 ف[94] . وكان الأولى بكلوزيل أن يعاقب الناهبين فعلاً من قومه الذين بعثروا أموال خزينة الجزائر ولاذوا بالفرار ووجدوا الحماية بل والمشاركة حتى من الملك لويس فيليب نفسه[95] .

لم يكن احتلال تلمسان كاحتلال وهران أو عنابة أو قسنطينة أو بجاية أو معسكر . . . فقد دخل المحتلون هذه المدن وهي أنقاض أو شبه أنقاض . ولكن

---

(93) عن هذه الأحداث أنظر ايضاً كور ، (المجلة الافريقية) ، 1908 ، ص 52 ـ 71 .

(94) عن هذه القضية أنظر أ . لوكوك في (المجلة الافريقية) ، 1936 ، ص 658 . وكان احتلال تلمسان قد جرى في فبراير 1836 .

(95) أنظر كتاب عمار حمداني (الحقيقة عن الحملة الفرنسية) الذي أثبت تواطوء عدة جهات رسمية في تغطية نهب الخزينة الجزائرية ووقف اعمال لجنة التحقيق ، ومن اولئك الملك لويس فيليب .

احتلال تلمسان كان يشبه احتلال العاصمة والمدية . حافظ بعض سكانها على مصالحهم قائمة في وجه التسلط والغطرسة . بل إن المؤسسات الدينية في تلمسان لم يحدث لها ما حدث لمؤسسات العاصمة . غير أن العدو جعل السكان أحزاباً وشيعاً . فهذا حزب عربي - حضري يعترف بالأمير ويؤمن بالوطنية ، وهذا حزب عثماني - إسلامي يعترف بسلطة الباب العالي ولكنه لا يجد سبيلاً إلى إعلان ذلك فيلجأ إلى المراوغة والإنتظار . وهذا حزب قرر التعاون مع الفرنسيين ورأى مصالحه مع مصالحهم واختلط فيه بعض الأتراك القدماء[96] ، وبعض أنصارهم المخزنية . كما كانت تلمسان تعيش على التجارة وعلى الصناعات التقليدية ، وفيها أيضاً صناعة البارود للحرب ، وصناعة السروج والأسلحة ، والحرف الأخرى كالاسكافية والصباغة وهلم جرا . وكان سكانها عندئذ حوالي خمس عشرة ألف ساكن . وتذكر المصادر الفرنسية أن من هؤلاء حوالي ثلاثمائة عائلة يهودية . وبالإضافة إلى هذا المظهر المادي لتلمسان فقد كانت أيضاً تعتبر مدينة روحية لما فيها من الأولياء والصلحاء والمؤسسات الدينية كالمساجد والزوايا .

كانت سنة 1836 سنة هامة في تاريخ المقاومة الجزائرية . فمن جهة واجه فيها الأمير عدة مشاكل ضعضعت سلطته ، ومن جهة أخرى انتصر فيها الحاج أحمد على العدو ، وهكذا فإن الخسارة التي منيت بها المقاومة في الغرب قد عوضتها في الشرق . ذلك إن احتلال معسكر وتلمسان قد أضر بسمعة الأمير العسكرية بين مواطنيه ، لا سيما أهل القبائل المخزنية التي لم تخضع له إلا بالقوة وإلحاح دعوة الجهاد . فقد انفضّت عنه الجموع في معسكر بعد الرجوع إليها وهي خاوية ومحترقة

---

(95) من هؤلاء « باي » مستغانم إبراهيم بوشناق . كان أصله من بوسنيا (في يوغسلافيا اليوم) ، وبعضهم يقول انه من سالونيكة ، جاء إلى الجزائر أثناء العهد العثماني ، وعمل في الجيش البري (الإنكشارية) في اقليم وهران ، وكان في هذه المدينة عند احتلالها من قبل الفرنسيين ، يناير سنة 1831 ، وقد انضم اليهم واستولى باسمهم على مستغانم في نفس السنة (1831) وبقي على ذلك إلى 1833 . وعندما عرض عليه الفرنسيون أن يعينوه بايا على معسكر رفض لأن الأمير كان قد أصدر أوامره بقطع رأسه متى قبض عليه . وهو الذي كان وراء اتفاق الكرمة بين تريزيل وابن إسماعيل سنة 1835 ، وكانت الدوائر والزمالة تعمل تحت طاعته . وسمحت له فرنسا بإتخاذ علم خاص به ، ولكن بوايبه رفض منحه حق الحكم بإسم فرنسا . أنظر كور ، المرجع السابق ، ص 68 ، وكذلك (مذكرات شانغارنييه) ، هامش ص 15 .

وأساءت إلى شخصه ورفضت طاعته وأبت دفع الضريبة الشرعية إليه . كما أخذ حضر تلمسان يرجعون إلى مدينتهم بعد أن كانوا قد خرجوا مع الأمير والبوحميدي الولهاصي (خليفة الأمير عليها) وقائدها محمد بن نونة . رجعوا بعد أن استولى العدو على مدينتهم وتعين عليها ، كما ذكرنا ، مصطفى المقلش بلقب الباي تحت حماية الفرنسيين ، كما أصبح مصطفى بن إسماعيل هو قائد المشور ، خلفاً لمحمد البرصالي ، وكلاهما من حزب الفرنسيين .

يضاف إلى ذلك أن الأمير قد أصيب في معركة الزقاق بخسارة كبيرة في جيشه . وتضررت تجارته باحتلال ميناء رشقون ، وضربت الكوليرا فأصابت عدداً كبيراً من المقاتلين . وتحرك خصومه الذين أسكتتهم انتصاراته العسكرية والدبلوماسية السابقة ، فرفعوا رؤوسهم بالعداء له وأظهروا التعاون مع العدو ، وانحلّت عرى التحالفات القديمة ، ولم تجد محاولات الأمير فك الحصار عن نفسه بالكتابة إلى ملكة بريطانيا ولا رئيس أمريكا ولا ملك الفرنسيين . وهكذا بدت سنة 1836 سنة ملبدة بالغيوم بالنسبة للأمير . وقد قدر أن نقل عاصمته إلى مدينة داخلية بعيدة عن السواحل حيث تكمن قوة العدو ، قد يحميه من الخطر ويجعل خطوط مواصلات العدو صعبة . لذلك جعل من تاقدامت عاصمة جديدة له ، فأحياها وحصنها وحمل العائلات من معسكر وغيرها على الإقامة فيها ، ونشأت بها الأسواق والدكاكين والصناعات المحلية وحتى الحربية . وأصبحت تاقدامت هي معسكر الجديدة ، وهي عاصمة المقاومة الوطنية تشرئب إليها الأنظار وتنطلق منها هجومات الجهاد . وكان ذلك هو كل ما عوض به الأمير ما أصابه من نكسات خلال السنة المذكورة .

ولكن هزيمة الفرنسيين أمام قسنطينة (نوفمبر 1836) جعلت الأمير يقدر أن العدو قد يغير من أسلوبه . فقد كان على اطلاع بما تكتبه الجرائد وما يصرح به البرلمانيون وما تنقله الأخبار الدولية عن ردود الفعل حول هزيمة العدو في قسنطينة وسياسته نحو المقاومة الوطنية في الإقليمين الشرقي والغربي . وأول ما عرف أن الحكومة الفرنسية عازمة على حملة ثانية على قسنطينة تسكت بها النقد الداخلي (فرنسا) والسخرية الخارجية (أوروبا) ، وإن هذا المشروع قد يخفف الضغط عليه (الأمير) بعد أن كان كلوزيل قد حمل معظم قواته نحو الغرب . ومن تباشير ذلك عزل كلوزيل نفسه عن حكومة الجزائر وتعويضه بشخص آخر أكثر انضباطاً والتزاماً

بالتنسيق مع حكومته (اتهم كلوزيل بأنه قام بحملتي تلمسان وقسنطينة دون الرجوع لحكومته) ، وهذا الشخص الجديد هو (دامريمون) ذلك الضابط الـذي هزم في عنابة أول مرة (سنة 1830) والذي سيقتل أمام أسوار قسنطينة في الحملة الثـانية عليها . كما حل بوجو محل (بروسار) قـائداً للمستعمـرات الفرنسيـة في الناحيـة الغربية . وكان بوجو في هذه المرحلة يلبس ريش الحمام ويخفي أنياب الذئب ، ويتحدث عن السلام ويضمر الحرب . وقد صادف ذلك التغيير كله الأمير وهو في حالة تفكير وتأمل، يبحث عن المخرج مما هو فيه من عزلة ونفور أصحاب الأمس ومن تشتت الجهود، وكان ذلك المخرج هو تحقيق هدنة يسترد فيها أنفاسه ويستعيد أثناءها تنظيم دولته المتصدعة ، ويسترجع بها هيبته بين قومه ، ويفـرض الضرائب وينشط التجارة . وهكذا قام قناصله في أرزيو ووهران والجزائر بالتحضير لهذه الهدنة ، وكان الفرنسيون من جهتهم يبحثون عن الهدنـة أيضاً حتى يتفـرغوا للحملة الثـانية على قسنطينة، فالتقت الجهود على عقد معاهدة صلح بين الأمير وبيجو، وهي التي تعرف بمعاهدة التافنة (مايو 1837) .

إذا أخذت معاهدة التافنة من وجهة نظر الأمير فقد كانت انتصاراً له ، وإذا أخذت من وجهة نظر الحاج احمد فقد كانت خسارة كبرى . ذلك ان الأمير حقق بها السلام الذي كان يبحث عنه بشق النفس ، والإعتراف بسلطته وسيادته على معظم القـطر الجـزائري ضمنيـاً وعلى اقليمي وهران والتيـطري (بإستثنـاء المـدن السـاحليـة) صراحة . وقد جعلته المعاهدة هو القوة الوحيدة التي على العدو التعامل معها في الجزائر ، وفتحت لـه أبواب التعـامل القنصلي والتجـاري مع الفـرنسيين . وكانت مخططات الأمير تذهب إلى أنه هو الذي سيرث اقليم قسنطينـة بعد سقـوط الحاج احمـد ، لأن أهل الشـرق الجزائـري سيلجأون إليـه وحـده كسلطان عليهم وأميـر للمؤمنين ، فلا باي تونس ولا السلطان العثماني بقادر على أن يحل محله . وقد أخذ في مراسلة الأعيان في الإقليم الشرقي ، كما عرفنا ، طالباً منهم الدخول في طاعته . وسنعرف ردود الفعل على ذلك في فصل لاحق . وهكذا كانت معاهدة التافنة نقطة تحول حاسمة في المقاومة بالغرب الجزائري إذ كانت تعبيراً عن انطلاقة جديدة في المفهوم الوطني والخروج من الحيز الجغرافي الضيق الذي تميزت به أشكال المقاومة في المناطق الأخرى.

اما معاهدة التافنة في نظر الحاج احمد فقد كانت عملاً عدائياً ضده . ذلك أنها أطلقت يد جيش العدو في الشرق ، لكي « يثأر » لهزيمته السابقة . ولم يكن لدى الحاج احمد ايضاً من الوقت ما يستعيد خلاله تنظيم إقليمه ويفرض نفسه على النافرين منه ويستجلب السلاح والعدة لمواجهة العدو في المرة الثانية . فرغم انتصاره الظاهري سنة 1836 فإن سلطته على المدينة وعلى الإقليم قد أخذت تهتز . فالعدو قد استولى له أيضاً على عنابة وبجاية وقالمة ، وأخذ يتدخل في شؤون « رعايا » الحاج احمد فيكسب منهم أنصاراً له ضده ، وضيق الخناق على تجارته مع تونس ، ولم يعد له ميناء يتصل منه بالخارج ، ولم يستطع السلطان العثماني أن يمده بالمال أو بالرجال أو بالسلاح أو بقطعة من الاسطول ، كما وعده . فكان الحاج احمد يعاني تقريباً من العزلة والإهتزاز والمحاصرة والفقر في العدة والسلاح ما كان يعاني منه الأمير سنة 1836 . ولعل الميزة الوحيدة التي كانت لديه هي كونه محاصراً في مدينة مسورة ومحصنة وعازمة على الدفاع عن نفسها إلى آخر رمق . ولذلك فإن المقاومة التي لقيها الفرنسيون ، لا تعود في الحقيقة ، كما رأينا ، إلى شخصية أو تنظيم أو أفكار الحاج احمد ، بقدر ما ترجع إلى طبيعة الأرض والسكان والمدينة . وهكذا كانت سنة 1837 قد سجلت أفول نجم الحاج احمد وسطوع نجم الأمير ، او نهاية المقاومة الرسمية في الشرق واستمرار المقاومة الشعبية في القطر كله ، أو إذا شئت نهاية الحزب العثماني ـ الإسلامي ، وإنتصار الحزب العربي ـ الإسلامي ـ الوطني .

8. التيار العربي الإسلامي :

ان عملية « التتريك » التي لم تحدث ردود فعل في المشرق الاّ بعد الإنقلاب العثماني تقريباً ، قد ظهرت في الجزائر خلال الحكم العثماني ، وأحدثت ردود فعل مختلفة عبر ذلك الحكم من 1519 ـ 1830 ، تمثلت في الثورات أحياناً ، والمحافظة على الإستقلال في الداخل أحياناً ، والهجرة أحياناً ثالثة ، وهكذا . وإذا كانت عملية التتريك قد برزت حادة في المشرق العربي عشية الحرب العالمية الأولى ، فإنها في الجزائر قد ظهرت بحدة أيضاً ولكن في شكل « العثمنة » لا التتريك . فالحكام « عثمانيون » ، واللغة « عثمانية » والمذهب الديني حنفي « عثمانى » ، والنظم الإدارية « عثمانية » الخ . ورغم رابطة الدين فان سلوك

العثمانيين نحو الجزائريين جعلهم يشعرون بأنهم ليسوا من جنس واحد وان هناك العربي المحكوم (أو الرعية) والتركي ـ العثماني الحاكم (أو السيد) .

وكان هذا الشعور قد ازداد حدة مع فاتح القرن التاسع عشر ، ففي هذا العهد غزت فرنسا مصر وتركت حملتها آثارها على العقل الشرقي ، ووقعت حروب « البلقان » القومية (خصوصاً ثورتي اليونان والصرب) ، ودخلت الدولة العثمانية في طريق الإصلاح ، وشهدت الجزائر نفسها عدة ثورات وصفت بأنها ثورات الطرق الصوفية (الدرقاوية ، والتجانية . . .) ، وأخذت دعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية تنتشر في العالم الإسلامي . كما ان عدداً من الجزائريين قد حملتهم التجارة والمعاملات المالية إلى الإختلاط باوروبا وتعلم لغاتها والتعرف على تقاليدها وحضارتها . فهذا احمد بوضربة وحمدان خوجة ومصطفى بن كريم وغيرهم قد سافروا إلى اوروبا وتكلموا لغاتها وتعاملوا مع تجارها ، حتى أن الأول منهم قد تزوج من فرنسية وعاش في فرنسا أكثر من عشر سنوات . كل ذلك قبل مجيء الحملة العدوانية ضد الجزائر .

ولو لم يكن الفرنسيون يعرفون مدى شعور الجزائريين العدائي نحو « العثمانيين الأتراك » لما خاطبوهم في بيانهم المشهور بتلك اللهجة ولما وعدوهم بتلك الوعود ذلك ان البيان الفرنسي الموجه للجزائريين (الأعيان ، والعلماء ، والفقهاء ، والتجار . . .) قد ركز على نقطة الضعف في العلاقات بينهم وبين العثمانيين ، وهي التحكم والتعالي والإحتلال . وهكذا وعد الفرنسيون انهم سيحررون الجزائريين من ربقة النير التركي ، تماماً كما وعد الحلفاء العرب خلال الحرب العالمية الثانية بالتحرير وإقامة الدولة العربية . وفي كلتا الحالتين كذب الواعدون وخاب الموعودون . ولكن ترحيب بعض المثقفين الجزائريين ورجال الحضر بكلمة الفرنسيين يدل على عدائهم القوي للعثمانيين ـ الأتراك ، وعلى آمالهم في الحصول على الحرية والإستقلال منهم بمساعدة الفرنسيين .

فلا غرابة إذن أن ينشأ الحزب العربي أثناء الحملة وأن يكثر من الإتصالات والمشاورات وأن يفرح بطرد الإنكشارية وخروج حسين باشا . ولا غرابة أيضاً أن يرتمي بقايا الأتراك في الجزائر في أحضان الفرنسيين الذين جاؤوا لإخراجهم ، وان يضرب الفرنسيون العرب في الجزائر بالأتراك ، كما ضرب الإنكليز العرب باليهود في

المشرق . فقد أصبح في كل مدينة تقريباً (الجزائر ، تلمسان ، المدية ، قسنطينة الخ .) حزب عربي وحزب عثماني ، وشيئاً فشيئاً تحولا الى حزب وطني (يضم العرب والحضر والكراغلة) وحزب تركي ، وأصبح الأخير صديقاً لعدوه بالأمس (الفرنسيين) لأنه وجد عاطفة مضادة من العرب الذين طالما حرموهم وكبتوا طاقاتهم . ولكن هذا لا يعني ان الحزب العربي كان كله مضاداً للفرنسيين . فقد وجد فيه من كان معجباً بهم ومتعاملاً معهم ومع الحزب التركي ، كما تعاون مصطفى بن إسماعيل (العربي) مع إبراهيم بوشناق (التركي) ، وكلاهما في صف الفرنسيين ، أو حتى تعاون فرحات بن سعيد (العربي) مع إبراهيم الكريتلي (التركي) .

وان هناك علامات قوية لظهور تيار عربي - إسلامي في الجزائر بين 1830 - 1837 ، تيار كان أسبق بعدة عقود من ظهوره في المشرق على يد أنصار الجمعيات السرية العربية المضادة في أساسها لسياسة التتريك العثمانية : ولكن طغيان قادة الإحتلال والظلم الإستعماري الفرنسي حول ذلك التيار العربي - الإسلامي في الجزائر إلى قوة معادية بحدة للفرنسيين أكثر من الأتراك . بالعكس فان ظلم الفرنسيين قد أنسى الجزائريين مع مرور الزمن ظلم الأتراك ، بل ان الجيل الموالي للإحتلال قد عادت فيه العاطفة نحو العثمانيين على أساس الدين والروح الشرقية والتساوي أمام التحدي الغربي ، كما سنرى .

ومن أبرز المعبرين على ذلك التيار العربي - الإسلامي أعضاء لجنة بلدية الجزائر ، وبعض الطرق الصوفية والمقاومة الشعبية ولا سيما في الغرب (قيادة الأمير) . فلجنة البلدية المذكورة كانت تتكون من الحضر - العرب . وكان رئيسها هو احمد بوضربة الذي تزعم هذا التيار عندئذ (1830 - 1831) ، وهو جزائري من أصل أندلسي كان أهله في القديم يسكنون المدية . وقد آمن في بداية الأمر أن كلمة الفرنسيين في التحرير صادقة فارتبط بهم وخدمهم ، خصوصاً انه يعرف الفرنسية وزوجته منهم . وكل كتابات وأفكار بوضربة عندئذ تعبر عن عدائه الشديد للأتراك ، رغم أنها قد تجعله في نظرنا اليوم متقرباً جداً من الفرنسيين . وقد تبين فيما بعد أنه كان مخطئاً فيهم . ومهما كان الأمر فإن بوضربة قد استعمل نفوذه لدى الفرنسيين ومنصبه ليعين في بعض المراكز الحساسة أقاربه وأصدقاءه . ومن هؤلاء عمه مصطفى بوضربة الذي تعين على رأس أوقاف مكة والمدينة ، وحمدان أمين السكة المعروف

بوركايب الذي تولى منصب (آغا العرب) في متيجة . وبالإضافة الى بوضربة نجد التيار العربي ـ الإسلامي قد انعكس أيضاً في كتابات حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب (المرآة) ، رغم أن خوجة كان أكثر اعتدالاً في موقفه ، وكان أميل إلى الاتجاه العثماني ـ الإسلامي الذي يمثله الكراغلة (الحاج احمد مثلاً) أكثر مما كان يميل إلى الإتجاه العربي القح . وتدل كتاباته ومواقفه أيضاً على أنه كان يحبذ الحاج احمد (وهو صهره) على الأمير عبد القادر ، ولم يرجع إلى تأييد الأمير الاّ بعد هزيمة الحاج احمد سنة 1837 .

أما موقف الطرق الصوفية فقد كان واضحاً انه ضد الوجود العثماني ـ التركي . فهذه الطريقة الدرقاوية لها تاريخ دموي ضد الحكم العثماني ، وهذه الطريقة التجانية كذلك ، والموقف الجديد وقفته كل من القادرية والرحمانية . فالقادرية بقيادة الحاج محيي الدين وابنه عبد القادر عبّرت عن عدائها القوي ضد الأتراك ، سواء في الميدان الحربي أو الأيديولوجي والاستراتيجي . صحيح انها لم تدخل في حرب ضد الباي حسن في وهران ، ولكنها حاربت خلفاءه الذين ناصروا الفرنسيين أمثال ابراهيم بوشناق ومصطفى المقلش ومصطفى بن عثمان ، الخ . ثم انها خذلت الباي المذكور (الباي حسن) حين طلب حمايتها ، ورفضت التعاون مع الحزب العثماني سواء كان ممثلاً في الكراغلة أو في الحاج أحمد أو حتى مع السلطان العثماني ، وقد اختارت بدلاً من ذلك التعاون الأقرب مع سلطان فاس . وأما الرحمانية فلا نعرف ان لها موقفاً معادياً بوضوح في المرحلة التي ندرسها ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الحاج علي السعدي رحمانيا ، ونحن لا نملك دليلاً على ذلك . كما أننا لا نعرف الانتماء الصوفي لكل من الحاج محيي الدين بن مبارك (القليعة) ومحمد بن عيسى البركاني (شرشال) رغم أنهما من رجال الدين البارزين ، وكلاهما كان ضد العثمانيين وفي حزب الأمير عبد القادر.

وقد ترسخ التيار العربي ـ الاسلامي أيضاً من نواحي أخرى . فنحن نعرف أن كلا من الأمير والحاج أحمد قد حج وزار المشرق وتلقى معارف هناك والتقى بأهله وربط بهم علاقات . واذا كان رصيد الأمير من ذلك تجليات صوفية وكتباً وعلوماً واطلاعاً على تطور الأحداث ، فإن رصيد الحاج أحمد ، فيما يبدو ، كان معرفة أحوال الشرق في عهد السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا وما كان يتردد من

الاصلاحات والنهضة والمسألة الشرقية . ذلك ان (الأمير) ذهب إلى الحج كـابن مرابط وهذا (الحاج أحمد) ذهب إلى الحج كابن باي . وعاد كل منهما بما يناسب تكوينه وبيئته وحاجته . ولنلاحظ عابراً انه رغم تأثر كل منهما بأحوال الشرق العلمية فاننا لا نعرف انهما قد أسسا مطبعة أو صحيفة ، سيما الحاج أحمد الذي كان طيلة سبع سنوات في عاصمة محصنة ومستقرة وعلمية.

وعلى مستوى آخر هناك شخصيتان تأثرتا بأحوال الشرق وكان لهما تأثير على أحوال الجزائر خلال هذا العهد . الأول هو الحاج علي السعدي الذي قلنا انه كان من عائلة مرابطين عريقة تعود إلى القرن العاشر ، وانه قد حج ومكث مدة في الشرق قبل الاحتلال ، يتعلم ويتعرف ثم عاد إلى وطنه بعيد الاحتـلال ، وكان من أنشط الدعاة للجهاد ، ومن أشدهم ايماناً بالتيار العربي ـ الاسلامي ، ولم يتوان في تجنيد كل الطاقات ضد العدو سواء في العاصمة ، أو في متيجة أو عندما أصبح خليفة للأمير على نواحي سباو ويسر وعمراوة وحمزة الخ . فقد كان الحـاج السعدي شعلة من الغيرة على الوطن والدين من جهة ، ومتحدياً للفرنسيين والعثمانين الأتـراك معاً . ويدل على ذلك دخوله في حركة الأمير بدل الدخول في صفوف غيره .

أما الشخصية الثانية فهو الحاج موسى المعروف بالدرقاوي ، والذي قلنا انه جاء من مصر ودخل في الطريقة المدنيـة الشاذليـة بطرابلس ثم تجـول بالمغـرب الأقصى ، وأخيراً حل بالجزائر وظل يحـارب العدو الفـرنسي من 1832 إلى سنة 1849 أثناء ثورة الزعاطشة إذ سقط شهيداً إلى جانب بوزيان زعيم هذه الثـورة . ويبدو انه لم يكن للحاج موسى أية علاقة مع الحزب التركي ، لأنه درقاوي ولأننا لا نعرف عنه أنه دعا إلى عودة الحكم العثماني أثناء جهاده ، وما نريد أن نستخلصه من هذا ليس سرد الأحداث التي شارك فيها الحاج موسى ، ولكن أصوله الجغرافية والطرقية . فقد اختلط في جهاده التيار العربي والإسلامي ، رغم انه لم يتفاهم مع الأمير أو ينضم لحركته .

وما دمنا نتحدث عن التيار العربي ـ الإسلامي فإننا لا نعتقد أن تدخل سلطان المغرب وباي تونس كان له أثر على تشجيع هذا التيار . حقيقة أن تدخل المغرب كان بطلب من بعض الحضر ذوي العاطفة العربية ـ الإسلامية . فقد التفتوا إلى فاس بدل اسطانبول . واعتقدوا ان النصر يأتي من العرب لا من الأتراك . وكان محمد بن نونة

واسطة هذا الاتصال . وبقي هذا الاعتقاد قوياً حتى بعد تولي الأمير إمارة المؤمنين . فقد سبق أن ذكرنا انه أرسل إلى السلطان عبد الرحمن ابن هشام ما يعبر عن طاعته واحتمائه به بدل سلطان اسطانبول . فالرابطة العربية ـ الإسلامية واضحة في هذا المجال ، والربط بينها وبين حركة المقاومة للعدو أوضح من أن تعرف . وكلا الجانبين فيها (السلطان والأمير والحضر) متفقان على عدم الالتفات إلى الحزب التركي ولا إلى الباب العالي . أما تدخل باي تونس فقد كان تدخلاً سيء الحظ سواء في وهران أو في قسنطينة . فقد نظر إليه الجزائريون على انه عملية بيع وشراء بين الباي والعدو وليس طاعة أو ولاء عبروا هم عنه للباي ، حتى الحاج أحمد الذي كان أقرب في الميول والأهواء إلى باي تونس منه إلى الأمير ، رفض الصفقة وأبى التخلي عن اقليمه إلى هذا الدخيل . ولعل كون باي تونس يحكم بإسم السلطان العثماني هو السبب في رفض أصحاب التيار العربي ـ الإسلامي قبوله حاكماً عليهم ، ولو كان يمثل سلطة إسلامية .

بقي أن نقول كلمة عن الهجرة خلال هذه الفترة . لقد خرج الجزائريون أفواجاً من بلادهم بعد الحملة وما رافقها من ظلم وعدم احترام للمتلكات والمقدسات والأعراض . خرج بعضهم بما خف حمله وارتفع ثمنه يجولون الأرياف بحثاً عن مقام مؤقت ريثما ينجلي الموقف ، وتوجه آخرون إلى المدن التي ما تزال في يد المسلمين مثل قسنطينة وتلسمان ، وخرج آخرون ، منفيين أو مختارين ، إلى المغرب العربي (تونس ـ المغرب) أو إلى المشرق العربي . بل إن بعضهم توجه إلى فرنسا نفسها . وكان هؤلاء المتنقلون ، عادة هم أصحاب الثروة والجاه ، أو أصحاب العلم والدين . وقد خرج أكثر من ثلث سكان العاصمة منها في طوابير بعد وقوعها في قبضة العدو[97] . وقد عرفنا أن سكان وهران وعنابة وبجاية والمدية وتلمسان قد عرفوا نفس الشيء بعد احتلالها . ونحن هنا لا نتحدث عن الهجرة في حد ذاتها ، ولكن نتحدث عن التيار العربي ـ الإسلامي وراء ذلك . ان المهاجرين كانوا في معظمعم من الساخطين عى العثمانيين وعلى الفرنسيين معاً . وذهاب الكثير منهم إلى البلدان الإسلامية العربية دليل على قناعتهم بذلك المبدأ ، رغم ان بعضها ، مثل تونس

---

(97) أنظر وصف ذلك في عمار حمداني (الحقيقة . .) فصل الإستيلاء على مدينة الجزائر

ومصر ، كانت وما تزال في أيدي العثمانيين ، ولكن لغتها وتقاليدها عربية . فهذا مثلاً ابن العنابي قد توجه إلى مصر (1830) وتولى فيها الفتوى وأصبح من علمائها المشار إليهم . وهذا احمدان خوجة توجه إلى باريس ثم اسطانبول (1836) بعد أن يئس من عدل فرنسا وخاف على نفسه . وقد تولى الترجمة والتحرير في إحدى صحف العاصمة العثمانية ، ولكنه ظل أيضاً يعمل لقضية بلاده . وختم بوضربة حياته بالهجرة إلى المغرب الأقصى ، وهاجر محمد بن علي السنوسي (مؤسس الطريقة السنوسية) إلى المغرب ثم إلى الحجاز حيث تثقف واعتنق المبادىء الصوفية ثم جاء لينشرها ويحارب بها العدو من ليبيا.

إن التيار العربي ـ الإسلامي قد ظهر في الجزائر منذ الاحتلال . وظهر أولاً في شكل رد فعل ضد الحكم العثماني الذي « عثمن » نظامه ولغته وإدارته بحيث أشعر الجزائريين بالغربة والحرمان السياسي والكبت . وكان ذلك في مرحلة مبكرة بالنسبة للعاطفة القومية العربية التي لم تظهر في الوطن العربي إلاّ في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر كرد فعل لعملية « التتريك » والطورانية . وبعد أن اختفت آثار العثمانيين في الجزائر تقوى الاتجاه العربي ـ الإسلامي كرد فعل ضد « فرنسة » الجزائر ، وآمن أصحابه ، كما سنرى ، بالوحدة أو الجامعة الإسلامية التي تعتمد العاطفة العربية أساساً لها . وهكذا فإن التيار العربي ـ الإسلامي الذي ظهر مبكراً كان مضاداً للحكم العثماني المتترك والإستعمار الفرنسي المتغرب.

***

مراجع الفصل الثاني

ابن عبد القادر ، مسلم ـ أنيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، 1974 .
ابن العنابي ـ السعي المحمود في نظام الجنود (مخطوط) .
ابن محمد ، اسماعيل ـ مقالة عن أحمد باي في جريدة (الأخبار) ، رقم 1,546
احتلال الجزائر من خلال أوراق بورمون ، باريس ، 1929 .
أزان ، بول ـ الإحتلال والتهدئة ، 1931 .
الأنبيري ، أحمد ـ علاج السفينة في بحر قسنطينة (مخطوط) .
ايسكير ، غبريال ـ ايكونوغرافية الجزائر ، 1929 .
تاريخ عبد الحميد بك (مخطوط) .
تشرشل ، شارل هنري ـ حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة سعد الله ، والجزائر ط. 2 ، 1982 .
التميمي ، عبد الجليل ـ قسنطينة في عهد أحمد باي 1830 ـ 1837 ، تونس ، 1978 .
التميمي ، عبد الجليل (عن اتفاق كلوزيل ـ باي تونس) ـ المجلة التاريخية المغربية ، يناير 1980 .
الحاج أحمد ـ مذكرات ، ترجمة العربي الزبيري ، الجزائر 1973 .
خوجة ، علي بن حمدان ـ ذكريات رحلة . . . إلى قسنطينة عبر الجبال ، ترجمة دي سولسي ، ميتز ، 1838 .
خوجة ، علي بن حمدان ـ مرآة الجزائر ، بالعربية (ومترجم إلى التركية) ، اسطانبول 1857 ؟
دوماس ، يوجين ـ القبائل الكبرى ، باريس ، 1847 .
ديلبيش ـ ترجمة كتاب مسلم بن عبد القادر (أنيس الغريب) ، (م. ا.) ، 1874 .

روبان ـ تاريخ الشريف بوبغلة ، الجزائر ، 1884 .
رين ، لويس ـ مرابطون وإخوان ، الجزائر ، 1886 .
رينال ، بول ـ حملة الجزائر ، باريس ، 1930 .
دي رينو ، بيليسييه ـ الحوليات الجزائرية ، ط. 2 ، 1854 .
سعد اللّه ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 2 ط 2 ، بيروت ، 1990 : عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية من خلال دفتر محكمة المدية 1823 ـ 1834 .
وكذلك جـ 3 ط 1 ، بيروت ، 1990 .
سعد اللّه ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، ط. 3 ، الجزائر 1982 .
سعد اللّه ـ المفتي الجزائري ابن العنابي ، الجزائر ، 1978 .
سيروكا ـ الجنوب القسنطيني من 1830 إلى 1855 ، في (م. ا.) عدد 56 ، 1912 .
شانقارنييه ـ مذكرات ، باريس 1930 .
شلوصر ـ قسنطينة أيام أحمد باي ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، 1980 .
العنتري ، محمد الصالح ـ فريدة مؤنسة ـ تاريخ بايات قسنطينة ، ط. 1845 ، أيضاً المكتبة الوطنية ـ الجزائر 2320 .
فايسات ـ تاريخ قسنطينة تحت الحكم التركي (1517 ـ 1837) ، 1869 .
فرعون ، ف . ـ عن مذكرات قبائل المدية ، في (م .إ .) 1857 .
قيون ، الدكتور (جان لويس جونيفييف) . ـ رحلة الجزائر والزيبان ، الجزائر 1852 .
كامبون ، جول ـ حكومة الجزائر ، الجزائر ، 1918 .
كلوزيل ، تقرير إلى وزير الحربية ، أرشيف ايكس .
كنيدي ، كلارك ـ الجزائر وتونس .
كور ، أوغست ـ عن الإحتلال المغربي لتلمسان ، 1830 ـ 1836 ، في (م. ا.) 1908 .
لوكوك ، أ ـ عن احتلال تلمسان سنة 1836 ، في (م. ا.) عدد 79 1936 .
مجهول ـ عن الأمة ، عن الجزائر ، باريس ، 1832 .
مراسلات الأمير عبد القادر مع العربي بن عطية (الدرقاوي) ، أرشيف إيكس .

مصطفى بن إبراهيم ـ حكاية العشاق ، بتحقيق سعد اللّه ، طَ. 2 ، الجزائر ، 1983 .
موريلي ، صفحات من التاريخ ، مجلة (روكاي) ، م 63 ، 1936 .
الناصري ، أحمد ـ الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ 9 .
ياكونو ، كزافييه ـ عن الجزائريين المنفيين في السجون الفرنسية خارج الجزائر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 1 ، 1974 .

***



أبطال وزعانف

1837 ـ 1848

1 . مقدمات :

لسنا ندري بأي مقياس يقيس الفرنسيون بطولات رجالهم : هل بالوسائل التي استعملوها أو بالغايات التي نالوها ؟ هل بالتخريب والوحشية أو بالبناء والانسانية ؟ هل بالتغلب على المدافعين عن حقوقهم وأوطانهم وكرامتهم ثم الوقوف على أشلائهم وأنقاضهم وقفة المتشفي المنتقم ؟ هل بترحيل العجزة والأيامى والأرامل والأطفال من مكان إلى آخر ، وبنفي القادة والأعيان وتهجير المثقفين وخطف الرهائن ونصب المشانق وإذلال الناس حتى لا يعبدوا إلاّ القوة ولا ينحنوا إلاّ للسيف ؟ هل البطولة في نظر الفرنسيين هي إتلاف المحاصيل الزراعية ، ونهب مخازن الحبوب ، وحرق الدواوير والمداشر وسوق الحيوانات كغنائم وسبايا ؟ وهل البطولة الحضارية هي اغتصاب أراضي الجزائريين وإعطاؤها للفرنسيين المشردين وطمس المعالم الإسلامية ، واستبدالها بمعالم الكنيسة الكاثوليكية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، واعتبار الجزائر أرضاً خالية من السكان والقيم والقوانين ؟ إن كان الأمر كذلك عندهم فيحق لهم أن يمنحوا توماس بوجو وسام البطولة ، وأن يقلدوه عصا المارشالية، وأن ينصبوا له تمثالاً عالياً في قلب عاصمة الجزائر ليذكر الجزائريين دائماً بالقهر والاغتصاب والنهب والخراب والغزو والاستبداد وغير ذلك من الكلمات التي تأبى النفس الكريمة سماعها.

إن جزءاً كبيراً من العهد الذي سندرسه سيظهر فيه بوجو هو الممثل لدور المأساة ، فقد تولى الحكم في الجزائر من 1841 ـ إلى 1847 ، وتميز عهده بكل ممقوت من أعمال الاستعمار الحديث . والممثل الثاني لدور المأساة هو المارشال فاليه الذي حكم الجزائر بين 1837 ـ 1841 ، والذي تميز عهده بقسمين : الأول يمكن أن نسميه عهد هدنة 1837 ـ 1839 ، وما هي في الحقيقة بالهدنة الشاملة إذ.

كان فيه يناور لبسط نفوذ بلاده على الشرق الجزائري ويحاول تعديل بنود معاهدة التافنة لصالح بلاده ، ويتحدى الأمير حتى ينقض هذه المعاهدة ، الخ . أما الجزء الثاني من عهد فاليه 1839 ـ 1841 فقد تميز بالحرب الشاملة ضد الأمير من جهة والمقاومة الوطنية من جهة أخرى . وقد دشن فاليه عهد بوجو الذي خلفه ليواصل نفس السياسية ويضيف إليها زيادة في الجند وزيادة في العتاد والمال ، وزيادة في قهر وإذلال المقاومين وترهيب الناس .

أما من الجانب الجزائري فقد ظهر الأمير عبد القادر في أوج قوته 1837 ـ 1839 ، ثم هو يتحدى التنين المسموم ويصارعه ويبتعد عنه تارة ثم ينقض عليه حتى ليكاد يسحقه ، وكان ذلك بين 1839 ـ 1845 ، أما الفترة ما بين 1845 ـ 1847 ، فقد شهدت الأمير وهو يصارع جبلاً لا تنيناً، وقد انضم سلطان فاس إلى بوجو لمطاردة الأمير، ولم يعد الأمير يحارب عدواً واحداً بل أعداء، وانفض من حوله الأتباع وأمسكت المعونة الخارجية والدبلوماسية ، فلم تأت لا من بريطانيا ولا من اسبانيا ولا من امريكا ولا حتى من السلطان العثماني الذي عاد الأمير يلتمس نجدته. وأما الحاج أحمد فقد كاد يختفي أثره بعد خروجه من قسنطينة (1837) ، ولم يقم خلال عشر سنوات بقيها في جبال الأوراس والصحراء بأي عمل يهدد العدو أو بأية محاولة جادة في نصرة الأمير ، أو بتنظيم المقاومة الوطنية في أسلوب جديد تحت قيادته ، ولذلك قلنا ان جهود الحاج أحمد قد انتهت باستيلاء العدو على قسنطينة . وهناك زعماء آخرون ظهروا على المسرح ، خلال هذا العهد ، لعبوا أدواراً مختلفة منهم من كان مستقلاً ومنهم من كان يناصر الأمير ومنهم من شايع العدو طمعاً أو خوفاً .

2. الأمير من التافنة إلى البيبان :

أعطت معاهدة التافنة للأمير بعض الوقت لتنظيم دولته استعداداً لانطلاقة جديدة ضد العدو . وقد شمل التنظيم المدن التي دخلت تحت سلطته من جديد (تلمسان ، معسكر ، حمزة) أو التي كانت تحته من قبل (مليانة ، المدية ، تاقدامت الخ .) كما شمل مناطق أخرى لم تكن عنده من قبل ، مثل شرق وغرب الصحراء ، ومثل مجانة وسطيف والأغواط وبسكرة الخ . وكان الوقت يضغط عليه لأن الفرنسيين سيعودون إلى مضايقته وإفساد خططه بعد احتلال قسنطينة مباشرة . ويدخل في عملية التنظيم التي

قام بها الأمير أيضاً رحلتاه إلى منطقة زواوة (القبائل) وحملته على عين ماضي .

شملت دولة الأمير ثمانية أقاليم على رأس كل إقليم خليفة ، نائباً عن الأمير . وكانت الأقاليم أربعة بين 1832 ـ 1837 فأصبحت ثمانية منذ هذا التاريخ . أما الأربعة الأولى فهي إقليم الغرب أو تلمسان ، وإقليم الشرق أو معسكر ، وإقليم مليانة الذي شمل شرشال وتنس ، وإقليم المدية أو التيطري سابقاً . وبعد معاهدة التافنة أضاف الأمير أربعة أقاليم أخرى هي : إقليم حمزة (الذي كان من قبل تحت نفوذ الحاج السعدي كممثل للأمير) ، وإقليم مجانة الذي هدف الأمير من وراء إنشائه إلى إثبات شرعية نفوذه على إقليم قسنطينة القديم ، ثم اقليم الأغواط وإقليم الزيبان (بسكرة) . وكل إقليم كان مقسماً إلى عدّة نواحي على رأس كل ناحية آغا ، وكل ناحية مقسمة إلى أعراش أو قبائل ، على رأس كل منها قائد ، وكل فرقة من القبيلة أو قسمة منها تحت نفوذ شيخ . وقد منح الأمير سلطات واسعة للخليفة ، مثل جمع الضرائب وإقامة الحدود ، وإجراء القضاء بين الناس ، وحماية الأمن والمواطنين ، ومحاربة العدو . وكان تعيين الخلفاء غير محدود بمدة . والخلفاء هم الذين ينقلون تعليمات وأوامر الأمير إلى الأغوات ، وهؤلاء إلى القياد وهؤلاء إلى الشيوخ ، وهكذا . وكان الأغوات والقياد يعينون من قبل الخليفة لمدة سنة ، قابلة للتجديد . أما القياد فهم يعينون في العادة من قبل الأغوات ولكن إذا كانوا على قبائل كبيرة فإن تعيينهم يأتي من الخليفة نفسه . وأما الشيوخ فمنصبهم انتخابي ، إذ تنتخبهم فرقتهم أو قسمتهم (دوارهم) بدون تدخل الدولة . والشيوخ يحولون شكاوى الناس إلى السلطات العليا بطريق السلم التصاعدي . وعندما تقوم الحرب ضد العدو يصبح أولئك المسؤولون قواداً عسكريين كل في دائرته .

ومن أبرز خلفاء الأمير في المرحلة الأولى (1832 ـ 1837) : مصطفى بن التهامي خليفة معسكر، ومحمد البوحميدي الولهاصي خليفة تلمسان، ومحمد بن علال خليفة مليانة ، ومحمد بن عيسى البركاني خليفة المدية[1] . ولكل من هؤلاء مزاجه

(1) سبق القول بأن أول خليفة للأمير على مليانة هو (آغا العرب) السابق الحاج محيي الدين بن مبارك ، وأن أول خليفة له على المديّة هو أخوه (الأمير) مصطفى بن محيي الدين ، وأن الحاج السعدي تولى الخلافة للأمير نواحي متيجة ويسر وعمراوة وحمزة ، وذلك قبل التنظيم الجديد الذي بدأه الأمير بعد =

وخصائصه في الحكم ، ولكنهم جميعاً كانوا يتصرفون في معظم الأحيان طبقاً لأوامر الأمير . والملاحظ أن هؤلاء الأربعة كانوا من عائلات دينية ومتميزة بالثروة . كما كانوا من المثقفين . وكان بعضهم يجتهد رأيه حتى أن ابن علال رفض تسليم مدينتي البليدة والقليعة إلى الفرنسيين طبقاً لمعاهدة التافنة ، ولكن هؤلاء احتلوهما بالقوة سنة 1838 . وكان البوحميدي متميزاً بالإستقلال في الأحكام حتى انه كان أحياناً لا يراسل الأمير إلا بعد مرور وقت . أما ابن التهامي الذي هو صهر الأمير وقريبه فقد تميز بالعلم والأدب والحكمة أكثر من القدرة على الإدارة ، رغم انه كان محارباً شجاعاً . ورغم بعد موقع البركاني فقد كان معروفاً عنه الولاء للأمير والقدرة الإدارية والشجاعة في الحرب والتدين.

أما خلفاء الأمير في الأقاليم الأربعة الجديدة فأمرهم يختلف نوعاً ما . فقد كان بعضهم لا يحكم إلّا مدة قصيرة ، وكان بعضهم لا يتمتع بصيت ونفوذ قوي ، مما جعل سلطة الأمير لا تنفذ ولا تحترم ، كما نفذت واحترمت في الأقاليم الأربعة الأولى . فهذا محمد بن عبد السلام المقراني خليفة مجانة ، منذ اكتوبر 1837 ، كان من أقوى الخلفاء ومن أكبر العائلات في الإقليم ، ولكن بعد المسافة ومضايقة الفرنسيين له من بجاية وقسنطينة والمناورات العائلية جعلت سلطة الأمير هناك غير قوية . وكان خلفاؤه على الأغواط وبسكرة وحمزة ليسوا في مستوى خلفائه السابقين . فقد كان بعضهم لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب إليهم طاعة الناس ، ولعل أقوى هؤلاء وأتقاهم هو أحمد الطيب بن سالم (حمزة) الذي كان ورعاً قوي الشكيمة والذي استطاع أن يبسط إدارته على المنطقة ، أما الحاج العربي بن الحاج عيسى فلم يستطع أن يوطد سلطة الأمير على الأغواط وما جاورها من الصحراء الغربية وكان على الأمير أن يستبدله (1839) بغيره ، أمام عجزه عن جلب أو تحييد أحمد بن سالم (الأغواط) ومحمد التجاني (عين ماضي) . وكان إقليم بسكرة في غمرة من الأحداث والصراعات العائلية فلم ينجح الأمير هناك في فرض إدارة محترمة . فقد تولاه أولاً فرحات بن سعيد مدة قصيرة (آخر 1837 وأوائل

= معاهدة التافنة (1837) . والخلفاء الثلاثة الأولون (الحاج محيي الدين ، والحاج السعدي ، ومصطفى أخ الأمير) كانوا من عائلات دينية .

1838) ثم تحالف فرحات مع الفرنسيين ضد الأمير ، ثم تولاه حسين بن عزوز ، ثم محمد الصغير بن عبد الرحمن ، وكلاهما عجز عن مواجهة الفرنسيين وحليفهم ابن قانة هناك.

وقد اختلف المؤرخون حول ما اذا سوّت ادارة الأمير بين المواطنين في الضرائب أو أبقت على نظام المخزن الذي كان سائداً في العهد العثماني . فبعضهم ذهب إلى أن الأمير أزال التمايز بين قبائل المخزن والرعية ، وجعل الجميع يدفعون نصيباً واحداً ويقومون بواجبات واحدة نحو الدولة . ولكن آخرين يرون أن الأمير قد أبقى على بعض الامتيازات عند القبائل المخزنية إذ كانت تدفع هذه نصيباً أقل من الرعية وتحتفظ بالباقي لنفسها على أن تقوم بالمشاركة في الحملات الحربية بدور أكبر ، وتحدث هؤلاء عن أن الأمير جعل من بعض القبائل قبائل ممتازة مثل هاشم والغرابة الذين جند منهم معظم موظفيه وسلطهم أحياناً على قبائل أخرى لمعاونة خلفائه في فرض الطاعة والإحترام . ولكن يبدو أن ذلك التمايز كان في المرحلة الأولى حين كان الأمير يستجلب على الخصوص قبائل الزمالة والدوائر (المخزنية) ويؤلف قلوبهم ، أما بعد معاهدة التافنة فقد سوى الأمير بين كل المواطنين ، ولا سيما بعد أن تعاملت معظم القبائل المخزنية مع الفرنسيين ضده . كما سوى الأمير بين المواطنين أمام القضاء.

ولم يتوقف تنظيم الأمير لدولته على تنصيب الخلفاء ومن تحتهم في الأقاليم بل انه أقام جيشاً نظامياً يحمي سلطته المركزية والاقليمية ، ويجبي الضرائب ، ويحارب العدو . وبالإضافة إلى ذلك جعل الأمير الجيش يخضع لتقاليد مضبوطة في الإرتقاء والطاعة ونحو ذلك . فقد عزل بعض الخلفاء على أسس معينة كسوء الإدارة أو العجز إلخ . ومن ذلك عزله لمحمد بن عبد السلام المقراني وتعويضه بأحمد بن عمار بعد أن شك في اتصال الأول بالعدو . وعزله فرحات بن سعيد وتعيين الحسين بن عزوز بدله بعد أن أظهر الأول تحالفه مع الفرنسيين ، وعزله الحاج السعدي وتعيين أحمد الطيب بن سالم بدله ، كما عزل أخاه مصطفى عن المدية وعين بدله البركاني . أما محمد بن علال فقد عينه لحلفاً لعمه الحاج محيي الدين بعد وفاة هذا . والملاحظ أن بعض هؤلاء الخلفاء لم يكونوا من عائلة المرابطين وإنما كانوا من ذوي النفوذ في

منطقتهم ، فالمقراني وفرحات بن سعيد ، ومحمد الخروبي[2] (سطيف) ومحمد الصغير بن عبد الرحمن ثالث خليفة على الصحراء الشرقية ، كلهم لم يكونوا من المرابطين ، كما انهم كانوا من العائلات التي تولت السلطة في العهد العثماني أيضاً . ونفس الشيء يقال عن الأغوات ، فقد ثبت أن أكثرهم كانوا من العائلات غير المرابطية ، مثل الحاج محمد بن زعموم[3] ، الذي أصبح آغا فليسة بعد زيارة الأمير لحمزة .

ومن التنظيمات التي أظهرها الأمير هناك طريقة اتخاذ القرار وطريقة التعامل مع سلطان فاس والإستفادة من المخترعات الغربية . ان الأمير لم يطبق ما نسميه اليوم بالديمقراطية ولكنه اعتمد على الشورى المعروفة عند السلف الصالح . فقد كان يستفتي العلماء حتى من خارج الجزائر ، وكان يجمع الناس ليسمع رأيهم في الأمور الخطيرة كالحرب والسلام والمصالحة الخ . ومن ذلك الإجتماع الذي جرى قرب مليانة لرفض الموافقة على تعديل معاهدة التافنة حسب الاتفاق الجديد (اتفاق ابن عراش - فاليه ، 4 يوليو 1838) . وكذلك الإجتماع الشوري الذي جرى لإعلان الجهاد ضد العدو بعد إجتياز الجيش الفرنسي أبواب الحديد (نوفمبر 1839) . ومن ناحية أخرى فإن الأمير كان يحكم كصاحب سيادة يحمل لقب أمير المؤمنين وسلطان الجزائر ، ولكنه كان يجاري في أوائل عهده سلطان فاس ، عبد الرحمن بن هشام فيلبس القفطان الذي جاءه منه في المناسبات ، ويذكر اسمه في الخطبة الجمعية ولكنه أغفل اسمه في العملة التي أصدرها ، كل ذلك في مقابل المساعدة التي كا[ن] سلطان فاس يقدمها إليه أحياناً ولإسكات الأصوات التي قد تطعن في شرعية حكمه أما الموقف من المخترعات الغربية فالأمير رغم أنه وقف منها ، خلال وجوده على رأس الدولة ، موقف المحبّذ إلا أنه لم يبد ذلك إلاّ بشأن قطاعين فقط ، هما الجيش والصناعة . فتدريب جيشه النظامي كان على الطريقة الأوروبية ، وكانت الصناعات

---

(2) كان الخروبي كاتباً للباي حسن في وهران ، قبل 1830 ، ثم كاتباً للأمير 1833 - 1839 ، وفي هـ[ذه] السنة ولاه الأمير خلافة مجانة (مقرها سطيف) . وفي 1844 تخلى عن الأمير .

(3) عنه انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وكذلك فصل (مرابطون وثوار) من كتابنا (محاضرات . . .) .

التي أقامها لا تكاد تخرج أيضاً عن الصناعات العسكرية[4] (مصانع البارود ، والبنادق ، والمدافع الخ .).

ولقد لخص أحد الكتاب المعاصرين للأمير ميزات نظامه الجديد في قوله : إن الأمير قام بثورة في النظام السياسي لبلاده ، فقد استعاض عن النظام التركي بنظام جديد: فقد أنشأ الجيش النظامي بدل الإعتماد على نظام المخزن، وأنشأ جيشاً إقليمياً ونظاماً إدارياً محكماً بدل المراكز العسكرية التي كانت وسط القبيلة ، وبذل جهوداً في خلق وحدة بين القبائل النافرة ، وجعل ذلك هو مصدر قوته . وأعطى سلطة واضحة للقاضي الذي يمثل الشريعة إلى جانب القائد الذي كانت سلطاته تنفيذية ، بعد أن كانت هذه تطغى على سلطات القاضي ، وجعل القاضي يستمد نصوصه من القرآن ، وبذلك انتعشت العاطفة الدينية لدى السكان ، كذلك أحدث تطوراً في نظام التعليم يساير هذا الإتجاه . وحارب اتجاه السياسة العثمانية (التركية) القديمة وهو الإتجاه الذي كان له أنصار بين بقايا العثمانيين في الجزائر. ثم حلت الثورة الإجتماعية محل هذه الثورة السياسية التي أحدثها الأمير[5] . وقد أوصى صاحب هذا الرأي أن تستفيد فرنسا من تنظيمات الأمير في حكم الجزائر ، وسنرى أن بوجو قد فعل ذلك .

وبين نهاية 1837 وسنة 1838 قام الأمير بعملين بارزين في حياة الجزائر السياسية ، الأول بسط نفوذه على جزء كبير من الشرق الجزائري ، والثاني بسط نفوذه على الصحراء الغربية . ففي أواخر سنة 1837 نزل الأمير في برج حمزة وعين من هناك خليفته الجديد أحمد الطيب بن سالم ، وآغا فليسة ، الحاج محمد بن زعموم ، الذي أصبح أيضاً يحكم القشطولة ، والنزليوة ، وبني خلفون ، والحرشاوة والزواتنة والخشنة الخ . كما عين بلقاسم أوقاسي ، آغا على سباو ومد سلطته إلى يسر [6]

(4) أنظر رفائيل دانزيقر (عبد القادر والجزائريون . .) ، ص 180 ـ 199 .

(5) إسماعيل أوربان (طابلو ، 1843 ـ 1844) ، ص 443 .

(6) روبان (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 219 . انظر أيضاً ما قلناه عن هجوم المجاهدين في بودواو وهجوم العدو على دلس ويسر وبني عائشة ، في الفصل الثاني وقد ذكرنا هناك أيضاً أن حمدان الولد الثاني للحاج ابن زعموم ذهب إلى الأمير من قبل والده ورجع برسالة ، لعلها كانت حول إستعداد الأمير للحلول بالناحية .

وعمراوة الخ . وبذلك أنهى الأمير النزاع الذي طال بين الزعيمين ابن زعموم وأوقاسي ، وجعل قوتهما تتجه لضرب العدو . وقد استقبل الأمير من السكان هناك بحفاوة وترحيب ، ولا سيما من أعيان المنطقة من أشراف ومرابطين ورؤساء . وكانت هذه هي الرحلة الأولى لمنطقة القبائل ، وقد كانت مفيدة له أيضاً إذ وجد في أهل هذه الناحية قوة عسكرية كبيرة أثناء الحرب مع العدو بعد 1839 . وإلى جانب الحاج السعدي وأحمد الطيب بن سالم فقد كان للأمير صداقة مع الشيخ الحاج البشير الذي كان على رأس الزاوية الرحمانية هناك . وبعد خلافات داخل الزاوية اضطر الحاج البشير إلى مغادرتها والتوجه إلى الأمير ، ولكن للاخديجة توسلت بالأمير أن يرجعه إلى الزاوية بعد أن عجزت هي وبناتها عن إدارتها وبعد أن رضي أهل الزاوية بالتعاون مع الشيخ البشير[7] . وفعلاً إستجاب الأمير وأمر الحاج البشير بالرجوع إلى مقر الزاوية حيث بقي إلى وفاته هناك حوالي 1841 (1257 هـ). وسنرى كيف « يعاقب » بوجو سكان منطقة القبائل على تكريمهم للأمير ودفع الضريبة إليه .

أما الأمر الثاني الذي قام به الأمير خلال الهدنة ، فهو بسط نفوذه على عين ماضي والصحراء الغربية . والواقع أن الأمير بدأ سياسته الصحراوية منذ سنة 1836 . فقد اتصل بأعيان المنطقة وخصوصاً رجال الدين والأشراف فيها وطلبهم الدخول في طاعته والعمل على وحدة النضال ضد العدو المشترك فأجابه البعض وتردد آخرون . وكانت الأغواط بالذات مركزاً هاماً ثم تتلوها عين ماضي . الأولى ذات نفوذ سياسي وتجاري والثانية ذات نفوذ روحي . وكانت الأغواط عندئذ تخضع لتأثير عائلة أحمد بن سالم سياسياً وعائلة ابن الحاج عيسى روحياً . وقد عرفنا أن الأمير كان ميالاً إلى تقديم الأشراف والمرابطين على رجال السياسة والحكم ، لذلك ربط علاقات مع الحاج العربي بن الحاج عيسى ، حفيد المرابط القديم[8] ، وجعله خليفته على تلك النواحي ، بما في ذلك الأغواط وعين ماضي وتجمعوت . وقد أيد الشيخ محمد

---

(7) يذكر لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 457 ان للاخديجة كانت أرملة الحاج محمد بن عيسى ، شيخ الزاوية الرحمانية . وهي والدة للافاطمة المشهورة .

(8) تذهب الأساطير إلى أن الحاج عيسى الذي عاش حوالي قرن قبل الإحتلال الفرنسي قد تنبأ به لفساد أحوال الجزائريين .

التجاني هذا الإختيار[9] ، في الظاهر على الأقل ، ولكن ذلك لم يرض أحمد بن سالم فبقي يتحين الفرصة لتحويل السلطة إليه . وكان تعيين الحاج العربي خليفة للأمير قد جلب الكثير من قبائل الصحراء إلى الجهاد الوطني تحت راية الأمير[10] . وقد نصب الحاج العربي حكومته في الأغواط بعد أن تغلب على أنصار أحمد بن سالم .

وقد استمر الوضع كذلك إلى سنة 1838 . ويخبرنا لويس رين ، الخبير الفرنسي في شؤون الطرق الصوفية وتاريخ الجزائر ، أن الأمير قد اتصل بكل من محمد الصغير التجاني في عين ماضي والحاج علي في تماسين محاولاً ضم الطريقة التجانية إلى سلطته منذ 1836 وربما قبل ذلك[11] . وأنه كرر الإلحاح عليهما . ولكنهما رفضا لإيمانهما ، كما يقول ، بأن كفاح الأمير ضد فرنسا سيفشل ، وأن الدخول في طاعته لن يفيدهما شيئاً ، وأنهما لا يريدان أن يكونا « تابعين » للأمير الخ . ورغم هذا التفسير الإستعماري الواضح لموقفهما ، فإن النتيجة واحدة وهي رفضهما الدخول في طاعة الأمير . وقد عرفنا أن الأمير كان يلجأ إلى القوة عندما يواجه بالتحدي السافر للوحدة الوطنية التي ينشدها . وذلك واضح من حربه للحاج موسى الدرقاوي ، ومصطفى بن إسماعيل ومحمد الغماري الخ . وهكذا أصبح واضحاً أن الأمير سيلجأ إلى القوة أيضاً لإخضاع محمد الصغير التجاني .

ويبدو أن الأمير كاتب الشيخ التجاني أثناء وجوده بالمدية وبرج حمزة . وأخبره أنه قادم إلى قصور عين ماضي للقيام بنفس التنظيمات التي أجراها هناك . ولكن الشيخ التجاني لم يرحب بالزيارة وطلب من الأمير أن لا يقدم، بل انه (أي التجاني) اتصل بأحمد بن سالم في الأغواط وأخذ يستثير الناس لمواجهته وحربه. وإذا صدقنا المراسلات التي جرت عندئذ فإن التجاني قد اتصل أيضاً بالفرنسيين وعرض عليهم التعاون لوقف تقدم الأمير نحو الجنوب . فقد ذكر الأمير في احدى رسائله إلى ممثله

---

(9) انظر تروملي (المجلة الافريقية) ، 1857 ، ص 16 .

(10) أشاع الفرنسيون في حملتهم في التأثير المعنوي على الجزائريين إن الحاج عيسى قد تنبأ منذ أكثر من مائة سنة قبل الإحتلال بأن المسيحيين سيدخلون الجزائر ويأتون إلى الأغواط ويصلون إلى الوادي الأحمر ! لأن الجزائريين (المسلمين) قد ارتكبوا ذنوباً كثيرة . أنظر ذلك في كتاب الضابط ج . كلارك كنيدي (الجزائر وتونس) ، ص 235 . وقد روج الفرنسيون لأمثال هذه القصص كثيراً .

(11) لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 426 .

بالمغرب أنه قدم لجهة الجنوب من الناحية الشرقية لتنظيمها كما فعل هناك. وأَخْبَر إن الشيخ التجاني كتب إليه يحذره من القدوم وانه أخذ يعد العدوة لحربه إذا جاء . وانه (الأمير) قد اطلع على رسائل بخط التجاني إلى بعض أهل الأغواط يذكر فيها انه خليفة اللّه في أرضه ، وأخرى إلى حاكم الجزائر يقترح عليه أن يشغل الأمير من جهة البحر وهو يكفيه منه من جهة البر . ويضيف الأمير كلمات هامة وردت في رسالته وهي قوله إنه كان يعتقد في الشيخ التجاني خلاف ذلك وانه كان يعامله « معاملة المرابطين كخير من أعيان الوطن . . . بعد أن أعلمناه بمكاتب من عندنا أنا لا نريد إلا الخير والعافية ، وجمع كلمة الإسلام للجهاد ، معتقدين فيه كمال العقل ويقين الإيمان »[12] . وقد كنا سنحكم على هذه الرسالة وأمثالها أنها من باب التبرير السياسي للحصار ، لو لم نجد مواقف الشيخ التجاني تؤيد ما ذهب إليه الأمير . فقد تحالف التجاني أولاً مع أحمد بن سالم ثم عرض تحالفه على المارشال فاليه في رسالة سنعرض إليها[13] .

إن حصار عين ماضي الذي طال أكثر مما توقع الأمير وهزيمة التجاني بعده معروفان للباحثين، ولا نريد أن ندخل في التفاصيل ، إنما نعرض لبعض ما حدث أثناء الحصار وما نتج عنه . فقد بدأ الأمير حصاره أوائل شهر يونيو (جوان) واستمر عدة شهور ، إذ كانت البلدة محصنة غاية التحصين ولم يفك حصارها إلا بعض المدافع التي جاءت كنجدة بعد أن طال الحصار[14] . كان سكان عين ماضي لا يتجاوزون الألفي نسمة ، منهم حوالي 500 شخص قادرون على حمل السلاح ، وكان سكانها في الغالب من أتباع الطريقة التجانية وفيهم بعض العبيد المملوكين للشيخ . وكان

---

(12) أنظر الرسالة في جورج ايفير ، (المجلة الافريقية) ، 1919 ، ص 93 ـ 94 . ويقصد الأمير بكلمة « الإسلام » المسلمين . وقد كتب الأمير الرسالة إلى الحاج الطالب بن جلون ، ممثله بالمغرب أثناء حصاره لعين ماضي . وقد رجعنا إلى مراسلات كلوزيل (1835 ـ 1836) ومراسلات دامريمون (1837) ، فلم نعثر فيها على مراسلة بين هذين والشيخ التيجاني . فلعل الأمير يشير إلى مراسلة الشيخ مع شخصيات فرنسية أخرى ، أو أنه كان يريد تبرير هجومه على الشيخ .

(13) (مراسلات فاليه) ، 128/3 .

(14) تذكر المصادر الفرنسية ان (فاليه) هو الذي أرسل بمدفعين إلى الأمير . وكانت بينهما معاهدة التافنة التي بمقتضاها يستطيع الأمير أن يشتري السلاح من الفرنسيين .

للبلدة ثلاثة أبواب[15] . وقد جاءت النجدة للشيخ التجاني من أحمد بن سالم بالأغواط إذ أرسل أخاه على رأس كوكبة من المحاربين ، ولكن الأمير استعمل الحيلة فعرض على ابن سالم أنه إذا سحب قواته فإنه سيعيد إليه حكم الأغواط ففعل . وبعد عدة أشهر من الحصار تفاوض الأمير والشيخ التجاني[16] وانتهى الأمر بخروج الشيخ الى تجمعوت وأخذ الأمير بعض الأسرى وهدم سور عين ماضي .

والظاهر أن الشيخ التجاني لم يدخل تحت طاعة الأمير إلا مرغماً . ذلك ان الوضع بالصحراء عموماً ودور أحمد بن سالم واستئناف الحرب مع الفرنسيين ـ كل ذلك جعل سلطة الأمير هناك تعاني الضعف وساعد خصومه على التحرك ضده . فهذا أحمد ابن سالم لم يتفاهم مع ممثل الأمير السابق الحاج العربي، مما أدى إلى أن ينفذ الأمير وعده ويعطي السلطة إلى الأول (ابن سالم) ، وكان دور هذا أثناء حصار عين ماضي ، وتردده بين التأييد والرفض من قبل ، وسياسته نحو أهل الأغواط ، قد جعلت الأمير يعزله ويعين بدله قدور بن عبد الباقي البصري ، الذي لم يكن من الأغواط وإنما من جهة تاكدامت والذي توسم فيه الأمير قوة الشخصية والطاعة ، كان ذلك سنة 1839 . ولكن البصري لم يستطع أن يفرض سياسة الأمير هناك أيضاً ، إذ تحرك حزب ابن سالم والتجاني وأشاع عنه أنه جاء الأغواط لجمع الضرائب وأسر الأعيان وهدم المدينة فثاروا عليه واضطروه إلى الخروج[17] .

ولو طال السلام بين الأمير والفرنسيين لاستطاع الأمير أن يوطد نفوذه في الصحراء الغربية والشرقية ، كما فعل في الشمال حيث وصل نفوذه إلى مجانة وبرج حمزة وبلاد القبائل كلها (خصوصاً عن طريق الطريقة الرحمانية) ، ولكن الحرب استئنفت سنة 1839 فتراخت قبضة الأمير على بعض المناطق النائية وتشجع خصومه الإنفصاليون أمثال أحمد بن سالم (الأغواط) وفرحات بن سعيد ومحمد بن عبد السلام المقراني والشيخ محمد الصغير التجاني الخ . ان هذا (التجاني) قد كتب (يوليو

---

(15) انظر (طابلو) ، 1838 ، الجزء الأول ، ص 27 .

(16) المعروف ان الأمير قد أرسل صهره مصطفى بن التهامي لمفاوضة الشيخ التجاني وتطمينه .

(17) تروملي ، مرجع سابق ، ص 66 . وكان قائدا أولاد شعيب وأولاد خليف : الجديد بن يوسف والخروبي ، مع الخليفة قدور بن عبد الباقي البصري .

1839) قبل استئناف الحرب مع الأمير ، إلى المارشال فاليه يقترح عليه البرنامج التالي للتعاون ضد الأمير : كون أعيان العرب طلبوا منه هو (التجاني) أن يكون أميراً عليهم فأجابهم بأن الإمارة تقتضي وسائل الحرب وهم لا يجدونها في الصحراء ، تعيين فرنسا لباي على المدية (لاحظ أنها ما تزال عندئذ تحت الأمير) على أن يكون هو (التجاني) كبير أهل البادية ، ويكون الباي المذكور هو الواسطة بينه وبين فاليه ، ويتعهد بطاعته والدخول تحت نظره ويدفع إليه الزكاة والعشور ، وبذلك « نبعد من كان غريباً عنك أو عدواً لك»،وإن العرب غاضبون من الأمير لأنه « قدم الصغير وأبعد الكبير » ثم انه « رجل يجهل قواعد العلاقات التي توجد بين الناس ـ القوى ـ » وهو بدوي ، والبدو لا يعرفون شيئاً من ذلك . كما سجل بذلك العلماء في كتبهم[18] ، الخ . ولكن الشيخ التجاني وأمثاله كانوا مخطئين في تقديراتهم للعدو ، ذلك ان فاليه وبوجو ومن جاء بعدهما لم يعينوا البايات (كما كان الحال في العهد العثماني) ويتركوا الشيخ وأمثاله أسياداً على أهل البادية ، بل انهم استعملوا كل الوسائل للإحتلال والغزو والتدجين وشراء الذمم ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير .

قبل أن نصل إلى نهاية معاهدة التافنة نود أن نقول ان الأمير قام بعدة أعمال أخرى لدعم الكفاح داخلياً وخارجياً . فعلى المستوى الداخلي قام ، بالإضافة إلى تنصيب الخلفاء والأغوات والزيارات الشخصية للمناطق الوسطى والشرقية والجنوبية ، بمراسلة علماء البلاد وأعيانها طالباً منهم الدخول في طاعته وجمع الكلمة تحت راية الجهاد . وقد بلغت سمعته القاصي والداني وجاءته الوفود المؤيدة والرسائل وحتى الأشعار والأمداح[19] . وقد ظهرت العواطف الوطنية والتجاوب مع

(18) الرسالة من محمد بن أحمد التجاني ، في آخر ربيع الثاني ، سنة 1255 (أول يوليو ، 1839) ، انظرها في (مراسلات فاليه) ، 128/3 . وتوجد رسائل أخرى من التجاني إلى فاليه فيها عروض بالتعاون ضد الأمير . انظرها في نفس المصدر .

(19) من الذين قالوا فيه الشعر رغم بعده عنه الشاذلي القسنطيني ، الذي تولى القضاء وإدارة المدرسة العربية الفرنسية ، منذ 1850 . أنظر قصيدته في مدح الأمير والإستنجاد به لإنقاذ قسنطينة في كتابنا (القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني) ، ط. 2 ، 1985 . كما توجه إليه عدد من القضاة والعلماء من الجزائر ومن قسنطينة . ومن هؤلاء بوضربة وابن الحفاف ، وحمدان بن العطار (هرب هذا من سلطة الفرنسيين بالجزائر إلى شرشال ، وقد عينه الأمير قاضياً سنة 1838) . أنظر ل . قان (المجلة الافريقية) 1873 ، ص 468 .

حركته حتى عند الذين قبلوا بالعيش مع الفرنسيين على مضض ، مثل الآغا أحمد بن الحاج محمد الحملاوي[20] ، وكان في ذلك تعويض له عما فقده من أمثال محمد الصغير التجاني وفرحات بن سعيد ، الخ .

ومن ذلك سفارة المولود بن عراش إلى ملك فرنسا ، لويس فيليب ، سنة 1838 . وهي السفارة التي دامت حوالي ثلاثة أشهر . فقد كان الأمير يريد توسيع سلطاته نحو قسنطينة وكان يريد أيضاً الإبقاء على السلام مدة أطول . وقد أحس أن الحاكم العام ، (فاليه) كان يتآمر لنقض الصلح ويتعامل مع أعداء الأمير ويعمل على إفشال خططه ، لذلك عزم الأمير على الإتصال مباشرة بملك الفرنسيين ، كما ان ذلك ، كما قال بعض المؤرخين ، يجعله في درجة الند للند وإثبات مكانته على المستوى الدبلوماسي والدولي . وقد سافر المولود بن عراش رفقة أحمد بوضربة وابن دوران اليهودي . وأخذ معه هدايا إلى الملك وزوجه وأبنائه . ورغم إن السفارة لم تحقق ما كان يصبو إليه الأمير ، فإنها فتحت أمامه طريق الإتصال المباشر إذا اقتضى الأمر . ولكن سفارة ابن عراش جلبت للأمير مشكلاً جديداً . فقد مر ابن عراش بمدينة الجزائر أثناء رجوعه فإذا به يجد فاليه قد أعدّ له فخاً خطيراً ، وهو صيغة معدلة لمعاهدة التافنة تحد من طموحات الأمير نحو الشرق الجزائري ، وغير ذلك . وقد وقع ابن عراش على تلك الصيغة في ظروف غامضة ودون الرجوع إلى سيده ، ولكنه وضع بجانب ختمه شرطاً وهو « قد وافقت على هذه الشروط إذا قبل بها سيدي السيد الحاج عبد القادر ، الأمير »[21] . ورغم هذا الإحتياط فإن هذا الإجراء قد عقد الأمور للأمير في علاقاته مع الفرنسيين ، وكان عليه أن يجمع مجلسه الإستشاري ويرفض الإتفاق الجديد ، رغم ما في ذلك من بوادر الحرب[22] .

---

(20) في رسالة كتبها أحمد خوجة إلى المترجم إسماعيل بن عبد الكريم (أوربان ؟) - بدون تاريخ - إن الجنرال نيقرييه ، حاكم قسنطينة حوالي 1842 ، كان مخدوعاً في الآغا ابن الحملاوي والسراج (؟) وابن عيسى ، وانه قد وجدت رسائل متبادلة بين الأمير عبد القادر وابن الحملاوي . وفي الرسالة تفاصيل أخرى تشير كلها إلى إنتشار سمعة الأمير لدى أعيان قسنطينة . انظرها في أرشيف إيكس ، رقم 11 H 1 . وكان ابن الحملاوي أحد قادة الحاج أحمد باي قسنطينة ، ثم عينه الفرنسيون خليفة فرجيوة .

(21) أنظر نص الإتفاق بالعربية والإنكليزية في دانـزيقر ، (عبد القادر . . .) ، ص 257 - 260 .

(22) لم يكن ابن عراش من المحاربين ، ولا من المرابطين ، وإنما كان دبلوماسياً ، ويبدو انه لم يكن في =

3. الـوضـع في الإقليم الشـرقي بعـد احتـلال قسنطينـة (1837) :

بينما كان الأمير يوطد سلطته على النواحي الغربية والوسطى ويحاول بسط نفوذه في الجنوب والشرق ، كان العدو يوطد مكـاسبه في الإقليم الشـرقي بعد احتـلاله لعاصمته ، قسنطينة في خريف 1837 . وقد عرفنا أن العدو كان قد احتل من قبل عنابة وقـالمة وبجـاية ، وانـه أخذ يـرهـب ويدجن ويغـري بعض رؤساء الأعـراش والقبائل ، ويساعد المتقربين منه والساخطين على الحاج أحمد (الذي لم تعد له سلطة) والأمير عبد القادر الذي تسرب نفوذه إلى مجانة والحضنة ، والزيبان وبرج حمزة وسطيف ، وكلها كانت تقع من قبل في دائرة نفوذ بايات الشرق . وهكذا دخل الصراع بين الأمير والعدو على دعم النفوذ بالإقليم ، ولكن دون اللجوء إلى الحرب .

دخل العدو إلى قسنطينة دخول الفاتح الفاتك فعاثوا فيها فساداً ، وأجبروا أهلها على الذل أو الهجرة ، فهاجر منهم عدد إلى خارج القطر وآخرون إلى الزيبان وغيرها في انتظار تطور الأحداث . وسكن الجنود الأعداء في دور أهل البلاد وسكن قوادهم في الفيلات وقصر الباي ، واستولوا على أموال الإقليم رغم انهم ادعـوا أن الحاج أحمد قد هرب بها عندما أحس بسقوط المدينة . وقد ذكرنا أنهم نصبوا واحداً من عائلة الفكون (وهو حمودة الفكون) في وظيفة قـائد المـدينة[23] ، وأنشـأوا هناك (مكتباً عربياً) على غرار المكاتب الأخرى التي أنشأوها في المناطق الخاضعة لهم . ووزعـوا مسؤوليات على بعض أعـوان الحاج أحمـد السابقين ، أمثـال ابن عيسى (خليفـة السـاحـل) ، وابن الحملاوي (خليفـة فرجيـوة) ، والقائـد علي (خليفة الحراكتة) . ولم يمض وقت طويل حتى نصبوا شيخ العرب ، بوعزيز بن قانة (خليفة الزيبان بعد 1838) ، ثم في نهاية 1839 عينوا خليفة على مجانة (التي كانت تتبع

= ذلك على درجة عالية أيضاً . انظر (مذكرات شانقارنييه) ، تعليق في الهامش . والمعروف ان ابن عراش كان قبل 1830 آغا الشرق في خدمة الباي حسن . ثم بقي في نفس المهمة في عهد الأمير أيضاً ، وأضاف إليها العلاقات الدبلوماسية بين 1833 إلى حوالي 1840 . وكان ابن عـراش من الأثرياء .

(23) أنظر ما مضى ، وكذلك (مراسلات فاليه) ، 1/22 .

الأمير) وهو محمد بن عبد السلام المقراني ، وهكذا .

وإلى جانب هذه السياسة التي تقوم على التقريب والتبعيد ، والوعد والوعيد ، سنوا سنة في قسنطينة ، كان قد ابتدأها كلوزيل في الجزائر ، وهي التدجين عن طريق الفرنسة ، والتقريب عن طريق التخدير الحضاري . ونحن وإن كنّا سنعرض إلى هذه السياسة في مكان آخر ، إلا أننا نشير إلى أن سلطات العدو في قسنطينة قد أرسلت سنة 1839 خمْسة من الشبان الذين ينتمون إلى العائلات العريقة والحضرية ، إلى باريس « ليذوقوا » طعم الحضارة وينبهروا بما عند الفرنسيين وليعودوا مبشرين ومنذرين في قومهم ، وداعين إلى الخنوع وقبول الإحتلال الأجنبي كظاهرة لصالح البلاد والعباد . فقد أرسلوا ثلاثة من عائلة قائد علي ، واثنين من عائلة الفكون ، أصغرهم عمره سبع عشرة سنة (ومع ذلك فقد كان متزوجاً بامرأتين حسب المصادر الفرنسية !) وأكبرهم عمره خمس وثلاثون سنة . وقد كتب المشرف على هذه البعثة تقريراً إلى وزارة الحربية يقول فيه انه « يمكن لهذه البعثة أن تتبعها أخرى لتحمل أصداء عظمة فرنسا إلى أعماق الأعراش الأكثر بعداً »، ونصح بأن يعطي أعضاء هذه البعثة قليلاً من الفرنسية ، مع ترغيبهم في العودة إلى باريس وذلك بتفريقهم على منازل مختلفة وعدم السماح لهم بالتلاقي مدة إقامتهم ، وعدم إطالة مكثهم ما دام بعضهم من المتزوجين[24] . وهذه السياسة التي يمكن أن نسميها سياسة الترغيب والإغراء قد اتبعت حتى مع حمودة الفكون (قائد البلاد) بعد أن اتهموه بالغش المالي . وبعد التشاور فيما بينهم قرروا الإبقاء عليه مؤقتاً وعدم مفاتحته في ذلك ، مع تجريده من النظر في المسائل المالية ، وجعله مجرد صورة في الحكم ، لأنهم رأوا انّ عزله عندئذ لا يخدم قضيتهم خوفاً من إثارة العرب الذين يقدسون عائلة الفكون[25] .

---

(24) أنظر التقرير في (مراسلات فاليه) ، 55/3 ، وهو من عمل أليكس ديغرانج إلى دي شيفينيه (رئيس المكتب العربي بوزارة الحربية) ، وتاريخ التقرير ، مرسيليا ، 3 مارس 1839 .

(25) نفس المصدر ، 211/1 ، 266 . عمد الجنرال (نيقرييه) حين أراد التخلص من نفوذ حمودة الفكون إلى تحريك أعيان قسنطينة فكتبوا عريضة ضد حمودة المذكور ووقعوها بأسمائهم ، ومنهم المفتيون والقضاة وأصحاب الحرف والأمناء ، الخ . أنظر العريضة في أرشيف إيكس 613 ، F 80 ، وكان ذلك في اكتوبر 1842 .

والواقع انهم سلكوا نفس سياسة المداهنة وكسب الوقت مع غير الفكون أيضاً . فالأسماء التي ذكرناها وغيرها واجه أصحابها التهم الحقيقية والملفقة لكي يتخلصوا منهم إما إنتقاماً منهم لمواقفهم المعادية السابقة وإما لكي يتركوا مكانهم إلى مدجنين جدد . وقد كشفت الحفلة التي أقيمت سنة 1839 لابن ملك فرنسا ، الدوق دورليان ، مدى هذه السياسة . وها هو الدوق نفسه يروي في مذكراته ذلك الإستقبال وحكمه على العرب والمسلمين وعلى مدينتهم التي مضى عليها عندئذ سنتان تحت نير الأجنبي (وقع الإحتفال في أكتوبر بمناسبة الذكرى الثانية للإحتلال) . يقول الدوق إنه لقي إستقبالاً لم يعرفه من قبل ، حضره حوالي عشرين ألف نسمة . وليس بينهم من الأوروبيين عندئذ إلّا حوالي مائتين ، والمهم هو قوله إنه استقبل هناك وفداً من العلماء برئاسة شيخ الإسلام الذي قدر عمره بـ 95 سنة ، ووفداً عن بلدية قسنطينة ، والجماعات المهنية ، بالإضافة إلى الخلفاء والأغوات وشيوخ القبائل الذين ولاهم الفرنسيون أو أعلنوا ولاءهم لهم . وها هو ما أنجزه الدوق بهذه المناسبة : تدشين نصب تذكاري لقتلى الحملة على قسنطينة 1836 و 1837 من الفرنسيين ، العفو عن خمسة أشخاص حكم عليهم بالإعدام لمراسلتهم مع الحاج أحمد (أي بعد سقوط حكمه) ، تعليق نياشين لعدد من الذين خدموا الباي المذكور ثم خضعوا للفرنسيين ، ومنهم : ابن عيسى وابن الحملاوي وابن قانة . وحضور قداس ديني في كنيسة السيدة الافريقية ، **بقسنطينة**[26] . وقد نسي الدوق أن يقول ان هذه الكنيسة هي الجامع الذي استولى عليه قومه بإسم الإحتلال .

ورغم إعجابه بالإستقبال فإن حالة المدينة لم تعجب الدوق الفرنسي ، رغم مرور سنتين على احتلالها . وقد انتقد في ذلك (فاليه) الذي قال عنه إنه لم يتلفت إلى سوء حالة المدينة . وقد عرفنا أن فاليه كان مشغولاً بضرب المقاومة والكيد

---

(26) أنظر هذا الوصف كاملاً في (وصف حملة . . .) للدوق أورليان ، باريس 1892 ، ص 295 ـ 309 . ويذكر الدوق أيضاً أنه وزع بعض الدراهم على فقراء المدينة عن طريق شيخ البلدية ، وانه بات ليلته في قصر الحاج أحمد . وقد عرفنا أن الزعماء الذين حضروا على رأس ممثلي أغواتهم وقيادهم وشيوخهم هم : ابن عيسى (الساحل) وابن الحملاوي (فرجيوة) وابن قانة (الزيبان) وقايد علي (الحراكتة) ، أما خليفة مجانة (المقراني) فلم يكن من بين الحاضرين . أنظر أيضاً (مراسلات فاليه) ، 208/3 . وفيه ان شيخ الإسلام عندئذ عمره ثمانون سنة .

للأمير ، ونصب الفخاخ لابن عراش حتى يوقع له على اتفاق يعدل به معاهدة التافنة لصالح فرنسا . لقد وصف الدوق قسنطينة بأنها قذرة وليس فيها بازار ، وإن المسلمين معروفون بالقذارة (كذا !) وإنه لا يمكن فعل أي شيء لإصلاح ذلك . وقال انه وجد أكوام القمامة والمياه الوسخة والروائح الكريهة ، مع وجود قطعان من الكلاب تجوب الشوارع . وقد نسي الدوق ان يقول أن ذلك قد حدث لقسنطينة نتيجة الإحتلال الذي عطل كل طاقاتها وهجر أهلها وخرب بيوتها وحطم مرافقها . ولو انه زارها قبل 1837 لما وجدها على تلك الحالة . ولكنه كان صريحاً عندما قال بأن جنوده كانوا يسكنون وسط المدينة في نفس البيوت التي احتلوها بعد الهجوم[27] . وقال عن المؤسسات العسكرية والمستشفى بأنها في حالة يرثى لها . والمعروف إن حوالي نصف سكان قسنطينة (وعددهم حوالي خمسين ألف نسمة)[28] قد خرجوا منها أثناء القتال وبعده . وسنعرف بعد قليل ما أصاب هذه المدينة وغيرها من « التغيير » لصالح الحضارة الغازية .

والحديث عن قسنطينة لا يتم إلاّ بالحديث عن الحاج أحمد بعد 1837 فقد عاش من هذا التاريخ إلى استسلامه سنة 1848 كالمتشرد الذي لا يجد أرضاً تحمله ولا سماء تظله . ومع ذلك ظل يعيش على أمل واه . فقد أخذه أخواله ، أولاد ابن قانة عندهم في الأوراس والزيبان ، وحموه بعض الوقت . ثم أخذت الحظوظ تميل في اتجاهات مختلفة . فالحاج أحمد أبقى على اتصالاته العثمانية، فكتب إلى باي تونس الذي رحب به لاجئاً لا محارباً ، وراسل السلطان العثماني فلم يحظ إلاّ بالوعود ، رغم وجود باشا طرابلس غير بعيد منه . ولعل احتلال الفرنسيين لقسنطينة وعدم تمتع الحاج أحمد بقاعدة شعبية جعل السلطان يفقد الأمل في نجاح الباي القديم . وهكذا لم يبق أمام الحاج أحمد إلاّ الصحراء ، تماماً كما وصل الحال بالأمير سنة 1847 . وبعد أن غير أولاد ابن قانة من ولائهم له وأخذوا لقب الخليفة من الفرنسيين[29] ،

---

(27) أورليان (وصف الحملة . . .) ، ص 345 .

(28) ذكرنا من قبل ان هناك من وضع سكان قسنطينة حوالي ثمانين ألف نسمة ، وذكر آخرون أكثر من ذلك .

(29) بعد حوالي سنة من إحتلال فرنسا لقسنطينة أعلن بوعزيز بن قانة (ابن الحاج محمد بن قانة الذي توفي في المسيلة سنة 1834) ولاءه للفرنسيين .

وبعد أن نفد ماله وتشردت أسرته وتشرذم أنصاره ، وبعد أن فقد النجدة من جيرانه (تونس وطرابلس) ومن السلطان ـ بعد ذلك ـ قرر الحاج أحمد الذي كبرت سنه ، الاستسلام إلى عدوه بالأمس ، كما سنذكر.

وفي الوقت الذي كان الحاج أحمد فيه يطلب المعونة من جيرانه ومن السلطان العثماني كان يرفض التعاون مع الأمير وخلفائه في الأوراس . فقد عرفنا أنه اتصل سنة 1838 ، برسالة شخصية من الأمير ورسالتين أخريين لأصحابه الذين كانوا معه ، وهي جزء من حوالي مائتي رسالة كان الأمير قد وجهها إلى أعيان الناحية الشرقية يطلب منهم فيها التعاون وتوحيد الجهاد ضد العدو المشترك . ولكن الحاج أحمد رأى أن في ذلك حطاً من قيمته (في موقف شبيه بموقف مصطفى بن اسماعيل آغا الدوائر والزمالة) وتعهد لصديقه علي بن عيسى بأن لا يفعل ذلك مطلقاً[30] . ولم يكتف الحاج أحمد برفض التعاون مع الأمير والوقوف على الحياد ، بل إنه حارب خلفاء الأمير في المنطقة ، وهم حسين بن عزوز وفرحات بن سعيد ومحمد الصغير بن عبد الرحمن . وإذا كان في حربه لفرحات بعض المبررات (للعداوة الشخصية التي كانت بينهما) فإن معارضته لخليفتي الأمير الآخرين لا مبرر له.

والواقع ان برنامج الحاج أحمد بعد احتلال قسنطينة غير واضح على الاطلاق . فهو يعرف انه بدون تعاون داخلي وتوحيد الجبهة الشعبية لا يمكن له تحقيق نصر ضد العدو ، وها هو يرى كل القوى الداخلية تقريباً تنفض من حوله وتتركه وحده ، حتى أقرب الناس إليه ، وهم أخواله ، فكيف سينتصر بقوة خيالية من الخارج على الفرنسيين ؟ لقد رفض التعاون مع الأمير ، ولكن من البديل ؟ انه يعرف عداوة فرحات بن سعيد له ، وها هو ابن قانة يدخل في صف الفرنسيين، وهو لا يستطيع الاعتماد على حكام تقرت ، وهو لا يتعاون أو يثق في الطرق الصوفية المتنفذة ، فعلى من كان يراهن على النصر ؟ ان حالته تذكر المرء بقصة دون كيشوت المشهورة.

وقد كان الحاج أحمد يرفض أيضاً التفاوض مع الفرنسيين . ذلك ان وثائقهم تذكر انه أرسل إليهم قبل احتلال قسنطينة وفداً من أخلص الناس إليه ، مكوناً من محمد بن العطار ، واليهوي بوشناق ، الخ . وجرت المفاوضة ولكن الطرفين لم

---

(30) أنظر نصها في (مراسلات فاليه) 281/3 ، وهي من ترجمة إسماعيل أوربان .

يتوصلا إلى حل . فالفرنسيون عرضوا عليه عندئذ عرضاً يشبه ما كان قد عرضه عليه روفيقو سنة 1832 ، وهو الاعتراف بالسيادة الفرنسية ، وجعله بايا على معظم الإقليم الشرقي ، وتجريده من حق الدفاع والتجارة الخارجية واستعمال الموانىء ، الخ . مع دفعه ضريبة حرب تقدر بستة آلاف فرنك ، وجزية سنوية تقدر بمائة ألف فرنك[31] .

وجرت مفاوضات أخرى بعد احتلال قسنطينة ، وبالضبط سنة 1839 ، حين أجرى حاكم قسنطينة (قالبوا) مفاوضات معه تؤدي إلى استسلامه وإعطائه عهد الأمان ، وحضوره إلى قسنطينة ليحصل على الأمان من الدوق أورليان . ولكن المفاوضات لم تنجح ، ولا ندري إن كان عدم نجاحها يعود إلى رفض الحاج أحمد الشروط المعروضة أو لرفض الدوق أن يظهر كذلك أمام المارشال فاليه[32] .

وقد استمرت المفاوضات بين الطرفين في مناسبات عديدة ، ولكن على أساس الاستسلام والأمان لا على أساس السلطة وتولي الوظائف . وآخر تلك المفاوضات جرى في صيف 1848 حين جاء وفد من الحاج أحمد إلى الضابط سان جيرمان في باتنة يعرض فيها الاستسلام على أساس الأمان وعدم تسليمه لأعدائه والترخيص له بالتوجه إلى المشرق . وأخيراً أعطاه الضابط كاروبير (وهو أعلى رتبة من زميله) عهد الأمان وتوجهوا به إلى بسكرة ثم قسنطينة ثم الجزائر ، وأبقوه هناك في إقامة جبرية ، إلى أن توفى بعد حوالي ثلاث سنوات[33] .

---

(31) المقترحات الفرنسية ورسائل الحاج أحمد موجودة في (مراسلات فاليه) ، 26/1 .

(32) أنظر ذلك في أورليان (وصف حملة . . .) ، ص 280 . يقول أورليان انه حذر قالبوا من المفاوضة بإسمه (أي أورليان) خوفاً من حساسية فاليه الذي هو الحاكم الفعلي باسم فرنسا . وكان حاكم قسنطينة أراد التقرب بتلك المفاوضات إلى ابن الملك (أورليان) ، ويقول أورليان أنه حذر قالبوا من ان المفاوضة مع الحاج أحمد تعتبر خطراً في نظر العرب لأن الحاج أحمد لم يعد له أي رصيد .

(33) تقرير سان جيرمان ، في أرشيف إيكس 76 H 10 . وقد كتب في 7 يونيو 1848 ببسكرة . ويذكر ان الحاج أحمد اتصل بهم من أجل ذلك منذ نهاية 1847 (27 ديسمبر) ، وهو نفس الشهر الذي انتهت فيه مقاومة الأمير . وقد توفى الحاج أحمد في 30 أغسطس 1852 ودفن بمقبرة عبد الرحمن الثعالبي . وكان له عدد من الأولاد والبنات ، وكان متزوجاً بأكثر من واحدة . ويقال انه كان مصاباً بمرض في صدره ، وكان المشرف على شؤونه أثناء مرضه هو الحاج بوقندورة . أما مترجمه الفرنسي المرافق له أثناء ذلك فهو الضابط دي روزيه Rouzé ، الذي أملي عليه الحاج أحمد مذكراته ، وهي التي نشرها مارسيل ايمريت في المجلة الافريقية ، 1949 . ويذكر ان إسماعيل بن محمد كتب عنه مقالة في (الأخبار) رقم 1,546 . وهناك دراسات كثيرة عنه ، ولكن معظمها ضده ، خصوصاً ما =

ولكن المقاومة الشعبية لم تنته بسقوط قسنطينة ولا بتشرد الحاج أحمد ثم استسلامه . لقد استمرت في قلوب الناس وفي مشاعرهم الدينية والوطنية . تولاها أنصار الأمير وخلفاؤه إلى سنة 1844 تقريباً ، ثم تولتها الطرق الصوفية وحتى بعض الزعماء المحاربين . ورغم استعمال العدو لوسائل جهنمية كالاتلاف والقتل والتدجين وشراء الذمم فإن شعلة الحرية قد استمرت مرفوعة يسلمها ثائر إلى ثائر آخر ، كما سنرى بعد أن لجأ العدو إلى استئناف الحرب مع الأمير ، وجاء بقضه وقضيضه لضرب المقاومة والإحتلال الشامل بكل الوسائل.

4. التخريب الشامل : من فاليه إلى بوجو :

رغم المعاهدة مع الأمير فان فاليه كان يبذل قصارى جهده في إقناع حكومته باستئناف الحرب معه على أساس أن السلام يخدم مخططات الأمير أكثر مما يخدم الوجود الفرنسي . وبينما كان ينتظر جواب حكومته ، كان يراوغ الأمير وينصب له الفخاخ ويثير عليه أعداءه ويستفزه . فقد كان يراسل خلفاء الأمير في المدية ومليانة (البركاني وابن علال) عارضاً عليهما عروض التخلي عن الأمير والانضمام إليه هو[34] ، ثم لجأ إلى إغراء ابن عراش بطريقة غامضة ما تزال تحير الدبلوماسيين ، على التوقيع على اتفاق يعدل به معاهدة التافنة الرسمية ، وكان يعد أعداء الأمير بالمعونة ويعينهم في المناصب ، كما فعل مع محمد بن عبد السلام المقراني بعد تخليه عن الأمير ، وبوعزيز بن قانة بعد تخليه عن الحاج أحمد ومحاربته لخلفاء الأمير ، وكذلك مع أحمد بن سالم في الأغواط ، ومحمد التجاني في عين ماضي.

وأخيراً جاء دور الاستفزاز الخطير وهو عبور الطريق البري بين قسنطينة والجزائر

= كتب أثناء حياته ، مثل كتاب العنتري ومذكرات شلوصر الالماني . وقد عرفنا ان الحاج أحمد من مواليد حوالي سنة 1786 . وتوجد معلومات شخصية هامة عنه في (ملاحظات عن الحاج أحمد) كتبها جان لويس جينيفييف J. L. Geneviève المعروف بالدكتور قيون Guyon في (رحلة من مدينة الجزائر إلى الزيبان) ، الجزائر 1852 .

(34) الواقع ان ذلك بدأ من عهد دامريمون (1837) إذ يذكر في مراسلاته مع وزير الحربية انه أملى رسالة على بوضربة ووجهها إلى ابن علال يحاول فصله عن الأمير أنظر (مراسلات دامريمون)، ص 165 .

على مضائق البيبان (أبواب الحديد) . فقد خطط فاليه لذلك كل التخطيط ، وكان يعرف جيداً أن الأمير يعتبر البر الممتد من قسنطينة إلى وادي الخضرة (أو وادي قدارة، شرقي متيجة) انما هو جزء من دولته، وكان خلفاؤه وممثلوه في برج حمزة ومجانة وسطيف والحضنة يعرفون ذلك أيضاً. ولكن فاليه كان يلعب بالنار، ولكي يجلب انتباه ورضى الملك الفرنسي جعل ابنه (الدوق أورليان) يشاركه في هذا العبور الاستفزازي ، وكان يقدر انه رابح في كلتا الحالتين : إذا عبر بسلام ولم يحاربه الأمير ، فقد أثبت الحق الذي يدعيه في معاهدة التافنة وهو أن تلك المنطقة تدخل في المجال الفرنسي ، وإذا حارب الأمير واعتبر ذلك عملاً عدائياً فقد حقق فاليه رغبته الملحة وهي استئناف الحرب . وقد كانت الثانية كما يعرف الجميع ، إذ تصدى خلفاء الأمير في المناطق المذكورة لجيش العدو وحاربوه رداً للعدوان.

منذ مارس 1838 كتب فاليه إلى وزير الحربية يقترح عليه قطع الطريق على الأمير حتى لا يجعل الفرنسيين يرجعون من حيث أتوا . وذلك بفتح التفاوض مع الحاج أحمد وإعطائه بعض السلطات في الشرق الجزائري حتى يمنع الأمير من ضم الشرق اليه والضغط منه على الفرنسيين كما فعل معهم في الغرب . وأخبر فاليه وزيره ان الحاج أحمد أقل خطراً على الفرنسيين من الأمير ، وأن الباي المهزوم ليس له سوى قوة سطحية ، وهو لا يعتمد على قومية كالقومية العربية التي بعثها الأمير والتي تهدد الوجود الفرنسي مستقبلاً من الأساس[35] . وفي شهر نوفمبر من نفس السنة كتب فاليه مجدداً محللاً استراتيجية الأمير أثناء حصاره لعين ماضي ، قائلاً ان 'الأمير لا يرغب في السلام مع الفرنسيين إلّا لكي يدعم سلطته مؤقتاً على الأقل ، وانه لم يستول على عين ماضي إلّا لكي يؤمن طريق التراجع إذا ضغط عليه الفرنسيون أثناء حرب قادمة ، خصوصاً من التل ، « لأنه يريد أن يحاربنا من جديد » . وقد رأى فاليه ان الأمير مخطىء في تقديره لأن الفرنسيين قادرون على اجتياز الأطلس الصغير وملاحقة الأمير ، إذاما استئنفت الحرب . كما لاحظ أن تعطل الأمير في الاستيلاء على عين ماضي وطول الحصار ، قد أضر بسلطته وسمعته كثيراً في أعين العرب ، كما لاحظ أن سلطة الأمير غير مطلقة ، وانه لا يسيطر سيطرة تامة على خلفائه .

---

(35) (مراسلات فاليه) ، 1/297 .

ولذلك رأى فاليه ان الأمير سيكون مضطراً للحرب ضد الفرنسيين بعد احتلاله عين ماضي . وهو يريد أن يستفيد من نجاح لكي يرفع معنوياته ويحقق أهدافه الاستراتيجية الجديدة(36) .

وهكذا عمل فاليه طيلة بقائه في الجزائر حاكماً عليها فيما كان يسمى « بالممتلكات الفرنسية في شمال افريقية » ، 1837 ـ1841 ، على استئناف الحرب مع الأمير حتى لايطرد الفرنسيين من الجزائر باسم القومية العربية الناشئة . ورغم محاولات الأمير اطالة مدة السلام بالشكوى إلى أعيان الحكومة الفرنسية والملك نفسه من خرق ممثلهم في الجزائر لبنود معاهدة التافنة ، فإن الحكومة الفرنسية كانت مقتنعة برأي ممثلها ، فاليه ، وكانت تدعمه هو على استفزاز الأمير والتوسع على حسابه والاضرار بسمعته ، وأخيراً قررت عزل فاليه واستبداله بالرجل الذي أصبح صوته هو صوت المنادين في البرلمان بالحرب الشاملة ضد الأمير ، وهو الجنرال بوجو ، الرجل الذي كان قد وقع سنة 1837 معاهدة التافنة باسم دولته مع الأمير ، عندما كان ممثلها في وهران ، والذي تربطه بالأمير اتفاقية سرية لم يكشف عنها إلّا بعد أكثر من قرن . جاء بوجو إذن ليجعل من نفسه « بطلاً » أكبر من أبطال بلاده الآخرين ، بطلا يحارب الأمير ، ويخضع الجزائر ، ويرسي قواعد الاستعمار ، ويتقلد بعد ذلك عصا المارشالية ، ويجلس على حصان من البرونز في قلب مدينة الجزائر . ولم يقرأ المسكين حروف الغيب ، ولو فتح اللّه عليه لعرف انه كان شخصية نادرة من شخصيات شكسبير الدرامية ، وانه كان بفعله ذلك يحفر في الحقيقة قبراً لبلاده في الجزائر ، إذ أن الفارس الذي حاربه قد عاد ، وان البلاد التي ظن أنه أخضعها إلى الأبد قد شمخت برأسها من جديد ، وأن الاستعمار الذي زعم انه وطد أركانه قد انهار وعبر غلاته البحر كما توقع فاليه ، أما التمثال فقد دخل متحف الذكريات ، وأما العصا فقد سوست وأصبحت من المضحكات .

تولى بوجو حكم الجزائر سنة 1841 وبقي إلى صيف 1847 ، أي عدة شهور قبل توقف الأمير عن المقاومة(37) . ومن خلال هذه السنوات سلك بوجو سياسة القهر

---

(36) نفس المصدر ، 281/2 رسالة منه إلى الدوق أورليان ، في 30 نوفمبر 1838 .

(37) هناك دراسات عديدة عن حياة بوجو وآراء كثيرة عن سياسته وأسلوبه في الجزائر . آخرها كتاب انطوني =

والعنف نحو الجزائريين وسياسة الحرب والإبادة للمقاومة ممثلة عندئذ في الأمير . ومن الصعب ذكر تفاصيل عهده المظلم في هذا المجال . ولذلك سنحاول تلخيص تلك السياسة في نقطتين : الأولى سياسته المدنية والثانية سياسته العسكرية . لقد آمن بوجو بضرورة توطيد الإستعمار الفرنسي في الجزائر ، أي بإحلال الإنسان الأوروبي محل العربي في الأراضي المغتصبة ، وبالإندماج أي القضاء على مقومات المجتمع الجزائري بإحلال المقومات القرنسية بدلها ، وبفرض نظام « أبوي » على الجزائريين في المدن والأرياف التي غلبت على أمرها . ومن أجل ذلك أصدر قوانين جائرة بضرورة عقد الأسواق للتبادل التجاري بين الجزائريين والأوروبيين ، وضرورة حشد المفصولين عن المقاومة في مجمعات سكنية جديدة يحاصرها الجيش ويحرم الخروج منها ، وتجريد كل القبائل من محاصيلها الزراعية وماشيتها وما ملكت أيديها وجعلها متوقفة في معاشها على ما تجود به إدارة بوجو . وقد وسع بوجو في صلاحيات المؤسسة المعروفة بإسم (المكاتب العربية) ، وجعلها أداة لتنفيذ سياسته مع الأهالي . وأصدر أوامره بإباحة الحرائق وإتلاف الأرزاق ، وطرد قادة الرأي والمشتبه فيهم إلى جزر نائية مثل قواد لوب ، وسانت مرغريت الخ . . واحتجاز الرهائن ، وارتكاب المجازر (مثل مجزرة غار الظهرة) ، وتسليط العقوبات الجماعية ، بما في ذلك التغريم الجماعي ، الخ . وهذا قليل من كثير مما يسمى بسياسة بوجو المدنية في الجزائر .

أما سياسته العسكرية ، فقد عرفنا أنها كانت تهدف إلى القضاء على كل مقاومة للإحتلال بإستعمال كل الوسائل الممكنة . ولتحقيق ذلك الهدف استولت جنود بوجو على المدن التي كانت تحت الأمير ، خصوصاً تلمسان ، المدية ، مليانة ، تاكدامت ، معسكر ، الخ . وحارب ضباطه خلفاء الأمير في هذه المدن وفي المناطق.

= ثرال سوليفان (فرنسا والجزائر 1784 ـ 1849) ، أمريكا ، 1983 ، وهو كتاب حاول صاحبه أن « يفسر » دور بوجو في السياسة الفرنسية والجزائرية ويربط بين تكوينه الشخصي وثروته وعقيدته الإقتصادية والسياسية من جهة وتصرفاته العسكرية « الأبوية » من جهة أخرى . وقد ولد بوجو سنة 1784 بليموج ، وتوفى بفرنسا بالكوليرا سنة 1849 . أنظر أيضاً (مذكرات شانقارنييه) ، ص 127 هامش . ولأن شانقارنييه ينظر بعين السخط على بوجو عند توليته سنة 1841 . وقد حارب بوجو قبل الجزائر في اسبانيا واشتهر هناك بالعنف ، ويقال انه نقل طريقته هناك إلى الجزائر .

النائية عن النفوذ الفرنسي من قبل مثل بلاد القبائل وبلاد الحضنة وبلاد الـزيبان ، وسعيدة وتازة الخ . وأدت سياسة الحرب الشاملة على كل الجبهات ، إلى انحسار مقاومة الأمير في الحرب الخاطفة ، وفي الغارات الخفيفة ، وأخيراً أصبح الأمير لاجئاً بدائرته (أو زمالته) لا يجد المكان الآمن لنسائه ونساء خلفائه وأطفالهم ، ومؤونتهم وخزائنهم وأتباعهم ، إلى أن وقعت الزمالة نفسها في أيدي العدو سنة 1843 ، فقد استولى عليها الدوق دومال ، وساقها غنيمة وسبى النساء والأطفال ، ونهب الأرزاق والأموال ، وأخذ الرهائن . وقد قتل أثناء هذه السنة مشاهيـر قواده مثـل محمد بن علال ومحمد البركاني .

وهذه السياسة البوجوية قد ألجأت الأمير إلى الإحتماء بالمغرب ، فإذا بفرنسا تهدد المغرب أيضاً ثم تحاربه بحراً وبراً إلى أن وقعت معركة وادي إيزلي الشهيرة سنة 1844 ، وهي المعركة التي انهزم فيها الجيش المغربي ونال على إثرها بوجو لقب (دوق إيزلي) ، وكانت معركة إيـزلي في الحقيقة ضـربة لـلأمير أيضـاً . ذلك ان المغرب أحجم منذئذ عن حمايته وعن مده بالذخيرة تحت تهديد الحرب من فرنسا . وبدأت بذلك بداية النهاية للأمير . فحتى انتفاضة الظهرة 1845 التي أعادت الأمل بالنصر على العدو ، كانت قصيرة التأثير ، كما ان معركة سيدي إبراهيم 1845 ، كانت آخر حركة قوية أظهرها الأمير قبل أن يبدأ في عد الوقت العكسي . ذلك أن آخر ما أسفرت عنه سياسة بوجو نحو الأمير هي إعلان سلطان فاس الحرب ضد الأميـر ، وتوحيد جهوده مع جهود بوجو لوضع الأمير في كماشة ثم القضاء عليه . وهكذا لم يكتف بوجو بتدجين القياد والأغوات في الجزائر ، ولكنه دجن أيضـاً سلطان فاس وجعله يقف إلى جانبه في حرب الأمير .

وخلافاً لما يقال عن بوجو من أنه مجدد ومخترع لنظام إداري خاص به ، فإنه في الحقيقة قد استعار النظام الإداري الذي وضعه الأمير ، وزاد عليه بوجو مَـرْكَزَةَ السلطة في شخصه ، رغم وجود المكاتب العربية التي كانت تمثله لدى السكان ، ورغم الجيش الذي عينه من المدجنين الجزائريين (بني وي وي) من خلفاء وأغوات وقيـاد وشيوخ . وهـذا صديق بـوجو ورافـع لواء سيـاسته والمعـاصر لـه، بوجـولا (BouJoulat) يقول : إن فرنسا قد اتبعت في الأعماق مثال الأمير عبد القادر في إدارة الأهالي ، فجعلت وظائف الخلفاء والآغوات . . . كما فعل هو . وكان على كل إقليم

من الأقاليم الثلاثة (والحديث كان سنة 1844) جنرال ، تحت مجموعة من الخلفاء والآغوات الخ . في شكل مناطق خاصة بهم . وهؤلاء الموظفون على اختلاف فئاتهم (الخليفة، الآغا ، القايد ، الشيخ) كانوا يتراسلون مع المكاتب العربية التي كان على رأس كل منها ضابط فرنسي يمثل فرنسا لدى السكان . وكل مكتب عربي هو عبارة عن مركز إداري فرنسي[38] . وهذا إسماعيل أوربان الذي كان يكتب تقريباً في نفس الوقت (1843) يقول بعد أن وصف إدارة الأمير ، بأنه يمكن لفرنسا أن تستفيد من نظامه في جعل الحكم مركزياً لإعطاء وحدة للسُكان ، وإنشاء نظام ضريبي محكم ، وتأسيس نظام قضائي تصاعدي ، وتطوير لنظام التعليم . ولكن عربان الذي كان ينتمي إلى السان سيمونية الإشتراكية ، أوصى بجعل الضريبة سياسية إدارية وليس دينية ، (غير الزكاة والعشور) ، ودعا إلى منح القياد سلطات زمنية ـ تنفيذية ضد السلطة الدينية (يعني المرابطية) ،وإعادة تنظيم القبائل العسكرية (أي المخزنية) لتساعد على بسط الإحتلال ، وأخيراً أوصى عربان الذي كان وفياً لمبادئه ، بجعل المرابطين ينكمشون على أنفسهم ويلتزمون بحياتهم الدينية[39] .

ومما يذكر أن القضاء الإسلامي في الجزائر كان دائماً تحت وزارة الحربية الفرنسية . وبينما كانت المحاكم الإسلامية في العهد العثماني هي مصدر الأحكام غالباً فإن الأمير جعل للقاضي يداً قوية حيث أعطى أهمية للشريعة والقرآن والسلف ، فكان القاضي في عهده يتمتع بسلطات واسعة على القايد أيضاً . ولعل هذه الناحية هي التي لم يقلد فيها بوجو نظام الأمير لأن منح القضاة المسلمين سلطات واسعة تجعله يخشى على إحتلاله للجزائر . لذلك أنشأ ، بالإضافة إلى المحاكم الإسلامية (المالكية والحنفية والإباضية) محاكم أولية في أغلب المدن المغلوبة ، ومحاكم الصلح Justice de Paix ، إلى جانب محكمة للإستئناف في العاصمة ، وأنشأ أيضاً محكمتين تجاريتين في الجزائر ووهران . وأصدر سنة 1842 قانوناً يجعل كل القضايا الجنائية ، مهما كان جنس أو دين مرتكبها ، لا تحكم فيها إلا المحاكم الفرنسية ، مع

---

(38) بوجولا (دراسات افريقية . . .) ، ج 2 ، ص 139 . ولاحظ بوجولا أن بوجو عدّ الضباط الذين يعرفون العربية فوجدهم لا يتجاوزون الثلاثين . لذلك لجأ إلى توظيف مستويات أخرى في المكاتب العربية .

(39) إسماعيل أوربان (طابلو) 1843 ـ 1844 ، ص 443 .

بقاء حق النظر للقضاة المسلمين (المدجنين طبعاً) في الجرائم التي يرتكبها مسلمون . أما قانون 1846 فقد نص على أن كل القضاة المسلمين عليهم أن يسجلوا القضايا التي تعرض أمامهم ، أن يقدموا بياناً بذلك إلى السلطات الفرنسية . وشهدت سنة 1848 تنظيماً جديداً يتعلق بالقضاء وذلك بإنشاء المجلس القضائي الأعلى ، وتعيين الوكلاء والمدافعين في المحاكم الإسلامية أيضاً[40] .

5. التدجين ومذبحة غار الفراشيش :

إن أسلوب القهر الذي طبقه بوجو بكل قوة أدى إلى تدجين العديد من القيادات الجزائرية في المدن والأرياف معاً ، كما أدى إلى ارتكاب أفظع الجرائم ضد السكان مثل جريمة غار الفراشيش بالظهرة . وقد شمل أسلوب التدجين الطرد من المدن لكل من يشتبه فيه بالولاء للأمير ، وحمل عقيدة المقاومة للعدو ، والإشتباه في الولاء له ، وذلك بالإعلان عن موقف معارض ، أو بمراسلة مع أحد المقاومين ، أو بتنظيم مساعدة الثوار الخ . أما الذين اختاروا الإنضمام إلى المقاومة صراحة بالخروج من المدن إلى المقاومين في الأرياف ، فقد اتخذت ضدهم إجراءات أخرى عقابية مثل مصادرة أملاكهم واحتجاز الرهائن من عائلاتهم ، الخ . وطبقاً لهذه السياسة الإرهابية الجائرة حكم بالنفي على المفتي مصطفى بن الكبابطي من الجزائر وبعض أفراد عائلته ، وبالطرد على حمودة الفكون وبعض أفراد عائلته من قسنطينة ، وكان ذلك مجرد فاتحة لعهد الإرهاب في المدن ، إذ طبق مثله على العشرات في المدن الأخرى أيضاً[41] .

ونفس سياسة الإرهاب والتدجين اتخذت بالنسبة لزعماء الريف الذين اشتبه في تعاملهم مع المقاومة . وكان هؤلاء على أصناف : فمنهم من تعامل فعلاً مع المقاومة ووقع في قبضة الفرنسيين فكان بين أمرين : أن يعدم أو يتظاهر بالتعامل مع العدو. فإذا اختار الحل الثاني فإنهم كانوا يجعلون منه عميلاً مطلقاً وإلا حكم عليه بالقتل أو النفي . وصنف آخر كان في الأصل متردداً يتبع مصلحته الشخصية فكان العدو يعامله

---

(40) أنظر ج . موريل (الجزائر) ، ص 384 .

(41) سنعود بالحديث عن نفي أعيان المدن في عهد بوجو ، بعد قليل

على قدر نيته فيمكنه في قومه ويجعل منه موظفاً بلقب شيخ أو قايد أو آغا أو خليفة ، حسب أهميته وأهمية قومه ومنطقته . وصنف آخر كان من البداية مستعداً للتعامل مع العدو لمرض في نفسه إذ رأى الفرصة في تحقيق مآربه الشخصية قد حانت بوجود العدو والإحتماء به . ورغم احتقار العدو لهذا الصنف فإنه ربط معهم علاقات وقدم لهم المساعدات لكي يجعلهم أداة لتنفيذ خططه الإستعمارية . وكل من كانت له بقية من كرامة من هذه الأصناف التي تعاملت مع العدو في وقت من الأوقات تحت سلطة الإرهاب ، كان يثور ضده إذا وجد الفرصة ، ولذلك ظل العدو غير مطمئن دائماً للجزائري ولو كان في الظاهر من الموالين له . ومن ثمة كثرت الجوسسة والتقارير السرية التي كانت تتبع وتحلل مواقف كل موظف من هؤلاء الأعيان ، وتوصي بالحذر منه والتظاهر فقط بالثقة فيه .

وهذا أحد الدارسين المعاصرين قد عاد إلى عهد بوجو وأمثاله ودرس سياسة العدو نحو أعيان الجزائر في الريف وخرج بهذه النتيجة فقال : كان زعماء العائلات البدوية الواقعة جنوب التل والصحراء يعيشون على الماشية ويراقبون تجارة الحبوب والتمور بين التل والصحراء ، وكانت هذه العائلات تتوارث القيادة . وهناك نوع آخر من الزعامات هي زعامات العائلات القبلية الواقعة بين التل والساحل ، وكانت تعيش أساساً على الزراعة . وقد جرت العادة أن هذه الزعامات القبلية كانت تخضع للمراقبة السياسية والاقتصادية للحكام الأتراك أو ممثليهم . وكانت تلك الزعامات هي التي تمنح حق الرعي عند الضرورة لقيادات العائلات البدوية المذكورة . أما ثالث الأنواع فهو زعامات القرى الأقل ثروة والواقعة في المناطق الجبلية مثل الونشريس والقبائل والأوراس ، وهي الزعامات التي أبقت على استقلال ذاتي آمن وبقيت على اتصال فقط بقيادات التل لمبادلة بعض المواد الغذائية كالزيت والحبوب . وكان الزعماء في كل منطقة من المناطق الثلاث المذكورة يتنافسون محلياً على التجارة والري والمكانة والسلطة .

هكذا كان الوضع في العهد العثماني ، ولكن الفرنسيين غيروا منه . فقد قام بوجو في حربه الشاملة ضد الأمير عبد القادر ، بإنشاء نظام إداري تصاعدي كلما وجد من أولئك الزعماء من يعتمد عليه بعد تدجينه . وعمل على تشجيع السكان على الانضمام إلى الزعامات الجديدة التي عينها هو والتخلي عن زعاماتهم القديمة التي

كانت قد أعلنت مقاومتها للفرنسيين ، والدخول تحت حماية فرنسا . وقد رتب بوجوب هذه الزعامات الجديدة ترتيباً تصاعدياً يبدأ من شيخ الدوار والفرقة إلى الخليفة أو الحاكم ، وقد منحهم سلطات واسعة ، في أول الأمر ، شملت : جمع الضرائب والقيام بأعمال الشرطة ، وإقامة العقوبات ، ومراقبة الأسواق ، وتجنيد فرق الفرسان ، ونحو ذلك من السلطات . وبذلك انتهت الزعامات المحلية التقليدية المتنافسة تنافساً مسلحاً أحياناً والقائمة على السلطة والغلبة ، ولكن بدل أن تحل محلها أرستقراطية قوية وموحدة ومحترمة ـ كما تخيل المنَظِّرون الفرنسيون ـ جاءت التجربة بجماعة من الزعماء المحليين الضعاف اليائسين ، وذلك بحكم تدخل فرنسا في شؤونهم وجعلهم تحت حمايتها ومراقبتها[42] . وقد ذكرنا سابقاً أن بوجو قد قلد مثال ادارة الأمير في هذا النظام التصاعدي ، مع بعض الاختلاف في التفاصيل .

ويطول بنا الحديث إذا نحن دخلنا في الإجراءات التي سلكها بوجو مع كل زعيم من الزعماء الأهالي ، في المدن والأرياف ، لتدجين ما أسماه بعضهم بالزعامات الأهلية . فها هو أحد الدارسين الفرنسيين يذكر أن جزيرة سان مرغريت وحدها قد استقبلت بين 1841 ـ 1843 حوالي ثمانين شخصية من الزعامات الأهلية[42م] . أما الذين أرسلوا بهم إلى الجزر النائية في المحيط الهادىء أو أمريكا الجنوبية أو سجون فرنسا الأخرى فلعله أكثر من أن يحصيه (كومبيوتر) الوقت الحاضر . ويقول هذا الدّارس أن سلطات بلاده قد اختارت الجزيرة المذكورة كمنفى للشخصيات السياسية البارزة ذات النفوذ والتي لا تخضع عقوبتها لاجراءات القانون العام . وكان بعض الشخصيات قد نفوا إلى هناك إمّا لأنهم رفعوا السلاح في وجه فرنسا ، وإما لأنهم خطر عليها في الجزائر ، وإما أخذوا كرهائن لإرهاب ذويهم وإبعاد خطرهم .

وقد شملت حركة النفي عدداً من الزعماء المحليين وحتى غير الزعماء ، كما

---

(42) بيتر فان سيفرز P.V. Sivers « الزعامة الأهلية » في (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط) ، عدد يوليو ، 1975 ، ص 261 ـ 262 .

(42م) اكزانييه ياكونو في (المجلة التاريخية المغربية) ، العدد الأول ، سنة 1974 ، ص 71 . من الأماكن التي نفت اليها سلطات بوجو وغيره الجزائريين : قلعة لامالق ، وجزيرة ايكس ، وجزيرة دي ري ، وحصن بريسكو ، وحصن سان بيير ، وحصن سان لويس ، ودي سات . بالاضافة الى قواد لوب ، والمارتينيك ، وغويانا ، الخ .

شملت النساء والأولاد كرهائن . ونحن حين درسنا بعض ملفات هؤلاء في الوثائق الفرنسية اقشعر جلدنا مما أصاب هؤلاء المساكين من البؤس والتأثر بالفقر والمرض والبيئة وحتى العقيدة . ولعل ذلك هو ما كان يهدف إليه بوجو وزبانيته . ذلك ان من أولئك المنفيين من كان يتبرأ مما نسب إليه ، ويعلن « ولاءه » لفرنسا حقيقة أو نفاقاً ، ويبدي استعداده لخدمتها . ومنهم من يذكر الفرنسيين بالأديان السماوية وكونهم (الفرنسيين) من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ وأنَّهُ كان عليهم أن يحترموا أهل الملل الأخرى كما يحترمها المسلمون ، ومنهم من كان يشتكي الفقر والفاقة بعد العز والتمكين . ومنهم من كان يطلب فقط السماح له بالذهاب إلى المشرق وانضمام زوجه وأولاده إليه ، ومنهم من يشتكي البرد والمرض والكبر . وكانت هذه إحدى الطرق التي اتبعها بوجو لإرهاب الجزائريين وليعلن بعد ذلك أنه قاهرهم وانه جدير بعصا المارشالية .

والملفات التي درسناها شملت مطرودين من مختلف أنحاء الجزائر ، وكلها تعود إلى سنة 1842 : من قسنطينة ، ومستغانم ، ومعسكر ، وعنابة الخ . وكانت التهم الموجهة إلى بعضهم هي المشاركة في المقاومة الوطنية ورفع السلاح في وجه الفرنسيين . وفي هذا الإطار كان منهم من اتهم بالعمل مع الأمير ، ومن اتهم بالعمل مع الثائر زغدود، الخ . ولكن منهم من كان موجوداً في المنفى لمجرد الاشتباه في أمره أو لعدم إعلان الولاء أو فقط كرهينة . وهذه بعض الأسماء التي وجدت فقط في ملفات جزيرة سان مرغريت سنة 1842 :

من قسنطينة : 1) الحسين بن عزوز البرجي الذي كان خليفة للأمير في الزيبان (1838 ـ 42) ، والذي قبض عليه العدو في نواحي المسيلة . وله رسائل كثيرة وكتابات عديدة ، يطلب في بعضها إطلاق سراحه وتوجهه إلى المشرق ، وإطلاق سراح أخيه أيضاً . وفي بعضها يذكر أنه لم يعد عدواً لفرنسا وأن الأمير نفسه وخليفته الجديد قتل عدداً من عائلته ، وانه مستعد لخدمة فرنسا إذا عينته خليفة على العرب . ومن بين كتاباته مشروع في طريقة الحكم في الجزائر ، عرضه على ملك الفرنسيين ، وهو في عدة صفحات ، وهو يقوم على أفضل طريقة في نظره للتعاون بينه وبين الفرنسيين . وتبدو على كتاباته الاضطرابات النفسية والتوتر ، مما جعلنا نشك في صدق ما كان يقول وفي الأهداف التي يرمي إليها . والمهم أن الفرنسيين قد نقلوه من

ذلك السجن بعد حين إلى سجن عنابة حيث توفي سنة 1847 .

2) ومن قسنطينة أيضاً : كجك علي . الذي له كتابات موجهة إلى الفرنسيين يتبرأ فيها مما نسب إليه من كونه عدواً لفرنسا . ويخبر ان الحاج أحمد قد قتل عدداً من عائلته، لكي يتقرب (أي كجك علي) إلى الفرنسيين، بل أعلن لهم أنه صديقهم.

3) سعيد بحوش ، متهم بمشايعة سي زغدود ، في ناحية الحروش.

4) مبارك بلعباس ، نفس التهمة ونفس الناحية . وكلاهما يعلن ان له أهلاً وأولاداً وبناتاً ، وينظلم إلى بوجو.

5) الصادق بن مخناش وقويدر بن أحمد ، (لا أذكر الآن من أية جهة في الوطن ، ولعلهما من الشرق أيضاً) .

أما من ناحية مستغانم فقد وجدنا رسائل جماعية اشتملت على أسماء عديدة ، من بينها أسماء بعض النسوة والأولاد . وهي رسائل تصف الأحوال المادية التعسة التي كان عليها السجناء . ومحتواها لا يختلف عن الأخرى من مدح الفرنسيين والقدح في العرب ، مما يجعلنا نشك في صدق لهجة ونوايا أصحابها . ومن الأسماء التي وردت في الرسائل : ابن هني بن زيان ، أحمد بعيد (؟) ، عبد القادر بلحاج ، محمد بن شروان ، والخليفة ابن دحمان . وذكرت إحدى الرسائل ان عدد النسوة سبعة وان هناك ثلاثة أولاد ، ولكن لم تذكر عدد الرجال[43] . وقد ذكرنا ان هناك رسائل من مساجين معسكر وعنابة الخ .

وفي نفس السنة (1842) حكم بوجو بالطرد على الأخوين الفكون (حمودة ومحمد) من قسنطينة إلى الاسكندرية ، متهماً إياهما بالتآمر ضد فرنسا ، وواصفاً لهما بأنهما خطيران على الوجود الفرنسي . والمعروف أن حمودة هذا هو الذي كان فاليه قد عينه شيخ بلدية قسنطينة على أثر احتلالها[44] . وبعد سنة واحدة (1843) حكم بوجو أيضاً بالطرد على مفتي المالكية ، مصطفى بن الكبابطي ، من العاصمة إلى سان مرغريت ، كما سنرى[45] .

---

(43) من أرشيف ايكس ، رقم F 80,574 .

(44) من أرشيف ايكس ، رقم F 80,613 .

(45) انظر ما سيأتي ، وكذلك دراستنا عن قضية هذا المفتي في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، الجزء الثاني ، ط . بيروت ، 1990 .

ومن الشخصيات السياسية ـ العسكرية التي نفاها بوجو إلى هذه الجزيرة : علي بن عيسى وأحمد بن الحملاوي ، وحسين بن عزوز . أما الأول فقد عرفنا انه حارب ضد الفرنسيين في عنابة وقسنطينة ، وبعد احتلال المدينة الأخيرة قبل بالأمر الواقع ودخل سنة 1838 في طاعة الفرنسيين بقبوله وظيفة (خليفة) على الساحل بين جيجل وقسنطينة . ولكن في عهد بوجو (1841) لفقوا له تهمة تزوير العملة ، وحكموا عليه بالأشغال الشاقة عشرين سنة ونفوه إلى الجزيرة المذكورة ، لإرهابه وإرهاب غيره به[46] ، وكذلك كان الحال تقريباً بالنسبة لأحمد بن الحاج بن الحملاوي . فقد حارب الفرنسيين أيضاً في حكم الحاج أحمد ، وكان برتبة آغا ، وبعد 1838 قبل بالأمر الواقع ولبس برنس التولية كخليفة للفرنسيين على فرجيوة (بين قسنطينة وسطيف) . وبعد تولي بوجو اتهمه بالاتصال بالأمير وحكم عليه سنة 1841 بالنفي أيضاً إلى الجزيرة المذكورة (سان مرغريت) وبالأشغال الشاقة عشرين سنة من قبل مجلسٍ حربي[47] .

وهناك نموذج آخر من تدجين الزعماء الجزائريين في عهد بوجو . وهو يتمثل في التعاون مع بعضهم على البقاء على الحذر منهم ، مثل التعاون مع محمد بن عبد السلام المقراني وابن زعموم وأحمد بن سالم (الأغواط) ، وفرحات بن سعيد ، وكلهم كانوا قد خدموا القضية الوطنية من قبل تحت زعامة الأمير. ومنهم أيضاً ابن عودة المختاري (من أولاد مختار ناحية بوغار) ، ومحمد السعيد (قائد شرشال) في عهد الأمير ، الخ . فمنذ خروج خليفة الأمير من الأغواط بقيت تقريباً تحت أحمد ابن سالم الذي كان على صلة دائمة بالفرنسيين وبالشيخ التجاني . وفي سنة 1843 أرسل الهدايا إلى بوجو وطلب الخلافة لنفسه منه ثم جاء أخوه ، يحيى ، إلى العاصمة

---

(46) انظر ما سبق . عرفنا أن الحاج أحمد قد اتصل بصديقه ابن عيسى وثبطه من الانضمام الى الأمير . ولا ندري إن كان ابن عيسى قد اقتنع بكلامه أو أنه غيّر موقفه ، كزميله ابن الحملاوي وأظهر التعاطف على الأقل مع الأمير .

(47) انظر ما مضى . وقد عرفنا أن تدخلات زوجته وابنه قد أدت الى تحديد اقامته في أماكن أخرى مثل (نوجنت ـ لو ـ روترو) و (مو) الخ ثم سمح له بالاقامة في تونس ، 1843 ، ولم يسمح له بالرجوع الى قسنطينة الا سنة 1845 لتصفية أموره فقط . ولا يعرف أين توفى . انظر ياكونو ، المرجع السابق ، ص 59 ـ 60 ، وكذلك (مراسلات داميمون) ، ص 386 هامش .

لمقابلة بوجو ، ورجع له منه بنص التعيين ، ومنذ 1844 وهو (أي أحمد بن سالم) خليفة للفرنسيين على الأغواط ونواحيها . وقد نصبه الجنرال ماري الذي جاء على رأس فرقة عسكرية ، ثم رجع بعد جمع الضرائب(48) . ويبدو أن ابن سالم كان من أوائل الزعماء المدجنين ، ولا ندري هل كان ذلك تحت تأثير الطريقة التجانية أو كان حباً في الزعامة الفردية .

أما ابن عودة المختاري فقد خدم الأمير برهة من الزمن ، خصوصاً عندما كانت سلطة الأمير قوية في إقليم المدية ، ثم أظهر الميل للفرنسيين خوفاً منهم بعد 1845 ولكن الفرنسيين ، رغم الاستفادة منه ، لم يطمئنوا إليه وظلوا يتعاملون معه بحذر ، مثل معظم الزعماء أمثاله(49) . وهناك محمد السعيد ابن عودة الذي كان حاكم شرشال ثم انضم للأمير على مضض ثم فرّ من عنده وتعامل مع الفرنسيين الذين أعادوه (آغا) على شرشال في عهد بوجو (1842) ، بعد أن أفتك الفرنسيون شرشال من الأمير . ونتيجة لهذا التعاون أبعدت عائلة البراكنة من شرشال إلى فرنسا سنة 1843 لأن رئيسها (محمد بن عيسى البركاني) كان من أبرز خلفاء الأمير ومن أكثرهم حماساً للقضية الوطنية . وقد ورث محمد السعيد الوظيفة المذكورة إلى ابنه قدور أيضاً . واستفاد الفرنسيون أيضاً هناك من تنافس العائلات ، ففي الوقت الذي أبعدوا عائلة البركاني قربوا أيضاً عائلة الغبريني(50) . وإذا كانت بعض الشخصيات قد لعبت دوراً مزدوجاً أحياناً مثل فرحات بن سعيد ، ومصطفى بن اسماعيل والمزاري وحتى التجاني ، فإن هناك شخصيات لم يعرف عنها أنها وقفت إلى جانب المقاومة خصوصاً بعد 1837 ، ومن هؤلاء بوعزيز بن قانة ومحمد البرسالي وابراهيم بوشناق ، رغم تعمد الفرنسيين إهانتهم والشك فيهم . ولكن سنوات 1840 ـ 1844 قد خلصت الأمير والمقاومة عموماً من أشخاص كانوا يفيدون العدو أكثر مما يفيدون

---

(48) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 1 ، ص 118 . ويذكر هذا الكاتب أن عدد سكان الأغواط عندئذ ستة آلاف نسمة . وأن بها أربعة مساجد .

(49) كنيدي (الجزائر وتونس . .) ج 1 ، ص 126 . ويذكر الكاتب أن ابن عودة كان من الأثرياء ، وأنه قبل أن يدفع للفرنسيين عشر ما تدفعه أولاد مختار من الضريبة .

(50) انظر ل . ڤان (المجلة الأفريقية) ، 1873 ، ص 472 .

الوطن ، وهم : فرحات بن سعيد (1841) ، ومصطفى بن اسماعيل (1843) .

ومن أعمال التدجين التي ارتكبها بوجو بين 1841 ـ 1843 نفيه لمجموعة من النسوة إلى جزيرة سان مرغريت أيضاً . والغالب على الظن أن هؤلاء النسوة كن رهائن لانضمام أزواجهن أو أبنائهن إلى المقاومة ضد العدو . أو فعل بهن ذلك تخويفاً لأهلهن ، خصوصاً إذا عرفنا مدى حرمة المرأة عند العرب والمسلمين . وقد درس أحد الكتاب عدداً من ملفات السجناء في الجزيرة المذكورة خلال ذلك العهد فوجد فيها أسماء تسعة من النساء كن سجينات هناك ، وهذه قائمة بهن :

خيرة ،امرأة من قبيلة صبيح ، ناحية الشلف.

روبة ، أم الخليفة ابن دحمان ، الذي ثار على العدو بعد إعلانه الطاعة له .

سيفة ، زوج أحمد بن عدة ، (نفس الدافع) .

خيرة ، بنت الطاهر ، زوج عبد القادر بن الحاج (نفس الدافع) .

عربية ، زوج الخليفة ابن دحمان (نفس الدافع) .

ياسمينة ، (لا شيء أمام اسمها ـ نفس الدافع) .

خيرة بنت جلول ، ام ابن هني بوزيان (نفس الدافع) .

خيرة بنت هني ، ابنة بوزيان (نفس الدافع) .

خيرة بنت خليفة ، (لا شيء أمام اسمها ـ نفس الدافع)[51] .

وقد لعبت النساء دوراً بارزاً في المقاومة الوطنية جديراً بالذكر . وذكرنا زوج الآغا ابن الحملاوي التي دافعت عن زوجها أثناء احتجازه في سان مرغريت أيضاً . ولعلنا نعود إلى موضوع المرأة في تاريخ الحركة الوطنية .

وإلى جانب عملية التدجين التي تشمل النفي والطرد ، والإرهاب والإغراء ، والسجن والارتهان ، ضرب بوجو مثلاً آخر في سياسة القهر التي اتبعها ضد الجزائريين والتي أحرز بمقتضاها على لقب (قاهر الجزائر) وعلى عصا المارشالية ، ونعني بذلك المجزرة الرهيبة التي وقعت في اولاد رياح بغار الفراشيش في ناحية الظهرة في شهر يونيو ، 1845 . وكان جلاد هذه المجزرة هو العقيد بيليسييه ، الذي سيصبح جنرالاً ثم مارشالاً أيضاً ، فيما بعد ، وحاكماً للجزائر خلال الستينات . لقد

---

(51) ياكونو (المجلة التاريخية المغربية) ، العدد الأول ، 1974 ، ص 46 .

شغلت هذه المجزرة الصحافة الفرنسية والدولية في وقتها وتناولها الأدباء والكتاب، واستفظعها الرأي العام، وأثارت ضجة في برلمان فرنسا وإعلامها وهزت الجزائريين في الصميم فجعلتهم يزدادون نقمة على العدو وتكاتفاً وراء المقاومة الموحدة بقيادة الأمير عندئذ.

وخلاصتها : إن معركة كبيرة وقعت خلال يناير 1845 بناحية الظهرة تعرف عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية، شاركت فيها على الخصوص : القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبية وفروعها. وكانت قبيلة أولاد رياح التي شاركت في الانتفاضة تقطن جنوب تنس. فغزاها بيليسييه وحطم أملاكها وأحرق ما وجد منها طبقاً لسياسة الأرض المحروقة التي جاء بها سيده بوجو، وقد فرت القبيلة وهي تحارب، ناحية غار محصن نوعاً ما، يسمى غار الفراشيش، تذكر المصادر أن له مدخلين، الرئيسي في الجنوب الغربي من الجبل والثانوي من جهة الجنوب الشرقي. احتمت القبيلة، وعددها أكثر من ألف شخص رجالاً ونساءً وأطفالاً مع حيواناتهم، بالغار يوم 17 يونيو، ويطلق العدو على أفراد القبيلة اسم «الثوار» (بما في ذلك الأطفال والحيوانات !) وتقول مصادر الفرنسيين أيضاً أن الغار عبارة عن حصن طبيعي فإذا تمكن الثوار المسلحون من مدخليه فإنهم يظلون أسياد الموقف بسهولة. حاصر بيليسييه وجنوده الغار من جميع الجهات وطالب القبيلة بالاستسلام، فأجابته بالرصاص. ولكن العقيد الشجاع، رافع راية الحضارة والانسانية، جلب أكداس الحطب وأحاط بها الغار وأخذ في إيقادها عند المداخل، ليجبر القبيلة على الخروج والاستسلام أو الموت اختناقاً بالدخان. ومضى اليوم الأول، يوم 18/17 من الشهر دون خروج أحد، ولما حل الليل جلب العقيد تعزيزات الجيش التي كان قد تركها وراءه وجلب المزيد من الحطب وضيق الحصار على الغار، وضاعف من إيقاد النار.

وتذكر الروايات الفرنسية أن الليل كان مقمراً، وأن عملية المراقبة كانت سهلة بحيث لا يمكن أن يفر من الغار أحد دون اكتشافه. ولكن أضيف إلى ضياء القمر لهيب النار الذي تزيده نسمات ليل يونيو تصاعداً ولمعاناً. مع ذلك فقد فر عربي من الغار عن طريق الوادي المتصل بالغار، بعد أن أصيب برصاصة، ووصل إلى قايد الزريفة، سيدي العريبي ليخبره بأن القبيلة في حاجة إلى الماء. وتفنن العقيد الفرنسي

في تكويم الحطب عند مداخل الغار مع مطلع النهار وزاد لهيب النار اشتعالاً والدخان كثافة . واستمر ذلك طول النهار الثاني رغم ان القايد ، سيدي العريبي ، أخبر العقيد بأن القبيلة تموت عطشاً . ورغم وجود مفاوضات بين الحين والأخر ، فإن العقيد أصر على الاستسلام أو الموت الزؤام خلال ربع ساعة ! وعندما انتهت ربع الساعة ، ضاعف العقيد من عملية « التدخين » في مداخل الغار ، أو كما قال بعضهم « عملية تحميص العرب وشوائهم على النار بدم بارد » وارتفعت سحب الدخان أكثر مما مضى حتى غطت أعلى الصخور بالجبل ! وتواصلت العملية طول الليلة الثانية . ورغم أن العقيد قد أصابه العياء في منتصف الليل فإنه أعطى تعليماته باستمرار التحميص والشواء للنساء والأطفال . وقبل طلوع النهار بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار . وكان ذلك إعلاناً باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار الذي تحاصره النيران والدخان منذ يومين وليلتين ، وتحيطه الذئاب الجائعة لفرائس الإنسان ![52].

ان التقرير الرسمي الذي كتبه بيليسييه عن جريمته وأرسله من خلال سيده بوجو إلى وزير الحربية قد أخفاه هذا عن زملائه وعن البرلمانيين بعض الوقت حتى تهدأ العاصفة التي أثارها ، ومع ذلك فالأخبار تسربت ، كما تسربت أخبار مجازر قالمة وسطيف وخراطة في شهر مايو ، سنة 1945 (لاحظ مرور قرن بالضبط بين الجريمتين !) . ومعظم الكتاب متفقون على أن عدد المختنقين قد تجاوز الألف ، غير أن بعضهم يجعل الرقم 750 ، وبعضهم يجعله ألفاً ، وبعضهم 800 . أما التقرير الرسمي المذكور فقد تحدث عن أكثر من 500 شخص[53] . وحين لم يصدق العقيد بيليسييه ما رواه له عداده عن عدد المختنقين قام هو بنفسه بعملية العد ، فإذا بالرقم وصل إلى 600 . ولاحظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان

---

(52) يوجد وصف معاصر للمجزرة بقلم كلاراف . دي بيتيني (الجزائر) ، 1859 ، ص 183 ، 192 (شاهدت وكتبت ما كتبت سنة 1845) . ومن الكتاب الفرنسيين المتأخرين الذين حاولوا تجميع الآراء حول المجزرة الرهيبة ، ر . بوسكي Busquet (المجلة الأفريقية) 1907 ، ص 119 - 123 . كما يوجد وصف معاصر لها كتبته جريدة (التايم) البريطانية ، 19 يونيو ، 1845 و 14 يوليو ، 1845 .

(53) هذه الأرقام كلها موجودة في المصادر المذكورة . وقد رجح بوسكي الرأي القائل بألف مختنق .

الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم أو داخل ثيابهن ، كما أنـه قد أهمل عدّ الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها ، كما لاحظ كاتب آخر أن الغار لم يفرغ كله من المختنقين لعدهم ، بل بقي فيه بعض المخلفات البشرية !

لقد كان المنظر الذي وجدت عليه الجثث رهيباً ومرعباً حرك كل الضمائر وجعل بعضهم يقول انه منظر فظيع لم يحدث مثله في التاريخ(54) . وقد علقت (التايم) على ذلـك بقـولهـا انهـا « مـذبحـة فـظيعـة . . . جعلت حتى المتـوحشين يخجلون . . . »(55) فقد هاجت الحيوانات داخل الغار ورفست الأطفال والنساء ، وكان الرجال يحاولون وقفها فيمسكونها من قرونها أو من أرجلها . وكم من رجل وجد متشبثاً بقرني ثور دفاعاً عن طفله وزوجه ! وكم من طفل وجد ملتصقاً بصدر أمه والدم ينزف من فمه وفمها ! وقد لاحظ الملاحظون عندئذ أن الجثث كانت عريانة دليلاً على الاضطراب والانتفاض العنيف الذي أصابها قبل الموت بينما كان الدم يخرج من الأفواه . ولم يخرج من الغار إلا حوالي ستين شخصاً مات أربعون منهم في الحال ، وعشرة بقوا في حالة خطيرة وعشرة فقط استطاعوا التغلب على الموت . ومع ذلك فقد اندفع جنود بيليسييه وبوجو ينهبون الموتى ! ويقول أحد المعـاصرين للجـريمة ان الجنود أخذوا كل الأشياء التي وجـدوها مـع المختنقين ، حتى البرانيس الملطخة بالدماء ، والأشياء الذهبية ، وغيرها .

أما وزير الحربية الفرنسي (سولت) الذي تتبعه الجزائر إدارياً فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من بيليسييه وعـدم نشره في جـريدة (المونيتور يونيفرسال) ، كما جرت العادة ، وامتدح ممثله في الجزائر ، بوجـو ، على صنيعه . وأما بوجو فقد امتدح العقيد بيليسييه على ما قام به نحو قبيلة رياح . وقامت صحيفة (الديبا) تمدح ضباط الجيش على عملهم في الجزائر ، كما قامت صحيفة (الجزائر الفرنسية) التي كان يصدرها بوجو في الجزائر بوصف الجريمـة وأثنت على مرتكبيها . ولا ضرورة إلى القول بأن صحافة المعارضة قد لامت بوجو وبيليسييه ، وحملتهما المسؤولية(56) . وقال بعضها إنه كان بإمكان الأخير أن ينتظر

---

(54) دي بيتنييه (الجزائر) ، ص 183 .

(55) التايم (لندن) ، عدد 14 يوليو ، 1845 .

(56) من الصحف التي تحدثت عن الجريمة جريدة (التايم) البريطانية التي أشرنا اليها ، وكذلك جريدة =

بعض الوقت لأن القبيلة كانت ستخرج لا محالة ما دامت في حاجة إلى الماء ، وإنه فعل فعلته بدم بارد ويتعمد واضح لأن عملية التدخين كانت تجري بانتظام وتفنن . ويذكر بعض المؤرخين أن بيليسييه قد مات (بعد عشرين سنة) وأشباح قتلى غار الفراشيش تطارده !

هذا جزء من « سياسة السيف » التي سار عليها بوجو أثناء حكمه للجزائر ، تدجين وإرهاب وقتل جماعي وإحتجاز الرهائن والتجويع والتعطيش وإقامة المحتشدات . أما سياسته المعروفة « بسياسة المحَراث » فهي التي عني بها الإستعمار عن طريق الإستيطان واغتصاب الأراضي الجزائرية وإعطاءها إلى المهاجرين الفرنسيين أو المتفرنسين من الأوروبيين الذين جاؤوا إلى الجزائر من مدن جنوب فرنسا وإيطاليا واسبانيا ، حفاة عراة ، جياعاً عطاشاً للإرتزاق والتملك . وقد أعطاهم بوجو الأراضي التي أعلن أن أصحابها ثائرون لحملهم السلاح ضد فرنسا أو الذين اتبعوا الأمير عبد القادر . وقد نشط في عهده نوعان من الإستعمار : (المدني) وهو الذي تم على أيدي هؤلاء الذين تحدثنا عنهم والذين كان يستجلبهم من فرنسا وأوروبا عن طريق الدعاية والإغراء بالوعود السخية . و (العسكري) وهو الذي شجع عليه الجنود ليصبحوا مستوطنين وذلك بتزويجهم ومنحهم الأرض اللازمة والمعدات الضرورية للحرث والإستقرار ، حتى اشتهرت طريقته هذه عند المعاصرين بإسم « زواج الطبول » إذ كثر دق الطبول العسكرية وعزف الموسيقى للإحتفال بزفاف الجنود وتوزيع الأراضي عليهم ، وتقليدهم رمزاً يتمثل في سيف باليد اليمنى ومحراث باليد اليسرى ليستقروا ويدافعوا عن أنفسهم ضد العرب المتوحشين ! .

6. الحرب الأخرى : من الأسقفية إلى الجوسسة :

(من الأسقف دوبوش إلى الجاسوس روش) .

لم يكن عهد بوجو في الجزائر كله عهد السيف والمحراث أو الحرب

= اسبانية تسمى (الهيرالدو) فقد نشرت في حينها تقريراً لضابط اسباني كان يعمل في الفرقة الفرنسية التي حاصرت الغار . ويقول بوسكي عن هذه الصحيفة انها كانت « موجهة وهي ضد جيش أفريقية وضد بيليسييه » . لماذا ؟

والإستعمار ، كما يشاع عنه ، فقد كان أيضاً عهد الغزو الديني والفكري . ذلك ان بوجو كان يخطط لدمج الجزائر في فرنسا حضارياً ، ومن أجل ذلك جند كل الطاقات لفرنسة الجزائر لغوياً ودينياً وإجتماعياً ، بالإضافة إلى فرنستها إقتصادياً وجغرافياً وسياسياً . لقد إزدهرت في عهده الكنيسة الكاثوليكية حتى لقد أصبحت تشكل الطابور الخامس للجيش والإدارة الإستعمارية ، وتعززت بشبكة من الجواسيس المهرة الذين يزعمون للقادة الجزائريين أنهم قد أخلصوا لهم . وانطلقت المحاولات للغزو الفكري عن طريق أخذ الرهائن العرب إلى فرنسا وإدخالهم في الثقافة الفرنسية والمجتمع الفرنسي رغم أنوفهم وأنوف ذويهم ومجتمعهم . وتأكد بوجو ومستشاروه أن المرأة الجزائرية تمثل حصناً منيعاً في وجه هذا الغزو ، ولذلك أوعزوا إلى مغامرات فرنسيات بدخول هذا المجتمع المغلق ، مجتمع المرأة المسلمة وإخراجه من عزلته والتأثير عليه عن طريق الفرنسة ، وهكذا قامت كل من السيدة (اليكس) والسيدة (لوس) بإنشاء مدرسة للطرز والخياطة للفتيات المسلمات ، كما سنرى . وإلى جانب هذا الغزو المتعدد الجوانب ، هناك أيضاً التعاون على تحطيم المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري العربي المسلم : فالقضاء على المساجد والتعليم القرآني وتأميم الأوقاف ، ونفي العلماء ، واضطهاد العربية ، كلها كانت تتماشى مع السياسة المذكورة .

إن النصوص العديدة التي كتبها الفرنسيون وهم يستعدون للحملة تعكس الروح الصليبية والهدف الديني الذي كانوا يرمون إليه من وراء غزو الجزائر . ومنذ أن احتلوا مدينة الجزائر كانت تصرفاتهم العامة توحي بذلك وتعبر عن تعصبهم الديني . فالإستيلاء على المساجد وتهديمها وتحويلها إلى كنائس بدأ منذ اللحظات الأولى كما عرفنا ، وإقامة القداسات وصلوات الشكر ، والحفر على بقايا المسيحية منذ عهد الرومان ، واعتبار الإحتلال عملية امتداد واسترجاع لسيطرة المسيحية ، كل ذلك وغيره صورة لما كان يحمله الفرنسيون في الجزائر من نوايا ومشاريع دينية ـ صليبية . وأقول هنا « الفرنسيين » دون تمييز ، لأن هناك من يقول ان هناك فرقاً بين القيادة العسكرية والقيادة الدينية ، وان هناك صراعاً بين القيادتين في الجزائر . والواقع انه لا فرق إلا في الوسائل والإعلان والدرجة . ذلك ان العسكريين والمدنيين الإداريين كانوا يريدون المسيحية في الجزائر ببطء وبدون ضجة وبدون تظاهرات حتى لا يثور

المسلمون إذا كانت المعاملة بالمكشوف والمباشرة . أما رجال الدين فقد كانوا يظهرون الحماس الصليبي ويعتبرون رسالتهم حرباً مقدسة يخوضونها في قلب إفريقية وفي قلب الإسلام . وكان رجال الدين في الحقيقة متشجعين برجال السيف ، ولولاهم لما قدروا على زرع أنفسهم في الجزائر ، كما ان رجال السيف كانوا معتمدين على رجال الدين في كثير من تحركاتهم لأنهم كثيراً ما مهدوا لهم الطريق وأعدوا لهم الأرض لاعتداء جديد على المسلمين . وهكذا كان الطرفان يكملان بعضهما البعض ويغطيان بعضهما البعض كما تتغطى اليد بالقفاز !

ولقد صدق (جان بوجولا) عندما قال صراحة إن إحتلال الجزائر كان استمراراً للحروب الصليبية : « إن حربنا الإفريقية إذن ما هي إلا إستمرار للحروب الصليبية » . قال ذلك وهو يتحدث عن كون أوروبا أنقذت المسيحية من الإسلام أثناء معركة بلاط الشهداء ، وأثناء الحروب الصليبية . وقد طالب فرنسا (بلاده) بأن تعمل على حصر الإسلام في آسيا ، بعد أن خلصت أوروبا من لصوص البحر ، « ووضعنا أنفسنا على الأرض الإفريقية كورثة للرومان القدماء ، وقد زرعنا في قلب هذا البلد (الجزائر) الفكرة الفرنسية ، الفكرة المسيحية »[57] . ولاحظ بوجولا أيضاً انه إذا كان المسلمون في المشرق يسمون المحاربين الصليبيين « الشعب (الأمة) الحديدي » Nation de Fer فإن مسلمي افريقية (يقصد الجزائر) قد اكتشفوا هذا الشعب الحديدي منذ 1830[58] . إن بوجولا لم يأت إلى الجزائر في عهد بوجو ، سائحاً عادياً وإنما جاء إليها باحثاً عن آثار القديس أوغسطين وغيره مثل سيبريان . وهو يسمي نفسه « مؤرخ القديس أوغسطين » ودعا (بوجولا) بلاده إلى توطين المارونيين في الجزائر ليكونوا لها نعم الرافد . وقد دعا إلى نفس سياسة بوجو نحو العرب المسلمين : إستعمال القوة ، لأن اللين لا يجدي مع المسلمين ، معتبراً أن كل

(57) بوجولا (دراسات أفريقية) ، ج 2 ، ص 14 . لاحظ أنه يستعمل أفريقية دائماً للدلالة على الجزائر على عادة الفرنسيين عندئذ ، وقد زار الجزائر هو سنة 1844 وبقي فيها سنتين . وكانت أفكار بوجولا مقدمة لأفكار برتراند لويس صاحب مجلة (أفريقية الرومانية) والذي كان يعتبر العهد الفرنسي امتداداً للعهد الروماني ، وطالما تطاول لويس على الاسلام والمسلمين في بلادهم .

(58) نفسه ، ص 16 .

مستوطن فرنسي (كولون) إنما هو داعية للحضارة الأوروبية ـ المسيحية[59] .

وقد استمر النشاط الديني ـ الصليبي طيلة السبع سنوات الأولى للإحتلال بدون هوادة ، خصوصاً في مدينة الجزائر ، وفي المدن الأخرى التي وقعت تحت الإحتلال ، مثل وهران وعنابة[60] . ولم تأت سنة 1838 حتى تأسست أسقفية الجزائر التي باركتها الفاتيكان ، وأسدل عليها الملك والملكة غطاء الرضى والغفران . وقد صاح بوجولا عندما وصل الجزائر بعد التاريخ المذكور بست سنوات ، صاح فرحاً مغتبطاً قائلاً : لقد أصبحت الجزائر أسقفية كاثوليكية ! ذلك هو الغزو الفرنسي ! وذلك هو تاج النصر ! إنه لعمل يتوج الفكر المسيحي في قلب الإسلام! إنه لوصل للسلسلة الذهبية التي صنعها سيبريان وأوغسطين والتي كانت قد انقطعت منذ أربعة عشر قرناً من الوحشية ![61] لقد كان أول أسقف يتولى إدارة الأسقفية ويرسي أركانها هو دوبوش Dupuche الذي كان اليد اليمنى لفاليه وبوجو في حربهما ضد المقاومة والذي اشتهر بزيارته للأمير عبد القادر في معسكر ليقابله في الظاهر بشأن الأسرى وليتجسس عليه في الباطن لحساب بوجو .

لقد عمل دوبوش منذ توليه ، على الربط بين دور الكنيسة ودور الإستعمار ، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال . وكان المقدمة التي مهدت لظهور الكاردينال لافيجري الشهير بعدائه للإسلام والمسلمين . ولم ينتظر دوبوش مجيء بوجو ليبدأ عمله التبشيري ـ الإستعماري ، فقد تحدثت المصادر عن جمعه لرؤساء الدين الإسلامي واليهودي والبروتستانتي في حفلة ودعوتهم للتصافح أمامه وأمام الحاضرين[62] . وكان ذلك سنة 1839 ، وبحضور المارشال فاليه . ويذكر نفس المصدر إن هذا المارشال قد وعد الدوق أورليان عند قدومه إلى الجزائر بإنشاء كنيسة ثالثة بإسمه حتى يرضي أمه (الملكة) ويدخل عليها السرور . وحضر أورليان رفقة

---

(59) نفسه ، ص 166 .

(60) عرفنا سابقاً كيف حول العدو جامع كتشاوة الى كتدرالية الخ .. انظر الفصل الأول .

(61) بوجولا ، المرجع السابق ، الجزء الأول، ص 31 .

(62) الدوق أورليان (وصف حملة) ، ص 208 ، وقد عرفنا أن أورليان هو ابن الملك الفرنسي لويس فيليب، .

المارشال قداساً في مدينة الجزائر يقوده دوبوش ، وقد حضرته أيضاً عائشة ، تلك المرأة التي كانت قد أثارت ضجة في الأوساط الإسلامية عندما عمدها رجال الدين الكاثوليك (1834) وهربوها إلى فرنسا ، رغم أهلها ، كما حضرها معهما « الأخوات » المسيحيات[63] .

وبمجرد احتلال قسنطينة أقيم فيها أيضاً القداس الديني ، وحول مسجد من أجمل مساجدها إلى كنيسة كاثوليكية ، وتحولت أنشطة الأسقفية إلى هناك أيضاً . وها هو أحد المصادر يروي لنا أن دوبوش قد أرسل الأب سوشي إلى قسنطينة سنة 1839 ليكون مسؤولاً عن كنيستها الجديدة . ولاحظ الكاتب أن سوشي هو أول راهب يحل بقسنطينة منذ أربعة عشر قرناً ، وهو يعني منذ الفتح الإسلامي طبعاً ، ولاحظ على سوشي هذا أنه كان متعلماً ومليئاً بالحماس الديني ، وإن المسلمين يسمونه (المرابط الفرنسي) . ونصح الكاتب بلاده بأن تترك الحرية لهؤلاء « المرابطين » الجدد في افريقية (الجزائر) لأن ذلك من مصلحتها السياسية . ذلك انه تأكد لديه أن المسلمين يعتقدون أن من لا دين له لا قيمة له . ومعنى ذلك أن الكاتب ينصح قومه بأن يكونوا متدينين ، وحتى متعصبين في الدين ، ليحترمهم المسلمون . ولم يحل سوشي وحده بقسنطينة بل إنه جاء بعدد من (أخوات الخير) أو (أخوات القديس يوسف) ، فقد كن يعملن تحت إشرافه . وكانت مهمتهن الظاهرة تعليم ومداواة العرب . وقد أصبحن ، كما يقول الكاتب ، معروفات بالخصوص لدى النساء العربيات ، لأنهن يتكلمن العربية مثلهن ، وأصبح اسمهن معروفاً حتى في الصحراء . والجدير بالذكر أن الكاتب قد دعا بلاده إلى نجدة هؤلاء المبشرين والمبشرات الذين قال عنهم انهم « يحملون الشعلة الدينية المقدسة الى افريقية »[64] .

ولقد جند بوجو أيضاً الجوسسة لتحقيق مآربه. فنشطت المخابرات في عهده نشاطاً ملحوظاً ، وأصبح كل (مكتب عربي) عبارة عن خلية جوسسة تتلقى التقارير وتتسمع في الأسواق على الجزائريين ، وتلتقط أسرار تحركات المقاومة ، وتحاول

---

(63) نفسه ، ص 221 . انظر قصة تنصير عائشة هذه في الفصل الأول .

(64) ستيفان ديستري (تاريخ الجزائر) ، تور ، ط 4 ، 1851 ، ص 305 ، وقد ألف الكاتب عمله سنة 1839 .

معرفة كلمات السر عند الناس ، ولا سيما عند الطرق الصوفية ، وكان فتح الرسائل أمراً عادياً ، وكان تتبع زيارات الناس بعضهم لبعض ومعرفة ما يدور بينهم قد أصبح تقليداً شائعاً ويكافأ عليه من يتقنه . وكان شراء الذمم والتأثير على الأفراد وحتى استعمال التعذيب والإرهاب لاستخراج معلومة من المعلومات ، هو طابع الحرب النفسية التي برع فيها رجال بوجو . ومن أبرز ما تفتقت عنه حيل الحرب المعنوية ذلك الدور الذي قام به ليون روش لدى الأمير عبد القادر.

إن الكتاب الذي ألفه ليون روش مليء بتفاصيل مغامراته التي لا يكاد يصدق الباحثون كل ما جاء فيه ، ولكنها في الأساس صحيحة . واسم كتابه (اثنان وثلاثون سنة في الاسلام) . وقد تناول حياة روش عدد من الباحثين وتتبعوا دوره في الجزائر وغيرها من البلدان التي زارها ، حاملاً رسالة بوجو ، متظاهراً بالإسلام ومبطناً للكفر . وكم في العالم الإسلامي من مغرورين ومغفلين ينخدعون له ولأمثاله حتى في وقتنا الحاضر ! وكأنه يكفي أن يقول لنا أحدهم انه اعتنق الإسلام حتى نستقبله بالأحضان ونفتح له بلادنا وبيوتنا وقلوبنا وأسرارنا ! ولم تكن مهمة ليون روش هي التجسس على أحوال المسلمين فقط ، ولكن الحصول من علمائهم على فتوى تقول للجزائريين : كفوا عن الجهاد ضد فرنسا وارضوا بقضاء اللّٰه وقدره !

ليس من غرضنا عرض حياة روش وذكر شطارته أو مهارته في الوصول إلى هدفه الخطير ، فقد تحدث عن ذلك بنفسه في كتابه المذكور ، ودرسه بعض الدارسين المحدثين[65] . ويكفي أن نذكر كيف جند بوجو هذا الجندي المغامر وجعل منه أداة فعالة لكسب حربه ضد الأمير وضد المقاومة الوطنية . جاء ليون روش إلى الجزائر بعيد الاحتلال (سنة 1832) وتعلم فيها العربية وقواعد الإسلام وعادات المسلمين وخالط أهل البلاد ، ثم أعلن إسلامه وسمى نفسه (عمر) ، وتوجه نحو الأمير وأعلن

---

(65) انظر كتابه هو (اثنان وثلاثون سنة . . .) ، جزآن ، باريس ، 1884 .

وكذلك دراسة يوسف مناصرية عنه بعنوان . مهمة ليون روش في المغرب والجزائر ، مذكرة ماجستير ، ط 1989 .

وفي كتاب ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الاسلامية) ، 1897 ، تفاصيل على مهمته وصورة للفتوى التي حصل عليها الخ .

له اسلامه وتقرب منه وخدمه وتودد إليه ، حتى اغتر به ، وقربه منه إلى أن أصبح كاتبه الخاص ، على ما تقول الروايات . وقد أطلعه الأمير على أسراره ورافقه في حله وترحاله ، وزوجه من امرأة مسلمة وأقامه بين أصحابه ، وتحدث إليه في قضايا عديدة . والغريب أن بعض أصحاب الأمير قد شك في هوية روش ، ولكن الأمير دافع عنه ، لأنه كان محل ثقته.

وفي سنة 1842 أحس بوجو بالحاجة إلى عزل الأمير ليس فقط عن قومه من الجزائريين، بل أيضاً عن قومه الأوسع من العرب والمسلمين . فقد كان الأمير طائر الصيت كمجاهد وحيد تقريباً في العالم الإسلامي وكان ينظر إليه انه من عظماء المسلمين في ذلك العهد ، سواء في المغرب أو في المشرق ، حتى ان أمير الحجاز قال عنه عندئذ انه لا يوجد من كان يخدم الإسلام سوى الأمير عبد القادر وشمويل الداغستاني[66] . وإذا كان بوجو له الجيش والمدافع والرصاص لقهر الأمير عسكرياً ، فليحصل على فتوى دينية تجعل المسلمين الجزائريين ينفضون من حول الأمير . وتنكر روش للأمير ، وأظهر حقيقة أمره ، وفر منه إلى قومه الفرنسيين فكلفه بوجو بالمهمة الخطيرة الثانية والفعالة في آن واحد . لبس ليون روش لباس مقدم من مقدمي الطريقة التجانية ، وتسمى باسم (عمر بن عبد الله الجزائري) ، وارتفق عدداً من العملاء أو البلهاء الجزائريين . كان على رأسهم محمد التجاني (من الطريقة التجانية) ، ومقدم إحْدَى الطرق في سيدي عقبة ، ومحمد المزاري ، آغا الدوائر المشهور الذي كان مع الأمير ثم تحول عنه ، وميلود بن سالم الاغواطي (لعله من عائلة أحمد بن سالم) مقدم الطريقة التجانية بالأغواط.

توجه الركب المزور إلى الأماكن التي يحترم الجزائريون رأيها الديني ، فبدأ أولاً بالقيروان ، وثنى بالأزهر ، وثلث بالحرم المكي . حصل على نص الفتوى من علماء القيروان ، ووافق عليها علماء الأزهر ، ثم صدق عليها علماء الحرم . ومفادها

---

(66) الداغستاني زعيم مسلم حارب التدخل الروسي في بلاده فاعتقلوه في بلادهم ، وطال أمد اعتقاله حتى تدخل الأمير عبد القادر لصالح اطلاق سراحه ، بعد أحداث الشام 1860 ، فأطلق القيصر الروسي سراح الداغستاني فاختار الحجاز حيث توفي . انظر عنه (تحفة الزائر) للأمير محمد باشا ، ط . 1 ، 1903 .

انه يجوز للمسلم وقف الجهاد إذا كان يعرف انه لا قبل له بالعدو ، وان الجهاد في هذه الحالة يصبح ضرباً من الانتحار لا يجوز الإقدام عليه ، وان الرضى بقدر الله وقضائه ، ولو لفترة محدودة ، جائز بل واجب . وبعد أن وصل روش إلى الحجاز توجه إلى أميره الشريف عون، للموافقة على نص الفتوى. وقد جمع هذا الأمير مجلسه العلمي للنظر والموافقة . وعندما انعقد المجلس تقدم محمد التجاني بقراءة النص بإسم روش . ويذكر روش نفسه ان العالم الوحيد الذي حضر المجلس وعارض نص الفتوى الخبيثة بشدة هو محمد بن علي السنوسي ، مؤسس السنوسية فيما بعد[67] .

ونحن لا ندري مدى تأثير هذه الفتوى على الرأي العام الإسلامي في الجزائر ، ولكن الذي لا شك فيه ان بوجو قد روجها لدى الذين فرض عليهم حكمه من المرابطين والأعيان والقادة والقبائل المغلوبة على أمرها ، إذ جعل الفتوى منشوراً يقرأ في الأسواق وبين الخيام وفي حلقات الذكر الصوفية ونحو ذلك ، ولا شك أيضاً انه جند الكنيسة وإخوتها وأخواتها للدعاية للمنشور وعزل الأمير عن الناس. وتثبيط عزائم الجهاد.

وبالإضافة إلى هذا النوع من الحرب النفسية الذي لجأ إليه بوجو في حربه الشاملة ضد المقاومة الجزائرية ، لجأ إلى حمل بعض الجزائريين كرهاً إلى فرنسا إما كرهائن وإما في شكل زيارات اجبارية . وقد عرفنا ان سياسة غسل الأمخاخ والترويض الثقافي بدأت في عهد كلوزيل ، وتابعها فاليه ثم بوجو ، وهذا الأخير هو الذي جعلها سياسة ـ حربية إذا صح التعبير . فنظراً لطول مدته كحاكم ونظراً للإمكانات العسكرية التي كانت لديه (حوالي 80 ألف جندي) ، فإن سياسة الدمج الثقافي قد ازدهرت في عهده أكثر من العهد السابق . ونحن وإن كنا سندرس هذه الظاهرة في كتابنا الثقافي ، فإننا نكتفي هنا بالإشارة فقط إلى النمط الذي يستعمل لهذا الغرض . بالنسبة للرهائن ، كان بوجو يأمر بالقبض على الشبان الذين ينتمون إلى عائلات بارزة (مرابطون ، أعيان ، محاربون . . .) رفع قادتها السلاح في وجه العدو ، ثم يحملهم إلى فرنسا لضرب عصفورين بحجر واحد : كرهائن إلى أن

---

(67) انظر ليون روش (اثنان وثلاثون سنة . . .) ج 2 ، ص 130 ـ 131 . والمعروف أن محمد بن علي السنوسي قد خرج من الجزائر بعد الاحتلال وتوجه الى المغرب ، ثم الى الحجاز ، قبل أن يعود الى المغرب العربي ويؤسس طريقته المعروفة ، ويقول عنه روش عندئذ أنه كان « خطيراً جداً على الفرنسيين » ، وذكر ذلك لقنصل فرنسا في طرابلس . وسنعرض للسنوسي في فصل لاحق .

يضطر ذووهم لوضع السلاح وطلب أولادهم ، ثم كوسائل أو أدوات للتأثير الحضاري على عائلاتهم وبلادهم في المستقبل . فقد كان هؤلاء الرهائن الشبان (عادة من 15 إلى 19 سنة) يحملون إلى مؤسسة معروفة باستقبال المسلمين في باريس ويجعلون تحت تصرف خبير في شؤون الاسلام والعرب ، يراقبهم ويوجههم ويعهد بهم إلى من يعلمهم ويقدم عنهم التقارير إلى السلطات التي أرسلتهم الخ . بل ويذهب معهم في زيارة منظمة إلى الجزائر فيما بعد لزيارة أهلهم ومراقبة مدى التطور الذي حدث في شخص الفتى بين تقاليده والتقاليد الجديدة التي اطلع عليها أو اكتسبها.

وكمثال على ذلك نذكر أولاد قواد الأمير الذين وقعوا في قبضة العدو نتيجة الاستيلاء على الزمالة سنة 1843 ، ومجموعة من شبان العاصمة كان كبار عائلاتهم قد التحقوا بالأمير أيضاً . ومن هؤلاء أحمد بن رويلة وعلي الشريف وعمر الرميلي ، وعبد الرحمن البونطيرو ويوسف بن حفيظ (حفيز) . فهذا ابن رويلة كان عمره 13 سنة عندما قبض عليه في معركة الزمالة . وكان والده هو قدور بن رويلة كاتب الأمير الخاص . فقد ولد سنة 1830 ، وحمله الفرنسيون إلى باريس ، وأدخل مؤسسة يشرف عليها السيد (دوميان كور)[68] ، ثم دخل مدرسة سان سير ، وأصبح مترجماً بارعاً ، ثم أصبح عاملاً في المكتب العربي ، إلى أن قتل أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ في جهة طاقين سنة 1864 ، وهو نفس المكان الذي قبض عليه فيه سنة 1843 . ومثل ذلك يقال في غيره من الذين أصبحوا خلال الخمسينات والستينات من العناصر المندمجة في الحضارة الفرنسية والعاملة في صفوف إدارة العدو[69].

أما النمط الثاني فهو إجبار بعض الأعيان على زيارات منظمة لباريس والقيام بعملية غسل مخ محكمة ، فهم كانوا يحملون في بواخر لا علم لهم بها ويحاطون

---

(68) كتب دومیانكور تقريراً عن هؤلاء (الأولاد) سنة 1845 اثناء مرافقتهم الى الجزائر لزيارة ذويهم ، وتقريره هام جداً ، اذ يصف فيه الحالة النفسية والاجتماعية للعائلات الجزائرية وهي تستقبل ابناءها . وقد قدم التقرير لبوجو ووزير الحربية . انظره في اوشيف ايكس رقم 1571 , F80 .

(69) عن أحمد بن رويلة ومصيره انظر موضوعنا (من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي) ، خصوصاً رسائل علي بن الحفاف الذي هو خال ابن رويلة في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) جـ 3 ، ط . بيروت ، 1990 . وكذلك شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، ص 307 ـ 309 . وكذلك تروميلي (المجلة الأفريقية) ، 1878 ، ص 363 .

بأبهة مقصودة ، وتكتب عنهم الصحف لإثارة الفضول نحوهم ، ويزورون المتاحف والمسارح والساحات ونحو ذلك ويعلمون بعض الكلمات الفرنسية ، ويختلطون في الحفلات بالرجال والنساء اللائي يؤتى بهن خصيصاً لهذه المناسبات . وأخيراً يقابلهم الملك والوزير وبعض الشخصيات ، وتوزع عليهم الهدايا والأوسمة والألقاب ، ويستمعون إلى عبارات الشكر والإطراء على أنهم ليسوا كغيرهم ممن لا يعترفون بالجميل ولا يقدرون العمل الحضاري الذي تقوم به جيوش بوجو ، وان عليهم أن يكونوا دعاة لفرنسا ورسالتها في الجزائر ، الخ . وقد شارك في هذه الزيارات المنظمة عدد من أعيان الحكم والعلم ، بعضهم من المدن وبعضهم من الأرياف ، كما اختيروا لكي يمثلوا مختلف الأقاليم[70]. ومن هؤلاء الشاذلي القسنطيني والحاج محمد ابن الخروبي (من العلماء) وبوالخراص ابن قانة وأحمد بن أحمد، (من العائلات الحاكمة) بالإضافة إلى عدد آخر لا نعرف انتماءه ، منهم الأخضر بن واني ، والبروني ، وأحمد ولد مقران .

7. الغزو « الحضاري » :

إن الحرب الشاملة التي أعلنها بوجو ، في المجال العسكري والمعنوي ، قد أدت أيضاً إلى تدمير حضاري شمل جذور المجتمع الجزائري وقيمه وتركيبته ومقوماته . فقد أدت تلك الحرب الى اختلال في التوازن الاجتماعي والى اهتزاز في البنية الاقتصادية وأيضاً إلى تصدع في الكيان الثقافي . وها نحن نعرض نماذج من ذلك ، تاركين منه ما يمس الجوانب الثقافية الى كتابنا الخاص بذلك.

إن الحرب الضروس التي عرفتها الجزائر منذ 1830 والتي تدعمت وعممت منذ تولى بوجو قد أدت إلى تحطيم الاقتصاد الوطني حتى أن بعضهم قال ان بناءه قد احتاج الى أجيال . والواقع أنه لم يسترجع بناءه حتى بعد أجيال من الاستعمار ، لأن

---

(70) عن هؤلاء انظر كتابنا (القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني) ، ط 2 ، 1985 . انظر أيضاً مارسيل ايمريت « الحياة العقلية » في مجلة (التاريخ الحديث والمعاصر) ، 1954 ، ص 206 ـ 207 . وقد سبقت الاشارة الى إرسال بعض أعيان قسنطينة (خصوصاً : الفكون ، وقائد علي . .) في هذا النطاق .

الجزائري بقي على العموم في حالة فقر مدقع طيلة العهد الاستعماري . فالاقتصاد الذي يقوم في جله على الزراعة وعلى المبادلات التجارية بين الدواوير والمدن الداخلية قد تعرض الى شبه توقف نتيجة الحروب العنيفة ، ونقل السكان قهراً من بيئاتهم المعتادة الى بيئات جديدة خططها العدو ، ونتيجة عدم الأمن في الطرق الداخلية ، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية بل وحرثها واتلاف الحبوب في المخازن الأرضية أو المطامير . يضاف إلى ذلك أن معظم الأراضي الخصبة قد صودرت ، باسم الثورة على السلطة العدوة ، ووزعت على الأوروبيين الذين جاؤوا للاستعمار والاستيطان ، كما أن الأراضي الأخرى لم تعد تنتج لتوقف العمل بها من جراء الحرب والخوف . وشيئاً فشيئاً استولى العدو على وسائل التجارة الداخلية وراقب خطوطها وحولها الى فائدته ، كما أنه احتكر التجارة طبعاً مع الخارج.

أما اقتصاد المدن فقد تعرض الى هزة عنيفة بدوره جعلته يتوقف أو يكاد . فالهجرة أدت الى خروج رأس المال المحلي ، وتوقف الصناعات والحرف . وكان الاستيلاء على الأملاك بدون تعويض قد أدى الى افقار الطبقة الغنية وجرد المدن من مواردها الطبيعية . وقد عرفنا أن المضاربات المالية ، واستيلاء اليهود والتجار الأوروبيون على وسائل الانتاج والبنوك في المدن قد جعل الحضر (سكان المدن) يعجزون عن التنافس ويلجأون الى الهجرة ، أو يواجهون الفاقة . وكان معظم اقتصاد المدن في أيدي الجماعات الحرفية أو النقابات ، التي كان على رأس كل منها (أمين) مسؤول على انتاجها وضرائبها ومداخيلها لدى السلطة . ومنذ دخل الفرنسيون جعلوا هذه الجماعات الحرفية تحت نظرهم وحاسبوها حساباً عسيراً وضيقوا عليها الخناق الى أن أفلس الكثير منها وتولى الأوروبيون واليهود مهام تلك الجماعات . وقد تحول كثير من البرانية أو اليد العاملة الجزائرية التي تأتي الى المدن للاقامة المؤقتة من أجل العمل ـ الى عمال غير حرفيين ، بل ورجع البعض منهم الى نواحيهم[71].

وهكذا فإن الحروب الطاحنة في الأرياف والمصادرات والمضاربات في المدن قد أدت الى انخفاض كبير في عدد السكان ، إما بالقتل والنفي ، وهو الأغلب ، وإما بالهجرة . وقد قدم بعضهم احصاء لانخفاض عدد سكان الجزائر بَيْنَ 1840 ـ 1848

(71) عن البرانية في مدينة الجزائر سنة 1838 ـ 1839 ، انظر (طابلو) سنة 1838 ، ص 164 .

فكان حوالي 10٪ أي ثلاثمائة ألف نسمة قد خسرتها الجزائر عندئذ من سكانها[72]. وإن السحق الجماعي مثل حرب احتلال قسنطينة (1837)، والاستيلاء على الزمالة (1843) ، ومجزرة غار الفراشيش (1845) ، وغيرها كانت وراء هـذا الانخفاض الكبير . وأما النفي فقد عرفنا أن الفرنسيين قد استعملوه ضد الخطرين والمشبوهين ، بل إنهم أخذوا الى جزر نائية مجموعات كاملة من السكان . كما أن الأمراض والأوبئة أدت الى وفـاة عدد كبيـر من السكان ، ومن بينهـا : الملاريـا ، وحمى التيفـود ، والاسهال[73] الخ .

وأما الهجرة فقد أفرغت الجزائر من كثير من سكان المدن ، على الخصوص ، وكانت الهجرة فردية وأحياناً جماعية ، فقد توجه عدد من سكان مدن الغرب (وهران وتلمسان ، ومعسكر ، ومستغانم ، ومازونـة الخ .) الى المغـرب ، وبعضهم الى المشرق . وهاجرت عائلات وأفراد من العاصمة والمدية والبليدة وقسنطينة وعنابـة وبجاية الى تونس ، وبعضها الى المشرق أيضاً . فتناقص عدد السكان سيما الفئة المثقفة والغنية . وقد ظهرت فكرة الهجرة الجماعية بين العلمـاء ورجال الـدين ، وحتى عند الأمير، وهي دعوة الناس إلى الخروج من الجزائر كُلِّيةً ما دام الكافر قد تغلب عليها ، قياساً على هجرة الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) وأصحابه . ورغم أن هذه الدعوة لم يؤيدها كل العلماء ، فقد أثرت على بعض الناس ، وتسببت في هجرات عديدة . وتذكر المصادر أن بعض المرابطين قد دعوا أتباعهم إلى الهجرة حتى لا يقعوا في قبضة الكافر ، ومن هؤلاء الشيخ المهدي السُّكْلَاوِي في (منطقة سيباو) الذي دعا السكان سنة 1847 إلى الهجرة إلى بلاد الإسلام ، فهاجر كثير منهم إلى بلاد الشام (سورية)[74] .

ولم تكن الهجرة بدوافع دينية فقط ، كما يتخيل البعض ، وإنما كانت بدوافع اقتصادية أو كانت هروباً من الظلم والجور والاهانة . وقد تحدث الكتاب عن العديد

---

(72) دانزيقر ، (عبد القادر والجزائريون . . .) ، ص .

(73) وصف الدوق اورليان في كتابه (وصف حملة . . .) الأمراض الشائعة في المستشفيات بالجزائر ، سنة 1839 ، انظر ص 210 .

(74) ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الاسلامية . . .) ، ص 260 .

من العائلات الجزائرية التي كانت ثرية فأصبحت في عهد بوجو وغيره تمد يدها متسولة. ومن تلك العائلات: ابن الحفاف، ومصطفى باشا، وعلي بن عيسى، وحمودة الفكون، وبعض العائلات في بجاية[75] الخ . واذا كانت الشكوى من الظلم والاهانة قد تعرضهم الى الخطر فإن الشكوى من الفقر لا تسبب لهم ذلك ، ولذلك وجدنا العديد من الحالات الأخيرة . أما الذين تضايقوا من الاستبداد والاهانة فقد اختاروا الصبر أو الثورة أو الهجرة.

وبقدر ما تناقص عدد المسلمين في المدن تزايدُ فيها عدد الأوروبيين . وبدأت تظهر عليها سمات الفصل بين الحي العربي القذر والحي الأوروبي النظيف . ورغم الاختلاف حول عدد سكان العاصمة عند الاحتلال فإن بعضهم قد قدره بين 40 و70 ألف نسمة ، لم يبق منهم سنة 1841 سوى 16,000 نسمة . ولكن عدد الأوروبيين بلغ عندئذ 30,695 . وفي نهاية عهد بوجو (1847) وصل عدد الأوروبيين في مدينة الجزائر وحدها الى 42,113[76] . وقد لاحظ الكاتب بوجولا وجود مجتمعين متناقضين في هذه المدينة سنة 1844 : قبائل عربية تسكن أكواخاً كالحيوانات تحوط بها الروائح الكريهة ، ويرطن فيها بعض الفقراء بكلمات فرنسية ، بينما طفلان عربيان يلعبان أمام الكوخ بخبزة فرنسية مستطيلة في شكل بندقية . وقال الكاتب متعجباً : كيف يقارن المرء بين هذا المعسكر (المجتمع) العربي القذر وهذه المباني الفرنسية الكبيرة التي تحمل أسماء : مقهى النهضة ، ومطعم أوبلون ، وإلى جانبها ورشات العمل التي تمثل النشاط الأوروبي . ان وجود هذين المجتمعين اللذين رُمِيَ بأحدهما في وجه الآخر لهو من أكثر المناظر اثارة للفضول » . ولكن الفضول لا يكفي ! فإن الكاتب اعتبر أن وجود العائلات العربية في الأكواخ أمام مدخل باب عزون « إنما يشكل أفظع أنواع الذوق الوحشي أمام أبوابنا ! »[77] .

---

(75) انظر كتابات أوغسطين بيرك عن الموضوع ، خصوصاً تعاليقه في (موجز تاريخ الاقطاعية الجزائرية) ، في مجلة البحر الأبيض ، عدد 7 ، يناير ـ فبرآير 1949 ، وما بعدها ، وكذلك (البرجوازية الجزائرية) ، مجلة هيسبريس 35 (1948) .

(76) موريل (الجزائر) ، ص 91 ـ 92 .

(77) بوجولا (دراسات. . .) ج 1، ص 54. وقد لاحظ النقص في سكان العاصمة الدوق أورليان أيضاً. وأخبر سنة 1839 أنهم يتناقصون كل يوم ، وكان صريحاً فقال : أن الأوروبيين هم الذين جعلوهم =

وقد ذكرنا من قبل حكم الدوق اورليان على مدينة قسنطينة سنة 1839 حين دخلها كمحتفى به . وقد وجدها كما قال مخربة الديار قذرة الشوارع ، كثيرة الأمراض . . وهو بدون شك يعني بذلك الأحياء العربية فيها . وقد كان سكان قسنطينة سنة 1837 حوالي ثلاثين ألف نسمة ، فإذا بسكانها المسلمين لا يتجاوزون عشرين ألفا سنة 1845[78] وها هي قسنطينة قد حلت بها جالية أوروبية أصبحت تتضخم مع الزمن : 840 نسمة سنة 1843 ، و478 نسمة سنة 1844 . وأصدر بوجو مرسوماً في هذه السنة يقسم المدينة الى حي عربي وحي أوروبي ، لكي يساعد على نمو السكان الأوروبيين ، ونص أيضاً على امكان انشاء المؤسسات العامة في الحي العربي ، مما فتح المجال أمام الاستيلاء على المؤسسات الدينية وغيرها ، وضمها الى الدومين ، كما سنرى . وكان ذلك دافعاً من دوافع الهجرة ، حتى لقد قال أحد أدبائها وفقهائها ينعي هذه الهجرة:

يا أهل بلد الهوى ضعوا رحالكم   فما الرحيل عنها الاّ من الغلط[79]

وقد نزل أحد الأجانب بقسنطينة سنة 1845 فوصفها لنا بشيء من الفضول ، قائلاً : أنه نزل فيها (بفندق أوروبا) الذي كان قديماً داراً لأحد الأغنياء العرب ، وأن الفرنسيين قد أقاموا ساحة عند قصر الحاج أحمد ، وأن حاكم الاقليم قد اتخذ من القصر مقراً له ، وجعل فيه مكاتب وادارات ، من بينها المكتب العربي الذي يحكم البلاد فعلاً ، وانهم فتحوا بعض الشوارع الجديدة ، الخ . ومما أثار فضوله هناك (كما أثار فضول بوجولا في مدينة الجزائر) قوله أنه قد تلقى دعوة لحضور جنازة ابن صالح باي ، وكانت الدعوة قد وجهت الى عدد من المسيحيين أيضاً ، وكان جثمان الفقيد مسجى في الجامع ، الخ . ولكن الجديد في نظره هو طبع الدعوة وتوقيع أرملة

يتراجعون الى أعالي المدينة . وقال أن هؤلاء (الأوروبيين) سيصبحون بعد عشر سنوات هم السكان « الوحيدين » في الأحياء السفلى من المدينة ، وأن ذلك سيكون أفضل « للمستعمرة » ، أنظر كتابه (وصف حملة . . .) ، ص 208 .

(78) كنيدي (الجزائر وتونس) ، ج 2 ، ص 254 . انظر ما كتبناه عن عدد سكان قسنطينة في عهد الحاج أحمد .

(79) شارل سن ـ كالبر (المجلة الأفريقية) ، 1913 ، ص 80 . والبيت منسوب للشيخ الشاذلي القسنطيني .

الفقيد عليها ، وحضور الجنازة في المسجد . وعلق على ذلك بقوله إن هذا دليل عظيم على « التقدم » الذي قام به الفرنسيون في هذه البلاد ، وعلى الاهتمام الذي أبداه الملك الفرنسي وزوجه بالرؤساء العرب الذين أدوا له الزيارة في باريس في شتاء 1844 ـ 1845 . كما لاحظ أن أحد أقارب الميت كان يعلق على صدره وسام جوقة الشرف الذي قلده إياه الملك ، اذ كان من بين أولئك الرؤساء المحظوظين![80] واذن فإن قسنطينة في عهد بوجو لم تعد هي قسنطينة في عهد الحاج أحمد!.

وقد شهدت معظم المدن الأخرى نفس الظاهرة تقريباً ، وهي هجرة أهلها منها وحلول الأوروبيين بها . فهذه مدينة عنابة التي عرفت تحولات كثيرة منذ 1830 ، قد أصبحت سنة 1846 مدينة « أوروبية » حسب عدد سكانها . ففي السنة المذكورة كان سكانها المسلمون أقل من ثلاثة آلاف (2,961) ، بينما سكانها الأوروبيون وصلوا الى 5,736 ، أغلبهم فرنسيون ومالطيون وايطاليون[81].

إن كثيراً من الكتاب تحدثوا عن « طبقات » المجتمع الجزائري ، ووصفوا المجتمع الحضري والمجتمع البدوي خلال هذا التحول الحضاري . وتحدثوا عن سكان المدن بأنهم سكان مقيمون وبرانية أو طارئون . وان المقيمين ينقسمون إلى مسلمين ذوي تجارة وثراء ، وأصحاب حرف ووظائف ، وأهل علم ودين ، وإلى يهود يتعاطون التجارة والمالية ، وإلى أوروبيين نما عددهم منذ الإحتلال واشتغلوا بالحرف والصنائع والتجارة والمال . وبعض المدن الجزائرية كانت فيها جالية ذات أصول عثمانية يطلق عليها إسم الكراغلة ، وكان ذلك على الخصوص في العاصمة والمدية وتلمسان وقسنطينة ، رغم انه لا تكاد تخلو منهم مدينة أخرى مثل عنابة والبليدة وشرشال ومستغانم الخ . وأما سكان الريف فيقسمهم الباحثون إلى أهل الحكم وأهل الدين والرعية أو العامة . ويقولون إن هناك تنافساً على الرعية بين أصحاب الحكم وأصحاب الدين . وهم يسمون أهل الحكم بالأجواد وأهل الصف أو المحاربين ، وقد سماهم البعض بالإقطاعيين[82] . وهم يسمون أيضاً أهل الدين بالمرابطين

---

(80) كنيدي (الجزائر وتونس) ، ج 2 ، ص 231 ، 244 .

(81) بوجولا (دراسات...) ، ج 1 ، ص 264

(82) انظر قاليسو (الجزائر قبل الاحتلال) في مجلة الاقتصاد والمجتمع ، عدد 4 ، 1975 ص 418 ، =

والأشراف الذين لهم القداسة في قلوب الناس (العامة) والذين يتمتعون بوضع إقتصادي محترم بل ممتاز . وكثيراً ما دافع هؤلاء عن العامة ضد الحكام . وقد حاول بوجو أن يلغي فئة الحضر بالمدن بالإرهاب تارة والنفي تارة أخرى والتفقير ثالثاً وإحلال الأوروبيين محلهم رابعاً . أما أهل الريف فقد سلط عليهم الحرب القاسية فشرذمهم ومزقهم شر ممزق ، وجعل عليهم صنائع (عملاء) صنعها من ضعاف النفوس أو من الذين لم يجدوا اختياراً آخر . وذلك هو ما جعل صديق بوجو يقول إن اعتماد فرنسا على « الارستقراطية » العربية المكونة من الأشراف والمرابطين والأجواد في إدارة الجزائر سيجعلها (أي فرنسا) تتقدم جيداً في عملها الحضاري[83] .

ولكن هذه الأرستقراطية أخذت تضعف تدريجياً . ففي المدن لم يبق منها إلا عائلات قليلة العدد ضعيفة النفوذ ، رغم إحتفاظها بماضيها وسمعتها بين الناس . وفي الأرياف أدى تقدم الإستعمار (إغتصاب الأرض) والإستيطان وإلغاء المكاتب العربية ، فيما بعد ، إلى إضعاف هذه الارستقراطية . كما إن عملية الإضعاف هذه قد خطط لها بحكمة ، ففي المراحل الأولى ، ولا سيما منذ عهود بوجو ، كان الإعتماد عليها لإحتلال الجزائر إحتلالاً شاملاً بجعلها أداة للتوسع والسيطرة ، ثم أخذت الإدارة الفرنسية « تستغني » عن خدمات الأرستقراطية فجردتها من نفوذها ومن مجالات قوتها ولم تبق لها إلا على الظل . فالذي كان يحكم عرشاً كاملاً أصبح لا يحكم إلا قبيلة والذي كان يحكم قبيلة أصبح لا يحكم إلا فرقة ، وهكذا ، ثم إن العرش الواحد قد قسم بين عدة حكام أحياناً من الأسرة الواحدة وأحياناً من أسر مختلفة خلقاً للتنافس واتباعاً لسياسة « فرق تسد » . أما المرابطون فقد وقع إضعافهم

= 445 ، دراسة مكتوبة أصلاً بالفرنسية وترجمت الى الانكليزية ، وعنوانها الأصلي (الجزائر قبل الاحتلال) مطبوعات مركز الدراسات والأبحاث الماركسية ، عن الاقطاع ، (باريس ؟) . وقد رجعنا الى الترجمة الانكليزية . وكذلك دراسة فان سيفرز (الزعامة الأهلية) في المجلة الدولية . . . . مرجع سابق ، وكذلك (ملاك الأرض والزعامة السياسية الجزائرية ، 1860 ـ 1940) في (مجلة المغرب) ، عدد مارس ـ افريل ، 1979 ، ص 58 ـ 62 ، وكذلك « مجال العدل : الثورات . . . في الجزائر ، 1849 ـ 1879» في مجلة (الإنسية الاسلامية) ، عدد 1 ، 1973 ، ص 74 ـ 60 . كلها لنفس المؤلف .

(83) بوجولا (دراسات. . .) ، 142/2 .

بوسيلتين ، كما سنرى ، الأولى إدخالهم في الوظائف الإدارية بدل خدمة الدين والعلم ، والثانية توزيع الوظائف نفسها بين عدة أفراد من الطريقة الصوفية الواحدة أو من الزاوية .

ومع ذلك فإن هذه العائلات التي ضعف نفوذها المادي والعسكري والديني (أي في المدن والأرياف) قد حافظت على القيم والعادات القديمة ، وقاومت الغزو الفكري والديني ، رغم عملية الفرنسة التي عرفتها الجزائر خلال القرن الماضي . ومن تلك العائلات خرجت المعارضة الثقافية والسياسية للإستعمار الفرنسي في القرن العشرين ، مثل عائلة ابن باديس ، والأمير عبد القادر ، وابن سماية ، وابن جلول ، الخ . ونفس الشيء يقال عن عائلات الطرق الصوفية أيضاً[84] .

لو عدنا إلى كتابات الجزائريين أنفسهم عن مجتمعهم في ذلك الحين (النصف الأول من القرن الماضي) لما وجدناهم يتحدثون إلا عن نوعين منه : أهل المدن وأهل البادية . وهم لا يكادون يفرقون بين أهل المدن إلا بالدين فيقولون : هؤلاء مسلمون ، وهؤلاء يهود ، وهؤلاء نصارى . ولا يكادون يفرقون بين أهل البادية إلا بكونهم من أهل الزراعة والإستقرار ، أو من أهل الخيام والقوافل[85] . وإذا تحدثوا عن البسكري أو الميزابي أو الزواوي (القبائلي) أو الزنجي فإنما لكي يقولوا عنه انه من الطارئين على المدينة ومن الذين يقومون فيها بأعمال معينة ومؤقتة . وإذا تحدثوا عن أهل البادية فإنما لكي يصفوهم « بالأعراب » الجفاة القساة الذين لا يعرفون الإستقرار ولا يميلون إلا للغزو ، ولا يبغون التدخل في شؤونهم ، سواء كانوا من سكان متيجة أو من سكان الجبال أو من سكان الصحاري . ولكن الدارسين يعرفون إن المجتمع الجزائري ثم الريفي على العموم كان مجتمعاً قبلياً في أساسه رغم خضوعه لسلطة العثمانيين في دفع الضرائب والحرب عند الخطر ، فقد كان يؤمن

---

(84) انظر الدراسة التي كتبها لويس ماسينيون عن هذه العائلات في (مجلة العالم الاسلامي) ، المجلد 57 ، سنة 1924 ، ص 3 ـ 157 . وهي وإن كانت متأخرة عن الفترة التي نعالجها الا أنها مفيدة ، وتشير الى هذا العهد أحياناً . انظر كذلك دراسة أ . بيرك عن العائلات الجزائرية ، وقد سبقت الاشارة اليها .

(85) انظر مثلاً كتاب حمدان خوجة (المرآة) ومذكرات بوضربة والحاج أحمد وكتاب المشرفي (طرس الأخبار) وكتاب المزاري (طلعة سعد السعود) . . .

بوحدة العرش والولاء للقبيلة والطاعة للشيخ والمرابط . وكانت بين المدينة والريف علاقة مصالح إقتصادية أكثر منها علاقة احترام أو ولاء سياسي. وقد إستغل بوجو هذا النفور التقليدي بين المدينة والريف وبين المرابط والقايد ، والتنافس على السلطة بين قيادات الأعراش والقبائل ، وبين الفئات الإجتماعية في المدن ، استغل ذلك ليجعل منه خلافات حادة بل قاتلة ، وصراعاً دموياً يحقق من ورائه أهدافه في السيطرة والتحكم .

ولقد شمل التدمير الحضاري أو الإحتلال المعنوي ، كما سماه البعض ، الأوقاف الإسلامية والأملاك الدينية والمساجد والزوايا والمدارس وغيرها . وسنخصص نحن فصلاً لذلك في كتابنا الثقافي ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى الإجراءات والقرارات التي أصدرها بوجو لاحتلال المقدسات الدينية أيضاً والسطو على أملاكها التي تعتبر في نظر المسلمين محرمة . لقد سال لعاب الفرنسيين منذ كلوزيل (1830) لأموال الأوقاف . وظلوا يتحايلون للإستيلاء عليها بشتى الطرق . وحين اتسع طغيانهم وتمكن بأسهم افترسوا الأملاك العقارية التابعة للوقف وضموها للدومين . وقد اتخذ ذلك عدة مراحل أشرنا إلى بعضها من قبل . والمعروف ان من تلك المراحل القرار الذي ينص على جعل أوقاف مكة والمدينة وبيت المال والعيون ، تحت الدومين (أملاك الدولة) ولكن بإدارة إسلامية أي تحت نظر «الوكلاء» كما كان الحال في العهد العثماني، غير ان الفرق هو ان الوكلاء لم يعودوا مستقلين بل أصبحوا يخضعون لمحاسبة وتعيين وعزل الدومين نفسه . أما في عهد بوجو فقد ضمت إلى تلك العقارات أيضاً أوقاف الجامع الكبير الكثيرة (1843) ، وكذلك جميع المؤسسات الدينية الأخرى (مساجد ، زوايا ، مقابر ، قباب الخ .) سواء كانت في المدن أو في الأرياف . كما يدخل تحت الدومين كل مصاريف ومداخيل تلك المؤسسات . وهذا بذاته هو المصادرة . ولكن هذه المصادرة لم يتبعها تعويض في أي شكل من الأشكال لا للوكلاء الذين يعيشون منها ، ولا للورثة (ورثة الواقفين الخ .) ولا للمستفيدين منها . وهناك قرار آخر اتخذ بعيد مغادرة بوجو الجزائر (سنة 1847) ، وهو ذلك الذي نص سنة 1848 على إلغاء وظيفة الوكيل المسلم على الأوقاف ، وجعل كل الأوقاف الدينية وغيرها تدخل تحت أملاك الدولة مباشرة وبدون واسطة .

ويذكر الباحثون ان هناك عدة تواريخ هامة مرت بها عملية مصادرة الأملاك العقارية الدينية . من ذلك قرار سنة 1839 القاضي بأن الملكية على ثلاثة أنواع : ملكية (دومين) وطنية ، وملكية إستعمارية ، وملكية مصادرة . كما نص القرار على ضرورة التعويض عند الهدم ، ولكن التعويض لم يطبق أبداً . وفي سنة 1843 صدر قرار من بوجو يطرد المفتي المالكي (الكبابطي) ويصادر أوقاف الجامع الكبير فكان الجامع الكبير (وكذلك مدرسته وزاويته الخ .) أول مؤسسة دينية تخضع للمصادرة ، بدون تعويض[86] . ثم ابتداء من سنة 1848 أدخلت كل المؤسسات الدينية تحت مصلحة أملاك الدولة ، أي صودرت ، ولم يدفع عنها أي تعويض أيضاً . وقد أصبحت كل مدخولات هذه المؤسسات تذهب لا إلى الفقراء والمساكين والتعليم والعلماء والغرباء والصيانة الخ ، كما نصت الأوقاف ، ولكن أصبحت تصب في ميزانية الدولة أو فرع منها يسمى الميزانية المحلية . وقد عرفنا أن أهمية هذه المصادرة لا ترجع فقط إلى الأموال التي تدخل ميزانية الدولة ، ولكن ترجع أيضاً إلى كون تلك الأملاك العقارية الدينية لم تعد حكراً على المسلمين، بل للدولة أن تتصرف فيها بالبيع والشراء ونحوه . وبذلك أصبحت الأملاك مفتوحة للأوروبيين الذين أوسعوها هدماً وتغييراً لكي تناسب حاجتهم التجارية والصحية الخ . وفي ذلك تمكين قوى لحركة الإستيطان والإستعمار .

وقد جاء في الإحصاءات الرسمية لمداخيل الأوقاف قبل مصادرة أملاك الجامع الكبير وغيره ، أي قبل 1843 ، فكانت تشير إلى مداخيل ضخمة وفرها بوجو لمصاريفه الحربية في الجزائر ، بدل أن تذهب في التعليم الإسلامي وإغاثة المنكوبين والفقراء . إن صاحب الإحصاء فخور بهذا المال الوفير ، ولكنه نسي ان المدارس قد تعطلت في عهد بوجو ، وان العلماء قد غادروا البلاد ، وان معين العلم كان ينبض يومياً ، كما لاحظ دي طوكفيل ، وان الفقراء والمعوزين كانوا يتهاطلون على المدن بحثاً عن لقمة العيش وهروباً من دمار الحرب ، كما لاحظ بوجولا . وهذه هي الإحصائية التي توضح ان بوجو قد وفر للميزانية الإستعمارية من الأوقاف

(86) انظر اوميرا (المجلة الأفريقية) ، 1899 ، ص 190 . عن أنواع الوقف انظر ما مضى وقد كنا عددنا منها حوالي سبعة أنواع .

الإسلامية أكثر من سبعين ألف فرنك في سنة واحدة .

السنة :	مداخيل الوقف :
1837	126,705,25 فرنك
1838	144,914,66 فرنك
1839	149,273,52 فرنك
1840	189,318,95 فرنك
1841 (بداية عهد بوجو)	196,085,62 فرنك
1842	217,998,35 فرنك

يضاف إلى ذلك باقي حساب ابتداء من

يناير 1837 ، وهو	13,617,90 فرنك
فيكون المجموع :	1,035,914,25 فرنك

وبعد الصرف منه على الإدارة والديانة الإسلامية (ولم يقل الإحصاء كم ولا كيف صرفت المبالغ على الديانة الإسلامية) ، بقي للميزانية الإستعمارية : 72,000,30 فرنك[87] .

ولا شك أن ذلك نوع من السطو على حقوق الغير . فالمبلغ الفائض كان بمقتضى الشريعة سيستعمل فيما نص عليه الواقف ، لا أن يذهب إلى الميزانية الاستعمارية (وكانت تسمى رسمياً الصندوق الاستعماري ـ كولونيال) ليصنع منه مدافع وبنادق تخرب بيوت المسلمين ومساجدهم ، كما اننا عرفنا ان الذين صادروا الأوقاف لم يعوضوا أصحابها ، فكان عملهم ضرباً من اللصوصية وأكل أموال الناس بالباطل .

ولم يكتف بوجو بمصادرة عقارات الوقف ، بل انه حمل المعول وهدم مؤسسات دينية عديدة في شتى أنحاء الجزائر ، أو باعها للأوروبيين فهدموها وبنوا مكانها ، وتداولوها بالكراء ونحوه . وتطول القائمة لو أننا حاولنا ذكر المؤسسات (مساجد ، زوايا ، قباب الخ .) التي تصرفت فيها ادارة بوجو تصرف المستهتر

---

(87) انظر (طابلو) سنة 1842 ، ص 298 ـ 299 .

بأملاك غيره . ولذلك سنكتفي بأمثلة تاركين التفصيل لكتابنا المشار إليه ، ومحيلين على بعض المراجع لمن أراد الرجوع إليها[88] .

فمن المساجد التي جرى هدمها أو بيعها أو كراؤها في عهد بوجو نذكر : جامع سيدي الرحبي ، من المساجد الهامة التي كانت موجودة منذ القرن السادس عشر إذ تحدث عنه هايدو الاسباني عندئذ . ومسجد الشماعين ، ومسجد علي خوجة الذي يعرف أيضاً بمسجد سيدي بتقة ، ومسجد صباط الحوت ، والمدرسة التي معه ، وجامع القائد علي ، الذي أعطي للجمعية التبشيرية المعروفة باسم (أخوات القديس يوسف) الخ . وهي جميعاً في مدينة الجزائر[89] . ووقع نفس المصير لزوايا مدينة الجزائر التي كان بعضها يستعمل للتعليم وايواء الفقراء والغرباء ، فمن ذلك زاوية المولى حسن ، وزاوية شختون ، وزاوية الأندلسيين ، وزاوية الشبارلية ، الخ . وكذلك الحال بالنسبة للقباب أو أضرحة الأولياء التي تكون عادة محاطة أيضاً بمقبرة لأموات المسلمين : ومنها قبة سيدي بتقة (أبي التقي) التي كانت تضم أيضاً مسجداً بدون منارة ، وزاوية لها غرف للمرضى والعجزة والفقراء ، وميضاة ، وحمام بارد ومقبرة ، وقبة سيدي السعدي التي يتبعها مسجد بدون منارة ، ومسكن ، الخ . (ولعل اسم السعدي هو نفس المرابط الذي ينتمي اليه الحاج علي السعدي الذي رأيناه مجاهداً نحو ثلاث عشرة سنة ، اثر دخول الاحتلال ، في متيجة وبلاد القبائل[90] . وقد اتبعت نفس السياسة نحو المؤسسات الدينية الاسلامية في المدن الأخرى[91] .

وفي مقابل هذا الهدم والتخلص من المؤسسات الاسلامية التي كانت توفر

---

(88) من ذلك كتاب ديفوكس (المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر) ، وكلاين (أوراق الجزائر) ، ومقالات أوميرا في (المجلة الأفريقية) ، الخ .

(89) انظر أوميرا (المجلة الأفريقية) ، 1898 ، ص 181 .

(90) انظر عنه ما مضى ، وقد جعله الأمير خليفة عنه في ناحية سيباو وبرج حمزة قبل الشيخ أحمد الطيب بن سالم .

(91) عن مساجد قسنطينة ، انظر شيربونو (قسنطينة وآثارها) في انوير - روكاي ، 1853 ص 122 . وكذلك أرشيف ايكس 23 II فيه تقرير يعود الى سنة 1849 . وعن مساجد بجاية انظر مقالة عنها في (المجلة الأفريقية) ، 1858 ، ص 458 .

العلم والرزق والمأوى لأهلها ، لم تعوض سلطات بوجو ذلك بمؤسسات « حضارية » من بلاده ، كما كان يدّعي هو وأنصاره ، بالعكس فإن المال الفائض من الأوقاف والذي كان المفروض أن يستثمر في تعليم المسلمين وإيواء فقرائهم الخ . وجدناه قد تحول إلى الصندوق الاستعماري ، ليستعمل في ضرب الجزائريين عسكرياً ومدنياً ولذلك فإن عهد بوجو الذي عرف بأنه عهد الحرب الشاملة ضد المقاومة كان عهد الظلام بالنسبة للتعليم والثقافة . فقد حولت الأموال المخصصة لهذا الغرض عن مقاصدها، وهدمت أو بيعت مؤسسات التعليم، وافتقر الوكلاء والعلماء والطلبة، وهجرت المساجد والمدارس ، وهاجرت العائلات الوجيهة من المدن ، وهكذا . فلم يكن غرض المائة ألف جندي الذين أطلقهم بوجو لنهش لحم الجزائريين هو نشر الحضارة والعلم وروح الانسانية ، كما تبجح بذلك جول كامبون ومحادثه الرئيس الأمريكي بعد خمسين سنة من عهد بوجو[92].

حقاً لقد شجعت إدارة بوجو دراسة العربية الدارجة للفرنسيين حتى يفهموا الجزائريين ويتعرفوا على أفكارهم ونواياهم ، وتجند عدد من المرشحين للمكاتب العربية الإدارية ـ التجسسية لإتقان اللغة الدارجة . وكان بريسنييه هو صاحب هذا الكرسي في مدينة الجزائر . وقد ربط الفرنسيون بين نجاح مهمتهم في الجزائر وبين اتقان العربية ، ولاحظوا أن المترجمين الذين اعتمدوا عليهم عدة سنوات بعد الاحتلال قد أساؤوا إلى مهمة الفرنسيين في الجزائر . حتى ان الدوق اورليان نسب نجاح مرور الجيش براً من قسنطينة إلى الجزائر سنة 1839 إلى كون الجيش أصبح يفهم العربية ولم يعد في حاجة إلى المترجمين . وقال إن معرفة العربية ضرورية للفرنسيين حتى تقربهم من السكان . ولكنه لاحظ أيضاً أن الخمر أيضاً وسيلة أخرى لهذا الغرض وان العمل في هذا الميدان قد تقدم فعلاً ![93].

وللقيام بهذه المهمة (الترجمة ، ومعرفة العربية) أسس الفرنسيون كما عرفنا ، معهداً في باريس سنة 1839 ، أطلقوا عليه اسم (الكوليج العربي) . ومن بين مهامه أيضاً تكريم أعيان الجزائر المرخص لهم بزيارة فرنسا ، وإعطاء « تعليم خاص »

---

(92) انظر بداية الكتاب .

(93) الدوق أورليان (وصف حملة . . .) ، ص 258 .

بالأطفال العرب (أي الرهائن الذين تحدثنا عنهم) الموضوعين تحت رقابة رجال ثقاة وتقاة ، على أن يعلمهم أساتذة فرنسيون . أما المهمة الرئيسية للمعهد المذكور فهي الترجمة من العربية الدارجة الجزائرية بحيث يتخصص فيها شبان فرنسيون ، وبذلك يصبح المعهد ، حسب تعبير مؤسسيه « مشتلة » للمترجمين المقدر لهم العمل في الجزائر[94]. وقد ذكرنا سابقاً أن أول مدرسية عربية ـ فرنسية تأسست في سنة 1836، وان مثيلاتها لم تكثر طيلة العشرين سنة التالية ، حتى ان إحصاء سنة 1850 لا يذكر سوى ست مدارس من هذا النوع . أما (كوليج الجزائر) الفرنسي فلم يدخله أطفال الجزائر إلا بعد سنوات من انشائه (انشىء سنة 1836)[95] . وفي سنة 1844 قدم ليون روش ، مستشار بوجو في الشؤون الجزائرية ، قدم له تقريراً تضمن مقترحاً بإنشاء (كوليج عربي) في الجزائر على غرار المعهد الموجود في باريس.

وقد استمر العمل في اللجنة العلمية التي تأسست سنة 1837 . وأخرجت عدة مجلدات مفيدة . ولكن عمرها لم يطل إذ سرعان ما توقفت . ويبدو أن توفير كل الجهود للحرب الشاملة والتجند لخدمة المكاتب العربية في الميدان ، كان وراء وقفها ، حتى التقدم في إنشاء المكتبة العامة لم يلاحظ في زمن بوجو . فنحن لا نعرف إلا انها انتقلت في نهاية عهده ، سنة 1848 ، إلى مكان أوسع من ذي قبل . فقد كانت المكتبة منذ عشر سنوات خلت (منذ 1838) في باب عزون في قاعة بناها ابراهيم آغا ، صهر حسين باشا ، سنة 1828 ، أما المتحف التابع للمكتبة فقد خصص له قاعة أخرى بجانب الأولى ، كان قد بناها يحيى آغا . ولكن في سنة 1848 نقلت المكتبة والمتحف إلى دار أندلسية خاصة من طراز عال (كلف بناؤها قبل الاحتلال 500 ألف فرنك) ، وهي الدار التي كانت من قبل مقراً للقنصلية الأمريكية . ولكن المكتبة لم تكن مفتوحة للجزائريين ، فهي رغم عموميتها كانت خاصة بالباحثين الفرنسيين الذين يهمهم أمر الاستعمار والإطلاع على شؤون البلاد . فهي ليست مكتبة علمية ـ ثقافية ، كما قد نتصور اليوم.

---

(94) انظر (طابلو) سنة 1838 ، ج 1 ، ص 116 .

(95) انظر مارسيه في (مؤتمر شمال أفريقية) ، الثاني ، باريس ، 1908 ، ص 184 . وكذلك ارشيف ايكس ، F80,1732 .

وتذكر الإحصاءات الصادرة خلال عهد بوجو بعض الصحف والمسارح وغيرها من مستحدثات العهد الاستعماري في الجزائر . وقد كانت الصحف على نوعين : صحف موجهة الى الجزائريين ، وهذه تصدرها الإدارة بإشراف المكتب العربي ، وهي إما بالعربية الركيكة أو باللغتين . ومن هذه (المونيتور ألجيريان) التي تحولت إلى (المونتيور دي لا لجيري) ، واستمرت إلى 1890 ، ثم جريدة (الأخبار) ـ بالفرنسية ـ التي طال أمدها والتي كانت تصدر مرتين في الأسبوع في أربع صفحات[96] ، وجريدة (المبشر) التي صدرت باللغتين في طبعتين مختلفتين سنة 1847[97] . وكان الهدف من هذا النوع من الصحف توصيل تعليمات وأوامر الإدارة الاستعمارية إلى الجزائريين في الأسواق وعند إدارتهم المحلية ـ أي نشاط الاغوات والقياد والقضاة الخ . وكذلك كان هدفها إرهاب البعض وتخدير البعض ، وكسب تأييد أكبر عدد ممكن من الجزائريين ، وتفريق شملهم وتشويش عقائدهم الدينية والوطنية . ولذلك كانت (المبشر) مثلاً توزع وتقرأ مجاناً في الأسواق ، أما السلطات الجزائرية المحلية فقد كانت مُجْبَرة على الاشتراك فيها.

أما النوع الثاني من الصحف فهو الذي صدر بالفرنسية والذي كان خاصاً بالفرنسيين ، الذين استوطنوا الجزائر ، وكذلك الاداريين والجيش الخ . ومن هذا النوع ما كانت تشرف عليه الإدارة للدعاية لنفسها وحماية سياستها والرد على المهاجمين لها من المعارضة ، مثل صحيفة (الجزائر الفرنسية) التي أسسها بوجو لتكون لسان حال إدارته وجيشه . وهناك ما هو صحافة خاصة أسسها المستوطنون على غرار صحف بلادهم الأصلية .

أما المسارح فتذكر الإحصاءات ان مدينة الجزائر كان بها سنة 1843

---

(96) حسب احصاء سنة 1843 . والمعروف أن (الأخبار) بهذا الاسم ، كانت تصدرها الولاية العامة أيضاً ، ابتداء من 1839 ، وقد أنشأت سنة 1903 (عهد جونار) ملحقاً بالعربية ، كان يشرف عليه عمر بن قدور الجزائري . واستمرت في الظهور الى سنة 1924 ، ومن أبرز مسؤوليها فيكتور باروكان ، الليبرالي الالزاسي .

(97) تعتبر ثالث صحيفة عربية في العالم العربي . صدرت سنة 1847 واستمرت الى 1926 . وظهر في هيئة تحريرها عدد من الصحفيين الجزائريين رغم أن مسؤوليها كانوا دائماً مستشرقين فرنسيين انظر محمد ناصر (الصحف العربية الجزائرية)، الجزائر 1980 ، ص 19 . وكذلك فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ، ط . دار صادر ، 1967 ، ج 1 ص 51 ـ 53

مسـرحـان ، أحـدهمـا يسمى (المسـرح الكبيـر) والثـاني يسمى (مسـرح المنوعات)[98] . ولا شك ان قسنطينة قد شهدت أيضاً ميلاد المسرح الفرنسي . أما المدن الأخرى فلا نظن انها عرفت المسرح إلّا بعد عهد بوجو . ومهما كان الأمر فإن المسرح كان ، مثل المكتبة والمتحف ، مخصصاً للفرنسيين وليس للجزائريين .

8. التحدّي الأعظم:

بينما كان الأمير يرغب في تمديد أجل الصلح مع الفرنسيين كان هؤلاء يبذلون جهدهم ، على يد الحاكم العام المارشال فاليه ، لنقض الصلح واستئناف الحرب . وقد شجعهم نجاحهم في قسنطينة على ذلك . وبعد أن اجتاز فاليه وقطعة من جيشه أراضي الأمير بين قسنطينة والجزائر ، أصبحت الحرب لا مفر منها ، خصوصاً وأن الفرنسيين لم يسترخصوا منه ولم يعتذروا اليه ، وإنما تحدوه واستفزوه لاعلان الحرب . وقد رأينا أن الأمير جمع مجلسه واستشارهم في الأمر ، فكان ردهم اعلان الجهاد من جديد ، رغم أن الأمير ، فيما يبدو ، كان يميل الى اطالة أمد الصلح .

دامت الحرب هذه المرة بين المقاومة بقيادة الأمير وبين المحتلين الفرنسيين بقيادة فاليه ثم بوجو من نوفمبر 1839 الى ديسمبر 1847 . إنها تقريباً نفس المدة التي استغرقتها حرب التحرير من سنة 1954 الى 1962 ، وهي الحرب التي كانت تمثل الرد الحاسم على ما قيل انه انتصار بوجو على الأمير أو انتصار الاستعمار على المقاومة الشعبية الوطنية . لقد كان الفرنسيون الى 1839 محصورين في الشريط الساحلي للجزائر ، ولم يحتلوا من المدن الداخلية الهامة عندئذ الا قسنطينة . وكان عدد الأوروبيين لا يتجاوز الخمسة والعشرين الف نسمة ، كانوا يعيشون في رعب تحت حماية بنادق جيش مؤلف من اربعين الف جندي مسلح بأحدث أنواع الأسلحة . أما بقية الوطن (أكثر من الثلثين في الشمال وحده) فقد كان تحت سيطرة وسيادة الأمير . غير أنه في نهاية الحرب مع العدو (ديسمبر 1847) عرفت الجزائر وجود مائة ألف جندي محتل ومعهم أسلحتهم الحديثة وأجهزتهم ، يعززهم مائة وأربعة آلاف أوروبي أكثر من نصفهم فرنسيون ، كانوا قد انتشروا في الأرض

---

(98) ج . موريل ، (الجزائر) ، ص 92.

كالغربان يأكلون ما تركه لهم الجيش من جثث وفضلات الجزائريين .

كان رد الأمير على اجتياز أراضيه بدون اذنه من قبل العدو ، هو الهجوم الناجح الذي شنته قواته على الحاميات الفرنسية والمستوطنات الأوروبية في سهل متيجة خلال ديسمبر 1840 . ان هذا الهجوم القوي قد أدى الى تدمير مزارع ومؤسسات الاستعمار في المنطقة والى هروب الكولون منها الى مدينة الجزائر للاحتماء . كما هوجمت المواقع العسكرية الفرنسية ، حتى في المدن التي كانت تحت الاحتلال . وبلغت قوة وجرأة المقاومة عندئذ أن هاجم زورق حربي جزائري كان في شرشال سفينة فرنسية تجارية واستولى عليها واحتجز محتوياتها . وكانت هذه الهجومات الناجحة قد قوت من عزم المقاومة وأنعشت الآمال في النصر ، ورفعت سمعة الأمير عالياً . ويقول بعض الباحثين أن جزءاً من نجاح الأمير خلال هذه الأثاء يعود الى ابقائه على خطوط المواصلات مع الخارج ، خصوصاً فيما يتعلق بتوريد الأسلحة من جبل طارق عن طريق المغرب . وهكذا وصل الى قمة مجده في مارس 1840 ، وجاءته الوفود الموالية والمبايعة من مختلف أنحاء القطر.

ولكن بالمقارنة الى استعدادات العدو الجديدة وامكانياته هو نجد أن تغلبه في الميدان كان شبه مستحيل ، رغم أنه كان لا يعرف المستحيل . فبينما كانت قواته في السنة المذكورة (1840) قد بلغت أوجها ، حتى وصلت ثمانين ألف مجاهد ، فإن هذه القوات كانت في أغلبها احتياطية ، غير منضبطة وغير متدربة التدريب الكافي وغير مسلحة تسليحاً جيداً ؛ بالاضافة الى ذلك فإن قوات العدو وصلت في عهد فاليه الى حوالي ستين ألفاً . وفي عهد بوجو الى مائة ألف ، كما ذكرنا ، وكانت هذه قوات نظامية ، ومسلحة بأسلحة حديثة . ومن نقاط الضعف التي ترتبت على ذلك بالنسبة للأمير أن قواته لا تقدر على حرب المواجهة ، ولذلك لجأ الى حرب العصابات ، والكر والفر ، وأعطى تعليمات صارمة لخلفائه في هذا الشأن ، خصوصاً بعد الهجوم الكبير الذي شنوه على البليدة (ديسمبر 1840) . كما أن تجارة الأمير تضررت باستئناف الحرب ، اذ توقفت مع المدن المحتلة . كما انحصرت التجارة الداخلية في الأسواق المحلية ، وبذلك نضبت موارد الدخل عنده[99].

---

(99)انظر دانزيقر (عبد القادر . . .) ، ص 225 .

وخلال عهد فاليه استطاع العدو أن يحقق بعض النجاح ولكنه سرعان ما توقف محاولاً دعم « مكتسباته » خوفاً من عواقب وخيمة لو طمع فيما هو أبعد منها . وقد فعل فاليه ذلك رغم الامدادات المتتالية من بلاده ، مالياً وعسكرياً ، بعد أن قررت حكومته التوسع الاستعماري ولو بابادة الجزائريين . فقد احتل فاليه عدة مدن كانت الى سنة 1840 تحت سيادة الأمير ، وهي شرشال والمدية ومليانة ، وترك في كل منها حامية تحافظ عليها « فرنسية » حتى لا يعود اليها جيش الأمير.

والمعروف أن الأمير وخلفاءه قد أخلوا هذه المدنَ من السكان ، ليلة الهجوم عليها ، كما جرت العادة، حتى لا يظفر العدو بمن يسانده ، وقع ذلك بين مارس ويونيو 1840 ، ولكن بقية السنة شهدت نوعاً من التوقف للحرب . وقد فسر بعضهم ذلك بأنه عجز من فاليه على مواصلة الحرب فعزلته حكومته وعينت بدله بوجو.

وصل بوجو الى الجزائر في فبراير 1841 ، وكان يحمل وراءه ذكريات معاهدة التافنة وواقعة الزقاق ، وكان نائباً في البرلمان الفرنسي ومن المدافعين عن الاحتلال الشامل والحرب المبيدة . وقد طلب المدد فضاعفوه له وطلب المال فوفروه لـه ، ووعدهم بتحقيق المهمة مهما كانت الوسائل فباركوه . وكان تحت إمرته عند وصوله أكثر من خمسة وسبعين ألف جندي مدججين بالسلاح الحديث ، ومسرحين لتجربة أية طريقة في الجزائر ضد المقاومين ، بما في ذلك القتل الجماعي بالدم البارد كما وقـع في مجزرة غـار الفـراشيش ، وأراد بوجـو أن يـدشن عهـده بتحقيق انتصـار استعراضي ، وهو الاستيلاء، بل وتخريب مراكز القوة عند الأمير . وهكـذا هاجم بوجو في ماي 1841 عاصمتي الأمير الجديدة والقديمة : تاكدامت ومعسكر . أما الأولى فقد خربها ، بما فيها التحصينات والمصانع ، وأما الثانية فقد احتلها وترك فيها حامية . وكلتا المدينتين كانت خاوية من السكان لأن الأمير أمر باخلائهما . ومن جهة أخـرى قام فـريق من جيش بوجـو باحتـلال بوغـار وتـازة اللتين تشكـلان نقـطتين استراتيجيتن لمواصلات الأمير ، وقامت الفرقة كالعادة بتخريب المدينتين وما فيهما من مصانع وتحصينات . ولكي يشبع بوجو حقده على الأمير ويقضي على رمز من جهاده ، قام شخصياً بمهاجمة القيطنة ، مسقط رأس الأمير ، وخربها بعد أن وجدها خاوية . تلك حصيلة بوجو خلال سنته الأولى حاكماً عاماً في الجزائر.

وهذا الاحتلال والتخريب كان له وقع على الأمير ، ولكنه لم يثنه عن جهاده أو

يفت في عضد أصحابه . فبالرغم من أن الهجوم على المدن العزلاء من السلاح والدفاع وتخريبها قد اضر بنظام الأمير عموماً، خصوصاً ما في تلك المدن من مصانع وما فيها من قوة رمزية كقاعدة لخلفائه ، فإن الجيش الذي كان معظمه في المناطق الداخلية لم يتأثر كثيراً بهجومات العدو على المدن . والأقاليم الثمانية التي نظم الأمير بمقتضاها حكومته قد تأثرت أيضاً اذ جعلت الخليفة الذي احتلت عاصمته ينتقل بمن معه الى الداخل . كما أن تجريد الأمير من عاصمة مركزية يتدعم بها ويتحصن قد جعله يلجأ الى طريقة أخرى ، وهي إقامة عاصمة متنقلة مكونة من خيام ، وتسمى الزمالة . إن الأمير قد واجه مشكلاً آخر ، وهو أن اللاجئين الذين خرجوا من المدن التي احتلها العدو والذين بلغ عددهم اكثر من ثلاثين ألفاً ، لم يجد لهم حلاً الا بإقامة هذه العاصمة الجديدة ، ذلك أن توزيعهم على أنصاره الآخرين لم يحل المشكل الا مؤقتاً فقط . ولكن هذه العاصمة الجديدة التي أقامها الأمير عند نهر الشلف ، جعلت إدارته المركزية تتضرر ويفقد سيطرته الكاملة على بعض القبائل.

ورغم محاولات الأمير اللجوء الى الدبلوماسية ، فإن بوجو قد لجأ الى محاولة رَشْوِ خلفاء الأمير حتى يتخلوا عنه ، مقابل دراهم معدودات والوعد بالإبقاء في وظائف سامية تحت المظلة الفرنسية[100] . وبالطبع كان الأمير على علم بهذه المفاوضات التي عمل على اطالتها كجزء من كسب الوقت لتوفير السلاح والاتصالات الدبلوماسية مع الانكليز والعثمانيين ، بعد أن فشلت جهوده مع الفرنسيين ، كما سنرى . وانتهت جهود بوجو طبعاً بالفشل لأنه لم يجد من يشتري ذمته بدراهمه . وعادت الحرب كأشد ما تكون بين الطرفين . وتذهب بعض الروايات الى أن فشل الأمير عسكرياً ودبلوماسياً سنة 1841 قد جلب له التأييد الشعبي في وطنه لأنه قد أصبح في نظر الناس زعيم الجهاد الشرعي لا رئيس دولة فقط ، حتى أن الزعماء الذين عارضوه أو تخلوا عنه من قبل عادوا جميعاً اليه ، وكذلك القبائل التي كانت نافرة منه[101] . والى نهايةسنة 1841 كانت الكفة العسكرية مائلة جهة المقاومة ،

---

(100) نفس المصدر ، ص 227 ، بناء عليه فإن بوجو خصص مبلغ 500,000 فرنك لهذا الغرض ، وأنه فاوض بذلك الخلفاء : البركاني (المدية) ، وابن علال (مليانة وشرشال) ، وأحمد الطيب بن سالم (حمزة ـ بلاد القبائل) .

(101) نفس المصدر ، ص 228 ، نقلاً عن تقرير ماسو Massot . حول دولةالأمير سنة 1841 ، انظر أيضاً =

رغم ما استعمله بوجو وجيشه من أساليب البطش وحرق المحاصيل وحتى « تقليب الأرض» .

وتجلت هذه الخطة العسكرية في نهاية السنة المذكورة وبداية 1842 متوافقة مع الخطة الأخرى المدنية القائمة على النفي والمصادرة والطرد الخ . لقد تمثلت الخطة العسكرية الجديدة في عدم الاكتفاء باحتلال المدن وتخريبها ، كما جرى ذلك سنة 1841 ، بل في احتلال الأراضي الداخلية التي لم يدخلها الفرنسيون من قبل ، واخضاع القبائل والاعراش بالقوة والقهر أو تدميرها تماماً ، ما دامت تؤيد أو تتعاطف مع المقاومة وزعيمها . وانطلاقاً من هذه الخطة انطلقت الجيوش العدوة من معسكر ووهران ومستغانم في ديسمبر 1841 ، لتقمع السكان في هذا المثلث وتخضعهم ، فكان أهل البرجية من أوائل المخضعين بالقوة وأصبح بعضهم يعملون مخزناً للعدو . أما بوجو نفسه فقد نزل على تلمسان في فبراير 1842 فاذا هي خاوية على عروشها اذ خرج سكانها عن بكرة أبيهم . وتلا ذلك احتلال حصن سبدو الواقع جنوب تلمسان ، ثم احتلال مدينة ندرومة . وقد أحس الأمير بتضييق الخناق عليه ومطاردته شخصياً فعبر الحدود الى المغرب.

وبعد أن جند عدداً من القبائل المغربية دخل بهم الجزائر وحارب الفرنسيين من جديد ، ولكن هؤلاء ضغطوا عليه وحاصروه حتى يتاح لهم فتح طريق بري بين وهران والجزائر ويفرضوا حكمهم على المناطق الداخلية التي كانت من قبل في حوزة الأمير . وأثناء هذه العملية التي جرت في ربيع 1842 استطاع العدو أن يعبر ثانية الى تاكدامت وأن يخرب ما بقي منها وأن يستولي على القوجيلة حيث خزن الأمير مؤونته بعد خروجه من تاكدامت . ولكن الأمير استطاع خلال الصيف أن يزعج قوات العدو في المنطقة ، خصوصاً ناحية معسكر ، كما عاقب الذين خضعوا الى الفرنسيين من قومه ، وأن يفرض سلطانه على المنطقة من جديد ، بعد أن حسب الفرنسيون أنه اختفى بل أشاعوا عنه أنه قتل.

وقد شهد خريف 1842 معارك ضارية بين قوات العدو والمقاومة ، خصوصاً

= اسماعيل العربي (المقاومة الجزائرية . . .) الفصل الحادي عشر ، وكذلك تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) ، الفصل 17 .

ناحية الونشريس وحمزة والمناطق المحيطة بمستغانم والمدية ومعسكر . وأدى ذلك إلى إخضاع السكان بالقوة والإرهـاب ، وإلى تخريب الإقتصـاد عن طريق إتـلاف المحاصيل الزراعية والحيوانات وتشريد الناس من أماكنهم . كما تناقص عدد السكان بـالقتل والنفي والهجـرة إلى الخارج . وبعـد هجوم الفـرنسيين على ناحيـة حمزة وانضمام الآغا ابن زعموم إلى الفرنسيين ، واجه خليفة الأمير أحمد الطيب بن سالم صعوبات كبيرة . ورغم هذا التقدم العسكري الظاهري للعدو على حساب المقاومة فإن الأمير كان قادراً في كل مرة على الظهور من جديد ومفاجأة العدو أثناء رجوعه إلى قواعده في الشمال وتكبيده خسائر فادحة ، واستعادة سيطرته على السكان الذين ظن (العدو) أنه أخضعهم بالقوة . ولم يمنع الشتاء القارس (1842 ـ 1843) الأمير من النشاط العسكري الدائم ضد العدو وبسط نفوذه على السكان .

وخلال سنة 1843 أنشأ العدو خطوطاً ودعم الخطوط القديمة للدفاع والحضور الإستعماري . فبالنسبة للخط القديم أنشأوا مدينة الأصنام (الشلف اليوم) لتربط بين خط وهران ـ مستغانم والجزائر ـ قسنطينة . واحتلوا مدينة تنس التي كانت آخر مرسي في يد الأمير ، وجعلوها هي مركز تموين الأصنام . ثم عادوا إلى الخط الدفاعي الذي كونه الأمير جنوب التل وأحيوه وحصنوه ، وهكذا احتلوا تيارت (تيهرت) وبوغار وثنية الأحد ، وجعلوها قواعد محمية على أبواب الصحراء .

ولكن هذه السنة (1843) شهدت خسارة كبيرة للمقاومة ، وهي وقوع الزمالة أو عاصمة الخيام المتنقلة ، في يد العدو ، وذلك خلال 16 مايو . وتقول الروايات أن الدوق دومال ، أحد أبناء الملك لويس فيليب ، قد فاجأ الزمالة وهو على رأس 600 من الفرسان ، كما تقول ان عدد من كان بالزمالة بلغ ثلاثين ألف نسمة وان المدافعين عنها كانوا خمسة آلاف . ومن بين من كان فيها عائلات الأمير وخلفـائه وخزينته وكتبه ووثائقه وبضائعـه ، بالإضـافة إلى الـذخائـر والحيوانـات والمؤونة . ويذكرون أن عدد القتلى من الجزائريين بلغ ثلاثمائة وان عـدد الأسرى بلغ ثـلاثة آلاف ، وأن الباقين قد شردوا تشريداً وأجبروا على الإقامة في محتشدات العدو ؛ ومن بين الأسـرى نساء الخلفـاء والكتبة وأولادهم . والمعـروف ان العدو لـم يكن « ليفاجأ » الزمالة لو لم يخبره أحد المنبوذين بتحركاتها أولاً بأول . وقد غنم العدو كل ثروة الأمير ، التي هي ثروة المقاومة كلها : أموالاً ، وحيوانات ، وحلي ، وتموينا ً ،

ومكتبة ، وأسراراً ، بالإضافة إلى الوقع المعنوي الذي تركته على الشعب . ذلك ان عدداً من السكان شعروا بالخطر يحدق بهم وان سلطة الأمير لم تحمهم عندئذ فقبلوا بالأمر الواقع ، ولو مؤقتاً . وأثناء المعركة التي دارت بين المدافعين عن الزمالة وبين العدو ، سقط « الجنرال » مصطفى بن إسماعيل قتيلاً ، ذلك الإنسان الذميم الذي أعماه اللّه عن الحق رغم تجاوزه السبعين سنة ، فكرس حياته لخدمة العدو منذ حلوله بوهران . وكأني بروحه الشريرة قد حلت في علي شكّال في عهد الثورة التحريرية[102] .

ولم يتوقف ضغط العدو على الأمير خلال بقية سنة 1843 ، رغم انه أصبح شخصياً هو الهدف ، فقد كانت الفرق العسكرية تبحث عنه في كل مكان فإذا عرفت مكانه توجهت إليه وحاولت مباغتته . ولكنه كان يفلت منها باعجوبة . كان ذلك خلال مناسبتين في هذه السنة . وفي إحدى المرات لم يكد يفلت إلا بنفسه وقليل من أصحابه . وفي احداها قتل خليفته عبد الباقي ونجا هو ، وفي احداها أيضاً طاردت قوات العدو خليفته ابن علال وكادت تبيد قوته بعد أن سقط هو شهيداً . وبموت ابن علال فقد الأمير أحد رجاله الأوفياء والأكفاء ، وكان موته على أرض الميدان إيذاناً أيضاً بقبول كثير من الناس بالأمر الواقع وقبول موظفين يعينهم العدو بنفس الألقاب القديمة : قياد ، أغوات ، خلفاء ، الخ . ولم تبق للأمير في نهاية هذه السنة سوى « دائرة » صغيرة من جنوده وأصحابه ، توجه بهم إلى المغرب ليراجع خريطته ويستعد للجولة القادمة ، فمثله لا يعترف بالهزيمة ولا يعرف اليأس .

ولكن دخول الأمير إلى المغرب وعودته إلى الجزائر لضرب العدو أو ضرب أنصاره على الحدود المغربية ثم اجتيازه للمغرب من جديد ، كل ذلك جعل العلاقات بينه وبين السلطان المغربي من جهة وبين هذا والفرنسيين من جهة أخرى تزداد صعوبة . فهو قد نجح خلال النصف الأول من سنة 1844 في جعل المغرب يتورط

---

(102) علي شكّال شخصية أخرى ذميمة خانت اللّه والوطن وأخلصت للعدو فتحلصت منها الثورة برصاصة أطلقها المناضل (ابن صادق)عليه وهو الى جانب رئيس الجمهورية (الرابعة) الفرنسي ، كوتي ، سة 1956 في باريس وقد قتلُ ابن اسماعيل ، الذي كان لا يفارق جواده الأبيض سة 1843 أثناء حادثة الزمالة ، كما عرفنا .

في حرب التحرير الجزائرية بقيادته ، إذ نصب العدو معسكراً في لـلامغنية ، ثم دخلت قواته مدينة وجدة ، فإذا بالشعب المغربي ينادي بالجهاد ضد الكفار ، وفي ذلك دعم للأمير الذي كان يهدف إلى هذه النتيجة . ورغم ضغط الفرنسيين والإنكليز[103] على السلطان لكي يبعد الأمير ويكف عن مساعدته ، فإن السلطان لم يفعل ، خوفاً كما يقول معظم المؤرخين ، من ثورة شعبية داخلية ضده لأن الشعب المغربي أصبح ينظر إلى الأمير على أنه قائد حركة الجهاد ليس في الجزائر فحسب بل في المغرب أيضاً . وهكذا وجد السلطان نفسه مضطراً لرفض تسليم الأمير . فما كان من الفرنسيين إلا ضرب السواحل المغربية ، خصوصاً طنجة وموقادور ، كما قاد بوجو من الجزائر جيشاً ضد الجيش المغربي بقيادة أحد أبناء السلطان ، حيث دارت معركة كبيرة عند إيزلي في 14 أغسطس ، كان الهزيمة فيها لجيش السلطان . ولم يعد للسلطان اختيار إلا قبول ما جاء في معاهدة طنجة (بينه وبين الفرنسيين) حيث نصت على أن الأمير عدو مشترك وانه خارج عن القانون ، وبات الوضع بذلك ضد الأمير تماماً ، إذ أصبح بين عدوين ، دون أن يجد من أحد الملجأ ولا المساندة ولا السلاح . وكانت التحصينات الفرنسية على الحدود الغربية قد جعلت اجتيازه الحدود إلى الجزائر لضرب العدو أمراً صعباً . كما أصبحت إقامته في المغرب غير مرغوب فيها . وكأنها بداية النهاية له . وبالإضافة إلى ذلك فإن عزلته عن المغرب وعن الإنكليز وكذلك الفتوى المزورة التي حصل عليها بوجو ضده من بعض علماء السوء المسلمين ـ كل ذلك أضعف من سلطة الأمير في الجزائر ، وهذا يعني قبول الناس للأمر الواقع والدخول في طاعة العدو ، رغم أنوفهم ، ولو إلى حين .

إن العنف يولد الانفجار ، والأزمة إذا اشتدت تنفرج . ولكن العدو لم يتعظ فيما يبدو بذلك . فسياسة الأرض المحروقة والإضطهاد الجماعي والإرهاب أدت إلى ثورة شعبية لم يتوقعها العدو الذي نام على حلم لذيذ وهو انه سيطر على الجزائريين واستراح . تجمع الغضب الشعبي نتيجة استهتار واستعلاء وعجرفة ضباط بوجو مع

---

(103) أوقف الانكليز امداد الأمير بالأسلحة من جبل طارق ، وفي الأخير أوقفوا ذلك حتى على المغرب خشية أن يتسرب السلاح الى الأمير . وكان الانكليز يخشون من احتلال فرنسا للمغرب اذا استمر هذا في مساعدة الأمير . انظر : (مذكرات السير جون درامون هاي J.D. Hay) ، لندن ، 1896 ، ص 73 .

السكان الذين سيطروا عليهم . فقد عينوا عليهم موظفين مكروهين كأغوات وخلفاء وقياد يلبسون برانيس قلدها إياهم العدو . وأصبح أولئك الضباط في الواقع هم الحاكمين وراء شبح هؤلاء الموظفين . وأخذوا جميعاً في فرض ضرائب جائرة عقوبة لهم وليست مستحقات عليهم ، واستولوا عن طريق النهب على ممتلكات الناس . وارتكبوا فظائع بالقتل التعسفي وبدون محاكمة ، واعتدوا على الحرمات والعادات ، ومكنوا الكولون من الإستيلاء على الأراضي المغتصبة واستغلالها أمام أعين أصحابها الشرعيين ، وهكذا ارتفع الدم الفائر في عروق الجزائريين وبات الجو في نهاية 1844 ينذر بثورة عارمة .

انطلقت هذه الثورة بإشارة وقعت في سيدي بلعباس في نهاية يناير 1845 ، فقد دخلها حوالي ستة من الجزائريين وقتلوا عشرين فرنسياً ، وأخذ بعض الساخطين على العدو يتسربون إلى الأمير داخل المغرب . وبعد ما راسل هذا العديد من الناس داعياً للثورة حاول هو وقواته العبور ولكن القوات الفرنسية منعته ، غير ان الثورة انطلقت مع ذلك ، تحت نداء الشريف بومعزة (محمد بن عبد اللّه) الذي استغل السخط العام ودعا الناس للجهاد . كان بومعزة أصلاً من المغرب ومن أتباع الطريقة الطيبية[104] . وبين فبراير - أبريل اتسع نطاق الثورة حتى شمل اقليمي وهران والتيطري قديماً ، ووصلت قوات الثورة إلى الأصنام الجديدة حيث التحموا مع المعسكر الفرنسي ، ووصلت نجدة للمقاومة زادت في اتساع نطاقها حتى عمت منطقة الشلف (الظهرة) . ولمواجهة هذا النفس الجديد للمقاومة ارتكب العدو مجزرة غار الفراشيش التي أشرنا إليها والتي قتلوا فيها بالإختناق بدخان الحطب أكثر من ألف نفس (رجالاً ونساء وأطفالاً) ، ليعلموا الجزائريين درساً في الحضارة واحترام القانون ! ان مثل هذه الإجراءات لم تقض على المقاومة ولم تفرض حتى الأمر الواقع ، فقد اختفى بومعزة في اتجاه الصحراء مؤقتاً ، وظهرت أسماء كثيرة يدعي كل واحد من أصحابها أنه هو المهدي المنتظر ، وانه هو بومعزة ، أو محمد بن عبد اللّه ، حتى اختلط الأمر على المؤرخين فلّم يعودوا يعرفون من هو الشريف محمد بن عبد اللّه بالضبط ؟

---

(104) انظر ما سيأتي .

ولكن الأمير كان هو الأمير . فأمام السخط العام والثورة الشعبية ، وأمام القوات التي تجمعت لديه داخل المغرب حتى وصلت إلى ستة آلاف خيمة وثلاثة آلاف فارس ، كان الأمير يحلم بجولة أخرى ضد العدو في الجزائر . ان العدو كان في موقع الدفاع الآن أمام هجوم المقاومة الشعبية المدفوعة بالمشاعر الجهادية . عبر الأمير إذن الحدود من جديد على رأس قواته واجتاز حوالي ثلثي الجزائر على جواده فكان يقطع خمسين ميلاً في الليلة الواحدة . لقد كان الثوار ينتظرون قيادة مركزية عسكرية لم يوفرها لهم الشريف بومعزة ولا بقية « الشرفاء » الذين ظهروا عندئذ . كان الثوار يريدون قوة توحدهم وتوجههم فوجدوها في الأمير الذي أحرز نصراً جديداً ضد العدو في معركة سيدي ابراهيم التي وقعت خلال سبتمبر 1845 . كان العدو يشيع عنه انه انتهى أو قتل فإذا به يظهر كالبرق فيكبد قوات (مونتنياك) خسائر فادحة شملت ثلاثمائة قتيل ومائة أسير ، ويجعل فرقة أخرى للعدو تستبسلم بدون حرب ، وهي تتألف من مائتي أسير . ان هذا النصر الجديد الذي حققه الأمير عبد القادر جعل الناس يعودون إليه بعد أن ظنوا انه لن يعود ، بل ان بعض الموظفين الذين قبلوا الوظيفة من العدو عاد إليهم الأمل وانضموا إلى الأمير من جديد.

وإن قوات بوجو التي وصلت عندئذ (سبتمبر 1845) إلى مائة وستة آلاف جندي لم تستطع أن تقف في وجه الأمير وهو يشق سهول الشلف والونشريس والتيطري ويعبر بني سليمان إلى حمزة وبلاد القبائل ليجعلها منطلقاً لهجوم جديد جريء على مدينة الجزائر نفسها . وكل ما استطاع بوجو فعله ليرفع من معنويات قواته المنهارة هو أن يقوم بحملات ارهابية تخريبية ضد العزل الذين يشتبه انهم يؤيدون الأمير وضد الموظفين الذين ظن انهم « خانوا » يمين الولاء لفرنسا . لقد أرسل بوجو قواته تضطهد القبائل المعزولة ، وترتكب المجازر ضد العديد منهم ، وتخرب أملاكها وتسطو على أرزاقها . أما الأمير الذي وصل حمزة في عمق الشتاء (يناير 1846) وحاول هجومه المذكور على العاصمة في فبراير ، فإن بوجو كان غير قادر على اعتراض طريقه ، رغم تخصيص « قوة متحركة » لمطاردة الأمير شخصياً.

ولكن بوجو كان قادراً على جعل الحياة صعبة على الأمير في الجزائر . فقد استمر في عزل السكان عنه ، ولم يعد الأمير يجد المساندة واللجوء اللذين طالما وجدهما في شعبه عندما يضيق عليه الفرنسيون الخناق ، حتى عندما توجه نحو

الجنوب وجد معظم الناس قد أصبحوا في قبضة العدو . ولذلك عاد إلى المغرب خلال يوليو 1846 ، لعله يجد بعض الأمن وينظم دائرته التي تركها وراءه قبل حملته الأخيرة . كانت الدائرة (وهي ما بقي له من الزمالة) قد أصبحت تحت قيادة خليفته مصطفى بن التهامي بدل الخليفة محمد البوحميدي ، منذ ابريل 1846 . وكانت الدائرة تعيش عيشة ضنكة ، في حاجة إلى الغذاء والأمن . وكان عددها يقدر بحوالي أربعة آلاف معظمها عائلات جنوده الذين ما يزالون يحاربون معه في الجزائر . وكان في الدائرة حوالي ثلاثمائة (270 حسب بعض الإحصاءات) أسير فرنسي ، حاول الأمير المفاوضة عليهم لمبادلتهم بالأسرى الجزائريين ، ولكن بوجو رفض المبادلة والفداء . فما كان من ابن التهامي إلا أن أمر بقتل جميع أسرى العدو ، بدون علم ولا إذن الأمير ، وبالإضافة إلى ذلك ضاقت الحياة ببعض أتباع الأمير ، مثل قبيلتي هاشم وبني عامر ، فانفضوا عنه واختاروا العيش والاستقرار حول مدينة فاس . وكل هذه التطورات ، بالإضافة إلى عزلته في الجزائر قد جعلت الأمير يبدو في حالة يائسة .

ومنذ غادر الأمير الجزائر في صيف السنة المذكورة واصل العدو حملته في القضاء على كل نصير للأمير وإدخال كل المناطق والسكان الجزائريين تحت طاعته بالعنف والإرهاب . وكان أحمد الطيب بن سالم من أواخر خلفاء الأمير الأقوياء والأوفياء له ، والذين ظلوا في الجزائر صامدين أمام العدو ، ولكن الخليفة ابن سالم يئس أيضاً من المقاومة بعد أن قام العدو بحملات ضده ، فاختار الاستسلام بشرط أمنه وتركه يذهب مع من يختار الى المشرق . ورغم ان الشريف بومعزة قد انضم إلى دائرة الأمير بالمغرب ثم رجع إلى داخل الجزائر لإثارة الناس للجهاد، فإنه أيضاً وجد نفسه في حصار ويأس فاختار التخلي عن حركته واستسلم أيضاً . (ابن سالم في فبراير وبومعزة في ابريل 1847) .

ان هذه الحوادث داخل الجزائر لم تساعد الأمير في المغرب أيضاً . فقد كانت فرنسا تضغط على السلطان أن يطرد الأمير ، وكانت بريطانيا أيضاً تحثه على ذلك حتى لا يكون حضوره سبباً في احتلال فرنسا للمغرب ، ولكن السلطان نفسه أصبح خائفاً من الأمير . فلم يعد هذا بالنسبة إليه لاجئاً أو مجاهداً فقط ولكنه أصبح في نظره منافساً . وقد غذى الفرنسيون هذه الفكرة عند السلطان . ذلك ان معاهدة السلام بين فرنسا والمغرب سنة 1844 جعلت السلطان غير محبوب من كثير من شعبه ، وكان

الأمير ، لمواصلته الجهاذ ، قد أصبح الـرجل المنـاسب والسلطان الحقيقي الذي يدافع عن الإسلام في نظر كثير من المغاربة . وكان نقل الأمير لدائرته إلى منطقة الريف ودخول الناس هناك في طاعته قد أثار مخاوف السلطان أكثر فأكثر. ولذلك عزم على التخلص الفعلي والجسدي من الأمير . فـأرسل جيشـاً ضده بقيـادة ابن أخيه مولاي الحسن ، في يونيو 1847 ، ولكن الأمير هزم هذا الجيش مما أضاف رصيداً إلى رصيده بين المغاربة ولكنه أيضاً زاد في خطورته في نظر السلطان . وقد ظلت المناوشات قائمة بين الطرفين . فهذه بنو عامر وهاشم تحاول الانضمام من جديد إلى دائرة الأمير ، فإذا بالجيش المغربي يهاجمها ويشردها . وهذا الأمير يفقد بذلك ليس فقط تأييد هذه القوة ولكن تأييد القبائل المغربية التي كانت معه أو حتى المحايدة منها.

وعاد الأمير إلى الدبلوماسية لعلها تخرجه من ضائقته . فـالتقى بحاكم مليلة الاسباني وأعطاه رسائل إلى مـلكته (ايزابيلا) ، وإلى قنصل فرنسا في ملاقة ، وإلى السفير الإنكليزي في مدريد ، طالباً منهم التدخل لدى الحكومة الفرنسية لصالحه . ولكن محاولته لم تجد نفعاً . ولم تزد حكومة لويس فيليب على أن طلبت استسلامه بدون قيد ولا شرط . كما طلب الأمير من الحاكم الاسباني أن يسمح بمرور الأسلحة للأمير من جبل طارق عن طريق ميناء مليلة ، ويبـدو ان الحاكم قـد وافق ، ولكن حكـومته التي كـانت تؤيد فـرنسا رفضت ذلـك ، فلم يتحقق ما كـان الأمير يصبـو إليه[105] . ثم حاول الأمير الدبلوماسية مع السلطان عبد الرحمن لعله يصل إلى حل سلمي معه يؤدي إلى تفادي الحرب الواسعة بين الطرفين ، فأرسل صديقه وخليفته السابق على تلمسان ، محمد البوحميدي الولهاصي ، إلى السلطان في مهمة اعتبرت من أدق المهمات ، ولكن السلطان سجن الولهاصي ، ويقال أنه أجبره على ابتلاع السم إذ مات في سجنه في المغرب ، في نهاية نوفمبر 1847 .

---

(105) أنظر يحيى بوعزيز وميكيل دي ايبالزا (الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا . . .) دار البعث ، قسنطينة ، 1982 ، ص 26 . جاء في هذا الكتاب ان هناك حوالي 23 رسالة متبادلة بين الأمير والسلطات الإسبانية (المـلكة ، وحاكم مليلة ، الخ .) وان الأمير نفسه التقى بحاكم مليلة وجرى الحديث بينهما عن امكانات إسبانيا في تأييد جهود الأمير بالسلاح والدبلوماسية (مع فرنسا الخ .) ولكن اللقاء والمراسلات لم تثمر لأن السلطات الإسبانية كانت في صميمها تؤيد فرنسا ، رغم طموحاتها هيَّ الإستعمارية ايضاً . أنظر الصفحات من 35 إلى 48 .

وهكذا كان السلطان قد كشف عن نواياه في الحرب ، وقرر مهاجمة دائرة الأمير بقوة عسكرية ضخمة . وكان الفرنسيون يساعدون على هذه النهاية ويخططون لها منذ معاهدة طنجة ، حتى وصل بهم الأمر إلى دفع السلطان إلى هذا الموقف وإرشاء بعض القبائل[106]. وأما ذلك عزم الأمير على عبور الحدود إلى الجزائر بدائرته. وقد اجتاز صهره ابن التهامي نهر ملوية في العشرين من ديسمبر، وفي نفس اليوم هاجمت القوات المغربية الدائرة فاجتاز بها الأمير نهر ملوية وحط رحله في الجانب الجزائري من النهر . واستأنف الأمير مناوشة الفرنسيين في المنطقة وفحص دفاعهم فوجد ان عبور خطوط دفاعهم مستحيل وانه لم يبق أمامه الا خياران : الاستسلام أو الهروب مع قلة من الفرسان مع ترك الدائرة (بما فيها عائلته) في قبضة العدو . جمع الأمير مجلسه الاستشاري وعرض عليه الخيارين ، فاختار الأول ، رغم أن البعض رجوه أن يفر بنفسه لعله يستطيع استئناف الجهاد. وهكذا أرسل الأمير في الواحد والعشرين من ديسمبر 1847 رسالة إلى لامورسيير المتولي على المنطقة يشترط الأمان والاذن له في التوجه إلى الاسكندرية أو عكا ، فكتب إليه الجنرال الفرنسي

---

(106) أنظر دانزيقر ، (عبد القادر . . .) ، ص 236 . ويقول درامون هاي (مذكرات . .) ، ص 72 ـ 73 ، ان معاهدة طنجة نصت على أن الأمير عدو مشترك لكلا الطرفين (فرنسا والمغرب) وان أي طرف يقبض على الأمير يرميه في السجن الرسمي في احدى المراسي النائية . ويثبت هاي الذي كان ، كما كان والده قبله ، يعرف دقائق الأمور بالمغرب ، ان بعض المغاربة الرسميين كانوا يرشحون الأمير لحكم المغرب ، مثل رئيس الوزراء محمد بن ادريس . وحين اكتشف السلطان مراسلاته السرية مع الأمير جذب لسانه حتى انتفخ ومات من الالم المضني بعد أيام دون أن يعرف بذلك الآ القليل . وأثبت هاي ان الأمير قد بعث اليه رسالة يطلب فيها تدخل حكومته ولكنه قال انه لم يجبه كتابة ، وان حكومته لم تقدم اليه اية معونة . واعترف ان وظيفته كانت تقتضيه ان يحث السلطان باستمرار على عدم إقامة علاقات مع الأمير ووجوب معارضته وقال بأن الأمير جعل منطقة الريف مهرباً يلجأ إليه كلما ضغط عليه الفرنسيون. وهذه الأصداء نجدها أيضاً في كتاب (الإستقصاء) لأحمد الناصري، 9/56 ـ 59. فقد ذكر التحارب الذي جرى بين جيش السلطان وجيش الأمير، واتهم الأمير بالاستبداد ومحاولة اثارة أهل المغرب ضد السلطان والطموح إلى حكم المغرب . واعترف بأنه فر إلى الفرنسيين بعد هزيمته من قبل المغاربة ، الخ . ويوجد نص معاهدة طنجة في عدة مصادر منها ، كتاب روزي وكاريت (الجزائر) ، ص 328 ـ 329 .ويذكر الكاتبان أن المعاهدة نصت على انه إذا قبض الفرنسيون على الأمير يعاملونه « بالحسني » وإذا قبض عليه السلطان يحتجزه في مرسي على الساحل المغربي الغربي إلى أن يتفق الطرفان عما يتم في شأنه .

رسالة متعهداً له فيها باسم حكومته بما طلب ، وبذلك انتهى كفاح بطل ، ولكن كفاح الشعب قد استمر.

9. ملاحظات على الأمير :

يقول أحد الكتاب المحدثين : ان عبد القادر قد تحدى أكبر الجيوش في وقته ، واخترع حرب العصابات ، ووضع أسس الوطنية الجزائرية ، وأعطى لغيره دروساً في المهارة والالتزام للدبلوماسيين ، كما انه ظهر كأفضل شعراء العربية في عصره ، ثم هو من الزعماء الروحيين . ورغم جهاده فقد أظهر روحاً من التسامح والاحترام لكل الأديان[107] ، الخ . ولكن هذا الكاتب نسي أن ينبه إلى أن عبد القادر هزم أكبر جنرالات ومارشلات فرنسا عندئذ ، وانها نكبته في وطنه وقومه وتآمرت عليه مع جيرانه وعزلته حتى مع علماء الدين ، ونصبت ضده شبكة من الجواسيس والخونة ، وتقولت عليه الأقاويل الكاذبة ، وخانت وعدها معه بتركه يذهب حيث اختار.

ولكن هناك كتاب آخرون يذكرون ان الأمير كان باعث الوطنية الجزائرية . فقد وصل خطابه أعماق الشعب ، وحرك نداؤه ضمير الأرض ، وهز صوته أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والطرق الصوفية والإقليمية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل ، لم يكن الجهاد وحده هو الذي جعل الناس يضحون ويتبعون راية الأمير ، بل كانت هناك مشاعر متأججة حباً في الأرض وحباً للوطن الجديد الذي رسم حدوده الأمير ، وجعل عليه قضاته وخلفاءه وممثليه ، واعترف له العدو بحدوده . وكان الأمل أكبر من الواقع وكان الزمن أقصر من الأجل ، ولو طال العهد لازدهرت الدولة الجديدة وأثمرت الآمال العريضة ولأخصب الدين والفكر والعلم والفن في عصر كان العالم الإسلامي كله فيه ينتظر مثل هذا الوليد . لقد ظهرت قبل ذلك الحركة الوهابية فإذا بها تضرب قبل أن تكشف عن وجهها الحقيقي ، وكشفت « نهضة » محمد علي عن وجهها فإذا هو وجه علماني سلطاني يبتسم في وجه الأجنبي ويكشر في وجه المواطنين . وأخذ سلاطين آل عثمان

---

(107) ل . لاتياد Lataillade ، (عبد القادر ، عدو وصديق فرنسا) ، باريس ، 1984 ، ص 43 .

« ينظمون » دولتهم المتداعية فإذا الإصلاحات مفاسد وإذا الأعداء هم المصلحون جالسين يملون على محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وأنور ومصطفى أتاتورك ما عليهم أن يفعلوا وما عليهم أن يتركوا .

إن دولة الأمير الوليدة لم تحاربها فقط جيوش فرنسا حباً في التسلط والبطولة وطمعاً في انشاء امبراطورية ، ولم يقف ضدها فقط الكولون بمحاريثهم وأموالهم لكي يستغلوا الأرض المغتصبة ويستثروا على حساب الجزائريين ، بل حاربتها أيضاً ، ظاهراً وباطناً ، الكنيسة والماسونية (الصهيونية) ، كما حاربها سلاطين المسلمين وحتى بعض علمائهم النائمين . حاربتها الكنيسة لأنها اعتبرتها حركة جهاد اسلامي متوثب فيه انتعاش ونهضة للاسلام الراكد اذا انتصرت ، واعتبرت الكنيسة نفسها عملها ذلك استمراراً للصليبية التي خاضت في الشرق والغرب حروباً ضارية ضد الاسلام والمسلمين ، بما فيها الأندلس ووهران . وتآمرت عليها الماسونية خصوصاً في الدوائر المحيطة بالحكومة الفرنسية وحاشية الملك وقطعان التراجمة والمستشرقين الذين توافدوا على الجزائر ، لأن دولة الأمير كانت دولة عربية ، سلفية ، شريفة ، لو انتصرت لكانت خطراً عظيماً على مخططات الماسونية ـ الصهيونية في الشرق ، ولكانت أول دولة توحد العرب على كلمة الجهاد كما وحدتهم عليها زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزمن الخلفاء الراشدين .

أما سلاطين المسلمين فقد رأينا أن بني عثمان كانوا في غفلة من الزمان ، لم يبق لهم من الاسلام الا الشعارات والطقوس والظلال ، ولم يبق لهم من لغة القرآن الا العبارات الدينية التي تقال في المناسبات ، بل لم يبق لهم من القوة الا قوة التآمر على بعضهم البعض وقوة الاستبداد بالمسلمين وقوة الحريم والمحظيات الأوروبيات . فمن أين لهم نجدة عبد القادر بن محيي الدين ولم ينجدوا حتى غرقاهم في نفارينو ؟ ثم كيف ينجدونه وقد أعلن أنه عربي هاشمي وشريف من آل البيت ، ولم يطلب منهم لقباً أو قفطاناً ؟ ألم يذق شعبه ووالده وهو شخصياً من ممثلي أولئك السلاطين في بلاده أنكى المعاملات وأقسى الاهانات ؟ ومن أين لسلطان فاس أن ينصره ويحميه بعد أن وضعت معاهدة طنجة الحبل حول عنقه وهزم جيشه في ايزلي ، وأصبح اسم عبد القادر يهدد عرشه بالسقوط ، واذا كان سلاطين آل عثمان قد وقفوا من عبد القادر وقفة المتفرج فان سلطان فاس قد وقف منه ، في اللحظات الحرجة ،

وقفة العدو اذ حاربه وهزمه وأجبره على الارتماء في أحضان العدو الفرنسي[108].

وأما علماء المسلمين ، فقد كان أغلبهم ، كما قال ابن العنابي ، منشغلين بتكوير وتكبير العمائم ، واطالة أكمام الجبائب ، وصبغ اللحى والشوارب ، والتكثير من حبات السبح . والتحذلق والحوقلة والسبحلة ، والتقرب من ذوي السلطان ، والنقاش حول الحلال والحرام . أما أمر الجهاد عندهم ، بما في ذلك أعظم الجهاد الذي هو كلمة حق عند سلطان جائر ، فقد أصبح من الذكريات الخوالي ، لا يقرأ الا كآيات في القرآن أو عبارات في الأحاديث النبوية ، أو في أبواب الجهاد في الكتب الفقهية . فلما جاءهم ليون روش صحبة الشيخ محمد التجاني بفتوى تقتضي وقف الجهاد ضد أعداء الدين آمنوا وصدقوا ووضعوا أختامهم . كانت الفتوى التي أحكم صياغتها روش بالتعاون مع علماء السوء في الجزائر ، تقول للمجاهدين الجزائريين ضعوا أسلحتكم فأنتم في بلد اسلامي ، وأنه إذا تغلب العدو الكافر على المسلمين فإنه لا يجوز لهؤلاء مجاهدته لأن ذلك ضرب من الانتحار ، ولا تجب عليهم أيضاً الهجرة لأن الجزائر ليست دار حرب بل هي ما تزال دار اسلام ما دام العدو الكافر قد تعهد بترك المسلمين يقومون بأمر دينهم . وليس عليهم أن يتبعوا الأمير ولا أن يشايعوا أي مجاهد أو مهدي منتظر ، يعلن أنه رجل الساعة جاء لطرد الكافرين[109] . لقد خذل أولئك العلماء الأمير في جهاده وأثروا على حركته ، ربما أكثر مما أثرت عليه لامبالاة سلاطين آل عثمان أو سيوف سلطان فاس . وقد قال أحد الباحثين الفرنسيين المتفقهين في شؤون الاستعمار « وقد أدت هذه الوثيقة (الفتوى) في وقتها أكبر خدمة لتأسيس احتلالنا للجزائر»[110].

---

(108) لا شك ان السلطان (الملك) محمد الخامس كان قد قرأ تاريخ الاربعينات من القرن الماضي قبل أن يؤيد الثورة الجزائرية رغم ضغط الفرنسيين . ومن جهة أخرى فإننا نتساءل لماذا لم يتصل الأمير بمحمد علي ، والي مصر ، الذي كان أقوى من السلطان العثماني عسكرياً . وكان أقرب إلى الفرنسيين كحليف ، لماذ لم يتصل به مستفيداً بسلاحه أو بتدخلاته ؟ هل لصداقة محمد علي مع فرنسا دخل في ذلك ؟

(109) أشرنا إلى هذه الفتوى التي حملها روش والتجاني إلى علماء القيروان والأزهر والحرم المكي وسنرى ان جول كامبون حاكم الجزائر في التسعينات من القرن الماضي قد لجأ إلى نفس الطريقة ليضمن توسع فرنسا في الصحراء وجنوب الجزائر ، وليمنع بها الجزائريين من الهجرة نحو الشرق .

(110) أنظر ديبون وكوبولاني (الطرق الصوفية الإسلامية) ، ص 37 .

إن الأمير لم يكن غافلاً عن رأي علماء الدين وأهميته في جهاده . وقد راسل بعضهم يستشيرهم في أمور الناس والعلاقة مع العدو، كُلَّمَا حَزَ به أمر أو لم يهتد الى رأي فيه نص أو قياس . ومن ذلك ما كتبه الى علماء فاس سنة 1252 (1836) يسألهم عن موقفه من المسلمين الذين تواطؤوا ضده مع العدو أو انضموا الى الكفار بعد أن استعملوا معهم الحيلة السياسية : ما حكم الدين في ذلك ؟ وما حكم الشرع في المتخلف عن الجهاد والدفاع عن الحريم والأولاد ، رغم دعوة الامام له بالجهاد ؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم ؟ وما الموقف مع من رفضَ دفع الزكاة للامام الخ ؟ ان هذه الأسئلة معروفة للباحثين . وقد أجاب عنها الشيخ علي بن عبد السلام التسولي في مجلد بلغ خمس كراريس[111] . وراسل الأمير علماء الجزائر ورجال الطرق الصوفية فيها يطلب منهم دعوة الناس للجهاد واجابة دواعي الشرع واستخدام نفوذهم الروحي عند السكان من أجل مصلحة الوطن والدين . وقد عين منهم الكثير في وظائف دولته وجعلهم الأمناء على مصير دولته في أغلب الأحيان ، وقد صدق معه بعضهم الى آخر رمق . ولكن بعضهم تآمروا عليه وحاربوه أو لم يفهموا مهمته أو تغلبت عليهم الأنانية وحب المصالح الدنيوية ، بل إن بعضهم قد خان اللّه ورسوله في ربطه علاقات ودية مع العدو وشاركه في كبح حركة الجهاد الشعبية .

وفي هذا الصدد راسل الأمير أيضاً علماء مصر سنة 1263 (1847) حول موقف السلطان عبد الرحمن بن هشام منه ، متهماً إياه بالتحالف مع العدو ضده ، وبالوقوف ضد الجهاد والاستيلاء على أرزاقه وأسلحته والأمر بقتله الخ . وقد رد عليه الشيخ عليش مفتي المالكية بالديار المصرية بأن السلطان يعتبر خارجاً عن قواعد الدين وأن أوامره من أجل ذلك لا تطاع ، بل تجب مقاومته لتحالفه مع الكفار ، الخ[112] .

كانت وسيلة الأمير إلى قلوب الناس، ومنهم العلماء، هي الرسائل التي كان يوجهها اليهم مع الوفود الثقاة . وقد عبرت رسائله حدود العدو في شرق البلاد وغربها ، حتى وصلت الى فقيق (فجيج) وتقرت . وها هو يحث أهل فقيق على الجهاد بقوله : « أما بعد ، فإن الغيرة الاسلامية تحق لأمثالكم ، والاغتياضات

---

(111) الناصري (الاستقصا) 9/45 ـ 46 .

(112) أنظر الأمير محمد (تحفة الزائر) ، ج 1 ، ص 306 ـ 313 .

(الغضب) الأنفية تجب على أقوالكم وأفعالكم . . كيف لا ، والعدو الكافر ، أذله الله ، جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال ، . . وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوء الاسلام ظلام ليله ، حتى كاد يخفي جدول فجره . . .[113].

وفي منشور آخر وجهه الأمير الى أهالي الشرق الجزائري (سطيف ونواحيها) يحثهم أيضاً على الجهاد والبعد عن التجارة مع الكفار ، ويذكرهم بأن العدو قد وعدهم احترام الدين والنساء والأرض ولكنه خان وعده، وظلم الناس وجار عليهم بعد ابتعاده (عبد القادر) عنهم . لقد اعتقدتم في كلامهم السفيه ، وأطعتم الكفار ، ولكنهم اغتنموا فرصة غيابي عنكم وخانوا عهدهم لكم . وهاهم قد لطخوا مساجدكم ، وأخذوا منكم أحسن أراضيكم وأعطوها لأبناء جنسهم ، واشتروا أعراض نسائكم . . وأهان أكرم عائلاتكم ، ورأس عليكم مسلمين ملاعين اشتروهم بأموالهم ، وسجن أشرافكم ومرابطيكم في بلاد النصارى . . . إنكم اليوم تحت رئاسة رومي ، يقاضيكم رومي ، ويدير شؤونكم رومي ، وهو يسوقكم سوق القطيع الى السوق . . أيها المسلمون ! لقد حان وقت اليقظة ، فانهضوا على سماع صوتي ، لقد وضع الله سيفه الملتهب في يدي ، وسنمضي جميعاً نروي سهول أرضكم بدماء الكفار»[114].

هل نستطيع أن نفرق بين الدين والوطنية في هذه النصوص ؟ إننا لا نستطيع ذلك في نظرنا ، رغم أن بعض الباحثين فعل ذلك ، فإذا فريق يجعل من الأمير رجل دين وجهاد وتصوف ، ويقول ان الدين تغلب على دولته في جميع مجالاتها ومظاهرها الجيش ، المالية ، القضاء ، حتى العملة والسكة[115] . ويرى فريق آخر أن الأمير هو مؤسس الوطنية والسيادة في الجزائر ، وأنه جدد في الاقتصاد بإبطال الخراج على

---

(113) من نداء الأمير إلى أهل فقيق ، نصه في ل . قونيالون Gognalons (المجلة الافريقية) ، 1913 ، ص 248 ـ 250 .

(114) مترجم عن نص ترجمه شارل فيروفي (روكاي) ، 1872 ، ص 119 ـ 120 .

(115) بيسه شينار « عبد القادر وعبد الكريم » في (مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية) ـ القدس ـ 1965 ، ص 143 ـ 160 . لاحظ هذا الكاتب ان الأمير قد اعتمد أحياناً على رجال السيف أو الأجواد ، ولكن اعتماده الأساسي كان على رجال الدين .

الرعية والامتيازات للمخزن ، والابقاء على الزكاة والعشور ، وجدد في القضاء فسوى بين الناس وطبق نصوص القرآن على الجميع ، وخصص راتباً قاراً للقاضي ، وجدد في العسكرية فجعل خدمة الوطن واجبة على الجميع ، وجدد في مفهوم الدين والتصوف فلم تعد القادرية هي المثل وانما جعل وحدة الشعب كله هي الهدف[116].

إن الأمير في نظري هو موقظ الضمير الوطني الجزائري بأفعاله وأقواله طيلة عهد جهاده الذي بلغ سبعة عشر عاماً (عامان تحت قيادة والده) . لقد كان هدفه الأساسي ايقاظ واذكاء ذلك الضمير بجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الشعبية هدفاً . ولعل الأمير قرأ جيداً واستفاد كثيراً من مقولةابن خلدون : إن العرب لا تجتمع الا على عصبية ودين . فجعل الأمير العصبية نصب عينيه واستحضر عهد البعثة النبوية وعهد الصحابة ، ولم يكن يفرق في ذلك بين ابناء الجزائر في الأصل فقد كانوا عنده جميعاً عرباً ومسلمين ، سواء كانوا سكان مدن أو جبال أو صحار ، وسواء كانوا يتكلمون العربية أو لهجات محلية . وإنما ظهر عليه أنه لم يرتح لبعض زعماء الكراغلة لأنهم بدأوه بالاساءة اليه وتعاونوا مع عدوه . وبينما لم يتدخل في العادات القبلية ولا في سلوكات الطرق الصوفية فإنه كان يخاطب الجميع بلغة الدين والوطن والوحدة ويذكرهم بماضيهم المجيد ويرغبهم في التحرر والنهضة والاعتماد على النفس . ولذلك أحبه الجميع وندم الذين خالفوه أحياناً على فعلهم وجاؤوه تائبين متوسلين . وقد عرفوا قدره أكثر بعد أن غاب عنهم وترك فراغاً لم تملأه أية شخصية من بعده لأن كل من ظهر بعده كان يفتقر الى العناصر التي تمتع بها الأمير وهي تحديد الهدف وخدمته بكل الوسائل : الحرب والدبلوماسية والشجاعة والرأي والاخلاص.

ولعل هذه القيم هي التي جعلت الأمير هو البطل المغوار الذي تتحدث عنه قصص الفروسية العربية والفارس الغازي الذي ذكر الناس بخالد بن الوليد وعلي ابن أبي طالب وعقبة بن نافع ، في وقت لم تبق من هؤلاء الا ذكريات الكتب وأحاديث الأسمار . وقد لاحظ أعداؤه المعاصرون له أن الأمير لا يمكن خيانته مِمَّن تبعه ، رغم

---

(116) رينيه قاليسو ، مقالته « حرب عبد القادر أو القضاء على الوطنية الجزائرية » في : (هيسبريس - تمودا) رقم 54 ، 1964 ، ص 120 - 124 . أنظر أيضاً دانزيقر (عبد القادر . . .) ، فقد قال عن الأمير بأنه زعيم سياسي استعمل الدين لوحدة الدولة .

أن كثيراً من عظماء الرجال انتهوا بخيانة بعض المخلصين لهم. وقد حاول الفرنسيون أن يجدوا خائناً يغتال الأمير أو يضع له السم فباؤوا بالفشل . فهو محارب مقدام لا تجده الا متقدماً أمام الجميع ، وهو في نظر البعض مجاهد يطلب الموت لتوهب له الحياة . ولذلك لم يكن في حاجة الى حراسة ولا بوابين . وقد وصفه الواصفون عندئذ بأنه كان بسيط اللباس والأكل والمظهر ، وأن التواضع والزهد والذكاء والحزم من سماته . وإن في امكانه أن يأكل الكسكسي تحت أية خيمة ، وأن يشرب من أي نهر ومن أي كوب يشاء دون أن يخاف سما ، وأن يضع رجله حيث يشاء دون أن يخشى كميناً من أحد[117] . فهو فارس الفوارس وحامي الضمار ورب السيف والشعر.

ان كبار العسكريين الفرنسيين الذين حاربوا الأمير (وكذلك وزيرهم للحربية ـ المارشال سولت) قد فهموا جيداً خطة الأمير . وعملوا ما في وسعهم على عرقلة تنفيذها لأنها تخرجهم من الجزائر ، وتعيد مجد الإسلام ، وتبعث تياراً جديداً اسمه القومية العربية . وقد تعاونوا في ذلك ، كما قلنا ، مع الكنيسة والماسونية وأغبياء المسلمين (سلاطين وعلماء) لكسر شوكة الأمير ، الممثل لهذا الفجر الجديد . ولنرجع إلى كتابات بوجو ، وسولت ، وفاليه ، ودوفيفييه ، ولا موريسيير الخ . فإن فيها الجواب اليقين عما كانوا يحسونه منه ويلاحظونه عليه في هذا المجال ، وكيف خططوا وعملوا على إطفاء شعلته قبل أن تحرقهم[118] .

10. رجال من صنف آخر :

شهدت فترة الأربعينات أبطالاً آخرين وزعانف عديدين . وكلما ازداد العدو قهراً وغلبة ظهر من المقاومين له أشكال وألوان ، كما ظهر من الموالين له أشكال

---

(117) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 2 ، ص 103 . أنظر أيضاً ل . قان في مقالته عن قصيدة الأمير في تلمسان ، في (المجلة الافريقية) ، 1883 ، ص 228 .

(118) ذكرنا من قبل بعض آراء هؤلاء ، وتضاف اليهم آراء ليون روش ويوجين دوماس ، وشارل هنري تشرشل ، والإسكندر بيلمار (وكلهم عاصروه وخبروه) ، بالإضافة إلى بعض رجال الكنيسة ـ بعد هزيمته طبعاً ـ ورجال الماسونية بعد أن انخدع هو بهم .

وألوان . ولم يكن كل المقاومين من صنف الأمير عبد القادر ، ولا كل الموالين من نوع مصطفى بن اسماعيل وبوعزيز بن قانة ومحمد التجاني . كان منهم من ظهر ظهور الشهاب ثم اختفى ، ومنهم من ظهر لتمثيل دور درب عليه ثم ابتعد عن المسرح ، ومنهم من انتصب تمثالاً دائماً للخيانة طيلة عهد الإحتلال . وإذا كان في العهود اللاحقة نماذج من هؤلاء وأولئك ، فإننا نكتفي بالنسبة إلى عهد هذا الفصل بالتعرض لبعض هذا الصنف من الناس ، سواء الذين بدلوا وغيروا أو الذين ثبتوا على الحق كالجبال الراسية .

ان التسلسل التاريخي للأحداث يجعلنا نبدأ بالشيخ الحاج علي السعدي . ولكي لا نكرر ما قلناه عنه سابقاً نحيل القارىء إلى الفصل الثاني ليعرف أولياته وجهاده . فقد حارب العدو في متيجة ، ثم اتصل بالأمير الذي استخلفه على بلاد القبائل (1835 ـ 1837) ، وحين استخلف الأمير أحمد الطيب بن سالم بدله في هذه السنة ، ظل الحاج السعدي يناضل في المنطقة إلى أن توفي سنة 1843 ، وهي السنة التي فقد فيها الأمير زمالته وأعظم خلفائه محمد بن علال ومحمد البركاني أيضاً .

وكان دور السعدي وابن سالم عظيماً في المنطقة . فقد اعترضت قوات الأخير طريق جيش العدو من قسنطينة إلى الجزائر ، وكانوا درعاً واقياً للأمير أثناء زيارتيه الأولى والثانية لبلاد القبائل وتنظيمها . وكانت هذه هي أمله الأخير في الهجوم على مدينة الجزائر سنة 1846 بعد أن تغلب عليه العدو في الإقليمين الغربي والأوسط ، وبعد أن أعلن سلطان فاس الحرب ضده . فقد توجه الأمير بنفسه في هذه السنة في حركة خاطفة ورائعة قطع خلالها نحو خمسين ميلاً في الليلة الواحدة ليصل إلى بلاد القبائل ويجند منهم جيشاً هجم به على العدو . وكان هذا آخر هجوم له في وسط الجزائر وعند أبواب العاصمة . وكان خليفته هناك أحمد الطيب بن سالم ، من أقوى خلفائه وأوفاهم له . وقد ظل على عهده معه إلى أن انقطع الأمير في المغرب وضيق الفرنسيون الخناق على ابن سالم فوضع هذا سلاحه في ابريل 1847 .

لقد حاول بوجو أن يهاجم بلاد القبائل ويعاقبها ، كما فعل في الجهات الأخرى ، على تأييدها للأمير . وكان ذلك في ابريل 1844 . ولكن أهل القبائل جندوا حوالي خمسة وعشرين ألف محارب ، واعترفوا بدفع الضريبة للأمير ،

واستقبال جيشه ، وتعاهدوا فيما بينهم على الصمود في الحرب ورفض الإستسلام لشروط بوجو ، ولو ماتوا عن آخرهم . ورغم انّ بوجو قضى في حملته الظالمة ضد بلاد القبائل شهراً كاملاً ، فإنه رجع منها خائباً إذ لم يحقق أي نصر أو تقدم مدعياً أنه كان مضطراً للرجوع إلى الجزائر ليقود جيشه ضد الجيش المغربي في ايزلي[119] .

وقد توطدت صلات الأمير ببلاد القبائل عن طريق الزاوية الرحمانية أيضاً . اذ عرفنا أن هذه الزاوية كانت تمر بصعوبات في عهد الحاج البشير المغربي الذي تولاها منذ 1837 ، ومنها بعض الإنقسامات . وقد تدخل الأمير لإصلاح ذات البين ، فأعاد الحاج البشير إلى قيادة الزاوية بطلب من لالله خديجة ، أرملة الشيخ محمد بن عيسى الذي كان قد خلف الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، مؤسس الطريقة والزاوية . وبقي الحاج البشير على رأس الزاوية إلى وفاته سنة 1841 . وخلال حوالي سنتين تولى الزاوية الشيخ محمد بن بلقاسم نايت عنان ، ولكن سمعة الزاوية في عهده تضررت فتولاها سنة 1843 الحاج عمر ، وسيبقى الحاج عمر مدة طويلة نسبياً (إلى 1857 ؟) يدير الزاوية ، ولكن في ظرف صعب ، وهو محاولات الفرنسيين مهاجمة بلاد القبائل والإستيلاء عليها ودور الزاوية في قيادة الجهاد هناك . ولذلك فإننا سنعود إلى الحديث عن الحاج عمر في الفصل التالي[120] .

ولعل هجوم العدو سنة 1844 ووجود الأمير سنة 1846 هو الذي أظهر أيضاً شخصية محاربة أخرى في بلاد القبائل باسم الشريف محمد بوعود (أو راكب الحصان) . فقد ظل هذا الشريف يثير السكان للجهاد ضد الكافر هناك حوالي سنتين . ولا ندري ما إذا كانت حركته على صلة بالمقاومة التي كان يقودها الأمير أو أنها كانت مستقلة عنها أو فردية . كما اننا لا ندري الآن أهمية حركته ولا كيف انتهت ، رغم أن بعض المصادر تقول ان الشريف بوعود قد استسلم إلى الفرنسيين في سور الغزلان ، في مارس 1848[121] .

---

(119) بوجولا (دراسات . . .) ، ج 1/73 .

(120) أنظر عنه رين (مرابطون . . .) ، ص 458 . وكذلك رسائله إلى السلطات الفرنسية طالباً منها تركه يغادر الجزائر ، في ارشيف ايكس 11 1H .

(121) روبان (المجلةالافريقية) ، 1870 ، ص 349 .

ومن الشخصيات التي قادت ثورة بين سطيف وسور الغزلان ، محمد بن قويدر الذي كان من العذاورة . ولا يظهر أن ابن قويدر هذا كان من رجال الدين . فقد كان محارباً شجاعاً ، وكانت عائلته ذات نفوذ في العهد العثماني . وكان قد أعجب بحركة الأمير فانضم إليه ، ثم قاد سنة 1846 ثورة ضد العدو في ونوغة . ويبدو أنه كان كأمثاله الذين تغلب عليهم العدو ، فرضوا في الظاهر بالتعامل معه وقبلوا وظائفه ولكنهم في الباطن كانوا مع المقاومة . فرغم أن الفرنسيين عينوه قائداً على كسنّة ثم على العذاورة الشراقة، فإنه كان على علاقات مع الأمير. وقد توفي ابن قويدر، في جوان 1848[122] .

وقد ظلت بجاية نقطة خطيرة على العدو منذ احتلالها (1833) إلى الأربعينات . فقد غادرها سكانها ، وكونوا فرقاً لمنع العدو من الخروج منها . وهذا بوجولا الذي زارها سنة 1844 يقول انه لم يجد فيها سوى ثلاث عائلات عربية ومائة شخص أوروبي معظمهم اسبان ومالطيون، وفرقة عسكرية. وقال ان أي أوروبي لا يستطيع أن يخرج منها أبعد من مسافة ربع ساعة لوجود الخطر لأن المدينة محاصرة من السكان أنفسهم . ولذلك قال عنها انها « عبارة عن نقطة عسكرية حيث جنودنا كأنهم مساجين في مساحة ضيقة » . وقد قال نفس الشيء تقريباً عن جيجل إذ ان الأوروبيين فيها كانوا محاصرين ، وليس فيها سوى حوالي مائة عائلة عربية في حالة فقر ظاهر[123] . وقد ظلت هذه النقاط من الساحل في حالة خوف للعدو وحصار كبير من المجاهدين والأهالي إلى أن قام بوجو بحملته على المنطقة سنة 1847 وفرض تنظيمات جديدة بالقهر والجبروت .

أما الحاج موسى الدرقاوي فلم يكن له صدى كبير خلال الأربعينات . وقد عرفنا أنه كان قد ورد من مصر واعتنق مبادىء الطريقة المدنية (الشاذلية) بطرابلس ، وانه اتصل بالشيخ العربي بن عطية شيخ الطريقة الدرقاوية في الونشريس وأنه قد دخل المدية بصفة الجهاد ، وكان على صلة أيضاً بالبركاني في شرشال

---

(122) بورجاد (المحلة الافريقية)، 1888 ، ص 260 .

(123) بوجولا (دراسات . . .) ، 221/1 ، 226 . أنظر كذلك شارل فيرو (المجلة الافريقية) 1859 ، ص 443 .

والحاج محيي الدين بن مبارك في البليدة . وان الحاج موسى قد التقى بالأمير ناحية الشلف، ولم يتفاهما بل تحاربا، وتغلب عليه الأمير وبقي نشيطاً في الجنوب فترة، ثم دخل بلاد القبائل حيث بقي مدة دون أن يكون له دور يذكر ، إلى أن وقعت ثورة الزعاطشة فالتحق بها واستشهد إلى جانب زعيمها بوزيان سنة 1849[124] .

ومن الثوار الدرقاويين أيضاً عبد الرحمن العامري الطوطي في سيدي بلعباس ونواحيها. لقد كان هو مقدم الدرقاوية هناك بتسمية شيخه محمد بن إبراهيم (توفى هذا سنة 1840). وتذكر المصادر الفرنسية ان محمد بن ابراهيم حاول أن يثني عزم تلميذه الطوطي عن محاربة المسيحيين ففشل مثل ما فشل العربي بن عطية في ثني عزيمة الحاج موسى . وتقول هذه المصادر التي لا نثق فيها كل الثقة ، ان الشيخ الطوطي كان يتصل أيضاً بالشيخ العربي بن عطية في الونشريس والحاج محمد بن عبد المؤمن في الريف (المغرب) ثم يظهر لأنصاره ان هذين الشيخين يؤيدانه . وبناء على ذلك فان العملية الفدائية التي أشرنا إليها والتي أدت إلى مقتل عشرين من العدو واستشهاد المجاهدين المهاجمين في سيدي بلعباس سنة 1845 (1261) ، كانت من تنفيذ الطوطي . وكان عدد مجاهديه ستة وستين ، حسب هذا المصدر[125] . ويقول الشقراني : ان الطوطي ثار على الفرنسيين بفقرائه (أتباعه في الطريقة الدرقاوية) في سيدي بلعباس سنة 1261 (1845) ، وكان ذلك يوم السوق ، فكان مآله ومآل من معه القتل . ولم تفده ثورته شيئاً[126] .

ويتحدث الشقراني عن ثورة أخرى نسبها إلى أبي سيف الخويدي في نفس السنة أيضاً (1261هـ) ولكنه لم يحدد مكانها ولا طريقة صاحبها. ولكنه يعلق على ذلك بقوله أن الخويدي لم يستطع هزيمة الفرنسيين « في قرية فما بالك في قاعدة

---

(124) رين (مرابطون . . .) ، ص 241 . وسنعود بالإشارة إلى الحاج موسى الدرقاوي عند تناولنا لثورة الزعاطشة .

(125) نفسه ، ص 239 . ويذهب رين إلى أن الطوطي قتل نتيجة خيانة بعض أتباعه . ويشير بيري Perret (رحلة جزائرية) ص 386 ـ سبق ذكره ـ إلى هذه الثورة الدرقاوية ، دون ذكر صاحبها بالإسم ، ولا عدد المهاجرين ، ولكنه يذكر ان القائمين بها كانوا هم أولاد إبراهيم الدرقاويين ، وان عدد المقتولين من الفرنسيين كانوا حوالي عشرين .

(126) الشقراني (القول الأوسط) ، مخطوط علي أمقران .

(يعني مدينة) . . . وما نال إلا التعب » . فهل كان الخويدي أيضاً درقاوياً ؟ ولكن أين ثار يا ترى ؟ أما عبارة : وما نال إلا التعب ، فالظاهر انها تفيد أن الخويدي لم يقتل ، كما قتل الطوطي .

وفي جنوب إقليم المدية كان أولاد مختار من أقوى العناصر في المراحل الأولى للمقاومة . وكان زعيمهم ابن عودة المختاري في حالة غير مستقرة تبعاً لتبدل الأيدي على المدية منذ الاحتلال . ومنذ 1837 أصبح المختاري وأبو الضياف زعيم أولاد ماضي من أقوى المؤيدين للأمير والمقاومة . وظهر حماس المختاري للقضية الوطنية سنة 1843 حين اهتز جنوب الإقليم ضد العدو ، وضد الدوق دومال على الخصوص الذي كان عندئذ (ابريل) يفرض على الناس هناك حكم فرنسا بالحديد والنار قبل أن يستولي على زمالة الأمير . ورغم ظهور بعض الموافقين على الدخول في طاعة العدو من قومه ، فإن المختاري ظل على كفاحه إلى سنة 1845[127] .

ولا ندري إن كان ابن عودة المختاري عندئذ على صلة بالحاج موسى الدرقاوي الذي استمر هو أيضاً في خوض الكفاح ضد العدو في الجنوب (مسعد ونواحيها) وأسس هناك أيضاً فرعاً للدرقاوية ـ المدنية . ولكن المؤكد هو ان المختاري ظل حياً إلى سنة 1864 حين اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ وباركها وانخرط قومه فيها ، رغم كبر سنه .

* * *

كان استئناف الحرب بين الأمير والعدو سنة 1839 قد أدى إلى اغتنام المترددين الفرصة والإنقلاب عليه . ومن المناطق التي تركها الأمير غير ممهدة ، الأغواط وعين ماضي . فرغم وجود عاصمته في تاكدامت فإن سلطته في الصحراء الوسطى كانت غير مؤكدة . فقد كان أحمد بن سالم متمرداً عنه في الأغواط ونواحيها وكان نفوذ التجاني ما يزال قوياً رغم احتلال عين ماضي . ويبدو أن هناك عدة عوامل ساعدت على عدم الإستقرار ، أولها ضعف قيادة الحاج العربي بن عيسى ، خليفة الأمير على الأغواط ونواحيها ، وثانيها قرب الأغواط من منطقة نفوذ العدو ، ولا سيما بعد أن احتل هذا المدية سنة 1840 ، ثم ان أحمد بن سالم كان طموحاً للحكم مستغلاً من

---

(127) تروملي (المجلة الافريقية) ، 1876 ، ص 381 .

أجل ذلك كل الطرق : نفوذ التجاني الذي يدعي الإنتماء إلى طريقته ، ونفوذ الفرنسيين أيضاً . وهكذا كانت سنوات 1839 ـ 1844 قد مثلت صراعاً بين المقاومة وأعدائها في نواحي تجمعوت ـ عين ماضي ـ الأغواط ، وكان ذلك الصراع قد مهد الطريق أمام دخول الجنرال ماري الأغواط واحتلالها سنة 1844 .

ودون أن ندخل في التفاصيل نذكر أن تعاون أحمد بن سالم ومحمد التجاني والفرنسيين قد أدى إلى هزيمة خليفة الأمير الحاج العربي بن عيسى . فقد حاول الأمير تدعيم خليفته بثلاث مائة فارس، وجمع الخليفة قواته واستقر أولاً في تجمعوت. وحاول الخليفة مهاجمة عين ماضي التي ما تزال أسوارها مهدمة منذ دخلها الأمير سنة 1838 ، ولكنه لم يستطع اقتحامها لأن ابن سالم والتجاني صداه عنها . ثم دارت سنة 1840 مناوشات بين الطرفين ، الحاج العربي وابن سالم المدعوم بالتجاني ، أدت إلى هزيمة خليفة الأمير خصوصاً بعد أن احتاج الأمير إلى الفرسان الثلاثمائة . وكان ميدان المناوشات هو تاجمعوت ، والصافية وقصر الحيران . وفي المكان الأخير قتل الحاج العربي سنة 1843 ، فكان الخليفة الرابع الذي فقده الأمير خلال هذه السنة (بعد ابن علال ، والبركاني ، والحاج السعدي) .

وكانت السنة التالية (1844) هي السنة التي افتك فيها العدو من المقاومة مدناً ومناطق صحراوية هامة ، مثل الأغواط وبسكرة . فقد وجد الجنرال ماري عندئذ الطريق ممهدة في تاجمعوت ، وكان ابن سالم ينتظره فيها ، وكان الجنرال ينتظر وصول التجاني أيضاً ، ولكن هذا أرسل أعيان عين ماضي وحصاناً ورسالة خضوع ، وأعلن أنه ليس رجل دنيا وليس من عادته مقابلة الحكام ، وهو نفس التعلل الذي كان قد أبداه للأمير أيضاً . وحاول الجنرال الفرنسي اختبار صدق التجاني والتجسس على المدينة ، فأرسل بعثة بقيادة سطارنو (سانت آرنو) إلى عين ماضي ، فلقيت ما كانت تريده . وفرض العدو ضريبة على أهل عين ماضي قدرها 3720 ف على أن تدفع في اليوم الموالي[128] . وقد استغل العدو الخلاف بين الأمير والتجاني ، وبين الأمير وابن سالم ، فأظهر نفسه أنه هو الصديق الذي يعتد به ، وأنه الحكم الذي يرجع إليه في الملمات ، وأنه هو القادر والقاهر . وكان ذلك بداية الخطبة (بكسر الخاء) بين

(128) كينيدي ، (الجزائر وتونس) ، 1/220 ـ 227 .

التجاني وفرنسا ، وهي الخطبة التي انتهت بزواج سعيد لا تكاد تشوبه شائبة .

ثم سار الموكب ، ماري وابن سالم ، إلى الأغواط فدخلها أيضاً سنة 1844 . وهناك وقع تنصيب ابن سالم رسمياً خليفة للفرنسيين « حيث يستطيع » ، ما دام سيحارب خلفاء الأمير ويضرب المقاومة ، ويجبي الضرائب من المواطنين ويقدمها للعدو . ونحن نقول « حيث يستطيع » لأن صيغة التنصيب وردت أن سلطته تمتد من أولاد السائح (قرب تقرت)[129] شرقاً إلى أولاد سيدي الشيخ غرباً ، مروراً بوادي ميزاب والشعانبة[130] الخ . ولكن ذلك كان مجرد شراء مؤقت أي إلى أن يجمع العدو أمره ، ويقضي على قائد المقاومة ، ثم يعود إلى ابن سالم وأمثاله ، ممن كانوا يسمون بالزعامات الأهلية ، فيقلم أظفارهم ويحدد مجالهم ، وينزع منهم كل السلطات ما عدا البرنس والجراية وعصا لضرب المواطنين .

* * *

وان الصراع بين المقاومة والعدو في المناطق الصحراوية قد اشتد أكثر في نواحي بسكرة والزيبان . لقد كانت الحوادث في هذه المنطقة معقدة لوجود عدة عوامل : شخصيات محلية متنافسة ، ووجود سلطة الأمير ، ووجود بقايا الحاج أحمد ، وتعدد الطرق الصوفية ، وأخيراً وجود العدو في قسنطينة ومد نظره وأياديه نحو الأوراس والصحراء من هناك . بين 1830 و 1839 كانت المنافسة بين أسرتي بوعكاز (فرحات بن سعيد) وابن قانة أخوال الحاج أحمد . وقد أدى ذلك إلى معاداة فرحات بن سعيد للحاج أحمد وهي المعاداة التي استمرت إلى احتلال قسنطينة 1837 . وقادت تلك المعاداة إلى عرض فرحات بن سعيد التعاون مع أي عدو من أعداء الحاج أحمد (وحليفه ابن قانة) سواء كان ذلك العدو إبراهيم الكريتلي أو الفرنسيين أو حتى الأمير ، ورغم مناورات ابن سعيد وشجاعته وثباته على المطالبة

---

(129) لم تصل سلطة ابن سالم إلى تقرت نفسها لأنها كانت تحت عائلة بني جلاب ، ولكن هذه العائلة اتصلت بالأمير وتهادت معه وأعلنت ولاءها للمقاومة بعد نجاح الأمير في عين ماضي وبعد بناء تاكدامت . ويذكر ليون روش ان الأمير أرسل بعثة إلى بني جلاب بقيادة كاتبه محمد الخروبي ، (ورافقه هو : ليون روش إلى هناك) ، أنظر الجزء الأول من كتابه : (اثنان وثلاثون سنة . . .) .

(130) تروملي (المجلة الافريقية) ، 1877 ، ص 73 .

بحقه في حكم عرب الزاب ، فإنه لم ينجح ومات دون هدفه ، كما سنرى . ومنذ 1839 قبل بوعزيز بن قانة ، شيخ العرب ، الدخول في طاعة الفرنسيين فعينوه خليفة لهم في الزيبان بعد أن تخلى عن مساندة الحاج أحمد الذي لم يعد له فيه فائدة . ومن ثمة انحصر النزاع في المنطقة من نزاع عائلي على السلطة إلى نزاع سياسي بين المقاومة وممثليها من جهة وبين العدو وأنصاره من جهة أخرى . وقد استمر هذا النزاع حتى بعد إستيلاء الفرنسيين على بسكرة سنة 1844 .

وسنحاول تقسيم تطور الأحداث هناك إلى مراحل : مرحلة النزاع بين الفرنسيين (ابن قانة) والأمير (ابن عزوز ـ ابن سعيد) 1839 ـ 1841 ، ومرحلة النزاع بين الفرنسيين (ابن قانة) والأمير (ابن الحاج) ، 1841 ـ 1844 ، وأخيراً مرحلة احتلال بسكرة من قبل قوات العدو ونهاية حركة الأمير فيها .

عرفنا أن الأمير عين فرحات بن سعيد خليفة عنه في الزيبان سنة 1838 ، أثناء تنظيم دولته . وكان هدف الأمير من ذلك مقاومة نفوذ الحاج أحمد في المنطقة وإثبات حقه في حكم شرق الجزائر كما فهم الأمير من معاهدة التافنة ومنع الفرنسيين من التسرب إلى الصحراء . ولكن الأمير الذي كان يعرف تقلبات فرحات بن سعيد وطموحاته كان لا يثق فيه كل الثقة ، خصوصاً وقد كان طموحه لا يعرف الحدود ولم يكن من المرابطين . ولما اكتشف الأمير مراسلاته مع العدو (وقد أشرنا إلى أن فاليه كان يحاول فصل خلفاء الأمير عنه) عزله وأبقاه تحت نظره وعين بدله الحسين بن عزوز سنة 1839 . وقد أرسل الأمير فرقة عسكرية بقيادة أخيه مصطفى بن محيي الدين ومحمد البركاني لتنصيب ابن عزوز وإضفاء الشرعية على سلطته في الزيبان . قام الخليفة ابن عزوز بمهمته ، فكون جيشاً نظامياً مثل جيش الأمير ، وفاوض رؤساء العشائر وراسل الأعيان . فكانت الدلائل تدل على نجاحه ، خصوصاً وقد انسحب الحاج أحمد من المنطقة وتوجه إلى مقرة ثم الصحراء . ولكن العدو رأى أن يقلب الموازين لصالحه ، فعين بوعزيز بن قانة خليفة عنه في الزيبان وأمده بالمؤونة والعتاد ووجهه لضرب حركة الأمير والمقاومة هناك . وكان ابن قانة قد أحس بخطر جديد يتهدده . فإلى جانب منافسة عائلة بوعكاز له ، ظهر نفوذ الأمير ثم نفوذ عائلة ابن عزوز الدينية . وها نحن نرى أن الطريقة الرحمانية (العزوزية) مع ابن قانة لم تكن كالطريقة التجانية مع أحمد بن سالم . فابن عزوز كان مستعداً للمقاومة وتولى

السلطة وقيادة الجيوش بخلاف التجاني[131] . ورغم حزم وشجاعة ابن عزوز فقد انهزم في مارس 1840 ، فانسحب إلى المسيـلة حيث كان أخو الأمير وممثله محمد الخروبي . وبقي ابن عزوز يخطط للعودة إلى الـزيبان واستئنـاف جهاده إلى سنـة 1841 . ولكن العدو احتل المسيلة ، ومع ذلك رجع إليها إبن عـزوز وأخذ يحث الناس على الجهاد ، فقبض عليه أحمد المقراني ، وسلمه للفرنسيين الذين نفوه إلى جزيرة سان مرغريت ، كما أشرنا[132] .

بعد هزيمة ابن عزوز أعاد الأمير فرحات بن سعيد إلى الزيبان لعله يسيطر على الموقف لصالحه . و وجه معه البركاني ومحمد الخروبي إلى بسكرة ، وأعادوا الأمن للناس ، وجمعوا الضـرائب ، ورتبوا الجنـد . وكان محمـد الصغير بن الحـاج بن عبد الرحمن معهم . وبعد انصراف البركاني والخروبي أخذ الرجلان (ابن سعيد ومحمد الصغير بن الحاج) في تنظيم الأمور واستعادة الثقة وجمع الضرائب وتجنيد الجند للمقاومة . ولكن فرحات بن سعيد لم يلبث أن قتل بالقرب من أولاد جلال (1841) ، ودفن في سيدي خالد[133] . وقد عين الأمير محمد الصغير بن الحاج خليفة جديداً عنه . وظل النفوذ للأمير في الزيبان قوياً رغم تقلبات الأحوال ، ورغم وجود ابن قانة هناك ، ولم ترجح الكفة للفرنسيين وممثلهم ابن قانة إلا ابتداء من سنة 1844 عند إحتلال بسكرة[134] .

---

(131) وصف سيروكا (المجلة الافريقية) 1912 ، ص 403 ، عائلة ابن عزوز بأنها من أكبر العائلات الصحراوية الدينية ، وان مقرها هو البرج (برج ابن عزوز) ، وانها تنتمي للطريقة الرحمانية ، وان محمد بن عزوز اخ الحسين كان هو مقدم هذه الطريقة بالبرج . وذكر ان الحسين اكتسب التدريب العسكري من عمله في زمالة فرحات بن سعيد . وقال عنه ان له رأساً عظيمة وأطرافاً ضخمة وصوتاً يشبه زئير الأسد ، وانه كان فارساً مقداماً .

(132) أنظر ما مضى ، وبعد مراسلات وشكاوي ، أعاده الفرنسيون إلى الجزائر وسجنوه في عنابة حيث مات سنة 1847 . اعتبره حاكم قسنطينة (نيقربيه) من أخطر العناصـر ، وطلب عدم السمـاح له بالعودة إلى الاقليم مطلقاً . وقد بقي ابن عزوز في الجزيرة المذكورة ، حسب بعض المصادر ، 26 شهراً . أنظر ياكونو (المجلة التاريخية المغربية) ، رقم 1 ، 1974 ، ص 56 .

(133) أصبح ابنه (علي باي) من أبرز « الزعامـات الأهلية » التي كـانت في النصف الثاني من القـرن الماضي ، كما سنرى ، وهو كما عرفنا من عائلة بـوعكاز المنـافسة لعـائلة ابن قانـة . وقد عينـه الفرنسيون بعيداً عن الزيبان بأن جعلوه قائداً على وادي ريغ ووادي سوف .

(134) أنظر الدكتور قويون Guyon ، (رحلة من الجزائر إلى الزيبان) ، ص 249 .

كان محمد الصغير بن الحاج من رجال الدين ، مقدماً من مقدمي بلدة سيدي عقبة . ولكنه كان أيضاً محارباً ومؤمناً بضرورة الجهاد ومقاومة العدو . سبق له العمل مع خلفاء وأنصار الأمير في المنطقة . وها هو الآن يصبح مسؤولاً عنها . وقد نصبه في مسؤوليته خليفة الأمير في الحضنة ، أحمد بن عمر ، وترك له بعض الجنود والمعدات ، وذلك سنة 1843 . ولكن خلافة ابن الحاج جاءت في وقت حرج للمقاومة ، وقت كان العدو فيه قد استعمل كل وسائله للقضاء عليها ، كما عرفنا ، وتعتبر سنة 1843 من السنوات البارزة في عمر المقاومة لما تكبدته من خسائر ، خصوصاً بعد الزمالة ، وكذلك سنة 1844 التي وقعت فيها معاهدة طنجة التي عزلت المغرب عن الأمير . وهكذا فإنه بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها ابن الحاج فإنه لم يستطع وقف تقدم العدو المدعوم بقوات من المنطقة . فبمساعدة ابن قانة دخلت القوات الفرنسية بسكرة (4 مارس 1844) ، ولكن ابن الحاج كان قد غادرها قبل خمسة أيام مع جنوده النظاميين . وقد توجه بهم إلى الأوراس ، كما خرج معه بعض السكان . واشتدت الحرب بين المقاومين والعدو في مشونش ؛ وفي الوادي الأبيض دارت معارك بالسلاح الأبيض . وقتل فيها للعدو ضابط وعدد من الجنود . ولم يجد العدو ساكناً في مشونش بل كانت خاوية ومخربة . وهاجم المجاهدون مركز باتنة الذي جعله العدو مقدمة لغزو الصحراء ، وقتلوا واحداً وستين من جنود العدو[135] . وبعد ذلك لجأ الخليفة محمد الصغير بن الحاج إلى بلاد الجريد (تونس) مؤقتاً .

وكان احتلال بسكرة على يد الدوق دومال . ولعل مساعدة الطريقة التجانية كانت وراء هذا الاحتلال كما كانت وراء احتلال الأغواط وعين ماضي . فقد ذهبت بعض المصادر إلى أن الفرع التجاني في تماسين ثبط عزائم الناس الراغبين في الجهاد والذين جاؤوه يستشيرونه فيما يعملون ، من تقرت وسوف ، اذ اكتفى بقوله : ابقوا حيث أنتم ، لقد أراد الله بالجزائر ذلك[136] . وقد واصل الدوق حملته على الزيبان وإلى جانبه ابن قانة ، متتبعاً آثار محمد بن الحاج في الأوراس . وكان يعاقب كل القرى والمدن التي يمر بها بدعوى انها قدمت مساعدة لخليفة الأمير . ولماذا لا ؟

---

(135) نفس المصدر ، ص 273 .

(136) الدكتور ف . جاكو Jacquot (حملة الجنرال كافينياك) ، ص 296 .

وقد جاء ليطبق سياسة بوجو ، بل سياسة الحكومة الفرنسية في الاحتلال الشامل بكل الوسائل . ومن ضحاياه في ذلك بسكرة ومشونش . وقد ظن دومال أنه « نظم » أمور بسكرة فوزع السلطة بين ابن قانة وعدد من المسؤولين الجدد ، حتى لا ينفرد ابن قانة بهذه المنطقة الشاسعة ، وحتى يكون له من يوازيه في السلطة اذا حدثته نفسه ذات يوم بالتمرد ، خصوصاً وأن نسيبه الحاج أحمد ما يزال غير بعيد منه ، كما أنهم أرادوا أن يزيلوا هيبة محمد بن الحاج وسلطة الأمير في المنطقة فعينوا سي مقران (وهو من عائلة الخليفة محمد بن الحاج) على قيادة جديدة تضم الحضنة والسحاري الخ . ورضي سلطان تقرت بدفع الضريبة لفرنسا بشرط السماح له بالمتاجرة. وأصبح تحت شيخ العرب (ابن قانة) عدد من القياد والشيوخ كوسطاء يراقبهم ويراقبونه أيضاً . ولكن سي مقران المذكور كان مطلق السلطة (بدون وسطاء) . وقسم الدوق كذلك الزاب الشرقي بين عائلتين أخريين متنافستين كذلك . وترك حامية فرنسية في بسكرة وادارة سياسية (مكتب عربي) يشرف على الأجزاء التي ظن أنها خضعت لـه من الزيبان . وأسرع بالعودة إلى باتنة التي عرف أن أولاد سلطان قد هاجموها .

ولكن ما كاد الدوق يخرج من بسكرة حتى وقعت فيها ثورة دموية قلبت الوضع وأعادت هيبة الأمير والمقاومة الوطنية . كانت الحركة الجديدة قد تولاها علي بن ميلي ، الذي قاد في 12 مايو 1844 ، الهجوم على قصبة بسكرة حيث الحامية الفرنسية . وقد سحقت الحامية العدوة سحقاً بحيث لم ينج منها الا شخص كان في حضن امرأة عاهرة[137] . وفي اليوم التالي للهجوم رجع الخليفة محمد بن

---

(137) اختلفت الروايات حول « نجاة » الجندي الفرنسي (بيليس) الذي كان برتبة سرجان ، فاما سيروكا فيقول انه تمكن من الوصول إلى طولقة مع القائد الذي تركه دومال على بسكرة أنظر (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 431 . واما لويس رين فيروي ان الوثائق الفرنسية تذكر ان بيليس هرب من النافذة وأوصل الخبر . ولكن رين نازع هذه الرواية ، وقال إن بيليس كان مع فتاة في بيتها ، وكانت الفتاة تعرف عن الهجوم مقدماً فهربته ، وقال ان ذلك هو ما تناقله الجنود وما أشاعه الأهالي . وبعد ان هربته الفتاة إلى طولقة توجه منها إلى باتنة ليحدث قيادته عما وقع للحامية في بسكرة . ويقول رين انه لقي شخصياً هذه المرأة سنة 1866 ، فكانت « شيخة » العاهرات في بسكرة والواسطة بينهن وبين الشرطة والسلطات المحلية . أنظر رين (مرابطون . . .) ص 483 . واما بعض الوثائق الأهلية فتذكر ان بيليس هرب إلى رجلٍ مسلم من الأعراب فأمنه إلى أن وصل إلى الدوق دومال وأخبره بقصة الحامية ، وقد قتل المسلمون ذلك الرجل الذي اخفى بيليس بعد أن تعرفوا عليه . أنظر ذلك في الرسالة التي نشرها يحيى بوعزيز في (المجلة التاريخية المغربية) ، 2 (1974) ، ص 100 .

الحاج من الجريد واحتل القصبة من جديد ، ورفع راية الأمير عليها ، وكتب إلى الأمير يبشره بالنصر على العدو . وقد بقيت بعض الوثائق حول هذا الهجوم لم تر الضوء الا أخيراً[138] . وهي وثائق تؤكد مدى قوة الهجوم على العدو . فبالاضافة إلى الاستيلاء على القصبة وقتل الحامية عن آخرها ، غنم المجاهدون خزينة العدو ومؤونته ومدافعه وسلاحه . ومن القتلى عندئذ الضابطان : بوتي ـ قان Petit-Gand وكروشار ، والجراح ارسلان . أما الغنائم فقد ذكرها الخليفة نفسه محمد الصغير بن الحاج إلى عامله « قائد النواحي الشرقية » ، ابراهيم بن عون ، في رسالة اليه ، وهي قوله : « ظفرنا بجميع الخزنة من مدافع وسلاح وكور وبارود . . . ومَسَكْنا عِلْجَة ، ونحو الستون فرصا (كذا) » ، وتشير رسالة الخليفة إلى أن الجنود الجزائريين الذين كانوا في الحامية قد انضموا للمجاهدين[139] . وتذكر وثيقة أخرى أن الخليفة ابن الحاج قد استعمل الحيلة في الاستيلاء من جديد على بسكرة ، وذلك بأن أرسل مجموعة من جنوده إلى بسكرة على أنهم هاربون منه وفي الليل فتحوا له الأبواب وحدث الهجوم .

بقي الخليفة ابن الحاج أياماً في بسكرة يعيدها إلى حظيرة المقاومة ويرتب أمورها ، ولكنه كان يعرف أن الفرنسيين سيعودون ، وأنهم سينتقمون من السكان . فخرج منها إلى الجبال عند أولاد داود . وتزود للحرب ، كما خرج معه السكان خوفاً من انتقام العدو . وفعلاً فقد رجع الدوق دومال إلى بسكرة ، وصادر أملاك الناس ، وبقي بها أسبوعاً «ينظم» سياستها ، ولا شك أنه عاتب ابن قانة ، ولعله شك في ولائه لفرنسا خلال هذه الظروف . اذ المفروض في نظر الفرنسيين أن لا يترك ابن قانة ذلك يحدث في منطقته . ثم أغار العدو على بلدة سيدي عقبة (موطن الخليفة محمد بن الحاج) وعاقب أهلها على ثورة الثاني عشر من مايو في بسكرة ونواحيها ، واستولى لهم على قوتهم بأن أخذ مائة وثلاثين حمولة بغل من القمح . وهكذا كان التجويع والارهاب والقتل هو شعار حكم بوجو في كل مكان . أما الخليفة ابن الحاج فقد نزل

---

(138) مثل الوثائق التي نشرها يحيى بوعزيز ، المشار اليها في المرجع السابق .

(139) نفسه ، ص 102 . أنظر كذلك الدكتور قيون (رحلة . . .) ، ص 172 . وقد قال قيون ان الثورة قام بها « خونة » كانوا في « خدمتنا » وسلموا المدينة إلى خليفة الأمير .

عند أولاد صولة ، ثم توجه إلى خنقة سيدي ناجي ، في صيف 1844 ، ولكنه لم يستطع أن يمكث هناك طويلاً لأن الجنرال بيدو أخذ يطارده شخصياً بهدف القضاء على حركته في المنطقة ، كما كان لاموريسيير يطارد الأمير في الجهة الغربية . ولم يسع الخليفة ابن الحاج عندئذ الا اللجوء إلى الجريد عبر وادي سوف ، بعد أن أقام وقتاً في نقرين . ولم يبق معه من الاتباع الا حوالي ثلاثين شخصاً.

وقبل الحملة على بسكرة كان العدو قد احتل أيضاً تبسة وأنشأ باتنة كمركز أمامي لمراقبة الصحراء ، ذلك أن احتلال قسنطينة (1837) قد فتح شهية الفرنسيين للتوسع على حساب المقاومة في المنطقة ، فنصبوا « خلفاءهم » الراضين بحكمهم على الساحل وفرجيوة والحراكتة والزيبان ، الخ . ثم تقدم جيشهم نحو تبسة (1841) . وكان في تبسة مجتمع صغير متحرك نظراً لوجودها كقاعدة هامة في العهد العثماني ولوجودها بالقرب من حدود تونس التي ما تزال عثمانية . فكان في تبسة السكان الحضريون وأهل البادية الذين يفدون اليها للتجارة ونحوها . وتذكر المصادر أن قائد تبسة ومن معه من ذوي الميول العثمانية قد فروا إلى تونس بعد احتلال قسنطينة وتركوا المدينة نهب الأهواء وبدون سلطة ، فافتقر أهلها أشد الافتقار . وظهر عندئذ من يدعو إلى المقاومة ومن يدعو إلى قبول الأمر الواقع ، شأن ما وقع في أغلب المدن عندما تهددها الخطر . ولاشك أن بعض أتباع الحاج أحمد كانوا نشطين هناك ، وأن سلطات تونس كانت أيضاً تريد استغلال الموقف لصالحها . ومهما كان الأمر فإن حاكم قسنطينة (نيقرييه) قد احتل تبسة في نهاية شهر مايو 1841[140] ، رغم خروج بعض الناس منها خوفاً من الاضطهاد . ولا نعلم ما اذا كان للأمير عندئذ أنصار هناك . ولكن تبسة ستشهد ثورات متتالية ضد العدو بعد ذلك.

أما المركز الذي بناه العدو باسم باتنة، في فيفري 1844 ، استعداداً للزحف منه على الزيبان ، فقد وقع أيضاً تحت هجوم عنيف من المجاهدين ، وتكبد العدو فيه خسائر فادحة في الأرواح ، رغم أن المهاجمين لم يكن لديهم مدافع ولا أسلحة متطورة . وقد ذكر أحد الفرنسيين المعاصرين للأحداث أن الهجومين اللذين وقعا ضد

---

(140) فيرو (المجلة الافريقية) ، 1874 ، ص 431 .

المركز قد « كلفاننا كثيراً من الناس ، غرم أن العدو (يعني المجاهدين) لم يكن مسلحاً بغير الحجارة والهراوات » . وهذه الهجومات المتكررة على مركز باتنة هي التي جعلت الفرنسيين يغيرون موقعه ، وينصبونه في مكان آخر أكثر حماية واستراتيجية[141] .

بذلك كانت سنة 1844 سنة سيئة على المقاومة في الجزائر كلها . وكاد العدو يلقي بكلكله على صدر الوطن كله ، لولا تلك الانتفاضات التي كان يقوم بها « الأشراف » من وقت لآخر استمراراً لعملية الجهاد ، ولولا رجوع الأمير وانتعاش الحركة سنة 1845 التي شهدت ثورة عارمة ، كما عرفنا ، وهي الثورة التي اشتركت فيها وبصفة تلقائية عدة طرق صوفية ، والتي اندلعت نتيجة الارهاب والتجويع والقتل الذي طبقه بوجو ضد المواطنين . وقد حدث نفس الشيء تقريباً في الناحية الشرقية أيضاً ، ولكن على نطاق أضيق . فقد ظهر الشريف أحمد بن بلقاسم سنة 1846 في الزيبان فهزها وأعاد الأمل لحركة الجهاد ، وهاجم قوات العدو المتمركزة في ليانة وبادس والخنقة . وكان الشريف ابن بلقاسم على رأس قوة من 250 فارساً وحوالي ألف محارب ، وبدأ هجومه في أوائل نوفمبر 1846 ، ثم جاءته نجدة من جبال ششار . وكان ذلك على أثر غارات سان جيرمان على بسكرة والخنقة وسيدي عقبة وليانة . ولكن هذه الانتفاضة كانت رد فعل سريع تلقائي فقط على الظلم والبطش الاستعماري . ولا نعرف أنها كانت متناسقة مع حركة الأمير ، أو على صلة بأية حركة أخرى سواء سياسية أو دينية . ولذلك تغلب عليها العدو وزاد في معاقبة من أيدها[142] .

وبالتنسيق مع الثورة في الغرب وتحت تأثير الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال 1845 وما تلاها من اعتداءات وحشية من قبل العدو ، امتدت ألسنة الثورة إلى أعماق الجنوب أيضاً فشملت جنوب المدية والجلفة وأولاد جلال الخ . بالاضافة إلى بسكرة والأوراس التي كانت ما تزال تحت ضغط خليفة الأمير وهو محمد بن الحاج . وكانت الطرق الصوفية المناضلة تتجاوب مع بعضها تلقائياً . ذلك أن الشيخ المختار ابن عبد

---

(141) الدكتور قيون Guyon (رحلة . . .) ، ص 147 .

(142) عن انتفاضة احمد بن بلقاسم هذه أنظر سيروكا (المجلة الافريقية) ، 1912 ، ص 439 .

الرحمن ، رأس الزاوية الرحمانية بأولاد جلال ، قد تبنى قضية الثورة ، ونسق جهوده مع الشريف بومعزة الذي ظهر أيضاً في المنطقة خلال سنة 1846 . وقد تحركت القوات العدوة من مركز باتنة ، في فاتح يناير 1847 نحو المنطقة المتأججة ووجد الضابط (هيربيون) الناس هناك (في أولاد جلال ونواحيها) شاكين السلاح والنساء تزغرد ، والطرق مقطوعة ومترسة ، فدارت معركة حامية بين العدو والمجاهدين خسر فيها العدو أكثر من ثلاثين قتيلاً ، ولم يستطع حتى جمع جثثه وجرجاه ، أما الأسلحة والأمتعة فقد بقيت غنائم للمجاهدين . وكان الشريف بومعزة من بينهم ، ولكنه أحس بالخطر فتوجه إلى الشلف من جديد ، حيث قام ، كما ذكرنا ، بعدة محاولات متتالية أخرى ، وفي الأخير استسلم بومعزة لقائد أولاد يونس خلال شهر ابريل من نفس السنة (1847)[143] .

وفي شمال الحضنة ظهر مجاهد آخر سنة 1845 اسمه سعيد بن طبعين. وقد تزامنت ثورته مع الثورة الشاملة التي اندلعت في الإقليم الغربي ، وفي أذيال استعادة بسكرة من قبل خليفة الأمير ، بل ان ابن طبعين كان على صلة بكل من بومعزة ومحمد بن الحاج خليفة الأمير في الزيبان . وقد وجد ابن طبعين في الجنوب الشرقي تأييداً عظيماً ، وهاجم العدو ومن قبل بحكمه ، مثل زمالة القايد سي مقران الذي عينه الفرنسيون على السحارى . ظهر أول مرة في سبتمبر 1845 ، وهو الشهر الذي رجع فيه الأمير من المغرب إلى الجزائر ووقعت فيه معركة سيدي ابراهيم الشهيرة . ومن الذين ساندوا ابن طبعين أولاد ماضي والساونة وأولاد عمر . وجميعهم ، وخصوصاً أولاد عمر ، عاقبهم سان جيرمان سنة 1846 عقاباً صارماً على اعتناقهم فكرة المقاومة وتأييد ابن طبعين ، وقضية الأمير ، واستضافتهم زمالة محمد بن الحاج الذي تركها عندهم قبل لجوئه إلى وادي سوف ثم الجريد ، كما ذكرنا ، وشملت العقوبة المفروضة على أولاد عمر تسليم السلاح والخيل والإبل ودفع غرامة من عشرة آلاف فرنك . ولما ضيق الفرنسيون الخناق على سعيد بن طبعين توجه إلى بلاد القبائل (مايو 1846)[144] التي زارها الأمير حديثاً ، كما عرفنا ، والتي ما تزال فيها سلطة الخليفة أحمد الطيب بن سالم قوية .

* * *

---

(143) سيروكا (المجلة الافريقية) ، ص 444 .   (144) نفس المصدر ، ص 438 .

إن الثورةالشاملة التي اندلعت في فاتح سنة 1845 قد أسفرت عن عدة أسماء لامعة في حركة المقاومة ، بالإضافة إلى إسم الأمير عبد القادر . ومن تلك الأسماء الشريف محمد بن عبد الله (بـومعزة)(145) . وانه من الملفت للنظر حقاً أن يمر قرن ونصف تقريباً على الثورة ولا نعرف الاسم الحقيقي لبـومعزة ولا تاريخ حياتـه ولا هويته . وكل ما نعرف عنه حتى الآن لا يعدو أن يكون اسطورة ممزوجة بالحقيقة . وكل المؤرخين ينقلون عن بعضهم البعض هذه الاسطورة ، والبارع منهم هو الذي يعتقد انها اسطورة ويسلطها على حالة البلاد عندئذ ويمر الى غيرها من الحـوادث والأساطير . فهل ان بـومعزة شخصية حقيقة أو انها شخصية يمكن أن تطلق على كل من نادى بالجهاد وأخفى اسمه الحقيقي وادعى الشرف وانتمى لإحدى الطرق الصوفية وأعلن انـه « مولى السـاعـة » و« المهـدي المنتـظر » ؟ لـو لم يقبض العـدو على « بـومعزة » ويرسل به إلى فرنسا ليسجن ويراه الناس ويتحدثون إليه ، لاعتقدنا أن كل زعماء الجهاد في الجزائر الذين نجهل أصلهم وفصلهم (مثل بـوبغلة ، وبـوحمار ، وبـوشوشة ، وبـوعـود ، وبـوسيف الخ .) يصـدق عليهم كنية بـومعـزة . ولكن ما الحيلة ، ونحن مضطرون إلى أن نعود إلى ما كتب الأولون وإلى ذكر حوادث العهد التي شارك فيها هؤلاء المجاهدون الذين أرادوا أن لا يكشفوا للناس عن هويتهم وأن يبقوا سرهم ونجواهم عند اللّه ؟

ان المعلومات التي أوردها المؤرخون حول شخصية الشريف بـومعزة ما تزال مضببة شأن الأخبار الاسطورية . فهو عندهم من المغرب الأقصى ، ويدقق بعضهم فيذكر انه من تارودانت ، وانه من أتباع الطريقة الطيبية المنتشرة في المغرب ناحية وزان والتي لها أتباع في الجزائر الغربية أيضاً . ويضيف أصحاب النوايا السياسية أن بـومعزة كان على صلة بسلطان فاس الذي كان يزوده بالذهب والسلاح لمحاربة الكفار

---

(145) عن بومعزة أنظر كتاب الضابط ريتشارد (دراسة عن ثورة الظهرة) 1848 ، وريشارد هذا هو الذي رافق بـومعزة إلى فـرنسا . وبـوجولا (دراسـات . . .) 11/119 ـ 120 ، و(طابلـو) 1844 ـ 1845 ، ص 2 ـ 5 ، وبيري (رحلات جزائرية) بدون تـاريخ ، بـاريس ، ص 393 ـ 400 ، وروزي وكاريت (الجزائر) ، ص 340 . وتروي عن نهايته أخبار كثيرة ، منها انه عاش في بغداد ودمشق (مع الأمير) وزار المغرب العربي ثم عاد إلى الدولة العثمانية الخ . ومات بعد سنة 1878 . أنظر كذلك الأمير محمد (تحفة الزائر) ، ط . الاسكندرية ، 1903 ، ص 296 ، 313 الخ .

في الجزائر بعد أن فشل جيشه في ايزلي . ولكن الشاب بـومعزة (كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين عندما سلم نفسه للفرنسيين سنة 1847 وهي سِنٌّ مشكوك فيها) كان نموذجاً للمحارب « المتعصب » في نظر الفرنسيين . فهو نحاسي البشرة واسع العينين أسودهما ، طويل القامة ، ذو هيبة وشخصية ، شجاع لا يعرف الخوف ، سريع التحرك لا يظفر به العدو ، فارس لا يشق له غبار . حـل بالجـزائر حـوالي 1838 ، أي بعد معاهدة التافنة وانتشار الهدوء . ونزل ناحية الشلف ، وتزوج من أولاد يونس ، وأخذ في العبادة وإظهار الـورع والتقى ، وكان في الحقيقـة يدرس الأحوال ، ويبني العلاقات ، وقد جلب معزة أصبحت رفيقة له ، وجعل من حليبها غذاء له ، حتى اشتهر بين الناس انـه « بومعـزة » . والغريب أنـه لا أحد حسبمـا نعرف ، تساءل ما اذا كانت هذه المعزة قد توقفت عن در الحليب بعض الوقت في العام شأن المعز الأخرى ؟

وكان بـومعزة شاهداً على ما نال السكان من ظلم وجور على أثر السياسة التي شنها بوجو ابتداء من 1841 . ولا ندري مـاذا كان بـومعزة يفعل نحو الجهاد منذ حل بالجزائر ، هل كان ينتظر تفاقم الظلم ليعلن جهاده ، أو انه كان يجاهد باسم آخر ، وفي الخفاء ؟ المهم ان سنوات 1842 ـ 1844 قد عرفت استهانة العـدو بقواعـد الحـرب فأخـذ يـطبق القتـل الجمـاعي والعقـاب الجمـاعي ، وفـرض الغـرامـات المجحفة ، وحرق أرزاق الناس وحشدهم كقطيع الغنم في زرائب ومحتشـدات . فأرهق الناس أشد الإرهاق ونالهم العناء والجوع ، فكثر تذمرهم وشكـواهم . وقد أجبر العدو الأمير على اللجوء إلى المغرب وكاد ينتهي حكمه وجيشه ، ووقعت زمالته في يد الدوق دومال كما وقعت دائرته تحت رحمة سلطان المغرب ، وليس هناك من بارق أمل ولا ضوء رجاء من أية جهة .

وفي هذه اللحظة التي بدا فيها كل شيء ضد الجهاد ارتفع صوت بـومعزة عالياً يعلن أن لا يأس ، ويلوح بسيف الجهاد في الأفق ، فيثبت الحائر ، ويرهب الجائر ، وينشط الخائر . فإذا معظم الجزائر في ثورة عارمة ضد الذين ظنوا انهم قضوا على المقاومة وناموا مستريحين . والعدو بالطبع لا يسمي هذه مقـاومة ولا ثـورة ، وإنما يسميها انتفاضة الظهرة التي أغرقت الجزائر في الدم والنار . هكذا يقول . فكأن عمل العدو نفسه قبل ذلك كان تجفيف الدم وإطفاء النيران . من هنا قلنا ان بـومعزة لم

يكن إلا واحداً من آلاف الجزائريين الذين ثاروا على العدوان سواء سنة 1871 ، وسنة 1945 ، وسنة 1954 . ان بعض المتحذلقين من الدارسين أرادوا أن يربطوا بين ثورة 1845 ومبادىء الطريقة الطيبية(146) ، فيقول أحدهم(147): ان الطيبية انتشرت في المناطق التي تكره الأرستقراطية العربية . وان الطيبية معروفة بالتنبؤ بأن البلاد ستستيقظ وتطرد الكفار ولو بعد حين ، وانها تؤمن بفكرة المهدي المنتظر ! ولو صدق هذا التحليل لكانت الثورات الجزائرية الأخرى كلها « طيبية » ، وكلها نتيجة لكراهية الارستقراطية العربية ، ونتيجة الإيمان بالمهدي المنتظر ! ثم لا يذكر هذا المتحذلق ان زعيم الطيبية في المغرب كان من أوائل « المدجنين » في التسعينات من القرن الماضي ، ولم يكتف الاستعمار باستخدامه في أغراضه التوسعية بل زوجه من امرأة أوروبية وجعل منه « مخدراً » للعامة كما سنرى في فصل لاحق.

في الواقع ان ثورة 1845 كانت ثورة ضد التعسف والنقص في الأرزاق ، واستمراراً لعملية المقاومة التي كان رمزها الأمير . ثم متى توقفت المقاومة حتى نعتقد انها ولدت في هذه السنة ؟ لقد كان الأمير يرسل رسائله ورسله إلى الناس من داخل الحدود المغربية ، وكان بعض حلفائه وقواده ما يزالون يكبدون العدو الخسائر الفادحة في الوسط والشرق . وكان الذين حسب العدو أنهم « استسلموا » لم يخضعوا له في الواقع إلّا تحت تهديد السلاح . ولا ندري من المستفيد من الوضع الجديد ، أهو الأمير أو بومعزة ؟ ان كل الدارسين تقريباً يجعلون بومعزة هو الذي أطلق العنان لثورة 1845 وأن الأمير استفاد منها فقط ، فعاد وقام بمعركة سيدي ابراهيم ، ودخل بلاد القبائل من جديد ، وقاد هجوماً قوياً ضد العدو نواحي العاصمة . ولكن الدراسة التاريخية المتأنية لظروف 1842 ـ 1845 تجعل الشخص المستفيد من الوضع هو الشريف بو معزة ، إذ ان الثورة انطلقت بدونه ، ولم يظهر فيها إلا بعد حوالي ثلاثة أشهر من حدوثها.

بعد دراسة لأحوال الناس وأحوال العدو أعلن بومعزة الجهاد والانضمام للثورة . أخذ يهاجم العدو مباشرة في بادىء الأمر ثم سلك طريقة الكر والفر ، كما كان يفعل

(146) نسبة إلى الشيخ الطيب الوزاني .

(147) مارسيل ايمريت « الحياة العقلية . . . » في (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر) ، 1954 ، ص 211 .

الأمير . واستخدم طريقة قتل المتعاونين مع العدو ، ولا سيما أولئك الذين قلدهم العدو وظائف سامية مثل الخلفاء والأغوات والقياد ، ومنهم بلقاسم ، قايد صبيح . وبذلك أخافهم ، حتى ان محاضر المحاكمة أثبتت أن أولئك المتعاونين كانـوا في الحقيقة يؤيدونه بالمؤونة والسلاح والرجال . ويبدو ان بـومعزة بقدر ما كان عنيفاً مع المتعاونين مع العدو ، كان بارعاً في جلب قلوب الناس إليه بالشجاعة ودعوة الجهاد وحتى بإظهار الكرامات ونحوها للعامة . والمعروف ان قبيلة أولاد رياح التي قتل منها بيلسيبه أكثر من ألف نسمة صبرا في غار الفراشيش ، كانت من أنصار هذه الثورة ، وقد أثار اسم بـومعزة الرعب في جيش العدو ، حتى أن بعض الكتاب قال ان بـومعزة عند الفرنسيين ليس شخصاً وإنما هو رمز ، هو عَلَمٌ غير مرئي ، وغير محسوس ، انه عبارة عن أسطورة[148] . ويقول آخر منهم ان اسم بـومعزة قد جمد شجاعة الفرسان الفرنسيين ، حتى لقد كانوا يهربون بخجل كلما رأوا عَلَمَهُ في الأفق[149] .

تنقل بـومعزة بين 1845 ـ 1847 في نواحي عديدة من الجزائر : الظهرة ، والشلف ، وفليتة ، والونشريس ، وجبال الديرة ، والصحـراء ، الخ . وكـان يظهـر ويختفي بسرعة ، وكان العدو يطارده في جهة ما فإذا به يظهر فجأة في جهة أخرى . وقد التقى بالأمير شخصياً ، ويبدو انهما لم يتفاهما على خطة واحد ، ولكن الأمير لم يحاربه كما حارب الحاج موسى الدرقاوي بل تركه في جهاده ، ربما باتفاق سري معه . ولكن بعدما عاد استبداد العدو أشد مما كان ، وذهبت حظوظ الأمير تتبخر بعد فشل هجومه على العاصمة ، وبعد استسلام الخليفة أحمد الطيب بن سالم ، بعد ذلك كله ، جاء بـومعزة أيضاً إلى قايد أولاد يونس جهة الشلف (الأصنام) وسلم نفسه ، فقاده القايد إلى ممثل سلطة العدو هناك ، وهو سانطارنـو (في 13 ابريـل 1847) . فسلمـه هـذا إلى بـوجـو ، الـذي حمله إلى فـرنسـا حيث سجن عـدة سنوات[150] . ولكن الثورة لم تتوقف بعد استسلام بـومعزة أيضاً . فالشهور الباقية

---

(148) بيري ، المرجع السابق ، ص 394 .

(149) سيروكا ، المرجع السابق ، ص 444 .

(150) حاول بومعزة الهروب سنة 1848 بعد قيام الثورة في فرنسا ، ثم أعيد إلى السجن (سجن الهم : Ham) . ثم أطلق سراحه لويس نابليون (1849) أثناء رئاسته للجمهورية ، وتوجه بـومعزة إلى المشرق ، ودخل الجيش العثماني وحارب في حرب القرم مع المسلمين . =

للأمير في الجزائر ظلت مليئة بالأحداث ، إذ كان السكان يتذمرون في كل النواحي ، ولم تجد قبضة الحديد التي سلطها عليها بوجو.

وهناك ناحية أخرى ظهر فيها الشريف بومعزة ظهوراً غير معروف كثيراً ، وهي ناحية شرشال . ففي سنة 1845 ظهر (مهدي) آخر في هذه الناحية وادّعى للعدو أنه أخ لبـومعزة ، وأن اسمه أيضاً محمد بن عبد اللّه ، ومن أتباع الطريقة الطيبية ، وأنه جاء إلى الجزائر من المغرب الأقصى (كما يدعي معظم الأشراف في الجزائر أنهم من الساقية الحمراء أو من فاس الادريسية) ليحارب من أجل نصرة الإسلام[151] . وبعد « محاكمته » بطريقة روفيقو وبوجو ، ظهـر أن هناك فسـاداً في الإدارة العدوة بالجزائر ، وان ما يقال عن « استسلام » العرب وقوادهم انما هو مسـرحية لتمضيـة الوقت ونيل الأوسمة والتحدث بالبطولات ، لأن كل من أظهر الاستسلام من القبائل والعشائر والرؤساء والأفراد إنما فعل ذلك تحت القهـر والرعب ، وأنـه يظل ينتـظر الفرصة للانتفاضة من جديد . وقد عرفنا ان العدو قد احتل شرشالا في مارس ، سنة

= وكان مندفعاً بحب الدين والوطن. أنظر بول غفريل (الجزائر المحتلة)، ص 84، 100. وقد زعمت جريدة (الأخبار) في بعض أعداد شهر يوليو سنة 1849 (؟) أن بومعزة كانت معه (أميرة) فرنسية تعلمه الرشاقة والضرب على البيانو. فإذا صح شيء من ذلك (ونحن لا نثق في حديث الجريدة كل الثقة لصلتها بالإدارة الإستعمارية ولحرصها على تشويه سمعة بومعزة لدى الجزائريين) ، فإنه يكون أثناء وجوده طليقاً في بـاريس ، أي بعد 1849 . وقد روى إسماعيل العربي شيئاً من ذلك عن بومعزة أيضاً إذ قال انه أصبح في باريس محط أنظار « صالونات الارستقراطية حيث كان يغدو ويروح في رفقة سيدات المجتمع الراقي » . أنظر إسمـاعيل العـربي (المقاومـة الجزائـرية تحت لـواء الأمير عبـد القادر) ، الجـزائـر ، 1982 ، ص 289 . ولا ندري ما مؤهلات بومعزة حتى يكون ضمن هذا « المجتمع الراقي » . والظاهر ان ذلك كان فقط من الفضول ، وان « السيناريو » كله من اختلاق الدعاية الفرنسية عندئذ . ويذهب اسماعيل العربي الى أن بومعزة قد انضم فقط سنة 1854 إلى الجيش العثماني برتبة عقيد . ومعنى ذلك انه ظل طليقاً في باريس حوالي خمس سنوات . ونحن نستبعد ذلك .

ومما يذكر أن أحد المساجين الجزائريين في طولون ، واسمه عيسى بن احمد ، كتب سنة 1853 إلى نابليون الثالث يطلعـه على أن الشخص المحبوس عنـد الفرنسيين بـاسم محمد بن عبـد الله (بوسيف) هو نفسه محمد بن عبد الله (بومعزة) . أنظر ارشيف أيكس 11 H 1 .

(151) بيـري (رحلة . . .) مرجـع سابق ، ص 398 ، وبـوجـولا (دراسـات . . .) مـرجـع سـابق ، ج 119/2 .

1840 ، بعد أن أصبحت قاعدة بحرية تشكل خطراً على العدو سنة 1839 ، خصوصاً بعد أن قام رجال الزوارق من المجاهدين بالاستيلاء على سفن الفرنسيين مثل السفينة المسماة (فريدريك ـ اوولف)[152] . كما ان الأمير تدخل في شرشال شخصياً في هذه السنة (1839) وحاول أن يجعل منها مركز هجوم على العدو ، وأعاد تنظيم الأمور فيها بأن ثبت أحمد بن بلقاسم قائداً عليها وعين القاضي حمدان بن الطاهر (الذي فر من مدينة الجزائر) ، في مكان القاضي عبد القادر بن ملزي الذي اغتاله العدو .

ورغم استيلاء العدو على شرشال ومليانة والمدية سنة 1840 ، فقد بقيت الناحية الغربية من سهل متيجة خطراً عليه . ذلك ان أهل حجوط لم يتوقفوا عن الجهاد واثارة الحمية وتهديد العدو في مقر عملياته بالجزائر . لقد وصف العدو أهل حجوط بأنهم متعصبون ، وانهم برابرة ، الخ . وسلط عليهم وسائله الجهنمية من إثارة النعرات ، والقتل الجماعي ، وخيانة العهد ، وحرق المحاصيل الزراعية الخ . حتى قال أحد الذين شاركوا في حرب أهل حجوط : انهم كادوا « ينقرضون » من كثرة موتاهم وخراب ديارهم وتشريدهم . ويذكر هذا المشارك في جريمة الإستعمار أن أهل حجوط لم يستسلموا إلا سنة 1843[153] . حقيقة انه لم يظهر بين أهل حجوط شريف من الأشراف أو مهدي من المهديين ، ولكنهم ظلوا يحاربون باسم الدين والحرية والوطنية منذ 1830 ، حاربوا مع الحاج علي السعدي ومع محمد بن عيسى البركاني ، ومع الحاج محيي الدين بن مبارك ، ومع الأمير الخ . ما دام هدفهم كان واحداً وواضحاً وهو إخراج العدو المغتصب .

* * *

ان وجود الأمير على رأس دولة ذات سيادة تجمع بين الدين والدنيا وتحتكم إلى سيرة السلف ، لم يمنع من ظهور العديد من « الأشراف » وموالي الساعة حتى أثناء حياته . وإذا كان هذا النوع من الزعامات قد قل أثناء قوته (خصوصاً بين 1837 ـ 1839) ، فإنه سرعان ما ظهر بشكل ملفت للنظر منذ 1843 عندما أخذت قوة الأمير

---

(152) ل . ڤان (المجلة الافريقية) ، ص 470 .

(153) (مذكرات شانغارنييه) ، ص 162 هامش .

تتدهور اثر حادثة الزمالة . وقد رأينا أن سنة 1845 قد مهدت لظهور شخصيات من هذا النوع ، وجميعها تنتمي إلى طرق صوفية معروفة . كما ان الاضطهاد الذي سلطه بوجو على الناس ، قادة ومواطنين عاديين ، جعل الأنظار تتجه إلى المنقذين الخارقين للعادة ، ما دام المنقذون القائمون لم يحققوا آمال الناس في الإنعتاق من الإضطهاد ولا تحرير الدين من ربقة الكفار .

فبالإضافة إلى بومعزة والطوطي والخويدي الخ . ظهر الشيخ الفاضل في تلمسان ، تلك المدينة التي عرفت تقلبات كثيرة خلال العشر سنوات 1830 ـ 1840 . لقد دخلت في طاعة سلطان فاس عدة أسابيع ، ثم تولاها الأمير مرتين ، واحتلها العدو الفرنسي مرتين . وكان أهلها بين عرب في المدينة وعثمانيين في المشور ، وكان ولاء الأولين لسلطان المغرب ثم للأمير ، وكان ولاء الأخيرين لسلطان آل عثمان ثم للفرنسيين . وكان قواد العرب هم ابن نونة ، والبوحميدي ، والصقال ، أما قواد العثمانيين فهم البرسالي[154] وابن اسماعيل والمقلش . وعندما دخلت تلمسان في حكم بوجو سنة 1841 ، خرج معظم سكانها منها وتبعوا الأمير . وظلت هدفاً لدعاة الجهاد من الأشراف . كان حاكمها الفرنسي سنة 1845 ـ 1846 هو كافينياك الذي هزمه الأمير في معركة سيدي إبراهيم وأسر له حوالي ثلاثمائة جندي . ولكن كافينياك الذي لم يقدر على الأمير ، قدر على الشريف الفاضل الذي هاجم تلمسان بجموع غفيرة وادعى السلطة عليها أثناء انقطاع الأمير في المغرب ، وقد وزع الشيخ الفاضل رسائله في الناس داعياً إياهم للثورة ، وأرسل رسوله إلى أهل المدينة (تلمسان) وبدل أن يخرج كافينياك بنفسه إلى الشيخ الفاضل ويحاربه على أرض الميدان اكتفى بإلقاء القبض على رسول الشيخ واستعرضه أمام الناس للإرهاب معلناً لهم أنه سيعدمه لأنه جاسوس للعدو ، وفعلاً قام بإعدامه ظلماً وصبراً[155] . وتدّعي

---

(154) عندما توفي محمد البرسالي عين الفرنسيون مصطفى بن إسماعيل قائداً على المشور حيث كان البرسالي . وكان هذا في العهد العثماني خليفة للباي حسن علي تلمسان . وقد اصبح ولده (الداودي البرسالي) عضواً في المكتب العربي الذي تولاه (بازين) الفرنسي ، ثم أصبح فارساً في فرقة الصبايحية ، وشارك إلى جانب الفرنسيين في معارك عديدة ، منها معركة عين الصفراء ، سنة 1847 . أنظر عنه الدكتو جاكو Jacquot (حملة الجنرال كافينياك) ، ص 242 .

(155) عن ثورة الشيخ الفاضل أنظر (طابلو) ، 1845 ـ 1846 ، ص 3 . وكذلك بيري (رحلات . . .) =

المصادر الفرنسية ان الشيخ الفاضل كان يدّعي انه « مولى الساعة » وانه هاجم تلمسان بثمانمائة فارس وأكثر من ألف راجل . وان المعركة التي هزم فيها الشيخ الفاضل دارت يوم 24 مارس 1846 على بعد حوالي اثني عشر كلم عن تلمسان ، وان الشيخ كان يدّعي انه سيتولى شؤون تلمسان ويطرد الفرنسيين من الجزائر.

ولكن هذه المصادر لا تتحدث عن أمور أخرى تهمنا عن الشيخ الفاضل . من ذلك الطريقة الصوفية التي كان ينتمي إليها . فنحن لا نعرف هل هو من الطيبية أو من الدرقاوية اللتين شاركتا بقوة في ثورة 1845 أو من طريقة أخرى . كما انها لا تحدثنا عن نهايته وإنما عن هزيمته وتدهور سمعته بعد 1846 . فهل واصل الشيخ الفاضل ثورته ، وإلى متى ؟ يضاف إلى ذلك انها لا تحدثنا عن اسمه الحقيقي ولا نسبه ولا موطنه ولا انتماءاته السياسية . ورغم أن بعضها يتحدث عن أن الشيخ الفاضل كان «خارجاً» عن الأمير فإنها لا تذكر أنه استمر في خروجه عنه أو رجع إليه . ان الخروج عن الأمير قد أصبح « موضة » بعد 1845 . ذلك ان من بين الشخصيات التي « خرجت عنه » بعد أن كانت في صفوفه أيضاً : ابراهيم بن أبي فارس ، الذي سيظهر بعد حوالي عشر سنوات باسم محمد بن عبد اللّه ، شريف ورقلة ، وهو نفس « الشريف » الذي حاول بوجو أن يستغله سنة 1842 ضد الأمير بتعيينه « بايا » على تلمسان ، ثم توجه إلى الحج واعتنق الثورة من جديد وتحالف مع الشيخ محمد بن علي السنوسي ثم عاد إلى الجزائر ، كما سنرى في فصل لاحق.

***

11. مواقف الطرق الصوفية :

رأينا انه في الوقت الذي وضع فيه العدو يده على المدن ونفى قادة الرأي فيها ، ودجن الباقين واستولى على الأوقاف الاسلامية وصرف مداخيلها على العمليات العسكرية ، الخ . بعد ذلك كله رأيناه يأتي بأكثر من مائة ألف جندي مع رصيد ضخم من المال والأسلحة المتطورة وحَشْدٍ من الكولون الذين كانوا في الحقيقة يشكلون

= مرجع سابق ، ص 387 . وقد كان رئيس المكتب العربي في تلمسان عندئذ هو الضابط (بازين Bazaine) .

جيشاً احتياطياً ، ثم خرج إلى الريف يريد اخضاعه بالحديد والنار . وقد أدت سياسة العنف هذه إلى اشتعال الثورة في مختلف أنحاء القطر ، وكان القائد لهـذه الثورة خلال 1839 ـ 1847 هو الأمير عبد القادر الذي حاول أن يجمع الشمـل ويوحـد الكلمة ويؤسس دولة لا تزول ، ويبعث قومية عربية تكون مبنية على قاعدة الجهاد ضد العدو وتحقيق الوحدة الوطنية . ولكن عنف المواجهة بين الأمير والعـدو ، وتخلي الأنصار عنه (خصوصاً سلطان المغرب) في وقت الشدة ، جعل المنافسين للأمير يكثرون ، والطامعين في وظائف العدو يظهرون ، والقاصرين عن فهم استراتيجيته يتحركون ، وكأن الإسلام عند هؤلاء هو النطق بالشهادتين فقط ولا عليهم بعد ذلك أعاشوا موحدين أو متفرقين ، أسياداً أو عبيداً ، تحت الهلال أو تحت الصليب.

ولكن هناك فريق من الجزائريين انتفضوا انتفاضة الجريـح في دينه وكـرامته ووطنه ، انتفضوا ولكن بدون نظام (كما كان يريد الأمير) ، ومشوا ضد العدو ولكن من اتجاهات مختلفة ، ودقوا طبول الجهاد ولكن في درجات متفاوتة ، وكان على رأس هؤلاء أشراف يدعون أنهم من سلالة الرسول ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ ولذلك تسموا باسمـه (محمد بن عبـد اللّه) ، وأخفوا أسمـاءهم الحقيقية ، وحملوا رايـة الجهاد لكي يتبعهم الأتباع ، ويتحمسوا للشهادة والـدفاع . وكـان وراء كل داعيـة للجهاد طريقة صوفية . والطرق الصوفية كثيرة في الجزائر العثمانية ، وبقيت كثيرة خلال القرن التاسع عشر كله . وهذه الطرق الصوفية كانت تنكمش على نفسها عند قوة الدولة الإسلامية ولكنها تنفتح في نفسها وتنتفش وتعظم حتى تصير بعبعاً عندما تضعف الدولة الإسلامية أو يحدق بالمسلمين خطر الكافر ، فعلت الطرق الصوفية ذلك في العهود السالفة ، وأظهرت نفسها كذلك في عهد بوجو بالذات ، فإلى جانب الفـوضى السياسيـة التي كانت عليهـا الجزائـر في هذا العهـد ، كان هنـاك الظلم والإضطهاد ، والجور على الدين وعلى العباد . فما كان من الطرق الصوفية إلاّ أن دقت طبولها وأسفرت عن وجهها كواجهة للدفـاع عن الإسلام المهـدد والمسلمين المتضررين المتضرعين.

لو أردنا أن نقرأ المقاومة الجزائرية بين 1840 إلى 1848 قراءة سياسية عصرية لوجدناها قد سارت تحت قيادة أحزاب ثلاثة ، هي حزب القادرية وحزب الدرقاوية وحزب الرحمانية . وكلها أحزاب ظهرت في الريف لا في المدن ، وكلها أحزاب قد

تجـاوزت في « بـرنـامجهـا » الـدين إلى السيـاسـة ، و « الاخـوان » إلى كـل المواطنين[156] . حتى عندما حاول (الكلاسيكيون) أو المحافظون من كل حزب أن يتركوا الأمور الدنيوية (السياسة) لأهلها وأن يشتغلوا فقط بشؤون الدين ، لم ينجحوا في نصيحتهم . فأسس حزب القادرية دولة عمادها الدين والـدنيا ، وخـرج الحاج موسى الدرقاوي للحرب وكذلك الطوطي وغيره من الـدرقاويين ، وخـاض بـومعزة المعارك معتقداً أنه المهدي بن تومرت الجديد ، باسم الطيبية . وخالف حسين بن عزوز نصائح من نصحه بأن الرحمانية طريقة « صوفية » فقط ، ونازل العدو الحرب وتولى الإدارة للأمير وجمع الضرائب ونظم الناس . وكان الحاج السعدي والحـاج محيي الدين والبركاني وأحمد الطيب بن سالم من أوائل الذين رموا بعمامة التصوف ولبسوا خوذة الجهاد ، رغم انهم من زوايا معروفة في نواحيهم .

ومع ذلك نجحت بعض الطرق في الإبقاء على الوضع الروحي فقط[157] . ومنها الطريقة التجانية التي قاومت كل المغريات ، وحتى بالحرب ، لكي « تحافظ » على عقيدتها في التصوف ، وهي عدم التدخل مباشرة في شؤون السياسة والحكم ، والاحتفاظ بالتأثير الروحي والسيطرة على القلوب والنفوس . لم يفهم زعماء التجانية عندئذ دور الطرق الصوفية في التاريخ الاسلامي ، وهـو دور قلنا انـه ايجابي زمن الأزمات وروحي زمن الازدهار الاسلامي . وقد كانت الجزائر (والاسلام) في أعنف الأزمة خلال العقدين الأولين من الاحتلال . فاذا بمعظم الطرق الصوفية تتحرك في الاتجاه التاريخي المذكور الا التجانية والحنصالية والعيسـاوية . . . فقـد رأت غير ذلك . وكان موقف التجانية بالذات ، لأهميتها وكثرة أتباعها في الأرياف وحتى في المدن، موقفاً لا مبرر له من الوجهة الوطنية. ذلك أن رفضها للمشاركة في السياسة لم يكن صحيحاً دائماً . فقد رأيناها تساند أعداء الوحدة الوطنية من طلاب السلطة

---

(156) الاخوان هم أتباع كل طريقة على حدة . وقد رأينا زعيم كل طريقة لم يعد يخاطب « اخوانه » فقط ، ولكن كل المواطنين الجزائريين .

(157) يبدو أن فروعاً من الدرقاوية ومن الرحمانية قد حَبَّذَتْ المحافظة على دورها التقليدي أيضاً كالابتعاد عن السياسة والاكتفاء بدور الوسيط (اصلاح ذات البين) ، مثـل موقف الشيـخ العربي بن عـطية (الدرقاوي) في الونشريس ، وموقف الشيخ علي بن عمر (الرحماني) في طولقة (توفي هذا سنة 1843 ، وهو يحاول التوفيق بين المتنافسين : ابن قانة وفرحات بن سعيد) .

أمثال أحمد بن سالم في الأغواط، كما رأيناها لا تَعْتَرِضُ طريق العدو في الصحراء: عين ماضي ، الأغواط ، بسكرة ، تقرت في مرحلتنا هذه ، ثم غيرها في مرحلة لاحقة . ان ما يقال عن تنافس التجانية والقادرية كسبب لرفض التجاني الانضمام للمقاومة خلال الأربعينات ، غير صحيح ، في نظرنا ، لأن المقاومة تجاوزت عندئذ كونها حركة تقودها الطريقة القادرية ، لأن الأمير ليس هو كل المقاومة ، ولو وجدنا التجاني خاض الحرب ضد العدو ، بأسلوب بومعزة (الطيبي) أو أسلوب الحاج موسى (الدرقاوي)[158] لقلنا ان المسألة خلاف شخصي ، ولكنه فضل التصوف على الجهاد ، رغم وجود العدو بالبلاد.

هذه نظرة سريعة عن موقف الطرق الصوفية خلال المرحلة التي ندرسها ، ولكن في الفصول التالية سيظهر معظم هذه الطرق في ألبسة أخرى . كما أن العدو سيعاملها معاملة جديدة.

***

12. التيار العربي - الاسلامي :

وهناك نقطة أخرى نريد أن نختم بها هذا الفصل ، وهي مسيرة التيار العربي الاسلامي خلالَ المرحلة المدروسة . إن عهد بوجو قد عرف حركة هجرة كبيرة ، خصوصاً من المدن . وهذه الهجرة على نوعين : داخلية وخارجية . أما الهجرة الداخلية فقد عادت مؤقتة ، لأن العدو كان يتحرك أيضاً وكان يحل بالمكان الذي نزل به المهاجر منضماً الى حركة الثورة أو هارباً بنفسه . ومن ذلك انضمام عدد من قادة الفكر والدين الى حركة الجهاد التي كان يخوضها الأمير ، وهو الانضمام الذي عبر فعلاً عن « وطنية » الحركة وشموليتها . فالاحساس بأن حركة الأمير حركة تهم الجميع وتعبر عن مشاعر الجميع هي التي جعلت المثقفين والساسة ينضمون اليه ، ويساندونه ويعملون معه كتاباً وخلفاء ومفاوضين الخ . وقد ذكرنا بعضاً من أولئك فيما مضى (كأحمد بوضربة وابن الحفاف ، وابن رويلة ، والحاج السعدي ، وحمدان بن

---

(158) وقد كان بومعزة والدرقاوي غير متفقين مع الأمير . ولكن ذلك لم يمنعهما من خوض الجهاد ضد العدو .

الطاهر ، وحسين بن عزوز ، وأحمد الطيب بن سالم ، والشاذلي القسنطيني ، وحتى حمدان خوجة في اسطانبول) .

أما حركة الهجرة الخارجية فقد حمل عليها الاضطهاد الشخصي والفقر والاعتداء على الدين والحرمات ، كهدم المساجد وضم الأوقاف وعدم تعويض الأملاك المصادرة والتجهيل . وقد كان المهاجرون ، من رجال الدين والعلم على الخصوص ، يتجهون الى تونس والمغرب بالدرجة الأولى ثم منهما الى المشرق . ومن المدن التي عرفت حركة هجرة قوية بعد 1837 قسنطينة وتلمسان . وكلتاهما كانت على جانب طيب من النشاط العلمي ، غير أن الاحتلال العنيف ، وبعثرة السكان ، والاستيلاء على المكتبات والأوقاف وفرض الضرائب الثقيلة (ضرائب الحرب ، كما فعل كلوزيل مع أهل تلمسان) الخ . كل ذلك جعل المعيشة مع العدو غير ممكنة ، فتوجه بعض قضاة تلمسان الى المغرب مثل محمد ابن سعيد[159] ، وهاجر البعض من عائلة المشرفي (معسكر) الى المغرب ، كما هاجر القاضي عبد العزيز من العاصمة نحو المغرب أيضاً ، الى جانب أهل العلم الذين كانوا مع الأمير والذين هاجروا قبله أو معه أمثال قدور بن رويلة (تونس ثم المشرق) ومصطفى بن التهامي الخ . وهاجر علماء آخرون من قسنطينة الى تونس .

ويتصل بحركة الهجرة هذه عملية النفي أو التهجير التي قام بها بوجو حتى لا يبقى في الجزائر من يعترض على أحكامه التعسفية . فقد قام بطرد أعيان العلماء والقضاة الذين كان لهم رأي مستقل نوعاً ما خلال عهده ، منهم من حكم بنفيه إلى سجون فرنسية خارج الجزائر . ومنهم من حكم بطرده من الجزائر مع ذكر بلد آخر يذهب إليه ، وأحياناً بدون ذكر البلد . ومن أشهر عمليات النفي هذه نفي حسين بن عزوز (1841) والمفتي مصطفى الكبابطي (1843) إلى جزيرة سان مرغريت[160] . وقد نفى مع الأخير ابن أخيه أيضاً الذي كان أحد معلمي مدرسة

---

(159) يقال انه توفي بفاس بائساً سنة 1842 .

(160) بعد أن وصل الكبابطي إلى مرسيليا ، بقي هناك مدة ، ثم سمح له بالرحيل إلى الاسكندرية ، بناء على طلبه، ولكن قرار بوجو كان النفي إلى الجزيرة المذكورة . أنظر عنه دراستنا (قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1943 . .) في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر)، ج 2. ط. 2 ، بيروت 1990 .

الجامع الكبير بالعاصمة . ومن أشهر عمليات الطرد ما حدث لحمودة الفكون وأخيه (سنة 1841) ، إذ طرد من قسنطينة إلى الاسكندرية . وفي نفس الوقت انتهت حياة بـوضربة في المغرب ، وحياة حمدان خوجة في اسطانبول خلال الأربعينات .

ان حركة الهجرة أو التهجير إلى المشرق كانت تعبر عن تواصل طبيعي بين الجزائر والبلاد العربية ـ الإسلامية . فالجزائري كان لا يجد الأمن والاطمئنان النفسي والروحي إلا في بلاد تربطه بها رابطة الدين واللغة والتقاليد . كما أن معظم أولئك المهاجرين وجدوا مجالاً للعمل وتنشئة عائلاتهم وبدء حياة جديدة في ظـل الأخوة العربية والإسلامية ، دون أن يحسوا بفرق سوى أنهم أحياناً يسمون بالمغاربة ، وقد يحلو لبعضهم فيحتفظ بنسبته « الجزائري » بين أهل المشـرق . وليس غرضنـا هنا الحديث عن « الجالية » الجزائرية العلمية في المشرق ، فقد نتحدث عن ذلك في موضع آخر من كتبنا ، ويكفي أن نذكر ونحن نتحدث عن عهد بوجو أن ابن رويلة قد حل بتونس ثم توجه إلى المشرق حيث توفي في الحجاز . وأن أحمد الطيب بن سالم قد رحل أيضاً إلى الحجاز ، وأن مصطفى الكبابطي قد استقر بالاسكندرية وتوظف فيها ، وأن الشيخ السنوسي (محمد بن علي) كان قد أسس زاويته في مكة وأنـه يوشك الآن على نقلها إلى ليبيا ، وأن تلميذه محمد بن عبد اللّه ، شريف ورقلة ، كان يتكون عندئذ على يديه وعلى يد غيره ، وقد ذكر ليون روش انه عندما ذهب سنة 1843 إلى مكة للحصول على الفتوى المشهورة ضد الجهاد في الجـزائر ، وجـد الشيخ السنوسي من أعظم المعارضين له ونبه على خطره[161].

ولكن هناك جانب آخر للقضية . فقد كان علماء المسلمين ورجالات الدين منهم على الخصوص ، يتدخلون في شؤون الجزائر ، ويعتبرون ذلك جزءاً من عملية الجهاد التي فرضها الإسلام ، أو مشاركة في أحوالها بعد النكبة التي عـرفتها على أيدي الأعداء الفرنسيين . وقد نبهنا على وجود الحاج موسى الدرقاوي الذي جاء من مصر بعد أن تلقى في مصـراته (ليبيـا) الطريقـة المدنيـة ـ الدرقـاوية ، وقـد ظل الدرقاوي طيلة عهد بوجو يناضل إلى أن قتل في معركة الزعاطشة إلى جانب زعيمها بوزيان . وها نحن لم نكد ننتهي من الحديث عن الشريف بـومعزة الذي تؤكد الأخبار ذات الطابع الأسطوري على أنه جاء من المغرب للجهاد . وكم عرفت الجزائر من

(161) أنظر ما مضى .

أناس جاؤوا من المغرب أو المشرق باسم الجهاد.

ولكن هناك شخصية غريبة لا نعرف أنها جاءت الجزائر للجهاد الظاهري ، وهي شخصية محمد صالح الرضوي ، الذي حل بها سنة 1845 في أتون الثورة ، ومع ذلك فلم يعرف عنه انه رفع راية أو دعا إلى ثورة . فماذا كان يفعل إذن ؟ يقول من كتب عنه انه قضى بالجزائر بضعة أشهر ، وقام بتدريس علم الحديث في المساجد ، وعلوماً أخرى أيضاً . وأنه أجاز عدداً من علماء الجزائر منهم من تولى الفتوى والوظائف الدينية والعلمية الأخرى ، من أمثال حميدة العمالي ، وعلي بن الحفاف ، ومحمد غرناوط ، وعلي بن سماية ، الخ . (حوالي عشرين عالماً) ، وان اسم الرضوي بقي حياً في الجزائر إلى أوائل القرن العشرين . والمهم أن الرضوي زار أيضاً المغرب الأقصى ، وحضر وفاة شيخه عمر بن المكي ، وزار كذلك تونس ، وأجاز من الجزائريين أيضاً في المهجر مصطفى الكبابطي ومحمد ابن العنابي في الاسكندرية . ولا نعرف الآن أنه قام بدور سياسي ، أو حتى دور شبيه بدور الشيخ محمد عبده في الجزائر سنة 1903 . ونحن نتساءل كيف يسمح له بوجو بزيارة الجزائر والبقاء فيها شهوراً بينما كان (بوجو) يشك في ظله ، وينفي علماء الجزائر ويطاردهم حيث وجدهم ، ويرسل جاسوسه (روش) ليحصل له على فتوى من علماء المشرق تثبط عزائم الجزائريين في المقاومة وتثبت دعائم الإستعمار(162) ؟

ان الموقف المضاد من الدين واللغة العربية والإنسان العربي الذي وقفه بوجو وإدارته جعلت الجزئريين يعضون بالنواجذ على بقايا تراثهم الحضاري . فالمدارس القرآنية ظلت تعلم القرآن الكريم ولو في شكل سري وبوسائل ضعيفة ، وكان موقف المفتي الكبابطي معارضاً لإدخال مادة اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية ، واقترح فتح مدارس أخرى بالفرنسية يؤمها من يشاء من المسلمين . كما وقعت معارضة شديدة للاستيلاء على الأملاك الدينية المقدسة مثل أوقاف مكة والمدينة ، وكذلك

---

(162) عن الرضوي أنظر عبد الحي الكتاني (فهرس الفهارس) ، جـ 1 ، 324 ، ومحمد بن أبي شنب (وصول البخاري إلى سكان الجزائر) ، مجموع وقائع مؤتمر المستشرقين الرابع عشر ، الجزائر ، 1905 ، ص 114 . ويبدو أن أبا حامد المشرفي قد تناوله ايضاً لأن ابن أبي شنب نقل عنه . وقد توفي الرضوي سنة 1849 في الحجاز عن اثنتين وستين سنة . وسنتناوله ان شاء الله في (تاريخ الجزائر الثقافي) ، جـ 3 .

معارضة ونقمة على هدم المساجد وبيع المدارس للأوروبيين ليجعلوا منها حمامات ومتاجر ، وعلى إهانة المقابر الإسلامية بتسوية الأرض بها وجعلها طرقاً وساحات . ان الجزائريين ، ومعهم العرب والمسلمون في كل مكان ، فسروا تلك الاجراءات على أنها انتقام من الدين واللغة ، وانها اجراءات لا تقل عما اتخذه الاسبان بعد طرد المسلمين من الأندلس ، بل كانت عملية صليبية واضحة المعالم . فكانت تلك الاجراءات التعسفية ضد حضارة الجزائريين سبباً في هجرة البعض وفي السخط الدائم للباقين .

ومع ذلك فقد كان بوجو يتبجح بإعلانه ان الجزائر بلاد مسلمة ولو مع احتلالها على ذلك النحو من قبل دولة كافرة . وكان يريد الحصول على الصفة الشرعية « الاسلامية » لذلك ، فتفتقت حيله على فكرة ، وهي أن يبارك احتلاله علماء المسلمين ليس في الجزائر فحسب ، أمثال مقدمي بعض الطرق التي جعلها تحت ابطه ، بل في مراكز العالم الإسلامي الشهيرة . وقد ذكرنا ذلك حين تعرضنا إلى مهمة ليون روش في القيروان والأزهر والحرم المكي ، فلا داعي لتكرار ذلك هنا . وإنما نريد أن نلح على نقطة بهذا الشأن وهي تأكد بوجو من الرابطة القوية بين الجزائر والعالم العربي - الإسلامي ، وان ما يجري عنده له عواقب عما هنالك والعكس أيضاً صحيح . ومن أجل السيطرة على هذا الوضع أكثر بوجو من المترجمين وشجع قومه على معرفة اللغة العربية والأحكام الإسلامية حتى يحكموا سيطرتهم على رقبة المسلمين في الجزائر وفي غيرها . كما لا نريد أن نتعرض من جديد لما قلناه عن مراسلات الأمير مع رجال الدين المسلمين والعلماء للتشاور معهم في الأحكام الشرعية اللازمة لدولته . وهي مراسلات ، على كل حال ، تؤكد جريان التيار العربي الإسلامي بين الجزائر وجاراتها في المشرق والمغرب ، خصوصاً في ساعات العسر . وقد رأينا أن كثيراً من الكتّاب قد ألح على الطابع « العربي » لدولة الأمير في وقت لم يكن ذلك الطابع يدور بخلد أي حاكم أو زعيم في البلاد العربية الأخرى .

انتهيت منه يوم 24 اغسطس 1986

* * *

مراجع الفصل الثالث

ابن أبي شنب، محمد ـ وصول صحيح البخاري إلى سكان الجزائر ، مجموع وقائع مؤتمر المستشرقين 14 ، الجزائر ، 1905 .

ابن روبلة ، قدور ـ وشاح الكتائب ، تحقيق محمد بن عبد الكريم .

ابن عبد القادر ، محمد (الأمير) ـ تحفة الزائر ، ط. 1 ، 1903 .

اوربان ، اسماعيل ـ الجزائر . . . 1848 .

اوربان ، اسماعيل (باسم جورج فوازان) ـ الجزائر للجزائريين ، 1861 .

اوميرا ـ مقالات عن مصير الأوقاف والمؤسسات الدينية . إعداد من (م.إ.) ، 1897 ـ 1899 .

ايفير ، جورج ـ عبد القادر والمغرب ، 1838 ، (م.إ.) عدد 60 ، 1919 .

ايمريت ، مارسيل ـ الحياة العقلية في (مجلة التاريخ الحديث والمعاصر) ، يوليو ـ سبتمبر ، 1954 .

بوجولا ، جان ـ دراسات افريقية . جزآن ، باريس ، 1845م .

بورجاد، ج ـ عن احتلال منطقة سور الغزلان، (م.ا.) عدد 32 وما بعده، 1888 .

بوسكي ، ر ـ قضية مضايق الظهرة ، (م.إ.) ، عدد 51 ، 1907 .

بـوعـزيز ، يحيى ـ عن وثـائق الوضـع في بسكـرة (الـزيبـان) 1844 ، (المجلة التاريخية المغربية) ، 2 ، 1974 .

بـوعزيز ، يحيى، وايبالز ، ميكيل ـ الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا ، قسنطينة 1982 .

بيتيني ، دي كلارا ـ الجزائر ، 1859 ، وصف مشاهداتها سنة 1845 لمجزرة غار الظهرة (الفراشيش) .

بيرك ، اوغسطين ـ البرجوازية الجزائرية ، في مجلة هسبريس ، عدد 35 ، 1948 .

بيرك ، اوغسطين ـ موجز تاريخ الاقطاعية الجزائرية في (مجلة البحر الأبيض) ، عدد 7 يناير ـ فبراير 1949 .
بيري ، يوجين ـ رحلة جزائرية ، 1830 ـ 1848 ، باريس ؟ بدون تاريخ .
بيلمار ، الاسكندر ـ الأمير عبد القادر ، حياته السياسية والعسكرية ، باريس 1863 .
تروملي ـ تاريخ ثورة أولاد سيدي الشيخ 1864 ـ 1880 ، الجزائر 1884 .
جاكو ، الدكتور ف ـ حملة الجنرال كافينياك ،؟
خوجة ـ المرآة ، ط. باريس 1833 .مترجم الى العربية .
دانزيقر ، رفائيل ـ عبد القادر والجزائريون ، لندن ، 1977 .
دورليان ، الدوق ـ وصف حملة ، باريس 1892 .
دوميانكور ـ تقريره إلى المارشال بوجو سنة 1845 ، ارشيف ايكس 1571 ـ F8 .
ديبون وكوبولاني ـ الطرق الصوفية الإسلامية ، 1897 .
ديستري ، ستيفان ـ تاريخ الجزائر ، تور ، ط. 4 ، 1851 .
روبان ، العقيد ـ ثورة القبائل الكبرى سنة 1871 ، باريس 1901 .
روش ، ليون ـ اثنان وثلاثون سنة في الإسلام ، باريس ، 1884 ، جزآن .
ريشارد ـ دراسة عن ثورة الظهرة ، 1848 .
رين ، ليوس ـ مرابطون واخوان ، الجزائر 1884 .
سان كالبر ، شارل ـ عن بعض كتاب قسنطينة ، (م.إ.) ، 1913 .
سعد اللّه ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، جـ 2 ، ط 2 ، بيروت 1990 .
سعد اللّه ـ القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني ، ط. 2 ، 1985 .
سعد اللّه ـ محاضرات في تاريخ الجزائر ، الجزائر 1982 ، ط. 3 .
سعد اللّه ـ من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي في (أبحاث وآراء) جـ 3 ط. 1 ، بيروت ، 1990 .
سيروكا ـ الجنوب القسنطيني . . . في (م.إ.) ، عدد 56 ، 1912 .
سيفرز ، بيترفان ـ عن الزعامات الأهلية في الجزائر ، (المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط) ، عدد يوليو 1975 .
سيفرز ، بيتر فان ـ عن الثورات من 1849 ـ 1879 ، (مجلة الإنسية الاسلامية) ، عدد 1 ، 1973 .

سيفرز ، بيتر فان ـ عن ملاك الأرض والزعامات ، (مجلة المغرب) الانكليزية ، عدد مارس ـ ابريل ـ 1979 .
شانغارنييه ـ مذكرات ، باريس ، 1930
الشقراني ـ القول الأوسط (مخطوط) .
شيربونو ـ عن قسنطينة وآثارها ، في (روكاي) ، 1853 .
شينار ، بيسه ـ عبد القادر وعبد الكريم ، في مجلة الدراسات الآسيوية والافريقية ، القدس ، 1965 .
دي طرازي ، فيليب ـ تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، 1967 (مصور) .
العربي ، اسماعيل ـ المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، الجزائر ، 1982 .
غفريل ، بول ـ الجزائر المحتلة ، 1883 .
فيرو ، شارل ـ عن منشور الأمير إلى أهل سطيف ونواحيها ، في (روكاي) ، 1872 .
فيرو ، شارل ـ مترجمو جيش افريقية .
قاليسو ، رينيه ـ حرب عبد القادر أو القضاء على الوطنية الجزائرية في (مجلة هيسبريس ـ ثمودا) عدد 5 ، 1964 .
قاليسو ، رينيه ـ الجزائر قبل الاحتلال في (مجلة الاقتصاد والمجتمع) ، عدد 4 ، 1975 . دراسة مترجمة عن الفرنسية إلى الإنكليزية .
قان ، ل ـ عن قصيدة الأمير في تلمسان ، (م.ا.) ، عدد 27 ، 1883 .
قونياليون ، ل ـ عن نداء الأمير إلى أهل فقيق (فجيج) ، (م.ا.) عدد 57 ، 1913 .
قيون ، الدكتور (جان لويس جينيفييف) ـ رحلة من مدينة الجزائر إلى الزيبان ، الجزائر ، 1852 .
الكتاني ، عبد الحي ـ فهرس الفهارس ، فاس، 1346هـ .
كلاين ، هـ ـ أوراق مدينة الجزائر ، 1931 .
كنيدي ، جاك ـ الجزائر وتونس .
لاتياد ، ل ـ عبد القادر عدو وصديق لفرنسا ، باريس ، 1984 .

مارسيه ـ عن أصول التعليم في المؤتمر الثاني لشمال افريقية ، باريس 1908 .
ماسينيون ، لويس ـ عن أصول بعض العائلات الجزائرية ، (مجلة العالم الإسلامي) ، ـ الفرنسية ـ م 57 ، 1924 .
المزاري ـ طلعة سعد السعود ، (مخطوط) (أيضاً ترجمة مارسيل بودان ، مجلة جمعية. . . وهران، 1924) حققه يحيى بوعزيز، بيروت، 1990، جزآن.
المشرفي ، أبو حامد ـ طرس الأخبار (مخطوط) .
مناصرية ، يوسف ـ مهمة ليون روش في المغرب والجزائر ، ط. 1990 .
موريل ـ الجزائر ، لندن ، 1854 .
ناصر ، محمد ـ الصحف العربية الجزائرية ، الجزائر 1980 .
الناصري ، أحمد ـ الاستقصاء . . . مجلد 9 .
هاي ، جان درامون ـ مذكرات ، لندن ، 1896 .
ياكونو ـ عن المنافي التي نفي إليها الجزائريون خارج بلادهم ، (المجلة التاريخية المغربية) عدد 1 ، 1974 .

الفصل الرابع

تجُوعُ الحُرَّة (*)

1848 ـ 1860

(*) في الأثر : « تجوعُ الحرَّة ولا تأكل بثدييها » .

1. مقدمات :

يعتبر الكتاب الفرنسيون عقد الخمسينات ذيلاً للعقدين السالفين الذين عرفا حرباً شاملة واحتلالاً لا هوادة فيه . فالخمسينات إذن عبارة عن تتمة للحرب الشاملة التي يسمونها « التهدئة » ، وتتمة لمشروع بوجو الذي جعل عنوانه : « بالسيف والمحراث». وهو العنوان الذي إذا ترجم بلغه اليوم يصبح العدوان والاغتصاب. ولماذا تتمة ؟ ذلك أن بوجو عندما غادر الجزائر في صيف 1847 ترك مناطق من الجزائر لم يستطع سيفه ولا محراثه أن يدخلها ، مثل منطقة جرجرة ومنطقة الصحراء . كما أنه ترك المناطق التي احتلها في وضع غير مستقر وغير آمن على قومه . ولذلك كان على خلفائه أن يواصلوا سياسته في الهدم والترحيل والحرق والنفي والإرهاب، وكان عليهم أن يتنافسوا في ذلك لأن كل من هدم وقتل وحرق. . . أكثر من زملائه يصبح هو البطل المغوار ، في نظر غلاة الاستعمار . ومن هؤلاء الأبطال الجدد ، راندون وسانطارنو وهيربيون . . . كما سنرى.

ولما كان هذا العقد يشكل ، في نظر هؤلاء الكتاب ومن حذا حذوهم ، تتمة لما قبله ، فإن المقاومة الوطنية أصبحت في نظرهم أيضاً ، مجرد مناوشات يقوم بها دراويش ومشاغبون متعصبون هدفهم إثارة الفتن وتعكير الأمن وضرب الشرعية الإستعمارية . ومن ثمة فالحروب التي خاضها العدو أثناء هذا العهد (1848 ـ 1860) كانت في نظره أقرب إلى إعطاء الدروس القاسية لهؤلاء المفتّنين أو « المتشيطنين » ، كما كانوا يسمونهم أحياناً . ان الحملات أو بالأحرى الغارات التي كان يقوم بها الجنرالات والعقداء الفرنسيون ومن معهم من الجنود المرتزقة ضد سكان الأرياف بدعوى مشايعة الأشراف والدراويش أو بدعوى رفض دفع الضريبة الحربية ، وغير ذلك من الدعاوي ، إنما كانت بقصد بسط الهيمنة الاستعمارية واغتصاب

الأرض من أصحابها الشرعيين لإعطائها إلى المزيد من المخربين (المعمرين) . وهكذا يصبح هذا العهد في نظرهم لا يشكل سوى حركة يائسة من المقاومة لا تتعدى انتفاضة الأطراف في جسم يكاد أن تفارقه الحياة.

ولكنهم يستثنون من ذلك المقاومة العنيدة التي واجهها العدو في جبال القبائل وفي نواحي ورقلة والأغواط وتقرت وعين الصفراء والابيض سيدي الشيخ . . فلولا الجيوش التي قادها راندون أو وجهها إلى هذه القلاع لما استحق عصا المارشالية عند قومه ، ولما هان وسام الجنرالية عند الفرنسيين حتى منحوه للقيط يوسف الذي كان كالجرثومة السامة وسط الأرض الجزائرية . وإذا كان عهد راندون يعتبر عند العدو استمراراً لمشروع بوجو المذكور ، فإنه أيضاً يعتبر في نظرنا استمراراً لمشروع الأمير عبد القادر الذي تبناه تلاميذه في الكفاح من أمثال الشريف محمد الأمجد (بوبغلة) ، والشريف محمد بوزيان ، والشريف محمد بن عبد اللّٰه (وثلاثتهم حاربوا في جيش الأمير من قبل) . وإذن فإن عقد الخمسينات يعتبر في نظرنا استمراراً لعقد الأربعينات ، بكل عنفه وضراوته : عهد العدوان ورد العدوان ، عهد الهيمنة الاستعمارية ورفض لقبولها ، انه بالنسبة للمقاومة يعني تثبيت الحق في الحياة الكريمة وفي الحرية والاستقلال الوطني . ولا يهم بعد ذلك أن يسمي العدو ذلك الرد للعدوان وذلك الرفض لقبول الهيمنة ، حركة دراويش ومشاغبين متعصبين أو غيرها من الأسماء.

هذا وقد عرف النظام السياسي الفرنسي في فرنسا خلال هذا العهد عدة تحولات وتقلبات أيضاً . فمن الملكية التي كان على رأسها لويس فيليب ، إلى الجمهورية الثانية التي كان على رأسها الأمير لويس نابليون ، إلى الأمبراطور نابليون الثالث . ولما كانت لتلك التحولات والتقلبات أحياناً نتائج معينة على الوضع في الجزائر ، فإننا رأينا أن نعرض لها أيضاً ، دون الدخول في تفاصيلها طبعاً .

2. الجديد عليهم قديم علينا :

في 24 فبراير 1848 وقعت ثورة في فرنسا ضد نظام لويس فيليب ، ولم تؤد الثورة إلى سقوط الملك أو عزله فقط بل إلى تغيير النظام كله إذ تحول من الملكية إلى

الجمهورية . وقد هرب « الملك الشعبي » وغيزو ، وزيره الأول ، إلى بريطانيا . وقامت اثر ذلك الجمهورية الثانية في تاريخ الفرنسيين ، وهي الجمهورية التي تعهدت بوضع دستور لفرنسا وبسيادة الشعب وتحرير الاقتصاد . ولذلك عرفت أيضاً بالجمهورية البرجوازية . والبرجوازية عندئذ تعني تشجيع رأس المال والبحث عن الأسواق والمواد الخام ، والحرية الفردية في المشاريع الاقتصادية . وهذه المبادىء كلها تعني أيضاً تكريس الاستعمار في الجزائر ومضاعفة الجهود لجعله دائماً ومربحاً وواسع المجالات . والاستعمار بهذا المعنى هو الزيادة في قهر الشعب الجزائري واغتصاب أرضه ومنحها للأوروبيين لزراعتها وامتلاكها ، وهو وضع المشاريع الاقتصادية الضخمة التي تعود بالربح والفائدة على (الميتروبول) أو العاصمة الأم .

وأداة هذا الاستعمار في الجزائر هو الجيش طبعاً ، تعززه ادارة مدنية يقظة وجالية فرنسية من المستوطنين متحمسة للاستغلال والاندماج والتوسع . وهكذا فإن النظام الجمهوري الذي ولد من جديد في فاتح سنة 1848 في فرنسا كان بالنسبة للجزائر يمثل عهداً قديماً من الاضطهاد ، واللامبالاة بحق الجزائريين في الحرية والاستقلال ، وهو العهد الذي انطلق سنة 1830 وازدهر منذ 1841 على يد بوجو.

لا يهمنا كثيراً اذن تطور فرنسا الداخلي خلال النظام الجمهوري الجديد ولكن يهمنا من تطورها ما انعكس على الجزائر . والذي نريد أن ننبه إليه من البداية هو أن النظام الجمهوري لم يدم أكثر من أربع سنوات ، ثم تحول إلى نظام امبريالي (امبراطوري) منذ نهاية 1852 وهو النظام الذي بقي إلى سنة 1870 . فنحن إذن سنعالج قضايا الجزائر في هذا الفصل أثناء نظامين مختلفين في فرنسا . ومما يلفت النظر أن رئيس الجمهورية (الأمير لويس نابليون) هو نفسه الذي انقلب على النظام الذي كان يترأسه فأصبح هو الامبراطور نابليون الثالث ، ونظامه الجديد هو الذي أصبح يدعى الامبراطورية الثانية (الأولى هي امبراطورية نابليون الأول) . والنظام الامبراطوري الجديد يعني في فرنسا الغاء الدستور ، واضطهاد الحريات والأحزاب ، والحكم بواسطة الاستفتاءات والمراسيم . فهل يعني ذلك أيضاً اضطهاد البرجوازية وإلغاء الاستعمار ؟ طبعاً لا ! ذلك ان النظم التي تعاقبت في فرنسا خلال احتلال الجزائر كانت كلها متفقة على الاستعمار ، ومتحمسة للاستغلال بكل الوسائل :

العسكرية والمالية والتشريعية[1] . وسنعرف أن الجمهوريات التي ولدت بعد 1870 هي التي سنت قانون الأهالي البغيض (كود دو لانديجينا) ، واضطهدت الأحزاب السياسية الوطنية ، وارتكبت مجزرة 1945 وشنت كل أنواع الحرب ضد الثورة الجزائرية ، 1954 ـ 1962 . فتغيير النظام في فرنسا لا يعني بأية حال تغيير المخطط الاستعماري في الجزائر إلّا في بعض التفاصيل أو في الدرجة.

ولكي تتضح الصورة أيضاً حول العلاقة بين تغيير النظام والأحداث في الجزائر نقول انه مهما تغيرت النظم السياسية في فرنسا فإن الإدارة الاستعمارية في الجزائر كانت عسكرية . فقد بدأت الإدارة عسكرية منذ الاحتلال وتأكدت سنة 1834 وسنة 1848 بقوانين وتشريعات ، وظلت كذلك إلى سنة 1870[2] . ومعنى ذلك أن الجزائر كانت تحت تصرف الجيش الفرنسي المعروف بالجيش الافريقي . ومهمة هذا الجيش هو الاحتلال والغصب والإرهاب ، وفرض الاستعمار بالقوة ، ومحاربة القوى الوطنية ، وجمع الضرائب العادية والحربية بالتعسف والقمع . وكان يشرف على هذه العمليات وإدارة البلاد حاكم عام عسكري مسؤول لوزير الحربية في الحكومة الفرنسية ، هو الذي يتراسل معه ويعطيه تعليمات الحكومة ، ولكنه لا يمثل الوزير بل الحكومة الفرنسية كلها في الجزائر . ويساعد الحاكم العام قواد للنواحي الثلاث (في عهدنا هذا) : الناحية الغربية (مقرها وهران) ، والناحية الشرقية (مقرها قسنطينة) ، والناحية الوسطى (مقرها الجزائر) . وكل قائد ناحية تحته أقسام متعددة تحت ضبّاط بدرجات متفاوتة تصاعدية ، وتحت هؤلاء مجموعة من الموظفين الجزائريين الذين لهم طابع عسكري أيضاً ، بألقاب إدارية قديمة وهي : الخليفة ، والآغا ، والقايد والشيخ.

ويحكم قواد النواحي العسكرية بواسطة إدارة محلية هي (المكاتب العربية) التي تحدثنا عنها . فكان في كل مدينة أو قرية أو دوار (مكتب عربي) يسهر على إدارة المقر الذي هو فيه ، ويجمع الضرائب ويراقب الأسواق ، ويجمع المعلومات ،

---

(1) حتى الماركسيين عندئذ كانوا أنصاراً للبرجوازية في نشر الحضارة الأوروبية والاستعمار وسط الجزائريين « المتوحشين » في نظرهم ، انظر ترجمتنا لمقالة فريدريك انجلز عن واقع الجزائر سنة 1848 في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 1 ، ط 3 ، بيروت 1990 .

(2) باستثناء سنتين تجريبتين (1858 ـ 1860) سنعرض اليهما .

ويتجسس على السكـان ، ويخلق بينهم الفتن والنعـرات ، ويحـارب العصـاة والمتمردين ، وفي كل مكتب عربي موظفون بدرجات محددة . فرئيسه رجل فرنسي كان عادة برتبة عقيد ويحسن العربية ومعه مترجم وحارس وكاتب وقاض ، وجابي ضرائب الخ . وقد تولى بعض المستعربين هذه المكاتب فكانوا يفهمون أحوال البلاد بدون واسطة . وبرز بعضهم في تاريخ الجزائـر « كمؤرخين » ولغويين وبـاحثين . وعرف بعضهم بالظلم والاضطهاد المثالي والتعالي على السكان . وارتكب آخرون منهم جرائم يندى لها الجبين ضد الأبـرياء ، ودخـل بعُضهم ميدان الغش والنهب وسلب الناس أموالهم والاستثراء على حساب السكان ، مستغلاً منصبه وقوته ، وكتم بعضهم رغبـات السكان وشكـاواهم ضد الـظلم والعسف فلم يرسلوا بهـا إلى من فوقهم ، وتصرفوا معهم كما يتصرف السادة مع عبيدهم.

وكان للمكاتب العـربية إدارة مـركزيـة تتراسـل معها وتتلقى منهـا التعليمات والتوجيهات . إدارة مركزية على مستوى الجزائر العاصمة تابعة للحاكم العام ، وإدارة مركزية رئيسية في فرنسا تابعة لوزير الحربية . وفي الإدارتين جيش من المـوظفين بـدرجات متفاوتة، منهم من تمـرس على حكم الجـزائـريين ، ومنهم من حـاربهم وشردهم ، ومنهم من كان مجرد موظف متخصص في القضايا العربية والإسلامية . وأغلب هؤلاء الموظفين عسكريون . وكانت بينهم مشاحنات وخلافات ليس فقط في طريقة اضطهاد الجزائريين ، ولكن حول استغلالهم والاستفادة منهم . وكان لبعضهم علاقات مع أعيان الجزائريين الطامعين في المناصب أو الذين لهم مشاكل وحاجات اجتماعية واقتصادية . ولذلك وجدنا خـلال هذا العهـد مراسـلات كثيرة بين هؤلاء الموظفين في إدارة المكاتب العربية (في جميع المستويات) وبين عدد من أعيان الجزائر : شيوخ ، وعلماء ، وقضاة[3] الخ .

ولما كانت شؤون الجزائر تابعة لوزير الحربية فإن كل المراسلات المتعلقة بها كانت تصل إلى هذا الوزير ثم منه إلى الحاكم العام . فمراسلات القناصل الفرنسيين في العالم والمتعلقة بالجزائر كانوا يرسلونها أولاً إلى وزيرهم للخارجية ، وهذا يحولها

(3) نشرنا حتى الآن عدة حلقات من مراسلات موظفي العلماء الجزائريين مع الادارة الفرنسية . انظر ذلك في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ، جـ 3 . ط. بيروت ، 1990 .

إلى زميله وزير الحرب . مثلاً كانت التقارير التي تأتي من قناصل فرنسا في تونس وطنجة وليفورنيا والاسكندرية واسطانبول الخ . والتي تتعلق بموضوع يخص الجزائر كانت كلها تصل إلى يد الحاكم العام ليطلع عليها ويتخذ الإجراءات اللازمة بشأنها . وكانت لا تصله إلّا بتعليمات واقتراحات مدققة من وزيره ، الذي هو وزير الحربية . ومن جهة أخرى كانت توصيات الحاكم العام بشأن الأمور المتعلقة بالجزائر في البلدان المذكورة توجه أيضاً إلى القناصل عن الطريق الإداري المعروف . وهكذا كان التنسيق دقيقاً وشاملاً لكل التحركات الداخلية والخارجية . فنشاط الجزائريين بالخارج أو مراسلاتهم مع أصحابهم أو حلفائهم ونحو ذلك ، كانت كلها مغربلة ومفصلة لدى الإدارة الاستعمارية في الجزائر .

* * *

3. من الدوق دومال إلى الدوق دومالكوف :

عندما قامت الثورة في فرنسا سنة 1848 كان الحاكم العام في الجزائر هو الدوق دومال ، ابن الملك المخلوع . وما دام الأب قد فر من فرنسا مع وزيره الأول إلى بريطانيا ، فلم يبق للابن في الجزائر إلّا أن يجمع حقائبه ويرحل هو أيضاً إلى بلد آخر غير فرنسا ! وهكذا فإنه لم يمض على رحيل الأمير عبد القادر من الجزائر إلّا شهران حتى رحل أيضاً من الجزائر الرجل الذي أعطاه عهد الأمان باسم فرنسا ، كل منهما إلى منفى ! نفى الأمير ، رغم عهد الأمان ، إلى سجون فرنسا ، ونفى الدوق دومال من الجزائر إلى بلاد أجنبية . وكما لم يجد بورمون سنة 1830 من يواسيه في مصيره كذلك لم يجد الدوق دومال من يعزيه أو يتأسف عليه وهو يغادر الجزائر . فقد كان يتخيل مجداً فإذا هو سراب ، وكان يحلم بوراثة العرش في فرنسا فإذا ذلك كله أضغاث أحلام ! رحل الرجل الذي استلم جواد الأمير ولم يكن يدري عند استلامه انه بعد شهرين يترك ذلك الجواد حراً يصهل ويركض في الأرض التي طالما أوضع فيها وخب[4]. يا لسخرية الأقدار ! ويا لجنون المغرورين ! .

لم يكن الدوق دومال إلّا واحداً في سلسلة طويلة من الحكام العامين للجزائر

---

(4) الوضع والخب نوعان من سير الخيل .

خلال 1848 ـ 1860 . فقد تعاقب خلال الفترة المذكورة حوالي ثمانية جنرالات[5] ، أي معدل سنة تقريباً لكل واحد ، وهذا يذكرنا ببعض فترات العهد العثماني في الجزائر ، إذ كان الحاكم لا يبقى أكثر من عدّة شهور أو حتى عدّة أسابيع ، وكذلك كان الحال في هذا العهد « الفرنسي » ، فقد حكم بعضهم الجزائر مدة شهر واحد ، وبعضهم شهرين ، وهكذا . وقد كان لكل جنرال تجربته الخاصة التي يريد فرضها على زملائه وعلى الجزائر . وكانت الحكومة الفرنسية الجديدة (وقد بقيت فترة تسمى الحكومة المؤقتة إلى أن وضعت دستوراً) منشغلة بالأمور الداخلية وكادت تواجه حرباً أهلية ، وكانت تخشى التدخل الخارجي ، وفي نفس الوقت كانت تخشى الثورة الموحدة في الجزائر . ورغم هذه الظروف فقد حافظ جنرالاتها على الوضع في الجزائر « هادئاً » باتباع طريقة بوجو في القمع والردع والتشريد وإعطاء الدروس القاسية، ولعل غياب الأمير والتنكيل بالسكان خلال الأربعينات هو الذي منع الجزائريين من القيام بثورة ترمي الفرنسيين في البحر سنة 1848 . ومن المحتمل انه لو حدثت الثورة في فرنسا سنة 1847 مثلاً بدل 1848 ، لكان في استطاعة الأمير أن يسترد أنفاسه وقوته وأن يهدد أو يقضي على النفوذ الفرنسي في الجزائر . ولكن اللّه شاء أن يسلم حصانه قبل شهرين فقط من وقوع تلك الثورة واضطراب الأحوال في دار العدو . ولا نعلم أن أحداً من المؤرخين قد تحدث عن أثر هزيمة الأمير على الأحداث السياسية في فرنسا . فهل تلك النهاية هي التي عجلت بثورة 1848 هناك ؟ وهل لو استمرت المقاومة على أشدّها في الجزائر لكانت الثورة ستقع في فرنسا لا محالة أو كانت ستتأجل ؟

ولكن ما الفائدة من هذه التساؤلات والإحتمالات ؟ إن « خيانة » العهد الذي أعطي للأمير قد اشترك فيها النظامان : الملكي والجمهوري . فقد حمل الأمير إلى سجون فرنسا ـ بدل الإسكندرية أو عكا كما اشترط ـ وأنزل في قلعة (لامالق) ثم سجن (الهم) ثم امبواز ، حيث بقي إلى اكتوبر 1852 . وقد أكد النظام الجمهوري عدم الوفاء بالعهد واعتبر ان ذلك العهد قد منحته حكومة (لا دولة) فرنسية لم تعد قائمة ، ولكن العالم كله ، وحتى قسماً كبيراً من الرأي العام الفرنسي ، اعتبر العهد مسؤولية

(5) هم على التوالي : دومال ـ كافينياك ـ شانقارنييه ـ ماري مونج ـ شارون ـ هوتبول ـ بيليسييه (بالنيابة) ـ راندون ـ بيليسييه (من جديد) .

الأمة الفرنسية والدولة الفرنسية بقطع النظر عن الحكومات الزائلة . ولا يهمنا الآن وجود الأمير في سجون فرنسا إلّا بقدر تأثيره على مسيرة الحركة الوطنية في الجزائر . والمهم أن التلاعب الذي كان يبديه جنرالات فرنسا في الجزائر ، أمثال كلوزيل وروفيقو وبوجو ، بالعهود والضمانات لم يعد خاصاً بهم أو مستوراً بسحب الكذب والزيف ، بل أصبح مكشوفاً للعيان وللرأي العام العالمي الذي حكم حكماً قاسياً على سجن الأمير بدل تركه يرحل حيث اشترط ونص عليه العهد.

ورغم أن السياسة الفرنسية في الجزائر لم تتغير في الأساس نتيجة ثورة 1848 المذكورة ، فإن تبديل الحكام العامين السريع والإنطباع العام الذي أحدثته الثورة جعل بعض الحكام يتحررون من رقابة الحكومة والرأي العام ، ويجربون في الجزائر عقائدهم الخاصة . كان عدد الجيش بالجزائر في سنة 1848 أكثر من تسعين ألفاً ، وقد أرسل منه الحاكم الجديد ، كافينياك ، بعض الفرق إلى فرنسا توقعاً لحدوث اضطرابات أو تدخلات خارجية هناك . وقد أكثر الكتاب عندئذ من الحديث عن كون تلك الفرق من الجيش « الافريقي » قد نقلت « عاداتها السيئة » في العنف والقتل والعجرفة من الجزائر إلى فرنسا « الناعمة والمتحضرة»[6]، ورسم الرسامون كافينياك متوجهاً من الجزائر إلى فرنسا ويداه تقطران دماً ، لكي يطبق في فرنسا نظامه الخاص الذي تعلمه في الجزائر . وكان لا يضيرهم أن تقطر يداه بالدم ولسانه بالسم وعيناه بالشرر إذا كان في الجزائر يحارب المتعصبين والمرابطين والمجاهدين ، ولكن ذلك يضيرهم أشد الضير إذا ظهر به في فرنسا . وليس ذلك هو الأثر الوحيد الذي خلفته حروب الجزائر على العقلية الفرنسية . فقد ذكرنا ان « عقداء » المكاتب العربية قد أصبحوا قتلة وغشاشين ومرتشين . . . حتى الكولون قيل عنهم انهم لم يعودوا يمثلون الحضارة الأوروبية حق التمثيل وانهم تعلموا القسوة والجفوة واسودت أرجلهم وقلوبهم من العيش على الأرض الافريقية ! وكأن هؤلاء الناس ، جنوداً ومدنيين ، كانوا قبل المجيء إلى الجزائر نخبة المجتمع الفرنسي وصفوة الحضارة الأوروبية !

---

(6) انظر الرسم في شارل اندري جوليان (تاريخ الجزائر المعاصرة) جـ 1 ، 1964 ، لوحة رقم 33 . وقد كتب تحتها على لسان كافينياك وهو يغادر الجزائر الى فرنسا : « الآن وقد تعلمت كيف أضبط الناس في أفريقية (الجزائر) ، أذهب الى فرنسا لكي أطبق نظامي الخاص على هؤلاء الباريسيين المهذبين الذين يزعمون أنهم في جمهورية » .

ألم نعرف من قبل بأن معظم الجيش الفرنسي في الجزائر كان من الجهلة والمرتزقة والمغامرين ، وان الأكثرية الساحقة من المدنيين (الكولون) كانوا من حثالات المدن في شمال البحر الأبيض ومن شذاذ الآفاق ؟

وقبل أن يغادر كافينياك الجزائر إلى فرنسا ليصبح عضواً في المجلس الوطني الجديد ، قام « بعمليات تهدئة » في الجزائر . ذلك أن نفي الأمير وسجنه ، وما أشيع عن ظهور بـومعزة جديد ، وكون انكلترا قد أعلنت الحرب على فرنسا ، وأن هذه ستجلو عن الجزائر بعد الثورة الجمهورية ، والتذمر الذي عرفته الأرياف الجزائرية والترقب الذي شهدته المدن ـ كل ذلك جعل الجيش الفرنسي يقوم بتلك العمليات لكي يثبت للجزائريين انه ما يزال موجوداً وأنه قادر على القهر والقمع ، بدعوى أن الناس رفضوا دفع الضرائب ، وأنهم عادوا للثورة واتبعـوا المنادين بـالجهاد . بـدأ كافينياك نفسه بالقيام باستعراض عسكري ضخم في مدينة الجزائر حضره المئات من القيادات الأهلية العاملة في الظاهر مع العدو ، وأعلنوا عن اعتـرافهم بالجمهـورية الثانية ! وقام ماري مونج بعمليات تمشيط وتخريب في الجنوب ضد أولاد نـائل . وخرجت فرق الدمار من مستغانم ومعسكر ووهران في اتجاهات مختلفة تفرض دفع الضرائب وتظهر القوة والتعسف . وقام كذلك كاروبير في الأوراس بحملات دمارية انتهت باستسلام الحاج أحمد (جوان 1848) ، كما عرفنا[7] . وعندما غادر الحاكم العام الثاني (شانقارنييه) الجزائر الى فرنسا ليصبح « ممثلاً للشعب » الفرنسي ، كان جنوب وهران يهتز بالثورة بقيادة قبيلة حميان . وكانت بجاية ونواحيها ، في حالة ثورة (نهاية جوان 1848) . وقد تعاقب الحكام العامون ، كما ذكرنا ، كأنهم في استعراض كبير ، إلى أن جاء دور شارون (1848 ـ 1850) الذي شهد عهده ثورة الزعاطشـة ، ثم راندون (1851 ـ 1858) الـذي تميز عهـده بالمقـاومة الـطويلة والعنيدة في بلاد القبائل والصحراء . ونحن لن ندرس كل حكم وحاكم على حدة . ولكن سنعرف ذلك من خلال تعرضنا للمقاومة في كل عهد . والمؤكد هو أن سياسة العدو خلال عقد الخمسينات لم تتغير ، كما لاحظنا ، فهي وإن كانت سياسة جديدة في فرنسا فهي قديمة في الجزائر .

* * *

(7) في 7 جوان وصل الحاج أحمد الى بسكرة ، وطلب الأمان انظر الفصل الثاني .

4 محاولات الاندماج :

من نتائج الثورة التي حدثت في فرنسا انها حكمت بإبعاد العناصر السياسية غير المرغوب فيها هناك إلى الجزائر . وبذلك جاء إلى الجزائر عدد من السياسيين ذوي الاتجاهات المختلفة والمعادية للنظام الجديد . وكـان على هؤلاء أن يجدوا الأمن والعمل والعيش في الجزائر على حساب أهلها . وقد أصبحت الجـزائر « ملجـأ » يرسل إليه المعارضون الفرنسيون ، إذ أن نفس الشيء حدث أيضاً أثناء انقلاب سنة 1852 وبعده ، فقد حملت السفن عـدداً من المعارضين لـلأسرة النـابوليـونية إلى الجزائر ، وبالطبع وفرت لهم إمكانات العمـل والعيش في الجزائـر . وكان لهـذه الهجـرة الفـرنسيـة وجـه آخـر إذ أن المهـاجـرين في هـذه المـرة لم يكـونـوا من حثالات المدن والعاطلين ، ولكنهم كانوا في الغالب من فئة المثقفين والحرفيين والنقابيين الخ . وبذلك أسهموا في إثارة العداء نحو الجزائريين ، وسـاندوا فكـرة الاندماج العزيزة على المستوطنين الأوروبيين ، وهي الفكرة التي تعني حكم الجزائر بالقوانين الفرنسية وتطبيق النظم المعمول بها في فرنسا على فرنسيي الجزائر (وليس على الجزائريين طبعاً) . وهكذا بدأ عهد جديد سمي « عهد الاندماج » وهو العهد الذي يشعر فيه المستوطنون وهم في الجزائر كأنهم في بلادهم فرنسا تماماً .

وقـد نص دستور الجمهـورية الجـديدة على أن الجـزائر ثـلاث مقـاطعـات « فرنسية » . ولا يعني ذلك الدمج القانوني فقط ولكن يعني أيضاً الدمج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي . فقد قسمت الجزائر إلى ثلاث ولايات بدل النواحي العسكرية القديمة . وعلى رأس كل ولاية وال مدني إلى جانبه قائد عسكري للولاية ، ورغم شدة الخلاف بين السلطتين (المـدنية والعسكـرية) فقـد بقيت اليد العليـا للقائـد العسكري . كما قسمت كل ولاية إلى مجموعة من البلديات وكل بلدية لها مجلس منتخب ، وكل الناخبين فرنسيون أو متفرنسون ، وأعضـاء المجالس البلديـة كانـوا فـرنسيين ، مع بعض الاستثنـاء للجزائـريين المرخص لهم . وعـدد الأعضـاء في المجالس يختلف من بلدية إلى أخرى ، وأوسعها مجلس العاصمة الذي كان يضم سنة 1848 حوالي 24 عضواً . وهناك المجالس التي لا يتعدى أعضاؤها التسعة . وكان رؤساء البلديات غير منتخبين بل يعينون من قبل الحاكم العـام ، ثم أصبحوا

يعينون من قبل الوالي ، ولكن السيطرة العسكرية ظلت هي البارزة ، والدليل على ذلك أنه يجوز للحاكم العام أن يوقف عمل المجلس البلدي ، دون حله[8] . ومن الواضح أن هذا التغيير الإداري لا يمس إلّا الفرنسيين أو المتفرنسين الذين يطالبون بالإندماج ، أما الجزائريون فقد ظلّوا يحكمون من قبل المكاتب العربية « العسكرية » وكانت شؤونهم تابعة لوزارة الحربية .

وتطبيقاً لجعل الإدارة المدنية في يد الفرنسيين ، فإن الجزائريين الذين عينوا سابقاً في مناصب تشبه المناصب البلدية ، عزلوا منها وأعطيت مناصبهم لفرنسيين فهذا مثلاً منصب (قائد البلاد) في قسنطينة الذي أعطي في السابق إلى حمودة الفكون ، وبعد طرده أعطي إلى عمار القشي وغيره ، قد تولاه ابتداء من 29 ابريل سنة 1848 « المواطن قاسلان » ، وهو ضابط فرنسي متقاعد ، لماذا ؟ « لأن الوظائف التي يقوم بها قائد البلاد في قسنطينة تجمع مصالح متعددة وهامة لا يمكن أن يقوم بها معتمد من الأهالي »[9] . ومنذ ذلك الحين « فرنست » وظيفة قائد البلاد وظلت في يد الفرنسيين . والوظائف التي يشير إليها النص والتي تدخل في صلاحيات قائد البلاد أو شيخ البلدية هي : الشرطة العامة ، الضرائب على اللحم والخبز ، وتسمية الموظفين ، بما في ذلك الوظائف الدينية الخ .

وشمل هذا الدمج عدة نواحي أخرى كالقضاء . فقد كان القضاء من قبل تابعاً كله لوزارة الحربية . ولكن منذ 1848 وقع التفصيل : فما هو متعلق بالمسلمين (القضاء الإسلامي) بقي تحت الوزارة المذكورة ، أما القضاء الفرنسي فقد ضم إلى وزارة العدل . وبذلك أصبح الفرنسيون والأوروبيون في الجزائر يخضعون للمحاكم المدنية . وأنشئت من أجل ذلك أنواع من المحاكم ، منها الأولية ومنها الاستثنائية حسب الحاجة ومرور الزمن . أما القضاء الإسلامي في الولايات المدنية فقد صدرت بشأنه قرارات أيضاً سنة 1848 ، مثل إنشاء المجلس القضائي الأعلى ، ومحاكم القضاة للمذهبين : المالكي والحنفي ، وتكوين الوكلاء والمحامين ، ونص كذلك

---

(8) موريل (الجزائر) ، مرجع سابق ، ص 383 ، وكذلك نيفيل باربور (مدخل الى شمال أفريقية . . .) ص 221 . ونحن نستعمل كلمة الحاكم العام لممثل السلطة الفرنسية في الجزائر كلها ، وكلمة الوالي لحاكم أحد الأقاليم الثلاثة ـ العاصمة ، وهران ـ قسنطينة .

(9) انظر (روكاي) ، سنة 1930 ، ص 1 ـ 29 من سجل قائد البلاد بقسنطينة .

على ضرورة تسجيل القضايا في المحاكم الاسلامية . وكانت المحاكم الإسلامية ما تزال تستعمل الجلد في العقوبة ، خصوصاً في المناطق الريفية . أما في المدن فقد بدأ السجن والتغريم يحل محل الجلد . وحسب إحصاء سنة 1849 ، فإنّ الأفراد الذين حكم عليهم في المدن كانوا كالتالي : 124 حكماً بالسجن ، و 15 حكماً بالجلد ، و 7 أحكام بالتغريم . أما القضايا التي عرضت فقد كانت 2,333 قضية[10].

وأمام عدة ظروف جديدة ، مثل حرب القرم والتنظيمات العثمانية في المشرق وعدم الأمن على المستوطنين الفرنسيين في الجزائر ، قامت سلطات العدو بإعطاء صلاحيات واسعة للمجلس القضائي الأعلى ، مثل جعل أحكامه نهائية لا تقبل الطعن أو الاستئناف . وكان ذلك في سنة 1854 ، في عهد الامبراطور نابليون الثالث . فبعد توجه قوات جزائرية إلى الدولة العثمانية للمشاركة في حرب القرم ضد روسيا وأمام التقارب الفرنسي ـ العثماني ، خصوصاً بعد اعتراف السلطان بالسيادة الفرنسية على الجزائر ، وأمام الثورات المتواصلة في بلاد القبائل والصحراء بإسم الجهاد وتحرير الدين الإسلامي ـ أراد نابليون أن يعطي صلاحيات للقضاة في المجلس بعيداً عن رقابة المكاتب العربية وبعيداً أيضاً عن التأثير القبلي . ولعل التوسع في صلاحيات هذا المجلس كان الهدف منه أيضاً استرضاء فئة رجال الدين والعلماء، وهم الذين طالموا اتهموا بالتعصب والعداء ، كما كان الهدف منه كسب المؤمنين بالأفكار « التقدمية » من رجال الدين ليوائموا بين الشريعة الإسلامية والقيم الفرنسية . ويرى البعض أن هناك ربطاً بين إنشاء المجلس والأفكار السانسيمونية ، ذلك ان الاشتراكيين المثاليين كانوا يرون انه يمكن تطوير الإسلام عن طريق التحرر العقلي . ومهما كان الأمر فإن هناك علاقة بين التوسع في صلاحيات المجلس المذكور وأحداث المشرق الإسلامي . ونلاحظ ان المجلس كان يجتمع مرة واحدة في السنة في مدينة الجزائر ، وكان يصدر الفتوى في الأمور القانونية العامة ، وكان يحاذي في فتاوى التشريعات العثمانية القائمة في اسطانبول على التنظيمات الجديدة[11].

---

(10) موريل ، مرجع سابق ، ص 384 .

(11) انظر الان كريستلوفي (المجلة التاريخية المغربية) يوليو 1979 ، ص 35 ـ 39 .

ولكن سلطات المجلس الأعلى للقضاء لم تدم إلا حوالي خمس سنوات . فقد قامت ضده حملة إعلامية موجهة من قبل المستوطنين الفرنسيين . ولعل المكاتب العربية كان لها دور أيضاً في هذه الحملة . كما أن رجال الحكم الجزائريين (الأجواد - الصف - السيف) كانوا أيضاً غير راضين بأحكام المجلس وصلاحياته ، التي قلصت من نفوذهم جميعاً ، وكان شعار الحملة هو أن المجلس قد أصيب بالتعفن والفساد والفضائح ، وان القاضي وحده هو الذي يصدر الحكم النهائي في الشريعة الإسلامية ، وليس هناك مرجع آخر فوقه . ونتيجة لهذا الضغط ، وبعد انتهاء حرب القرم وصدور « الخط الهومايوني »[12] في الدولة العثمانية ، صدر مرسوم من نابليون الثالث سنة 1859 يعدل سلطات المجلس المذكور . وذلك بإعطاء حق الاستئناف للقضاة وكان ذلك زمن إلغاء الحكم العسكري في الجزائر وإنشاء وزارة مدنية للجزائر والمستعمرات (1858 - 1860) .

والمعروف ان هذا العهد قد شهد صدور مراسيم عديدة أخرى من قبل الامبراطور تتعلق بالجزائر . من ذلك انه أسند لابن عمه (جيروم نابليون) وزارة الجزائر المذكورة في يوليو 1858 ، وبذلك ألغى النظام العسكري بإلغاء منصب الحاكم العام في شهر اغسطس وهو النظام الذي عرفته الجزائر منه 1830 . كما صدر عن الامبراطور مرسوم بإحداث منصب القائد الأعلى للقوات البحرية والبرية ، وتعيين الجنرال ماكماهون عليه . وإذا كان الأمير جيروم لا يعرف الجزائر إلاّ من السماع والتقارير إذ لم يضع رجله على ترابها ، فإن ماكماهون كذلك كان يجهلها ولا يعرف عنها إلاّ القليل ، لقد قرأ عن الاستعمار في أمريكا وغيرها ، وكان متحمساً لتقليد كلوزيل في ذلك ولكنه كان ، إلى ذلك الحين ، غير مجرب على الأرض الجزائرية . ومع ذلك فقد كان هو الناصح والمستشار للأمير جيروم الذي كان منشغلاً بعلاقاته الغرامية أكثر من الأمور السياسية والعسكرية[13] . ولذلك فإن اعتماد ماكماهون في الجزائر كان على نصائح الكولون والمكاتب العربية والمبشرين.

---

(12) أصدر الخط الهومايوني (أو المرسوم السلطاني) السلطان عبد المجيد ، في فبراير 1856 تحت ضغط الدول الكبرى والتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية عن طريق الأقليات المسيحية .

(13) بعد أقل من عام استقال جيروم من الوزارة ، وذهب الى ايطاليا ليتزوج باحدى عشيقاته هناك .

ومنذ وصل ماكماهون إلى الجزائر ، كقائد أعلى للقوات البحرية والبرية في الجزائر ، جاءته تعليمة من الأمير جيروم تقول له ان العسكريين لم يعد في استطاعتهم أن يصدروا الأحكام مباشرة ضد الجزائريين المتهمين بارتكاب الجرائم أو الإخلال بـالأمن . وأوضحت التعليمـة ان هؤلاء يجب إحـالتهـم على مـجلس حـربـي لمحاكمتهم . والهدف من ذلك كان إبعـاد السلطة المطلقـة التي كانت للمكـاتب العربية على الأهالي ، وإعطاء الفرصة للجزائريين المتهمين بـالدفـاع عن أنفسهم وتسجيل قضاياهم . ولكن مناورات ماكماهون والكولون والمكاتب العـربية أفهمت الوزير جيروم بأن الجزائريين قد يتهمون بدون دليل ولكن بمجرد الظنة ، ومن ثمة لا يمكن إحالتهم على المحاكم العسكرية . فغير جيروم تعليمته فجعل بـدلها لجنـة انضباطية لدى القائد الأعلى (ماكماهون نفسه) مهمتها دراسة حالات الجـزائريين المتهمين وتقديم اقتراح بإبعادهم من الجزائر إذا ثبت أنهم خـطيرون على الـوجود الفرنسي . وبالإضافة إلى ذلك انشئت لجان أخرى مماثلة على مستـوى الولايـات الثلاث ، تعلن هي أيضاً عن سجن أو تغريم الجزائريين الخطرين لمجرد الظن[14] .

وبعد استقالـة الوزيـر جيروم تسلم وزارة الجـزائر والمستعمـرات (شاسلو ـ لوبا) ، أحد المدنيين أيضاً . وكان هذا حريصاً على تحقيق رغبة الامبراطور في دمج الجزائر وإلحاق شؤونها بالوزارات الفـرنسية المعنيـة ، وتشجيع الاستعمـار فيها ، وإرضاء مطالب الكولون والعسكريين المنادين بإضطهاد الجزائريين ، كل في مجاله . وظهرت في هذه الأثناء كتابات عديدة عن الجزائر يثبت أصحابهـا فائـدتها لفـرنسا وصـلاحيتها للتـوسع السكـاني والتصنيع والاستـراتيجية ، كمـا أثبت بعضهم مدى ملاءمتها لنشر التجارب الحضارية والمذهبية . وعلى رأس أولئـك غلاة الاستعمـار أمثال الدكتور (وارنيبه) الذي سبق له أن عمل قنصلاً لبلاده لدى الأمير في معسكر ، وعلى رأس الفريق الثاني اسماعيل عربان (أوربان) المترجم العسكـري الفرنسي الذي اعتنق الإسلام والمبادىء السانسيمونية معاً ، والذي أخذ نجمه يسطع في عهد الامبـراطور . وأمـام هذه التيـارات المتعارضـة ، خصوصـاً إذا أضيف إليها التيـار الكاثوليكي الذي يريد دعم التبشير في الجزائر ـ قرر الامبراطور أن يزور الجزائر بنفسه

---

(14) (مذكرات ماكماهون) ، 173 وما بعدها .

وأن يقف على جلية الأمر شخصياً.

حل الامبراطور بالجزائر في شهر سبتمبر 1860. وكانت خطته أن يبقى هناك فترة طويلة تسمح له بالتوصل إلى حكم دقيق، وذلك بزيارة عدة مناطق، والإجتماع بأهم العناصر، والتعرف على المشاكل المطروحة، خصوصاً رغبات الجزائريين، وعلاقة العسكريين بالمدنيين، وفكرة الإندماج أو عدمه الخ - ولكن حدث في فرنسا ما جعله يقطع رحلته ويعود إلى بلاده. ومع ذلك فإنه عاد مقتنعاً بضرورة استعادة العمل بالنظام العسكري وإرجاع منصب الحاكم العام، وبذلك ألغى نابليون وزارة الجزائر والمستعمرات، وعين المارشال بيليسييه حاكماً عاماً للجزائر ابتداء من نوفمبر 1860. ورغم شهرة بيليسييه عندئذ في حرب القرم إذ نال على أثرها لقب (دوق مالاكوف)، فإنه في الجزائر كان مشهوراً بجريمة غار الفراشيش التي ذهب ضحيتها سنة 1845 أكثر من ألف شخص ماتوا مختنقين بدخان الحطب[15]، كما اشتهر بفشله الذريع في القضاء على ثورة أولاد سيدي الشيخ التي انطلقت سنة 1864، كما سنرى. ومهما كان الأمر فإن عهد بيليسييه لم يكن عهد بركة وسعادة لا على الجزائريين ولا على الفرنسيين.

5. الزعامات المدجنة:

لم يقتصر التغيير الإداري الذي حدث في الجزائر في عهد الجمهورية والامبراطورية (إلى 1860) على الشريط الساحلي والمدن الكبيرة، بل تجاوزه أيضاً إلى المناطق الريفية، التل وشمال الصحراء. وقد سبق لنا أن ذكرنا بأن بوجو قد قلد نظام الأمير في جعل إدارة سكان الريف إدارة تصاعدية تنتهي بسيطرة السلطة العليا ووصول الأوامر والنواهي بسهولة. ولكن الفرنسيين لم يقرأوا حساب أمرين هامين في ذلك النظام: الأول ان الموظف الجزائري الذي اختاره الأمير عبد القادر ليس هو الموظف الذي اختاره الفرنسيون من حيث الولاء والكفاءة. والثاني ان الهدف من تنصيب ذلك الموظف لم يكن واحداً في الحالتين. فقد كان موظفو الأمير مؤمنين بقضية وكان اختيارهم على أساس الكفاءة والثقة. بينما كان موظفو الفرنسيين

(15) انظر ما مضى، الفصل الثالث.

لا يؤمنون بقضية ، ومن ثمة فإن ولاءهم كان دائماً محل شك . وكان اختيارهم على أساس العمالة والتبعية للعدو . ولا هدف لهم إلّا تحقيق مآرب شخصية أو عائلية .
ومن جهة أخرى فإن ثقة الناس في الموظف أثناء عهد الأمير كانت ثقة الرعية في الراعي والعائلة لكبيرها والمواطنين لقائدهم ، أما في العهد الفرنسي فإنه لم يعد للناس ثقة في هؤلاء الموظفين وكانوا يحصلون منهم على اللعنات أكثر من التأييد لأنهم خدام المستعمرين وأذناب الكفار ولسان حالهم يقول : « ولو كان فيهم الخير ، لما قبلوا تلك الوظائف ولما اختارهم العدو لها »[16].

لم يكن هدف الفرنسيين من توظيف رؤساء العائلات الكبيرة خدمة العائلات أو الجزائر أو الدين ، ولكنهم فعلوا ذلك ليتمكنوا بواسطتهم من السيطرة على البلاد وضرب المقاومة وتمزيقها . يقول سيروكا ، أحد الذين خبروا هذه العائلات وعملوا على رأس المكاتب العربية زمناً طويلاً ، : « إن معرفة خلفيات العائلات الرئيسية في هذه البلاد (الجزائر) وعداواتهم وصداقاتهم وثاراتهم ، تجعلنا قادرين أكثر على حكمهم ، كما ان معرفتنا ، عن كثب ، لتاريخ البلاد المغلوبة تقينا غالباً من الوقوع في الخطإ . . »[17] وعلى هذا الأساس كان الفرنسيون يخططون بأن يتوسطوا بالعائلات الكبيرة في حكم الجزائريين ، واعتبروا هذه القيادات متعاونة معهم من أجل مصالحها الخاصة . فأسندوا إليها دوراً بارزاً في بادىء الأمر (الشرطة ، والضرائب وتسليط العقوبة ، إلخ .) ، وأضفوا عليها الألقاب والنياشين والمال والأرض والجاه . وسموها الارستقراطية العربية ، وهي الفئة التي كانت القاعدة لتشييد المملكة العربية التي كانت تدور بخلد الامبراطور نابليون الثالث ، قبل أن يعلنها في مشروعه المشهور.

ولم تكن هذه العائلات كلها من فئة الأجواد أو رجال الحرب . فقد كان من بينها أيضاً عائلات دينية كانت لا تتدخل في المسائل العسكرية في الماضي إلّا عند

---

(16) يذكر الحاج محيي الدين بن مبارك أنه منذ قَبِلَ بأن يكون « اغا العرب » للفرنسيين سقط في عين المواطنين ، رغم أنه كان مرابطاً محترماً بينهم وكلمته تعتبر أمراً . وكان ذلك قبل انضمامه للأمير وتوليه خلافة مليانة . والنماذج على ذلك كثيرة . انظر ما مضى .

(17) سيروكا (المجلة الأفريقية) 1912 ، ص 378 ، وكان سيروكا قد تولى المكتب العربي في بسكرة ، وكتب تاريخ الناحية بين 1830 ـ 1855 بأسلوبه الخاص طبعاً .

الثورة ضد النظام . وقد حصر بعضهم العائلات البارزة ، الدينية والعسكرية بين 1849 ـ 1868 في الولايات الثلاث ،فكان منها في غرب البلاد ، أولاد سيدي العربي ، وأولاد بومدين ، وأولاد القاضي ، وأولاد سيدي الشيخ ، وأولاد الصافي بن أحمد الخ . ومنها في الوسط العائلات الآتية : عائلة محيي الدين في بني سليمان ، وأولاد مختار ، وعائلة التجاني صاحب الطريقة ، وعائلة ابن شريفة الخ . أما في الشرق فهناك عائلات : بوعكاز بن عاشور ، وبوعزيز بن قانة ، ومحمد ابن عز الدين ، والحاج مسعود بن زكري الخ[18] . وإذا كان العهد العثماني قد عرف عائلات عسكرية سميت في أغلب الأحيان بالمخزن ، فإن العهد الذي نحن فيه قد جعل من بعض العائلات الدينية عائلات مخزنية أيضاً . ومن أشهرها أولاد سيدي الشيخ ، وابن علي الشريف ، الخ .

وقد قام أحد الباحثين بإحصاء العائلات المشاركة في الوظائف العسكرية ـ السياسية التي أنشأها الفرنسيون فكانت نتيجة بحثه ملفتة للنظر حقاً وتعبر عن فشل الطرفين في نظره . فبحلول سنة 1850 كان عدد الموظفين من العائلات البارزة كما يلي : 9 خلفاء ، و 5 باشغوات ، 59 آغا وقايد القياد ، 85 قايدا . وجميعهم كانوا يمارسون صلاحياتهم القديمة (منذ عهد بوجو) مع التوسع فيها . ثم أخذت هذه الزعامات تضمر شيئاً فشيئاً ، حتى انه خلال عقد واحد (1870 ـ 1880) ألغى كثير من صلاحياتها ، بل إن حوالي 47 وظيفة عالية منها قد ألغيت تماماً ، وما بقي من الوظائف لم يكن إلّا شرفياً فقط[19] . لماذا حدث ذلك ؟ لأن الفرنسيين لم يكونوا يهدفون منذ البداية إلى إحداث تغيير في البنية الإجتماعية لصالح التطور أو نحو ذلك في الجزائر ، وإنما كان هدفهم السيطرة على البلاد ، ومتى ظهر لهم انهم قادرون على التخلص من نفوذ تلك العائلات فعلوا .

والواقع انهم لم يلغوا تلك الوظائف هكذا كلية ، ولكنهم كانوا يقلصون منها ببطء حتى لا يحدث ذلك ردود فعل عنيفة كالثورات ، انها عملية تذويب بطيئة . وقد سمى بعضهم تلك الطريقة بالبقرطة (من البيروقراطية) . فالخلافة الواحدة كانت

---

(18) انظر وثيقة تروملي في ارشيف ايكس رقم 10H 56 .

(19) فان سيفرز (مجلة الشرق الأوسط الدولية) ، مرجع سابق ، ص 262 .

تجزأ إلى عدة أغوات وقيادات حتى لا يستقل صاحبها بالنفوذ ، والعائلة الواحدة يجب اشراك عائلات أخرى منافسة لها فيما كان لها حتى يحدث التوتر المطلوب بينها ويتطلب الأمر تدخل العدو ، وكلما حدثت ثورة ، مثل ثورة الزعاطشة أو القبائل أو أولاد سيدي الشيخ ، كانت العائلات الحاكمة في المنطقة تعاقب بتجزئة منطقة نفوذها أو بإبعاد رأسها أو بتعيين منافس له من نفس العائلة أو من عائلة أخرى . وهكذا ، فلم يحن عقد السبعينات حتى لم يبق من تلك العائلات الأرستقراطية المتسلطة في ظل الاستعمار إلاّ الهيكل العظمي ، فالذين كانوا يحكمون كانوا في الحقيقة مجرد دمى يتلاعب بها العدو الذي أصبح يتدخل في كل صغيرة وكبيرة عندها . ولكن هذا الموضوع سيظل معنا في الفصول الأخرى أيضاً ، وسنرى كيف انتهى الحال بتلك العائلات . ونود أن نلاحظ أن هذا المآل كان من نصيب الطرق الصوفية أيضاً بعد تدجينها وإعطاء كل منها عظماً تلوكه.

ومن الأمثلة البارزة على تنافس العائلات الذي جعله الفرنسيون لصالحهم ، ما كان بين عائلة بوعكاز وعائلة ابن قانة في منطقة بسكرة - الأوراس . وما حدث في جنوب وهران عند عائلة أولاد سيدي الشيخ . فهذه عائلة بوعكاز قد أنجبت فرحات بن سعيد الذي سبق الحديث عنه . وقد كانت تتولى مشيخة العرب هناك إلى حوالي 1821 . وعندما تولت نفس المنصب عائلة ابن قانة (أخوال الباي الحاج أحمد) دخلت المنطقة كلها في صراع عنيف استغله الفرنسيون لصالحهم . فكانوا يمنون ابن سعيد من 1830 إلى 1838 ما دام ابن قانة متحالفاً مع الحاج أحمد ، وعندما انضم ابن قانة (بعد احتلال قسنطينة) إلى الفرنسيين وتخلى عن صهره الحاج أحمد ، كافأه الفرنسيون بمنصب شيخ العرب أو بعبارة أخرى ثبتوه حيث كان . فازداد سخط ابن سعيد واستمر في عدائه لابن قانة فانضم للأمير من أجل ذلك وكاتب الفرنسيين إلى أن قتل غيلة سنة 1841[20] . وبذلك خلا الجو بعض الوقت لابن قانة[21] ، وبدا وكأنه هو السيد الإقطاعي غير المنازع، فتعاون مع الفرنسيين على القضاء على بقايا الأمير هناك (الحاج محمد الصغير بن الحاج ، وحسين بن عزوز الخ .) ولكن ثورة

---

(20) قتل في 20 نوفمبر 1841 حين كان في أولاد بوعزيز الموالين له في الظاهر ، ولكنهم انضموا سراً ، كما تدعي الروايات ، لخصمه ابن قانة . وقد ذكرنا أنه دفن في سيدي خالد .

(21) كان بوعزيز بن قانة عندئذ هو رأس العائلة . وقد توفي في 9 اغسطس 1861 .

الزعاطشة (1849) التي وقعت في منطقته جعلت الفرنسيين ليس فقط يشكون في عجزه بل ويشكون في ولائه أيضاً . ولذلك عاقبوه بتقسيم المنطقة بينه وبين ابن شنوف[22] ، وأنشأوا قيادة جديدة في السحاري عينوا عليها واحداً من عائلة ابن قانة ، وهو بولخراص (لكي يحدثوا تنافساً داخل العائلة الواحدة) . ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل جزأوا المنطقة الباقية في حوزة ابن قانة الى قيادات جعلوا عليها موظفين جدداً بحيث لا يبقى النفوذ « المباشر » فيها لأولاد بن قانة وحدهم . وهذا نموذج فقط مما فعل الفرنسيون في كل المناطق التي تسيطر عليها عائلات مثل عائلة ابن قانة .

ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل إنهم عينوا علي باي ، (وهو أحد أبناء فرحات بن سعيد) على رأس منطقة شاسعة في الجنوب الشرقي كانت في الماضي داخل نفوذ أولاد ابن قانة ، وهي منطقة وادي ريغ ووادي سوف ، مقره في تقرت ، وكانت تقرت فيما مضى مركزاً لعائلة بني جلاب . كان ذلك سنة 1854 على أثر دخول القوات الفرنسية تلك النواحي ، كما سنرى . ورغم أن النزاع قد هدأ إلى حد ما بين العائلتين ما دام أولاد بوعكاز قد أصبحوا بعيدين عن منطقة نفوذ أولاد بن قانة ، فإن حدوث ثورة الشيخ الصادق بن الحاج في الأوراس سنة 1858 قد أضر بسمعة ابن شنوف هناك (وهو حليف أولاد بوعكاز) ، كما أضرت ثورة الزعاطشة سابقاً بعائلة ابنُ قانة . وهكذا قسم الفرنسيون منطقة ابنْ شنوف أيضاً إلى قيادتين ، أعطيت إحداهما إلى الميهوب (الموهوب) ابن علي باي . وبقيت المنافسة على أشدّها بين العائلتين : ابن قانة من جهة وبوعكاز ـ ابن شنوف من جهة أخرى[23] .

6. جبهة المقاومة : في الزعاطشة والأوراس والحضنة :

بعض الكتّاب يعتبر ما حدث في الزعاطشة إنما هو حادثة منعزلة جاءت بعد « تهدئة » الأوضاع في الجزائر . وكثير من هؤلاء الكتّاب يمرون في تاريخ الجزائر على ثورة الزعاطشة مرور الكرام ، مكتفين ببعض السطور عما كلفت الفرنسيين من

(22) ابن شنوف من أنصار عائلة بوعكاز ضد عائلة ابن قانة .
(23) انظر تفاصيل ذلك في فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 268

قتلى وجرحى . وهم يذكرون « الزعاطشة » كقرية أو واحة ثانية في الزيبان لا تهم دارسي تاريخ الجزائر كثيراً . ونحن إلى الآن ، وبناء على ذلك المنظور ، لا نعرف إلّا أن ثورة حدثت هناك سنة 1849 بقيادة مرابط يدعى بـوزيان ، وانتهت بتخريب الواحة وقطع نخيلها وقتل بـوزيان ، وبعدها عاد الأمن والسلام كما كانا . هكذا بكل بساطة واختصار !

ولكن الأمر لم يكن كذلك بالضبط ، فقد استمرت الثورة عدة شهور ، وشملت الأوراس والحضنة أيضاً ، واستنفدت من العدو قوات ومعدات ضخمة ، وارتكبت أثناءها فظائع تخجل إلى جانبها فظائع النازية . ولكنها مع ذلك حدثت في غفلة من الزمن ، فلم تكتب بحروف بارزة في سجلات العـدو ، إذ اعتاد ألّا يكتب إلّا عن « انتصاراته وبطولاته » ، وليس فيما فعله في الزعاطشة انتصار ولا بطولة ولا انسانية ، ولذلك ضرب عنها صفحا ، وطوى عليها كشحا ، لأنها تذكره بالعار الأبدي . وما الطريقة التي تم بها القضاء على ثورة الزعاطشة إلّا كالطريقة التي تم بها القضاء على قبيلة رياح في غار الفراشيش بالظهرة ، وقبيلة العوفية بالقرب من وادي الحراش ، وقبيلة أولاد يعقوب في جهة عنابة . انها ليست حرباً ، ولكنها اعتداء صارخ على كل القيم بإستعمال الحرائق والألغام والحصار الطويل ونسف الديار ، وقطع الـرؤوس البشرية وتعليقها على البنادق والأبواب تشفياً وازدراءً .

وهناك أسماء كثيرة غير لامعة في تاريـخ هذه الثـورة بالنسبـة للعدو . هنـاك الجنرال هيربيون[24] المسؤول الأول على تخريب الواحـة وقتل الأبرياء . وهو الذي قام بما قام به سلفه مع العوفية وبني يعقوب ، إذ خرج هيربيون مرة ليلاً ووقع على سكان أورلال فقتلهم وسلبهم أرزاقهم وحطم وخرّب الباقي بدعوى أنهم يعاونون ثوار الزعاطشة . وهو الذي أمر بقطع النخيل بالزعاطشة وليشانة لينزع الحماية على الثوار ويفتح الطريق أمام كور المدافع . وهو الذي عجز عن إيجاد ثغرة لدخول الواحة فظل يستنجد إلى أن وصلت قوات بلغت 27,000 جندي وفارس مع معداتها المدفعية ، من قسنطينة وبوسعادة ، وعنابة ، وسكيكدة الخ . وهيربيون هو الذي أمر بقتل الشيخ محمد بوزيان بعد القبض عليه ، وتعليق رأسه على مدخل معسكره لعله ينال ترقية

(24) كان هيربيون عندئذ يشغل قائد الناحية العسكرية الشرقية (اقليم قسنطينة ، ومنه طبعاً الزعاطشة) .

على ذلك. وهو الذي أمر أيضاً بقتل ولد الشيخ بوزيان، الذي لم يكن قد بلغ العشرين سنة بدعوى انه لو تركه حياً لأخذ بثأر أبيه ! ووضع رأس الإبن المقطوع إلى جانب رأس الأب على مدخل معسكره حتى يشبع حقده و « ساديته » ، كما أن هيربيون هو الذي قطع رأس الحاج موسى الدرقاوي وعلقه بإزاء رأسي بوزيان وابنه . يضاف إلى ذلك أسماء الضباط الذين شاركوا هيربيون وهم : بورباكي ، وكاربوشيه ، وبارال ، وسان جيرمان . . . وجميعهم عرفوا بالغطرسة وحب النهب والقتل.

إن الثورة المعروفة بثورة الزعاطشة أهم وأكبر من أن تحصر في واحة الزعاطشة فقط ، رغم ان هذه الواحة هي التي تحملت النصيب الأكبر من الخراب والدمار . فجغرافية الثورة شملت ، كما قلنا ، الحضنة والزيبان وأجزاء من الأوراس ، والصحراء . واشتركت فيها : الخنقة وبسكرة وطولقة وأولاد جلال وبوسعادة وسريانة وواحات عديدة أخرى مثل فرفار وليشانة . وساهم في إثارتها وقيادتها عدد من رجال الدين البارزين ، شيوخ الطرق الصوفية ، أمثال عبد الحفيظ الخنقي (الخنقة) ، والصادق ابن الحاج ، زعيم ثورة الأوراس سنة 1858 ، الذي تقول الروايات انه جاء بسبعمائة جندي لفك الحصار على واحة الزعاطشة ، والمختار الجلالي (أولاد جلال) ، ومحمد بن شبيرة (بوسعادة) ، والحاج موسى الدرقاوي الشهير ، والشيخ محمد بوزيان نفسه ، وتعتبر الثورة في الحقيقة استمراراً لثورة الأمير ومقاومة قسنطينة الطويلة والصراع الذي حدث بين المجاهدين وقوات العدو خلال الأربعينات ، في أطراف الصحراء : الأغواط ، مسعد ، بسكرة ، أولاد جلال ، بوسعادة ، الخ . فقد عرفنا هناك كم واجه العدو من مقاومة خلال 1846 ـ 1847 ، وذكرنا انه بالرغم من احتلال بسكرة الظاهري فإن الناس لم يقبلوا الإحتلال وظلوا يتحينون الفرصة للإنقضاض على العدو.

إن معلوماتنا عن الشيخ محمد بوزيان قليلة جداً . وكل ما نعرف عنه الآن هو انه كان من موظفي إدارة الأمير عبد القادر بالمنطقة بلقب (شيخ) على واحة الزعاطشة[25] . وإن بعض المصادر تذكر انه كان من المرابطين والأشراف . وانه كان محارباً شجاعاً ، ومن أحسن الرماة ، وأن سمعته كانت واسعة ومحترمة ، وانه حارب

---

(25) فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 266 . أفادني البعض (محمود الواعي) أن الاسم الحقيقي لبوزيان هو عبد الرحمان بن زيان ، وأن ابنه القتيل معه يسمى الحسين .

ضد جنود الحاج أحمد هناك سنة 1831[26] . ويبدو انه كان صاحب سمعة ونفوذ ، وانه كان متقدماً في السن عند استشهاده سنة 1849 ، ما دام قد حارب منذ 1831 ، وكان عمر ابنه حوالي عشرين سنة عند استشهاده أيضاً . ومن نفوذه انه استطاع أن يجند للثورة عدداً من المرابطين والمجاهدين في أماكن بعيدة نوعاً ما ، مثل الخنقة وبوسعادة وأولاده جلال ومسعد . وقد استعمل هؤلاء نفوذهم الديني وشجاعتهم العسكرية أيضاً (مثل الشيخ الدرقاوي والشيخ عبد الحفيظ والشيخ ابن شبيرة) ، وقد استشهد أكثرهم في المعارك عندئذ حتى ان العدو استغرب كيف انه لم يطلب أي واحد من « متعصبي » الشيخ بوزيان (كما كان العدو يطلق على المجاهدين) الأمان ، ورضوا أن يموتوا جميعاً تحت الأنقاض والسلاح في أيديهم . ولا شك أن ذلك راجع إلى الإيمان بالقضية التي آمنوا بها ، وهي العيش في حرية وسلام بعيداً عن الدخيل الكافر.

وهناك ملاحظة أخرى نود أن نبديها قبل الدخول في تفاصيل الثورة ، وهي ذلك التضامن الرائع الذي حدث بين السكان في كل الناحية . فقد تهاطلت النجدة على الواحة المحاصرة من كل الجهات البعيدة والقريبة ، حتى اضطر العدو أن يقيم فرقاً خاصة في ثلاثة اتجاهات لسد الطريق أمام النجدات الآتية من بوسعادة وأولاد جلال وباتنة والأوراس وطولقة الخ . واضطر أيضاً إلى أن يغير ليلاً على « قبائل البدو » في أورلال ومليلي وغيرهما لأنها كانت تنجد بوزيان بالرجال والسلاح والمؤونة . ان المعركة إذن لم تكن معركة واحة معينة ، أو معركة مرابط متعصب ، أو معركة ضد دفع الضرائب (كما أشاع العدو وبعض الكتاب) ، ولكنها كانت معركة دينية ـ وطنية ضد الدخيل الكافر ، كما ذكرنا ، حتى لا يدنس التراب الذي مشى عليه هناك بالضبط عقبة بن نافع والصحابة الآخرون والتابعون ، ولا يسقط علم الجهاد والوطنية الذي رفعه الأمير عبد القادر .

ورغم وضوح الدوافع الدينية والوطنية للثورة فإن بعض الكتاب أصر على وجود

---

(26) سيروكا ، المرجع السابق ، ص 387 . انظر أيضاً بول غفريل (الجزائر المحتلة) ، ص 169 . ويقول غفريل عن بوزيان ان « وطنيته قد جعلته رجلاً خطيراً جداً » في نظر الفرنسيين ، كما يذكر أنه اشترك أيضاً في أحداث سنة 1833 وسنة 1838 في المنطقة

الدافع الإقتصادي لها ، فقال بأن الفرنسيين رفعوا ابتداء من مارس 1849 ، الضرائب على النخيل من 0,25 إلى 0,40 فرنك كما ألغوا جميع الإعفاءات السابقة . وهذه الزيادة في الضرائب والغاء الإعفاءات جعلت بوزيان يستغلها لإثارة السكان ضد العدو[27] . ومن جهة أخرى يذكرون أن هناك تنسيقاً في الجهاد بين المرابطين (الشيخ بوزيان ، الشيخ المختار ، الشيخ ابن شبيرة ، الشيخ عبد الحفيظ الخ .) وبين أنصار وحلفاء الأمير السابقين وعلى رأسهم محمد الصغير (بن الحاج) . ونحن لا نستبعد أن يكون الظلم الإقتصادي (ضرائب الخ .) دافعاً من دوافع الثورة ، ولكنه ليس الدافع الأساسي في نظرنا ، لأن الفرنسيين أنفسهم سيشهدون بأن الجزائريين لم يثوروا أبداً ضدهم بدافع الجوع والخصاصة ، ولكن لأسباب أخرى أهمها الدين والشرف والوطنية . ويدل على ذلك تضامن سكان الجهة كلها مع الثوار وهو التضامن الذي يرقى في نظرنا إلى مستوى التضامن الوطني اليوم[28] .

منذ الربيع (شهر مايو عند بعض الكتاب وشهر جوان عند البعض) أخذت الثورة تشب في الناحية بالدعوة إلى الجهاد وجمع السلاح وتوفير المؤونة وحفر الخنادق وإقامة التحصينات والبحث عن الحلفاء . ولا يذكر المؤرخون ان هناك اصطداماً وقع بين الثوار وبين الزعماء المحليين الممثلين للسلطات الفرنسية مثل زعامة ابن قانة أو زعامة بوعكاز . ولم يشترك هؤلاء بفرقهم ضد الثوار الاّ عندما جاء العدو بنفسه ، كما سنرى . وهذا الموقف هو الذي جعل العدو يشك في ولاء الزعامتين ويتهمهما بالتواطىء مع الثوار ضده . ولم تكن واحة الزعاطشة معزولة عن بقية الواحات بل انها كانت متصلة أشد الإتصال ، طبيعياً وبشرياً وعسكرياً ، مع واحات ليشانة وفرفار وطولقة وبوشقرون . وهذا الإتصال القوي هو الذي جعل العدو يجد صعوبة في التقدم نحو الزعاطشة ثم نحو دار بوزيان .

---

(27) فان سيفرز ، مرجع سابق ، ص 266 . وكذلك جولياف ، تاريخ الجزائر ، ص 384 .

(28) يذكر غفريل (الجزائر . . .) ، ص 169 أن « البساكرة » العاملين في العاصمة كانوا يرجعون الى بلادهم بالأخبار التي تروج في العاصمة ومنها حدوث ثورة 1848 في فرنسا ، ورحيل جزء من الجيش الفرنسي نحو بلاده نتيجة ذلك ، والاطاحة بالملك الفرنسي ، الخ . وقد فسروا ذلك ، وكذلك فسره بوزيان وأهل الزيبان ، بأنه يعني اقتراب عهد التحرر من الاستعمار فتنادوا للثورة والجهاد .

حاول العدو أكثر من مرة القضاء على الثورة فكان لا يجني الاّ الفشل والتراجع المخزي . وكان ذلك الفشل يزيد في معنويات الثوار ويضيف اليهم أنصاراً وحلفاء . وكانت خطة الثوار هي الهجوم على الحامية الفرنسية في بسكرة وتطهير الناحية منها ، في عملية تشبه العملية التي جرت سنة 1844 . أول فشل جناه العدو كان على يد كاربوشيا ، قائد مركز باتنة ، فقد تقدم نحو الزعاطشة بقوة تقرب من ألفي جندي في 16 يوليو ، ولكنه واجه ثورة عارمة كلفته 31 قتيلاً و 117 جريحاً ، فارتد على عقبه في اليوم التالي . يقول بعض المؤرخين انه حاول انتزاع الشيخ بوزيـان من أيدي أنصاره ولكن هؤلاء حموا شيخهم منه وقتله له العدد المذكور ، ويقول آخرون ان كاربوشيا لم يستطع التقدم نحو الزعاطشة لكثافة النيران ، وشدة التحصينات ، وقوة الحرارة . فرجع من حيث أتى مضمراً الثأر في الوقت المناسب ، بعد توفير المدافع ووصول النجدة .

ولم يحن شهر سبتمبر حتى أخذت الثورة منعطفاً جـديداً ، نعني بـه إعلان الجهاد من قبل الشيخ عبد الحفيظ الخنقي وتقدمه بقوة ضخمة نحو سريانة . وكان قائد العدو على بسكرة عندئذ هو سان جيرمان فخرج إلى الشيخ عبد الحفيظ بقوة عسكرية فيها كل أنواع المرتزقة : خيالة ، وزواف ، ولفيف أجنبي ، وقومية ، وصيادة افريقية الخ . وأثناء المعركة استشهد الشيخ عبد الحفيظ كما قتل سان جيرمان . وإذا كان استشهاد الشيخ عبد الحفيظ قد أصاب الثورة فان مقتل الضابط العدو قد رفع من معنويات الثوار وزاد في الحماس . وعلى كل حال فإن مقتل سان جيرمان كان هو الفشل الثاني للعدو في القضاء على الثورة ، لأن هذا الضابط قد خبر المنطقة وكان قائد الحامية في بسكرة منذ خمس سنوات ، واكتسب سمعة بين زملائه عندما تلقى استسلام الحاج أحمد، باي قسنطينة قبل ذلك بعام واحد.

امـا الفشل الثـالث للعدو فكـان خلال شهـر اكتوبـر . فقد استعـد الجنـرال هيربيون ، الحاكم العسكري لإقليم قسنطينة كله ، للهجوم الذي ظنه سيكون قاضياً على الثورة . فاختار الوقت المناسب في نظره وهو شهر اكتوبر الذي تخف فيه درجة الحرارة ، وهو في نفس الوقت الشهر الذي تنضج فيه التمور ، كما جاء على رأس قوة عسكرية قدرت بـ 4,500 مضافاً اليهم فرق عـديدة من المـرتزقـة المشار اليهم ، خصوصاً القومية . وبعد أن رتب حراسة قواته ووضع مخططاً يمنع وصول السلاح

والمؤونة والنجدة للثوار ، هاجم يوم العشرين (كان قد وصل يوم 7 منه) من الشهر المذكور . ولكنه رد على أعقابه مثل زميله كاربوشيا ، وتكبد 35 قتيلاً و 147 جريحاً على الأقل ، حسب المصادر الفرنسية[29] .

وفي انتظار النجدة أخذ هيربيون وجنوده المرتزقة يتفننون في التخريب على غرار ما فعل الوندال . ويدعي هو وجماعته انهم فعلوا ذلك للتأثير على معنويات الثوار وأنصارهم ، وانهم لجأوا إلى ذلك لأن الطريق إلى وسط العمران بالزعاطشة كان غير سالك لكثرة التحصينات والعراقيل . ومن ذلك الخنادق المائية ، والأبراج ، وكثافة الأشجار المثمرة المتراصة مع النخيل الخ . ولذلك تفتقت حيله الخربية على ضرورة قطع جميع الأشجار بطريقة منظمة بحيث لا تبقى نخلة أو شجرة تقف في الطريق . وكان ذلك بداية خراب الزعاطشة الذي انتهى باحراق جميع المنازل ونسف المسجد والدور بما فيها دار الشيخ بوزيان . وفي الوقت الذي كان فيه هيربيون يقطع الأشجار كان جنوده يغيرون أيضاً على القرى المجاورة وقوافل البدو لإرعابهم وقهرهم حتى لا ينجدوا الثوار ، كما كانوا يشددون الحراسة على الطرق الرئيسية خصوصاً طريق بسكرة وطريق باتنة .

وبعد وصول النجدة إلى العدو من قسنطينة وباتنة وبوسعادة وسكيكدة وعنابة، بزعامة ضباط برزت أسماؤهم في هذه المناسبة، مثل كاروبير، وبارال الخ. جدد هيربيون الهجوم بكل الأسلحة ، بما فيها المدافع . كانت التعليمات تقتضي قتل جميع الأحياء ولو كانوا نساء أو أطفالاً ، وقطع كل الأشجار بالواحة في كل الاتجاهات ، وتخريب جميع المنازل . ان الحصار الذي ضرب على الواحة منذ عشرين اكتوبر قد استمر إلى يوم 28 نوفمبر تاريخ الهجوم الجديد على يد جيش قوامه ثمانية آلاف نسمة ، دون ذكر الفرق المرتزقة والاحتياطية . ومع ذلك فإن العدو قد « استغرب » كيف لم يطلب أي شخص في الزعاطشة « الأمان » رافعاً العلم الأبيض ! بالعكس ، لقد اشتبك الثوار مع العدو بالسلاح الأبيض وصارعوه جسداً لجسد . ويشهد المؤرخ غفريل بأن المرأة قد قامت بدور فعال عندئذ . ويقول ان الكوليرا كانت تحصد يومياً

---

(29) كتب هيربيون كتاباً في شكل مذكرات برر فيه الارهاب اللذي استعمله في الزعاطشة ، سماه (قصة حصار الزعاطشة) ، باريس 1863 ، انظر بالخصوص صفحات 191 ـ 195 .

بين 30 و 40 شخصاً ، وان الجيف كانت تملأ الطرق ، وان الفرنسيين كانوا يعلقون الجرحى من المسلمين على النخيل نكاية بهم وتحدياً للمقاومين ، ويزيدون من آلامهم وتحديهم لهم كلما سقطت لهم نخلة وانهار جذعها على الأرض[30] . وبعد أن سقطت كل الدور وسكنت جميع الأرواح بقيت دار بوزيان قائمة ومنها كان يتصاعد الضرب ، فوضع العدو في أساسها الألغام ونسفت بمن فيها على من فيها واختلطت النيران بالدخان والغبار وأنات الجرحى بأصوات الحجارة المتهاوية . ووسط الركام خرج بوزيان شامخ الرأس كأنه شبح صحابي من رفاق عقبة بن نافع ، فانهال عليه العدو ضرباً قبل ان ينجلي عنه الغبار والدخان ، فسقط شهيداً مضرجاً بدمائه . وبعد أن تأكد العدو انه لم يبق في الزعاطشة حي من البشر ولا حية من الشجر ، أقام على باب معسكر هيربيون مقصلة رفع عليها ثلاث رؤوس : رأس الشيخ بوزيان ورأس ابنه الشاب (خوفاً من أن يأخذ بثأر أبيه ذات يوم !) ورأس شيخ آخر طالما حارب الفرنسيين منذ 1833 ، وهو الحاج موسى الدرقاوي المعروف بوحمار .

هكذا قضى العدو على ثورة الزعاطشة . ان الكتاب الفرنسيين (وخصوصاً أمثال بول أزان) يرددون عبارة « الدرس القاسي الذي أنتج الهدوء في المنطقة » بالنسبة لكل عمل شنيع يرتكبه ضباط متعطشون للدم وقمع الشعب . وهم بالطبع لا يستثنون الزعاطشة من الاستفادة من ذلك « الدرس القاسي[31] » . فقد خسر العدو ، حسب الإحصاءات المحافظة ، 10 ضباط قتلى و 60 جريحاً ، أما من الجنود فقد خسر 165 قتلى و 790 جريحاً[32] . وأما سكان الواحة فقد قتلوا عن آخرهم ، حتى

---

(30) غفريل (الجزائر . . .) ، ص 71 ـ 77 .

(31) بول أزان (الاحتلال والتهدئة) ، ص 410 ـ 411 .

(32) يذكر هيربيون أن الجانب الفرنسي قد خسر 43 قتيلاً منهم 3 ضباط ، و195 جريحاً منهم خمسة ضباط . انظر ص 195 ، المرجع السابق . وعن مسيرة الثورة انظر أيضاً (جورنال عن ثورة الزعاطشة) كتبه ضابط المدفعية باريزي Pariset في قسنطينة يوم 6 مايو 1850 أي بعد أقل من عام ، الوثيقة تقع في حوالي 40 صفحة مرقونة ، في أرشيف إيكس 76 10H وفي نفس الأرشيف جورنال آخر كتبه قائد أركان الحملة دي بريتزال Bretizel يوم 14 ديسمبر 1849 بقسنطينة أيضاً .
ويقول أوغسطين بيرنار (الجزائر . باريس ، 1929) ص 241 ان الزعاطشة هي سرقوسة Saragossa التي كلفت الفرنسيين 1,500 قتيل ، بينهم 30 ضابطاً .

الرضع ! وبعد إحصاء أجراه العدو وجد 800 جثة على الأقل في الأرض المكشوفة ، أما الموتى تحت الأنقاض فلم يحصهم أحد ، ولعل منهم من بقي حياً أي ما بعد المعركة قبل أن يلفظ أنفاسه . ان أمثال هيربيون وبول أزان يفتخرون بأن الهدم والحرق قد استمر حتى بعد نهاية المعركة ، وذلك للقضاء على كل أثر للواحة وكذلك لإعطاء الدرس للآخرين الذين قد تحدثهم نفوسهم بالثورة .

إن ما يلفت النظر حقاً في معركة الزعاطشة هو ذلك التضامن الديني ـ الوطني الذي أظهره سكان المنطقة كلها . ثم ذلك التصميم العنيد الذي أفشل كل مخططات العدو وأثار استغرابه ، وهو ان أحداً لم يأته لطلب الأمان رغم فظاعة الحرب واليأس من الغلبة . وان قول هيربيون انهم وجدوا أناساً « كثيرين » بين الموتى ليسوا من سكان الزعاطشة وإنما جاؤوها من المغرب وتونس ومكة ، قول جدير بالذكر ، إذ نحن لا نعرف من هؤلاء المجاهدين « الأجانب » سوى الشيخ الدرقاوي الذي عرفنا انه كان قدم من مصر عبر ليبيا منذ أوائل الإحتلال . وهل نتحدث عن فظاعة المعركة أكثر مما تحدث عنها بوديكور ، المؤرخ الفرنسي الذي وصفه جوليان بالنزاهة ، فبعد الحصار الذي دام أكثر من ستة أسابيع وبعد التقدم خطوة خطوة وبعد قطع الأشجار وإزهاق الأرواح ، جرت حرب من دار إلى دار أنست الفرنسيين حربهم في مدينة قسنطينة عام احتلالها 1837 . ان الجنود كانوا يعبثون بالضعفاء وبكل من وجدوا فيه بقية روح . فهذه امرأة طريحة عبثوا بقطع حلمة ثديها وهي لا تطلب سوى الإجهاض عليها لتخليصها من العذاب ، وهذا طفل حملوه من رجليه ثم ضربوا برأسه على الحائط . إلى غير ذلك من المناظر التي يندى لها الجبين ويتنزه القلم عن ذكرها[33] . أما الباحث الإنكليزي موريل فقد قال (سنة 1854) عما جرى في الزعاطشة : أي قلم محايد سيسجل ذلك اليأس الخانق لأولئك الصحراويين الأشداء وهم يقاتلون حتى الموت دفاعاً عن الزوجات والبيوت وعن النخيل المتماوج وعن الحرية ! وأي قلم سينصف الانضباط العسكري الأوروبي الشهم وهو يوطد النظام وسط المعابد المحترقة والحدائق المضرجة بالدماء ! إن الجنوب الحلو سيستمر في نشر عبيره على

---

(33) أنظر جوليان (تاريخ) ، 384 نقلاً عن بوديكور . عن هذه المعركة أنظر أيضاً الدكتور قيون Guyon (رحلة من الجزائر إلى الزيبان) ، الجزائر 1852 ، ص 280 .

الواحات ، ولكن حدائقه قد صوحت ، ومنازله قد أصبحت أطلالاً ، لأن روح الحريه قد فارقته[34] !

ومع ذلك يصف أزان ورفاقه بوزيان بالتعصب . ومن أجل ذلك قطعوا رأسه ونصبوه في الحقيقة مناراً عالياً وسط الصحراء ، ثم حملوا رأسه إلى قسنطينة حيث انضم إليه عدد من رؤوس رفاقه في الشرف وفي الجهاد . وبعد أن ظل هناك سنوات حمل مع أحد عشر آخرين إلى المتحف الانثروبولوجي بباريس[35] .

ومن نتائج الثورة الشك في ولاء العائلتين المتعاملتين مع العدو ، عائلة بوعكاز بقيادة القائد ابن شنوف الذي كان على أولاد صولة ، وعائلة ابن قانة وقائدها عندئذ شيخ العرب محمد الصغير بن قانة ابـن أخ بوعزيز بن قانة . ورغم ان العائلتين قدمت خيالتها إلى الحملة الفرنسية ضد الزعـاطشة ، فـإن الفرنسيين قسمـوا مناطق نفـوذ العائلتين إضعافاً لهما معاً . فاما عائلة بـوعكاز فقـد أضعفها الفـرنسيون بـإعطائهـا « قيادات » صغيرة في الحضنة ونواحي سطيف بعيداً عن مكان نفوذ أجدادهم ، كما بقي الزاب الشرقي تحت قيادة ابن شنوف . وأما عائلة ابن قانة فقد قسمت منطقتها « عقاباً لها » أيضاً ، فأضافوا بني بوسليمان بالأوراس إلى ابن شنوف . وقسموا الزاب الغربي إلى العرب الشراقة والعرب الغرابة بقصد مراقبة شيخ العرب بن قانة ومراقبة السكان أيضاً . كمـا أنشأوا في شمـال بسكرة قيـادة جديـدة سموهـا ، كما سبقت الإشارة ، قيادة السحاري ، وجعلوا عليها بولخراص بن قانة[36] .

ولعل من النتائج المباشرة لثورة الزعاطشة احتلال بوسعادة وحرق واحة نارة . فأما بوسعادة فقد وقعت فيها ثورة بقيادة الشيخ محمد بن علي بن شبيرة . وهو زعيم ديني دعا إلى الجهاد أثناء ثورة الزعاطشة وأرسل النجدة إلى بوزيان وهاجم الحامية الفرنسية التي كانت في بوسعادة منذ 1843 . فانضم إليه أولاد نائل وعدد آخر من

---

(34) موريل (الجزائر) ، ص 445 .

(35) المجلة الافريقية ، 1886 ، ص 79 ـ 80 ، والمقالة بقلم ف . ريبو Reboud وقد كتبت جريدة (الأخبار) عدد ديسمبر 1849 عن الزعماء الذين سقطوا في الزعاطشة بنوع من التشفي (بوزيان ، الدرقاوي، عبد الحفيظ. . .) كما ذكرت أسماء أخرى للمقارنة، منهم سي الجودي وبوسيف في زواوة ، الخ . وقالت ان بوسيف (أنظر ما سيأتي) كان يسمى « بوزيان زواوة » .

(36) فان سفرز ، مرجع سابق ، ص 226 . وكذلك ارشيف ايكس 76 H 10 .

سكان الناحية . وقد وصلت نجدة فرنسية من البرج ومن مجانة وحاولت فك الحصار على الحامية التي التجأت إلى الجامع الكبير في بوسعادة . وكانت القوات الفرنسية بقيادة العقيد دوماس قد هاجمت في 14 من نوفمبر . وبعد نجاحه في فك الحصار فرض دوماس غرامة ثقيلة على السكان قدرت بـ 8000 فرنك ، ونصب مكتباً عربياً (فرنسياً) بقيادة الضابط بان Pein ، كما فرض على الناس دفع أشياء ثمينة مثل البرانيس والحياك والزرابي الخ . وقد هرب عدد من أهل بوسعادة عند احتلالها ثم أخذوا يعودون تدريجياً ، ومنهم من توجه إلى تونس ولم يعد[37] .

أما واحة نارة فقد لقيت مصيراً كمصير الزعاطشة على يد كاروبير الذي ترقى على اثرها إلى رتبة جنرال . تقع نارة على وادي عبدي بالأوراس . وهي أيضاً ذات أشجار ونخيل ، وسكانها كانوا مستقرين يمارسون الفلاحة وبعض الحرف الأخرى . وقد ادعى كاروبير ان أهل نارة رفضوا دفع الضرائب المفروضة ، فتقدم منهم ، منتشياً بانتصاره الدامي على الزعاطشة، واستعمل فيهم نفس الطريقة فأشعل النار في القرية وقلع وحرق أشجارها ثم هدم دورها حتى سوى الأرض بها على من فيها وقتل الباقين . وكان قوام جيشه ثلاث فرق . وكان ذلك يوم الخامس من يناير 1850 . وقد خسر الفرنسيون حسب إحصاءاتهم المحافظة 8 قتلى من بينهم الضابط لوكوتو ، وثلاثين جريحاً . وكان ذلك هو درس التهدئة الذي أعطاه كاروبير إلى سكان الأوراس والذي استحق عليه رتبة جنرال[38] .

وقبل أن نختم هذه الفقرة عن ثورة الزعاطشة التي هي في الواقع ثورة الناحية كلها ، كما رأينا ، نود أن نقول ان الثورات لم تهدأ بشرق الجزائر خلال سنة 1849 ـ 1850 ، ومن الخطأ تسمية كل ثورة على حدة هكذا، بل الواجب النظر إلى ذلك كله على أنه «ثورة واحدة» مستمرة تشتعل في نقطة وعندما تضعف فيها تندلع في نقطة أخرى وهكذا . وهذه الثورة المتصلة هي التي جعلت الضباط الفرنسيين لا يهدأ لهم بال ولا يستقرون على حال خلال السنة المذكورة . فقد خرجوا في مختلف الجهات

---

(37) البارون اوكبوتان (المجلة الافريقية) ، 1862 ، 59 ـ 61 من الذين رحلوا إلى تونس ، محمد بن شبيرة ، أنظر وثائق عن مصادرة العدو لأملاكه .

(38) أنظر أ . برنار (الجزائر) ، ص 241 ، جوليان (تاريخ) ، ص 385

بدعوى « تهدئة » الأوضاع بطريقة هيربيون وكاروبير طبعاً . فتارة يتوجهون ضد القبائل النافرة ، وتارة ضد الذين رفضوا قبول القياد الذين عينهم الفرنسيون ، وتارة لتأديب من رفضوا دفع الضرائب ، وهكذا فالأسباب كثيرة ولكن النتيجة واحدة وهي إعطاء درس وإصدار « عقاب مرعب » ضد النافرين والمتمردين . ومن ذلك إحراق القرى المجاورة لبجاية وتخريبها بعد ثورة بني سليمان انتقاماً للضباط الأربعة الذين لقوا مصرعهم هناك (21 مايو 1849) . ومن ذلك خروج الشيخ ابن يمينة وهجومه (29 ابريل 1849) على مركز الحروش ووقوع معركة حامية هناك ، وقد استشهد ابن يمينة بعد ذلك بحوالي شهرين (أول جوان) .

وأخيراً نذكر الثورة التي حدثت في زواوة والتي كان مسرحها المنطقة الواقعة بين تيزي وزو وسور الغزلان. وتزعم المصادر الفرنسية[39] ان أحد الأشراف قد ظهر هناك وتسمى بإسم (بومعزة) على اثر الأخبار الصحفية التي راجت عندئذ ، وهي ان رئيس الجمهورية الفرنسية قد أطلق سراح بومعزة الحقيقي من سجن (الهم) بفرنسا وفرض عليه الإقامة هناك . فاستغل هذا الشريف الجديد الفرصة وأعلن للناس أنه هو بومعزة العائد من السجن ، ودعا إلى الجهاد فاستجاب له الناس بحماس في كل جرجرة . وقد وقع الهجوم على مرتزقة (قوم) بوبريتر قائد مركز تيزي وزو ، وجرت معارك انتهت باستشهاد الشريف (2 اكتوبر 1849) ، وكان مصير رأسه هو مصير رأس بوزيان اذ علقه بوبريتر على مقصلة في سوق سور الغزلان حتى لا يشك الناس في موته .

ان هذه الأحداث وغيرها التي جرت في وسط وغرب البلاد في نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المعارك نواحي الأوراس والزيبان ، تدل على أن المعركة واحدة وغير متجزئة ، وان العامل الجغرافي فقط هو الذي منع من التنسيق والاتصال المنظم . كما ان الدوافع تكاد تكون واحدة في كل مكان ، وهي كراهية الدخيل الذي كان يريد أن يعطي لنفسه حقاً ليس له .

* * *

---

(39) بول أزان (الإحتلال والتهدئة) ، ص 405 .

7. في بلاد زواوة : الهاشمي ،بوبغلة، وفاطمة نسومر:

وفي ضوء ذلك كانت بلاد زواوة تغلي بالنقمة على العدو أيضاً . وكان الوضع الإقتصادي والديني هناك متشابكاً . فزواوة أصبحت في الواقع محاصرة من الجهات الأربع ، خصوصاً بعد احتلال بجاية ومراقبة البحر من قبل العدو . فكل الأنشطة الإقتصادية والتجارية كانت محدودة . وكانت الزوايا منتشرة ولها نفوذ واسع ولا سيما زوايا الطريقة الرحمانية . وكان للمرابطين والأشراف دور فعال في قيادة الرأي العام والتحكم في مصير البلاد . وكان هؤلاء قد أظهروا نشاطاً ملحوظاً خلال الثلاثينات ومنتصف الأربعينات عندما تضامنوا مع الأمير عبد القادر واعترضوا تقدم العدو نحو بلادهم ، سيما سنة 1844 عندما حاول بوجو التوغل هناك .

ولكن الأحداث التي جاءت مع فاتحة 1848 لم تجعل بلاد زواوة آمنة على نفسها أكثر من قبل . بالعكس فقد رأت أن العدو أخذ يبيت لاحتلالها ، ولكن الثورة التي حدثت في فرنسا في فبراير من هذه السنة قد أجلت فقط ذلك المشروع لأن الحكومة الجديدة كانت منشغلة بتصفية الحسابات السياسية (في فرنسا) ، وكان الحكام الفرنسيون في الجزائر غير مستقرين في منصبهم ، كما لاحظنا . ومن جهة أخرى فإن خروج الأمير عبد القادر من الجزائر (في آخر سنة 1847) قد ترك فراغاً في حركة المقاومة لا بد من ملئه بعده بزعامة أخرى أو أكثر . وما دامت المناطق الغربية والوسطى والشرقية قد سيطر عليها العدو بالعنف والإرهاب كما عرفنا ، فإن المناطق الباقية بعيدة عن سيطرته الفعلية هي بلاد زواوة والجنوب وبعض الجيوب الأخرى هنا وهناك . فكان من المتوقع اذن أن تظهر زعامات جديدة في حركة المقاومة ، تتخذ شعار الشرف والمهدوية تارة ، وترفع شعار الدين والوطنية تارة أخرى ، ولكنها جميعاً كانت تهدف إلى هدف واحد هو تحرير البلاد من الدخيل.

وكانت بلاد زواوة لذلك ، مثل منطقة الزيبان ، تمور بالشخصيات والطموحات والحركات خلال 1848 ـ 1857 . ومن الصعب أن نتتبع كل ذلك بالتفصيل هنا لأننا لو فعلنا لاحتاج الأمر إلى كتاب مستقل . ولكننا سنحاول ذكر أبرز الأحداث والشخصيات التي ملأت ذلك الفراغ المشار إليه والآمال المعلقة على الانتصار ، والنتائج المجتناة.

خلال 1848 ـ 1849 ثارت مزاية وبنو سليمان وبنو ميمون والجبابرة وغيرهم على الفرنسيين في بجاية ونواحيها . ودارت معارك دامية غير متكافئة لأن العدو ضرب الثائرين من البحر بالمدافع (شاربانتييه، على شاطىء بني عمروس) ، وحرق القرى والمداشر بأكملها (بني سليمان ، مثلاً) . وكان على رأس الجيش الفرنسي ومرتزقته : سانطارنو ودي صال (وكلاهما من قدماء ضباط الاحتلال) . وكانت النتيجة مقتل ضابط المكتب العربي في بجاية (كاباروس) ومصرع العديد من المرتزقة (القومية) . كما كانت النتيجة إلقاء القبض على قائد الجبابرة (أحمد أومهنا) متهمين إياه بالإنضمام للثوار ، بينما كان متولياً بإسم الفرنسيين ، كما قبض على قايد بجاية (سي المدني) ونفي إلى شرشال ، لأنه أخلّ بأداء واجبه نحو العدو الذي عينه في منصبه . وتظهر هذه الصورة مدى الارتباط بين الشعب وبين الذين رضوا بالتعاون مع العدو في لحظة ضعف.

كانت بلاد زواوة على اتساعها تخضع خلال سنة 1849 لقيادات محلية تتلقى الأوامر من الفرنسيين ، بعد أن كانت تتلقاها من الأمير عبد القادر . فكان بلقاسم أوقاسي باشاغا على سباو ، وتتبعه : ايلولا اومالو ، وبنو ايجار ، وبنو يحيى وبنو راتن الخ . ولكن سلطته عليهم كانت ضعيفة وكانوا شبه مستقلين في أمورهم المعاشية وغير مستعدين لقبول أي سيطرة جديدة . وكان عمر بن سالم (وهو أخ أحمد بن سالم) خليفة الأمير على حمزة سابقاً[40] متلقباً بلقب الباشاغا أيضاً من قبل الفرنسيين منذ 1847 ، وكانت القشطولة تخضع له وكذلك بعض سكان جرجرة الغرابة . أما سي الجودي الذي كان معيناً من قبل الأمير ثم أصبح باشاغا عند الفرنسيين ، فقد كان يحكم أيضاً بعضاً من زواوة وبني صدقة . ومعظم هؤلاء القادة كانوا من عائلات مرابطة ذات صيت روحي واسع . ولكن القيادة العسكرية والخبرة السياسية كانت تعوزها.

ومنذ تلك السنة (1849) تردد على بلاد زواوة عدد من الأشراف الذين كانوا يحملون عادة أسماء نكرة يشيرون فيها إلى اسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو

---

(40) أحمد الطيب بن سالم زعيم روحي ، وخليفة للأمير عبد القادر ، انظر عنه الفصل الثالث .

(محمد بن عبد اللّٰه) . وكان الغرض من الاتجاه نحو زواوة انها ما تزال بكراً في حرب الجهاد التي شهدتها معظم مناطق القطر ، وانها صعبة المراس لطبيعة أهلها وأرضها . فكان كل (محمد بن عبد اللّٰه) يطمح أن يأتيه الفتح الإلٰهي في هذه الأرض المباركة . كما ان المقصود من استعمال ذلك الإسم النكرة هو أن يظل الشخص مجهولاً للعدو ، فلا يعرف أصله ولا عائلته إمّا خوفاً عليهم ، وإمّا طلباً للشهادة في سبيل اللّٰه ، وإمّا تفادياً للتفاخر والتنابز الذي قد يكون بين الأشخاص المعروفين . وعلى هذا الأساس ظهر في السنة المذكورة الشريف محمد الهاشمي ، كما ظهر في السنة الموالية الشريف محمد الأمجد ، والشريف المولى ابراهيم الخ .

لم يكن الشريف محمد الهاشمي (محمد بن عبد اللّٰه بوسيف) غريباً عن بلاد زواوة ، فقد جاءها مبعوثاً من قبل الأمير عدة مرات منذ 1847 . ولا شك انه كان على صلة بزعمائها ، ومنهم سي الجودي المذكور ، والحاج البشير المغربي ، زعيم الزاوية الرحمانية وصديق الأمير عبد القادر[41] . وللا خديجة ، وهي أرملة سي محمد بن عيسى وزعيمة الزاوية المذكورة بعد الحاج البشير . وكذلك للا فاطمة التي خلفت والدها على زاوية ورجة . وتذكر المصادر الفرنسية أن الشريف محمد الهاشمي سمى نفسه (بومعزة) مستعيراً ذلك من اسم الرجل الذي لعب دوراً بارزاً في حوادث الظهرة سنة 1845 . وتطلق هذه المصادر اسم (بو معزة المزيف) على الشريف محمد الهاشمي ، لماذا ؟ لأنه ادعى اسم بومعزة على غير حق لكي يثير الناس به ويستغل سمعة بطل الظهرة الذي كان عندئذ (1849) ما يزال سجيناً بفرنسا . كما تطلق بعض المراجع الفرنسية (جريدة الأخبار) اسم « بوزيان زواوة » على الشريف الهاشمي تشبيهاً له ببوزيان الزعاطشة.

---

(41) كان الحاج البشير المغربي على رأس الزاوية الرحمانية الأم منذ 1252 (1836) ، ولكنه وجد صعوبة في إدارة الزاوية فغادرها عند الأمير ، فأدارتها للاخديجة وبناتها (وهي أرملة سي محمد بن عيسى خليفة محمد بن عبد الرحمن الأزهري ، مؤسس الطريقة) ولكنها فشلت في إدارة الزاوية ، فاستنجدت بالأمير على أن يبعث بالحاج البشير وأظهرت تعاون الأهالي معه فأرجعه الأمير إلى الزاوية ، فبقي يدير الزاوية إلى وفاته 1257 (1841) . وبعد فترة تولاها.محمد بن بلقاسم ، جاء على رأس الزاوية الحاج عمر (1259 ـ 1844) الذي سيرد ذكره . انظر لويس رين (مرابطون واخوان) ، ص 458 .

ولكن سير الحوادث يجعل الشك قائماً على كل حال . فالرجلان (بومعزة الحقيقي والمزيف) حاربا في أحداث الظهرة ، وكلاهما اعتقل من قبل العدو ، وكلاهما حمل إلى فرنسا ليذوق طعم الأسر ، أين ؟ كلاهما أيضاً دخل سجناً واحداً هو سجن (الهم Ham) ! أليس من المحق أن يتنازعا اسم (بومعزة) ، وأن يشاركا الناس في هذا الشك والاضطراب ؟ ان السلطات الفرنسية عندئذ ، وكذلك الكتّاب أمثال روبان وفيرو الخ . تريد منّا أن نصدق أن بومعزة الحقيقي بقي في السجن ، أما بومعزة المزيف (محمد الهاشمي) فقد هرب من السجن على حين غفلة من الحراس ، ثم هرب إلى تونس ومنها رجع إلى الجزائر متنكراً[42].

ولا ندري كيف وصل الشريف محمد الهاشمي إلى بلاد زواوة بالذات ، ولكن يبدو أن معرفته السابقة بالمنطقة وبأهلها وخصوصاً بالزعيم سي الجودي قد سهلت مهمته . كان ذلك في أوائل سبتمبر 1849 . وبعد اجراء اتصالات مع سي الجودي وزيارة لزاوية ورجة التي كانت تتولاها للا فاطمة[43] ، عزم الشريف الهاشمي على إعلان الجهاد ضد الفرنسيين وعملائهم في بلاد زواوة . تعاون الشريف الهاشمي مع سي الجودي تعاوناً وثيقاً : فقد وفر له هذا الفرسان والحماية والدعاية اللازمة ، وعين له ابنه لمرافقته . وخاض معه المعارك . وفي أول لقاء لهما بالجيش الاستعماري ومرتزقته كبداه خسائر كبيرة مما جعل من الضروري طلب النجدة من الحامية الفرنسية بسور الغزلان ، ورغم ذلك فإن جيش العدو كان في معنويات هابطة بعد أن سمعوا أن للشريف الهاشمي « قوة خارقة » حتى انهم طلبوا من الشريف الهاشمي أن لا يطلق النار عليهم ووعدوه بالفرار أمامه من الوهلة الأولى[44] !وقد حاول بوبريطر القائد

---

(42) روبان (المجلة الافريقية) ، 1870 ، ص 349 .

(43) يركز بعض الكتاب الفرنسيين (ومنهم روبان ، المرجع السابق) على الجانب العاطفي أيضاً في العلاقات الإنسانية ، فيذكرون أن للافاطمة كانت بارعة الجمال وفي مقتبل عمرها وان الهاشمي كان وسيم الطلعة وان هناك إعجاباً متبادلاً بينهما . وهذا جانب تقره الطبيعة ولا تمنعه الأخلاق ولا الشريعة ، ولكن قول روبان ان الهاشمي كان يكرر زيارته للافاطمة فيه تعريض واضح بهما معاً ولا يخلو من الدس الأخلاقي والسياسي .

(44) روبان ، مرجع سابق ، ص 357 ـ 361 . ويذكر روبان أن سيدي الجودي أعطى سيفاً إلى الشريف الهاشمي وسماه (محمد بن عبد الله بوسيف) . ومما يذكر أن أحد الأسرى الجزائريين في طولون كتب إلى نابليون سنة 1853 رسالة يقول له فيها ان محمد بن عبد الله السجين بفرنسا هو نفسه =

الفرنسي ، أن يرفع معنويات مرتزقته فلم ينجح . فلجأ إلى طلب المبارزة مع الشريف الهاشمي فقبلها هذا بكل شجاعة . وبعد هذه التحركات التقى الجمعان في معركة اليوم الثالث من أكتوبر (وهي فترة الحرب في الزيبان أيضاً) فأصيب الشريف برصاصة غادرة بين كتفيه ، سقط على أثرها قتيلاً . وقد قطعت رأسه وعلقت في سوق سور الغزلان . أما جثته فقد حملها أتباعه ودفنوها في زاوية أحمد بن ادريس.

كما ان بوبغلة لم يكن غريباً عن بلاد زواوة أيضاً . ذلك أن بعض المصادر تشير إلى أنه كان يزورها من قبل مبعوثاً من قبل الأمير ، أو داعياً لجهاد ، أو زائراً لإحدى الزوايا . وإذا كانت المصادر تذكر أن محمد الهاشمي جاء من تافيلالت (وهو ادعاء غير مسلم به لأن معظم الأشراف كانوا يقولون انهم جاؤوا من الساقية الحمراء أو تافيلالت أو فقط من الغرب (!)) ، فإن المصادر التي رجعنا إليها تتردد في أصل بوبغلة . فبعضها يذكر أنه جاء أيضاً من الغرب ، ولكن من أين ؟ من نواحي العطاف عند البعض ، وقد يكون من أولاد سيدي عيسى بالعذاورة عند آخرين . بل ان هناك رواية تقول أنه من أشراف بلاد زواوة نفسها . أما اسمه فهو محمد الأمجد بن عبد المالك . ولكن اسمه الجهادي هو محمد بن عبد الله أيضاً واشتهر باسم الشريف بوبغلة . ويبقى الظل مسلطاً على عائلته وقبيلته وجهته .

ويظهر من كثافة حركته أنه هدد الوجود الفرنسي في بلاد زواوة وكاد يفشل خططهم لولا عوامل إضافية مثل حرب القرم (بين الدولة العثمانية وروسيا) وتركيز جيش العدو ضده ، وتفوق هذا الجيش عليه بالسلاح الأحدث والأقوى . وقد دامت حركته حوالي خمس سنوات ، إذ يبدو انه حل بزواوة في أواخر 1849 أو أوائل 1850 . وكان يرافقه عدد من الفرسان ، ونزل في البداية في بني ايجار نواحي عزازقة . انضم إليه أهل زواوة جماعات حتى كثر جيشه على داعي الجهاد ، كما انضم إليه طلبة الزوايا وقاموا بالدعاية له وسط الجماهير باسم الدين والوطنية والاستقلال . وبفضل ذلك جمع بوبغلة أيضاً ثروة كبيرة لاستعمالها في ميزانية الجهاد . ويبدو انه كان خطيباً مؤثراً ومتعلماً ذكياً إذا استدللنا على ذلك من مواقفه ومن الشواهد التي أوردها في بياناته للناس . أمّا تكوينه السياسي والعسكري فالظاهر

= بوسيف وهو أيضاً بومعزة . الرسالة من تحرير السيد عيسى بن أحمد ، رقمه في السجن 2548 أنظر أرشيف إيكس 1 H 11 ، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً عن الشريف الهاشمي .

انه كان قد تكون في مدرسة الأمير عبد القادر الحربية إذ كان عمره اذاك حوالي أربعين سنة (ولد حوالي 1810) ، وكان قد شارك في حروب الأمير ، ومطلعاً على مجريات الأمور ، ولعله قد تولى عنده بعض المسؤوليات.

في سوق الثلاثاء ببني إيجار عقد بـوبغلة اجتماعاً كبيراً للمبايعة وإعلان الجهاد جماعياً . بعد التفاف الناس حوله نشر أعلامه فيهم ، وخطب فيهم خطبة مؤثرة جعلت شيوخ المنطقة ومرابطيها يتقدمون له بالولاء والبيعة على نصرة كلمة اللّه وطرد العدو . ومن الذين فعلوا ذلك عندئذ للافاطمـة ، مقدمـة زاوية ورجـة . وبعد أن بين لهم الهدف من الحرب وأقنعهم بالتضامن والتفاني ، قرأ معهم الفاتحة . وليس من مهمة هذا البحث ذكر جميع القبائل الذين انضووا تحت لواء بـوبغلة وبايعوه على الجهاد لأن القائمة تطول ، ويكفي أن نقول ان جماهير زواوة وشيوخها كلهم استجابوا ما عدا الأفراد الذين كانوا يتولون وظائف من قبل الفرنسيين ، كزعيم أولاد مقران وزعيم زاوية شلاطة . بل ان هؤلاء لم يكونوا محل ثقة من الفرنسيين أيضاً إذ اتهموهم بالتورط في الثورة وإخفاء أخبارها عنهم.

ويبدو أن الهدف الأول لبـوبغلة هو تخليص بجاية من الحامية الفرنسية وجعلها مركزاً (أو حتى عاصمة) لثورته . وكانت بجايـة ، كما عـرفنا ، في حـالة تغـري بالهجوم . فالناس من حولها كانوا قد نصبوا حصاراً سميكاً ضد الحامية الفرنسية هناك حتى أصبح جندها لا يجدون مـا يأكلون إلاّ مـا يأتيهم من البحـر ، وشلت حركـة المكتب العربي هناك . وإلى جانب بني سليمان ومزاية ثارت سنة 1850 بنو وغليس وبنو ايمل وغيرهم ، وكان قائدهم في هذه الحركة القويـة هو شـريف آخر يـدعى المولى ابراهيم الذي استطاع أن يثير أهل الناحية ضد العدو . ومن بين الذين لقوا مصرعهم في حركة المولى ابـراهيم الجنرال (بـرال)[45] الذي شـارك في مجزرة الزعاطشة . وهكذا كان الجو مناسباً لهجوم مركز على بجاية من قبل بـوبغلة.

وقبل القيام بذلك أرسل بـوبغلة رسائل ومبعوثين إلى مختلف النواحي داعياً للجهاد ومهدداً من يتعامل مع العدو بالموت . وكان هو لا يفتأ عن التنقل بين مختلف القرى ، وكانت له قوة هائلة على سرعـة التنقل حتى انـه غطى المنـطقة في وقت وجيز . ثم هاجم بجاية أول مرة في ديسمبر 1850 ، خصـوصاً تلك القبـائل التي

(45) انظر فيرو (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 445 .

أجبرت على الخضوع للعدو . ولكن ثلوج الشتاء جعلت العدو يتراجع ، كما تراجع بـوبغلة مكتفياً بالمناوشات . وفي مارس 1851 ، كان في بني مليكش الذين استقبلوه بالتأييد القوي . ومن هناك وسع دائرة الثورة إلى نواحي حمزة وبني عبدلي الخ . وقد أرسل خطابات تهديد إلى كل القياد الذين كانوا يتعاملون مع العدو ، ولكنه طلب من المسلمين الحقيقيين منهم أن يتوبوا إلى اللّه ويعودوا إلى أحضان الجهاد . وفي أول مايو 1851 تعرض بـوبغلة لخط المواصلات الرابط بين بجاية وسطيف وحكم بالقتل على بعض المتعاونين . فكان ذلك سبباً في هروب العديد من القياد والموظفين عند العدو إلى بجاية طلباً للحماية . وقـد أصبح الفـرنسيون في بجـاية محـاصرين لا يستطيعون الخروج منها . وكان الثوار يحرقون أملاك الكولـون بالقـرب من بجايـة ويضربون الطبول دون أن يستطيع (دي وينجي) قائد الحامية الخروج من الحصار .

أما الهجوم الكبير على بجاية فقد بدأ يوم العاشر من مايو 1851 . كان جيش بوبغلة حوالي عشرة آلاف من ضمنه بعض الفرسان . وقد نظم الجيش بحيث يتقدم في جرأة وإقدام مرتفع المعنويات عازماً على النصر . ركب بوبغلة فرساً سوداء وكان يرتدي برنساً أبيض . وكان يتقدم جيشه مظهراً شجاعة نادرة . وكانت له فرقة موسيقية تدق الطبول وتزيد في الحماس ، وله ثلاثة أعلام ذات ألوان حمراء وخضراء ، وكانوا يرددون أثناء تقدمهم عبارة (لا إله إلا اللّه) . وعندما اقتربوا من المدينـة ضربهم العدو بالمدافع ، ولكنهم استمروا في التقدم رغم بعض الاضطراب . وبعد تكرار الضرب بالمدافع وسقوط القتلى بدأ الجيش يتراجع ولكنه كان لا يتوقف عن إطلاق النار . كان بوبغلة يشجع أتباعه على الصمود . وقد حقق الهجوم بعض النتائج ولكنها ليست هي النتيجة التي كانت منتـظرة . فقد سقط مكـان القيادة الفـرنسية في يـد بوبغلة ، كما سقـطت دار التاجـر (ترونسي) ، كمـا ضرب الثـوار منازل وأمـلاك الفرنسيين في سهل بجاية . ومع ذلك ظل الفرنسيون محاصرين في بجاية لا يخرجون لمتابعة الثوار إلى أن وصلتهم النجدة من جيجل والجزائر عن طريق البحر[46] .

وقد أعاد بوبغلة تنظيم قواته وتلقي الطاعة والمعـونة من السكـان . وشملت الثورة حتى الذين كانوا خاضعين قهراً للعدو . ويقول أحد الكتاب الفرنسيين (فيرو) ان الناس توجهوا رجالاً ونساء وأطفالاً للإنضمام للثورة تاركين أوطانهم وأملاكهم ،

(46) التفاصيل في فيرو ، المرجع السابق ، ص 460 .

وحتى الذين ترددوا منهم أرسلوا الدراهم والأغذية سراً . وكان لتأييد سي الجودي أثر كبير على مسيرة الثورة ، وكان ابنه (أحمد) يجوب المنطقة ويجمع كلمة الناس حول الثورة ويأتي بالمجندين الجدد ؛ ويضيف ذلك الكاتب أن السلطات الفرنسية تلقت تقارير من القياد الذين عينتهم تقول إن القرى التابعة لهم أصبحت مراكز للمؤامرات ضد العدو ، وأن أهلها يغيرون على آقبو (لأن ابن علي الشريف لم ينضم للثورة) ، وأن الضيفات تقام للثوار في كل مكان مروا به ، وأنهم يدفعون الضرائب لبوبغلة ، وأنهم فرضوا الغرامات على المترددين ، كما أنهم عوضوا الموظفين المتعاملين مع العدو بشرفاء تابعين لبوبغلة . وهكذا أصبح يحيى أولحاج قائداً على قيفصار (Guifçar) والشيخ يوسف الموهوب خزناجياً لبوبغلة. ان بوبغلة قد أصبح في هذه الأثناء (1851) رمزاً للإستقلال[47] .

وبالإضافة إلى التنظيم المحكم عمل بوبغلة على نشر أفكاره بين الناس وأوضح لهم هدفه وغايته من الحرب، معتمداً على نصوص دينية تذكرنا بطريقة الأمير عبد القادر . ولا شك ان الغاية الوطنية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الخطاب الديني اذ من أجل الدفاع عن الدين يهون كل شيء عند الناس. عثر بعض الباحثين على نص منشور وزعه أنصار بوبغلة استعمل بالإضافة إلى الخطاب الديني أسلوب الإثارة والحمية جاعلاً الناس ينتظرون النجدة من القوى الإسلامية أيضاً مثل الدولة العثمانية والدولة المغربية . وقد مزج كل ذلك بالآيات والشعر الديني . وهذه فقرات من ذلك المنشور نترجمها عن ترجمة فيرو ، أما الأبيات والآيات والعبارات فغير مترجمة :

« الحمد للّه وحده يا أيها الذين آمنوا باللّه ورسوله . . . لقد جئت لتخليص البلاد من ربقة النصارى . ان سلطان تركيا يحاربهم في نواحي الصحراء ، وقد قتل منهم وأخذ أمتعتهم[48] ، وان سلطان الغرب (المغرب) قد استولى على ثلاث مدن لهم في الغرب ، وهو يتقدم نحو مدينة الجزائر[49] ، وسيخبرني بالعمليات فيما

---

(47) نفس المصدر ، ص 451 .

(48) لعله يشير بذلك إلى ثورة شريف ورقلة التي كانت قد انطلقت بتأييد من الدولة العثمانية وممثلها في طرابلس ، أو يشير به إلى الثورة التي حدثت في الزيبان بقيادة بوزيان .

(49) ليس هناك ما يؤكد هذه الدعوى ،ولكن أحوال الغرب الجزائري كانت ما تزال مضطربة منذ نهاية 1847

بعد ، فكونوا يقظين ، واستعدوا للجهاد . . . ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ .

وفي أعلى المنشور طابع كبير فيه بيتان من قصيدة البردة للبوصيري وعبارات دينية هي :

« ومن تكن بـرسول الله نصـرته　　إن تلقه الأسد في آجـامها تجم

وكلهم من رســول الله ملتمس　　غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

(نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ، اعتمد على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم) . أما التوقيع فهو « المتـوكل على اللطيف ، عبـده محمد بن عبد الله بوسيف » (1266)[50] .

وكان بوبغلة يلتجىء إلى هذه الرسائل (المناشير) يقوي بها عزيمة المحاربين والأنصار ، ويهدد بها المترددين والعملاء . ومن ذلك منشور آخر أعلن فيه أن هروب القياد والشيوخ من مراكزهم التي عينهم فيها العدو ، دليل على ضعف الفرنسيين في الجزائر الذين أصبحوا كالنساء غير قادرين على اجتياز جدران بجاية . وأعلن لأتباعه وهو يحمسهم ان رصاص العدو لن يؤثر فيهم ما دام الله إلى جانبهم . ومن أبـرز الدعاة لقضية بوبغلة الحاج مصطفى الذي عينه خليفة عنه في جبال بوطالب . وقد كثرت الإشاعات عندئذ وكلها تهدف إلى رفع الروح المعنوية والتعلق بأمل النصر . من ذلك أن الحاج مصطفى المذكور ما هو إلا أحد أقارب الأمير عبد القادر[51] . كما أشيع ان الأمير نفسه قد غادر فرنسا وعاد إلى الجزائر مع الأسرى الذين كانوا معه ، وأن الثورة عامة في كل القطر الجزائري . وكانت هـذه الإشاعـات تروج على يـد مبعوثين سريين هنا وهناك ، ومعهم مناشير يحملونها سراً ويقرؤونها علناً . ولا شك أن الهدف منها إثارة الحمية الدينية والوطنية ، وهي الحميـة التي يسميها الكتـاب الفرنسيون « تعصباً » .

اشترك في رد هجوم بوبغلة على بجاية قواد منهم بوسكي وكامو وسانطارنو، ولا نرى داعياً لذكر قائمة أسمائهم كلها هنا . أما من العمـلاء فنذكـر المترجم أحمـد

---

(50) فيرو (المجلة الافريقية) م مرجع سابق ، ص 450 .

(51) كان للأمير أخ يدعى مصطفى ، وهو الذي ولاه بعض الوقت خليفة على المدية ، وأرسله في مهمة إلى الزيبان والحضنة . كما كان صهره وخليفته على معسكر يدعى مصطفى بن التهامي .

خاطري ، وأفراد من عائلة أورابح ، وآخرين من عائلة أولاد مقران ، وبلقاسم أوقاسي ، الذي سبق أن تولى للأمير على منطقة سباو . وقد خاف محمد السعيد ابن علي الشريف فترك الزاوية ولجأ إلى الجزائر ثم فرنسا . وبعد وصول النجدة خرج العدو من بجاية وضرب جيش بوبغلة من البر والبحر . وقد عانى الذين وقعوا فريسة في قبضة العدو من الإرهاب المعنوي والمادي . وبعد حرق المنازل وإتلاف المؤونة وتشريد الأهالي نصب العدو حامية على الجانب الأمامي لوادي الصومام ، وبنوا لذلك برجاً في الجبابرة .

وخلال 1852 تراجع بوبغلة إلى جرجرة بعيداً عن بجاية . وقام بإصدار منشور لأتباعه يدعوهم فيه إلى الثبات وفتح قلوبهم إلى اللّه . وكان يقوم بإصلاح ذات البين ، ويرسل مساعديه لتثبيت الناس وحل مشاكلهم التي كان يزيدها تدخل العدو تعقيداً . وفي 14 يناير من نفس العام جرت معركة (أقمون) التي دارت فيها الدائرة على العدو وعملائه . وكان ذلك مشجعاً لإلتفاف الناس من حوله (بوبغلة) ، إذ بقي مسيطراً على الساحة . وكان بوبغلة يتردد بين بني مليكش وبني صدقة ويزور القرى هنا وهناك ، ويهاجم المواقع الفرنسية ويهدم ما كانوا يبنون من حاميات أو مصانع أو مستوطنات . وفي نفس العام جرت معركة في تامزوت كان النصر فيها حليف بوبغلة أيضاً.

إن المعارك التي جرت في بلاد زواوة وفي نواحي بجاية وفي نواحي سيباو تكاد تكون معارك يومية . ذلك ان الفترة من 1850 إلى 1854 كانت فترة حرجة حاول العدو فيها تثبيت وجوده بالقوة ، كما أبدى السكان هناك بقيادة بوبغلة كل أنواع الإستماتة في الدفاع عن أرضهم ودينهم وشرفهم . والذي يقرأ ما كتبه بول أزان عن « تأديب » جنرالات العدو (خصوصاً سانطارنو وبيليسييه) للسكان المتمردين يعرف مدى تغلغل الثورة في النفوس ومدى تصميم العدو على كسب المعارك مهما كانت الوسائل. إن عبارة: قتلوا وأحرقوا وخربوا وعاقبوا تتردد في كل صفحة تقريباً من كتابه . ويفهم المرء من ذلك أن مهمة جيش الفرنسيين هي الاحراق والهدم والقتل . ومن ثمة يمكننا أن نقول أن جميع قرى ومنازل أهل زواوة ، وجرجرة عموماً ، كلها بنيت من جديد بعد أن عبثت بها نيران الجيش الفرنسي[51م1] . كل هذا ونحن ما نزال في سنة 1854 .

(51م1) انظر ما كتبته بول أزان عن معاقبة أنصار بوبغلة في (الاحتلال والتهدئة) ، 416 ـ 419 .

لقد قاوم بوبغلة حوالي خمس سنوات جعل بلاد زواوة خلالها مقبرة للعديد من ضباط الجيش الفرنسي وجنوده المرتزقة ، كما جعل السكان يتدربون على المعارك التي ما زالوا سيواجهونها ضد العدو . ولعل من أبرز ما يخرج به المرء من دراسة حركته أنها أخرجت الناحية كلها من عزلتها الجبلية وجعلتها تعيش الواقع الجديد الذي أصبحت عليه الجزائر كلها ، وهو الاحتلال الفرنسي المفروض على الجميع بقوة الحديد والنار . وقد واجه بوبغلة الانتصار والهزيمة مثل كل القواد الكبار . وإذا كان قد خسر حليفاً قوياً هو سي الجودي (الذي قبل مؤقتاً بالتعاون مع الفرنسيين ، ابريل 1852)(51م2) ، فإنه وجد في للافاطمة قوة معنوية هامة . ويبدو أن بوبغلة لم يكتف بالتأييد المعنوي منها بل أراد زواجاً سياسياً بها يرتبط به ارتباطاً مصيرياً بأهل الناحية . ولكن ذلك لم يتم(51م3) . فقد قتل يوم 26 ديسمبر 1854 ووري جثمانة التراب في (تازمات) ولكن علم الجهاد الذي رفعه تلقفته أيادي أخرى لا تقل قوة ومضاء(52).

منذ تعيين الجنرال راندون في 11 ديسمبر 1851 حاكماً للجزائر جاء بأوامر لمهاجمة الثورة في جرجرة . وكانت تلك الأوامر تقوم على مخطط مفاده أن احتلال الجزائر سيظل ناقصاً وغير آمن إذا لم يستكمل بإحتلال جرجرة ثم الصحراء . وإن المعارك التي عرفتها جرجرة منذ ذلك الحين تدخل في المخطط المذكور . فالإحتلال بأي ثمن كان الشعار الذي جاء به راندون .، والثمن هو اتباع خطى بوجو في الحرق والإرهاب والإحتشاد والنفي إلى الجزر النائية . ولكن بقدر ما كان العدو قاسياً في معاملته وحربه بقدر ما كان أهل جرجرة شداداً في حربهم وجهادهم . يضاف إلى ذلك أن عزم الفرنسيين على الدخول إلى جانب الدولة العثمانية في حرب القرم جعل

(51م2) نقول « مؤقتاً » لأننا سنجده يعود إلى أحضان الثورة في مرحلة أخرى .

(51م3) كانت للافاطمة ما تزال في عصمة رجل آخر أبى أن يطلقها حتى لا تتزوج من غيره ، رغم انها كانت تعيش في زاويتها بعيدة عنه ، ودع عنك ما رددته الأقلام الفرنسية من وجود علاقة عاطفية بين بوبغلة والمرابطة فاطمة . فقد كان متزوجاً من ثلاث نسوة وله منهن أبناء . وكان يبحث عن حليف سياسي لا عن خليلة ، كما يدعي فيرو (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 448 .

(52) في دراستنا لحياة بوبغلة اعتمدنا ، بالإضافة إلى من ذكرنا ، على دبلوم دراسات معمقة ، أعده الباحث محمد سي يوسف بجامعة الجزائر 1981 ، وهو ما يزال مخطوطاً ، كما أن لنفس الكاتب نقداً مخطوطاً لكتاب الطاهر أو صديق بعنوان (بوبغلة) ، والنقد لم ينشر بعد ولكنه سلمني نسخة منه مشكوراً .

راندون « يعجل » بالقضاء على الثورة في جرجرة قبل توجه الجيش إلى البحر الأسود . ولكن استشهاد بوبغلة لم يضع حداً للثورة ، كما لاحظنا .

واصل أهل زواوة ثورتهم بين 1855 ـ 1857 بقيادة جديدة ، قيادة امرأة مرابطة لا قيادة رجل شريف . ولم تكن للافاطمة امرأة كالنساء العاديات ، ولكنها كانت تمتاز بخصائص لا توجد إلا في النوادر منهنَّ فهي امرأة تمتاز بالأدب والجمال والذكاء . وهي بنت حسب ودين . ولدت حوالي 1830 لأبيها الشيخ الطيب الذي كان يسهر على زاوية ورجة الرحمانية . وكان لها أربعة اخوة ، أشهرهم وأكبرهم سي الطاهر . وبعد طفولة قضتها في العمل المنزلي وفي التعلم تزوجت وهي بنت ست عشرة سنة زواجاً غير ناجح فعادت إلى بيت أهلها ولكن زوجها أبقاها في عصمته ولم يسرحها بإحسان . ولا شك ان ذلك كان حديث النسوة ، خصوصاً ان خطابها الذين طلبوا يدها كانوا يلقون نفس الجواب ، ومنهم على ما قيل ، الشريف محمد الهاشمي والشريف بوبغلة . ولعلها هي قد وجدت العزاء عن الحياة الزوجية في العمل على رأس زاوية ورجة عازمة أن تجعل منها مركزاً قوياً للزيارات والعوائد والجهاد . ولعل شيخها الحاج عمر الذي كان على رأس الطريقة الرحمانية الأصلية ، كان يشجعها على ذلك وقد لاحظ فيها الطموح البارز والشخصية القوية .

لم تترك للافاطمة علم الجهاد يسقط بعد بوبغلة . فقد استمرت الثورة في أنحاء جرجرة تحت تأثيرها . صحيح ان العدو تمركز في بجاية وتيزي وزو ودلس وسيباو الخ . وصحيح انه وجد في بعض العناصر خداماً ومتعاونين ولكن الشعب في بني راتن ، وايشريضن ، وبني منقلات وبني يني الخ . كانوا رافعين لعلم الثورة . يهددون المراكز الفرنسية ويضربون المتعاونين ، ويرفضون دفع الضرائب والخضوع لحكم الأجنبي . منذ 1855 ظهر أشراف آخرون منهم الشريف بوحمارة ، ولكن مدته لم تطل ، وبقي اسمه الحقيقي مجهولاً . ثم كانت سنة 1856 مليئة بالأحداث حيث انتشر جيش العدو في جرجرة يريد اخضاع الناس بالقوة ولكن الزاوية الرحمانية الأم دخلت الميدان بقيادة شيخها الحاج عمر الذي رمى بثقله في المعركة . ورجع سي الجودي إلى الثورة ، كما انضم اليها الصادق بن أعراب . فاجتمعت قوات هائلة لمحاربة العدو الذي كان يفوقها عدة وسلاحاً .

وكان راندودن يخطط «لإستكمال» عملية الإحتلال وتتويج إدارته للجزائر بعصا

المارشالية والصعود إلى أعلى جرجرة . وقد اغتنم فرصة عودة الجيش من حرب القرم ووضع خطة الهجوم الكاسح على جرجرة ، ولم يكتف بانتظار النتائج بل خرج بنفسه على رأس الحملة ، كان ذلك في السنة الموالية (1857) . وفي قلب جرجرة وضع راندون الحجر الأساسي لقلعة سماها (قلعة نابليون) في سوق الأربعاء واختار لها تاريخ 14 يونيو ذكرى نزول القوات الغازية ساحل سيدي فرج 1830 . وقد حضر الأب سوشي الحفلة باسم الكنيسة وبارك الأرض التي ستقام عليها القلعة وسط دقات طبول الجيش ودمدمات المدافع . ولكن معركة ايشريضن (24 يونيو 1857)[53] أعطت للعدو درساً لا ينساه وهو أن أهل جرجرة مستعدون للدفاع حتى الموت عن أرضهم . ولم يبق الاّ اخضاع للافاطمة والقبض عليها حية أو ميتة ، لأنها كانت تمثل عندئذ روح المقاومة المستميتة . وبعد استعمال الوسائل المعروفة من حرق وحشد وقتل جماعي أسرت الزعيمة فاطمة وهي مرتدية ثياباً حمراء رمزاً للدم والمقاومة والحرية. وكان ذلك في 11 يوليو، وقد جيء بها إلى معسكر راندون فأمر بسجنها.

وهكذا انتهى فصل من فصول المقاومة في بلاد جرجرة . أسرت للافاطمة وحملت إلى سجن بتابلاط حيث ظلت إلى وفاتها سنة 1863 ، وهي ما تزال لم تفقد نضارتها . ودفنت في احدى زوايا بني سليمان . وقبلها بسنتين توفي أخوها الأكبر (سي الطاهر) . وفي نفس السنة (1863) توفي سي الجودي ولكن في حيفا بفلسطين وكان قد هاجر إلى سورية سنة 1857 . وحوالي نفس الوقت هاجر الحاج عمر أيضاً تاركاً الزاوية الرحمانية لرعاية الله والأهالي كما قال ، وقد اختار مكة للإقامة . ولا نعرف مصير ابن أعراب . ويذكر بعض الكتاب ان من بين رفاق الحاج عمر في هجرته إلى المشرق شخصين تبناهما : بنت الشريف المولى إبراهيم الذي سبق ذكره وعرفنا دوره في حصار بجاية والذي كان العضد الأيمن لبوبغلة ، ثم ولد الشريف بوبغلة . وقد هاجرت مع الحاج عمر زوجه أيضاً ، وهي التي يقال إنها تدخلت لإنقاذ عائلة بوبغلة حتى لا يسلمها مضيفها إلى الفرنسيين[54] .

---

(53) خلال حكم جول كامبون 1891 ـ 1897 أقام نصباً تذكارياً في مكان هذه المعركة تخليداً لقتلى الفرنسيين فيها . انظر الفصل الأخير .

(54) انظر فرج محمود الصغير (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو ، 1979 ، 136 ـ 137 . ومما ذكر أن أحد أبناء سي الجودي قد توفي بدمشق سنة (1866) ، أما ابنه الآخر فقد رجع إلى الجزائر في نفس التاريخ .

صادر الفرنسيون اذن أملاك هؤلاء الزعماء ، بما في ذلك مكتبة سي الطاهر أخ للافاطمة ، واعتدوا على حرمة الزاوية الرحمانية . اما بقية المشاركين في الثورة فإنهم بعد أن أحرقت قراهم وأتلفت مؤونتهم ، الخ . غرموا غرامات باهظة وفرضت عليهم ضرائب حرب فردية وجماعية ، كما صودر ما تبقى من املاكهم . وأختتم هذا الفصل بنفي العديد منهم إلى بعض الجزر الفرنسية النائية حتى لا يسمع أحد أو يسمعوا شيئاً عن أهلهم ووطنهم . والغريب أن العقيد روبان يلوم الذين انضموا للثورة تحت تأثير عقولهم الضيقة ، ذلك أنهم لم يفهموا في نظره « تفوق الحضارة الفرنسية والدخول في طريق التقدم[55] » . وهو يشير بذلك إلى سي الجودي ، ولكن مقولته تصدق على كل من فضل الحرية على العبودية والمقاومة على الإستسلام في الجزائر .

* * *

8. في الصحراء : ورقلة ، الأغواط

أما النقطة الثانية في مخطط راندون فهي احتلال مشارف الصحراء . وقد عرفنا أن الصحراء كانت تشهد عمليات عسكرية ضد ثوار الزيبان والأوراس الجنوبي (الزعاطشة الخ .) ولم تكد تأتي سنة 1850 ـ 1851 حتى اندلعت الثورة في أجزاء أخرى عديدة من الصحراء ، من أولاد سيدي الشيخ غرباً إلى وادي سوف شرقاً . وقد ظهرت قيادات جديدة تمثلت هذه المرة في شريف آخر يدعى أيضاً محمد بن عبد الله وشخصية حيوية أخرى مناهضة للعدو هو الناصر بن شهرة . وهكذا كان الجنوب في الخمس سنوات الأولى من حكم راندون يغلي بالثورة كحرارة شمسه . ولنتذكر دائماً أن تلك الخمس سنوات كانت أيضاً تشهد ثورة بوبغلة وخلفائه في جرجرة.

وخلال الأربعينات كان الوضع في الجنوب قد تأثر بالأحداث التي جرت في الشمال ، ولكنه كان ما يزال خارج السلطة الإستعمارية المباشرة . لقد سبق للفرنسيين أن نصبوا خلفاء وقيادا في الأبيض سيدي الشيخ والاغواط وتسربوا إلى تيارت وبسكرة وتراسلوا مع حكام تقرت وغيرها . ونلاحظ أن ورقلة وميزاب وسوف كانت ما تزال خارج هذه الاتصالات . ومن ثمة كانت مطمعاً للثائرين الذين كانوا يبحثون عن نقطة ارتكاز ينطلقون منها لمحاربة العدو الذي أخذ يستقر في الشمال .

---

(55) روبان (المجلة الافريقية) ، 1870 ، 350 ـ 352 .

ومن أولئك الثوار الطموحين : محمد بن عبد الله المعروف بشريف ورقلة في الكتابات الفرنسية . فمن هو؟

رغم الأضواء الأخيرة التي سلطت على حياة هذا الرجل فإن الغموض ما يزال يكتنفها . ويعود ذلك إلى الدور ، بل الأدوار ، التي لعبها في الحياة السياسية والعسكرية بالجزائر وخارجها . ان الوثائق العربية المتوفرة لا تذكر عنه شيئاً حسب علمنا . وأما الوثائق الفرنسية فتقدمه في صورة « المغامر » الذي لا يثبت على حال والطموح الذي ليس لطموحه حدود . وهي تقدمه على أنه من خصوم الأمير الذين انضموا (1841) إلى الفرنسيين ، ثم حقد عليهم أو حقدوا عليه ، فخرج من الجزائر بدعوى الحج ، وبعد الإتصال بحياة الشرق والإصلاح الوهابي والمطامع السياسية العثمانية ، عاد إلى الجزائر رافعاً علم الجهاد . ولكن ذلك ليس كل شيء عنه انه ليس شريفاً مجهولاً في نظر الوثائق الفرنسية كمعظم الأشراف الذين رفعوا علم الجهاد في الجزائر . بل اسمه الحقيقي هو إبراهيم بن أبي فارس (عبد العزيز ؟[56]) . وكان يضيف كلمة (المدني) لتوقيعه الرسمي ، ولعل ذلك إشارة إلى المدينة المنورة التي قد يكون أقام بها فترة ، واظهاراً للطابع الديني لحركته . وتذهب الروايات إلى أنه من عائلة أولاد سيدي الشيخ ، وأنه تلقى العلم في أولاد احمد بن يوسف قرب تلمسان . ثم علم في زاوية سيدي يعقوب من أولاد سيدي الشيخ . وتذهب رواية أخرى إلى أن إبراهيم بن أبي فارس كان « أداة » في يد أحد الطموحين المعين من قبل الأمير عبد القادر ، وهو آغا الغسول المسمى : مولاي الشيخ علي ، الذي كان غير راض بحكم البوحميدي خليفة الأمير على تلمسان ، فهو إذن (أي إبراهيم) « صنيعة شخص طموح من أجل أهدافه الخاصة[57] » .

أما إبراهيم بن أبي فارس فيذكر في رسالة له الى الملك الفرنسي أن « الناس »

---

(56) على أساس أن كنية من اسمه عبد العزيز هي أبو فارس .

(57) غبريال ايسكير (المجلة الافريقية) ، 1927 ، 438 . ويذكر مانجان في كتابه (تاريخ الأغواط) إن إبراهيم كان مرابطاً بسيطاً في أولاد أحمد بن يوسف ، من عرش الغسول ، ويقطنون شمال تلمسان ، وانه كان إلى سنة 1840 يعلم في زاوية سيدي يعقوب ممن أولاد سيدي الشيخ ، وكان مشهوراً بالتقوى . ومنذ 1840 شعر بسمعته الدينية تزداد انتشاراً فخرج على رأس قبائل الطرارة والغسول وبني عامر لمحاربة الفرنسيين مع الآغا مولاي الشيخ علي . ولكن هذا الآغا خرج عن طاعة الأمير وتبعه إبراهيم الذي أصبح منذئذ يحارب باسم (محمد بن عبد الله) .

قد دعوه للحرب ضد الأمير وذكر منهم جماعات . والمعروف أن الأمير في هذه الأثناء (39 ـ 41) كان يخوض حرباً مفروضة عليه ضد العدو بعد أن انتهك فاليـه حاكم الجزائر العام بنود معاهدة التافنة . ثم جاء بوجو (1841) وفي رأسه خطة واحدة وهي القضاء على مقاومة الأمير ، ولو أدى ذلك الى التعاون مع أعدائه . وفي هذا النطاق تظهر شخصية ابراهيم هذا . فقد عينه بوجو (1842) خليفة علي تلمسان بعد سقوطها في أيدي الفرنسيين . ولكن هؤلاء سرعان ما لم يطمئنوا لسلوك ابراهيم معهم واتهموه بالتقصير والعجز « فنصحوه » بأداء الحج حتى لا يجعلوا منه خصماً جديداً ، ولم يكن هو ينوي الحج وإنما اعتبره نوعاً من النفي غير الرسمي . فحزم حقـائبه ورحل من الجزائر في تاريخ غير مضبوط ، ولكن بعض الوثائق تشير الى أن « النفي » وقع سنة 1845 ، عام انتفاضة الظهرة الشهيرة . ولا ندري الأماكن التي مرّ بها ولا الأشخاص الذين جلس اليهم قبل وصولـه الى مكة .أما أثناء اقامته بمكة المكرمة فالمعروف أنه تتلمذ على الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي سبقه الى مكة مهاجراً أيضاً من الجزائر بعد احتلالها[58] . ولعله تتلمذ أيضاً على آخـرين فهو يـذكر في رسائله بعد رجوعه الى الجزائر أنه درس في الاسكندرية والحجاز ، وقد يكون توقف بالأزهر أيضاً اذ قلما يذهب المتعلمون الى مصر دون الدرس والتتلمذ بالأزهر.

هذا عن الجانب العلمي من حياته ، أما الجانب السياسي فتذكر المصادر أن ابراهيم قد اتصل أيضاً بالسلطات العثمانية في المشرق ، ولعلها هي التي اتصلت به . والمعروف أن هذه الدولة لم تعترف رسمياً باحتـلال فرنسـا للجزائـر إلاّ سنة 1847 . وكان الشيخ السنـوسي الذي بنى زاويـة في جبل قبيس وتـأثر بـالاصلاح الوهابي دون تقليده ، يجد أيضاً الرعاية من الدولة العثمانية وممثليها في الحجاز . ومما يذكر أن الشيخ السنوسي عارض مهمة (ليون روش) الجاسوس الـذي أظهر الاسلام وجاء يستفتي علماء الحرمين باسم بوجو ، في واجب المسلمين اذا تغلب عليهم النصارى هل يستمرون في حربهم والخروج عنهم أو يتوقفون ويقبلون الأمر الواقع . ولا ندري إن كان ابراهيم المذكور قد حضر المجلس الذي طـرحت فيه النازلة ، ولكنه لاشك قد علم بها ، اذا لم يكن قد حضر ، من شيخه السنوسي .

(58) ينفرد ايسكير بالقول بأن الفرنسيين هم الذين « طردوا » السنوسي من الجزائر ، ص 437 . والمعروف أن السنوسي خرج من الجزائر نحو المغرب ثم إلى الحجاز .

وكان موقف السنوسي عندئذ ضرورة استمرار الجهاد وعدم التعايش مع النصارى . ونحن لا نملك كيف تم الاتفاق على التعاون بين الأطراف الثلاثة (الدولة العثمانية ، السنوسي ، ابراهيم) ولكن الذي لدينا هو أن ابراهيم رجع بمباركة السنوسي مع الحاكم العثماني الجديد لطرابلس (عزت باشا) ، وبعد إقامة تحضيرية معينة[59] دخل ابراهيم الى الجزائر عن طريق غدامس واستقر في ورقلة .

متى حل ابراهيم بورقلة ؟ وكيف بدأ نشاطه ؟ ليس هناك تاريخ محدد لوصوله ورقلة . اذ عندنا ثلاثة تواريخ هي 1849 ، 1850 ، 1851 . ونحن لا نملك وثيقة أخرى الآن نرجح بها أحد التواريخ ، ولكن يبدو أن التاريخ الأول قد يكون هو الأصح لأننا عرفنا أن أحداث الزيبان التي وصلت أصداؤها الى وادي سوف والجريد (نفطة ، توزر الخ .) وطرابلس ، قد تكون شجعت السلطة العثمانية هناك والحركة السنوسية على التعاون مع ابراهيم لتوسيع نطاق الثورة . كما أن انطلاقة بوبغلة في جرجرة واعلانه عندئذ 1850 بأن السلطان العثماني موجود بالجنوب وسيأتي لنصرتهم ، كل ذلك يساعد على ترجيح التاريخين الأولين . أما عن نشاطه فإن إبراهيم قد تسمى منذئذ باسم الشريف محمد بن عبد الله اخفاء لاسمه المعروف للسلطات الفرنسية ، واضفاء للطابع الديني على حركته كوسيلة لتجنيد العامة . وقد يساعده على ذلك كونه عائداً لحينه من الحجاز أرض الاسلام الأول . ولا شك أن الشريف الجديد أخذ في التعرف على الخريطة السياسية والاجتماعية للمنطقة ، وأنه اتصل عن طريق الرسائل ونحوها بعدد من المرابطين وذوي النفوذ . وقد جاء في مراسلاته أنه لقي التأييد من الشعانبة والأرباع وطرود وأولاد نائل ، وأنه راسل بني سناسن الخ .

كان الوضع في الصحراء يساعد على حركة كحركة الشريف ابراهيم . فقد توفي الحاج أحمد ابن بابية « سلطان » ورقلة سنة 1850 ، وكانت السلطة في يد للازهرة وولد عبد الله (؟) بن خالد . ويقال ان الشيخ السنوسي قد أوصى الشريف خيراً بلالا زهرة والاستعانة بها ، ولعلها كانت تتبع الطريقة الشيخية (شاذلية) . ومن

(59) يقول أحد التقارير أنه مرّ بالجبل الأخضر واتصل هناك بالشيخ السنوسي . مذكرة أعدتها مصالح الولاية العامة بالجزائر ، 1885 في (المجلة الافريقية) ، (1923) ، ص 381 ـ 442 . ذكر الأول ايسكير ، مرجع سابق ، وكذلك مانجان (تاريخ الأغواط) ، ومقالاته في (المجلة الافريقية) ، 1895 ، ص 273 ، والثاني مذكرة الولاية العامة ، مرجع سابق ، والثالث شارل فيرو (المجلة الافريقية) ، 1886 ، ص 424 .

ثمة نقرأ في المراجع أن السيدة زهرة عرضت السلطة في ورقلة على الشريف فقبلها وسمى نفسه أو سمته هي « سلطان ورقلة » ، ولكنه عرف في الوثائق الفرنسية بـ (شريف ورقلة) ، كما ذكرنا . وكان أبو حفص عمر ابن الحاج بابية يطمح الى أن يكون هو السلطان . أما بنو جلاب بتقرت فقد كانوا أيضاً منقسمين على أنفسهم ، خصوصاً السلطان عبد الرحمن ومنافسه سلمان الذي تعاون مع الشريف ، وفي ذلك التنافس كان اللجوء الى السلطة الأقوى هو الحل . كما كان زعيم الأرباع : ابن ناصر بن شهرة ناقماً على تعاون الخليفة أحمد بن سالم بالأغواط مع الفرنسيين . ورغم أن حمزة آغا أولاد سيدي الشيخ كان قد أيد الثورة في ورقلة فإن عائلته الكبيرة لم تكن كلها متفقة على نفس الموقف . وأما ميزاب فقد كانت السلطة فيها للعزابة وكانت تفضل الحياد ولكنها في كثير من الأحيان كانت تجد نفسها في أتون الثورة.

بعد بقاء الشريف مدة في ورقلة أخذ في مهاجمة المتعاونين مع الفرنسيين. وكان هدفه الاستيلاء على تقرت ثم الأغواط. وقد ظهر نشاطه في صيف 1851. بدأ أولاً بتقرت. فقد استولى على نقوسة ودخل تماسين دون حرب. وتضخم جيشه من وادي ريغ والشعانبة وسعيد عطبة . وقد شجعه على الاستيلاء على تقرت أن سلمان الجلابي منافس لسلطانها عبد الرحمن ومستعد للتعاون مع الشريف للقضاء على خصمه . ولكن سلطان تقرت (عبد الرحمن) خرج الى الشريف فارتد هذا الى ورقلة. وبعد ذلك انضم ناصر بن شهرة الى الشريف . وراسل الشريف كذلك ابن الأحرش في الجلفة طالباً منه الانضمام الى الثورة ، وانضم اليه أولاد يعقوب بجبل عمور . وفي أوائل 1852 هاجم الشريف الأغواط ولكن المدافعين عنها أوقفوه نواحي ميزاب . ولم يستطع ابن الأحرش الذي رد هجوم الشريف أن يكمل عملياته فرجع دون نصر ، كما هرب أحمد بن سالم من الأغواط الى المدية محتمياً بالسلطة التي عينته . واكتسب الشريف قوة هائلة بانضمام الآغا حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ ، الى ثورته (مارس 1852) ، وفي نفس الوقت نجح سلمان الجلابي في القضاء على ابن عمه عبد الرحمن وتولى سلطنة تقرت بدله ، وهذا الانتصار يعد انتصاراً للشريف أيضاً.

وأثناء تغيب الشريف عن ورقلة حل بها أبو حفص ابن بابية وادعى أنه خليفة الفرنسيين عليها . ولكن أبا حفص لم يستطع الثبات أمام الثورة فهرب الى تيارت

تاركاً ورقلة للشريف ، فبنى فيها هذا قصبة لادارة حكمه ورتب الجند وكتب عدة رسائل الى المسؤولين ، ومنهم حمزة آغا أولاد سيدي الشيخ . وأثناء الهجوم على تقرت واجهه عبد الرحمن الجلابي ، ولكنه عند دخول تماسين وجد محمد العيد التجاني من (التجانية) واقفاً على الحياد من الحرب.

وكل هذه عوامل كانت تساعد الشريف على افتكاك الأغواط . قضى الصيف في ميزاب يستعد لذلك . وكان يرد هجمات ضباط المكاتب العربية (بان) و (ديفو) . وفي اكتوبر احترب الشريف مع الجيش الفرنسي عند الأغواط بقيادة بيليسييه واللقيط يوسف . وتمكن في نوفمبر من دخولها بمساعدة ابن شهرة . وبعد معركة حامية الوطيس (4 ديسمبر 1852) اضطر الشريف الى الخروج من الأغواط مخلفاً وراءه ضابطين صريعين للعدو أحدهما برتبة جنرال ، وهو بوسكارين ، وموران[60] .

إن المعارك التي خاضها سكان الجنوب بقيادة الشريف وأمثاله كثيرة ومن الصعب التوقف عند كل منها في هذا المجال . ويكفي أن نعلم أن كاتباً فرنسياً عاش قريباً من عهد هذه المعارك قال ان الصحراء كلها عندئذ (أوائل الخمسينات) كانت هائجة تموج تحت تأثير ابن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله[61] . وقد كان الأمر كذلك فعلاً . فقد لجأ الفرنسيون بعد احتلال الأغواط عسكرياً الى اتخاذ أسلوب جديد في المعاملة مع بعض الجزائريين وهو نصب حماية تضمن للطرفين واجبات وحقوقاً معينة دون اللجوء الى الحرب . ومن ذلك الاتفاق الذي وقع بين الفرنسيين وبين أهل ميزاب في 19 ابريل سنة 1853 .

لقد كان لأهل ميزاب مواطنون في المدن الشمالية الخاضعة للسلطة الاستعمارية ، وكانت لهم هناك مصالح تجارية حيوية أيضاً . ولذلك رضوا بدفع

---

6) اشترك العدو بقوة كبيرة في معركة الأغواط ، جاءت من الجزائر ومن وهران تعدادها 8 فيالق . و 8 سكدرون ومعهم مدافعهم . وهو السلاح الذي يفتقده الثوار . وكانت المدينة مسورة وكان الشريف داخلها يؤيده حماس أهلها . ولكن العدو استطاع أن يجد منفذاً في الحائط عند ضريح الحاج سيدي عيسى . وبفضل المدافع أجبروا الشريف على مغادرة المدينة ووضعوا جيشاً قوياً هناك بحجة أن الحاكم العام راندون قرر جعل الأغواط نقطة ارتكاز باعتبارها عتبة للصحراء كلها .

ـ انظر تروملي (المجلة الافريقية) ، 1877 ، ص 79 .

(61) كوين Coyne (المجلة الأفريقية) . 1879 ، 206 .

ضريبة سنوية للفرنسيين قدرها 45 ألف فرنك والاعتراف بحمايتهم . وتعهدت فرنسا على لسان راندون ، في مقابل ذلك ، بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأهل ميزاب ، مع امكانهم الاستمرار في التجارة مع المغرب وتونس ولكن بدفع ضريبة جمركية لفرنسا في الحدود كالتي تدفع على البضائع الأجنبية . ومن بين شروط الاتفاق أن فرنسا تحمي أهل ميزاب في المدن والتل الخ . وهم يتعهدون بعدم فتح أبوابهم لأعداء الفرنسيين ، الخ[62] . وقد فهم الفرنسيون أنه لا خطر على المصالح الفرنسية من هذا الاتفاق ، خصوصاً من الناحية السياسية ، اذ يكفي ، كما قال أحدهم ، أن تغلق فرنسا طرق التجارة مع الشمال في وجه الميزابيين ، وليس هناك حاجة الى أخذ الرهائن من مواطنيهم في الشمال عند الخطر . ولكن هذا الاتفاق لم يكن له ، كما سنرى ، أي معنى تقريباً ، مادام الفرنسيون أنفسهم قادرين على تمزيقه عند الحاجة ، كما حدث سنة 1882 ، ولكنه على كل حال كان أسلوباً جديداً في التعامل مع بعض الجزائريين ، لكسب الوقت فقط وتحييد بني ميزاب في وجه ثورة الشريف .

ولم تمض إلاّ حوالي سنة على الإتفاق المذكور حتى استعمل الفرنسيون القوة ضد تقرت ونواحيها . فقد ظهر الشريف بهذه المدينة عند صديقه سلمان الجلابي الذي أصبح الحاكم (السلطان) لتقرت ، كما عرفنا . ولعل سلمان هذا كان يطمح إلى توقيع اتفاق مع الفرنسيين شبيه بالإتفاق السابق مع الميزابيين . فقد نسب إليه الفرنسيون رسالة وجهها إلى راندون بتاريخ 1271 ـ 1854 يبدي فيها إستعداده للتعامل مع فرنسا . ويذكر فيرو أن الرسالة وصلت متأخرة لأن الحملة ضد تقرت كانت على قدم وساق[63] . ثم ان تعليمات راندون ، كما عرفنا ، هي فرض السلطة الفرنسية على الصحراء . وكانت الحملة ضد تقرت في خريف 1854[64] بقيادة

---

(62) نفس المصدر ، ص 205 . وكذلك أرشيف إيكس 89 H 10 .

(63) الرسالة في فيرو (المجلة الافريقية) 1879 ، ص 49 ـ 51 .

(64) يقول ماكماهون في (مذكراته) 257 ـ 259 (وكان عندئذ 1854 ، هو حاكم إقليم قسنطينة المسؤول على حملة تقرت) ان سلمان الجلابي كان يطمع في تنصيبه على تقرت من قبل فرنسا ، ولكن الحاكم العام (راندون) لم ير ذلك جديراً بفرنسا ، لأن سلمان قتل أفراد عائلته قبل توليه السلطة . ويبدو أن هذا إدعاء فقط ، لأن سلمان كان قد أعلن صداقته للشريف قبل رسالته إلى الحاكم العام ، ثم ان فرنسا تعاملت مع آخرين لا يختلفون عن سلمان .

(مارمييه) و (ديفو) و (بان) . وجرت المعركة الحامية في المقرين في آخر نوفمبر . ويذهب المارشال ماكماهون في مذكراته إلى أن الفرنسيين قد تعلموا من معركة الزعاطشة ، فأصدر تعليماته هو إلى ضباطه بأن لا يحاربوا الشريف و (السلطان) سلمان في الواحات بل خارجها ، وكذلك عدم مهاجمة تقرت مباشرة لأنها مدينة محاطة بأسوار حصينة وحولها خنادق واسعة مليئة بالمياه مما كان يشكل دفاعاً خطيراً . ومن ثمة جرت المعركة في المقرين وليس في تقرت نفسها . وعند وصول الحملة ، في 28 نوفمبر ، وجدت الشريف قد توجه إلى وادي سوف لجباية الضرائب ، أما سلمان فكان داخل تقرت . لم تكن المعركة حاسمة ، مع ذلك ، فالفرنسيون يذهبون إلى أن جيش الشريف كان يتألف من 800 فارس وألفين من الفنطازية ، وهم يدعون ، في غياب المصادر الجزائرية ، أن قوات الشريف خسرت 500 قتيل ، وأنها تركت أعلامها وألف بندقية وعدداً من السيوف وراءها ، وانسحبت لتقرت تتحصن بها . وأثناء الليل خرج منها الشريف ورفيقه سلمان . ولم تدخلها القوات الفرنسية إلا في اليوم الخامس من ديسمبر ، حسب رواية ماكماهون . ومنذ ذلك الحين عين الفرنسيون علي بن فرحات بن سعيد (عائلة بوعكاز) حاكماً على تقرت وسوف ونواحيهما بلقب (علي باي) .

ورغم الإستيلاء الفرنسي على الأغواط 1852 ، وتقرت وسوف 1854 - 1855[65] فإن جهاد الشريف لم ينته إلا سنة 1861 . حقاً انه لجأ إلى تونس بعض الوقت ربما للتداوي من جروحه ، وانه عاد إلى ورقلة بعض الوقت أيضاً . واستمر في إثارة سكان الصحراء الذين لم يتسلط عليهم العدو بعد ، خصوصاً الشعانبة والمخادمة وسعيد عطبة والأرباع ، وظلت بعض القبائل في جبل عمور كذلك موالية له . وكان الشريف يكرر الهجوم على تقرت ويهدد الأغواط وورقلة باستمرار إلى

---

(65) كان بعض أهل سوف سنة 1850 ، حسب ادريان بربروجر الذي زار سوف تلك السنة ، يدينون بالولاء السياسي لحاكم تقرت (بني جلاب) وبعضهم لتماسين (التجانية) وقد أخبر بربروجر ان سوف كانت تتألف من سبع قرى رئيسية . انظر (المجلة الافريقية) ، 295 - 296 . وقد أعلن الشريف ، كما أشرنا ، أن طرود ، وهم من سوف ، كانوا قد انضموا إليه ، كما عرفنا انه توجه بنفسه إلى سوف لجباية الضرائب مما يدل على موالاة أهل سوف له . ولكن الإستيلاء على تقرت ودخول (ديفو) مدينة الوادي في يناير 1855 أضعف نفوذ الشريف هناك ، رغم ان التأييد القوي للثورة ضد العدو قد استمر في سوف .

خريف 1861 . وفي الثاني من أكتوبر كان الشريف قد استقر من جديد في ورقلة وأخذ في تحصينها وجمع جيشه منها . ولكن العدو لم يتركه يستكمل تنظيم نفسه . فقد جند له جيشاً قوياً ووضع فيه عناصر بارزة من المرتزقة . ومن بين الذين قادوا الحملة ضد الشريف هذه المرة البشاغا بوبكر (من أولاد سيدي الشيخ) الذي اتجه من البيض إلى ورقلة[66] . خرج الشريف في 8 أكتوبر إلى نقوسة والتقى هناك بجيش العدو (وفيه سي الأعلى الذي سيظهر اسمه فيما بعد) ، وبعد الإقتتال اعتقل الشريف وأخذ أسيراً إلى قارة الحاج (رمال بوبروال ؟) ، وبعدها حمله الفرنسيون إلى وهران ثم إلى جزيرة كورسيكا حيث ظل سجيناً ، ثم نقل منها إلى سجن عنابة بعد أن داهمه المرض . ونحن نعرف أنه قد حل بعنابة سنة 1863 شبه ميت[67] .

ولكن صفحة المقاومة لم تطو باعتقال شريف ورقلة أو غيره من الأشراف والقادة . فمقتل بوزيان وبوبغلة ، واعتقال للافاطمة وشريف ورقلة لم يوقف عجلة التاريخ ولم يكبح جماح المقاومة . وسنرى ان عقد الستينات كان مثل عقد الأربعينات والخمسينات سلسلة أيضاً من المصادمات القوية مع العدو . وها هو ناصر بن شهرة قد ظهر حاملاً لواء الجهاد في الصحراء ولم تلن له قناة . وكان لا يترك فرصة ضعف للعدو إلا اغتنمها ضده ، وكان ينتقل كالبرق من شرق الصحراء إلى غربها ووسطها . ولم تكد تنتهي مقاومة شريف ورقلة حتى وجدنا ابن شهرة في صفوف الثائرين من أولاد سيدي الشيخ . وكانت التقارير الفرنسية تصفه « بالتعصب » و « عدونا الذي لا يلين » وكان ابن شهرة قد تكون أيضاً في مدرسة الأمير عبد القادر الحربية والوطنية ، وكان من فرسانه الشجعان ، وكان له تأثير كبير على الثوار في جمع الكلمة والإنضباط ونشر العاطفة الدينية والوطنية ، ولم تغره العروض ولا المساومات . كان دائماً في الصفوف الأولى أثناء المعارك متميزاً ببرنسه الأحمر . ويعد ابن شهرة من الشاهدين

---

(66) كان الآغا حمزة يحمل لقب (الخليفة) وهو أعلى ألقاب الولاية عندئذ . وكان قد اتهم بالتقصير في ورقلة فدعي إلى الجزائر ليجيب على الإتهامات (صيف 1861) ، وفي اوت توفي فخلفه ابنه بوبكر ، ولكن الفرنسيين انتزعوا من أولاد سيدي الشيخ لقب (الخليفة) وأعطوا بوبكر لقب (البشاغا) فقط . انظر (المحلة الافريقية) ، 1923 ، ص 407 .

(67) توفي في نفس السنة . أنظر نفس المصدر . ويذكر ايسكير (المجلة الافريقية) 1927 ، ص 438 ، مرجع سابق ، ان الشريف قد سجن في بيربينيو (Perpignau) فرنسا ، ثم في ولاية قسنطينة ، دون تحديد .

على أحداث القرن التاسع عشر في الجزائر اذ بدأ نضاله في صفوف جيش الأمير وظل على مبدئه وثورته إلى الثمانينات حيث عاصر أيضاً ثورة بوعمامة وناصره فيها .

ومع ذلك يقف شارل فيرو غاضباً على المجاهدين الذين حملوا السلاح ضد بلاده ، أمثال ابن شهرة والشريف ، لأنهم سرعان ما يستجيبون لداعي الجهاد ، وهم ، في نظره ، « جهلة جداً فلا يقدرون إنسانية الحضارة الأوروبية حق قدرها » . وهم دائماً ، في نظره أيضاً ، « لا يفكرون في الوجود الفرنسي الاّ على أنه سحابة عابرة ، ولذلك فهم يعملون دائماً على طردنا من أرض الإسلام »[68] .

***

9. من الأوراس إلى بني سناسن :

يمكن لنا أن ننظر إلى ثورة الأوراس عام 1858 على انها فصل آخر من فصول المقاومة الوطنية التي يغذي بعضها بعضاً ويتوارث شرارتها الصغير عن الكبير ، كما يمكننا أن نعتبرها استمراراً لثورة الطريقة الرحمانية التي شهرت السلاح في عدة أماكن ومنها الأوراس نفسه (الزيبان) على يد الشيخ عبد الحفيظ (1849) ، وجرجرة على يد للافاطمة والحاج عمر (1857) . ذلك أن الشيخ الصادق بن الحاج كان من مقدمي تلك الطريقة في واحة سيدي المصمودي ، مجازاً من قبل الشيخ محمد بن عزوز البرجي . وأصله ، كما قيل ، من أولاد سيدي منصور ، وهو من أولاد يوب . عاش مرابطاً في جبل أحمر خدو قرب بسكرة بعيداً عن الإختلاط بالفرنسيين ولكنه برز أثناء الثورة سنة 1849 بالزيبان فساعد الشيخ عبد الحفيظ بسريانة ثم هب على رأس فرقة هامة ومعها 700 بندقية للدفاع عن المحاصرين في الزعاطشة ، ولا ننسى بهذا الصدد أن أصداء ثورة شريف ورقلة وابن شهرة كانت تصل إلى الأوراس ، وهي

---

(68) فيرو (المجلة الافريقية) 1879 ، 54 . بالإضافة إلى المراجع التي ذكرناها عن أحداث الصحراء حتى الآن ، نشير أيضاً إلى أرشيف إيكس 27 H 2 ، ويشير بالخصوص إلى عهد علي باي في تقرت وسوف . وفيليب F. Philippe (المراحل الصحراوية) ، ص 119 ، و (طابلو) سنة 1841 عن حياة الشريف محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) الأولى . والدراسة الحديثة لحياة شريف ورقلة التي قامت بها السيدة آني ري Annie Rey ، في (موسوعة الأفارقة) Les Africains بإشراف ش . أ . جوليان وآخرين ، في الجزء الثاني عشر منه ، ص 199 ـ 221 .

الثورة التي كانت عندئذ (1858) ما تزال جارية على أشدها رغم إستيلاء الفرنسيين على الأغواط وتقرت والإتفاق مع أهل ميزاب .

ويدعي أحد الكتاب ان هناك أسباباً مختلفة لثورة الصادق بلحاج ، فهي قد وقعت في قيادة ابن شنوف التي أحدثها الفرنسيون بعد أحداث الزعاطشة . فهي قيادة جديدة لم يكن سكانها قد « خضعوا » بعد الى السلطة التي يمثلها ابن شنوف ، تماماً كما حدثت ثورة الزعاطشة في قيادة ابن قانة . وإذا كان من نتائج الزعاطشة إعادة تقسيم القيادات لإضعاف عائلة ابن قانة ، فكذلك كان من نتائج ثورة الصادق بلحاج إعادة التقسيم الإداري لإضعاف الميهوب ابن شنوف (حليف بوعكاز) . كما يذهب هذا الكاتب إلى أن الفرنسيين قد أصدروا عدة قرارات غير شعبية مهدت لسخط الناس ، من ذلك المناداة على الأطفال المسلمين بحضور المدارس الفرنسية ـ العربية في بسكرة ، وتشديد الرقابة على زيارات الزوايا بينما كان الصادق بلحاج هو مقدم الطريقة الرحمانية في زاوية تيميرماسين وكان من أنصار وأتباع الشيخ بوزيان زعيم الزعاطشة[69] .

والغريب أن بعض الكتاب قد تحدث أيضاً عن « تسرب » مبعوثين من المشرق إلى المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها . وعزا إليهم المساعدة على الثورة هناك . فبالإضافة إلى « التعصب » الشديد الذي تميز به الصادق بلحاج ، في نظر هذا الكاتب ، هناك مبعوثون وصلوا من المشرق وأجروا إتصالات معه ، في نفس الوقت الذي وصلت فيه بعوث أخرى من المشرق أيضاً إلى جبال القبائل الشرقية حيث ثار سكانها على الفرنسيين في الوقت الذي أعلن فيه الصادق بلحاج الثورة في جبال الأوراس . وقد استنتج هذا الكاتب أن هناك « تنسيقاً » وتوحيداً للنضال قد تكون وراءه الحركة السنوسية[70] . والمعروف أن السنوسية متهمة بإثارة الجنوب أيضاً ، خصوصاً حركة شريف ورقلة التي سبق الحديث عنها .

---

(69) فان سيفرز (المجلة الدولية . . .) ، مرجع سابق ، ص 268. وكان ابن شنوف هو حليف علي باي بن فرحات (باي تقرت ووادي ريغ) من عائلة بوعكاز .

(70) فيرو (المجلة الافريقية) ، 1886 ، ص 104 ـ 106 .

ومهما كان الأمر فإن الصادق بلحاج ابن المنطقة ، فهو خبير بها وبأهلها ، وهو زعيم زاوية وداعية جهاد رغم تقدمه في السن . لقد بدأت الحركة بإرساله المبعوثين والرسائل وعَقْدِه الإجتماعات التي جرى فيها الحديث عن مقاطعة الفرنسيين ثم الحديث عن الثورة عليهم . وكان الشيخ الصادق يحدث أتباعه ، وما بالعهد من قدم ، عن جهاد المسلمين الأوائل وحركة الأمير وبوزيان وثورة جرجرة والجنوب . وقد يكون وعدهم بالنصر من عند الله ومن دول الاسلام تنشيطاً لهم وترغيباً . ولم يحل شهر نوفمبر 1858 حتى اتسعت حركته ، وكان ابنه إبراهيم في طليعة المتحمسين والدعاة للثورة حتى وصفه كتاب المكاتب العربية (أمثال فيرو) بالتعصب والعنف ، وقال عنه انه كان يستغل اسم والده في إثارة الناس وكتابة الرسائل الداعية إلى الجهاد . وكانت الرسائل تقرأ علناً في الأسواق . ولا شك أن القايد بن شنوف كان مطلعاً على ما يجري وقد احتاط للأمر وأخبر به الفرنسيين .

استمرت الثورة اذن طيلة الخريف . وشملت سكان جبل احمر خدو وبني بوسليمان وسيدي عقبة ومشونش الخ . وكادت تعم الأوراس كله . وقد جند لها الفرنسيون قوة ضخمة بقيادة الجنرال (ديفو) ومعه (قوم) ابن شنوف ، ودارت معارك عديدة ومناوشات استمرت إلى يناير 1859 . وعندما ضيق العدو الخناق على الثوار حاولوا اللجوء إلى الجنوب استعداداً لإعادة الكرة ، كما حدث أيام حكم الأمير هناك ، ولكن الشيخ الصادق بلحاج وقع في الأسر في 19 من الشهر المذكور ، ففقدت الثورة قوتها المحركة[71] . ولم يؤسر وحده بل أسر معه حوالي مائة من عائلته وأتباعه ، وقيد إلى معسكر الجنرال (ديفو) ، ومن هناك حمل إلى أحد سجون فرنسا . وبعد فترة لا ندري طولها أعادوه إلى سجن الحراش حيث توفي سنة 1862 (وقيل 1863)[72] .

---

(71) يبدو أن الثورة قد انتشرت وهددت الفرنسيين بشكل أخطر مما تحدثنا به الوثائق المتوفرة . ومما يذكر أن أحد أعضاء (الجمعية الأثرية بقسنطينة لم يستطع حضور جلسات دورتها بسبب من سماه (بالجباس الجديد) - يشير إلى الصادق بلحاج - الذي ثار أخيراً في جبل الأوراس باسم الدين الإسلامي . أنظر (حولية الجمعية الأثرية . . .) المذكورة والتي نشير إليها بإسم (روكاي) ، 1858 - 1859 ، ص 87 .

(72) أورد التاريخ الأول ديبون وكوبولاني في (الطرق الصوفية الإسلامية) ، ص 410 - 411 ، والثاني فان سيفرز ، المرجع السابق .

ومن نتائج ثورة الأوراس المنسوبة إلى الصادق بلحاج إعادة النظر في التقسيم الإداري للمنطقة ، كما أشرنا ، ومن ثمة اضعاف سلطة الميهوب بن شنوف . ومنها تخريب زاوية سيدي المصمودي الرحمانية (زاوية الشيخ الصادق) التي أمر الجنرال ديفو بهدمها تماماً سنة 1859 بدعوى أنها كانت منطلقاً للثورة وناديا (للتعصب) ضد الفرنسيين . ولكن مقدمي الزاوية ، بالتعاون مع ابنه الشيخ الطاهر (أي ابن الصادق بلحاج) أعادوا بناء الزاوية في تيميرماسين هذه المرة . وسرعان ما أصبح لها أتباع جدد ، وقد بقيت محافظة على تقاليده ، كما يقول رين ، في العداء للفرنسيين ، وهو يستدل على ذلك بان الشريف الجديد المدعو (محمد بن عبد الرحمن) الذي ظهر سنة 1879 كان من خريجي هذه الزاوية[73] .

وليس بوسعنا تتبع جميع حركات الاشراف والمجاهدين الذين واصلوا مسيرة المقاومة خلال الخمسينات ، وقبل أن ننتهي من دراستنا هذه نذكر نقطتين أخريين احداهما في شرق البلاد والأخرى في غربها ، الأولى تتعلق بتبسة والثانية تتعلق ببني سناسن . ففي اكتوبر من سنة 1853 قام أحد الاشراف ويدعى عمار (أو عمر) بن قديدة ضد الفرنسيين ، وجمع أتباعه من أهل الناحية ، ولا سيما البكارية والحراكتة وأولاد سيدي عبيد الخ . وهاجم بهم مراكز العدو ، ولكن الفرنسيين خرجوا له بقيادة الضابط (جابي) ومعه بعض المرتزقة ودخلوا في معركة مع الشريف ابن قديدة ، انتهت باستشهاده فيها . وتقول المصادر الفرنسية انهم غنموا خيمته وسلاحه و «أعلامه الدينية الكبيرة » . ويذكر فيرو ان من بين الغنائم بعض « الخوذات » النحاسية التي خرجت من متاحف الزوايا . وكان الشريف ابن قديدة في لباس الحرب المتكون من رداء من الجلد وخوذة من النحاس . ولم يكد يتجاوز الثلاثين سنة من عمره[74] . وتشير نفس المصادر إلى أن من بين أنصار ابن قديدة بعض أهل الجريد « المتعصبين » حسب تعبير الفرنسيين .

اما ما يتعلق ببني سناسن فنحن أمام ثائر آخر هناك يدعى محمد بن عبد الله أيضاً ، وتزعم المصادر الفرنسية أن هذا الشيخ المرابط قدم من السوس وأخذ يعلم

---

(73) أنظر ديبون وكوبولاني ، مرجع سابق ، ولويس رين (مرابطون) ، ص 460 .

(74) فيرو (المحلة الافريقية) ، 1874 ، ص 448 .

في زاوية كرزازة ، ولعله كان من أتباع الطريقة الطيبية (الطيب الوزاني) . وعندما أحس الشيخ محمد بن عبد الله هذا بأن ساعة الجهاد قد دقت استقر في سهل طريفة وكتب إلى أعيان الناحية (بني سناسن ، والهاية وانقاد الخ .) ودعاهم للجهاد فاستجابوا له . من هؤلاء كبير بني سناسن الحاج ميمون بن البشير ، صاحب النفوذ الواسع . ومنهم الشيخ محمد بن المكي الذي تصفه المصادر « بالمتعصب » كثيراً ضد الفرنسيين ، وتقول انه هو الذي تولى الأمور الماليةِ والتسليح . كان ذلك في صيف 1859 . وفي آخر شهر اغسطس بايع الجميع الشيخ محمد بن عبد الله على الطاعة والجهاد ودعوه « بالسلطان » وانطلقت الثورة وجرت عدة معارك انهزم في بعضها العدو ، مثل معركة (سيدي زاهر) التي جرت في الثلاثين من الشهر المذكور ثم استئنفت المعارك خلال سبتمبر إذ في الحادي عشر منه جرت معركة أخرى قرب زاوية سيدي العنبري . ولا تعرف مصير الشريف في هذه المعركة . ولكن المصادر تتحدث عن لجوء الثوار إلى المغرب استعداداً لإستئناف القتال[75] .

وفي حملة « تأديبية » قوية تتألف من أكثر من خمسة عشر الف جندي خرج الجنرال مارتنبري Martinprey إلى الثوار ، واشتبك معهم . وكانت النتيجة خسائر كبيرة في الأرواح، تقول المصادر الفرنسية انها من جراء الكوليرا لا من جراء الحرب، ويكفي أن نعلم أن أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي قد هلكوا في هذا الاشتباك . أما من الجانب الجزائري فقد فرضت السلطات الفرنسية ضرائب باهظة على المشاركين في الثورة ، بالإضافة إلى ضرورة تقديم الرهائن وقد أثارت هذه الحملة الفاشلة الرأي العام في فرنسا نفسها ، لأنها لم تأت بالنتيجة المرجوة منها وتسببت في هلاك العديد من ارواح العدو[76] .

وإذا كان اسم تونس قد ورد بالنسبة لأحداث تبسة فإن اسم المغرب قد ورد بالنسبة لأحداث بني سناسن . وكلا البلدين ذُكِرَ في أحداث الجزائر منذ 1830 . فليس الأمر جديداً هذه المرة أيضاً . والمهم أن نعرف أن معظم الأشراف الذين ظهروا كانت

---

(75) سجلت هذه المعلومات على بطاقة ونسيت تسجيل المصدر فيها ، باستثناء الصفحات وهي 355 - 356 ، 361 ، 371 . ولعل المصدر هو (المجلة الافريقية) ؟ .

(76) جوليان (تاريخ) مرجع سابق ، ص 418 .

أسماؤهم الحقيقية مجهولة ، فهم مجاهدون في سبيل الله لا من أجل السمعة الشخصية والمجد العائلي أو القبلي. ثم ان معظم رجال الطرق الصوفية كانوا ينتمون إلى طرق مشتركة لا تعرف الحدود ولا تعترف بالقيود . وفي هذا المجال يجب النظر إلى حركتي ابن قديدة في تبسة ومحمد بن عبد اللّه في بن سناسن ، فهما حركتان تمثلان استمرار المقاومة ضد الدخيل في الجزائر قبل أن تمتد أيادي العدو الأخطبوطية إلى كل من تونس والمغرب أيضاً .

10. إطفاء الشموع :

كان عقد الخمسينات اذن فترة مواجهة عسكرية بين المقاومة الوطنية والفرنسيين ، ولكنه كان أيضاً فترة اطفاء الشموع العلمية والدينية وذلك بالقضاء على المؤسسات القائمة ، والاستمرار في تدجين رجال الدين والثقافة أو تهجيرهم ، واهمال التعليم للاطفال ، والتغاضي عن نشاط الكنيسة بل ومساعدتها على القيام بأعمال تبشيرية و« تمدينية » هدفها استرجاع الهيمنة المسيحية ونشر الفرنسية والإساءة إلى الإسلام .

ومن أجل ذلك استمرت السلطات الفرنسية في المدن على بسط نفوذها على الأوقاف وهدم الأضرحة والزوايا والمساجد التابعة لها ، وتسليط قوانين (الدومين) عليها . وقد استغرب أحد الكتاب الفرنسيين الذين كتبوا عن « الإسلام الجزائري » ، وهو (دوتيه) ، كيف أن مدينة الجزائر التي كانت تضم 136 مؤسسة دينية سنة 1830 منها 13 مسجداً جامعاً ، لم يبق منها سنة 1862 سوى 21 مؤسسة منها 9 مساجد فقط. وقال انك إذا زرت مدن المغرب الأقصى مثلاً وجدتها كالغابة تعج بالمنارات، أما إذا زرت مدينة الجزائر فانك لن تجد شيئاً من ذلك المنظر[77]. ولا شك ان المنارات والمؤسسات الدينية الأخرى لم تختف كلها خلال عقد الخمسينات ، ولكن هذه الفترة كانت تمثل التواصل في الطمس الحضاري على يد الفرنسيين كما كانت تمثل تواصل المقاومة الوطنية ضد الوجود الإستعماري .

---

(77) دوتيه (المجلة الافريقية) ، 1899 ، ص 346 .

ويـذكر بعض الكتـاب أن زاوية سيـدي عبـد الـرحمن الثعـالبي ـ وهي أهم المؤسسات الدينية نظراً لدخلها الكبير سنة 1830 ـ وقع ضمها سنة 1848 إلى أملاك الدولة وأصبح القائمون عليها وعلى صيانتها وتسييرها تابعين لميزانية الإدارة المدنية (مكتب الشؤون الإسلامية)[78] . وهذا مسجد سيدي الجامي كان قد احتله الدرك منذ 1830 ثم أجر سنة 1850 إلى جماعة (الطرابست) الدينية وسموه (اسطوايلي الصغيرة) وكان يقع بالقرب من حديقة مارنقـو (عند ضـريح الشيـخ الثعالبي) . كذلك حول مسجد سيدي السعدي (وهو فيما يبدو جد الحاج سيدي السعدي الذي قاد الثورة بمتيجة وبلاد القبائل أوائل الاحتلال) هذا المسجد الذي كانت تحتله فرقة الهندسة العسكرية أصبح سنة 1850 جزءاً من مصلحة الضرائب . أما مسجد المصلّى الذي أصبح ثكنة عسكرية بعد الاحتـلال ، فقد هدم سنة 1862 لإقامـة الليسيه الفرنسي على أنقاضه . وهكذا . ولكي تخفف مؤسسة أمـلاك الدولـة من أعبـائها في إدارة الأوقـاف ونحوهـا أنشأت منـذ 1857 (مكتب العمـل الخيـري الإسلامي) التابع لها ، والذي عهد إليه بتنظيم المساعدات للفقراء والمحتاجين من المسلمين والسهـر على المـواسم الـدينيـة ، ومتـابعـة مصـاريف أوقـاف مكـة والمدينة[79] .

ونفس المصير واجهته المؤسسات الدينية في المدن الأخرى . فهذه قسنطينة عرفت قائمة من الجوامع والزوايا التي هدمت أو حوّلت إلى ثكنات أو كنائس سنة 1849 . ويكفي أن نحيل على التقرير الرسمي المكتوب في 20 ديسمبر 1849 . وقد جاء فيه ان المساجد الآتية قد هدمت : سيدي فرج ، مكة والمدينة ، سيدي الفرجاني (الفرغاني ؟) ، الوزناجي ، سيدي مسلم ، سيدي وراد . كما جاء فيه النص على تحويل جامع سوق الغزل إلى كاتدرالية ، بالإضافة إلى المساجد التي حولت إلى ثكنات أو بيعت[80] . وفي مقالة لشيربونو عن قسنطينة وآثارها[81] كتبها سنة 1853 ذكر أن جامع رحبـة الصوف (وهـو يعود إلى القـرن 5هـ) قد حـولته

(78) أوميرا (المجلة الافريقية) ، 1898 ، 191 .

(79) نفس المصدر ، 192 ـ 196 .

(80) أرشيف ايكس 23 H 1 .

(81) شيربونو ، (روكاي) ، 1853 ، ص 122 ـ 224 .

السلطات الفرنسية إلى مخزن للشعير ، وفي سنة 1850 هدمت منارته . وحولت جامع القصبة الشهير (وهو يعود إلى القرن 7هـ) إلى مبنى عسكري منذ 1837 (تاريخ احتلال المدينة) ثم وقع هدمه كله سنة 1853 .

وقد خربت أيضاً مساجد وزوايا بجاية التي عرفت حرباً طويلة ، كما أشرنا ؛ وتشير مصادر 1859 إلى هدم الجوامع الآتية فيها : جامع سيدي الموهوب ، والصافية ، وعين يلس ، والبريجة ، كما حول الجامع الكبير إلى ثكنة عسكرية . وحولت زاوية سيدي التواتي إلى نفس الغرض وكذلك زاوية سيد أحمد النجار . بالإضافة إلى زوايا أخرى كثيرة خربت[82] . ومما يذكر انه لم يبق في بجاية سنة 1848 سوى حوالي 300 شخص من سكانها الأصليين . وهم الذين عجزوا عن الهجرة.

ولم يكن رجال الدين الإسلامي سوى صور لا حراك لها في العهد الذي ندرسه. ونعني بهم القضاة والمفتين والمدرسين وأضرابهم ممن لهم علاقة بالدين والوظيفة الرسمية . أما الأكفاء والمستقلون منهم فهم إمّا هاجروا وإمّا انتهى عهدهم بتقدم السن . ولم تخرج المدارس الجديدة عناصر مرموقة في شؤون الدين والدنيا . فالاستيلاء على الأوقاف ومراقبة الزوايا والحروب المتواصلة والهجرة لم تترك في الجزائر علماء يشار إليهم خلال عقد الخمسينات . وقد رضي الباقون منهم بالوظيف الذليل الذي منح لهم ، فكانوا يتراسلون في كل كبيرة وصغيرة مع مصلحة الشؤون الأهلية بالولاية العامة طالبين منها الترخيص في تعيين أو عزل موظف بسيط بعد أن يكون مكانه قد شغر بالموت أو الهجرة أو أداء الحج[83] . فلا فتوى بمعنى الكلمة ولكن آراء منقولة من كتب فقهية أخْنَى عليها الزمن ولم يعد عقل العلماء عندئذ قادراً على هضم ما جاء فيها ، كما انه لا استقلال في الرأي ولا اجتهاد . وكان تعيين أو عزل هؤلاء العلماء يصدر عن سلطة الولاية العامة.

---

(82) انظر (المجلة الافريقية) ، 1859 ، ص 299 - 302 .

(83) رأينا ذلك من دراستنا لمجموعة من الرسائل الصادرة عن علماء ذلك العهد . وقد أصدرنا منها في بعض المجلات (الثقافة ، الرسالة ، مجلة التاريخ) عدة حلقات بعنوان (من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي) ، فانظر هناك ، وكذلك في الجزء الثالث من (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) . ط. بيروت ، 1990 .

ان عهد راندون (1851 ـ 1858) الذي يعرف بعهد استكمال الاحتلال لم يعرف أي تقدم في ميدان المعرفة . حتى قرار انشاء المدارس الرسمية الثلاث (عربية ـ فرنسية لتخريج من تحتاجهم الإدارة الاستعمارية من مترجمين وقضاة ومدرسين الخ .) صدر قبل تعيين راندون بسنة (1850) . ولم تكن هذه المدارس قد تقدمت في عهده كثيراً ، لعدم تحديد الهدف ونقص الميزانية والانشغال عنها بالأمور العسكرية التي واجهتها إدارة راندون في كل الجزائر وعلى الخصوص الجنوب وجرجرة والأوراس . ولم يكن من المدارس الابتدائية المسماة عربية ـ فرنسية سنة 1850 سوى ست مدارس كلها للبنين . ولم يكن يتردد عليها سوى عدد قليل من التلاميذ ، لشك الجزائريين في أهدافها وعدم ضمان العمل للمتخرج منها[84] .

ومما يذكر أن المكتبة العمومية (الوطنية اليوم) قد انتقلت سنة 1848 من دار إبراهيم آغا الى دار أندلسية راقية وواسعة يعود بناؤها إلى العهد العثماني ، وهي الدار التي كانت مقراً للقنصلية الأمريكية ، وفي نفس التاريخ أصبحت المكتبة والمتحف تابعين لوزارة التعليم العمومي ـ بعد أن كانا تابعين لوزارة الحربية . أما محافظ المكتبة في العهد الذي ندرسه فهو ادريان بربروجر ، الباحث الشهير . وقد اهتم الفرنسيون خلال الخمسينات بإنشاء الجمعيات والمجلات التي تخدم تاريخ الجزائر عموماً وخصوصاً القديم منه . ومن ذلك إنشاؤهم للجمعية الأثرية بقسنطينة سنة 1855 التي تولت إصدار (حولية) باسمها ثم سمتها (مجموعة) أو روكاي . كما تأسست في مدينة الجزائر الجمعية التاريخة الجزائرية (1856) التي كان منشطها الرئيسي هو بربروجر المذكور . وقد أصدرت هذه أيضاً مجلة ذات شهرة واسعة اليوم ، وهي (المجلة الافريقية) التي دامت أكثر من قرن . وقد ظهر في هذه المؤسسات والمجلات كيف يمكن توظيف التاريخ المحلي في خدمة المصالح الاستعمارية إذ كان الكتّاب (المؤرخون) والضباط العسكريون يعملون اليد في اليد

---

(84) يذكر مارسيه (مؤتمر علماء شمال افريقية الثاني) ، باريس 1908 ، ص 183 ـ 184 أن هذا النوع من المدارس قد شرع في تأسيسه منذ سنة 1836 وأن التوسع فيه ظل بطيئاً حتى انه لم يكن منها سنة 1864 سوى 18 مدرسة فقط . وكانت المواد التي تدرس بها لا تختلف عن المواد التي تدرس في المدارس الابتدائية بفرنسا باستثناء مادة الدين (القرآن) واللغة العربية على يد شيخ ملحق بالمدرسة .

لتحقيق المخططات الاستعمارية في الجزائر.

وإلى جانب هؤلاء كانت الكنيسة ورجالها تبارك الأعمال وتمهد الطريق وتكيف النتائج . وكان الأسقف خلال العهد الذي ندرسه هو بافيه Pavy ، وهو الذي خلف سلفه ديبوش ، أول أسقف فرنسي في الجزائر . وقد عمل كلاهما على ازدهار الكنيسة وإرساء قواعدها على أساس استعادة مجد الكنيسة التي كانت موجودة قبل الإسلام ومساعدة الدولة الفرنسية على نشر الاستعمار والحضارة الأوروبية . ومن أجل ذلك تعاونت الكنيسة في الجزائر مع السلطات المحلية الفرنسية ومع الحكومة نفسها في فرنسا . فالأموال التي كانت تحصل عليها لمشاريعها كانت من الخاصة ومن المؤسسات الخيرية ومن الكنيسة الأم من جهة ، ومن خزينة الدولة الفرنسية من جهة أخرى.

ومن المشاريع التي نفذتها الكنيسة في عهدي ديبوش وبافيه، بناء عدة كنائس جديدة بالإضافة إلى تحويل مجموعة من المساجد إلى كنائس . وتذكر بعض المصادر الدينية ان عهد ديبوش قد شهد بناء 47 كنيسة ومعبداً وكذلك 40 فرعاً في المستشفيات والسجون والمؤسسات العامة الأخرى . وكان ذلك من أموال الكنيسة والمساعدات الخاصة . ونظراً لتراكم الديون على ديبوش وكثرة مشاريعه فقد تدخلت السلطات الحكومية الفرنسية ودفعت عنه هي تلك الديون باعتبارها « ديوناً على الأمة الفرنسية كلها » . ومن جملة تلك المشاريع شراء الأراضي بمتيجة وبناء الملاجىء عليها لتمسيح أطفال المسلمين ، وغير ذلك.

ولم تكتف الحكومة الفرنسية بدفع ديون الكنيسة فقط ، بل انها بنت من ميزانيتها هي : 37 كنيسة كاثوليكية ، ومعبدين للمذهب البروتيستانتي ، وثلاثة مساجد . وكانت تدفع المرتبات لموظفي السلك الديني المسيحي أيضاً ، فكان ديبوش مثلاً يتقاضى 20 ألف فرنك سنوياً يضاف إليها 5 آلاف فرنك علاوات على السفر وشؤون مكتبه . ونفس الشيء يقال عن بقية الموظفين الكنسيين الذين كانوا يتقاضون ، كما لاحظ أحد الكتاب ، مرتبات عالية . ومن جهة أخرى ساهمت الدولة في المشاريع الدينية والاجتماعية الأخرى مثل مشروع الأب برومو Brumault الذي أقام عدة ملاجىء في ابن عكنون وبوفاريك ووهران الخ . وجعلها مراكز لتعليم

الفلاحة ونحوها . فكانت مساهمة الدولة الفرنسية تتمثل في تخصيص منح للأطفال في الملاجىء : 21 فرنكاً ونصفاً لكل طفل شهرياً . وكانت هذه المشاريع تتلقى مساعدات إضافية من الولايات الفرنسية الأخرى[85].

وكانت الاسقفية في العهد الذي ندرسه تقع في بولوغين (سانت اوجين سابقاً) حيث احتلت بعض الفيلات الراقية ، وجعلت منها مقراً للإقامة وحلقات للتعليم (Seminaires) ، وجلبت إليها أناساً متحمسين لخدمة الكنيسة والاستعمار وتحضير السكان للغزو الفكري والتبشيري . فكل منهم كان يعتقد انه جندي في ميدانه لا يقل همة وطموحاً عن جنود بوجو وراندون . ولم يكن هؤلاء المبشرون المتحمسون من الرجال فقط بل كان فيهم النساء أيضاً . وكان دور هؤلاء هو الإتصال بالمرأة المسلمة ودخول البيوت والتعرف على عادات وتقاليد السكان من الداخل ، والتأثير في الحياة الاجتماعية عن طريق المرأة واستدراج الفتيات على الخصوص لمشاريع تبدو مغرية ومحايدة ومربحة ، كتعليم الخياطة والطرز والتطبب ونحوها . ولا شك انه كان لهؤلاء النسوة (الأخوات) دور انساني هام في المستشفيات ومحاربة الآفات التي جلبها الجنود معهم من فرنسا . فقد تدهورت الأخلاق إلى أسفل السافلين حسب تعبير أحد الكتّاب إذ قال : « انه من الصعب تصور حالة أخلاقية أدنى من حالة الأخلاق في الجزائر بعد عدّة سنوات من الاحتلال »[86] . ولا شك أن الكاتب يعني بذلك أخلاق الفرنسيين ، ولا سيما الجنود ، الذين كانوا ، كما عرفنا ، في الأغلب من حثالات المجتمع والمرتزقة والجهلة والمغامرين ، وناهيك بجيش من أعضائه اللفيف الأجنبي واللقيط يوسف . وبالإضافة إلى انتشار الأمراض والإدمان والتسكع ، ارتفع عدد المواليد غير الشرعيين بين الفرنسيين في الجزائر إلى 244 في الألف بينما كان في كل فرنسا 72 في الألف .

كان دور الكنيسة اذن هو محاربة هذه الآفات وتقويم الأخلاق بين الفرنسيين المنحرفين . أما دورها بين المسلمين فقد كان العكس ، ولكن في الشؤون الدينية والفكرية . وقد لاحظ الكتاب الذين زاروا الجزائر خلال القرن الماضي مدى انحطاط

---

(85) أخذنا هذه المعلومات من القسيس ج. بلاكسلي (أربعة أشهر في الجزائر) ، ص 47 ـ 48 .
(86) نفس المصدر ، ص 44 .

الأخلاق بين المسلمين أيضاً نتيجة انتشار الآفات التي ذكرها بلاكسلي بالنسبة للفرنسيين . فمنحرفو المسلمين لم يقلدوا الفرنسيين في العلم والعمل ونحوهما ولكن في الخمر والزنا والتسكع ونحوها[87] . ولكن الكنيسة لم تتدخل لإصلاح هذه الحالة ، كما فعلت في المرة الأولى . نعم ان الكنيسة كانت تبارك المشاريع الإستعمارية وتغلغل الجيش في المناطق النائية والحصينة مثل جرجرة والأوراس والصحراء لكي تسير هي على خطاه. وقد عرفنا أن الكنيسة كانت حاضرة يوم وقف راندون يرسي قواعد (حصن نابليون) في قلب جرجرة ، فباركت المشروع واعتبرته رمزاً للماضي والمستقبل معاً . فالسيف والصليب كانا يسيران جنباً إلى جنب في الجزائر ويكمل أحدهما نقص الآخر .

وما دمنا نتحدث عن دور الكنيسة في هذه الفترة فلنشر أيضاً إلى دور اليهود عندئذ . كان يهود الجزائر متمركزين في المدن وحتى في القرى أحياناً . وقد ازدهر حالهم منذ الإحتلال ، كما عرفنا ، وكثرت علاقاتهم التجارية والمالية ، وكانوا بحكم معارفهم اللغوية وارتباطاتهم العائلية بأوروبا (ليفورنيا ، مرسيليا الخ .) يؤثرون في الحياة السياسية والإقتصادية للجزائر . وقد أصبحوا هم الذين يحتكرون التجارة المحلية (الأهلية) في التعامل مع الفرنسيين[88] . وكانت علاقتهم بالسلطات الفرنسية قوية ، وكانوا مستعدين للإندماج في المجتمع الأوروبي « الخليط » لاستغلاله وإجتناء الأرباح منه مادياً ومعنوياً . فبالإضافة إلى الجانب التجاري والمعاملات المالية مع الأوروبيين ، استطاع مثقفو اليهود أن يدخلوا في جمعيات الفرنسيين المدنية والعلمية وأن يؤثروا عن طريق الكتابة والمحاضرة في توجيه الحياة الفكرية لصالحهم أيضاً . فقد كان الربيون في الغالب يحسنون عدة لغات ومنها الاسبانية والفرنسية ، ولم تكن لهم عقدة ، كالمسلمين عندئذ ، من الحضارة الأوروبية ، فكان ذلك عاملاً مساعداً لهم على الإندماج أيضاً في الحياة الفكرية ، كما ذكرنا ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتعاملون بالعربية مع الجزائريين وحتى مع

---

(87) يشير بذلك إلى ما ورد في كتاب (مستودع الأمصار) لمحمد بيرم الخامس (1840 ـ 1889) بعد زيارته للجزائر . والقاعدة الشهيرة تقول ان المغلوب لا يقلد الغالب في فضائله ولكن في مساوئه .

(88) انظر بلاكسلي ، مرجع سابق ، ص 48 .

أنفسهم ، وقلما يستعملون العبرية بل لقد لاحظ أحد الكتاب أن الربيين كانوا يعظون اليهود بالعربية أيضاً في بعض المناسبات[89] . وهكذا كان بينهم وبين السلطات الفرنسية تفاهم وحتى تحابب . وقد بنت لهم الحكومة معبداً (بيعة) جميلاً بثمن باهظ جداً حسب بعض الروايات .

11. افتقار الأغنياء وبعض الفضائح :

وفي الوقت الذي كانت تزدهر فيه أحوال الفرنسيين واليهود كانت أحوال المسلمين في حالة تدهور سواء في المدن أو الأرياف . فالتدخل الفرنسي واليهودي أدى إلى إفقار البرجوازية الجزائرية وإجبارها على الهجرة من المدن . والإجراءات الإدارية التي جاءت عادة بعد الحروب ، قد أدت إلى تقليص صلاحيات الأجواد والعائلات الكبيرة الحاكمة بإسم الفرنسيين في الأرياف . وغالباً ما كان ذلك التقليص يؤدي إلى إفقار الموظفين المعنيين من الخلفاء والباشاغوات الخ . لأن الثورة تتبع السلطة الواسعة والضرائب المرتفعة والأتباع الكثيرين . وهكذا وجدنا المجتمع الجزائري خلال عقد الخمسينات يواجه الأزمات الإقتصادية والإضطهاد السياسي معاً .

إن معظم الكتاب الذين تحدثوا عن المجتمع الجزائري عندئذ لاحظوا حالة الفقر التي أصبحت عليها العائلات التي لم تهاجر والتي كانت في الماضي موسرة . فهذا يوجين دوماس يذكر سنة 1855 ، أن أهل الحضر الذين كانوا قد جمعوا ثروات طائلة في عهد البايات قد أصبحوا يعيشون في حالة فقر مدقع بعد أن تبخرت ثرواتهم . وقد ترتب على ذلك ، في نظره ، ظهور الكسل بينهم وعدم قدرتهم على منافسة الأوروبيين ، كما تناقص عددهم وأصبحوا وليس لهم أهمية تذكر في المجال السياسي . وبالإضافة إلى ذلك فهم كانوا يضيعون من طبائعهم بسبب احتكاكهم اليومي بالأوروبيين[90] .

---

(89) نفس المصدر ، ص 52 . ويذكر الكاتب أن ذلك المعبد قد بني قبل 1859 ، دون تحديد التاريخ .

(90) يوجين دوماس (العادات والتقاليد الجزائرية) ، ط. 2 ، 1855 ، ص 5 ـ 7 . نفس الملاحظات أبداها من بعده غيره مثل اوغسطين بيرك الذي درس البرجوازية الجزائرية دراسة اجتماعية ـ تاريخية ، انظر مقالاته التي جمعها ابنه جاك بيرك بعنوان (كتابات حول الجزائر) باريس ، 1985 . وقد تساءل اوغسطين بيرك عن اختفاء أسماء عائلات كانت غنية مثل ابن الكبابطي ، ابن العنابي ، خوجة الخ .

ولـذلك لا نستغـرب أن يصبح أغنيـاء الأمس فقراء اليـوم ، يمدون أيـديهم للمساعدة ويتضرعون للدخيل ليجود عليهم بالرحمة والعطاء . فهذا حمودة الفكون (بن شيخ الإسلام) بقسنطينة الذي كانت لعائلته أموال طائلة تضرب بها الأمثال ، كتب سنة 1852 إلى الحاكم العام راندون يلفت نظره إلى وضع عائلته السيء . وهذا حسـان بن الباي السـابق لقسنطينـة ، علي انكليز ، يـطلب أيضاً من رانـدون سنة 1852 ـ 1853 أن يعين له معاشاً يعيش به ، ويذكره بأنه كان من ذوي الولاية والجاه في السابق ، ويغريه بأنـه يفضل البقـاء في الجزائـر على الهجرة نحـو المغرب أو اسطانبول . ونفس الـطلبات والشكـاوي قدمهـا بعض كبار الأمس أمثـال علي بن عيسى (قائد جيش أحمد باي)، ومحمد مزوار الشرفاء في مدينة الجزائر ، ومرابطي وأشراف بجاية بعد أن أثقلتهم الضرائب التي كانوا معفيين منها[91] . كما تقدمت زوجتا الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، تطلبان ، سنة 1268 هـ ـ 1851 « الانعام » عليهما براتب من السلطات الفرنسية[92] . إسم إحداهما خدوجة أخت حمدان بن عثمان خوجة ، واسم أخراهما الدائخة بنت محمد بن قانة ، شيخ العرب بالزيبان . وكلتا العائلتين كانت من الأثرياء .

والغريب ان أمثال هذه العائلات هي التي كانت تتمرّغ على أعتاب السلطة التي سلبتها ثرواتها لتتمنى لها الحظ السعيد والعمر المديد . ففي الذكرى الأولى لتولي نابليون الثالث الامبراطورية جاءته رسالة تهنئة من أعيان قسنطينة سنة 1852 تحمل توقيعات هذه الأسماء : المكي بن باديس ، المكي بن زقوطة ، حمودة بن الشيخ الفكون ، مصطفى بن جلول ، محمد الشريف بن صالح باي ، علي بن باأحمد ، أحمد خوجة بن شريط ، الـخ[93] . نعم . ان الأيدي التي يلثمهـا أصحاب هـذه التوقيعات هي الأيادي التي ما تزال ملطخة بدماء شهداء الزعاطشة وجرجرة والأغواط وورقلة ، وهي الأيدي التي كانت قد بطشت ببوزيان وموسى الدرقاوي ، وما تزال

---

(91) انظر كور (المجلة الافريقية) ، 1914 ، 91 ، وأرشيف ايكس رقم 11 H 1 .

(92) نفس المصدر ، أي أرشيف ايكس ، 11 H 1 .

(93) نفس المصدر ، والرسالة بتاريخ 24 ديسمبر 1852 ، والنص العربي للرسالة مفقود ولكن ترجمتها بالفرنسية موجود .

عندئذ تبطش ببوبغلة وللافاطمة وشريف ورقلة. ويكفي أنها كانت تضيف إلى ذلك قـوائم المنفيين إلى جزيـرة سان مـرغريت بتهمـة التآمـر والشغب وإشاعـة الأخبار الكاذبة[94] .

ولكيلا يستيقظ الجزائريون وينتبهـوا إلى ما يحـاك حولهم وضـدهم ، كانت السلطات الفرنسية تعمل على كبت الأخبار حتى لا تتسرب إليهم . فلا يكفي منعهم من التعلم ، ولا الإستيلاء على أملاكهم ومساجدهم ، بل لا بد من « حمايتهم » من الأخبار التي تتحدث عن المشاريع الإستعمارية كقضايا الأرض . وها هو ماكماهون الذي شارك في معظم أحداث الجزائر خلال القرن المـاضي وانتهى بتولي منصب الحاكم العام فيهـا ، يروي لنـا قصة غـريبة تتعلق « بحمـاية الأهـالي » من أضرار الصحافة الفرنسية . يقول ان الأمير جيروم نابليون[95] قد رخص سنة 1858 بإصدار جريدة (الجزائر الجديدة) لكي تعالج القضايا الإقتصادية والإجتماعية والسياسية . وكانت هذه الجريدة تعادي ، في نظره ، الأهالي والعسكريين الفرنسيين (أي أنها كانت تنطق بإسم الكولون) . ومما كتبته هذه الجـريدة انـه لا يجوز لـلأهالي في الجزائر أن يملكوا الأرض لأن الأرض ، حسب الشريعة الإسلامية ، لصاحب السيادة (أي فرنسا) ، وكانت قناعة الأمير جيروم نابليون ان الأهالي غير مطلعين على ما يجري ضدهم في الجريدة لأنهم لا يقرأونها ، ولكن ماكماهون يؤكد أن كثيراً من الأهالي كانوا بالعكس يقرأون ويتكلمون الفرنسية وأن خصوم الفرنسيين منهم كانوا يلجأون إلى من يترجم لهم المقالات مع المبالغة . وبعد تدخل من ماكماهون نفسه (وكان هو المسؤول عندئذ على الجزائر ممثلاً للأمير جيروم نابليون) منعت الجريدة من الجزائر ، ولكنها ظلت تأتي عن طريق تونس والمغرب . وقد استنتج ماكماهون ان الصحافة الفرنسية (غير الرسمية والموجهة كالأخبار والمبشر) تساعد على نمو السخط بين الجزائريين ضد الفرنسيين[96] .

---

(94) وجدنا في وثيقة تعود إلى سنة 1852 أن هناك 42 شخصاً حملوا إلى تلك الجزيرة ، وكلهم من إقليم قسنطينة وحده ، انظر أرشيف ايكس 12 H 1 .

(95) وهـو ابن عم الامبراطـور نابليـون الثـالث . وقـد أصبـح الأميـر جيـروم نـابليـون وزيـراً للجـزائـر والمستعمرات ، كما سبق (1858 ـ 1859) .

(96) مذكرات ماكماهون ، مرجع سابق ، ص 283 ـ 284 .

إن الحـديث عن النزاع بين قسمين من الفـرنسيين في الجزائـر (الكـولـون والجيش ـ المكاتب العربية)[97] يؤدي بنا إلى الحديث قليلاً عن هذه الظاهرة التي أخذت تكبر وتتطور حتى انتهت في سنة 1870 بتغيير نظام الحكم الفـرنسي في الجزائر من عسكري إلى مدني ، أي من نظام عسكري يسهر عليه الجيش بواسطة (المكاتب العربية) إلى نظام مدني يسهر عليه الكولون بواسطة البلديات والولايات ونحوها . والمسألة لا تتعلق بالتسمية فقط ولا بمن يمثل فرنسا في الجزائـر ، انها أعمق من ذلك بكثير . انها تتعلق بأسلوب الإستعمار نفسه . فالعسكريـون احتلوا الأرض بالقوة وفرضوا عليهـا السيادة الفـرنسية وأخـذوا يتولـون وظائف السلطة من الحاكم العام في مدينة الجزائر إلى ضابط المكتب العربي في إحدى القرى النائية . وهم في ذلك يفتحون أبواب الجزائر للمستعمرين المدنيين (فرنسيين وغيرهم من الأوروبيين) لامتلاك العقارات واستغلال الأرض والمساهمـة في تطويـر البلاد من جميع النواحي . ولكنهم كانوا يكبحون جماح المدنيين أحياناً في علاقتهم بأصحاب الأرض الحقيقيين : فالمدني الأوروبي يمتاز بالنهم في الحصول على الأرض من الجزائري بأية وسيلة ، بل يعتبر ذلك حقاً مكتسباً بالسيادة ، كما لاحظنا أعلاه . أما العسكريون (ومنهم المكاتب العربية) فهم لا يمانعون في الإستعمار ولكن يعلنون خوفهم من أن تجريد الأهالي من أرضهم بالقوة والمباشرة يؤدي إلى ثـورتهم ضد النظام نفسه . وهكذا يظهر العسكريـون في ثوب الحمـاة للنظام الإستعمـاري في الجزائر . ولكن النـزاع لم يتوقـف عنـد المصلحة العـامة بـل تطور إلى مهـاترات مصلحية شاركت فيها الصحف والخطباء والنواب والعرائض ، وقادت إلى اتهامات متبادلة تكشف عن الأغراض الخفية لكل طرف .

---

(97) انشيء المكتب العربي الأول سنة 1833 ، كما سبق ، بهدف مركزة الشؤون الأهلية في إدارة واحدة ، وجمع الوثائق وترجمة المراسلات وإيصال القرارات الرسمية . وفي سنة 1841 أعيـد إنشاء إدارة الشؤون العربية بمسؤولية يوجين دوماس . هذا عن المكتب المركزي أمّا المكاتب العربية من ناحية انتشارها في الجزائر وقيامها بالمهمات المذكورة فلم تنقطع منذ 1833 إلى 1870 . وفي 1844 صدر قرار وزاري يعتبر بمثابة ميثاق للمكاتب العربية إد أنشأ (إدارة الشؤون العربية) ملحقة ، وتحت السلطة المباشرة للقائد العام للقيادة العسكرية (أي الحاكم العام) . انظر بيرنار (الجزائر) ، مرجع سابق ، ص 227 ـ 230 . انظر أيضاً ما مضى .

بدأت الحملة خلال الأربعينات في عهد بوجو بل إن مقدماتها تعود إلى عهد من قبله ، وتطورت في عهد راندون ، وانفجرت في العهد المعروف بعهـد « المملكة العربية » (الستينات) ، وانتهت لصالح المدنيين في سنة 1870 إثر سقوط النظام الإمبراطوري . ولا يهمنا الآن إلاّ عقد الخمسينات . ان ضغط الكولون (المدنيين) قد أدى بحكومة نابليـون الثالث إلى تجـربة النـظام المدني لمـدة سنتين 1858 ـ 1860 ، كما أشرنا ، ثم التراجع عنه إلى الحكم العسكري من جديد . وقد أظهرت المهاترات والإتهامات بين الفرنسيين مدى عمق المشكلة بين الطَرفين خلال 1848 ـ 1860 . وانعكس كل ذلك على الأوضاع والعلاقات في الجزائر . لقد كان من مهمة بوجو ليس فقط إلحاق الهزيمة بالأمير عبد القادر في الميدان ولكن أيضاً تجـريده من النظام الإداري الذي أحدثه . ومن ثمة قلد بوجو نظام الأمير ، كما أشرنا ، في تعيين الموظفين وإدارة الضرائب والتسيير ونحـوها . وإذا كان موظفـو الأمير يتصلون به هو في النهاية لحل المشاكل المستعصية عليهم ، فإن بوجو أنشأ (إدارة الشؤون العربية) المـذكورة لكي تكـون هي الحكم في القضايـا المستعصيـة على مـوظفي السلطة الفرنسية . وقد جعل عند كل موظف (خليفة ، باشاغا ، الخ .) مكتباً عربياً تحت قيادة فرنسية لمعاونة ومراقبة ذلك المـوظف والتنسيق معه في تسييـر شؤون منطقـة حكمه . وكثيراً مـا كانت سلطات المكتب العـربي تتداخـل مع سلطات المـوظف الجزائري ، وقد تتضارب فيكون الإتهام والعزل أو الخضوع والإستسلام المطلق من جانب ذلك الموظف . وقد أحصى أحد الكتّاب عدد الوظائف القيادية التي أنشئت خلال الأربعينات فوجدها قد بلغت عدداً قياسياً ، موزعاً كما يلي :

9 خلفاء (وهو أعلى منصب في السلم المخزني أو البيروقراطي)
5 باشاغوات
59 آغا (وقايد القياد)
85 (ولم يذكر الكاتب عدد «الشيوخ» وهم بدون شك كانوا أكثر من رقم القياد الأخير)[98] .

وكـان هؤلاء الموظفـون الجـزائـريـون يمـارسـون سلطاتهم بشيء من القـوة

---

(98) فان سيفرز (المجلة الدولية . . .) مرجع سابق ، ص 262 .

والاستقلال ، ويتمتعون بالثروة والجاه ، ولعل ذلك هو ما أطمعهم في قبول المسؤولية من أيدي أعدائهم . وكان ذلك هو « العصر الذهبي » ، إذا صحّ التعبير ، للارستقراطية (الأجواد والصفوف) الجزائرية في عهد الاستعمار ، وهو العصر نفسه الذي شهد تدهور البرجوازية (أغنياء المدن) كما عرفنا . ولكن منذ 1850 أخذت الزعامات المذكورة (الأرستقراطية) تتضاءل وتتفتت إلى أن أصبحت في الثمانينات أشباحاً فقط لا تأثير لها ولا قوة ، كما سنرى.

لقد كانت الإدارة الإستعمارية في حاجة إلى تلك الأرستقراطية الأهلية فمكّنت لها في الأرض واعترفت لها ببعض الحقوق وتغاضت عن بعض عيوبها ما دامت تقوم بالمهمة الموكلة إليها أو المرجوة منها ، وهي التعاون على كبح المقاومة و « تهدئة » البلاد . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، كما عرفنا . فقد أظهر تقدم العدو في الخمسينات نحو جرجرة والجنوب والتوغل في الأوراس والمناطق الداخلية التي كانت من قبل محرمة عليه ـ أظهر ذلك مدى عنف الوسائل ومدى نوايا العدو في السيطرة والقهر . فلم يجد في أغلب الأحيان ما كان يتوقعه من أصحاب البرانيس الحمراء والنياشين البراقة والسروج الفاخرة (نعني بهم صنائعه من الموظفين الأرستقراطيين) ، ذلك أن بعضهم كان « متواطئاً » مع الثوار كما حدث في جرجرة (قضية سي الجودي) والصحراء (قضية حمزة، خليفة أولاد سيدي الشيخ) ، أو كان محباً للرخاوة والرفاهة والأبهة ، كما كان حال أولاد ابن قانة وأولاد مقران الخ[99] . فلم يمض وقت طويل حتى أخذت تلك الثروة في التبخر وتلك السلطة في الزوال.

وقد كان وراء ذلك عدة عوامل ، منها النزاع الحاد بين المدنيين والعسكريين الذي أشرنا إليه . لقد كان العسكريون يعملون على إضعاف الأرستقراطية الأهلية وذلك بأخذ سلطاتها والتدخل في شؤونها وتقسيم مناطقها بين عدة متنافسين .ولكنّهم لا يرغبون في القضاء عليها نهائياً . لأنها الظل الذي يتبردون فيه من غضب الشعب ،

---

(99) زار بربروجر سنة 1856عدة مناطق بالشرق الجزائري (الحضنة ، الزيبان ، ومجانة) ورجع يقص قصته فقال انه وجد عند أجواد هذه المناطق (أولاد مقران ، شيخ العرب ابن قانة الخ) الرفاهية والثروة والعادات الأرستقراطية ، وأخبر انهم في نظره كانوا يمثلون الإقطاعية التي كانت سائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى .
أنظر مقالته في (المجلة الإفريقية) ، 1858 ، ص 189 .

بل هي الناب الذي ينهشون به لحم السكان عند الحاجة . ثم إن إزالتها قد يعري كل النظام الاستعماري للخطر . هكذا كانت حجة العسكريين . أمّا المدنيون (الكولون) فيرون ان تلك الأرستقراطية عقبة نحو التقدم والحضارة وعرقلة في دمج الجزائر (الفرنسية) في الوطن الأم (فرنسا) فالجزائر في نظرهم جزء لا يتجزأ من فرنسا ، كما نص على ذلك دستور 1848 ، ومن ثمة فإن كل ما يجري في فرنسا من نظم وقوانين يجب أن يسري على الجزائر ، ولا يمكن أن يتم ذلك ما دامت تلك الأرستقراطية الأهلية قائمة وما دام حماتها (المكاتب العربية) يحولون دون ذلك . فالمدنيون كانوا يطالبون بإطلاق أيديهم وأرجلهم وأموالهم في الجزائر لكي يتسلطوا عليها ، أرضاً وشعباً ، ويستغلونها لحماً وعظماً ، ولو أدّى الأمر إلى إخراج أهلها من أملاكهم وأراضيهم وإبعادهم نحو الصحراء القاحلة أو تهجيرهم ، قياساً على ما فعل الأوروبيون مع الهنود الحمر بأمريكا.

وهناك قصص كثيرة تعكس ذلك النزاع في الخمسينات نكتفي منها هنا بفضيحة (دوانو) ، وفضيحة اللقيط يوسف وفورشو . أما الأولى فخلاصتها أن ضابط المكتب العربي بتلمسان قد ثبت عنه قضائياً أنه اغتال الآغا ابن عبد الله ، وأثبت التحقيق أنه قتل أكثر من اثني عشر شخصاً من بينهم امرأة عجوز وطفل عن عشر سنوات ، وانه كان « سلطاناً » يحكم بأمره ، فإذا عارضه أحد في سلطنته فإنه لا يرى نور الصباح . بالإضافة إلى ذلك وجد المحقق عند دوانو أموالاً (قدرت بـ 38,300 فرنك) لم يبح بأصلها . وقد جرت محاكمته في وهران سنة 1856 . وحكم عليه بالموت ثم خفف الحكم إلى المؤبد ، ولكن بعد حوالي سنتين فقط أطلق سراحه. أثناء المحاكمة وقف العسكريون (المكاتب العربية) مع زميلهم « ظالماً أو مظلوماً » ونددوا بمن خالفهم أو وقف ضدهم . أما الكولون (المدنيون) فقد وجدوا في ذلك فرصة لإظهار نقمتهم على نظام المكاتب العربية كله واعتبروه المسؤول عن عدم توفير الأمن لهم في المناطق الأهلية وحملوه مسؤولية فشلهم . وتعتبر قصة دوانو فضيحة للنظام الاستعماري كله إذ طالما تسترت المكاتب العربية على جزائمها ضد الجزائريين . وهي أيضاً فضيحة للكولون المتكالبين على استغلال الإنسان الجزائري إلى أقصى حد ولو بسحقه وتجريده من أرضه . فهي في الواقع قصة كلبين يتقاتلان على عظم واحد ، رغم أن المحامي (فافر Favre) جعل المحاكمة تنصبّ لا على (دوانو)

ولكن على نظام المكاتب العربية كله[100].

أمّا الفضيحة الأخرى فقد وقعت سنة 1858 بعد صدور جريدة (الجزائر الجديدة) التي ذكرناها سابقاً والتي أخذت تتهجم على الجزائريين (الأهالي) وعلى العسكريين (المكاتب العربية) . ومما يذكر ان هجومها المكشوف على هذه المؤسسة الاستعمارية جعل (الجنرال) اللقيط يوسف الشهير بمذابحه ضد المواطنين الجزائريين يتقدم من صاحب الجريدة (وهو فونفيل) ويشبعه ضرباً إلى أن جرحه ، دفاعاً ، في نظره ، على شرف المكاتب العربية التي كان هو أحد زبانيتها . وقد بلغت الفضيحة من الرواج و « الشعبية » أن اضطر البرلمان الفرنسي إلى إدخالها في جدول أعماله ومناقشتها . وعندما كتب أحدهم (هو دو فيرنوا الذي أصبح وزيراً) مقالة يهاجم فيها الماريشال بوجو لدعمه النظام العسكري في الجزائر وتوسيع صلاحيات المكاتب العربية ، كما عرفنا ، طلبه الضابط (فورشو) للمبارزة على طريقة صعاليك العصور الوسطى ، وقد أصابه أثناءها بجروح خطيرة[101] . وهكذا كان النزاع قد أصبح دموياً بين الطرفين خلال الخمسينات ، وسيحتدُ أكثر خلال الستينات ، كما سنرى ، إلى أن تسقط الامبراطورية الثانية فيسقط معها النظام العسكري (ومعه المكاتب العربية) ، على الأقل في الجزائر الشمالية .

12 . المرابطون في الثورة :

إلى 1860 كانت معظم الطرق الصوفية ما تزال في عنفوانها ، قادرة على تجنيد الإخوان (الأتباع) باسم كلمة الجهاد ، وجمع الأموال بإسم الدين ، وحمل السلاح دفاعاً عن الأرض والشرف والإسلام . ونكاد لا نجد حركة مقاومة خلال هذا العهد دون أن يكون وراءها مرابط أو شريف أو مولى الساعة يملأ قلوب الناس بالأمل ، ويبث فيهم روح التضحية والفداء ، ويقودهم إلىٰ النصر أو الاستشهاد . انه عهد كثرت فيه الثورات والانتفاضات على اتساع رقعة الوطن ، ومع ذلك تجد المرابطين

---

(100) بشأن هذه الواقعة أنظر بيرنار (الجزائر) مرجع سابق ، 256 . وكذلك جوليان (تاريخ) مرجع سابق ، 338 .

(101) مذكرات ماكماهون ، مرجع سابق ، 284 .

يتحركون كالضوء وينطلقون كالبرق ليزرعوا الرعب في قلوب الأعداء وليحرموهم من التمتع بالغنيمة التي اعتقدوا أنهم حصلوا عليها ، وليفتحوا للناس أبواب الجنة إذا ما خسروا الحياة الدنيا.

وكان التقسيم التقليدي للطرق الصوفية لا يخرج عن اثنين : عدوة وصديقة ، وليس هناك طريقة محايدة . فهي اما « لنا » أو « علينا » ، كما يقولون . ولا شك أن دراستها أثبتت أن الطرق الصوفية في الجزائر تضعف عندما تقوى السلطة الدنيوية (الزمنية) وتقوى عندما تضعف هذه أو يتعرض الدين للخطر . وكثيراً ما عرف تاريخنا ان المرابطين أصبحوا « أمراء » يقودون الجيوش ويحاربون الأعداء ، ولكنهم في زمن القوة الإسلامية والأمن على الدين تجدهم يعودون إلى معابدهم وزواياهم ينشرون التعليم ويرددون الأذكار والأوراد ، ويتوسعون في إنشاء الفروع وتكثير الأتباع ، وقد يجاملون السلطة « القوية » التي تخطب ودهم للتحالف معهم لدفع ضيم أو فقط اتقاء لشرهم.

هذه الصورة التاريخية لاشك أنها كانت أمام خبراء الفرنسيين في الجزائر . وقد لاحظوا أن معظم الطرق الصوفية قد تعاونت بين 1830 ـ 1848 على صد العدو المشترك : قادرية وطيبية ورحمانية ودرقاوية ، ولم يشذ عندئذ الاّ التجانية التي أعلنت الحياد ، أو بعض الطرق ذات الطابع المدني كالحنصالية التي كانت زعامتها في قسنطينة وما حولها . وقد ظل الوضع على ذلك النحو تقريباً خلال عقد الخمسينات أيضاً . غير أننا نلاحظ في هذا العقد بروز الرحمانية بشكل أكثر كثافة وظهور السنوسية لأول مرة في الميدان . ونحن لا نود أن ندرس الطرق الصوفية هنا من حيث عقائدها ومذاهبها الصوفية وحياتها الدينية والثقافية[102] ، ولكننا نريد فقط أن ندرس دور هذه الطرق في علاقتها بحركة المقاومة ضد العدو ، خصوصاً وقد بقيت هي النظام الوحيد القائم في المجتمع الجزائري بعد سقوط النظام العسكري والاداري.

إذا رجعنا الى الأحداث العسكرية التي ذكرناها وجدنا الطرق الصوفية حاضرة فيها كلها تقريباً . ففي الزعاطشة تذكر معظم المصادر[103] أن الشيخ بوزيان كان من

(102) سنتناول هذا الجانب من الموضوع في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث ، ان شاء الله .
(103) يذكر بعضهم انه كان من أهل المخزن .

المرابطين . والغريب أن المصادر الفرنسية لا تتحدث عن زاوية بوزيان في الزعاطشة ولكن عن داره التي نسفت بالألغام نسفاً . ويبدو لنا أن بوزيان كان رحمانياً من أتباع الشيخ محمد بن عزوز البرجي . والمعروف أن هذا كان من مقدمي الشيخ محمد بن عبد الرحمن باش تارزي شيخ الرحمانية في قسنطينة . وكانت الرحمانية قوية في منطقة الزيبان حيث انتشرت بالخصوص في طولقة والخنقة وأولاد جلال . بالاضافة الى ذلك فإن الأحداث تكشف عن مساندة فروع الطريقة الرحمانية عندئذ للمقاتلين : فهذا الشيخ المختار بن خليفة (أولاد جلال) ، وهذا الشيخ الصادق بن الحاج (الأوراس) ، وهذا الشيخ عبد الحفيظ (الخنقة) كلهم تجندوا على رأس المجاهدين والأخوان في معركة الزعاطشة ، رغم أن المعركة ، كما عرفنا ، لم تكن معركة طريقة صوفية متعصبة ضد مغيرين أجانب ، ولكنها كانت معركة دينية ـ وطنية . والدليل على ذلك وجود الشيخ الحاج موسى الدرقاوي (الطريقة الدرقاوية) الذي جاهد حتى قتل الى جانب بوزيان وعلقت رأسه الى جانب رأسه على معسكر الجنرال هيربيون . أما الزاوية التجانية (فرع تماسين) فلا ندري موقفها بهذه المناسبة ، ولعلها لم تقف الموقف الذي وقفته سنة 1844 على كل حال[104] .

ولكن التجانية كانت محايدة بالنسبة لثورة الجنوب خلال الخمسينات . وقد ظهر ذلك في حصار الأغواط وحوادث ورقلة وتقرت وسوف . فلا نكاد نجد للطريقة التجانية أي دور ايجابي يذكر نحو الثورة التي قادها هناك شريف ورقلة (محمد بن عبد الله) وناصر بن شهرة . وتدعى المصادر الفرنسية أن فروع الطريقة التجانية (عين ماضي وتماسين وفاس) كانت تتنافس فيما بينها تنافساً شديداً مما جعل زعامة الطريقة تقوي أو تضعف هنا أو هناك حسب مقتضيات الضغوط السياسية والقدرة الشخصية للشيخ . وهم يذكرون أن سنة 1853 كانت بداية مرحلة جديدة من هذا التنافس بين زعيمي عين ماضي وتماسين، مما أدى، في نظرهم، إلى إضعافهما معاً لصالح الفرنسيين طبعاً. كان ذلك حين توفي الشيخ محمد الصغير (تولى سنة 1815)

---

(104) يدعى رين (مرابطون . . .) مرجع سابق ، ص 427 ان الحاج علي شيخ التجانية بتماسين أعلن سنة 1844 عند احتلال بسكرة بقيادة الدوق دومال ، أعلن أن ذلك من قضاء الله ونصح بعدم التعرض للفرنسيين ، كما سبق .

وترك ادارة الطريقة إلى الشيخ محمد العيد (من الفرع التماسيني) فحول بذلك الأنظار الى فرع تماسين بدل عين ماضي . أما بالنسبة للخط السياسي فتقول نفس المصادر ، بأنه لم يتغير منذ 1839 وهو تاريخ الارتباط بفرنسا وخدمتها باخلاص[105] . وقد مر بنا أن شيخ زاوية تماسين قد منع شريف ورقلة من دخول المدينة كما عارض التجانيون ثورة الشريف المذكور في سوف وعين ماضي ، ولكنه مع ذلك لم يهاجم مراكزهم حفاظاً على وحدة الصف ، كما قال أحد الكتاب[106] .

ولكن هناك ثلاث طرق صوفية على الأقل أيدت ثورة الجنوب خلال الخمسينات . الأولى هي السنوسية التي عرفنا أن مؤسسها محمد بن علي السنوسي كان له الدور الأكبر في توجيه محمد بن عبد اللّه ـ شريف ورقلة ـ نحو الثورة . ولعل السنوسي هو الذي كان الواسطة أيضاً بين الشريف والعثمانيين . وقد يكون جند له الاتباع وعاونه بالسلاح وبالرسائل ونحوها . فدور السنوسية اذن واضح في ثورة الجنوب . وقد علمنا أن الشيخ السنوسي قد أوصى الشريف خيراً بالسيدة (لاله) زهرة التي يبدو أنها كانت ذات حرمة دينية في تلك النواحي وأنها كانت مرابطة تتبع الطريقة الشيخية ـ طريقة أولاد سيدي الشيخ ، وهي طريقة شاذلية .

وبالاضافة الى ذلك نعلم أن الخليفة حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ ، قد أيد شريف ورقلة في سره وبعض علنه ، حتى لقد اجتمع به في الغسول وفهم أهدافه ولعله أكد له أنه منهم (تذهب بعض الروايات الى أن الشريف نفسه من أولاد سيدي الشيخ أو أنه درس عندهم) ، كما بعث معه الخليفة حمزة أخاه الزبير لكي يكون للشريف عوناً ونصيحاً في المناطق الصحراوية التي لاشك أن الشريف محمد بن عبد اللّه يجهلها . فتعاون الطريقة الشيخية اذن مع الشريف أمر مؤكد ، رغم أن التدخل الفرنسي جعل ذلك التعاون يصبح سرياً أكثر منه علنياً ، اذ انتهى الأمر بتوجيه الاتهام الى الخليفة حمزة نفسه والى استدعائه الى كل من وهران والجزائر حيث بقي تحت الاقامة الجبرية .

وكذلك تعاونت الطريقة الرحمانية مع الشريف المذكور . ففي سوف والزيبان

---

(105) ديبون وكوبلاني (الطرق الصوفية . . .) مرجع سابق ، ص 426 ـ 430 .

(106) آني ري في (الأفارقة) ، م 12 ، مرجع سابق ، ص 199 ـ 221 .

ونفطة (حيث فروع الرحمانية) وجد الشريف مختلف أنواع المساعدة والتأييد. وقد وصل الشريف بحروبه الى مليلي بالزاب . وكان قد لجأ الى زاوية نفطة أكثر من مرة واجتمع بشيخها مصطفى بن عزوز الذي هو أصلاً من برج طولقة والذي كان قد هاجر من الزيبان سنة 1834 أثناء استيلاء الفرنسيين على بسكرة. ولا يهمنا الآن انتشار سمعة العزوزية (الرحمانية) بنفطة ، ولكن يهمنا منها موقفها السياسي[107] ، الذي عبرت عنه في عدة مناسبات أخرى ، كما سنرى . ولا ندري الآن موقف الطريقة الدرقاوية المتمركزة على الخصوص في نواحي الونشريس ، من ثورة الشريف محمد بن عبد اللّه ، والغالب أنها كانت مؤيدة لها أو متعاطفة معها[108] .

أما في جرجرة فالطريقة الرحمانية تكاد تقف وحدها هناك . وإذا حكمنا من سيرة الزعماء الدينيين الذين ظهروا على المسرح عندئذ فإن معظمهم كانوا ينتمون الى هذه الطريقة : الحاج عمر ، للافاطمة الخ . ولا ندري الطريقة الصوفية التي كان ينتمي اليها الشريف محمد الأمجد (بوبغلة) ، ولعله كان ، كالأمير عبد القادر ، فوق الطرق الصوفية كلها ، أي أنه كان يعمل من أجل فكرة أشمل وهي الدين والوطنية . ومع ذلك فقد عرفنا أنه كان يتردد على زاوية ورجة الرحمانية ، وكذلك الزاوية الرحمانية الأم (آيت اسماعيل) ، ومن الأكيد أن تردده هناك لم يكن الا من أجل اكتساب حليف وتنسيق خطة وليس حضوراً في حلقة ذكر أو أخذاً للعهد الصوفي . وها هو الشريف محمد الهاشمي يقدم لنا نموذجاً آخر لتعاون الطرق الصوفية ، اذ تذهب الروايات الفرنسية الى أنه جاء من تافيلالت (المغرب) وأنه كان ينتمي الى الطريقة الطيبية ، طريقة الشيخ الطيب الوزاني ، التي كان ينتمي اليها أيضاً المجاهد بومعزة من قبل . أما الطريقة القادرية فلا نجد لها زعامة في هذه الأثناء إلاّ في

---

(107) نفس المصدر .

(108) يذهب رين (مرابطون . .) مرجع سابق ، ص 241 ، إلى أن الشيخ العربي بن عطية زعيم الدرقاوة في الونشريس كان يعتقد في كلمات شيخه (محمد العربي الدرقاوي) المنادية بعدم طلب الدنيا . والثورة والسياسة ، في نظر رين ، طلب للدنيا وليس ذلك صحيحاً إذا حكمنا من وقائع ثورات الطريقة الدرقاوية في آخر العهد العثماني ، ونضال الحاج موسى الدرقاوي في العهد الفرنسي . وإنما كان رين يريد تخدير الناس فقط . وقد كانت بين الأمير عبد القادر والشيخ العربي بن عطية مراسلات عديدة قد نعرض إليها في كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي ، إن شاء اللّه .

شلاَّطَة . ومن يدري فقد يكون بوبغلة نفسه قادرياً في الأصل . خصوصاً وقد قيل انه أصلاً من الجهة الغربية (العطاف أو غليزان ، حيث القادرية منتشرة) . وهناك بعض الأشراف الآخرين لم نستطع تحديد رأيهم الصوفي مثل شريف تبسة وشريف بني سناسن . ولعل الأول (ابن قديدة) كان من الشابية ، وأما الثاني فقد يكون من أتباع الطريقة الكرزازية التي هي شاذلية أيضاً .

وإذا كنا قد علمنا بمصير للافاطمة ومصير زاويتها الرحمانية فإننا نذكر هنا مصير الحاج عمر وزاويته . بعد أن ظل الحاج عمر شيخ الزاوية الأم يديرها ويجمع أموالها ويستقبل زوارها وينشر فيها التعليم ، حدثت ثورة جرجرة فأثرت على مسيرة الزاوية ، إذ شارك الحاج عمر في الثورة وبالطبع اشترك معه فيها (طلبة) الزاوية . وكان الحاج عمر حاضراً لأحداث الثورة سواء في عهد بوبغلة أو في عهد فاطمة نسومر . وقد طلب الحاج عمر الرخصة من المسؤولين الفرنسيين في الناحية (بوبريطر ، وبيليسييه ، ودوري) للحج والهجرة تاركاً الزاوية كما قال عامرة غنية . وطلب منهم عهد الأمان وحمله إلى الشرق ، كما فعلوا مع من سبقه (لا شك انه كان يشير بذلك إلى أحمد الطيب بن سالم 1847) عن طريق بني غازي ، كما طلب السماح لمن رغب من الاخوان الرحمانيين بالهجرة معه ، ومن هؤلاء زوجته . وقد وجد الحاج عمر معاناة شديدة في الحصول على رخصة الخروج له ولبعض أتباعه . والمهم أن هجرته كانت من نتائج تدخله في الثورة[109] .

وقد وقفت زاوية ابن علي الشريف القادرية (شلاَّطة) موقفاً مختلفاً من ثورة جرجرة . فقد علمنا أن الشيخ محمد السعيد ترك الزاوية وذهب إلى الجزائر أثناء الثورة ، ومنها اتجه إلى فرنسا حيث حصل على نيشان . وتذكر المصادر الفرنسية أن أنصار ابن علي الشريف رفضوا التعاون مع الشريف بوبغلة وانهم في النهاية أطلقوا عليه النار عندما أراد أن يأخذ رهينة من عائلة شيخهم . ويبدو أن موقف هذه الزاوية من ثورة جرجرة كان يشبه موقف التجانية من ثورة الجنوب خلال نفس العهد .

---

(109) أرشيف ايكس ، 11 1H في هذا المصدر رسالتان منه الى المسؤولين الفرسيين ، تعود احداهما الى سنة 1853 ، أي أثناء تورة الشريف بوبغلة . والأخرى بدون تاريخ . عن دور الزاوية الرحمانية أثناء ثورة الشريف بوبغلة وأحداث سنة 1857 انظر روبان (تاريخ الشريف بوبغلة) . وكذلك يحيى بوعزيز (ثورات الجزائر) ، 1980 ، ص 99 .

رأينا اذن كيف أن الطرق الصوفية ، على العموم ، كانت ما تزال في عنفوانها ، وكانت في أغلبها تقود حركة الجهاد ضد الفرنسيين كما كانت تقودها ضد القرصنة الأوروبية والتهجمات الاسبانية خلال العهد العثماني . ولكن الطرق الصوفية لم تكن هي كل شيء ، فالشعب بأكمله كان مستعداً للتضحية والفداء ، وقد دلت الأحداث على انه تحمل في سبيل ذلك ما تأبي الجبال تحمله وانما كان دور الطرق الصوفية إعطاء القيادة وترويج الفكرة وتوحيد الكلمة . اما الحماس الديني والوطني فقد كان قدراً مشتركاً بين الجميع . ولعل اغفال أسماء القادة الأشراف الذين ظهروا في عقد الخمسينات يعتبر أسلوباً جديداً (وان كان المهدي بن تومرت والفاطميون قبله قد استعملوه ولكن بشكل يختلف طبعاً) في كسب ثقة الناس والسيطرة على عقولهم ، إذ لو عرف أصل الزعيم لزالت عنه تلك الهالة التي حظي بها . ولعل هذه السرية في الحرب والإنتشار بين الجماهير قد انتقلت أيضاً إلى العصر الحديث حيث وجدناها واضحة في حرب التحرير 1954 ـ 1962 .

ويبدو أن (رين) كان صادقاً عندما قال ان الحماس الديني (يسميه هو التعصب) لم يكن عند الطرق الصوفية أكثر منه عند بقية المسلمين . ولكنه لم يكن صادقاً ، في نظرنا ، عندما زعم إن الثورات لم تكن بدافع الدين (والوطنية) بل بدوافع سياسية مثل المصلحة الذاتية ، والتنافس ، والتأثر ، والغضب الفردي[110] . والغريب ان (رين) يسمي كل ذلك « غرائز إنسانية » ، ولكنه ينسى تطبيقها على قومه هو . فهل يرضى أن نرد عليه الكرة ونقول له ان ما كان يحرك الفرنسيين في الجزائر حقاً هو تلك « الغرائز » التي ذكرها ، ولم يكن لهم من دوافع أخرى حضارية ونحوها . ومن الجدير بالذكر انه لا يتفق مع زميله (ارنست ميرسييه) على خطورة الطرق الصوفية على النظام الإستعماري . ذلك أن (ميرسييه) يرى (وكان يكتب سنة 1869) ان الطرق الصوفية عدوة لفرنسا بالميلاد ، وأنهم أكثر تعصباً ، وأنهم يشكلون أكبر عقبة في طريق التسلط الفرنسي على البلاد (الجزائر)[111] .

---

(110) رين (مرابطون) مرجع سابق ، ص 113 .

(111) ارنست ميرسييه (روكاي) ، 1869 ، ص 411 ـ 412 . وقد كان (ميرسييه) مترجماً قضائياً ، كما كان (رين) من أبرز المختصين في الشؤون الجزائرية .

إن عهد الخمسينات كان مرحلة مشعة في تاريخ معظم الطرق الصوفية . ولم تنسحب من الميدان أووقفت على الحياد إلا كمشة من هذه الطرق التي فضلت السكون على الحركة وانتظار الخلاص بدل السعي من أجله .

***

13. البعد العربي ـ الإسلامي :

بالإضافة إلى تواصل الطرق الصوفية الذي لاحظناه أثناء الصراع مع العدو ، هناك التواصل الحضاري العربي الإسلامي بين الجزائر والمشرق (وكذلك المغرب وتونس) خلال الخمسينات . ولنحاول فيما يلي تتبع الخطوط العريضة لهذا التواصل . وقد لاحظنا أن فكرة الجهاد كانت لا تعرف الحدود التي كان العدو قد فرضها على الجزائر ، ومن ثمة وجدنا محمد الهاشمي (المغربي) والحاج موسى الدرقاوي (المصري ـ الليبي) . ووجدنا ثواراً من جريد تونس أثناء أحداث تبسة وثواراً من ناحية وجدة المغربية أثناء معارك بني سناسن . ودع عنك هنا ما تردده المصادر الفرنسية من أن ذلك يعد تدخلاً من حكومة هذا البلد أو ذاك ، إذ الغالب أن تلك الحكومة لا تقدر في كثير من الأحيان أن تمنع الناس ، ولا سيما في المناطق الحدودية ، من نجدة بعضهم البعض واللجوء إلى بعضهم البعض . وقد عرفنا أيضاً ما كتبه أحد الكتاب عن الزعاطشة من أن الفرنسيين وجدوا بين الموتى عناصر كثيرة جاءت من المغرب وتونس والمشرق . ورغم ما في ذلك من المبالغة الواضحة والتهويل فإن الفكرة قد تكون صحيحة ، لأننا بينا أن الجهاد لا يعرف الحدود . ومن المجاهدين من كان لا يريد أن يعرف الناس اسمه ولا أصله .

والكاتب الذي يشير إلى العناصر المشرقية في حوادث الزعاطشة يريد أن يؤكد صلة الطريقة السنوسية والحضور العثماني في الحوادث . والمصادر الفرنسية تذهب إلى أن (عزت باشا) والي طرابلس العثماني قد وصلها سنة 1849 ، سنة الثورة . وانه جاء بخطة مرسومة من حكومته وهي إثارة القلاقل لفرنسا في الجزائر ومساعدة الثائرين ضدها . وكانت القنصلية الفرنسية في طرابلس نشيطة في هذه الأثناء تتحسس الأخبار وتبعث بالتقارير ، ومما يذكر أن قنصل فرنسا هناك عندئذ هو بيليسييه دي رينو الذي كان المسؤول على المكتب العربي المركزي في الجزائر (1837 ـ 1839) ،

أي المتخصص في الشؤون العربية ـ الإسلامية . وكان عزت باشا قد اصطحب معه شخصية جزائرية تكن كرهاً شديداً للفرنسيين ، وهو علي رضا أحد أبناء حمدان خوجة . وكانت خطط القنصلية الفرنسية هناك كثيراً ما تصطدم بعرقلات مقصودة من قبل علي رضا ابن حمدان خوجة الذي كانت له مسؤولية رئيسية في دار الوالي العثماني. ولا شك أن من الأمور التي كان عزت باشا مكلفاً بها هي التنسيق مع الشيخ السنوسي فيما يتعلق بالجزائر . وكان الشيخ السنوسي قد حل بالجبل الأخضر والتقى هناك من جديد بالشريف محمد بن عبد الله قبل إعلان الثورة في الجنوب الجزائري .

وهذه العناصر المتشابكة (السنوسية ـ الدولة العثمانية / شخصية علي رضا ـ الشريف) تكشف لنا عن حقيقة ، وهي حضور المشرق في القضية الجزائرية . فالدولة العثمانية ، رغم ضعفها خلال الخمسينات ، كانت ما تزال لها أطماعها في الجزائر التي كانت تشعر أنها فقدتها بالقوة وفي حين غفلة من الدبلوماسية والعسكرية . والسنوسية تشبعت بأفكار الشرق ، ولا سيما الفكر الوهابي وإصلاحات محمد علي والي مصر ، وإصلاحات سلاطين آل عثمان ، وتعقيدات المسألة الشرقية ، واستفادت من كل ذلك من أجل طرح بديل في التصوف الإسلامي عموماً ، واستعمال التصوف سلاحاً سياسياً وعسكرياً ضد خصوم الإسلام من الغربيين (الفرنسيين هنا) الذين تدخلوا بطريقة سافرة وهجومية في شؤون العالم الإسلامي . ولماذا لا يكون الشيخ السنوسي المفكر والشريف محمد بن عبد الله المنفذ لهذه الخطة التي تستهدف أقوى وأشرس تدخل إستعماري في العالم الإسلامي (كانت الجزائر من أوائل البلدان العربية ـ الإسلامية التي احتلت احتلالاً مباشراً ، كما هو معروف) . وكلا الرجلين من بلد واحد ، وهو الجزائر ، بل كلاهما من جهة واحدة ، وكلاهما حج وجاور وتعلم وقارن أحوال الجزائر في ظل الإستعمار الفرنسي بأحوال المسلمين في الدولة العثمانية (ومنها مصر والحجاز) وإيران وأفغانستان الخ .

هكذا إذن علينا أن ننظر إلى الثورة في الجنوب ، فلا نحرمها من البعد العربي ـ الإسلامي ، ولا حتى من البعد الافريقي ، ولا يليق بالباحثين الجزائريين أن ينظروا إلى تلك الثورة على أنها نقطة ماء ضائعة في أرض عطشى أو أنها صفحة ذات حجم صغير في كتاب المقاومة الجزائرية الضخم ، لأن ذنبها أن ميدانها كان « الصحراء » التي تكاد تخلو من السكان . ومهما كان الأمر فإن ليبيا ستستمر كنقطة ارتكاز في

التوجه العربي ـ الإسلامي للثورات والأحداث الجزائرية خلال العقود القادمة أيضاً ، لأن الطريقة السنوسية ستزداد قوة وانتشاراً ولأن ولاية طرابلس العثمانية سيتولاها بعض الوقت ، علي رضا باشا نجل حمدان خوجة ، وستكون لطرابلس عيون مفتوحة على الجزائر .

وقبل أن تنطلق حرب القرم في البحر الأسود بين الدولة العثمانية وروسيا وتدخل فرنسا كحليفة للسلطان ، كان بوبغلة في جرجرة يعد أتباعه بالنصر على يد سلطاني المغرب والدولة العثمانية . إن المغرب لم يتدخل فعلاً عندئذ ولكنه كان قادراً على أن يغض النظر على تسرب الطرق الصوفية « الرسمية » مثل الطيبية والدرقاوية وحتى التجانية لو أراد . ولكن ذلك لم يحدث ، كما نعرف . فقد كانت معاهدة للامغنية (1844) وغيرها من الإرتباطات تمنع المغرب الرسمي من النجدة أما السلطان العثماني فقد علمنا أن ثورة الشريف بوبغلة في جرجرة قد تزامنت تماماً مع ثورة الشريف محمد بن عبد اللّه في الجنوب ، وهي الثورة التي تذهب مختلف المصادر إلى أنها كانت بدعم من الدولة العثمانية . وقد يكون الشريف بوبغلة وصلته أخبار مبالغ فيها من أن الدعم العثماني سيصل إلى جرجرة عن طريق الجنوب فكان وعده لأنصاره صحيحاً في الأساس . ولكن سد أبواب الشمال في وجه الشريف ابن عبد اللّه من قبل السلطات الفرنسية جعلت ذُلك الوعد يتبخر . ومهما كان الأمر فإننا لم نسمع ولم نقرأ أن هناك مزاسلات بين الزعيمين (بوبغلة ومحمد بن عبد اللّه) ولا بين بوبغلة وأية جهة عثمانية . ولعل الأيام تثبت ذلك .

لا نريد أن نتوسع في الحديث عن حرب القرم إلا بالقدر الذي يجعلنا نفهم الموضوع الذي نحن بصدده وهو المقاومة الجزائرية خلال الخمسينات وعلاقتها بأحداث العالم الإسلامي ؛ والجوانب التي تهمنا من هذه الحرب هي : استغلال الفرنسيين لتقاربهم مع السلطان العثماني عندئذ في كسب ود الجزائريين وفهم بعض هؤلاء ، ولا سيما الشريف بوبغلة والشريف محمّد بن عبد اللّه أن فرنسا قد أخرجت بعض قواتها من الجزائر للمشاركة في تلك الحرب ، وربما ظهر لهم ذلك نوع من الجلاء عن الجزائر . أما الجانب الثالث فيبدو أن الدولة العثمانية نفسها قد خففت من عدائها للوجود الفرنسي في الجزائر ولعلها تراجعت عن تأييد الشريف محمد بن عبد اللّه في الجنوب بسبب ذلك .

ومهما كان الأمر فإن الفرنسيين قد استغلوا حرب القرم ، فدعوا الجزائريين إلى المشاركة فيها دفاعاً عن الإسلام وانتصاراً للخلافة . وكان الولاء للخلافة ما يزال قوياً في الجزائر يشهد على ذلك الأدب الشعبي والهجرة إلى اسطانبول ونحوهما . ولا شك أن الفرنسيين قد رخصوا للموظفين الدينيين في المساجد بالحديث عن السلطان والخلافة ، والإشادة بموقف فرنسا نحو الإسلام والدفاع عن السلطان في الشرق . أما من الناحية العسكرية فقد نادت على المتطوعين الجزائريين ، وكونت منهم ومن غيرهم جيشاً يسمى جيش الشرق l'Armée d'Orient ومن القواد الذين شاركوا في هذا الجيش الجنرال بيليسييه الذي أصبح بعد هذه المشاركة مارشالاً بلقب « الدوق دي مالكوف » . وقد قدر عدد المتطوعين الجزائريين بألفي جندي . أما قوة الجيش الفرنسي المشارك كله فهي كالتالي : 24,450 من الفنطازية ، و1,600 فارس ، بالإضافة إلى المشاة والعمال الخ . وقد حمل الجيش أيضاً عدته من المدافع ونحوها . ولكي يشعر نابليون الثالث الجزائريين بالمساواة مع الجيش الفرنسي أعطى الفرقة الجزائرية (الإسلامية) علماً خاصاً بها أيضاً .

وقد أوحت السلطات الفرنسية إلى أنصارها من أهل الحضر بأن يعبروا عن ولائهم لها ، وأن يعبروا عن ذلك الولاء في صورة تساعد الجيش على أداء مهمته وتساعد أيضاً على نشر الهدوء في الداخل . فتحرك أهل الحضر وصنعوا راية للفرقة الجزائرية كتبوا عليها بالعربية عبارات ورموزاً تدل على ولائهم وتمنياتهم وتأييدهم للحرب مع الدولة العثمانية . وهذا نص ما كتبوه على الراية : « إن هذه الراية ستلمع في ميدان النصر ، وستخفق بالنجاح بمعونة الله ، انها من صنع مسلمي الجزائر ، وهي مهداة إلى الجنود الأهالي المشاركين في الفرقة الفرنسية المتوجهة لنجدة الدولة العثمانية ، 1270 / 1854 » وعلى الوجه الآخر من الراية ـ الهدية كتب حضر مدينة الجزائر ما يلي : رسم رمز مدينة الجزائر والنسر الامبراطوري يحمل حرف (N) باللاتينية محاطاً بتاج من أغصان شجر البلوط والزيتون .

وحتى لا يفهم الناقمون الجزائريون على الإستعمار الفرنسي أن فرنسا ستغادر الجزائر أو أنها قد ضعفت أو نحو ذلك من التأويلات ، عمدت تلك السلطات إلى حملة مضادة لتطمين الرأي العام وتفنيد الإشاعات ، واتخذت بعض الإجراءات الهادفة إلى كسب ود الجزائريين . من ذلك أن راندون (الحاكم العام) أوقف

عمليات تجريد الجزائريين من أراضيهم ومنحها إلى الكولون ، وأنشأ لجنة للنظر في شكاوي الجزائريين ، وتحدثت عنه وسائل إعلامه انه أعطى عقود الملكية إلى بعض سكان متيجة . أما المكاتب العربية الساهرة على استتباب الأمن والنظام والتجسس على الجزائريين فقد استعملت جريدة (المبشر) لمحاربة الأفكار المضادة لفرنسا عندئذ ، كما أنها استعملت لهذا الغرض أيضاً كبار الموظفين الإداريين الجزائريين في الأرياف أمثال الخلفاء والباشاغاوات الخ[112] . ويذكر بعض الباحثين أن صدور مرسوم سنة 1854 بإنشاء المجلس الأعلى للقضاء الإسلامي كان يرجع إلى تأثير أحداث حرب القرم وإلى صدور الخط الهومايوني من السلطان عبد المجيد[113] .

إن مهمة الإعلام الفرنسي عندئذ هي خلق رأي عام جزائري يثق في فرنسا ويؤيدها ما دامت « صديقة » للدولة العثمانية . وكان من نتيجة ذلك أيضاً ظهور شعور معاد لروسيا في الجزائر ما دامت روسيا « عدوة » للدولة العثمانية ، ونحن نجد ذلك في بعض كتابات محمد الشاذلي القسنطيني[114] ، وفي الأدب الشعبي الذي ظهر عندئذ مثل قصيدة محمد بن اسماعيل[115] . فقد سجل هذا الشاعر في قصيدته الطويلة الاشادة بفرنسا لمعونتها الدولة العثمانية ، وأظهر الفكرة التي تقول إن قوة الدولة العثمانية هي التي جعلت حتى الكفار ينتصرون لها ويهرعون إليها ، وكذلك أشاد بالسلطان العثماني طبعاً . ولكن ابن إسماعيل لم يتعرض إلى مشاركة الفرقة الجزائرية ، ولا رجوعها ظافرة من الحرب .

ولم تحاول فرنسا الاستفادة من حرب القرم في الجزائر فحسب بل حتى في المشرق العربي والإسلامي بين الجالية الجزائرية أيضاً . فقد أخذت تلمع صورتها هناك وتظهر نفسها نصيرة للمسلمين ، وتحركت سفاراتها في اسطانبول وقنصلياتها في دمشق والقاهرة وجدة تزيد في تلميع الصورة وتتصل بالجزائريين الذين أخذوا يتكاثرون في المشرق بعد الحروب الطويلة ، كما عرفنا . ان قدماء المجاهدين من الجزائريين

(112) انظر أزان (الاحتلال والتهدئة) ، ص 447 .

(113) انظر كريستلو في (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو 1979 ، 35 ـ 39 .

(114) انظر كتابنا عنه (القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني) ، ط . 2 ، 1985 .

(115) نشرها ، مع ترجمة فرنسية ، محمد بن أبي شنب في (المجلة الأفريقية) ، 1906 . ومحمد ابن اسماعيل عاش 1820 ـ 1870 في الجزائر . وقد تجول في المنطقة الوسطى للجزائر .

الذين اختاروا الهجرة نحو المشرق ، والعائلات العلمية والتجارية والسياسية التي اختارت أيضاً الهجرة بين الثلاثينات والأربعينات قد أخذت تستقر وتجد لها في المشرق الإقامة الطيبة رغم بعد الدار . ومنذ أوائل الخمسينات أخذت الهجرة تتدفق نحو المشرق ، خصوصاً بعد رحيل الأمير ووفاة الحاج أحمد . وكان كل مهاجر تقريباً يحمل أضغاناً ضد فرنسا ويلعنها في السرّ والعلانية . فهي التي احتلت البلاد واضطهدت العباد وجنت على الدين الإسلامي وعرقلت تعليم العربية ، ومكنت الكولون من أرض الآباء والأجداد . وقد كان على قناصل فرنسا في المشرق وعملائها التخفيف من حدة هذه العواطف وتحويلها نحو اهتمام آخر مثل حرب القرم ، بل تحويلها إلى ولاء نحو فرنسا إذا أمكن .

ولذلك لا نستغرب أن نجد مجاهدي الجزائر بالأمس يسارعون إلى الدفاع عن الدولة العثمانية لا ولاء لفرنسا ولكن دفاعاً عن الخلافة والإسلام . وقد وجدنا مصادر تتحدث عن تكوين فرق من الجزائريين بالمشرق لتلك المهمة . ومن الشخصيات البارزة التي هبت للمشاركة في الحرب المذكورة ، أحمد الطيب بن سالم ، خليفة الأمير السابق على بلاد القبائل ، وكان الخليفة ابن سالم قد استقر في الحجاز منذ 1847 . فقد وجدنا له رسالة بعث بها من الشام إلى الحاكم العام الفرنسي (راندون) بالجزائر يخبره أنه سينضم إلى القوات العربية المتوجهة إلى القرم ، وان هناك فرقاً من المتطوعة قد سبقته . وهو في هذه الرسالة يشيد بموقف فرنسا من الدولة العثمانية[116] . ولعل من بين المشاركين أيضاً قدور بن رويلة ، كاتب الأمير السابق ، وآخرون من صناديد الأمس . وقد عرفنا أن بومعزة أحد أبطال حوادث الظهرة سنة 1845 والذي كان سجيناً بفرنسا منذ 1847 قد أطلق سراحه وحارب في القرم واستشهد هناك ، حسب بعض الروايات .

وما دمنا نتحدث عن دور الهجرة الجزائرية في أحداث المشرق ، فلنقل ان الجزائريين قد اشتركوا هناك أيضاً في الحياة العلمية والسياسية العامة . فقد كان ابن العنابي مفتياً بالإسكندرية وكان له شأن وتأثير في الحياة السياسية والدينية . وكان ابن الكبابطي في الإسكندرية أيضاً يقرىء الحديث ويفتي الناس . وكلاهما كان قد نفي

---

(116) حوالي 1854 ، ارشيف ايكس 1 H 11 . والرسالة موجودة بنصها العربي ومعه ترجمة فرنسية

من الجزائر ، كما عرفنا ، الأول على يد كلوزيل والثاني على يد بوجو[117] . وقد أصبحت الشام تعج برفقاء الأمير عبد القادر الذين سبقوه إليها أو الذين مشوا معه إليها بعد تطوافه بأمبواز (فرنسا) وبروسة (الدولة العثمانية) . ومن أبرز الذين أصبحوا مدرسين، مصطفى بن التهامي (صهر الأمير) وصالح السمعوني (والد الشيخ طاهر الجزائري) . فكلاهما حل بدمشق خلال الخمسينات وكان من شيوخ الجامع الأموي . والمعروف ان نابليون الثالث قد أطلق سراح الأمير في شهر ديسمبر سنة 1852 ، وبعد إقامة دامت أكثر من سنتين بين اسطانبول وبروسة ، حل الأمير سنة 1855 بدمشق أيضاً واستقر بها ، وأخذ هو أيضاً يدرس ويؤلف ويؤثر في الحياة السياسية . ومما يذكر أن الأمير كان موجوداً أثناء عمليات تجنيد الجزائريين في المشرق لصالح حرب القرم ، كما أنه توجه بعد نهاية هذه الحرب إلى فرنسا لتهنئة نابليون الثالث ، كما سبق له تهنئة السلطان عبد المجيد على انتصار الخلافة .

وفي هذه الأثناء أيضاً قام الأمير بعملين بارزين مسجلاً اسمه في سجل الانسانيين والأبطال . الأول السعي لدى القيصر نقولا الأول ونابليون الثالث على تحرير الزعيم شمويل الداغساني من سجون روسيا حتى نجح في ذلك ، وقد جاء الشيخ شمويل إلى الحجاز حيث قضى حياته في العبادة . أما العمل الثاني الذي أخذ شهرة أوسع من الأول فهو وقوف الأمير سنة 1860 ضد فتنة أهلية كاد يذهب ضحيتها آلاف المسيحيين في بلاد الشام . والمعروف أن الأمير قد جنّد عندئذ جيشاً من المغاربة (الجزائريين) الذين هاجروا معه أو قبله إلى هناك ، ووقف بهم في وجه المهاجمين ، وحمى المهددين في داره وأملاكه بالسلاح . وقد استحق على ذلك شكر ملوك ورؤساء دول العالم (ومنهم السلطان عبد العزيز العثماني الذي خلف عبد المجيد) والإشادة به من قبل الجمعيات العلمية والمؤسسات الخيرية[118] .

---

(117) لا نعرف أن ابن الكبابطي قد قام بدور سياسي أثناء وجوده في المشرق . أما ابن العنابي فقد أثر بالكتاب الذي ألفه حول المذاهب الأربعة وسماه (صيانة الرياسة) وهو الكتاب الذي أثار ضده أصحاب المصالح من رجال الدين وسعوا بصاحبه عند الخديوي عباس فغضب عليه وأبطل العمل بكتاب ابن العنابي ، وذلك قبل وفاته سنة 1850 . انظر ط 2 من كتابنا (رائد التجديد الإسلامي) ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1990 . وهوعن ابن العنابي .

(118) انظر تفاصيل ذلك في كتاب شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر) ، ط. 2 ، الجزائر ، 1983

اننا لا نريد التوسع في هذا المجال . وحسبنا التذكير بأن عقد الخمسينات في الجزائر كان مرحلة هامة في تاريخها على المستوى المحلي والعربي ـ الإسلامي . فهي لم تلق السلاح في جرجرة والجنوب ، إذ ما يزال الجيل الذي تكون في مدرسة الأمير عبد القادر البطولية يخوض الثورة ضد الفرنسيين في كل القطر ، مع تفاوت طبعاً في الحدة والإنتشار . كما ان الطرق الصوفية كانت وراء معظم تلك الثورات . ومع ذلك فإن السلطة الفرنسية كانت تشدد قبضتها على البلاد مستعينة بجيش من المرتزقة ، ومن الكولون ، ومن رجال الكهنوت . ومن جهة أخرى كانت الجالية الجزائرية في المشرق تساهم في الحياة السياسية والعلمية والاقتصادية ، ولكنها لم تنس وطنها المغتصب ، فاستمرت تهفو إليه بالحنين ، وتعمل مع كل الحركات والافراد الذين يمكن أن يساعدوا على تحريره من قريب أو بعيد . مثل تأييدهم للدولة العثمانية ، ولثورة الشريف محمد بن عبد اللّه.

ومهما كان الأمر فإنه لم يحن عقد الستينات حتى شهدت الجزائر موجة جديدة من الثورات ، وممارسات جديدة من العنف والقهر ، يضاف إلى ذلك النكبات الطبيعية . وقد تميّز هذا العقد أيضاً بنوع غريب من السياسة الاستعمارية يعرف بسياسة المملكة العربية ، وبصراع جديد بين الكولون والعسكريين واستغلال رجال الكنيسة لكل ذلك من أجل دعم وجودهم . وقد اختتم عقد الستينات بسقوط الامبراطورية الثانية في فرنسا واندلاع ثورة عظيمة في الجزائر . وذلك كله هو موضوع الفصل التالي .

انتهيت منه يوم السبت الساعة الرابعة والنصف ،
يوم 25 يوليو ، 1987 .
ـ والحمد للّه رب العالمين ـ

مراجع الفصل الرابع

آني ، ري ـ موسوعة الأفارقة ، إشراف ش.أ. جـوليان ، ج 12 عن حيـاة شريف ورقلة محمد بن عبد الله.

إبن أبي شنب ، محمد ـ شعر محمد بن اسماعيل في حرب القرم ، (م.إ.) عدد 51 ، 1906 .

إبن العنابي ، محمد ـ صيانة الرياسة ، (مخطوط) .

آذان ، بول ـ الاحتلال والتهدئة ، باريس ، 1931 .

انغلز ، فريدريك ـ عن واقع الجزائر بعد هزيمة الأمير في جريدة (نورثرن ستار) ، في كتابنا أبحاث وآراء ، جـ1 ، ط 3 . بيروت ، 1990 .

اوميرا ـ عن الأملاك الحضرية في الجزائر ، في (م.إ.) ، عدد 41 ، 1898 .

ايسكير ، غبريال ـ عن بداية الصحافة في الجزائر ، في (م.إ.) ، 1929 .

باربور ، نيفيل ـ مدخل إلى شمال غرب إفريقية ، ط 2 ، لندن ، 1962 .

بـاريزي (جـورنال) . ارشيف ايكس 10 H 76 . وفيـه أيضاً جـورنال آخـر كتبه بريتزال.

بلاكسلي ، جوزيف ـ أربعة أشهر في الجزائر ، لندن(؟) .

بـوعزيز ، يحيى ـ ثورات الجزائر ، 1980 .

بربروجر ، ادريان ـ (م.إ.) 1858 . عن جولة له في الشرق الجزائري .

بيرك ، جاك ـ كتابات حول الجزائر ، باريس 1985 (مجموع لكتابـات والده عن الجزائر) .

بيرم ، محمد الخامس ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ط. القاهرة ، 1884 .

برينار ، اوغسطن ـ الجزائر ، باريس ، 1929 .

تشرشل ، شارل هنري ـ حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة سعد اللّه ، ط. 2 ، 1982 .
جوليان ، شارل اندري ـ تاريخ الجزائر المعاصر ، 1964 .
دوتيه ـ عن الصوامع والآذان في (م.إ.) ، عدد 43 ، 1899 .
دوماس ، يوجين ـ العادات والتقاليد الجزائرية . ط. 2 ، 1855 .
دوماس ، يوجين ـ المرأة العربية ، 1912 .
ديبون وكوبولاني ـ (الطرق الصوفية الإسلامية) ، 1897 .
روبان ـ تاريخ الشريف بوبغلة ، 1884 . (أيضاً مقالات في (م.إ.)) .
(روكاي) سنة 1930 ، من سجلات قائد البلاد بقسنطينة .
ريبو ، ف ـ عن رؤوس بعض زعماء الثورات وحملها إلى فرنسا ، في (م.إ.) ، عدد 30 1886 .
رين ، لويس ـ مرابطو واخوان ، الجزائر 1886 .
سعد اللّه ـ أبحاث وآراء ، جـ3 .ط . بيروت 1990 .
سعد اللّه ـ القاضي الأديب : الشاذلي القسنطيني ، ط. 2 ، 1985 .
سيروكا ـ الجنوب القسنطيني . . . في (م.إ.) ، عدد 56 ، 1912 .
سيفرز، بيترفان ـ عن الزعامات الأهلية في ظل الإدارة الاستعمارية ، (مجلة الشرق الأوسط الدولية) عدديوليو ، 1975..
سي يوسف ، محمد ـ دبلوم عن حياة بوبغلة ونشاطه في بلاد القبائل ، جامعة الجزائر ، 1981 ، مخطوط .
سي يوسف ، محمد ـ مقالة نقدية لكتاب الطاهر أو صديق بعنوان بوبغلة ـ مرقون .
غفريل ، بول ـ الجزائر المحتلة ، باريس ، 1883 .
فرج ، محمد الصغير ـ عن حياة فاطمة نسومر (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو 1979 .
فيليب ، ف. ـ المراحل الصحراوية ،(؟).
قيون (الدكتور) ـ رحلة من الجزائر إلى الزيبان ، الجزائر ، 1852 .
كور ، اوغست ـ ملاحظات عن مجموع الرسائل العربية لشارل فيرو ، في (م.إ.) ، عدد 58 ، 1914 .

كـريستلو ، الان ـ عن القضاء الإسـلامي في الجزائـر والإجراءات الاستعمـارية ، (المجلة التاريخية المغربية) ، يوليو ، 1979 .

مارسييه ـ مؤتمر علماء شمال افريقية ، 2 ، باريس ، 1908 .

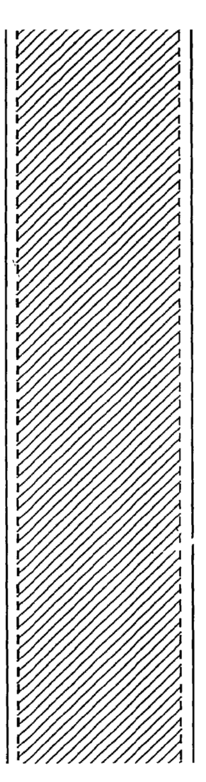
ماكماهون (المارشال) ـ مذكرات ، باريس 1932 .

مانجان ، إ ـ تاريخ الأغواط ، مقالات في (م.إ.) ، عدد 37 وما بعده .

مذكرة الولاية العامة بالجزائر ، الجزائر 1885 .

موريل ، ج. ـ الجزائر ، لندن 1854 .

هيربيون (الجنرال) ـ قصة حصار الزعاطشة ، باريس 1863 .



الفهارس

فهرس الأسماء والأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ث، ج -

- ح -

- خ -

- د -

ـ ر ـ

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق، ك -

- ل -

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

***

فهرس الأماكن والبلدان

- ب -

ـ ت ـ

- ج -

-ح-

-خ-

-د-

-ر، ز-

- ش -

- ص -

- ط، ظ -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *

الفهرس

الفهارس



بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P :113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم :	1992-1-2000-206
التنضيد:	سامو برس - بيروت
الطباعة:	دار صادر - بيروت

Aboul-Kassem Saadallaah
Université d'Alger

LE MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN 1900-1930

Tome I





DAR AL - GHARB AL - ISLAMI
1992

ABOUL-KASSEM SAADALLAAH

LE MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN
1830 - 1900

TOME I
*



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI